



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغلام



ارحم الراحمين
عليهم يا صابغ

www.ghaemiyeh.com
www.ghaemiyeh.org
www.ghaemiyeh.net
www.ghaemiyeh.ir

مكتبة المصطفى

بمكة المكرمة

الطبعة الأولى

المجلد الأول



دار المصطفى

بمكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مختصر الميزان فى تفسير القرآن

كاتب:

محمد حسين طباطبايى

نشرت فى الطباعة:

سازمان حج و اوقاف امور خيريه - اسوه

رقمى الناشر:

مركز القائميئ باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
٢٢	مختصر الميزان فى تفسير القرآن المجلد ١
٢٢	اشاره
٢٢	اشاره
٢٤	بحث حول الأساليب التفسيريه المختلفه
٢٥	الأسلوب التفسيرى الصحيح
٢٦	الميزان فى تفسير القرآن
٢٧	مختصر الميزان فى تفسير القرآن
٣٣	مميزات هذا الكتاب
٤٣	مقدمه الميزان فى تفسير القرآن
٦١	سوره الحمد و هى سبع آيات
٦١	[سوره الفاتحه (١): الآيات ١ الى ٥]
٦١	اشاره
٦١	بيان:
٦١	اشاره
٦٩	بحث روائى:
٧١	بحث فلسفى:
٧٤	[سوره الفاتحه (١): الآيات ٦ الى ٧]
٧٤	اشاره
٧٥	بيان:
٨٥	بحث روائى:
٨٩	بحث آخر روائى:
٩٢	سوره البقره و هى مائتان و ست و ثمانون آيه
٩٢	اشاره

٩٢ [سوره البقره (٢): الآيات ١ الى ٥]

٩٢ اشاره

٩٢ بيان:

٩٦ [سوره البقره (٢): الآيات ٦ الى ٧]

٩٦ اشاره

٩٧ بيان:

٩٨ [سوره البقره (٢): الآيات ٨ الى ٢٠]

٩٨ اشاره

٩٩ بيان:

١٠٠ [سوره البقره (٢): الآيات ٢١ الى ٢٥]

١٠٠ اشاره

١٠١ بيان:

١٠٤ [سوره البقره (٢): الآيات ٢٦ الى ٢٧]

١٠٤ اشاره

١٠٤ بيان:

١٠٦ [سوره البقره (٢): الآيات ٢٨ الى ٢٩]

١٠٦ اشاره

١٠٦ بيان:

١٠٨ [سوره البقره (٢): الآيات ٣٠ الى ٣٣]

١٠٨ اشاره

١٠٩ بيان:

١١٢ [سوره البقره (٢): آيه ٣٤]

١١٢ اشاره

١١٢ بيان:

١١٤ [سوره البقره (٢): الآيات ٣٥ الى ٣٩]

١١٤ اشاره

بيان: ١١٤

[سوره البقره (٢): الآيات ٤٠ الى ٤٤] ١٢٣

اشاره ١٢٣

بيان: ١٢٤

[سوره البقره (٢): الآيات ٤٥ الى ٤٦] ١٢٤

اشاره ١٢٤

بيان: ١٢٤

[سوره البقره (٢): الآيات ٤٧ الى ٤٨] ١٢٤

اشاره ١٢٤

بيان: ١٢٤

[سوره البقره (٢): الآيات ٤٩ الى ٤١] ١٣٠

اشاره ١٣٠

بيان: ١٣٢

[سوره البقره (٢): آيه ٤٢] ١٣٤

اشاره ١٣٤

بيان: ١٣٤

[سوره البقره (٢): الآيات ٤٣ الى ٧٤] ١٣٥

اشاره ١٣٥

بيان: ١٣٤

[سوره البقره (٢): الآيات ٧٥ الى ٨٢] ١٤١

اشاره ١٤١

بيان: ١٤٢

[سوره البقره (٢): الآيات ٨٣ الى ٨٨] ١٤٤

اشاره ١٤٤

بيان: ١٤٥

[سوره البقره (٢): الآيات ٨٩ الى ٩٣] ١٤٨

١٤٨ اشاره

١٤٨ بيان:

١٥٠ [سوره البقره (٢): الآيات ٩٤ الى ٩٩]

١٥٠ اشاره

١٥٠ بيان:

١٥٤ [سوره البقره (٢): الآيات ١٠٠ الى ١٠١]

١٥٤ اشاره

١٥٤ بيان:

١٥٥ [سوره البقره (٢): الآيات ١٠٢ الى ١٠٣]

١٥٥ اشاره

١٥٥ بيان:

١٦٠ [سوره البقره (٢): الآيات ١٠٤ الى ١٠٥]

١٦٠ اشاره

١٦٠ بيان:

١٦٣ [سوره البقره (٢): الآيات ١٠٦ الى ١٠٧]

١٦٣ اشاره

١٦٣ بيان:

١٦٦ [سوره البقره (٢): الآيات ١٠٨ الى ١١٥]

١٦٦ اشاره

١٦٧ بيان:

١٦٩ [سوره البقره (٢): الآيات ١١٦ الى ١١٧]

١٦٩ اشاره

١٦٩ بيان:

١٧١ [سوره البقره (٢): الآيات ١١٨ الى ١١٩]

١٧١ اشاره

١٧١ بيان:

١٧٢ [سوره البقره (٢): الآيات ١٢٠ الى ١٢٣] -

١٧٢ اشاره

١٧٣ بيان:

١٧٤ [سوره البقره (٢): آيه ١٢٤] -

١٧٤ اشاره

١٧٤ بيان:

١٨٤ [سوره البقره (٢): الآيات ١٢٥ الى ١٢٩] -

١٨٤ اشاره

١٨٥ بيان:

١٨٩ [سوره البقره (٢): الآيات ١٣٠ الى ١٣٤] -

١٨٩ اشاره

١٩٠ بيان:

١٩٣ [سوره البقره (٢): الآيات ١٣٥ الى ١٤١] -

١٩٣ اشاره

١٩٤ بيان:

١٩٩ [سوره البقره (٢): الآيات ١٤٢ الى ١٥١] -

١٩٩ اشاره

٢٠١ بيان:

٢١٢ [سوره البقره (٢): آيه ١٥٢] -

٢١٢ اشاره

٢١٢ بيان:

٢١٤ [سوره البقره (٢): الآيات ١٥٣ الى ١٥٧] -

٢١٤ اشاره

٢١٥ بيان:

٢٢١ [سوره البقره (٢): آيه ١٥٨] -

٢٢١ اشاره

٢٢١ بيان:

٢٢٣ [سوره البقره (٢): الآيات ١٥٩ الى ١٦٢]

٢٢٣ اشاره

٢٢٣ بيان:

٢٢٦ [سوره البقره (٢): الآيات ١٦٣ الى ١٦٧]

٢٢٦ اشاره

٢٢٧ بيان:

٢٣٧ [سوره البقره (٢): الآيات ١٦٨ الى ١٧١]

٢٣٧ اشاره

٢٣٧ بيان:

٢٤٠ [سوره البقره (٢): الآيات ١٧٢ الى ١٧٦]

٢٤٠ اشاره

٢٤١ بيان:

٢٤٢ [سوره البقره (٢): آيه ١٧٧]

٢٤٢ اشاره

٢٤٣ بيان:

٢٤٤ [سوره البقره (٢): الآيات ١٧٨ الى ١٧٩]

٢٤٤ اشاره

٢٤٤ بيان:

٢٤٦ [سوره البقره (٢): الآيات ١٨٠ الى ١٨٢]

٢٤٦ اشاره

٢٤٦ بيان:

٢٤٧ [سوره البقره (٢): الآيات ١٨٣ الى ١٨٥]

٢٤٧ اشاره

٢٤٨ بيان:

٢٥٥ [سوره البقره (٢): آيه ١٨٦]

٢٥٥ اشاره

٢٥٥ بيان:

٢٥٥ اشاره

٢٦٠ بحث روائى:

٢٧٠ [سوره البقره (٢): آيه ١٨٧]

٢٧٠ اشاره

٢٧٠ بيان:

٢٧٤ [سوره البقره (٢): آيه ١٨٨]

٢٧٤ اشاره

٢٧٤ بيان:

٢٧٦ [سوره البقره (٢): آيه ١٨٩]

٢٧٦ اشاره

٢٧٦ بيان:

٢٧٨ [سوره البقره (٢): الآيات ١٩٠ الى ١٩٥]

٢٧٨ اشاره

٢٧٩ بيان:

٢٨٤ [سوره البقره (٢): الآيات ١٩٦ الى ٢٠٣]

٢٨٤ اشاره

٢٨٥ بيان:

٢٩٣ [سوره البقره (٢): الآيات ٢٠٤ الى ٢٠٧]

٢٩٣ اشاره

٢٩٣ بيان:

٢٩٧ [سوره البقره (٢): الآيات ٢٠٨ الى ٢١٠]

٢٩٧ اشاره

٢٩٧ بيان:

٣٠١ [سوره البقره (٢): الآيات ٢١١ الى ٢١٢]

٣٠١ اشاره

٣٠١ بيان:

٣٠٢ [سوره البقره (٢): آيه ٢١٣]

٣٠٢ اشاره

٣٠٣ بيان:

٣٠٨ [سوره البقره (٢): آيه ٢١٤]

٣٠٨ اشاره

٣٠٨ بيان:

٣١٠ [سوره البقره (٢): آيه ٢١٥]

٣١٠ اشاره

٣١١ بيان:

٣١٢ [سوره البقره (٢): الآيات ٢١٦ الى ٢١٨]

٣١٢ اشاره

٣١٢ بيان:

٣١٦ [سوره البقره (٢): الآيات ٢١٩ الى ٢٢٠]

٣١٦ اشاره

٣١٦ بيان:

٣٢١ [سوره البقره (٢): آيه ٢٢١]

٣٢١ اشاره

٣٢١ بيان:

٣٢٣ [سوره البقره (٢): الآيات ٢٢٢ الى ٢٢٣]

٣٢٣ اشاره

٣٢٣ بيان:

٣٢٨ [سوره البقره (٢): الآيات ٢٢٤ الى ٢٢٧]

٣٢٨ اشاره

٣٢٨ بيان:

٣٣١ [سوره البقره (٢): الآيات ٢٢٨ الى ٢٤٢] -

٣٣١ اشاره

٣٣٤ بيان:

٣٥٠ [سوره البقره (٢): آيه ٢٤٣] -

٣٥٠ اشاره

٣٥٠ بيان:

٣٥١ [سوره البقره (٢): الآيات ٢٤٤ الى ٢٥٢] -

٣٥١ اشاره

٣٥٣ بيان:

٣٥٩ [سوره البقره (٢): الآيات ٢٥٣ الى ٢٥٤] -

٣٥٩ اشاره

٣٥٩ بيان:

٣٦٣ [سوره البقره (٢): آيه ٢٥٥] -

٣٦٣ اشاره

٣٦٣ بيان:

٣٧٣ [سوره البقره (٢): الآيات ٢٥٦ الى ٢٥٧] -

٣٧٣ اشاره

٣٧٣ بيان:

٣٧٩ [سوره البقره (٢): الآيات ٢٥٨ الى ٢٦٠] -

٣٧٩ اشاره

٣٨٠ بيان:

٣٩٣ [سوره البقره (٢): الآيات ٢٦١ الى ٢٧٤] -

٣٩٣ اشاره

٣٩٥ بيان:

٤١٠ [سوره البقره (٢): الآيات ٢٧٥ الى ٢٨١] -

٤١٠ اشاره

٤١١ بيان:

٤١٨ [سوره البقره (٢): الآيات ٢٨٢ الى ٢٨٣]

٤١٨ اشاره

٤١٩ بيان:

٤٢٠ [سوره البقره (٢): آيه ٢٨٤]

٤٢٠ اشاره

٤٢٠ بيان:

٤٢٣ [سوره البقره (٢): الآيات ٢٨٥ الى ٢٨٦]

٤٢٣ اشاره

٤٢٣ بيان:

٤٣٠ سوره آل عمران مدنيه و هي مائتا آيه

٤٣٠ اشاره

٤٣٠ [سوره آل عمران (٣): الآيات ١ الى ٦]

٤٣٠ اشاره

٤٣٠ بيان:

٤٣٧ [سوره آل عمران (٣): الآيات ٧ الى ٩]

٤٣٧ اشاره

٤٣٨ بيان:

٤٤٤ [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٠ الى ١٨]

٤٤٤ اشاره

٤٤٥ بيان:

٤٥٨ [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٩ الى ٢٥]

٤٥٨ اشاره

٤٥٩ بيان:

٤٦٥ [سوره آل عمران (٣): الآيات ٢٦ الى ٢٧]

٤٦٥ اشاره

٤٦٥ بيان:

٤٦٩ [سوره آل عمران (٣): الآيات ٢٨ الى ٣٢]

٤٦٩ اشاره

٤٧٠ بيان:

٤٧٨ [سوره آل عمران (٣): الآيات ٣٣ الى ٣٤]

٤٧٨ اشاره

٤٧٨ بيان:

٤٧٩ [سوره آل عمران (٣): الآيات ٣٥ الى ٤١]

٤٧٩ اشاره

٤٨٠ بيان:

٤٩٠ [سوره آل عمران (٣): الآيات ٤٢ الى ٤٠]

٤٩٠ اشاره

٤٩٢ بيان:

٥١٣ [سوره آل عمران (٣): الآيات ٤١ الى ٤٣]

٥١٣ اشاره

٥١٣ بيان:

٥١٣ اشاره

٥١٧ بحث روائى:

٥٣٤ [سوره آل عمران (٣): الآيات ٤٤ الى ٧٨]

٥٣٤ اشاره

٥٣٧ بيان:

٥٥٢ [سوره آل عمران (٣): الآيات ٧٩ الى ٨٠]

٥٥٢ اشاره

٥٥٢ بيان:

٥٥٧ [سوره آل عمران (٣): الآيات ٨١ الى ٨٥]

٥٥٧ اشاره

٥٥٨ بيان:

٥٦٣ [سوره آل عمران (٣): الآيات ٨٦ الى ٩١]

٥٦٣ اشاره

٥٦٣ بيان:

٥٦٦ [سوره آل عمران (٣): الآيات ٩٢ الى ٩٥]

٥٦٦ اشاره

٥٦٦ بيان:

٥٦٩ [سوره آل عمران (٣): الآيات ٩٦ الى ٩٧]

٥٦٩ اشاره

٥٧٠ بيان:

٥٧٣ [سوره آل عمران (٣): الآيات ٩٨ الى ١٠١]

٥٧٣ اشاره

٥٧٤ بيان:

٥٧٥ [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٠٢ الى ١١٠]

٥٧٥ اشاره

٥٧٦ بيان:

٥٨٥ [سوره آل عمران (٣): الآيات ١١١ الى ١٢٠]

٥٨٥ اشاره

٥٨٦ بيان:

٥٩١ [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٢١ الى ١٢٩]

٥٩١ اشاره

٥٩٢ بيان:

٥٩٧ [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٣٠ الى ١٣٨]

٥٩٧ اشاره

٥٩٨ بيان:

٦٠١ [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٣٩ الى ١٤٨]

٦٠١ اشارة

٦٠٢ بيان:

٦٠٩ [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٤٩ الى ١٥٥]

٦٠٩ اشارة

٦١١ بيان:

٦٢٠ [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٥٦ الى ١٦٤]

٦٢٠ اشارة

٦٢١ بيان:

٦٢٥ [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٦٥ الى ١٧١]

٦٢٥ اشارة

٦٢٦ بيان:

٦٣٠ [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٧٢ الى ١٧٥]

٦٣٠ اشارة

٦٣٠ بيان:

٦٣٣ [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٧٦ الى ١٨٠]

٦٣٣ اشارة

٦٣٤ بيان:

٦٣٦ [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٨١ الى ١٨٩]

٦٣٦ اشارة

٦٣٧ بيان:

٦٣٩ [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٩٠ الى ١٩٩]

٦٣٩ اشارة

٦٤٠ بيان:

٦٤٣ [سوره آل عمران (٣): آيه ٢٠٠]

٦٤٣ اشارة

٦٤٣ بيان:

سوره النساء مدنيه و هى مائه و ست و سبعون آيه ٦٤٥

اشاره ٦٤٥

[سوره النساء (٤): آيه ١] ٦٤٥

اشاره ٦٤٥

بيان: ٦٤٥

[سوره النساء (٤): الآيات ٢ الى ٦] ٦٥١

اشاره ٦٥١

بيان: ٦٥١

[سوره النساء (٤): الآيات ٧ الى ١٠] ٦٥٩

اشاره ٦٥٩

بيان: ٦٥٩

[سوره النساء (٤): الآيات ١١ الى ١٤] ٦٦٣

اشاره ٦٦٣

بيان: ٦٦٤

[سوره النساء (٤): الآيات ١٥ الى ١٦] ٦٧٠

اشاره ٦٧٠

بيان: ٦٧٠

[سوره النساء (٤): الآيات ١٧ الى ١٨] ٦٧٣

اشاره ٦٧٣

بيان: ٦٧٣

[سوره النساء (٤): الآيات ١٩ الى ٢٢] ٦٨٠

اشاره ٦٨٠

بيان: ٦٨٠

[سوره النساء (٤): الآيات ٢٣ الى ٢٨] ٦٨٤

اشاره ٦٨٤

بيان: ٦٨٥

- ٧٠١ [سوره النساء (٤): الآيات ٢٩ الى ٣٠]
- ٧٠١ اشاره
- ٧٠١ بيان:
- ٧٠٤ [سوره النساء (٤): آيه ٣١]
- ٧٠٤ اشاره
- ٧٠٥ بيان:
- ٧٠٦ [سوره النساء (٤): الآيات ٣٢ الى ٣٥]
- ٧٠٦ اشاره
- ٧٠٧ بيان:
- ٧١٤ [سوره النساء (٤): الآيات ٣٦ الى ٤٢]
- ٧١٤ اشاره
- ٧١٥ بيان:
- ٧١٩ [سوره النساء (٤): آيه ٤٣]
- ٧١٩ اشاره
- ٧١٩ بيان:
- ٧٢٠ [سوره النساء (٤): الآيات ٤٤ الى ٥٨]
- ٧٢٠ اشاره
- ٧٢٢ بيان:
- ٧٤٤ [سوره النساء (٤): الآيات ٥٩ الى ٧٠]
- ٧٤٤ اشاره
- ٧٤٦ بيان:
- ٧٥٧ [سوره النساء (٤): الآيات ٧١ الى ٧٦]
- ٧٥٧ اشاره
- ٧٥٨ بيان:
- ٧٦٢ [سوره النساء (٤): الآيات ٧٧ الى ٨٠]
- ٧٦٢ اشاره

٧٦٣ بيان:

٧٦٤ [سوره النساء (٤): الآيات ٨١ الى ٨٤]

٧٦٤ اشاره

٧٦٤ بيان:

٧٧٢ [سوره النساء (٤): الآيات ٨٥ الى ٩١]

٧٧٢ اشاره

٧٧٤ بيان:

٧٧٤ [سوره النساء (٤): الآيات ٩٢ الى ٩٤]

٧٧٤ اشاره

٧٧٧ بيان:

٧٨٠ [سوره النساء (٤): الآيات ٩٥ الى ١٠٠]

٧٨٠ اشاره

٧٨١ بيان:

٧٨٧ [سوره النساء (٤): الآيات ١٠١ الى ١٠٤]

٧٨٧ اشاره

٧٨٨ بيان:

٧٩٢ [سوره النساء (٤): الآيات ١٠٥ الى ١٢٦]

٧٩٢ اشاره

٧٩٤ بيان:

٨١٢ بيان:

٨١٩ [سوره النساء (٤): آيه ١٣٥]

٨١٩ اشاره

٨١٩ بيان:

٨٢١ [سوره النساء (٤): الآيات ١٣٦ الى ١٤٧]

٨٢١ اشاره

٨٢٣ بيان:

٨٣١ [سوره النساء (٤): الآيات ١٤٨ الى ١٤٩]

٨٣١ اشاره

٨٣١ بيان:

٨٣٣ [سوره النساء (٤): الآيات ١٥٠ الى ١٥٢]

٨٣٣ اشاره

٨٣٣ بيان:

٨٣٥ [سوره النساء (٤): الآيات ١٥٣ الى ١٦٩]

٨٣٥ اشاره

٨٣٧ بيان:

٨٤٩ [سوره النساء (٤): الآيات ١٧٠ الى ١٧٥]

٨٤٩ اشاره

٨٥٠ بيان:

٨٥٥ [سوره النساء (٤): آيه ١٧٦]

٨٥٥ اشاره

٨٥٥ بيان:

٨٥٧ تعريف مركز

سرشناسه : طباطبائی، محمدحسین، ۱۳۶۰ - ۱۲۴۱

عنوان قراردادى : [الميزان في تفسير القرآن. برگزیده]

عنوان و نام پدیدآور : مختصر الميزان في تفسير القرآن / [محمدحسین الطباطبائی]؛ تالیف الیاس کلانتری

مشخصات نشر : تهران: سازمان اوقاف و امور خیریه، انتشارات اسوه، ۱۳۷۹.

مشخصات ظاهری : ج ۶

شابک : ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۲-۱۵۰۰۰Xریال: (دوره)؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۳-۰۸ (ج.۱)؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۴-۰۶ (ج.۲)؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۵-۰۵-۰۵ (ج.۳)؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۶-۰۲ (ج.۴)؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۷-۰۰ (ج.۵)؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۸-۰۹ (ج.۶)

وضعیت فهرست نویسی : فهرست نویسی قبلی

یادداشت : عربی

عنوان دیگر : الميزان في تفسير القرآن. برگزیده

موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده : کلانتری، الیاس، ۱۳۳۰ - ، خلاصه کننده

شناسه افزوده : سازمان اوقاف و امور خیریه. انتشارات اسوه

رده بندی کنگره : BP۹۸/ط۲۵م۹۰۱۶ ۱۳۷۹

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۲۶

شماره کتابشناسی ملی : م ۷۹-۵۸۷۹

ص : ۱

الحمد لله رب العالمين و صلى الله على سيدنا محمد و آله الطيبين الطاهرين.

إن الأسلوب المتخذ في القرآن الكريم هو بالصورة التي يشاهد، فيه جوانب متعددة من المعاني، بحيث يلاحظ منه سلسلة من المعاني الظاهرية بمجرد مطالعته مطالعه بسيطه. ثم -و على أثر التدبر فيه و التدقيق في تراكيب الجمل و الآيات، لا سيما على أثر كشف صلات الآيات ببعضها يكتشف منها معاني أعمق و أوسع و أكثر من المعاني الأولى. و ان اكتشاف المعاني الجديده في القرآن باستعمال الأسلوب التفسيري الصحيح لا انتهاء له أبدا.

بناء على هذا فمن الممكن أن تكون الآيات القرآنية موضع بحث و تفسير من جوانب و مستويات عديدة. أي يمكن الاكتفاء بذكر المعاني الإجمالية و البدائية للآيات في بحث تفسيري واحد، أو كتاب تفسير من أجل الاطلاع على معرفه اجمالية لمعاني الآيات، و يمكن أيضا المبادره الى بحث مفصل و استخراج معاني مفصّله و عميقه من الآيات بالاضافه إلى المعاني الإجمالية الأولى.

هذه القابليه بهذه الصورة هي إحدى مميزات القرآن الكريم، و لا يمكن لأي كتاب

آخر أن يكون بهذه المواصفات؛ لأن هذه الكيفيه من التركيب هي من العلم الالهى و قدرته اللامتناهيه.

بحث حول الأساليب التفسيريه المختلفه

لقد دوّنت تفاسير كثيره حول القرآن الكريم منذ نزوله حتى يومنا هذا، و وضعت معانى هذا الكتاب موضع بحث و تحقيق و تبين من جوانب و صور مختلفه. و قد ظهرت -الى جانب ذلك- أساليب مختلفه فى التفسير و التحقيق و استخراج معانى الآيات و اختلاف اساليب التفسير و كتب تفسير القرآن يمكن أن يكون عدّه أسباب منها:

١- استعمال الأساليب الخاطئه الناقصه فى تفسير آيات القرآن.

٢- استعمال الموازين و المقاييس المختلفه الناتجه عن مواقف المفسرين الفكرية و العلميه و العقائديه.

٣- عدم الاهتمام بالفروق القائمه بين كتاب الله و الكتب البشرية فى المجالات المختلفه.

٤- القيام بتفسير القرآن من قبل غير أهل الفن و فاقدى القابليه و قدره الكافيه للتفسير.

٥- أسلوب القرآن الخاص الذى يحتوى على جوانب عديده من المعانى و المفاهيم اللامتناهيه الخاصه به و فى تراكيبه الخاصه.

و بصوره عامه، يجب القول بأنه و إن كان استعمال الأساليب الخاطئه فى تفسير القرآن، و وجود فاقدى الصلاحيات التفسيريه فى هذا المجال، و استعمال المقاييس و الموازين الخاصه بالاشخاص فى استنباط معانى الآيات قد أوجدت التفاسير المختلفه؛ فإن أسلوب القرآن الخاص أيضا يجب أن يعتبر -من بعض الجوانب- سببا فى ظهور هذه الاختلافات.

إن اتساع معانى القرآن و مفاهيمه و كثرتها من جهة، و النظرات و المقاصد و القدرات و...المختلفه من جهة أخرى قد أدت إلى أن ينتبه كل واحد من المفسرين إلى عدد من معانى الآيات من بعض جوانبها، و عرضها باعتبارها معانى الآيات سواء كانت المعانى صحيحه، و التى يريدنا الله تعالى، أو محتمله و غير صحيحه.

الأسلوب التفسيري الصحيح

يوجد أسلوب تفسيري صحيح واحد فقط بين جميع الأساليب التفسيرية المختلفه، و هذا الأسلوب هو الذى يؤيده الله تعالى و نبي ١ الاسلام الكريم صلى الله عليه و آله و سلم، و هو عبارته عن تفسير القرآن بالقرآن. و أما غيره من الأساليب فغير صحيحه و غير جائزه و إن كان فى بعضها مزيج من الأسلوب الصحيح و غيره.

و بصوره عامه، فإن الكتاب النابع من علم الله تعالى يجب أن يكون أسلوب تفسيره و بيان مواضعه من جانب الله أيضا. و بالطبع فإن الأساليب الناتجه عن فكر الأشخاص و علمهم لا يمكن أن تكون مورد تأييد الله تعالى.

و من المحتمل أن يكون عدد من المفسرين قد غفلوا عن أصل الموضوع، و هو أن يكون أسلوب تفسير كلام الله مستنبطاً من نفس كلامه تعالى. و قد يكون البعض منهم قد انتبهوا إلى أصل الموضوع، و لكنهم من الناحية العمليه ظنوا بأن أسلوبهم غير الصحيح هو الصحيح الجائز. و بالطبع فإن القله من المفسرين قد استعملوا-حسب إمكانهم و قدرتهم الأسلوب الصحيح.

و بالطبع فإن بيان هذا الأسلوب بصوره تامه يحتاج إلى بحث مفصل، و قد أشير إلى ذكره هنا فقط و قد أورد مؤلف كتاب «الميزان فى تفسير القرآن» بحثاً استدلالياً اجمالياً فى هذا المجال فى مقدمه كتابه.

(١) ليس هذا التعبير (نبي الاسلام) بعربى فصيح و لا شائعاً فى العرييه بل هو تعبير فارسى شائع فى الفارسيه و انما الفصيح منه النبي او نبي الله و كذلك فى الرسول.

الميزان في تفسير القرآن

إن كتاب «الميزان في تفسير القرآن» تأليف العالم الجليل الفقيه السعيد المرحوم العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي هو أكثر الكتب التفسيرية التي كتبت في العصر الحاضر أهميته وقيمه؛ والأسلوب المتخذ في هذا الكتاب هو عبارة عن «تفسير القرآن بالقرآن» وأن قوه الإدراك العظيمه، والاطلاعات الواسعه، والجهود المصنیه، والضمير التير، والفكر الثاقب، وأهم من كل هذه العوامل، استخدام الأسلوب الفني «تفسير القرآن بالقرآن» قد أدت الى أن يوجد هذا البطل في عالم علم التفسير كتابا لا نظير له بين تفاسير القرآن حتى الآن.

أورد مؤلف «الميزان في تفسير القرآن» في مقدمه الكتاب بحثا إجماليا حول الأساليب التفسيرية المختلفه، وبعد تخطئه الأساليب غير الصحيحه المتداوله طيله التاريخ و إبطالها، بين الأسلوب التفسيري الصحيح، وقد استدلل على صحه ذلك بدلائل برهانيه دقيقه.

وقد بذل مؤلف هذا الكتاب الموفق القدير السعي الكثير في أن يتجنب -حسب الإمكان فرض نظره محدوده خاصه على تفسير آيات القرآن، وبغض النظر عن النظرات المحدوده الخاصه و بالاستعانه بالأسلوب التفسيري الصحيح، جعل الآيات القرآنيه موضع دراسه و تحقيق، واستخرج معانيها في الجوانب الممكنه.

وقد زعم أنه قد فسّر القرآن في هذا الكتاب بواسطه القرآن نفسه و في الواقع فإنه نجح في زعمه هذا، وأوجد هذا الكتاب التاريخي المبارك.

إن القرآن الكريم- كما أشير في بدايه هذه المقدمه- له جوانب مختلفه من المعانى، و من الممكن أن تكون موضع دراسه و تحقيق و بحث من نواح كثيره و قد اكتفى في تفسير الميزان بالبحث اللفظى العادى في بعض الآيات، و في بعضها الآخر بورد الى بحوث قرآنيه و علميه و كلاميه و فلسفيه و اجتماعيه و تاريخيه و روائيه و... مهمه جدا و مفصله، و قد جاءت الى جانب التفسير البسيط للآيات أحيانا، بحوث بصوره مستقله أحيانا أخرى، بحيث لا- يستفيد من بعض هذه البحوث سوى أهل الفن فحسب.

بناء على هذا، ففي خلال دراسه هذا الكتاب، تقرّر- بالنظر الى بحوثه القيمه المثمره و حاجه الجيل الصاعد الى التعرف على القرآن في المستويات المختلفه- أن ينظّم كتاب في فهرسه مواضيعه، و كذلك مختصر عن هذا الكتاب لتهييد الطريق الى الاستفاده من بحوثه بصوره مفصله و منظمه و منسقه من قبل محققى العلوم القرآنيه، و كذلك الاستفاده من هذا الكتاب من قبل الذين لا يجدون سوى الفرصه من التعرف الإجمالى على معانى آيات القرآن بصوره مريحه.

فأخذت الخطوات- فى البدايه- لتنظيم الدليل و الفهرست، و البحث عن موضوع الكتاب و مؤلفه سماحه العلامة الطباطبائى رحمه الله عليه، و الذى نال موافقته و رضاه.

و قد ترجم هذا الكتاب الى اللغه العربيه تحت عنوان «دليل الميزان في تفسير القرآن» لیتسنى لأبناء الضاد الاستفاده منه فى النصّ العربى و ترجمه الفارسيه على السواء، و قد طبع كلاهما و صدرا إلى الأسواق، و أصبحا موضع استفاده المحققين و هواه التفسير و اقبالهم.

و خلال هذا العمل وضع التخطيط لاختصار هذا التفسير الذى هو هذا الكتاب الذى

بين يديك: «مختصر الميزان في تفسير القرآن» ثم تنسق بالأسلوب الذى سوف يتضح فى هذه المقدمة، و أعدّ للطبع.

و من أجل أن يتضح أسلوب العمل فى اختصار كتاب الميزان، يجب الاشارة الى بعض الجوانب المتخذة فى تفسير الميزان، و هذه الجوانب هى عبارته عن:

١- إن مؤلف كتاب الميزان غالبا ما يبادر فى البدايه الى البحث اللغوى حول المفردات بعد كتابه آيه أو آيات مثل:

قوله تعالى: «بكلمه منه اسمه المسيح عيسى بن مريم...» والكلمه و الكلم كالتمره و التمر جنس و فرد، و تطلق الكلمه على اللفظ الواحد الدال على المعنى و على الجملة سواء صحّ السكوت عليها، مثل: زيد قائم، أو لم يصحّ، مثل: إن كان زيد قائما، هذا بحسب اللغة. (آل عمران ٤٥).

٢- و قد كتب المؤلف بعد البحث اللغوى رأيه حول معانى الآيه موضوعه البحث غالبا، مثل:

قوله تعالى: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ...» الخطاب لعامة أهل الكتاب، و الدعوه فى قوله تعالى: «تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ...» بالحقيقه أنما هى الاجتماع على معنى الكلمه بالعمل به، و أنما تنسب الى الكلمه لتدل على كونها دائره بألستهم.... (آل عمران ٦٤).

٣- و يدون المؤلف غالبا-بعد بيان رأيه-آراء المفسرين الآخرين إن وجد حول الآيه، و يرى لها وجهها-تاره، و يردها تاره اخرى، و قد يذكرها و لا يعلّق عليها، مثل:

و هذا الذى ذكرناه من انقطاع الاستثناء هو الأوفق بسياق الآيه...

و ربما يقال: إن الاستثناء متصل، قوله بالباطل قيد توضيحي...

و هذا النحو من الاستعمال و ان كان جائزا معروفا عند أهل اللسان، إلا أنك قد عرفت أن

الأوفق لسياق الآيه هو انقطاع الاستثناء...

و ربما قيل: انّ المراد بالنهي المنع... (النساء ٢٩).

و مثل: قوله تعالى: «وَ يُطْعَمُونَ عَلَىٰ حُبِّهِ مَشَكِينًا وَ يَتِيمًا وَ أَسِيرًا» ضمير «عَلَىٰ حُبِّهِ» للطعام على ما هو الظاهر، و المراد بحبه توقان النفس اليه لشده الحاجه، و يؤيد هذا المعنى قوله تعالى: «لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ». (آل عمران ٩٢).

و قيل: الضمير لله سبحانه، أى يطعمون الطعام حبا لله، لا طمعا فى الثواب، و يدفعه أنّ قوله تعالى حكاية منهم: «إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ» يغنى عنه.

و يليه فى الضعف ما قيل: انّ الضمير للإطعام المفهوم من قوله: «وَ يُطْعَمُونَ» وجه الضعف أنّه إن أريد بحب الإطعام حقيقه معناه، فليس فى حبّ الإطعام فى نفسه فضل حتى يمدحوا به، و إن أريد به كون الإطعام بطيب النفس و عدم التكلف، فهو خلاف الظاهر، و رجوع الضمير الى الطعام هو الظاهر. (الدهر ٨).

و مثل: «فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَ الْأُولَىٰ» الأخذ كناية عن التعذيب، و النكال التعذيب الذى يردع من رآه أو سمعه عن تعاطى مثله، و عذاب الآخرة نكال، حيث إنّ من شأنه أن يردع من سمعه عن تعاطى ما يؤدى اليه من المعصيه، كما أنّ عذاب الاستئصال فى الدنيا نكال.

و المعنى: فأخذ الله فرعون الى عذابه و نكله نكال الآخرة و الأولى، و أما عذاب الدنيا فأغراقه و إغراق جنوده، و أما عذاب الآخرة فعذابه بعد الموت. فالمراد بالأولى و الآخرة الدنيا و الآخرة.

و قيل: المراد بالآخرة كلمه الآخرة: «أَنَا رَبُّكُمْ الْمَعْلَىٰ» و بالأولى كلمته الأولى، قالها قبل ذلك: «مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي» فأخذه الله بهاتين الكلمتين و نكله نكالهما، و لا يخلو هذا المعنى من خفاء.

وقيل: المراد بالأولى تكذيبه و معصيته المذكوران في أول القصة، بالأخرى كلمه (أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى) المذكوره في آخرها و هو كسابقه.

وقيل: الأولى أول معاصيه، و الأخرى آخرها. و المعنى أخذه الله نكال مجموع معاصيه. و لا يخلو أيضا من خفاء. (النازعات ٢٥/).

و مثل: قوله تعالى: «فَإِذَا قَرَأْتَ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ» أى فاذا أتممتنا قرأته عليك و حيا، فاتبع قراءتنا و اقرأ بعد تمامها.

وقيل: المراد باتباع قرآنه، أتباعه ذهنا بالإنصات و التوجه التام اليه، و هو معنى لا بأس به.

وقيل: المراد فاتبع في الأوامر و النواهي قرآنه. و قيل: المراد أتباع قراءته بالتكرار حتى يرسخ في الذهن. و هما معنيان بعيدان. (القيامة ١٨/).

و مثل: قوله تعالى: «وَلِيَّائِكَ فَطَهَّرُوا» قيل: كناية عن اصلاح العمل، و لا يخلو من وجه، فإن العمل بمنزله الثياب للنفس بمالها من الاعتقاد، فالظاهر عنوان الباطن، و كثيرا ما يكفى في كلامهم عن صلاح العمل بطهاره الثياب.

وقيل: كناية عن تزكيه النفس، و تنزيهاها عن الذنوب و المعاصي.

وقيل: المراد تقصير الثياب، لأنه أبعد من النجاسه، و لو طالت و انجرت على الأرض لم يؤمن أن تتنجس.

وقيل: المراد تطهير الأزواج من الكفر و المعاصي لقوله تعالى: «هُنَّ لِيَأْسَ لَكُمْ» (البقره ١٨٧/).

وقيل: الكلام على ظاهره، و المراد تطهير الثياب من النجاسات للصلاه و الأقرب على هذا أن يجعل قوله: «وَرَبُّكَ فَكَبَّرُ» اشاره الى تكبير الصلاه، و تكون الآيتان مسوقتين لتشريع أصل الصلاه مقارنة للأمر بالدعوه.

و لا يرد عليه ما قيل: إنّ نزول هذه الآيات كان حيث لا صلاة أصلاً، وذلك أنّ تشريع الفرائض الخمس اليوميّه على ما هي عليها اليوم، وإن كان في ليله المعراج، و هي جميعاً عشر ركعات، ثمّ زيد عليها سبع ركعات، إلّا أنّ أصل الصلاة كان منذ أوائل البعثة، كما يشهد به ذكرها في هذه السوره و سورتي العلق و المزمل، و يدلّ عليه الروايات.

و قيل: المراد بتطهير الثياب التخلّق بالأخلاق الحميده و الملكات الفاضله.

و في معنى تطهير الثياب أقوال أخر أغمضنا عن نقلها، لإمكان ارجاعها الى بعض ما تقدم من الوجوه، و أرجح الوجوه المتقدمه أولها و خامسها. (المدثر ٤).

٤- بعد البحث في تفسير عدد من الآيات كتبت بحوث قرآنيه و علميه و كلاميه و فلسفيه و اجتماعيه و تاريخيه و رواثيه و... مهمه و مفصله يمكن أن تكون لها صلّه ببحوث الآيات، بصوره مستقله عن البحث التفسيري في فصل أو فصول مثل:

كلام في أحكام الأعمال من حيث الجزاء. (البقره ٢١٦-٢١٨).

و مثل: كلام في الإحسان و هدايته و الظلم و إضلاله. (البقره ٢٥٨-٢٦٠).

و مثل: كلام في قدره الأنبياء و الأولياء، فلسفي و قرآني.

و مثل: كلام في المجتمعات الحيوانيه. (الأنعام ٣٧-٥٥).

و مثل: الإعجاز و ماهيته؛ إعجاز القرآن؛ تحدّيه بالعلم؛ التحدّي بمن أنزل عليه القرآن؛ تحدّي القرآن بالإخبار عن الغيب؛ تحدّي القرآن بعدم الاختلاف فيه؛ التحدّي بالبلاغه؛ معنى الآيه المعجزه في القرآن و ما يفسّر به حقيقتها؛ تصديق القرآن لقانون العليّه العامه؛ إثبات القرآن ما يخرق العاده؛ القرآن يسند ما أسند الى العله الماديه الى الله تعالى؛ القرآن يثبت تأثيراً في نفوس الأنبياء في الخوارق؛ القرآن كما يسند الخوارق الى تأثير النفوس، يسندها الى أمر اللّهم تعالى؛ القرآن يسند المعجزه الى سبب غير مغلوب؛ القرآن يعدّ المعجزه برهاناً على صحه رساله، لا دليلاً عامياً.

و مثل: بدء تكوين الانسان، تركيبه من روح و بدن، شعوره الحقيقي، و ارتباطه بالأشياء، علومه العمليه، جريه على استخدام عنده ارتفاعاً، كونه مدنيا بالطبع، حدوث الاختلاف بين افراد الانسان، رفع الاختلاف بالدين، الاختلاف فى نفس الدين، الانسان بعد الدنيا. (البقره ٢١٣/).

و مثل: كلام فى المرابطه فى المجتمع الاسلامى: الانسان و الاجتماع، الانسان و نموه فى اجتماعه، الاسلام و عنايته بالاجتماع، اعتبار الاسلام رباطه الفرد و المجتمع، بما ذا يتكون و يعيش الاجتماع الاسلامى، منطلقان: منطق التعقل و منطق الاحساس، ما معنى ابتغاء الاجر عند الله و الاعراض عن غيره؟ ما معنى الحريه فى الاسلام؟ ما هو الطريق الى التحول و التكامل فى المجتمع الاسلامى؟ هل الاسلام بشريته يفى بإسعاد هذه الحياه الحاضره، من الذى يتقلد ولايه المجتمع فى الاسلام و ما سيرته؟ ثغر المملكه الاسلاميه هو الاعتقاد دون الحدود الطبيعيه او الاصطلاحيه، الاسلام اجتماعى بجميع شئونه، الدين الحق هو الغالب على الدنيا بالآخره.

و مثل: بحث علمى فى فصول ثلاثه: النكاح من مقاصد الطبيعه، استيلاء الذكور على الإناث، تعدد الزوجات.

و مثل: كلام فى الرق و الاستعباد، اعتبار العبوديه لله سبحانه، استعباد الانسان و اسبابه، سير الاستعباد فى التاريخ، ما الذى رآه الاسلام فى ذلك، ما هو السبيل الى الاستعباد، ما مقدار التحديد، الى م آل أمر الالغاء؟ (المائده ١١٦- / ١٢٠).

و مثل: كلام فى المجازاه و العفو فى فصول: ما معنى الجزاء؟ العفو و المغفره، للعفو مراتب، هل المؤاخذه أو المغفره تستلزم ذنباً، رباطه العمل و الجزاء، العمل يؤدي المرابطه الى النفس.

و مثل: كلام فى الأسماء الحسنى فى فصول: ما معنى الأسماء الحسنى؟ ما هو حد ما نصفه؟ الانقسامات التى لها، نسب الصفات و الأسماء إلينا، ما معنى الاسم الأعظم؟ عدد الأسماء الحسنى، هل الأسماء توقيفيه؟ (الأعراف ١٨٠-١٨٦).

مميزات هذا الكتاب

إن أسلوب عملنا فى اختصار «الميزان فى تفسير القرآن» يتضح بالنظر الى الإيضاحات التالية:

- ١- لم يضيف فى هذا المختصر حتى كلمه واحده الى ما كتبه مؤلف الميزان.
- ٢- اختيرت آراء المؤلف فى معانى آيات القرآن بصوره اساسيه، الأ فى الموارد التى نقل المؤلف موضوعا عن الآخرين و قبله، و الذى يكون فى الحقيقه مطابقا لرأيه أو مبتنيا عليه.
- ٣- جىء بمقدمه تفسير الميزان التى توضح أسلوب المرحوم العلامة الطباطبائى التفسيرى بدون حذف فى هذا الكتاب.
- ٤- ان المواضيع المحذوفه هى فى الأساس عباره عن البحوث المستقله، العلميه و الكلاميه و الفلسفيه و الاجتماعيه، و التاريخيه، و الروائيه و... المدونه بعد التفسير اللفظى و العادى لبعض الآيات.
- ٥- يتوقف بيان الآيات على البحث الروائى فى بعض الموارد، و لذا فقد جىء بالبحث الروائى المنتخب فى هذا الكتاب.
- ٦- فى الموارد التى يبين فيها المؤلف رأيه الخاص بصوره مستقله بالنسبه لآيه من الآيات ثم يبادر الى نقل و دراسته آراء سائر المفسرين، اخترنا القسم الأول (رأى المؤلف نفسه) و حذفنا آراء الآخرين.

و أما فى الموارد التى يكون فيها البحث التفسىرى مزىجا من نقل آراء سائر المفسرين فقد أثبتنا جميع تلك الآراء.

٧- فى الموارد التى جاء المؤلف-بعد تفسير الآيه بأراء و تفاسير من سائر المفسرين أيضا، و يرى لتلك الآراء وجهها، و نقلها على الأقل و لم يرفضها أو لا يراها باطله، ففى مثل هذه الموارد اختير أكثرها، إلا فى الموارد التى لم نر ضروره فى اختيارها.

٨- إذا كان إيضاح معانى الآيه يتوقف أحيانا على جميع البحث التفسىرى فقد اخترنا جميع ذلك البحث و لم نحذف منه شيئا.

يوم مبعث رسول الله فى السابع و العشرين من شهر رجب سنه ثمان و اربعمائه بعد الألف من هجرته صلى الله عليه و آله و سلم

طهران-الياس كلانترى

ص: ١٢

الحمد لله الذى أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، و الصلاة على من جعله شاهداً و مبشراً و نذيراً، و داعياً الى الله بإذنه و سراجاً منيراً، و على آله الذين أذهب عنهم الرجس أهل البيت و طهرهم تطهيراً.

مقدمه: نعرّف فيها مسلك البحث عن معانى آيات القرآن الكريم فى هذا الكتاب بطريق الاختصار.

التفسير (و هو بيان معانى الآيات القرآنيه و الكشف عن مقاصدها و مداليلها) من أقدم الاشتغالات العلميه التى تعهد من المسلمين، فقد شرع تاريخ هذا النوع من البحث و التنقىير المسمى بالتفسير من عصر نزول القرآن كما يظهر من قوله تعالى و تقدس: **كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَ يُزَكِّيْكُمْ وَ يُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ الْآيَهُ؛ (البقره ١٥١).**

و قد كانت الطبقة الاولى من مفسرى المسلمين جماعه من الصحابه (و المراد بهم غير على عليه السلام، فإنّ له و للأئمه من ولده نبأ آخر سنتعرّض له) كابن عباس

و عبد الله ابن عمر و أبي و غيرهم اعتنوا بهذا الشأن، و كان البحث يومئذ لا يتجاوز عن بيان ما يرتبط، من الآيات بجهاتها الأدبية و شأن النزول و قليل من الاستدلال بآيه على آيه و كذلك قليل من التفسير بالروايات المأثوره عن النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم في القصص و معارف المبدإ و المعاد و غيرها.

و على هذا الوصف جرى الحال بين المفسرين من التابعين كمجاهد و قتاده و ابن أبي ليلى و الشعبي و السدي و غيرهم في القرنين الأولين من الهجره، فإنهم لم يزيدوا على طريقه سلفهم من مفسري الصحابه شيئاً غير انهم زادوا من التفسير بالروايات، (و بينها روايات دسّها اليهود أو غيرهم)، فأوردوها في القصص و المعارف الراجعه الى الخلقه كابتداء السماوات و تكوين الأرض و البحار و إرم شدّاد و عثرات الأنبياء و تحريف الكتاب و اشياء آخر من هذا النوع، و قد كان يوجد بعض ذلك في المأثور عن الصحابه من التفسير و البحث.

ثم استوجب شيوع البحث الكلامي بعد النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم في زمن الخلفاء باختلاط المسلمين بالفرق المختلفه من أمم البلاد المفتوحه بيد المسلمين و علماء الأديان و المذاهب المتفرقه من جهه.

و نقل فلسفه يونان الى العربيه في السلطنه الأمويه أو آخر القرن الأول من الهجره، ثم في عهد العباسيين، و انتشار البحث العقلي الفلسفي بين الباحثين من المسلمين من جهه أخرى ثانيه.

و ظهور التصوّف مقارنة لانتشار البحث الفلسفي و تمايل الناس الى نيل المعارف الدينيه من طريق المجاهده و الرياضه النفسانيه دون البحث اللفظي و العقلي من جهه أخرى ثالثه.

و بقاء جمع من الناس و هم أهل الحديث على التعبد المحض بالظواهر الدينيه من غير بحث إلا عن اللفظ بجهاتها الأديه من جهه أخرى رابعه.

ان اختلف الباحثون فى التفسير فى مسالكهم بعد ما عمل فيهم الانشعاب فى المذاهب ما عمل، و لم يبق بينهم جامع فى الرأى و النظر إلا- لفظ لا إله إلا الله و محمد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و اختلفوا فى معنى الأسماء و الصفات و الأفعال و السماوات و ما فيها و الأرض و ما عليها و القضاء و القدر و الجبر و التفويض و الثواب و العقاب و فى الموت و فى البرزخ و البعث و الجنة و النار، و بالجمله فى جميع ما تمسه الحقائق و المعارف الدينيه و لو بعض المس، فتفرقوا فى طريق البحث عن معانى الآيات، و كل يتحفظ على متن ما اتخذه من المذهب و الطريقه.

فأما المحدثون، فاقتصروا على التفسير بالروايه عن السلف من الصحابه و التابعين فساروا و جدوا فى السير حيث ما يسير بهم المأثور و وقفوا فيما لم يؤثر فيه شىء و لم يظهر المعنى ظهورا لا يحتاج الى البحث أخذا بقوله تعالى:

وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا الْآيَةُ؛ (آل عمران ٧).

و قد أخطئوا فى ذلك فان الله سبحانه لم يبطل حجه العقل فى كتابه، و كيف يعقل ذلك و حجتيه انما تثبت به! و لم يجعل حجتيه فى أقوال الصحابه و التابعين و انظارهم على اختلافها الفاحش، و لم يدع الى السفسطه بتسليم المتناقضات و المتنافيات من الاقوال، و لم يندب الا الى التدبر فى آياته، فرفع به أى اختلاف يترأى منها، و جعله هدى و نورا و تبيانا لكل شىء، فما بال النور يستنير بنور غيره! و ما شأن الهدى يهتدى بهدايه سواه! و كيف يتبين ما هو تبيان كل شىء بشىء دون نفسه!.

و اما المتكلمون فقد دعاهم الاقوال المذهبيه على اختلافها أن يسيروا فى التفسير على ما يوافق مذاهبهم باخذ ما وافق و تأويل ما خالف،على حسب ما يجوزه قول المذهب.

و اختيار المذاهب الخاصه و اتخاذ المسالك و الآراء المخصوصه و ان كان معلولا- لاختلاف الانظار العلميه أو لشيء آخر كالتقاليد و العصبيات القوميه،و ليس هاهنا محل الاشتغال بذلك،الا ان هذا الطريق من البحث أحرى به أن يسمى تطبيقا لا تفسيراً.

ففرّق بين ان يقول الباحث عن معنى آيه من الآيات: ما ذا يقول القرآن؟ أو يقول: ما ذا يجب ان نحمل عليه الآيه؟ فان القول الاول يوجب ان ينسى كل امر نظرى عند البحث،و ان يتكى على ما ليس بنظرى،و الثانى يوجب وضع النظريات فى المسأله و تسليمها و بناء البحث عليها.

و من المعلوم ان هذا النحو من البحث فى الكلام ليس بحثا عن معناه فى نفسه.

و أما الفلاسفه،فقد عرض لهم ما عرض للمتكلمين من المفسرين من الوقوع فى ورطه التطبيق و تأويل الآيات المخالفه بظاهرها للمسلّمات فى فنون الفلسفه بالمعنى الأعم اعنى: الرياضيات و الطبيعيات و الإلهيات و الحكمه العمليه، و خاصه المشائين،و قد تأولوا الآيات الوارده فى حقائق ما وراء الطبيعه و آيات الخلقه و حدوث السموات و الأرض و آيات البرزخ و آيات المعاد،حتى أنهم ارتكبوا التأويل فى الآيات التى لا- تلائم الفرضيات و الاصول الموضوعه التى نجدها فى العلم الطبيعى: من نظام الأفلاك الكليه و الجزئيه و ترتيب العناصر و الأحكام

الفلكيه و العنصريه إلى غير ذلك، مع انهم نصوا على أن هذه الأنظار مبتنيه على اصول موضوعه لا بينه و لا مبينه.

و أما المتصوفه، فإنهم لاشتغالهم بالسير فى باطن الخلقه و اعتنائهم بشأن الآيات الأنفسيه دون عالم الظاهر و آياته الآفاقيه اقتصروا فى بحثهم على التأويل، و رفضوا التنزيل، فاستلزم ذلك اجترأ الناس على التأويل، و تلفيق جمل شعريه و الاستدلال من كل شىء على كل شىء، حتى آل الأمر إلى تفسير الآيات بحساب الجمل و رد الكلمات إلى الزبر و البيئات و الحروف النورانيه و الظلمانيه إلى غير ذلك.

و من الواضح أن القرآن لم ينزل هدى للمتصوفه خاصه، و لا أن المخاطبين به هم أصحاب علم الاعداد و الأوفاق و الحروف، و لا أن معارفه مبنيه على أساس حساب الجمل الذى وضعه أهل التنجيم بعد نقل النجوم من اليونانيه و غيرها إلى العريبه.

نعم قد وردت روايات عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم و أئمه أهل البيت عليهم السلام كقولهم: ان للقرآن ظهرا و بطنا و لبطنه بطنا إلى سبعة ابطن أو إلى سبعين بطنا الحديث.

لكنهم عليهم السلام اعتبروا الظهر كما اعتبروا البطن، و اعتنوا بأمر التنزيل كما اعتنوا بشأن التأويل، و سنيين فى أوائل سوره آل عمران إن شاء الله: أن التأويل الذى يراد به المعنى المقصود الذى يخالف ظاهر الكلام من اللغات المستحدثه فى لسان المسلمين بعد نزول القرآن و انتشار الإسلام، و ان الذى يريده القرآن من لفظ التأويل فيما ورد فيه من الآيات ليس من قبيل المعنى و المفهوم.

وقد نشأ في هذه الأعصار مسلك جديد في التفسير و ذلك أن قوما من منتحلي الإسلام في أثر توغلهم في العلوم الطبيعيه و ما يشابهها المبتنيه على الحس و التجربه، و الاجتماعيه المبتنيه على تجربه الاحصاء، مالوا إلى مذهب الحسيين من فلاسفه الأروبه سابقا، أو إلى مذهب أصاله العمل (لا قيمه للإدراكات الا ترتب العمل عليها بمقدار يعينه الحاجه الحيويه بحكم الجبر).

فذكروا: ان المعارف الدينيه لا يمكن أن تخالف الطريق الذي تصدقه العلوم و هو أن: (لا أصاله في الوجود إلا للماده و خواصها المحسوسه) فما كان الدين يخبر عن وجوده مما يكذب العلوم ظاهره كالعرش و الكرسي و اللوح و القلم يجب أن يؤوّل تأويلا.

و ما يخبر عن وجوده مما لا تتعرض العلوم لذلك كحقائق المعاد يجب أن يوجه بالقوانين الماديه.

و ما يتكى عليه التشريع من الوحي و الملك و الشيطان و النبوه و الرساله و الامامه و غير ذلك، إنما هي امور روحيه، و الروح ماديه و نوع من الخواص الماديه، و التشريع نبوغ خاص اجتماعي يبنى قوانينه على الأفكار الصالحه، لغايه إيجاد الاجتماع الصالح الراقى.

ذكروا: أن الروايات، لوجود الخليط فيها لا تصلح للاعتماد عليها، إلا ما وافق الكتاب، و أما الكتاب فلا يجوز أن يبنى في تفسيره على الآراء و المذاهب السابقه المبتنيه على الاستدلال من طريق العقل الذي أبطله العلم بالبناء على الحس و التجربه، بل الواجب أن يستقل بما يعطيه القرآن من التفسير إلا ما بينه

هذه جمل ما ذكروه أو يستلزمه ما ذكروه، من اتباع طريق الحس و التجربة، فساقهم ذلك إلى هذا الطريق من التفسير، و لا كلام لنا هاهنا فى اصولهم العلميه و الفلسفيه التى اتخذوها اصولا و بنوا عليها ما بنوا.

و إنما الكلام فى أن ما لو ردوه على مسالك السلف من المفسرين (أن ذلك تطبيق و ليس بتفسير) و ارد بعينه على طريقتهم فى التفسير، و إن صرحوا أنه حق التفسير الذى يفسر به القرآن بالقرآن.

و لو كانوا لم يحملوا على القرآن فى تحصيل معانى آياته شيئا، فما بهم يأخذون الأنظار العلميه مسلمه لا- يجوز التعدى عنها؟ فهم لم يزيدوا على ما أفسده السلف اصلاحا.

و انت بالتأمل فى جميع هذه المسالك المنقوله فى التفسير تجد: ان الجميع مشتركه فى نقص و بئس النقص، و هو تحميل ما انتجته الابحاث العلميه أو الفلسفيه من خارج على مداليل الآيات، فتبدل به التفسير تطبيقا و سمي به التطبيق تفسيراً، و صارت بذلك حقائق من القرآن مجازات، و تنزيل عدّه من الآيات تاويلات.

و لازم ذلك (كما أو مانا إليه فى أوائل الكلام) أن يكون القرآن الذى يعرّف نفسه بأنه (هدى للعالمين و نور مبين و تبيان لكل شىء) مهديا إليه بغيره و مستنيرا بغيره و مبينا بغيره، فما هذا الغير! أو ما شأنه! أو بما ذا يهدى إليه! أو ما هو المرجع و الملجأ إذا اختلف فيه! أو قد اختلف و اشتد الخلاف.

و كيف كان فهذا الاختلاف لم يولده اختلاف النظر فى مفهوم (مفهوم اللفظ

المفرد أو الجملة بحسب اللغة و العرف العربي)الكلمات أو الآيات،فإنما هو كلام عربي مبين لا يتوقف فى فهمه عربى و لا غيره ممن هو عارف باللغه و اساليب الكلام العربى.

و ليس بين آيات القرآن(و هى بضع آلاف آيه)آيه واحده ذات اغلاق و تعقيد فى مفهومها بحيث يتحير الذهن فى فهم معناها،و كيف!و هو افصح الكلام و من شرط الفصاحه خلو الكلام عن الاغلاق و التعقيد،حتى أن الآيات المعدوده من متشابه القرآن كالأيات المنسوخه و غيرها،فى غايه الوضوح من جهه المفهوم، و إنما التشابه فى المراد منها و هو ظاهر.

و إنما الاختلاف كل الاختلاف فى المصداق الذى ينطبق عليه المفاهيم اللفظيه من مفردها و مركبها،و فى المدلول التصورى و التصديقى.

توضيحه:ان الانس و العاده(كما قيل)يوجبان لنا ان يسبق إلى أذهاننا عند استماع الألفاظ معانيها الماديه أو ما يتعلق بالماده فإن الماده هى التى يتقلب فيها ابداننا و قوانا المتعلقه بها ما دمننا فى الحياه الدنيويه،فإذا سمعنا الفاظ الحياه و العلم و القدره و السمع و البصر و الكلام و الإراده و الرضا و الغضب و الخلق و الأمر كان السابق إلى أذهاننا منها الوجودات الماديه لمفاهيمها.

و كذا اذا سمعنا الفاظ السماء و الأرض و اللوح و القلم و العرش و الكرسي و الملك و اجنحته و الشيطان و قبيله و خيله و رجله إلى غير ذلك،كان المتبادر إلى افهامنا مصاديقها الطبيعيه.

و إذا سمعنا:إن الله خلق العالم و فعل كذا و علم كذا و أراد أو يريد أو شاء أو يشاء كذا قدينا الفعل بالزمان حملا على المعهود عندنا.

و إذا سمعنا نحو قوله: وَ لَدَيْنَا مَزِيدٌ الْآيَةِ.

و قوله: لَا تَخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا الْآيَةِ.

و قوله: وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ الْآيَةِ.

و قوله: وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ الْآيَةِ؛ قيدنا معنى الحضور بالمكان.

و إذا سمعنا نحو قوله: إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا الْآيَةِ.

أو قوله: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ الْآيَةِ.

أو قوله: يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ الْآيَةِ؛ فهمنا: أن الجميع سنخ واحد من الاراده، لما إن الأمر على ذلك فيما عندنا، و على هذا القياس.

و هذا شأننا فى جميع الألفاظ المستعمله، و من حقنا ذلك، فإن الذى أوجب علينا وضع الفاظ إنما هى الحاجه الاجتماعيه إلى التفهيم و التفهّم، و الاجتماع إنما تعلق به الانسان ليستكمل به فى الافعال المتعلقة بالماده و لواحقها، فوضعنا الألفاظ علائم لمسمياتها التى نريد منها غايات و اغراضا عائده الينا.

و كان ينبغى لنا ان نتنبه: أن المسميات الماديه محكومها بالتغير و التبدل بحسب تبدل الحوائج فى طريق التحول و التكامل كما ان السراج أول ما عمله الانسان كان اناء فيه فتيله و شىء من الدهن تشتعل به الفتيله للاستضاءه به فى الظلمه، ثم لم يزل يتكامل حتى بلغ اليوم إلى السراج الكهربائى و لم يبقى من اجزاء السراج المعمول أوّلا الموضوع بازائه لفظ السراج شىء و لا واحد.

و كذا الميزان المعمول أوّلا، و الميزان المعمول اليوم لتوزين ثقل الحراره مثلا.

و السلاح المتخذ سلاحاً أول يوم، و السلاح المعمول اليوم إلى غير ذلك.

فالمسميات بلغت في التغير إلى حيث فقدت جميع أجزائها السابقة ذاتاً و صفه و الاسم مع ذلك باق، و ليس إلا لأن المراد في التسميه إنما هو من الشيء غايته، لا شكله و صورته، فما دام غرض التوزين أو الاستضاءه أو الدفاع باقياً كان اسم الميزان و السراج و السلاح و غيرها باقياً على حاله.

فكان ينبغي لنا ان نتنبه أن المدار في صدق الاسم اشتمال المصداق على الغايه و الغرض، لا- جمود اللفظ على صورته واحده، فذلك مما لا مطمع فيه البتة، و لكن العاده و الانس منعانا ذلك، و هذا هو الذى دعا المقلده من أصحاب الحديث من الحشويه و المجسمه ان يجمدوا على ظواهر الآيات فى التفسير و ليس فى الحقيقه جموداً على الظواهر بل هو جمود على العاده و الانس فى تشخيص المصاديق.

لكن بين هذه الظواهر أنفسها أمور تبيّن: أن الاتكاء و الاعتماد على الانس و العاده فى فهم معانى الآيات يشوّش المقاصد منها و يختل به أمر الفهم كقوله تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ الْآيَة.

و قوله: لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ .

و قوله: سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ .

و هذا هو الذى دعا الناس أن لا يقتصروا على الفهم العادى و المصداق المأنوس به الذهن فى فهم معانى الآيات كما كان غرض الاجتناب عن الخطاء و الحصول على النتائج المجهوله هو الذى دعا الانسان إلى ان يتمسك بديل البحث العلمى، و أجاز ذلك للبحث ان يداخل فى فهم حقائق القرآن و تشخيص

مقاصده العاليه، و ذلك على احد وجهين، احدهما: ان بحث بحثا علميا أو فلسفيا أو غير ذلك عن مسئله من المسائل التي تتعرض له الآيه حتى نقف على الحق في المسأله، ثم نأتى بالآيه و نحملها عليه، و هذه طريقه يرتضيها البحث النظرى، غير ان القرآن لا يرتضيها كما عرفت، و ثانيهما: ان نفس القرآن بالقرآن و نستوضح معنى الآيه من نظيرتها بالتدبر المندوب إليه في نفس القرآن، و نشخص المصاديق و نعرفها بالخواص التي تعطيها الآيات، كما قال تعالى، **كَمَا قَالَ تَعَالَى وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ الْآيَةَ.**

و حاشا أن يكون القرآن تبيانا لكل شيء و لا يكون تبيانا لنفسه، و قال تعالى:

هُدًى لِّلنَّاسِ وَ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَ الْفُرْقَانِ الْآيَةَ.

و قال تعالى: **أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا الْآيَةَ.**

و كيف يكون القرآن هدى و بينه و فرقانا و نورا مبينا للناس في جميع ما يحتاجون و لا يكفيهم في احتياجهم إليه و هو اشد الاحتياج! و قال تعالى:

وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا الْآيَةَ؛ و اى جهاد اعظم من بذل الجهد في فهم كتابه! و اى سبيل اهدى إليه من القرآن!

و الآيات في هذا المعنى كثيره سنستفرغ الوسع فيها في بحث المحكم و المتشابه في اوائل سورة آل عمران.

ثم إن النبي صلى الله عليه و آله و سلم الذى علمه القرآن و جعله معلما لكتابه كما يقول تعالى:

نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَيَّ قَلْبِكَ الْآيَةَ.

و يقول **وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ الْآيَةَ؛** و عترته و اهل بيته الذين اقامهم النبي صلى الله عليه و آله و سلم هذا المقام في الحديث المتفق عليه بين

الفريقين «إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أبدا كتاب الله وعترتي أهل بيتي و أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض». و صدّقه الله تعالى في علمهم بالقرآن، حيث قال عزّ من قائل: **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**.

و قال: **إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ** الآية؛ و قد كانت طريقتهم في التعليم و التفسير هذه الطريقتين بعينها على ما وصل إلينا من اخبارهم في التفسير. و سنورد ما تيسر لنا مما نقل عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و ائمه أهل بيته في ضمن ابحاث روائيه في هذا الكتاب، و لا- يعثر المتتبع الباحث فيها على مورد واحد يستعان فيه على تفسير الآية بحجه نظريه عقليه، و لا فرضيه علميه.

و قد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ: «فاذا التبت عليكم الفتن كقطع الليل المظلم، فعليكم بالقرآن فانه شافع مشفع و ما حل مصدق، من جعله امامه قاده الى الجنة، و من جعله خلفه ساقه الى النار، و هو الدليل يدل على خير سبيل، و هو كتاب تفصيل و بيان و تحصيل و هو الفصل ليس بالهزل، و له ظهر و بطن، فظاهره حكمه و باطنه علم، ظاهره انيق و باطنه عميق، له نجوم و على نجومه نجوم، لا- تحصي عجائبه و لا- تبلى غرائب فيه مصابيح الهدى و منار الحكمه، و دليل على المعروف لمن عرف النصفه، فليرجع رجل بصره، و ليبلغ الصفه نظره ينجو من عطب و يخلص من نشب، فإن التفكير حياه قلب البصير، كما يمشى المستتير في الظلمات بالنور، يحسن التخلص و يقل التربص». و قال على عليه السلام (يصف القرآن على ما في النهج): «ينطق بعضه ببعض و يشهد بعضه على بعض» الخطبه.

هذا هو الطريق المستقيم و الصراط السوى الذى سلكه معلموا القرآن و هدايته صلوات الله عليهم.

و سنضع ما تيسر لنا بعون الله سبحانه من الكلام على هذه الطريقه فى البحث عن الآيات الشريفه فى ضمن بيانات،قد اجتنبنا فيها عن أن نركن الى حجه نظريه فلسفيه أو إلى فرضيه علميه،أو الى مكاشفه عرفانيه.

و احترزنا فيها عن أن نضع الا نكته ادبيه يحتاج إليها فهم الاسلوب العربى أو مقدمه بديهيه أو عمليه لا يختلف فيها الافهام.

و قد تحصل من هذه البيانات الموضوعه على هذه الطريقه من البحث استفراغ الكلام فيما نذكره:

(١)المعارف المتعلقة باسماء الله سبحانه و صفاته من الحياه و العلم و القدره و السمع و البصر و الوحده و غيرها،و أما الذات فستطلع أن القرآن يراه غنيا عن البيان.

(٢)المعارف المتعلقة بافعاله تعالى من الخلق و الامر و الإراده و المشيه و الهدايه و الاضلال و القضاء و القدر و الجبر و التفويض و الرضا و السخط،الى غير ذلك من متفرقات الافعال.

(٣)المعارف المتعلقة بالوسائط الواقعه بينه و بين الانسان كالحجب و اللوح و القلم و العرش و الكرسي و البيت المعمور و السماء و الارض و الملائكه و الشياطين و الجن و غير ذلك.

(٤)المعارف المتعلقة بالانسان قبل الدنيا.

(٥)المعارف المتعلقة بالانسان فى الدنيا كمعرفه تاريخ نوعه و معرفه نفسه

و معرفه اصول اجتماعه و معرفه النبوه و الرساله و الوحي و الالهام و الكتاب و الدين و الشريعه و من هذا الباب مقامات الانبياء المستفاده من قصصهم المحكيه.

(٦)المعارف المتعلقة بالانسان بعد الدنيا،و هو البرزخ و المعاد.

(٧)المعارف المتعلقة بالاخلاق الانسانيه،و من هذا الباب ما يتعلق بمقامات الأولياء فى صراط العبوديه من الاسلام و الايمان و الإحسان و الإخبات و الإخلاص و غير ذلك.

و أما آيات الأحكام،فقد اجتنبنا تفصيل البيان فيها لرجوع ذلك الى الفقه.

و قد أفاد هذه الطريقه من البحث ارتفاع التأويل بمعنى الحمل على المعنى المخالف للظاهر من بين الآيات.

و أما التأويل بالمعنى الذى يثبتته القرآن فى مواضع من الآيات،فسترى أنه ليس من قبيل المعانى.

ثم وضعنا فى ذيل البيانات متفرقات من ابحاث روائيه نورد فيها ما تيسر لنا ايراده من الروايات المنقوله عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم و أئمه أهل البيت سلام الله عليهم أجمعين من طرق العامه و الخاصه،و أما الروايات الوارده عن مفسرى الصحابه و التابعين،فإنها على ما فيها من الخلط و التناقض لا حجه فيها على مسلم.

و سيطلع الباحث المتدبر فى الروايات المنقوله عنهم عليهم السلام،ان هذه الطريقه الحديثه التى بنيت عليها بيانات هذا الكتاب،أقدم الطرق المأثوره فى التفسير التى سلكها معلموه سلام الله عليهم.

ثم وضعنا ابحاثا مختلفه،فلسفيه و علميه و تاريخيه و اجتماعيه و أخلاقيه،

حسب ما تيسر لنا من البحث، وقد أثرنا في كل بحث قصر الكلام على المقدمات المسانخه له، من غير تعد عن طور البحث.

نسأل الله تعالى السداد و الرشاد فانه خير معين و هاد

الفقير إلى الله محمد حسين الطباطبائي

ص: ١٧

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)

بيان:

اشاره

قوله تعالى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الناس ربما يعملون عملا أو يتدثون في عمل و يقرنونه باسم عزيز من أعزتهم أو كبير من كبرائهم، ليكون عملهم ذاك مباركا بذلك متشرفا، أو ليكون ذكرى يذكرهم به، و مثل ذلك موجود أيضا في باب التسميه فر بما يسمون المولود الجديد من الانسان، أو شيئا مما صنعوه أو عملوه كدار بنوها أو مؤسسه اسسوها باسم من يحبونه أو يعظموه، ليبقى الاسم بقاء المسمى الجديد، و يبقى المسمى الأول نوع بقاء بقاء

الاسم كمن يسمى ولده باسم والده ليحيى بذلك ذكره فلا يزول ولا ينسى.

وقد جرى كلامه تعالى هذا المجرى، فابتدأ الكلام باسمه عز اسمه؛ ليكون ما يتضمنه من المعنى معلما باسمه مرتبطا به، و ليكون أدبا يؤدب به العباد فى الاعمال و الافعال و الأقوال، فيبتدءوا باسمه و يعلموا به، فيكون ما يعملونه معلما باسمه منعوتا بنعته تعالى مقصودا لاجله سبحانه فلا يكون العمل هالكا باطلا مبترا، لأنه باسم الله الذى لا سبيل للهلاك و البطلان إليه.

و ذلك أن الله سبحانه يبين فى مواضع من كلامه: أن ما ليس لوجهه الكريم هالك باطل، و أنه: سيقدم الى كل عمل عملوه مما ليس لوجهه الكريم، فيجعله هباء منثورا، و يحبط ما صنعوا و يبطل ما كانوا يعملون، و انه لا بقاء لشيء إلا وجهه الكريم فما عمل لوجهه الكريم و صنع باسمه هو الذى يبقى و لا يفنى، و كل أمر من الامور انما نصيبه من البقاء بقدر ما لله فيه نصيب، و هذا هو الذى يفيد ما رواه الفريقان عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم إنه قال: «كل امر ذى بال لم يبدأ فيه باسم الله فهو ابتر الحديث». و الأبر هو المنقطع الآخر، فالأنسب ان متعلق الباء فى البسملة ابتدئ بالمعنى الذى ذكرناه فقد ابتدأ بها الكلام بما انه فعل من الأفعال، فلا محاله له وحده، و وحده الكلام بوحدته مدلوله و معناه، فلا محاله له معنى ذا وحده، و هو المعنى المقصود افهامه من إلقاء الكلام، و الغرض المحض منه.

وقد ذكر الله سبحانه الغرض المحصل من كلامه الذى هو جملة القرآن اذ قال تعالى: **قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ الْآيَةَ؛ (المائدة ١٦).** الى غير ذلك من الآيات التى أفاد فيها: ان الغايه من كتابه و كلامه هدايه العباد، فالهدايه جملة هى المبتدئه باسم الله الرحمن الرحيم، فهو الله الذى إليه مرجع العباد، و هو الرحمن يبين لعباده سبيل رحمته العامه للمؤمن و الكافر، مما فيه خيرهم فى وجودهم و حياتهم، و هو الرحيم يبين لهم سبيل رحمته الخاصه بالمؤمنين و هو سعادته آخرتهم و لقاء ربهم و قد قال تعالى: **وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ**

شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ. (الأعراف ١٥٦). فهذا بالنسبة الى جملة القرآن.

ثم إنه سبحانه كرّر ذكر السوره فى كلامه كثيرا كقوله تعالى: فَأَتُوا بِسُورِهِ مِثْلَهُ (يونس ٣٨). و قوله: فَأَتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ (هود ١٣). و قوله تعالى: إِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً (التوبه ٨٦). و قوله: سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا (النور ١). فبان لنا من ذلك: أن لكل طائفه من هذه الطوائف من كلامه (التي فضّيلها قطعاً قطعاً، وسمى كل قطعه سورَه) نوعاً من وحده التأليف و التمام، لا يوجد بين أبعاض من سورَه و لا بين سورَه و سورَه، و من هنا نعلم: أن الأغراض و المقاصد المحصله من السور مختلفه، و أن كل واحده منها مسوقه لبيان معنى خاص و لغرض محصل لا تتم السوره إلا بتمامه، و على هذا فالبسملة فى مبتدأ كل سورَه راجعه الى الغرض الخاص من تلك السوره.

فالبسملة فى سورَه الحمد راجعه الى غرض السوره و المعنى المحصل منه، و الغرض الذى يدل عليه سرد الكلام فى هذه السوره هو حمد الله باظهار العبوديه له سبحانه بالافصاح عن العباده و الاستعانه و سؤال الهدايه، فهو كلام يتكلم به الله سبحانه نيابه عن العبد، ليكون متأدباً فى مقام اظهار العبوديه بما أدبه الله به.

و إظهار العبوديه من العبد هو العمل الذى يتلبس به العبد، و الأمر ذو البال الذى يقدم عليه، فالابتداء باسم الله سبحانه الرحمن الرحيم راجع إليه، فالمعنى باسمك أظهر لك العبوديه.

فمتعلق الباء فى بسملة الحمد الابتداء و يراد به تتميم الاخلاص فى مقام العبوديه بالتخاطب. و ربما يقال انه الاستعانه و لا بأس به و لكن الابتداء انسب لاشتمال السوره على الاستعانه صريحاً فى قوله تعالى: وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ .

و أما الاسم، فهو اللفظ الدال على المسمى مشتق من السمه بمعنى العلامه أو من السمو بمعنى الرفعه و كيف كان فالذى يعرفه منه اللغه و العرف هو اللفظ الدال و يستلزم ذلك أن يكون

غير المسمى، و أما الاسم بمعنى الذات مأخوذاً بوصف من أوصافه فهو من الأعيان لا من الألفاظ و هو مسمى الاسم بالمعنى الأول كما ان لفظ العالم (من اسماء الله تعالى) اسم يدل على مسماه و هو الذات مأخوذة بوصف العلم و هو بعينه اسم بالنسبة الى الذات الذى لا خبر عنه الا بوصف من اوصافه و نعت من نعوته و السبب فى ذلك أنهم وجدوا لفظ الاسم موضوعاً للدال على المسمى من الألفاظ، ثم وجدوا أن الأوصاف المأخوذة على وجه تحكى عن الذات و تدل عليه حال اللفظ المسمى بالاسم فى أنها تدل على ذوات خارجيه، فسموا هذه الاوصاف الداله على الذوات أيضاً أسماءً فانتج ذلك ان الاسم كما يكون أمراً لفظياً كذلك يكون أمراً عينياً، ثم وجدوا ان الدال على الذات القريب منه هو الاسم بالمعنى الثانى المأخوذ بالتحليل، و ان الاسم بالمعنى الأول إنما يدل على الذات بواسطته، و لذلك سمو الذى بالمعنى الثانى اسماً، و الذى بالمعنى الأول اسم الاسم، هذا و لكن هذا كله أمر أدى إليه التحليل النظرى و لا ينبغى أن يحمل على اللغة، فالاسم بحسب اللغة ما ذكرناه.

و قد شاع النزاع بين المتكلمين فى الصدر الأول من الاسلام فى أن الاسم عين المسمى أو غيره و طالت المشاجرات فيه، و لكن هذا النوع من المسائل قد اتضحت اليوم اتضاحاً يبلغ الى حد الضروره و لا يجوز الاشتغال بها بذكر ما قيل و ما يقال فيها و العناية بابطال ما هو الباطل و إحقاق ما هو الحق فيها، فالصفح عن ذلك أولى.

و أما لفظ الجلاله، فالله أصله الإله، حذفت الهمزه لكثرة الاستعمال، و إله من آله الرجل يأله بمعنى عبد، او من آله الرجل أو و له الرجل أى تحير، فهو فعال بكسر الفاء بمعنى المفعول ككتاب بمعنى المكتوب سمي إلهاً لأنه معبود أو لأنه مما تحيرت فى ذاته العقول، و الظاهر انه علم بالغلبه، و قد كان مستعملاً دائراً فى الألسن قبل نزول القرآن يعرفه العرب الجاهلى كما يشعر به قوله تعالى: **وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (الزخرف ٨٧)**، و قوله تعالى: **فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَ هَذَا لِشُرَكَائِنَا (الأنعام ١٣٦)**.

و مما يدل على كونه علما انه يوصف بجميع الأسماء الحسنی و سائر أفعاله المأخوذه من تلك الأسماء من غير عكس، فيقال: الله الرحمن الرحيم و يقال: رحم الله و علم الله، و رزق الله، و لا يقع لفظ الجلاله صفة لشيء منها و لا يؤخذ منه ما يوصف به شيء منها.

و لما كان وجوده سبحانه، و هو إله كل شيء يهدى الى اتصافه بجميع الصفات الكمالیه كانت الجميع مدلولاً عليها به بالالتزام، و صح ما قيل ان لفظ الجلاله اسم للذات الواجب الوجود المستجمع لجميع صفات الكمال و إلا فهو علم بالغلبه لم تعمل فيه عنايه غير ما يدل عليه ماده إله.

و اما الوصفان: الرحمن الرحيم، فهما من الرحمه، و هى وصف انفعالى و تأثر خاص يلم بالقلب عند مشاهدته من يفقد أو يحتاج الى ما يتم به أمره فيبعث الانسان الى تميم نقصه و رفع حاجته، إلا ان هذا المعنى يرجع بحسب التحليل الى الإعطاء و الإفاضه لرفع الحاجه و بهذا المعنى يتصف سبحانه بالرحمه.

و الرحمن، فعلان صيغه مبالغه تدل على الكثره، و الرحيم فعيل صفة مشبّهه تدل على الثبات و البقاء و لذلك ناسب الرحمن ان يدل على الرحمه الكثيره المفاضه على المؤمن و الكافر و هو الرحمه العامه، و على هذا المعنى يستعمل كثيرا فى القرآن، قال تعالى: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (طه ٥). و قال: قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مِيدًا (مريم ٧٥). الى غير ذلك، و لذلك أيضا ناسب الرحيم أن يدل على النعمه الدائمه و الرحمه الثابته الباقية التى تقاض على المؤمن كما قال تعالى: وَ كَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (الأحزاب ٤٣).

و قال تعالى: إِنَّهُ بِهِمْ رُؤُفٌ رَحِيمٌ (التوبه ١١٧). الى غير ذلك، و لذلك قيل: ان الرحمن عامّ للمؤمن و الكافر و الرحيم خاص بالمؤمن.

و قوله تعالى: الْحَمْدُ لِلَّهِ، الحمد على ما قيل: هو الثناء على الجميل الاختيارى و المدح أعم منه، يقال: حمدت فلانا أو مدحته لكرمته، و يقال: مدحت اللؤلؤ على صفائه و لا

يقال: حمدته على صفائه، واللام فيه للجنس أو الاستغراق و المآل هاهنا واحد.

و ذلك ان الله سبحانه يقول: ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (غافر ٦٢). فأفاد أن كل ما هو شيء فهو مخلوق لله سبحانه، وقال: الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (السجده ٧).

فأثبت الحسن لكل شيء مخلوق من جهة أنه مخلوق له منسوب اليه، فالحسن يدور مدار الخلق و بالعكس، فلا خلق إلا و هو حسن جميل باحسانه و لا حسن إلا و هو مخلوق له منسوب اليه، و قد قال تعالى: هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (الزمر ٢٤). و قال: وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ (طه ١١١). فانبا أنه لم يخلق ما خلق بقهر قاهر و لا يفعل ما فعل باجبار من مجبر بل خلقه عن علم و اختيار فما من شيء إلا و هو فعل جميل اختياري له فهذا من جهة الفعل، و أما من جهة الاسم فقد قال تعالى: اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (طه ٨).

و قال تعالى: وَ لِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ (الأعراف / ١٨٠). فهو تعالى جميل في اسمائه و جميل في أفعاله، و كل جميل منه.

فقد بان أنه تعالى محمود على جميل اسمائه و محمود على جميل أفعاله، و أنه ما من حمد يحمده حامد لأمر محمود إلا كان لله سبحانه حقيقه لأن الجميل الذي يتعلق به الحمد منه سبحانه، فله سبحانه جنس الحمد و له سبحانه كل حمد.

ثم ان الظاهر من السياق و بقرينه الالتفات الذي في قوله: إِيَّاكَ نَعْبُدُ الْآيَةَ؛ إن السوره من كلام العبد، و انه سبحانه في هذه السوره يلقن عبده حمد نفسه و ما ينبغي ان يتأدب به العبد عند نصب نفسه في مقام العبوديه، و هو الذي يؤيده قوله: الْحَمْدُ لِلَّهِ .

و ذلك إن الحمد توصيف، و قد نزه سبحانه نفسه عن وصف الواصفين من عباده حيث قال: سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ (الصافات ١٦٠). و الكلام مطلق غير مقيد، و لم يرد في كلامه تعالى ما يؤذن بحكايه الحمد عن غيره إلا ما حكاه عن عده من أنبيائه المخلصين، قال تعالى في خطابه لنوح عليه السلام: فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ

الظَّالِمِينَ (المؤمنون ٢٨). وقال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْتِغَايِلَ وَإِسْتِحْقَاقَ (إبراهيم ٣٩). وقال تعالى لنيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِهِ مَوَاضِعٍ مِنْ كَلَامِهِ: وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ (النمل ٩٣). وقال تعالى حكاية عن داود و سليمان عليهما السلام:

وَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ (النمل ١٥). وإلا- ما حكاها عن أهل الجنة وهم المطهرون من غل الصدور و لغو القول و التأثيم كقوله: وَ آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (يونس ١٠).

و أما غير هذه الموارد فهو تعالى و ان حكى الحمد عن كثير من خلقه بل عن جميعهم، كقوله تعالى: وَ الْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ (الشورى ٥). و قوله: وَ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ (الرعد ١٣). و قوله: وَ إِن مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ (الإسراء ٤٤). إلا أنه سبحانه شفع الحمد فى جميعها بالتسبيح بل جعل التسبيح هو الأصل فى الحكاية و جعل الحمد معه، و ذلك أن غيره تعالى لا يحيط بجمال أفعاله و كمالها كما لا- يحيطون بجمال صفاته و أسمائه التى منها جمال الأفعال، قال تعالى: وَ لَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (طه ١١٠). فما وصفوه به فقد أحاطوا به و صار محدودا بحدودهم مقدرا بقدر نيلهم منه، فلا يستقيم ما أثنوا به من ثناء إلا من بعد أن ينزهوه و يسبحوه عن ما حدوه و قدروه بافهامهم، قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (النحل ٧٤)، و أما المخلصون من عباده تعالى فقد جعل حمدهم حمده و وصفهم وصفه حيث جعلهم مخلصين له، فقد بان ان الذى يقتضيه أدب العبودية ان يحمد العبد ربه بما حمد به نفسه و لا يتعدى عنه، كما فى الحديث الذى رواه الفريقان عن النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ «لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» الحديث؛ فقوله فى أول هذه السورة: الحمد لله، تاديب بادب عبودى ما كان للعبد ان يقوله لو لا ان الله تعالى قاله نيابه و تعليما لما ينبغى الثناء به.

و قوله تعالى: رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ. (و قرأ الاكثر ملك يوم الدين) فالرب هو المالك الذى يدبر امر مملوكه، ففيه معنى الملك، و معنى الملك

(الذى عندنا فى ظرف الاجتماع) هو نوع خاص من الاختصاص و هو نوع قيام شىء بشىء يوجب صحه التصرفات فيه، فقولنا العين الفلانيه ملكنا معنا: ان لها نوعا من القيام و الاختصاص بنا يصح معه تصرفاتنا فيها و لو لا ذلك لم تصح تلك التصرفات و هذا فى الاجتماع معنى وضعى اعتبارى غير حقيقى و هو مأخوذ من معنى آخر حقيقى نسميه ايضا ملكا، و هو نحو قيام اجزاء وجودنا و قوانا بنا فان لنا بصرا و سمعا و يدا و رجلا، و معنى هذا الملك انها فى وجودها قائمه بوجودنا غير مستقلة دوننا بل مستقلة باستقلالنا و لنا ان نتصرف فيها كيف شئنا و هذا هو الملك الحقيقى.

و الذى يمكن انتسابه اليه تعالى بحسب الحقيقه هو حقيقه الملك دون الملك الاعتبارى الذى يبطل ببطلان الاعتبار و الوضع، و من المعلوم ان الملك الحقيقى لا ينفك عن التدبير فان الشىء اذا افتقر فى وجوده الى شىء فلم يستقل عنه فى وجوده لم يستقل عنه فى آثار وجوده، فهو تعالى رب لما سواه لان الرب هو المالك المدبر و هو تعالى كذلك.

و اما الْعَالَمِينَ: فهو جمع العالم بفتح اللام بمعنى ما يعلم به كالقالب و الخاتم و الطابع بمعنى ما يقرب به و ما يختم به و ما يطبع به، يطلق على جميع الموجودات و على كل نوع مؤلف الافراد و الاجزاء منها كعالم الجماد و عالم النبات و عالم الحيوان و عالم الانسان و على كل صنف مجتمع الافراد ايضا كعالم العرب و عالم العجم و هذا المعنى هو الانسب لما يثول اليه عد هذه الاسماء الحسنى حتى ينتهى الى قوله مالك يوم الدين على ان يكون الدين و هو الجزاء يوم القيمة مختصا بالانسان أو الانس و الجن فيكون المراد بالعالمين عوالم الانس و الجن و جماعاتهم و يؤيده ورود هذا اللفظ بهذه العناية فى القرآن كقوله تعالى: وَ اضْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (آل عمران ٤٢). و قوله تعالى: لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (الفرقان ١)، و قوله تعالى:

أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (الأعراف ٨٠).

و اما مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ: فقد عرفت معنى المالك و هو المأخوذ من الملك بكسر

الميم، واما الملك و هو مأخوذ من الملك بضم الميم، فهو الذى يملك النظام القومى و تدبيرهم دون العين، و بعبارة اخرى يملك الامر و الحكم فيهم.

و قد ذكر لكل من القراءتين، ملك و مالك؛ وجوه من التأيد غير ان المعنيين من السلطنة ثابتان فى حقه تعالى، و الذى تعرفه اللغه و العرف ان الملك بضم الميم هو المنسوب الى الزمان يقال: ملك العصر الفلانى، و لا- يقال مالك العصر الفلانى الا بعنايه بعيده، و قد قال تعالى:

ملك يوم الدين فنسبه الى اليوم، و قال ايضا: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (غافر / ١٦).

بحث روائى:

فى العيون و المعانى عن الرضا عليه السّلام فى معنى قوله: بسم الله، قال عليه السّلام: يعنى أسم نفسى بسمه من سمات الله و هى العباده، قيل له: ما السمه؟ قال: العلامه.

اقول: و هذا المعنى كالمتولد من المعنى الذى اشرنا اليه فى كون الباء للابتداء فان العبد اذا وسم عبادته باسم الله لزم ذلك ان يسم نفسه التى ينسب العباده إليها بسمه من سماته.

و فى التهذيب عن الصادق عليه السّلام، و فى العيون و تفسير العياشى عن الرضا عليه السّلام انها اقرب الى اسم الله الاعظم من ناظر العين الى بياضها.

اقول: و سيجىء معنى الروايه فى الكلام على اسم الاعظم.

و فى العيون عن امير المؤمنين عليه السّلام: انها من الفاتحه و ان رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم كان يقرئها و يعدّها آيه منها، و يقول فاتحه الكتاب هى السبع المثانى.

اقول: و روى من طرق اهل السنه و الجماعه نظير هذا المعنى فعن الدارقطنى عن ابى هريره قال: قال رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم: اذا قرأتم الحمد فاقراءوا بسم الله الرحمن الرحيم، فانها امّ القرآن و السبع المثانى، و بسم الله الرحمن الرحيم احدى آياتها.

و فى الخصال عن الصادق عليه السلام قال: ما لهم؟ قاتلهم الله عمدوا الى اعظم آيه فى كتاب الله فزعموا انها بدعه اذا اظهروها.

و عن الباقر عليه السلام: سرقوا اكرم آيه فى كتاب الله؛ بسم الله الرحمن الرحيم، و ينبغى الاتيان به عند افتتاح كل أمر عظيم أو صغير ليبارك فيه.

اقول: و الروايات عن أئمة أهل البيت فى هذا المعنى كثيرة، و هى جميعا تدل على ان البسملة جزء من كل سورة إلا- سورة البراءة، و فى روايات أهل السنه و الجماعة ما يدل على ذلك.

ففى صحيح مسلم عن أنس قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: انزل على آنفا سورة فقراً: بسم الله الرحمن الرحيم.

عن أبى داود عن ابن عباس (و قد صححوا سندها) قال: ان رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم كان لا يعرف فصل السوره، (و فى روايه انقضاء السوره) حتى ينزل عليه، بسم الله الرحمن الرحيم.

اقول: و روى هذا المعنى من طرق الخاصه عن الباقر عليه السلام.

و فى الكافى و التوحيد و المعانى و تفسير العياشى عن الصادق عليه السلام فى حديث: و الله إله كل شىء، الرحمن بجميع خلقه، الرحيم بالمؤمنين خاصه.

و روى عن الصادق عليه السلام: الرحمن اسم خاص بصفه عامه و الرحيم اسم عام بصفه خاصه.

اقول: قد ظهر مما مر وجه عموم الرحمن للمؤمن و الكافر و اختصاص الرحيم بالمؤمن، أما كون الرحمن اسما خاصا بصفه عامه و الرحيم اسما عاما بصفه خاصه فكانه يريد به أن الرحمن خاص بالدنيا و يعم الكافر و المؤمن و الرحيم عام للدنيا و الآخره و يخص المؤمنين، و بعبارة اخرى: الرحمن يختص بالافاضه التكوينية التى يعم المؤمن و الكافر، و الرحيم يعم التكوين و التشريع الذى بابه باب الهدايه و السعاده، و يختص بالمؤمنين لان الثبات و البقاء يختص بالنعم التى تفاض عليهم و العاقبه للتقوى.

و فى كشف الغمه عن الصادق عليه السّلام قال: فقد لابى عليه السّلام: بغله فقال لئن ردها الله علىّ لاحمدنه بمحامد يرضيها فما لبث أن أتى بها بسرجها و لجامها فلما استوى و ضم اليه ثيابه رفع رأسه الى السماء و قال الحمد لله و لم يزد، ثم قال ما تركت و لا ابقيت شيئاً جعلت أنواع المحامد لله عزّ و جل، فما من حمد الا و هو داخل فيها.

قلت: و فى العيون عن على عليه السلام انه سئل عن تفسيرها فقال: هو ان الله عزّ ف عباده بعض نعمه عليهم جملا اذ لا يقدرّون على معرفه جميعها بالتفصيل لانها اكثر من ان تحصى أو تعرف، فقال: قولوا الحمد لله على ما انعم به علينا.

اقول: يشير عليه السّلام الى ما مر من أن الحمد، من العبد و انما ذكره الله بالنيابه تأديبا و تعليما (1).

بحث فلسفى:

البراهين العقليه ناهضه على ان استقلال المعلول و كل شأن من شئونه انما هو بالعله، و ان كل ما له من كمال فهو من اخلال وجود علتة، فلو كان للحسن و الجمال حقيقه فى الوجود فكماله و استقلاله للواجب تعالى لانه العله التى ينتهى اليه جميع العلل، و الثناء و الحمد هو اظهار موجود ما بوجوده كمال موجود آخر و هو لا محاله علتة، و اذا كان كل كمال ينتهى اليه تعالى فحقيقه كل ثناء و حمد تعود و تنتهى اليه تعالى، فالحمد لله رب العالمين.

قوله تعالى: **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** الآية؛ العبد هو المملوك من الانسان أو من كل ذى شعور بتجريد المعنى كما يعطيه قوله تعالى: **إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا** (مریم 93). و العباده مأخوذه منه و ربما تفرقت اشتقاقاتها أو المعانى المستعمله هى فيها لاختلاف الموارد، و ما ذكره الجوهرى فى الصحاح أن أصل العبوديه

ص: ٢٩

الخصوع فهو من باب الأخذ بلازم المعنى وإلا فالخصوع متعد باللام والعباده متعديه بنفسها.

و بالجمله فكأنّ العباده هي نصب العبد نفسه في مقام المملوكيه لربه و لذلك كانت العباده منافيه للاستكبار و غير منافيه للاشتراك فمن الجائز ان يشترك ازيد من الواحد في ملك رقبه أو في عباده عبد، قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَشْرِكُونَ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (غافر ١٦٠). و قال تعالى: وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (الكهف ١١٠). فعد الاشتراك ممكنا و لذلك نهى عنه، و النهى لا يمكن إلا عن ممكن مقدور بخلاف الاستكبار عن العباده فانه لا يجامعها.

و العبوديه انما يستقيم بين العبيد و مواليتهم فيما يملكه الموالى منهم، و اما ما لا يتعلق به الملك من شئون وجود العبد ككونه ابن فلان أو ذا طول في قامته فلا يتعلق به عباده و لا عبوديه، لكن الله سبحانه في ملكه لعباده على خلاف هذا النعت فلا ملكه يشوبه ملك ممن سواه و لا ان العبد يتبع في نسبه اليه تعالى فيكون شيء منه مملوكا و شيء آخر غير مملوك، و لا تصرف من التصرفات فيه جائز و تصرف آخر غير جائز كما ان العبيد فيما بيننا شيء منهم مملوك و هو افعالهم الاختياريه و شيء غير مملوك و هو الاوصاف الاضطراريه، و بعض التصرفات فيهم جائز كالاستفاده من فعلهم و بعضها غير جائز كقتلهم من غير جرم مثلا، فهو تعالى مالك على الاطلاق من غير شرط و لا قيد و غيره مملوك على الاطلاق من غير شرط و لا قيد فهناك حصر من جهتين، الرب مقصور في المالكيه، و العبد مقصور في العبوديه، و هذه هي التي يدل عليه قوله: إِيَّاكَ نَعْبُدُ. حيث قدم المفعول و اطلقت العباده.

ثم ان الملك حيث كان متقوم الوجود بمالكة كما عرفت مما مر، فلا يكون حاجبا عن مالكة و لا يحجب عنه، فانك اذا نظرت الى دار زيد فان نظرت إليها من جهه انها دار امكنك ان تغفل عن زيد، و ان نظرت إليها بما انها ملك زيد لم يمكنك الغفله عن مالكةا و هو زيد.

و لكنك عرفت ان ما سواه تعالى ليس له الا المملوكيه فقط و هذه حقيقته فشىء منه فى الحقيقه لا يحجب عنه تعالى، و لا النظر اليه يجمع الغفله عنه تعالى، فله تعالى الحضور المطلق، قال سبحانه: أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ (السجده ٥٤) و اذا كان كذلك فحق عبادته تعالى ان يكون عن حضور من الجانبين.

اما من جانب الرب عزّ و جل، فان يعبد عبادته معبود حاضر و هو الموجب للالتفات (المأخوذ فى قوله تعالى إِيَّاكَ نَعْبُدُ) عن الغيبه الى الحضور.

اما من جانب الرب العبد، فان يكون عبادته عبادته عبد حاضر من غير ان يغيب فى عبادته فيكون عبادته صورته فقط من غير معنى و جسدا من غير روح؛ أو يتبغض فيشتغل بربه و بغيره، اما ظاهرا و باطنا كالوثنيين فى عبادتهم لله و لاصنامهم معا، أو باطنا فقط كمن يشتغل فى عبادته بغيره تعالى بنحو الغايات و الاغراض؛ كأن يعبد الله و همّه فى غيره، أو يعبد الله طمعا فى جنه أو خوفا من نار فان ذلك كله من الشرك فى العباده الذى ورد عنه النهى، قال تعالى: فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (الزمر ٢)، و قال تعالى: أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (الزمر ٣).

فالعباده إنما تكون عبادته حقيقه، اذا كان على خلوص من العبد و هو الحضور الذى ذكرناه، و قد ظهر انه انما يتم اذا لم يشتغل بغيره تعالى فى عمله فيكون قد اعطاه الشركه مع الله سبحانه فى عبادته و لم يتعلق قلبه فى عبادته رجاء أو خوفا هو الغايه فى عبادته كجنه أو نار فيكون عبادته له لا لوجه الله، و لم يشتغل بنفسه فيكون منافيا لمقام العبوديه التى لا تلائم الإنيه و الاستكبار، و كأن الإتيان بلفظ المتكلم مع الغير للايماء الى هذه النكته فان فيه هضمًا للنفس بالغاء تعينها و شخوصها و حدها المستلزم لنحو من الإنيه و الاستقلال بخلاف ادخالها

فى الجماعه و خلطها بسواد الناس فان فيه امحاء التعين و اعفاء الاثر فيؤمن به ذلك.

و قد ظهر من ذلك كله: ان اظهار العبوديه بقوله: **إِيَّاكَ نَعْبُدُ**؛ لا يشتمل على نقص من حيث المعنى و من حيث الاخلاص الا ما فى قوله: **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** من نسبه العبد العباده الى نفسه المشتمل بالاستلزام على دعوى الاستقلال فى الوجود و القدره و الاراده مع انه مملوك و المملوك لا يملك شيئاً، فكأنه تدورك ذلك بقوله تعالى: **وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**، أى انما ننسب العباده الى انفسنا و ندعيه لنا مع الاستعانه بك لا مستقلين بذلك مدعين ذلك دونك، فقوله: **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**؛ لإبداء معنى واحد و هو العباده عن اخلاص، و يمكن ان يكون هذا هو الوجه فى اتحاد الاستعانه و العباده فى السياق الخطابى حيث قيل اياك نعبد و اياك نستعين من دون ان يقال: اياك نعبد اعنا و اهدنا الصراط المستقيم و اما تغيير السياق فى قوله: **إِهْدِنَا الصِّرَاطَ**..

الآيه. فسيجىء الكلام فيه إن شاء الله تعالى.

فقد بان بما مر من البيان فى قوله: **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**... الآيه؛ الوجه فى الالتفات من الغيبه الى الحضور، و الوجه فى الحصر الذى يفيد تقديم المفعول، و الوجه فى اطلاق قوله:

نَعْبُدُ، و الوجه فى اختيار لفظ المتكلم مع الغير، و الوجه فى تعقيب الجملة الاولى بالثانيه، و الوجه فى تشريك الجملتين فى السياق، و قد ذكر المفسرون نكات اخرى فى اطراف ذلك من ارادها فليراجع كتبهم و هو الله سبحانه غريم لا يقضى دينه.

[سوره الفاتحه (١): الآيات ٦ الى ٧]

اشاره

إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)

قوله تعالى: إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ الخ؛ اما الهدايه فيظهر معناها فى ذيل الكلام على الصراط و اما الصراط فهو و الطريق و السبيل قريب المعنى، و قد وصف تعالى الصراط بالاستقامه ثم بين انه الصراط الذى يسلكه الذين انعم الله تعالى عليهم، فالصراط الذى من شأنه ذلك هو الذى سئل الهدايه اليه و هو بمعنى الغايه للعباده اى: ان العبد يسأل ربه ان تقع عبادته الخالصه فى هذا الصراط.

بيان ذلك: ان الله سبحانه قرر فى كلامه لنوع الانسان بل لجميع من سواه سبيلا- يسلكون به اليه سبحانه فقال تعالى: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (الانشقاق/ ٦) و قال تعالى: وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (التغابن/ ٣)، و قال أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (الشورى/ ٥٣)، الى غير ذلك من الآيات و هى واضحه الدلاله على ان الجميع سالكو سبيل، و انهم سائرون الى الله سبحانه.

ثم بين: أن السبيل ليس سبيلا واحدا ذا نعت واحد بل هو منشعب الى شعبتين منقسم الى طريقين، فقال: أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَ أَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (يس/ ٦١).

فهناك طريق مستقيم و طريق آخر ورائه، و قال تعالى: فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسِرْ تَجِئُوا لِي وَ لِيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (البقره/ ١٨٦)، و قال تعالى: أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (غافر/ ٦٠)، فبين تعالى: انه قريب من عباده و ان الطريق الاقرب اليه تعالى طريق عبادته و دعائه، ثم قال تعالى فى وصف الذين لا يؤمنون: أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (السجده/ ٤٤). فبين: ان غايه الذين لا يؤمنون فى مسيرهم و سبيلهم بعيد.

فتبين: ان السبيل الى الله سبيلان: سبيل قريب و هو سبيل المؤمنين و سبيل بعيد و هو سبيل غيرهم فهذا نحو اختلاف فى السبيل و هناك نحو آخر من الاختلاف، قال تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ (الأعراف ٤٠).** و لو لا- طروق من متطرق لم يكن للباب معنى فهناك طريق من السفلى الى العلو، و قال تعالى: **وَمَنْ يَخِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَد هَوَىٰ (طه ٨١).** و الهوى هو السقوط الى أسفل، فهناك طريق آخر آخذ فى السفاله و الانحدار، و قال تعالى: **وَمَنْ يَتَّبِدِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (البقره ١٠٨).** فعرف الضلال عن سواء السبيل بالشرك لمكان قوله: **فَقَدْ ضَلَّ**، و عند ذلك تقسم الناس فى طرقهم ثلاثه اقسام: من طريقه الى فوق و هم الذين يؤمنون بآيات الله و لا يستكبرون عن عبادته، و من طريقه الى السفلى و هم المغضوب عليهم، و من ضل الطريق و هو حيران فيه و هم الضالون، و ربما اشعر بهذا التقسيم قوله تعالى: **صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ .**

و الصراط المستقيم لا- محاله ليس هو الطريقين الآخرين من الطرق الثلاث اعنى: طريق المغضوب عليهم و طريق الضالين فهو من الطريق الأول الذى هو طريق المؤمنين غير المستكبرين إلا ان قوله تعالى: **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ (المجادله ١١).** يدل على ان نفس الطريق الأول ايضا يقع فيه انقسام.

و بيانه: ان كل ضلال فهو شرك كالعكس على ما عرفت من قوله تعالى: **وَمَنْ يَتَّبِدِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (البقره ١٠٨).** و فى هذا المعنى قوله تعالى: **أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَ أَنْ اعْبُدُونِي (هذا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا (يس ٦٢).** و القرآن بعد الشرك ظلما و بالعكس، كما يدل عليه قوله تعالى: **حكاية عن الشيطان لما قضى الأمر: إِنَّى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (إبراهيم ٢٢).** كما يعد الظلم ضلالا فى قوله تعالى: **الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ**

أَوْلِيَّكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (الأَنْعَامُ ٨٢). و هو ظاهر من ترتيب الاهتداء و الامن من الضلال أو العذاب الذى يستتبعه الضلال، على ارتفاع الظلم و لبس الايمان به، و بالجمله الضلال و الشرك و الظلم امرها واحد و هى متلازمه مصداقا، و هذا هو المراد من قولنا: ان كل واحد منها معرّف بالآخر أو هو الآخر فالمراد المصداق دون المفهوم.

اذا عرفت هذا علمت ان الصراط المستقيم الذى هو صراط غير الضالين صراط لا يقع فيه شرك و لا ظلم البتة كما لا يقع فيه ضلال البتة، لا- فى باطن الجنان من كفر أو خطور لا يرضى به الله سبحانه، و لا فى ظاهر الجوارح و الاركان من فعل معصيه أو قصور فى طاعه، و هذا هو حق التوحيد علما و عملا اذ لا ثالث لهما و ما ذا بعد الحق الا الضلال؟ و ينطبق على ذلك قوله تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (الأَنْعَامُ ٨٢)، و فيه تشبث للامن فى الطريق و وعد بالاهتداء التام بناء على ما ذكره: من كون اسم الفاعل حقيقه فى الاستقبال فليفهم فهذا نعت من نعوت الصراط المستقيم.

ثم انه تعالى عرف هؤلاء المنعم عليهم الذين نسب الصراط المستقيم اليهم بقوله تعالى:

وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسَنٌ أَوْلِيَّكَ رَفِيقًا (النساء ٦٨). و قد وصف هذا الايمان و الاطاعه قبل هذه الآيه بقوله: فَلَا وَ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا وَ لَوْ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَ لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَ أَشَدَّ تَنْبِيئًا (النساء / ٦٦). فوصفهم بالثبات التام قولا و فعلا و ظاهرا و باطنا على العبوديه لا يشذ منهم شاذ من هذه الجبهه و مع ذلك جعل هؤلاء المؤمنين تبعاً لاولئك المنعم عليهم و فى صف دون صفهم لمكان مع و لمكان قوله: وَ حَسَنٌ أَوْلِيَّكَ رَفِيقًا وَ لم يقل: فاولئك من الذين.

و نظير هذه الآيه قوله تعالى: وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَ الشُّهَدَاءُ

عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ (الحديد ١٩). و هذا هو الحاق المؤمنين بالشهداء و الصديقين فى الآخرة، لمكان قوله: عِنْدَ رَبِّهِمْ ، و قوله: لَهُمْ أَجْرُهُمْ .

فاولئك (و هم اصحاب الصراط المستقيم) أعلى قدرا و أرفع درجه و منزله من هؤلاء و هم المؤمنون الذين اخلصوا قلوبهم و اعمالهم من الضلال و الشرك و الظلم، فالتدبر فى هذه الآيات يوجب القطع بان هؤلاء المؤمنين و (شأنهم هذا الشأن) فيهم بقيه بعد، لو تمت فيهم كانوا من الذين انعم الله عليهم، و ارتقوا من منزله المصاحبه معهم الى درجه الدخول فيهم و لعلمهم نوع من العلم بالله، ذكره فى قوله تعالى: يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ (المجادله ١١). فالصراط المستقيم أصحابه منعم عليهم بنعمه هى ارفع النعم قدرا، يربو على نعمه الايمان التام، و هذا ايضا نعت من نعوت الصراط المستقيم.

ثم انه تعالى على انه كرر فى كلامه ذكر الصراط و السبيل لم ينسب لنفسه ازيد من صراط مستقيم واحد، و عد لنفسه سبلا كثيره فقال عز من قائل: وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا (العنكبوت ٦٩). و كذا لم ينسب الصراط المستقيم الى احد من خلقه إلا ما فى هذه الآيه (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) الآيه؛ و لكنه نسب السبيل الى غيره من خلقه، فقال تعالى: قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ (يوسف ١٠٨). و قال تعالى: سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ (لقمان ١٥). و قال: سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ (النساء ١١٤)، و يعلم منها ان السبيل غير الصراط المستقيم فانه يختلف و يتعدد و يتكثر باختلاف المتعبدين السالكين سبيل العباده بخلاف الصراط المستقيم كما يشير اليه قوله تعالى: قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ يَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (المائده ١٦)، فعَدَّ السبيل كثيره و الصراط واحدا و هذا الصراط المستقيم اما هى السبيل الكثيره و اما انها تؤدى اليه باتصال بعضها الى بعض و اتحادها فيها.

و أيضا قال تعالى: وَمَنْ يُّؤْمِنْ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (يوسف ١٠٦). فيبين ان من الشرك (و هو ضلال) ما يجتمع مع الايمان و هو سبيل، و منه يعلم ان السبيل يجامع الشرك، لكن الصراط المستقيم لا يجامع الضلال كما قال: و لا الضالين.

و التدبر فى هذه الآيات يعطى ان كل واحد من هذه السبل يجامع شيئا من النقص أو الامتياز، بخلاف الصراط المستقيم، و ان كلا منها هو الصراط المستقيم لكنه غير الآخر و يفارقه لكن الصراط المستقيم يتحد مع كل منها فى عين انه يتحد مع ما يخالفه، كما يستفاد من بعض الآيات المذكوره و غيرها كقوله: وَ أَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (يس ٦١).

و قوله تعالى: قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا (الأنعام / ١٦١). فسمى العباده صراطا مستقيما و سمى الدين صراطا مستقيما و هما مشتركان بين السبل جميعا، فمثل الصراط المستقيم بالنسبه الى سبل الله تعالى كمثل الروح بالنسبه الى البدن، فكما ان للبدن اطوارا فى حياته هو عند كل طور غيره عند طور آخر، كالصبي و الطفولي و الرهوق و الشباب و الكهوله و الشيب و الهرم لكن الروح هى الروح و هى متحده بها و البدن يمكن ان تطرأ عليه اطوار تنافى ما تحبه و تقتضيه الروح لو خلقت و نفسها بخلاف الروح فطره الله التى فطر الناس عليها و البدن مع ذلك هو الروح أعنى الانسان، فكذلك السبيل الى الله تعالى هو الصراط المستقيم إلا ان السبيل كسبيل المؤمنين و سبيل المنيين و سبيل المتبعين للنبي صلى الله عليه و آله و سلم أو غير ذلك من سبل الله تعالى، ربما اتصلت به آفه من خارج أو نقص لكنهما لا يعرضان الصراط المستقيم كما عرفت ان الايمان و هو سبيل ربما يجامع الشرك و الضلال لكن لا يجتمع مع شىء من ذلك الصراط المستقيم، فللسبيل مراتب كثيره من جهه خلوصه و شوبه و قربه و بعده، و الجميع على الصراط المستقيم أو هى هو.

و قد بين الله سبحانه هذا المعنى، اعنى: اختلاف السبل الى الله مع كون الجميع من صراطه المستقيم فى مثل ضربه للحق و الباطل فى كلامه، فقال تعالى: أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

فَسَأَلَتْ أَوْدِيَةَ بِقَدْرِهَا فَاخْتَمَلَ السَّبِيلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (الرعد ١٧). فبين: ان القلوب و الافهام فى تلقى المعارف و الكمال مختلفه، مع كون الجميع متكئه منتهيه الى رزق سماوى واحد، و سيجىء تمام الكلام فى هذا المثل فى سورة الرعد، و بالجمله فهذا ايضا نعت من نعوت الصراط المستقيم.

و اذا تأملت ما تقدم من نعوت الصراط المستقيم تحصل لك ان الصراط المستقيم مهيمن على جميع السبل الى الله و الطرق الهاديه اليه تعالى، بمعنى ان السبيل الى الله إنما يكون سبيلا له موصلا إليه بمقدار يتضمنه من الصراط المستقيم حقيقه، مع كون الصراط المستقيم هاديا موصلا إليه مطلقا و من غير شرط و قيد، و لذلك سماه الله تعالى صراطا مستقيما، فان الصراط هو الواضح من الطريق، مأخوذ من سرطت سرطا اذا بلعت بلعا، كأنه يبلع سالكيه فلا يدعهم يخرجوا عنه و لا يدفعهم عن بطنه، و المستقيم هو الذى يريد ان يقوم على ساق فيتسلط على نفسه و ما لنفسه كالقائم الذى هو مسلط على أمره، و يرجع المعنى الى انه الذى لا يتغير أمره و لا يختلف شأنه فالصراط المستقيم ما لا يتخلف حكمه فى هدايته و ايصاله سالكيه الى غايته و مقصدهم قال تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا (النساء ١٧٤). أى لا يتخلف امر هذه الهدايه، بل هى على حالها دائما، و قال تعالى: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صِدْرَهُ لِلْبَاطِلِ وَأَمَنْ يردْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صِدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأْتُمًا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ وَ هَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا (الأنعام ١٢٤). أى هذه طريقته التى لا يختلف و لا يتخلف، و قال تعالى: قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (الحجر ٤٢). أى هذه سنتى و طريقتى دائما من غير

مقابلاتها من الكفر و الشرك و الجحود و الطغيان و المعصية كذلك، قال سبحانه: وَ لِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَ لِيُؤْفِقَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (الأحقاف ١٩).

و هذا نظير المعارف الالهيه التي تتلقاها العقول من الله فانها مختلفه باختلاف الاستعدادات و متلونه بالوان القابليات على ما يفيد المثل المضروب في قوله تعالى: أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا آيَهُ.

و ثانيها: انه كما أن الصراط المستقيم مهيمن على جميع السبل، فكذلك اصحابه الذين مكنهم الله تعالى فيه و تولى امرهم و ولاهم امر هدايه عباده حيث قال: وَ حَسَنَ أَوْلِيكَ رَفِيقًا (النساء ٧١). و قال تعالى: إِنَّمَا وَثَّيْكُمْ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ (المائدة ٥٥) و الآية نازله في أمير المؤمنين على عليه السلام بالأخبار المتواتره و هو عليه السلام اول فاتح لهذا الباب من الامه و سيجيء تمام الكلام في الآيه.

و ثالثها: إن الهدايه الى الصراط يتعين معناها بحسب تعين معناه، و توضيح ذلك ان الهدايه هي الدلاله على ما في الصحاح، و فيه ان تعديتها لمفعولين لغه اهل الحجاز، و غيرهم يعدونه الى المفعول الثاني الى، و قوله هو الظاهر، و ما قيل: ان الهدايه اذا تعدت الى المفعول الثاني بنفسها، فهي بمعنى الايصال الى المطلوب، و اذا تعدت بالي فبمعنى إراءه الطريق، مستدلا بنحو قوله تعالى: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ (القصص ٥٦).

حيث إن هدايته بمعنى إراءه الطريق ثابتة فالمنفى غيرها و هو الايصال الى المطلوب قال تعالى:

وَ لَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (النساء ٧٠). و قال تعالى: وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (الشورى ٥٢).

فالهدايه بالايصال الى المطلوب تتعدى الى المفعول الثاني بنفسها، و الهدايه باراءه الطريق بالي، و فيه ان النفي المذكور لحقيقه الهدايه التي هي قائمه بالله تعالى، لا نفي لها اصلا، و بعباره اخرى هو نفي الكمال دون نفي الحقيقه مضافا الى انه منقوض بقوله تعالى حكايه عن مؤمن آل

وَلَهَدَيْتَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (النساء ٧٠). وقال تعالى: وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (الشورى ٥٢).

فالهدايه بالاىصال الى المطلوب تتعدى الى المفعول الثانى بنفسها، و الهدايه باراءه الطريق بالى، و فيه ان النفى المذكور لحقيقه الهدايه التى هى قائمه بالله تعالى، لا نفى لها اصلا، و بعباره اخرى هو نفى الكمال دون نفى الحقيقه مضافا الى انه منقوض بقوله تعالى حكايه عن مؤمن آل فرعون: يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (غافر ٣٨). فالحق انه لا يتفاوت معنى الهدايه باختلاف التعدييه، و من الممكن ان يكون التعدييه الى المفعول الثانى من قبيل قولهم دخلت الدار.

و بالجمله فالهدايه هى الدلاله و إراءه الغايه باراءه الطريق و هى نحو اىصال الى المطلوب، و انما تكون من الله سبحانه، و سنته سنه الأسباب بإيجاد سبب ينكشف به المطلوب و يتحقق به وصول العبد الى غايته فى سيره، و قد بينه الله سبحانه بقوله: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ (الأنعام ١٢٥). و قوله: ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَ قُلُوبَهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ (الزمر ٢٣). و تعدييه قوله تلين يالى لتضمنين معنى مثل الميل و الاطمينان، فهو ايجاده تعالى و صفا فى القلب به يقبل ذكر الله و يميل و يطمئن اليه، و كما أن سبله تعالى مختلفه، فكذلك الهدايه تختلف باختلاف السبل التى تضاف اليه فلكل سبيل هدايه قبله تختص به.

و الى هذا الاختلاف يشير قوله تعالى: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (العنكبوت ٦٩). اذ فرق بين ان يجاهد العبد فى سبيل الله، و بين أن يجاهد فى الله، فالمجاهد فى الاول يريد سلامه السبيل و دفع العوائق عنه بخلاف المجاهد فى الثانى فانه إنما يريد وجه الله فيمده الله سبحانه بالهدايه الى سبيل دون سبيل بحسب استعداده الخاص به، و كذا يمده الله تعالى بالهدايه الى السبيل بعد السبيل حتى يختصه بنفسه جلّت عظمته.

و رابعها: ان الصراط المستقيم لما كان امرا محفوظا في سبيل الله تعالى على اختلاف مراتبها و درجاتها،صح ان يهدى الله الانسان اليه و هو مهدي فيهديه من الصراط الى الصراط،بمعنى أن يهديه الى سبيل من سبله ثم يزيد في هدايته فيهدى من ذلك السبيل الى ما هو فوقها درجه،كما أن قوله تعالى: اِهْدِنَا الصِّرَاطَ (و هو تعالى يحكيه عن هدايه بالعباده)من هذا القبيل،و لا يرد عليه:ان سؤال الهدايه ممن هو مهتد بالفعل سؤال لتحصيل الحاصل و هو محال و كذا ركوب الصراط بعد فرض ركوبه تحصيل للحاصل و لا يتعلق به سؤال،و الجواب ظاهر.

و كذا الايراد عليه: بأن شريعتنا أكمل و أوسع من جميع الجهات من شرائع الامم السابقه،فما معنى السؤال من الله سبحانه أن يهدينا الى صراط الذين أنعم الله عليهم منهم؟و ذلك ان كون شريعته أكمل من شريعته أمر،و كون المتمسك بشريعته اكمل من المتمسك بشريعته امر آخر ورائه،فان المؤمن المتعارف من مؤمنى شريعته محمد صلى الله عليه و آله و سلم (مع كون شريعته اكمل و أوسع)ليس بأكمل من نوح و ابراهيم عليهما السلام مع كون شريعتهما اقدم و أسبق،و ليس ذلك إلا ان حكم الشرائع و العمل بها غير حكم الولايه الحاصله من التمكن فيها و التخلق بها،فصاحب مقام التوحيد الخالص و ان كان من اهل الشرائع السابقه أكمل و أفضل ممن لم يتمكن من مقام التوحيد و لم تستقر حيوه المعرفه فى روحه و لم يتمكن نور الهدايه الالهيه من قلبه،و إن كان عاملا بالشريعته المحمديه صلى الله عليه و آله و سلم التى هى اكمل الشرائع و أوسعها،فمن الجائز أن يستهدى صاحب المقام الدانى من أهل الشريعته الكامله و يسأل الله الهدايه الى مقام صاحب المقام العالى من أهل الشريعته التى هى دونها.

و من أعجب ما ذكر فى هذا المقام،ما ذكره بعض المحققين من اهل التفسير جوابا عن هذه الشبهه:ان دين الله واحد و هو الاسلام،و المعارف الاصليه و هو التوحيد و النبوه و المعاد و ما يتفرع عليها من المعارف الكليه واحد فى الشرائع،و انما مزيه هذه الشريعته على ما سبقها من

الشرائع هي ان الاحكام الفرعيه فيها اوسع و اشمل لجميع شئون الحياه،فهى اكثر عنايه بحفظ مصالح العباد،على أن أساس هذه الشريعه موضوع على الاستدلال بجميع طرقها من الحكمه و الموعظه و الجدل الاحسن،ثم ان الدين و ان كان دينا واحدا و المعارف الكليه فى الجميع على السواء غير أنهم سلكوا سبيل ربهم قبل سلوكنا،و تقدموا فى ذلك علينا،فامرنا الله النظر فيما كانوا عليه و الاعتبار بما صاروا اليه هذا.

أقول:و هذا الكلام مبنى على اصول فى مسلك التفسير مخالفه للاصول التى يجب أن يبنى مسلك التفسير عليها،فانه مبنى على أن حقائق المعارف الاصليه واحده من حيث الواقع من غير اختلاف فى المراتب و الدرجات،و كذا سائر الكمالات الباطنيه المعنويه،فأفضل الأنبياء المقربين مع أحسن المؤمنين من حيث الوجود و كماله الخارجى التكوينى على حد سواء،و إنما التفاضل بحسب المقامات المجعوله بالجعل التشريعى من غير ان يتكى على تكوين،كما ان التفاضل بين الملك و الرعيه إنما هو بحسب المقام الجعلى الوضعى من غير تفاوت من حيث الوجود الإنسانى هذا.

و لهذا الأصل أصل آخر يبنى عليه،و هو القول بأصاله ماده و نفى الاصاله عما ورائها و التوقف فيه إلا فى الله سبحانه بطريق الاستثناء بالدليل،و قد وقع فى هذه الورطه من وقع، لاحد امرين:إما القول بالاكْتفاء بالحس اعتمادا على العلوم الماديه و إما إلغاء التدبر فى القرآن بالاكْتفاء بالتفسير بالفهم العامى.

و للكلام ذيل طويل سنورده فى بعض الابحاث العلميه الآتية إنشاء الله تعالى.

و خامسها:ان مزيه اصحاب الصراط المستقيم على غيرهم،و كذا صراطهم على سبيل غيرهم،إنما هو بالعلم لا العمل،فلهم من العلم بمقام ربهم ما ليس لغيرهم،اذ قد تبين مما مر:

ان العمل التام موجود فى بعض السبل التى دون صراطهم،فلا يبقى لمزيتهم إلا العلم،و اما ما هذا العلم؟و كيف هو؟فنبحث عنه إن شاء الله فى قوله تعالى: **أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ**

و يشعر بهذا المعنى قوله تعالى: يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ (المجادله ١١)، وكذا قوله تعالى: إِلَيْهِ يَصِيغُ الْكَلِمَ الطَّيِّبَ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ (الملائكه ١٠)، فالذى يصعد اليه تعالى هو الكلم الطيب و هو الاعتقاد و العلم، و اما العمل الصالح فشأنه رفع الكلم الطيب و الامداد دون الصعود اليه تعالى، و سيجيء تمام البيان فى البحث عن الآية (١).

بحث روائى:

فى الكافى عن الصادق عليه السّلام فى معنى العباده قال: العباده ثلاثه: قوم عبدوا الله خوفاً، فتلك عباده العبيد، و قوم عبدوا الله تبارك و تعالى طلب الثواب، فتلك عباده الاجراء، و قوم عبدوا الله عزّ و جل حبا، فتلك عباده الأحرار، و هى افضل العباده.

و فى نهج البلاغه: ان قوما عبدوا الله رغبه، فتلك عباده التجار، و ان قوما عبدوا الله رهبه فتلك عباده العبيد، و ان قوما عبدوا الله شكرا فتلك عباده الأحرار.

و فى العلل و المجالس و الخصال، عن الصادق عليه السّلام: ان الناس يعبدون الله على ثلاثه اوجه:

فطبقه يعبدونه رغبه فى ثوابه فتلك عباده الحرصاء و هو الطمع، و آخرون يعبدونه خوفاً من النار فتلك عباده العبيد، و هى رهبه، و لكنى اعبيده حبا له عزّ و جل فتلك عباده الكرام، لقوله عزّ و جل: وَ هُمْ مِنْ فَرَعِ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ . و لقوله عزّ و جل: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ، فمن احب الله عزّ و جل احبه، و من احبه الله كان من الآمنين، و هذا مقام مكنون لا يمسه الا المطهرون.

ص: ٤٣

اقول: وقد تبين معنى الروايات مما مر من البيان، و توصيفهم عليهم السّلام عباده الأحرار تاره بالشكر و تاره بالحب، لكون مرجعها واحدا، فان الشكر وضع الشىء المنعم به فى محله، و العباده شكرها ان تكون لله الذى يستحقها لذاته، فيعبد الله لأنه الله، أى لأنه مستجمع لجميع صفات الجمال و الجلال بذاته، فهو الجميل بذاته المحبوب لذاته، فليس الحب إلا الميل الى الجمال، و الانجذاب نحوه، فقولنا فيه تعالى هو معبود لانه هو، و هو معبود لأنه جميل محبوب، و هو معبود لانه منعم مشكور بالعباده يرجع جميعها الى معنى واحد.

و روى بطريق عامى عن الصادق عليه السّلام فى قوله تعالى: **إِنَّا كَ نَعْبُدُ ..** الآية، يعنى: لا نريد منك غيرك و لا نعبدك بالعوض و البديل: كما يعبدك الجاهلون بك المغبون عنك.

اقول: و الروايه تشير الى ما تقدم، من استلزام معنى العباده للحضور و للاخلاص الذى ينافى قصد البديل.

و فى تحف العقول عن الصادق عليه السّلام فى حديث: و من زعم انه يعبد بالصفه لا بالادراك فقد أحال على غائب، و من زعم انه يعبد الصفه و الموصوف فقد أبطل التوحيد لأن الصفه غير الموصوف، و من زعم انه يضيف الموصوف الى الصفه فقد صغر بالكبير، و ما قدروا الله حق قدره. الحديث.

و فى المعانى عن الصادق عليهما السّلام فى معنى قوله تعالى: **إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** يعنى ارشدنا الى لزوم الطريق المؤدى محبتك، و المبلغ الى جنتك، و المانع من أن نتبع اهواءنا فنعطب، او ان نأخذ بآرائنا فنهلك.

و فى المعانى ايضا عن على عليه السّلام فى الآية، يعنى، ادم لنا توفيقك الذى اطعناك به فى ماضى ايامنا، حتى نطيعك كذلك فى مستقبل اعمارنا.

اقول: و الروايتان وجهان مختلفان فى الجواب عن شبهه لزوم تحصيل الحاصل من سؤال الهدايه للمهدى، فالروايه الاولى ناظره الى الاختلاف مراتب الهدايه مصداقا و الثانيه الى

و فى المعانى أيضا عن على عليه السّلام: الصراط المستقيم فى الدنيا ما قصر عن الغلو، و ارتفع عن التقصير و استقام، و فى الآخرة طريق المؤمنين الى الجنة.

و فى المعانى أيضا عن على عليه السّلام فى معنى صراط الذين الآيه: اى: قولوا: اهدنا صراط الذين انعمت عليهم بالتوفيق لدينك و طاعتك، لا بالمال و الصحه، فانهم قد يكونون كفارا او فساقا، قال: و هم الذين قال الله: وَ مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصُّدِّيقِينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ الصَّالِحِينَ، وَ حَسَنٌ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا .

و فى العيون عن الرضا عليه السّلام عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السّلام قال: لقد سمعت رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم يقول: قال الله عزّ و جل: قسمت فاتحه الكتاب بينى و بين عبدى فنصفها لى و نصفها لعبدى، و لعبدى ما سئل، اذا قال العبد: بسم الله الرحمن الرحيم قال الله جل جلاله بدأ عبدى باسمى و حق على ان اتمم له اموره، و ابارك له فى احواله، فاذا قال: الحمد لله رب العالمين، قال الله جل جلاله: حمدنى عبدى، و علم ان النعم التى له من عندى و ان البلايا التى دفعت عنه بتطولى، أشهدكم أنى اضيف له الى نعم الدنيا نعم الآخرة و أدفع عنه بلايا الآخرة كما دفعت عنه بلايا الدنيا، و اذا قال الرحمن الرحيم، قال الله جل جلاله: شهد لى عبدى انى الرحمن الرحيم اشهدكم لأوفرن من رحمتى حظه و لأجزلن من عطائى نصيبه، فاذا قال: مالك يوم الدين قال الله تعالى: أشهدكم، كما اعترف بأنى أنا المالك يوم الدين، لأسهلن يوم الحساب حسابه، و لا تقبلن حسناته و لأتجاوزن عن سيئاته، فاذا قال: إياك نعبد، قال الله عزّ و جل:

صدق عبدى، إياى يعبد اشهدكم لأثيبنه على عبادته ثوابا يغبطه كل من خالفه فى عبادته لى، فاذا قال: و إياك نستعين قال الله تعالى: نبى استعان عبدى و إلى التجأ، اشهدكم لأعيننه على أمره، و لأغيثنه فى شدائده و لأخذن بيده يوم نوابه، فاذا قال: اهدنا الصراط المستقيم الى آخر السوره، قال الله عزّ و جل: هذا لعبدى و لعبدى ما سئل، و قد استجبت لعبدى و اعطيته

ما اقل و آمنته مما منه وجل.

اقول: و روى قريبا منه الصدوق فى العلل عن الرضا عليه السّلام، و الروايه كما ترى تفسر سوره الفاتحه فى الصلاه فهى تؤيد كما مر مرارا أن السوره كلام له سبحانه بالنيابه عن عبده فى ما يذكره فى مقام العباده و اظهار العبوديه من الثناء لربه و اظهار عبادته، فهى سوره موضوعه للعباده، و ليس فى القرآن سوره تناظرها فى شأنها و اعنى بذلك:

اولا: ان السوره بتمامها كلام تكلم به الله سبحانه فى مقام النيابه عن عبده فيما يقوله اذا وجه وجهه الى مقام الربوبيه و نصب نفسه فى مقام العبوديه.

و ثانيا: انها مقسمه قسمين، فنصف منها لله و نصف منها للعبد.

و ثالثا: انها مشتمله على جميع المعارف القرآنيه على ايجازها و اختصارها فان القرآن على سعته العجيبه فى معارفه الاصيليه و ما يتفرع عليها من الفروع من اخلاق و احكام فى العبادات و المعاملات و السياسات و الاجتماعيات و وعد و وعيد و قصص و عبر، يرجع جمل بياناتها الى التوحيد و النبوه و المعاد و فروعها، و الى هدايه العباد الى ما يصلح به اولاهم و عقابهم، و هذه السوره كما هو واضح تشتمل على جميعها فى أوجز لفظ و أوضح معنى.

و عليك ان تقيس ما يتجلى لك من جمال هذه السوره التى وضعها الله سبحانه فى صلاه المسلمين بما يضعه النصرى فى صلاتهم من الكلام الموجود فى انجيل متى: (٦-٩-١٣) و هو ما نذكره بلفظه العربى، «أبانا الذى فى السماوات، ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الارض، خبزنا كفافنا أعطنا اليوم، و اغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضا للمذنبين الينا، و لا تدخلنا فى تجربته و لكن نجنا من الشرير آمين».

تأمل فى المعانى التى تفيد الفاظ هذه الجمل بعنوان انها معارف سماويه، و ما يشتمل عليه من الادب العبودى، إنا تذكر أولا: أن اباهم (و هو الله تقدس اسمه) فى السماوات!! ثم تدعو فى حق الاب بتقدس اسمه و اتيان ملكوته و نفوذ مشيئته فى الارض كما هى نافذه فى السماء، و لكن

من الذى يستجيب هذا الدعاء الذى بشعارات الاحزاب السياسيه اشبه؟ ثم تسئل الله اعطاء خبز اليوم و مقابله المغفره بالمغفره، و جعل الاغماض عن الحق فى مقابل الاغماض، و ما ذا هو حقهم لو لم يجعل الله لهم حقا؟ و تسأله ان لا يمتحنهم بل ينجيهم من الشرير، و من المحال ذلك، فالدار دار الامتحان و الاستكمال و ما معنى النجاه لو لا الابتلاء و الامتحان؟ ثم اقض العجب مما ذكره بعض المستشرقين (1) من علماء الغرب و تبعه بعض المنتحلين: أن الاسلام لا يربو على غيره فى المعارف، فان جميع شرائع الله تدعو الى التوحيد و تصفيه النفوس بالخلق الفاضل و العمل الصالح، و إنما تتفاضل الأديان فى عراقه ثمراتها الاجتماعيه!!

بحث آخر روائى:

فى الفقيه و تفسير العياشى عن الصادق عليه السلام قال: الصراط المستقيم أمير المؤمنين عليه السلام.

و فى المعانى عن الصادق عليه السلام قال: هى الطريق الى معرفه الله، و هما صراطان صراط فى الدنيا و صراط فى الآخرة، فاما الصراط فى الدنيا فهو الامام المفترض الطاعة، من عرفه فى الدنيا و اقتدى بهداه مرّ على الصراط الذى هو جسر جهنم فى الآخرة، و من لم يعرفه فى الدنيا زلّت قدمه فى الآخرة فتردى فى نار جهنم.

و فى المعانى ايضا عن السجاد عليه السلام قال: «ليس بين الله و بين حجّته حجاب، و لا لله دون حجّته ستر، نحن ابواب الله و نحن الصراط المستقيم و نحن عيبه علمه، و نحن تراجمه و حيه و نحن أركان توحيده و نحن موضع سره.

و عن ابن شهر آشوب عن تفسير وكيع بن الجراح عن الثورى عن السيدى، عن اسباط و مجاهد، عن ابن عباس فى قوله تعالى: **إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**، قال: قولوا معاشر العباد!

ص: ٤٧

ارشدنا الى حب محمد صلى الله عليه وآله وسلم واهل بيته عليهم السلام.

اقول: وفي هذه المعاني روايات أخر، وهذه الاخبار من قبيل الجرى، وعد المصداق للآيه، واعلم ان الجرى (و كثيرا ما نستعمله في هذا الكتاب) اصطلاح مأخوذ من قول أئمه أهل البيت عليهم السلام.

ففى تفسير العياشى عن الفضيل بن يسار قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الروايه؛ ما فى القرآن آيه إلاّ و لها ظهر و بطن و ما فيها حرف إلاّ و له حدّ و لكن حد مطلق، ما يعنى بقوله: ظهر و بطن؟ قال: ظهره تنزيله و بطنه تأويله، منه ما مضى و منه ما لم يكن بعد، يجرى كما يجرى الشمس و القمر، كلما جاء منه شىء وقع الحديث.

و فى هذا المعنى روايات أخر، و هذه سليقه أئمه أهل البيت فإنهم عليهم السلام يطبقون الآيه من القرآن على ما يقبل ان ينطبق على من الموارد و ان كان خارجا عن مورد النزول، و الاعتبار يساعده، فان القرآن نزل هدى للعالمين يهديهم الى واجب الاعتقاد و واجب الخلق و واجب العمل، و ما بيّنه من المعارف النظرية حقائق لا تختص بحال دون حال و لا زمان دون زمان، و ما ذكره من فضيله أو رذيله أو شرعه من حكم عملى لا يتقيد بفرد دون فرد و لا عصر دون عصر لعموم التشريع.

و ما ورد من شأن النزول (و هو الأمر أو الحادثه التى تعقب نزول آيه أو آيات فى شخص أو واقعه) لا يوجب قصر الحكم على الواقعة لينقضى الحكم بانقضائها و يموت بموتها لأن البيان عامّ و التعليل مطلق، فان المدح النازل فى حق افراد من المؤمنين أو الذم النازل فى حق آخرين معللا بوجود صفات فيهم، لا يمكن قصرهما على شخص مورد النزول مع وجود عين تلك الصفات فى قوم آخر بعدهم و هكذا، و القرآن ايضا يدل عليه، قال تعالى: يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ (المائدة ١٦). و قال: وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ (السجده ٤٢). و قال تعالى: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ

و الروايات فى تطبيق الآيات القرآنيه عليهم عليهم السّلام او على اعدائهم اعنى: روايات الجرى، كثيره فى الأبواب المختلفه، و ربما تبلغ المئين، و نحن بعد هذا التنبيه العام نترك ايراد أكثرها فى الأبحاث الروائيه لخروجها عن الغرض فى الكتاب، إلا ما تعلق بها غرض فى البحث فليتذكر.

اشاره

بسم الله الرحمن الرحيم

[سوره البقره (٢): الآيات ١ الى ٥]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ
مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِمَّا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)

بيان:

لما كانت السوره نازله نجوما لم يجمعها غرض واحد إلا ان معظمها تنبئ عن غايه واحده محصله و هو بيان ان من حق عباده الله سبحانه أن يؤمن عبده بكل ما أنزله بلسان رسله من

غير تفرقه بين وحى و وحى، ولا- بين رسول و رسول و لا- غير ذلك، ثم تقرير الكافرين و المنافين و ملائمه اهل الكتاب بما ابتدعه من التفرقه فى دين الله و التفريق بين رسله، ثم التلخص الى بيان عده من الاحكام كتحويل القبلة و احكام الحج و الارث و الصوم و غير ذلك.

قوله تعالى: الم، سيأتى بعض ما يتعلق من الكلام بالحروف المقطعه التى فى اوائل السور، فى اول سورة الشورى إن شاء الله، و كذلك الكلام فى معنى هدايه القرآن و معنى كونه كتابا.

و قوله تعالى: هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْحَنِيفِ الْمُتَّقُونَ هم المؤمنون، و ليست التقوى من الاوصاف الخاصه لطبقه من طبقاتهم اعنى: لمرتبته من مراتب الايمان حتى تكون مقاما من مقاماته نظير الاحسان و الاخبات و الخلوص، بل هى صفه مجامعه لجميع مراتب الايمان اذا تلبس الايمان بلباس التحقق، و الدليل على ذلك انه تعالى لا يخص بتوصيفه طائفه خاصه من طوائف المؤمنين على اختلاف طبقاتهم و درجاتهم و الذى اخذه تعالى من الاوصاف المعرفه للتقوى فى هذه الآيات التسع عشره التى يبين فيها حال المؤمنين و الكفار و المنافقين، خمس صفات، و هى الايمان بالغيب، و اقامه الصلاه، و الانفاق مما رزق الله سبحانه، و الايمان بما انزله على انبيائه، و الايقان بالآخره، و قد وصفهم بانهم على هدى من ربهم فدل ذلك على ان تلبسهم بهذه الصفات الكريمه بسبب تلبسهم بلباس الهدايه من الله سبحانه، فهم انما صاروا متقين اولى هذه الصفات بهدايه منه تعالى، ثم وصف الكتاب بانه هدى لهؤلاء المتقين بقوله تعالى: ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ فعلمنا بذلك: ان الهدايه غير الهدايه، و ان هؤلاء و هم متقون محفوفون بهدايتين، هدايه اولى بها صاروا متقين، و هدايه ثانيه اكرمهم الله سبحانه بها بعد التقوى و بذلك صحت المقابله بين المتقين و بين الكفار و المنافقين، فانه سبحانه يجعلهم فى وصفهم بين ضلالين و عماءين، ضلال

اول هو الموجب لاوصافهم الخبيثه من الكفر والنفاق، و ضلال ثان يتأكد به ضلالهم الاول، و يتصفون به بعد تحقق الكفر و النفاق كما بقوله تعالى فى حق الكفار: خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ (البقره ٧)، فنسب الختم الى نفسه تعالى و الغشاوه الى انفسهم، و كما يقوله فى حق المنافقين: فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا (البقره / ١٠) فنسب المرض الاول اليهم و المرض الثانى الى نفسه على حد ما يستفاد من قوله تعالى:

يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (البقره ٢٦)، و قوله تعالى:

فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ (الصف ٥). و بالجمله المتقون واقعون بين هدايتين، كما ان الكفار و المنافقين واقعون بين ضلالين.

ثم ان الهدايه الثانيه لما كان بالقرآن فالهدايه الاولى قبل القرآن و بسبب سلامه الفطره، فان الفطره اذا سلمت لم تنفك من ان تتنبه شاهده لفرها و حاجتها الى امر خارج عنها، و كذا احتياج كل ما سواها مما يقع عليه حس او وهم او عقل الى امر خارج يقف دونه سلسله الحوائج، فهى مؤمنه مدعنه بوجود موجود غائب عن الحس منه يبدأ الجميع و اليه ينتهى و يعود، و انه كما لم يهمل دقيقه من دقائق ما يحتاج اليه الخلقه كذلك لا يهمل هدايه الناس الى ما ينجيهم من مهلكات الاعمال و الاخلاق، و هذا هو الاذعان بالتوحيد و النبوه و المعاد و هى اصول الدين، و يلزم ذلك استعمال الخضوع له سبحانه فى ربوبيته، و استعمال ما فى وسع الانسان من مال و جاه و علم و فضيله لإحياء هذا الامر و نشره، و هذان هما الصلاه و الانفاق.

و من هنا يعلم: ان الذى اخذه سبحانه من اوصافهم هو الذى يقضى به الفطره اذا سلمت و انه سبحانه و عدهم انه سيفيض عليهم امرا سماه هدايه، فهذه الاعمال الزاكيه منهم متوسطه بين هدايتين كما عرفت، هدايه سابقه و هدايه لاحقه، و بين الهدايتين يقع صدق الاعتقاد و صلاح العمل، و من الدليل على ان هذه الهدايه الثانيه من الله سبحانه فرع الاولى، آيات

كثيره كقوله تعالى: يُبَيِّنُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الآخِرَةِ (إبراهيم ٢٧). وقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمَنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ (الحديد ٢٨). وقوله تعالى: إِنَّ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُبَيِّنْ أقدَامَكُمْ (محمد صلى الله عليه و آله و سلم ٧). وقوله تعالى: وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (الصف ٧). وقوله تعالى: وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الفَاسِقِينَ (الصف ٥). الى غير ذلك من الآيات.

و الامر فى ضلال الكفار و المنافقين كما فى المتقين على ما سيأتى إن شاء الله.

و فى الآيات اشارته الى حيوة اخرى للانسان كما منه مستبطنه تحت هذه الحياه الدنيويه، و هى الحياه التى بها يعيش الانسان فى هذه الدار و بعد الموت و حين البعث، قال تعالى: أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا (الأنعام ١٢٣) و سيأتى الكلام فيه إن شاء الله.

و قوله سبحانه: يُؤْمِنُونَ، الايمان تمكن الاعتقاد فى القلب ماخوذ من الايمن كأن المؤمن يعطى لما امن به الايمن من الريب و الشك و هو آفه الاعتقاد، و الايمان كما مر معنى ذو مراتب، اذ الازعان ربما يتعلق بالشىء نفسه فيترتب على اثره فقط و ربما يشتد بعض الاشتداد فيتعلق ببعض لوازمه، و ربما يتعلق بجميع لوازمه فيستنتج منه ان للمؤمنين طبقات على حسب طبقات الايمان.

و قوله سبحانه: بِالْغَيْبِ، الغيب خلاف الشهاده و ينطبق على ما لا يقع عليه الحس، و هو الله سبحانه و آياته الكبرى الغائبه عن حواسنا، و منها الوحى،

و قوله سبحانه: وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ، العدول فى خصوص الاذعان بالآخرة عن الايمان الى الايقان، كانه للاشاره الى أن التقوى لا تتم إلا مع اليقين بالآخرة الذى لا يجمع نسيانها، دون الايمان المجرد، فان الإنسان ربما يؤمن بشىء و يذهل عن بعض لوازمه فيأتى بما ينافيه، لكنه اذا كان على علم و ذكر من يوم يحاسب فيه على الخطير و السير من اعماله لا يقتحم معه الموبقات و لا يحوم حوم محارم الله سبحانه البتة قال تعالى: وَ لَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (ص ٢٦)، فبين تعالى: ان الضلال عن سبيل الله انما هو بنسيان يوم الحساب؛ فذكره و اليقين به ينتج التقوى.

و قوله تعالى: أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ، الهدايه كلها من الله سبحانه، لا- ينسب إلى غيره البتة الا- على نحو من المجاز كما سيأتى إن شاء الله، و لما وصفهم الله سبحانه بالهدايه و قد قال فى نعتها: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ (الأنعام ١٢٥)، و شرح الصدر سعته و هذا الشرح يدفع عنه كل ضيق و شح، و قد قال تعالى: وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (الحشر ٩)، عقب سبحانه هاهنا أيضا قوله: أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ بقوله: أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الآية (١)(٢).

[سوره البقره (٢): الآيات ٦ الى ٧]

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَ عَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَ عَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)

ص: ٥٤

١- ١). البقره ١-٥: بحث فلسفى حول الادراكات الحسيه و البراهين العقليه.

٢- ٢) البقره ١-٥: بحث فلسفى فى العلم.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا، هؤلاء قوم ثبتوا على الكفر و تمكن الجحود من قلوبهم، و يدل على وصف حالهم بمساواه الإنذار و عدمه فيهم، و لا يبعد أن يكون المراد من هؤلاء الذين كفروا هم الكفار من صناديد قريش و كبراء مكة الذين عاندوا و لجؤا في أمر الدين و لم يألوا جهدا في ذلك و لم يؤمنوا حتى أفناهم الله عن آخرهم في بدر و غيره، و يؤيده أن هذا التعبير و هو قوله: سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، لا يمكن استطراده في حق جميع الكفار و إلا انسد باب الهدايه و القرآن ينادى على خلافه، و ايضا هذا التعبير إنما وقع في سورة يس (و هي مكيه) و في هذه السوره (و هي سورة البقره أول سوره نزلت في المدينه) نزلت و لم تقع غزوه بدر بعد، فالأشبه أن يكون المراد من الذين كفروا، هاهنا و في ساير الموارد من كلامه تعالى: كفار مكة في اول البعته إلا- أن تقوم قرينه على خلافه، نظير ما سيأتى ان المراد من قوله تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا، فيما أطلق في القرآن من غير قرينه هم السابقون الأولون من المسلمين، خصوا بهذا الخطاب تشريفا.

و قوله تعالى: خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ عَلَى سَمْعِهِمْ الخ؛ يشعر بتغيير السياق: (حيث نسب الختم الى نفسه تعالى و الغشاوه اليهم انفسهم) بأن فيهم حجابا دون الحق في أنفسهم و حجابا من الله تعالى عقيب كفرهم و فسوقهم، فأعمالهم متوسطه بين حجابين: من ذاتهم و من الله تعالى، و سيأتى بعض ما يتعلق بالمقام في قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا.

و اعلم ان الكفر كالايمان وصف قابل للشده و الضعف فله مراتب مختلفه الآثار

[سوره البقره (٢): الآيات ٨ الى ٢٠]

اشاره

وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤْنَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدَّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اسْتَرَفُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمُّ بَكْمٍ عُمَىٰ فَهَمَّ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذِرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)

قوله تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَنُ يَقُولُ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَاتِ، الْخُدْعَةَ نَوْعٌ مِنَ الْمَكْرِ، وَالشَّيْطَانُ هُوَ الشَّرِيرُ وَلِذَلِكَ سُمِّيَ إِبْلِيسَ شَيْطَانًا.

و في الآيات بيان حال المنافقين، و سيجيء إنشاء الله تفصيل القول فيهم في سورة المنافقين و غيرها.

قوله تعالى: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ۖ مَثَلٌ يَمِثُّ بِهِ حَالَهُمْ، أَنَّهُمْ كَالَّذِي وَقَعَ فِي ظَلْمِهِ عَمِيَاءٌ لَا يَتَمَيَّزُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ شَرٍّ وَلَا نَافِعٌ مِنْ ضَارٍّ فَتَسَبَّبَ لِرَفْعِهَا بِسَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ الْاِسْتِضَاءِ كَنَارٍ يُوْقِدُهَا فَيَبْصُرُ بِهَا مَا حَوْلَهَا فَلَمَّا تَوَقَّدَتْ وَأَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا أَحْمَدُهَا اللَّهُ بِسَبَبٍ مِنَ الْاَسْبَابِ كَرِيحٍ أَوْ مَطَرٍ أَوْ نَحْوَهُمَا فَبَقِيَ فِيمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الظلمة تورط بين ظلمتين: ظلمه كان فيها و ظلمه الحيره و بطلان السبب.

و هذه حال المنافق، يظهر الايمان فيستفيد بعض فوائد الدين باشتراكه مع المؤمنين في مواريتهم و مناكحهم و غيرهما حتى اذا حان حين الموت و هو الحين الذى فيه تمام الاستفاده من الايمان ذهب الله بنوره و أبطل ما عمله و تركه فى ظلمه لا يدرك فيها شيئا و يقع بين الظلمه الاصليه و ما أوجده من الظلمه بفعاله.

و قوله تعالى: **أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ الْخَاصِيبِ**؛ الصيب هو المطر الغزير، و البرق معروف، و الرعد هو الصوت الحادث من السحاب عند الإبراق، و الصاعقه هى النازله من البروق.

و هذا مثل ثان يمثل به حال المنافقين فى إظهارهم الايمان، انهم كالذى أخذه صيب السماء و معه ظلمه تسلب عنه الابصار و التمييز، فالصيب يضطره الى الفرار و التخلص، و الظلمه تمنعه ذلك، و المهولات من الرعد و الصاعقه محيطه به فلا يجد مناصا من ان يستفيد بالبرق و ضوئه و هو غير دائم و لا باق متصل كلما أضاء له مشى و اذا أظلم عليه قام.

و هذه حال المنافق فهو لا يحب الايمان و لا يجد بدا من اظهاره، و لعدم المواطاه بين قلبه و لسانه لا يستضىء له طريقه تمام الاستضاءه، فلا يزال يخطب خطبا بعد خطب و يعثر عثره بعد عثره فيمشى قليلا و يقف قليلا يفضحه الله بذلك و لو شاء لذهب بسمعه و بصره فيفتضح من اول يوم.

[سوره البقره (٢): الآيات ٢١ الى ٢٥]

اشاره

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَ السَّمَاءَ بِنَاءً وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ اذْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَ أُنُوتَا بِهِ مُتَشَابِهًا وَ لَهُمْ فِيهَا أَنْهَارٌ مُّطَهَّرَةٌ وَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)

وقوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا اللَّهَ؛ لما بين سبحانه: حال الفرق الثلاث:

المتقين و الكافرين، و المنافقين، و ان المتقين على هدى من ربهم و القرآن هدى لهم، و ان الكافرين مختوم على قلوبهم؛ و على سمعهم و على أبصارهم غشاوه، و أن المنافقين مرضى و زادهم الله مرضا و هم صم بكم عمى (و ذلك فى تمام تسع عشره آيه) فزَع تعالى على ذلك أن دعى الناس إلى عبادته و أن يلتحقوا بالمتقين دون الكافرين و المنافقين بهذه الآيات الخمس إلى قوله: خَالِدُونَ. و هذا السياق يعطى كون قوله: لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ متعلقا بقوله:

اعْبُدُوا، دون قوله: خَلَقَكُمْ، و ان كان المعنى صحيحا على كلا التقديرين.

وقوله تعالى: فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ، الانداد جمع ند كمثل، وزنا و معنى و عدم تقييد قوله تعالى: و انتم تعلمون بقيد خاص و جعله حالا من قوله تعالى:

فَلَا تَجْعَلُوا، يفيد التأكيد البالغ في النهى بأن الإنسان و له علم ما كيفما كان لا يجوز له أن يتخذ لله سبحانه أندادا و الحال انه سبحانه هو الذى خلقهم و الذين من قبلهم ثم نظم النظام الكونى لرزقهم و بقائهم.

و قوله تعالى: فَآتُوا بِسُورِهِ مِنْ مِثْلِهِ أمر تعجيزى لإبانه إعجاز القرآن، و أنه كتاب منزل من عند الله لا ريب فيه، إعجازا باقيا بمر الدهور و توالى القرون و قد تكرر فى كلامه تعالى هذا التعجيز كقوله تعالى: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (الإسراء ٨٨)، و قوله تعالى:

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَ اذْعُوا مَنِ اسْتِطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (هود ١٣). و على هذا فالضمير فى مثله عائد الى قوله تعالى: مِمَّا نَزَّلْنَا ، و يكون تعجيزا بالقرآن نفسه و بداعه أسلوبه و بيانه.

و يمكن أن يكون الضمير راجعا الى قوله: عَبَدْنَا، فيكون تعجيزا بالقرآن من حيث ان الذى جاء به رجل امى لم يتعلم من معلم و لم يتلق شيئا من هذه المعارف الغالية العاليه و البيانات البديعه المتقنه من أحد من الناس فيكون الآيه فى مساق قوله تعالى: قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (يونس / ١٦)، و قد ورد التفسيران معا فى بعض الأخبار.

و اعلم: ان هذه الآيه كظواهرها تعطى إعجاز أقصر سوره من القرآن كسوره الكوثر و سوره العصر مثلا، و ما ربما يحتمل من رجوع ضمير مثله الى نفس السوره كسوره البقره أو سوره يونس مثلا ياباه الفهم المستأنس بأساليب الكلام اذ من يرمى القرآن بأنه افتراء على الله تعالى إنما يرميه جميعا و لا يخصص قوله ذاك بسوره دون سوره، فلا معنى لرده بالتحدى بسوره البقره أو بسوره يونس لرجوع المعنى حينئذ الى مثل قولنا: و ان كنتم فى ريب من سوره الكوثر او الاخلاص مثلا فأتوا بسوره مثل سوره يونس و هو بين الاستهجان

هذا (١).

و قوله تعالى: فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ. سوق الآيات من أول السوره و إن كانت لبيان حال المتقين و الكافرين و المنافقين (الطوائف الثلاث) جميعا لكنه سبحانه حيث جمعهم طرا في قوله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ، و دعاهم الى عبادته تقسموا لا محاله الى مؤمن و غيره فإن هذه الدعوه لا تحتمل من حيث إيجابتها و عدمها غير القسمين: المؤمن و الكافر و أما المنافق فإنما يتحقق بضم الظاهر الى الباطن، و اللسان الى القلب فكان هناك من جمع بين اللسان و القلب إيمانا أو كفرا و من اختلف لسانه و قلبه و هو المنافق، فلما ذكرنا (لعله) أسقط المنافقون من الذكر، و خصص بالمؤمنين و الكافرين و وضع الإيمان مكان التقوى.

ثم إن الوقود ما توقد به النار و قد نصت الآية على أن نفس الإنسان، فالإنسان وقود و موقود عليه، كما في قوله تعالى ايضا: ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (المؤمن ٧٢) و قوله تعالى:

نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (اللمزه ٧)، فالإنسان معدب بنار تقوده نفسه،

و هذه الجملة نظيره قوله تعالى: كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرِهِ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَ أُنُوا بِهِ مُتَشَابِهًا (البقره ٢٥)، ظاهره في أنه ليس للإنسان هناك إلا ما هيأه من هاهنا، كما عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم: «كما تعيشون تموتون و كما تموتون تبعثون» الحديث؛ و إن كان بين

ص: ٦١

١ - ١) البقره ٢١-٢٥: بحث مفصل حول: الاعجاز و ماهيته؛ اعجاز القرآن؛ وجوه اعجاز القرآن؛ تحديه بالعلم، التحدى بمن انزل عليه القرآن؛ تحدى القرآن بالاخبار عن الغيب؛ تحدى القرآن بعدم الاختلاف فيه؛ التحدى بالبلاغه؛ معنى الآيه المعجزه في القرآن و ما يفسر به حقيقتها؛ تصديق القرآن لقانون العليه العامه؛ اثبات القرآن ما يخرق للعادة؛ القرآن يسند ما أسند الى العله الماديه الى الله تعالى؛ القرآن يثبت تأثيرا في نفوس الانبياء في الخوارق؛ القرآن كما يسند الخوارق الى تأثير النفوس، يسندها الى امر الله تعالى؛ القرآن يسند المعجزه الى سبب غير مغلوب؛ القرآن يعد المعجزه برهانا على صحه رساله لا دليلا عاميا.

الفريقين فرق من حيث أن لأهل الجنة مزيدا عند ربهم. قال تعالى: لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (ق ٣٥).

و المراد بالحجاره فى قوله: وَقُودَهَا النَّاسُ وَ الْحِجَارَةُ، الأصنام التى كانوا يعبدونها، و يشهد به قوله تعالى: إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ الْآيَةَ (الأنبياء / ٩٨)، و الحصب هو الوقود.

و قوله تعالى: لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ، قرينه الأزواج تدل على أن المراد بالطهاره هى الطهاره من أنواع الأقدار و المكاره التى تمنع من تمام الالتيام و الالفه و الانس من الاقدار و المكاره الخلقية و الخلقية.

[سوره البقره (٢): الآيات ٢٦ الى ٢٧]

اشاره

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَهُ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا - يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَ يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧)

بيان:

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَهُ الحيوان المعروف و هو من أصغر الحيوانات المحسوسه و هذه الآيه و التى بعدها نظيره ما فى سوره الرعد أ فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّ مَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ

وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ. وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ (الرعد ١٩، ٢١، ٢٠).

و كيف كان فالآيه تشهد على أن من الضلال و العمى ما يلحق الإنسان عقيب أعماله السيئه غير الضلال و العمى الذى له فى نفسه و من نفسه حيث يقول تعالى: وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ، فقد جعل إضلاله فى تلو الفسق لا متقدما عليه هذا.

ثم إن الهدايه و الإضلال كلمتان جامعتان لجميع أنواع الكرامه و الخذلان التى ترد منه تعالى على عباده السعداء و الأشقياء، فإن الله تعالى وصف فى كلامه حال السعداء من عباده بأنه يحييهم حيوه طيبه، و يؤيدهم بروح الإيمان، و يخرجهم من الظلمات الى النور و يجعل لهم نورا يمشون به، و هو وليهم و لا- خوف عليهم و لا هم يحزنون، و هو معهم يستجيب لهم اذا دعوه و يذكرهم اذا ذكروه، و الملائكه تنزل عليهم بالبشرى و السلام الى غير ذلك.

و وصف حال الأشقياء من عباده بأنه يضلهم و يخرجهم من النور الى الظلمات و يختم على قلوبهم، و على سمعهم و على أبصارهم غشاوه، و يطمس وجوههم على أدبارهم و يجعل فى أعناقهم أغلالا فهى الى الأذقان فهم مقمحون، و يجعل من بين أيديهم سدا من خلفهم سدا فيغشيهم فهم لا يبصرون، و يقيض لهم شياطين قرناء يضلونهم عن السبيل و يحسبون أنهم مهتدون، و يزينون لهم أعمالهم، و هم أولياهم، و يستدرجهم الله من حيث لا يشعرون، و يملى لهم أن كيده متين، و يمكر بهم و يمدهم فى طغيانهم يعمهون.

و قوله تعالى: إِلَّا الْفَاسِقِينَ، الفسق كما قيل من الألفاظ التى أبدع القرآن استعمالها فى معناها المعروف، مأخوذ من فسقت التمره اذا خرجت عن قشرها و جلدها و لذلك فسر بعده بقوله تعالى:

الأشقياء مثل المقرّبين و المخلصين و المخبتين و الصالحين و المطهّرين و غيرها، و مثل الظالمين و الفاسقين و الخاسرين و الغاوين و الضالّين و أمثالها أو صافاً مبتدله أو مأخوذه لمجرد تزيين اللفظ، فتضطرب بذلك قريحتك في فهم كلامه تعالى فتعطف الجميع على واد واحد، و تأخذه هجاء عامياً و حديثاً ساذجاً سوقياً بل هي أو صاف كاشفه عن حقائق روحيه و مقامات معنويه في صراطى السعادة و الشقاوه، كل واحد منها في نفسه مبدأ لآثار خاصه و منشأ لأحكام مخصوصه معينه، كما أن مراتب السنّ و خصوصيات القوى و أوضاع الخلقه في الإنسان كل منها منشأ لأحكام و آثار مخصوصه لا يمكننا أن نطلب واحدا منها من غير منشئه و محتده، و لئن تدبّرت في مواردنا من كلامه تعالى و أمعنت فيها وجدت صدق ما ادّعيناها (١)(٢)(٣).

[سوره البقره (٢): الآيات ٢٨ الى ٢٩]

اشاره

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)

بيان:

و قوله تعالى: كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا. الآية قريبه السياق من قوله

ص: ٦٤

١- (١) البقره ٢٦-٢٧: بحث في الجبر و التفويض.

٢- (٢) البقره ٢٦-٢٧: بحث روائى في الجبر و التفويض.

٣- (٣) البقره ٢٦-٢٧: بحث فلسفى حول الافعال و اراده الانسان و كيفيه استنادها الى الله تعالى.

تعالى: **قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ** (المؤمن ١١)، وهذه من الآيات التي يستدل بها على وجود البرزخ بين الدنيا والآخرة، فإنها تشتمل على إمامتين، فلو كان إحداهما الموت الناقل من الدنيا لم يكن بد في تصوير الإمامته الثانية من فرض حياه بين الموتين و هو البرزخ، و هو استدلال تام اعتنى به في بعض الروايات ايضاً، وربما ذكر بعض المنكرين للبرزخ أن الآيتين أعنى قوله: **كَيْفَ تَكْفُرُونَ...**

الآيه، وقوله: **قَالُوا رَبَّنَا..** الآيه، متحدتا السياق، وقد اشتملتا على موتين و حياتين، فمدلولهما واحد، والآيه الأولى ظاهره في أن الموت الأول هو حال الإنسان قبل ولوج الروح في الحياه الدنيا، فالموت و الحياه الاوليان هما الموت قبل الحياه الدنيا و الحياه الدنيا، و الموت و الحياه الثانية هما الموت عن الدنيا و الحياه يوم البعث، و المراد بالمراتب في الآيه الثانية هو ما في الآيه الأولى، فلا معنى لدلالاتها على البرزخ، و هو خطأ فان الآيتين مختلفتان سياقاً اذ المأخوذ في الآيه الأولى موت واحد و إمامته لا يتحقق لها مصداق من دون سابقه حيوه بخلاف الموت، فالموت الأول في الآيه الأولى غير الإمامته الاولى في الآيه الثانية، فلامح في قوله تعالى: **أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ**، الإمامته الأولى هي التي بعد الدنيا و الإحياء الأول بعدها للبرزخ و الإمامته و الإحياء الثانية للآخره يوم البعث، و في قوله تعالى: **وَ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ** إنما يريد الموت قبل الحياه و هو موت و ليس بإمامته و الحياه هي الحياه الدنيا، و في قوله تعالى: **ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** حيث فصل بين الإحياء و الرجوع بلفظ ثم تأييد لما ذكرنا هذا.

قوله تعالى: **وَ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا**، بيان حقيقه الإنسان من حيث وجوده فهو وجود متحوّل متكامل يسير في مسير وجوده المتبدّل المتغير تدريجاً و يقطعه مرحله مرحله، فقد كان الإنسان قبل نشأته في الحياه الدنيا ميتاً ثم حيى بإحياء الله ثم يتحول بإمامته و إحياء و هكذا و قد قال سبحانه: **وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ**

مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ (السجده ٩)، و قَالَ تَعَالَى: ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (المؤمنون ١٤)، و قَالَ تَعَالَى: وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ. بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ. قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ (السجده ١١)، و قَالَ تَعَالَى: مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَ فِيهَا نُعِيدُكُمْ وَ مِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (طه ٥٥). و الآيات كما ترى (و سنزيدها توضيحا في محالها) تدلُّ على أن الإنسان جزء من الأرض غير مفارقتها و لا مباين معها، انفصل منها ثم شرع في التطور بأطواره حتى بلغ مرحله أنشئ فيها خلقا آخر، فهو المتحوّل خلقا آخر و المتكامل بهذا الكمال الجديد الحديث، ثم يأخذ ملك الموت هذا الإنسان من البدن نوع أخذ يستوفيه ثم يرجع الى الله سبحانه، فهذا صراط وجود الإنسان.

و قوله تعالى: فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ، سيأتي الكلام في السماء في سورة حم السجده إن شاء الله تعالى.

[سوره البقره (٢): الآيات ٣٠ الى ٣٣]

اشاره

وَ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ أَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)

قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ الْحَقُّ سَيَأْتِي الْكَلَامَ فِي مَعْنَى الْقَوْلِ مِنْهُ تَعَالَى وَ كَذَا الْقَوْلُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالشَّيْطَانِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

قوله تعالى: قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ، الى قوله:

وَتُقَدِّسُ لَكَ مَشْعَرٌ بِأَنَّهُمْ أَمَّا فَهَمُوا وَقَوَّعَ الْإِفْسَادَ وَ سَفَكَ الدِّمَاءَ مِنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً، حَيْثُ أَنَّ الْمَوْجُودَ الْأَرْضِيَّ بِمَا أَنَّهُ مَادِيٌّ مَرْكَبٌ مِنَ الْقُوَى الْغَضَبِيَّةِ وَالشَّهْوِيَّةِ، وَالْإِدَارِ دَارَ التَّرَاحُمِ، مَحْدُودَهُ الْجِهَاتِ، وَافْرَهُ الْمَزَاحِمَاتِ، مَرْكَبَاتِهَا فِي مَعْرِضِ الْإِنْحِلَالِ، وَانْتِظَامَاتِهَا وَاصْلَاحَاتِهَا فِي مِظَنِّ الْفَسَادِ وَ مِصْبِ الْبَطْلَانِ، لَا تَتِمُّ الْحَيَاةُ فِيهَا إِلَّا بِالْحَيَاةِ النَّوْعِيَّةِ، وَ لَا يَكْمَلُ الْبَقَاءُ فِيهَا إِلَّا بِالْإِجْتِمَاعِ وَ التَّعَاوُنِ، فَلَا تَخْلُو مِنَ الْفَسَادِ وَ سَفْكِ الدِّمَاءِ، فَفَهَمُوا مِنْ هُنَاكَ أَنَّ الْخِلَافَةَ الْمُرَادَةَ لَا تَقَعُ فِي الْأَرْضِ إِلَّا بِكَثْرَةِ مِنَ الْأَفْرَادِ وَ نِظَامِ اجْتِمَاعِيٍّ بَيْنَهُمْ يَفْضِي بِالْآخِرَةِ إِلَى الْفَسَادِ وَ السَّفْكِ، وَ الْخِلَافَةَ وَ هِيَ قِيَامُ شَيْءٍ مَقَامَ آخَرَ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِكَوْنِ الْخَلِيفَةِ حَاكِمًا لِلْمُسْتَخْلَفِ فِي جَمِيعِ شُؤْنِهِ الْوُجُودِيَّةِ وَ آثَارِهِ وَ أَحْكَامِهِ وَ تَدَابِيرِهِ بِمَا هُوَ مُسْتَخْلَفٌ، وَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي وَجُودِهِ مَسْمُومٌ بِالْأَسْمَاءِ الْحَسَنِيِّ مُتَّصِفٌ بِالصِّفَاتِ الْعُلْيَا، مِنْ أَوْصَافِ الْجَمَالِ وَ الْجَلَالِ، مَنْزَهُ فِي نَفْسِهِ عَنِ النِّقْصِ وَ مَقْدَسٌ فِي فِعْلِهِ عَنِ الشَّرِّ وَ الْفَسَادِ جَلَّتْ عِظَمَتُهُ، وَ الْخَلِيفَةُ الْأَرْضِيَّةُ بِمَا هُوَ كَذَلِكَ لَا يَلِيقُ بِالْإِسْتِخْلَافِ وَ لَا يَحْكِي بِوُجُودِهِ الْمَشُوبِ كُلَّ نِقْصٍ وَ شَيْنٍ الْوُجُودِ الْإِلَهِيِّ الْمَقْدَسِ الْمَنْزَهُ عَنِ جَمِيعِ النِّقَاصِ وَ كُلِّ الْأَعْدَامِ، فَأَيْنَ التَّرَابِ وَ رَبِّ الْأَرْبَابِ، وَ هَذَا الْكَلَامُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فِي مَقَامِ تَعْرِفِ مَا جَهِلُوهُ وَ اسْتِضَاحِ مَا أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَمْرِ هَذَا الْخَلِيفَةِ، وَ لَيْسَ مِنَ الْإِعْتِرَاضِ وَ الْخِصُومَةِ فِي شَيْءٍ، وَ الدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ

قولهم فيما حكاه الله تعالى عنهم: انك أنت العليم الحكيم حيث صدر الجمله بأن التعليليه المشعره بتسلم مدخولها فافهم، فملخص قولهم يعود الى ان جعل الخلافه انما هو لأجل ان يحكى الخليفه مستخلفه بتسييحه بحمده و تقديسه له بوجوده، و الارضيه لا تدعه يفعل ذلك بل تجره الى الفساد و الشر، و الغايه من هذا الجعل و هى التسييح و التقديس بالمعنى الذى مرّ من الحكايه حاصله بتسييحنا بحمدك و تقديسنا لك، فنحن خلفائك أو فاجعلنا خلفاء لك، فما فائده جعل هذه الخلافه الارضيه لك؟ فرد الله سبحانه ذلك عليهم بقوله: **إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا .**

و قوله تعالى: **وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ**، مشعر بأن هذه الأسماء أو أن مسمياتها كانوا موجودات أحياء عقلاء، محجوبين تحت حجاب الغيب و أن العلم بأسمائهم كان غير نحو العلم الذى عندنا بأسماء الأشياء، و إلا كانت الملائكه بانباء آدم إياهم بها عالمين و صائرين مثل آدم مساوين معه، و لم يكن فى ذلك اكرام لآدم، و لا كرامه حيث علمه الله سبحانه أسماء و لم يعلمهم، و لو علمهم إياها كانوا مثل آدم أو أشرف منه، و لم يكن فى ذلك ما يقنعهم أو يبطل حججهم، و أى حجه تتم فى أن يعلم الله تعالى رجالا- علم اللغه ثم يباهى به و يتم الحججه على ملائكه مكرمين لا يسبقونه بالقول و هم بأمره يعملون بأن هذا خليفتى و قابل لكرامتى دونكم؟ و يقول تعالى أنبئونى باللغات التى سوف يضعها الآدميون بينهم لإفهام و التفهيم إن كنتم صادقين فى دعويكم أو مسألتكم خلافتى، على أن كمال اللغه هو المعرفه بمقاصد القلوب و الملائكه لا تحتاج فيها الى التكلم، و انما تتلقى المقاصد من غير واسطه، فلهم كمال فوق كمال التكلم، و بالجمله فما حصل للملائكه من العلم بواسطه انباء آدم لهم بالأسماء هو غير ما حصل لآدم من حقيقه العلم بالأسماء بتعليم الله تعالى فأحد الأمرين كان ممكنا فى حق الملائكه و فى مقدرتهم دون الآخر، و آدم انما استحق الخلافه الإلهيه بالعلم و بالأسماء دون انبائها اذ الملائكه انما قالوا فى مقام الجواب: سبحانهك لا علم لنا

إلا ما علمتنا، فنفوا العلم.

و الاسماء فى قوله تعالى: وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا، جمع محلى باللام و هو يفيد العموم على ما صرحوا به، مضافا الى انه مؤكد بقوله: كُلَّهَا، فالمراد بها كل اسم يقع لمسمى و لا تقييد و لا عهد، ثم قوله: عَرَضَهُمْ، دال على كون كل اسم أى مسماه ذا حيوه و علم و هو مع ذلك تحت حجاب الغيب، غيب السموات و الارض. و اضافته الغيب الى السموات و الارض و ان امكن ان يكون فى بعض الموارد اضافته من، يفيد التبعض لكن المورد و هو مقام اظهار تمام قدرته تعالى و احاطته و عجز الملائكة و نقصهم يوجب كون اضافته الغيب الى السموات و الارض اضافته للام، يفيد أن الاسماء امور غائبه عن العالم السماوى و الارضى، خارج محيط الكون، و اذا تأملت هذه الجهات اعنى عموم الاسماء و كون مسمياتها أولى حياه و علم و كونها غيب السموات و الارض قضيت بانطباقها بالضروره على ما اشير اليه فى قوله تعالى: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (الحجر ٢١)، حيث أخبر سبحانه بأنه كل ما يقع عليه اسم شىء فله عنده تعالى خزائن مخزونه باقيه عنده غير نافده، و لا مقدره بقدره، و لا محدوده بحد، و أن القدر و الحد فى مرتبه الانزال و الخلق، و أن الكثره التى فى هذه الخزائن ليست من جنس الكثره العديده الملازمه للتقدير و التحديد بل تعدد المراتب و الدرجات، و سيجىء بعض الكلام فيها فى سوره الحجر إن شاء الله تعالى.

فتحصّل ان هؤلاء الذين عرضهم الله على الملائكة موجودات عاليه محفوظه عند الله تعالى، محجوبه بحجب الغيب، أنزل الله سبحانه كل اسم فى العالم بخيرها و بركتها و اشتق كل ما فى السموات و الارض من نورها و بهائها، و أنهم على كثرتهم و تعددهم لا يتعددون تعدد الأفراد، و لا يتفاوتون تفاوت الاشخاص، و انما يدور الأمر هناك مدار المراتب و الدرجات و نزول الاسم من عند هؤلاء انما هو بهذا القسم من النزول.

وقوله تعالى: **وَ أَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ** و **مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ** و كان هذان القسمان من الغيب النسبي الذى هو بعض السموات و الأرض، و لذلك قوبل به قوله: **أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ**، ليشمل قسمى الغيب أعنى الخارج عن العالم الارضى و السماوى و غير الخارج عنه.

وقوله تعالى: **كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**، تقييد الكتمان بقوله: **كُنْتُمْ**، مشعر بأن هناك امرا مكتوما فى خصوص آدم و جعل خلافته، و يمكن أن يستظهر ذلك من قوله تعالى فى الآيه التاليه: **فَسَجِدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَ اسْتَكْبَرَ وَ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**.

فيظهر أن ابليس كان كافرا قبل ذلك الحين، و أن إبائه عن السجده كان مرتبطا بذلك فقد كان أضمراه هذا.

و يظهر بذلك أن سجدته الملائكه و إباء ابليس عنها كانت واقعه بين قوله تعالى: **قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** و بين قوله: **أَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ** و **مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**، و يظهر السر أيضا فى تبديل قوله: **إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ثانيا بقوله: **إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ (١)**.

[سوره البقره (٢): آيه ٣٤]

اشاره

وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَ اسْتَكْبَرَ وَ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)

بيان:

وقوله تعالى: **اسْجُدُوا لِآدَمَ**، يستفاد منه جواز السجود لغير الله فى الجملة اذا كان تحية و تكرمه للغير و فيه خضوع لله تعالى بموافقه أمره، و نظيره قوله تعالى فى قصه

ص: ٧٠

(١- ١). البقره ٣٠-٣٣: بحث روائى حول الاسماء التى علمها الله لآدم عليه السلام.

يوسف عليه السلام: و رفع أبويه على العرش و خرّوا له سجدا قال: يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا (يوسف ١٠٠/١)، و ملخص القول في ذلك أنك قد عرفت في سورة الفاتحة أن العبادة هي نصب العبد نفسه في مقام العبودية و إتيان ما يثبت و يستتبت به ذلك فالفعل العبادي يجب أن يكون فيه صلاحية إظهار مولويّه المولى، أو عبديه العبد كالسجود و الركوع و القيام أمامه حينما يقعد، و المشى خلفه حينما يمشى و غير ذلك، و كلما زادت الصلاحية المزبوره ازدادت العبادة تعيّنًا للعبودية، و أوضح الأفعال في الدلالة على عز المولويه و ذلك العبودية السجده، لما فيها من الخور على الأرض، و وضع الجبهه عليها، و اما ما ربما ظنه بعض: من أن السجده عباده ذاتيه، فليس بشيء، فإن الذاتى لا يختلف و لا يتخلف. و هذا الفعل يمكن أن يصدر بعينه من فاعله بداع غير داع التعظيم و العباده كالسخرية و الاستهزاء فلا يكون عباده مع اشتماله على جميع ما يشتمل عليه و هو عباده نعم معنى العباده أوضح في السجده من غيرها، و اذا لم يكن عباده ذاتيه لم يكن لذاته مختصا بالله سبحانه، بناء على أن المعبود منحصر فيه تعالى، فلو كان هناك مانع لكان من جهه النهى الشرعى أو العقلى و الممنوع شرعا أو عقلا ليس إلا إعطاء الربويه لغيره تعالى، و أما تحيه الغير أو تكرمته من غير إعطاء الربويه، بل لمجرد التعارف و التحيه فحسب، فلا دليل على المنع من ذلك، لكن الذوق الدينى المتخذ من الاستيناس بظواهره يقضى باختصاص هذا الفعل به تعالى، و المنع عن استعماله فى غير موردته تعالى، و ان لم يقصد به إلا التحيه و التكرمه فقط، و أما المنع عن كل ما فيه إظهار الاخلاص لله، بإبراز المحبه لصالحى عباده أو لقبور أوليائه أو آثارهم فمما لم يقم عليه دليل عقلى أو نقلى أصلا، و سنعود الى البحث عن هذا الموضوع فى محل يناسبه إنشاء الله تعالى (١).

ص: ٧١

اشاره

وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)

بيان:

قوله تعالى: وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ، على أن قصه سجود الملائكة لآدم تكررت في عدة مواضع من القرآن الكريم. لم يقع قصه الجنة إلا في ثلث مواضع:

احدهما: هاهنا من سوره البقره.

الثاني: في سوره الاعراف قال الله تعالى: وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ .

و الثالث: في سوره طه. قال الله تعالى: وَ لَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ

عَزْمًا. وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى .

قوله تعالى: وَكُلًّا مِنْهَا رَغَدًا الرَّغْدَ الهناء و طيب العيش و أرغد القوم مواشيهم تركوها ترعى كيف شاءت، و قوم رغد، و نساء رغد، أى ذووا عيش رغيد.

و قوله تعالى: وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ و كأن النهى انما كان عن أكل الثمره و انما تعلق بالقرب من الشجره ايذانا بشده النهى و مبالغه فى التأكيد و يشهد بذلك قوله تعالى:

فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا (الأعراف ٢٢/).

و قوله تعالى: فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا (طه ١٢١/)، فكانت المخالفه بالأكل فهو المنهى عنه بقوله: وَلَا تَقْرَبَا .

قوله تعالى: فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ، من الظلم لا من الظلمه على ما احتمله بعضهم و قد اعترفا بظلمهما حيث قالوا على ما حكاه الله تعالى عنهما: رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا .

إلا أنه تعالى بدّل فى سوره طه هذه الكلمه أعنى قوله: فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ من قوله: فَتَشْقَى و الشقاء هو التعب ثم فسر التعب و فصله، فقال: إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَ لَا تَعْرَى وَ أَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَ لَا تَصْحَى الآيات.

قوله سبحانه: فَازْلَهَمَا الشَّيْطَانُ، الظاهر من هذه الجمله كفظاؤها و إن لم يكن أزيد من وسوسه الشيطان لهما مثل ما يوسوس لنا(بنى آدم) على نحو القاء الوسوسه فى القلب من غير رؤيه الشخص.

لكن الظاهر من أمثال قوله تعالى فى سوره طه: فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَيْدُوكَ وَ لِرُؤُوسِكَ يدل على أنه تعالى أراهما الشيطان و عرفهما إياه بالشخص و العين دون الوصف و كذا قوله تعالى حكايه عن الشيطان: يَا آدَمُ هَبْ أَدْبَاكَ عَلَى شَجَرِهِ الْخُلْدِ الآيه؛ حيث أتى بالكلام فى صورته حكايه الخطاب، و يدل ذلك على متكلم مشعور به.

و كذا قوله تعالى فى سورة الأعراف: **وَ قَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ** و القسم إنما يكون من مقاسم مشعور به.

و كذا قوله تعالى: **وَ نَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنه كان يتراءى لهما و كانا يشاهدانه. و لو كان حالهما عليهما السلام مثل حالتنا من عدم المشاهده حين الوسوسة لجاز لهما أن يقولا: ربنا اننا لم نشعر و خلنا أن هذه الوسوس هي من أفكارنا من غير استشعار بحضوره، و لا قصد لمخالفه ما وصيتنا به من التحذير من وسوسته.**

و بالجمله فهما كانا يشاهدانه و يعرفانه، و الأنبياء و هم المعصومون بعصمه الله كذلك يعرفونه و يشاهدونه حين تعرّضه بهم لو تعرض على ما وردت به الروايات فى نوح و إبراهيم و موسى و عيسى و يحيى و ايوب و اسماعيل و محمد صلّى الله عليه و آله و سلّم و عليهم هذا.

و كذا ظاهر هذه الآيات كظاهر قوله تعالى: **مَا تَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ** حيث ينبىء عن كونهما معه لعنه الله بحيال الشجره فى الجنة، فقد كان دخل الجنة و صاحبهما و غرهما بوسوسته و لا- محذور فيه اذ لم تكن الجنة جنه الخلد حتى لا- يدخلها الشيطان، و الدليل على ذلك خروجهم جميعا من هذه الجنة.

و أما قوله تعالى خطابا لإبليس: **فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ** (الأعراف ١٣)، فيمكن أن يكون المراد به الخروج من الملائكه، أو الخروج من السماء من جهه كونها مقام قرب و تشریف.

قوله تعالى: **وَ قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** الآيه؛ ظاهر السياق أنه خطاب لآدم و زوجته و إبليس و قد خص إبليس وحده بالخطاب فى سورة الأعراف حيث قال: **فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا** الآيه؛ فقوله تعالى: **اهْبِطُوا** كالجمع بين الخطابين و حكاية عن قضاء قضى الله به العداوه بين إبليس لعنه الله و بين آدم و زوجته

و ذريتهما، وكذلك قضى به حياتهم فى الأرض و موتهم فيها و بعثهم منها.

و ذريه آدم مع آدم فى الحكم كما ربما يستشعر من ظاهر قوله: فِيهَا تَحْيَوْنَ وَ فِيهَا تَمُوتُونَ وَ مِنْهَا تُخْرَجُونَ الآيه؛ و كما سيأتى فى قوله تعالى: وَ لَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ الآيه؛ من سوره الأعراف.

إن إسجاد الملائكة لآدم عليه السلام إنما كان من جهه أنه خليفه أَرْضَى، فكان المسجود له آدم عليه السلام و حكم السجده لجميع البشر، فكان إقامه آدم عليه السلام مقام المسجود له معنونا بعنوان الأنموذج و النائب.

و بالجملة يشبه أن تكون هذه القصة التى قصها الله تعالى من إسكان آدم و زوجته الجنة، ثم إهباطهما لأكل الشجره كالمثل يمثل به ما كان الإنسان فيه قبل نزوله الى الدنيا من السعاده و الكرامه بسكونه حظيره القدس، و منزل الرفعه و القرب، و دار نعمه و سروره، و انس و نور، و رفقاء طاهرين، و اخلاء روحانيين، و جوار رب العالمين.

ثم إنه يختار مكانه كل تعب و عناء و مكروه و ألم بالميل الى حيوه فانيه، و جيفه منتنه دانيه، ثم أنه لو رجع بعد ذلك الى ربه لأعادته الى دار كرامته و سعادته و لو لم يرجع اليه و أخلد الى الأرض و اتبع هواه فقد بدل نعمه الله كفرا و احل بنفسه دار البوار، جهنم يصلحها و بئس القرار.

قوله تعالى: فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ، التلقى هو التلقن، و هو أخذ الكلام مع فهم و فقه و هذا التلقى كان هو الطريق المسهل لآدم عليه السلام توبته.

و من ذلك يظهر أن التوبه توبتان: توبه من الله تعالى و هى الرجوع الى العبد بالرحمه، و توبه من العبد و هى الرجوع الى الله بالاستغفار و الانقلاع من المعصيه.

و توبه العبد، محفوفه بتوبتين من الله تعالى، فان العبد لا يستغنى عن ربه فى حال من الأحوال، فرجوعه عن المعصيه اليه يحتاج الى توفيقه تعالى و إعانتة و رحمته حتى يتحقق منه

التوبه، ثم تمس الحاجه الى قبوله تعالى و عنايته و رحمته، فتوبه العبد اذا قبلت كانت بين توبتين من الله كما يدل عليه قوله تعالى: **ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا** (التوبه ١١٩).

و قراءه نصب آدم و رفع كلمات تناسب هذه النكته، و إن كانت القراءه الاخرى (و هي قراءه رفع آدم و نصب كلمات) لا تنافيه ايضا.

و أما أن هذه الكلمات ما هي؟ فربما يحتمل انها هي ما يحكيه الله تعالى عنهما في سوره الأعراف بقوله: **قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَ إِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَ تَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** (الأعراف ٢٣)، إلا أن وقوع هذه الكلمات أعنى قوله: **قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا الْآيَةَ**؛ قبل قوله:

قُلْنَا اهْبِطُوا فِي سوره الأعراف و وقوع قوله: فَتَلَقَى آدَمُ الْآيَةَ؛ بعد قوله: **قُلْنَا اهْبِطُوا**، في هذه السوره لا يساعد عليه.

لكن هاهنا شيء هو أنك عرفت في صدر القصة أن الله تعالى حيث قال: **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**، قالت الملائكة: **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ الْآيَةَ**؛ و هو تعالى لم يرد عليهم دعواهم على الخليفة الأرضي بما رموه به و لم يجب عنه بشيء إلا أنه علم آدم الأسماء كلها.

و لو لا- أنه كان فيما صنعه تعالى من تعليم الأسماء ما يسد باب اعتراضهم ذلك لم ينقطع كلامهم و لا تمت الحجة عليهم قطعا. ففي جملة ما علمه الله تعالى آدم من الاسماء أمر ينفع العاصي اذا عصى و المذنب اذا أذنب، ففعل تلقيه من ربه كان متعلقا بشيء من تلك الأسماء فافهم ذلك.

و اعلم أن آدم عليه السلام و إن ظلم نفسه في القائنها الى شفا جرف الهلكه و منشعب طريقى السعاده أعنى الدنيا، فلو وقف في مهبط فقد هلك، و لو رجع الى سعاده الأولى فقد أتعب نفسه و ظلمها، فهو عليه السلام ظالم لنفسه على كل تقدير، إلا أنه عليه السلام هيا لنفسه بنزوله درجه من السعاده و منزله من الكمال ما كان ينالها لو لم ينزل و كذلك ما كان ينالها لو نزل من غير

فمتى كان يمكنه أن يشاهد ما لنفسه من الفقر والمذله والمسكنه والحاجه والقصور و له فى كل ما يصيبه من التعب والعناء والكدر روح وراحه فى حظيره القدس وجوار رب العالمين، فله تعالى صفات من عفو ومغفره وتوبه وستر وفضل ورأفه ورحمه لا ينالها إلا المذنبون، و له فى أيام الدهر نفحات لا يرتاح بها إلا المتعزضون.

فهذه التوبه هى التى استدعت تشريع الطريق الذى يتوقع سلوكه و تنظيف المنزل الذى يرجى سكونه، فوراءها تشريع الدين و تقويم المله.

و يدل على ذلك ما تراه أن الله تعالى يكرر فى كلامه تقدم التوبه على الإيمان. قال تعالى:

فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ (هود ١١٢)، وقال: وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ (طه ٨٢)، الى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى. و هذا أول ما شرع من الدين لآدم عليه السلام و ذريته، أوجز الدين كله فى جملتين لا يزداد عليه شىء الى يوم القيامة.

و أنت اذا تدبرت هذه القصة (قصة الجنه) و خاصه ما وقع فى سوره طه وجدت أن المستفاد منها أن جريان القصة أوجب قضاءين منه تعالى فى آدم و ذريته، فأكل الشجره أوجب حكمه تعالى و قضائه بالهبوط و الاستقرار فى الأرض و الحياه فيها تلك الحياه الشقيه التى حذرا منها حين نهيا عن اقتراب الشجره هذا.

و أن التوبه ثانيا: تعقب قضاء و حكما ثانيا منه تعالى بإكرام آدم و ذريته بالهدايه الى العبوديه فالمقضى أولا كان نفس الحياه الأرضيه، ثم بالتوبه طيب الله تلك الحياه بأن ركب عليها الهدايه الى العبوديه، فتألفت الحياه من حيوه أرضيه، و حيوه سماويه.

و هذا هو المستفاد من تكرار الأمر بالهبوط فى هذه السوره حيث قال تعالى: وَقُلْنَا

اهْبُطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ الْآيَةَ؛ وَقَالَ تَعَالَى:

قُلْنَا اهْبُطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى الْآيَةَ.

و توسط التوبه بين الأمرين بالهبوط مشعر بأن التوبه وقعت و لما ينفصلا من الجنه و إن لم يكونا أيضا فيها كاستقرارهما قبل ذلك.

يشعر بذلك أيضا قوله تعالى: **وَقُلْنَا لَهُمَا رَبُّهُمَا أَ لَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تَلْكُمَا الشَّجَرَةَ الْآيَةَ؛** بعد ما قال لهما: لا تقربا هذه الشجره فأتى بلفظه تلكما و هى إشاره الى البعيد بعد ما أتى بلفظه هذه و هى إشاره الى القريب و عبر بلفظه نادى و هى للبعيد بعد ما أتى بلفظه قال و هى للقريب فافهم.

و اعلم أن ظاهر قوله تعالى: **وَقُلْنَا اهْبُطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ الْآيَةَ؛** وقوله تعالى: **قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَ فِيهَا تَمُوتُونَ وَ مِنْهَا تُخْرَجُونَ الْآيَةَ؛** أن نحوه هذه الحياه بعد الهبوط تغاير نحوها فى الجنه قبل الهبوط، و ان هذه حيوه ممتزجه حقيقتها بحقيقه الارض ذات عناء و شقاء يلزمها أن يتكون الانسان فى الأرض ثم يعاد بالموت إليها ثم يخرج بالبعث منها.

فالحياه الارضيه تغاير حيوه الجنه فحياتها حيوه سماويه غير أرضيه.

و من هنا يمكن ان يجزم أن جنه آدم كانت فى السماء، و إن لم تكن جنه الآخره جنه الخلد التى لا يخرج منها من دخل فيها.

نعم: يبقى الكلام فى معنى السماء و لعلنا سنوفق لاستيفاء البحث منه، إن شاء الله تعالى.

بقى هنا شىء و هو القول فى خطيئه آدم فنقول ظاهر الآيات فى بادى النظر و إن كان تحقق المعصيه و الخطيئه منه عليه السلام كما قال تعالى: **فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ**، و قال تعالى: **وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ**، الْآيَةَ، و كما اعترف به فيما حكاه الله عنهما: **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَ إِن لَّم تَغْفِرْ لَنَا وَ تَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ الْآيَةَ.**

لكن التدبير فى آيات القصه و الدقه فى النهى الوارد عن أكل الشجره يوجب القطع: بأن النهى المذكور لم يكن نهيا مولويا و انما هو نهى إرشادى يراد به الإرشاد و الهدايه الى ما فى مورد التكليف من الصلاح و الخير لا البعث و الإراده المولويه.

و يدل على ذلك اولاً: أنه تعالى فرّع على النهى فى هذه السوره و فى سوره الأعراف أنه ظلم حيث قال: لَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ ثم بدله فى سوره طه من قوله: فتشقى مفرعاً إياه على ترك الجنه. و معنى الشقاء التعب ثم ذكر بعده كالتفسير له: إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَ لَا تَعْرَى، وَ أَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَ لَا تَصْحَى الْآيَاتِ.

فأوضح أن المراد بالشقاء هو التعب الدنيوى، الذى تستتبعه هذه الحياه الأرضيه من جوع و عطش و عراء و غير ذلك.

فالتوقى من هذه الامور هو الموجب للنهى الكذائى لا جهه اخرى مولويه فالنهي إرشادى، و مخالفه النهى الإرشادى لا توجب معصيه مولويه، و تعدياً عن طور العبوديه و على هذا فالمراد بالظلم أيضاً فى ما ورد من الآيات ظلمهما على انفسهما فى القائهما فى التعب و التهلكه دون الظلم المذموم فى باب الربوبيه و العبوديه و هو ظاهر.

و ثانياً: أن التوبه، و هى الرجوع من البعد اذا استتبع القبول من جانب المولى أوجب كون الذنب كلا ذنب، و المعصيه كأنها لم تصدر، فيعامل مع العاصى التائب معامله المطيع المنقاد، و فى مورد فعله معامله الامتثال و الانقياد.

و لو كان النهى عن أكل الشجره مولويا و كانت التوبه توبه عن ذنب عبودى و رجوعاً عن مخالفه نهى مولوى كان اللازم رجوعهما الى الجنه مع انهما لم يرجعا.

و من هنا يعلم أن استتباع الأكل المنهى للخروج من الجنه كان استتباعاً ضرورياً تكوينياً، نظير استتباع السم للقتل و النار للإحراق، كما فى موارد التكاليف الإرشاديه لا استتباعاً من قبيل المجازاه المولويه فى التكاليف المولويه، كدخول النار لتارك الصلاه، و استحقاق الدم

و استیجاب البعد فی المخالفات العمومیه الاجتماعیه المولویه.

و ثالثاً: أن قوله تعالى: قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ الآيات.

و هو كلمه جامعہ لجميع التشريعات التفصيليه التي أنزلها الله تعالى في هذه الدنيا من طرق ملائكته و كتبه و رسله، يحكى عن اول تشريع شرع للانسان في هذه الدنيا التي هي دنيا آدم و ذريته، وقد وقع على ما يحكى الله تعالى بعد الأمر الثاني بالهبوط و من الواضح ان الأمر بالهبوط أمر تكويني متأخر عن الكون في الجنه و اقرار الخطيئه، فلم يكن حين مخالفه النهي و اقتراب الشجره لا دين مشروع و لا تكليف مولوى فلم يتحقق عند ذلك ذنب عبودي، و لا معصيه مولويه.

و لا ينافي ذلك كون خطاب اسجدوا للملائكه و لإبليس و هو قبل خطاب لا تقربا، خطابا مولويا لان المكلف غير المكلف.

فإن قلت: اذا كان النهي نهياً إرشادياً لا نهياً مولوياً فما معنى عدّه تعالى فعلهما ظلماً و عصياناً و غوايه؟

قلت: اما الظلم فقد مر أن المراد به ظلمهما لأنفسهما في جنب الله تعالى، و أما العصيان فهو لغيره عدم الانفعال أو الانفعال بصعوبه كما يقال: كسرتة فانكسر و كسرتة فعصى، و العصيان و هو عدم الانفعال عن الأمر أو النهي كما يتحقق في مورد التكليف المولويه كذلك يتحقق في مورد الخطابات الإرشاديه.

و أما تعين المعصيه في هذه الأزمنه عندنا جماعه المسلمين في مخالفه مثل صل، أم صم، أو حج، أو لا تشرب الخمر، أو لا تزن و نحو ذلك فهو تعين بنحو الحقيقه الشرعيه أو المتشرعه لا يضر بعموم المعنى بحسب اللغه و العرف العام هذا.

و أما الغوايه فهو عدم اقتدار الإنسان مثلا على حفظ المقصد و تدبير نفسه في معيسته بحيث يناسب المقصد و يلائمه.

و واضح أنه يختلف باختلاف الموارد من إرشاد و مولويه.

فإن قلت: فما معنى التوبه حينئذ و قولهما: «وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ؟» .

قلت: التوبه كما مر هي الرجوع، و الرجوع يختلف بحسب اختلاف موارد.

فكما يجوز للعبد المتمرد عن أمر سيده و إرادته أن يتوب اليه، فيرد اليه مقامه الزائل من القرب عنده كذلك يجوز للمريض الذى نهى الطبيب نهيا إرشاديا عن أكل شيء معين من الفواكه و المأكولات و انما كان ذلك منه مراعاة لجانب سلامته و عافيته فلم ينته المريض عن نهيه فاقتصره فتضرر فأشرف على الهلاك.

يجوز ان يتوب الى الطبيب ليشير اليه بدواء يعيده الى سابق حاله و عافيته، فيذكر له ان ذلك محتاج الى تحمل التعب و المشقه و العناء و الرياضه خلال مده حتى يعود الى سلامه المزاج الأوليه بل الى اشرف منها و أحسن، هذا.

و أما المغفره و الرحمه و الخسران فالكلام فيها نظير الكلام فى نظائرها فى اختلاف بحسب اختلاف موارد، هذا (1).

[سوره البقره (٢): الآيات ٤٠ الى ٤٤]

اشاره

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَ إِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَ لَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَ لَا تَشْتَرُوا بِإِيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَ إِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَ لَا تَلْبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَ تَكْتُمُوا الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَ أَفِيْمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ إِزْكِعُوا مَعَ الرَّاِكِعِينَ (٤٣) أ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَ أَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤)

ص: ٨١

١ - ١) البقره ٣٥-٣٩: بحث روائى حول جنه آدم و انها هل كانت جنه من جنان الدنيا ام من جنان الآخره؛ موضوع تكوين آدم عليه السلام فى التوراه؛ الشجره الملعونه؛ عصمه الانبياء عليهم السلام، كيفيه خروج آدم عليه السلام من الجنه؛ خلق حواء.

بيان:

قوله تعالى: وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي ، أصل العهد الحفاظ، و منه اشتقت معانيه كالعهد بمعنى الميثاق و اليمين و الوصيه و اللقاء و المنزل و نحو ذلك.

قوله تعالى: فَارْهَبُونِ ، الرهبه الخوف، و تقابل الرغبه.

قوله تعالى: وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ ، أى من بين أهل الكتاب، أو من بين قومكم ممن مضى و سيأتى، فإن كفار مكه كانوا قد سبقوهم الى الكفر به.

[سوره البقره (٢): الآيات ٤٥ الى ٤٦]

اشاره

وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ وَ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاغِبُونَ (٤٦)

بيان:

قوله تعالى: وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ ، الاستعانه و هى طلب العون إنما يتم فيما لا يقوى الإنسان عليه وحده من المهمات و النوازل، و اذ لا معين فى الحقيقه إلا الله سبحانه

فالعون على المهمات مقاومه الإنسان لها بالثبات و الاستقامه و الاتصال به تعالى بالانصراف إليه، و الاقبال عليه بنفسه، و هذا هو الصبر و الصلاه، و هما أحسن سبب على ذلك، فالصبر يصغر كل عظيمه نازله، و الاقبال على الله و الالتجاء إليه تستيقظ روح الايمان، و تتنبه: ان الإنسان متك على ركن لا ينهدم، و سبب لا ينفصم.

قوله تعالى: **وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ**، الضمير راجع الى الصلاه، و أما إرجاعه الى الاستعانه لتضمن قوله: **إِسْتَعِينُوا**، ذلك فينافيه ظاهرا قوله: **إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ**، فإن الخشوع لا يلائم الصبر كثير ملائمه، و الفرق بين الخشوع و الخضوع مع أن فى كليهما معنى التذلل و الانكسار أن الخضوع مختص بالجوارح و الخشوع بالقلب.

قوله تعالى: **الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ**. هذا المورد، أعنى مورد الاعتقاد بالآخره على أنه مورد اليقين لا- يفيد فيه الظن و الحسبان الذى لا يمنع النقيض، قال تعالى:

وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (البقره ٤/١)، و يمكن أن يكون الوجه فيه الأخذ بتحقيق الخشوع فان العلوم التدريجيه الحصول من أسباب تدريجيه تتدرج فيها النفس المدركه من تنبه و شك ثم ترجح أحد طرفى النقيض ثم انعدام الاحتمالات المخالفه شيئا فشيئا حتى يتم الإدراك الجازم و هو العلم، و هذا النوع من العلم اذا تعلق بأمر هائل موجب لاضطراب النفس و قلقها و خشوعها إنما تبتدى الخشوع الذى معه من حين شروع الرجحان قبل حصول الإدراك العلمى و تمامه، ففى وضع الظن موضع العلم إشاره الى أن الانسان لا يتوقف على زياده مؤونه على العلم أن تنبه بأن له ربًا يمكن ان يلاقيه و يرجع إليه و ذلك كقول الشاعر:

فقلت لهم ظنوا بألفى مذحج

سراتهم فى الفارسى المسرد

و إنما يخوف العدو باليقين لا بالشك و لكنه أمرهم بالظن لأن الظن يكفيهم فى الانقلاع عن المخالفه، بلا حاجه الى اليقين حتى يتكلف المهدد الى ايجاد اليقين فيهم بالتفهيم من غير اعتناء منه بشأنهم، و على هذا فالآيه قريبه المضمون من قوله تعالى: **فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ**

فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا (الكهف ١١٠)، وهذا كله لو كان المراد باللقاء فى قوله تعالى: مُلَاقُوا رَبَّهُمْ، يوم البعث و لو كان المراد به ما سياتى تصويره فى سورة الأعراف إن شاء الله فلا محذور فيه أصلا.

[سوره البقره (٢): الآيات ٤٧ الى ٤٨]

اشاره

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨)

بيان:

قوله تعالى: وَ اتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي . الملك و السلطان الدنيوى بأنواعه و أقسامه و بجميع شئونه، و قواه المقننه الحاكمه و المجريه مبتنيه على حوائج الحياه، و غايتها رفع الحاجه حسب ما يساعد عليه العوامل الزمانيه و المكانيه، فربما بدّل متاع من متاع أو نفع من نفع أو حكم من حكم من غير ميزان كلى يضبط الحكم و يجرى ذلك فى باب المجازاه أيضا فإن الجرم و الجنايه عندهم يستتبع العقاب، و ربما بدل الحاكم العقاب لغرض يستدعى منه ذلك كان يلخّ المحكوم الذى يرجى عقابه على القاضى و يسترحمه أو يرتشيه فينحرف فى قضائه فيجزى أى يقضى فيه بخلاف الحق، أو يبعث المجرم شفيعا يتوسط بينه و بين الحاكم أو مجرى الحكم أو يعطى عدلا و بدلا اذا كانت حاجه الحاكم المرید للعقاب إليه أزيد و أكثر من الحاجه الى عقاب ذلك المجرم، أو يستنصر قومه فينصروه فيتخلص بذلك عن تبعه العقاب و نحو ذلك. تلك سنّه جاريه و عاده دائره بينهم، و كانت الملل القديمه من الوثنيين و غيرهم تعتقد أن

الحياه الآخره نوع حياه دنيويه يطرد فيها قانون الأسباب و يحكم فيها ناموس التأثير و التأثير المادى الطبيعى، فيقدمون الى آلهتهم أنواع القرايين و الهدايا للصفح عن جرائمهم أو الإمداد فى حوائجهم، أو يستشفعون بها، أو يفسدون بشىء عن جريمه أو يستنصرون بنفس أو سلاح حتى أنهم كانوا يدفنون مع الأموات أنواع الزخرف و الزينه، ليكون معهم ما يتمتعون به فى آخرتهم، و من أنواع السلاح ما يدافعون به عن أنفسهم، و ربما ألدوا معه من الجوارى من يستأنس بها، و من الأبطال من يستنصر به الميت، و توجد اليوم فى المتاحف بين الآثار الارضيه عتائق كثيره من هذا القبيل، و يوجد عقائد متنوعه شبيهه بتلك العقائد بين الملل الإسلاميه على اختلاف السننهم و الوانهم، بقيت بينهم بالتوارث، ربما تلونت لونا بعد لون، جيلا بعد جيل، و قد أبطل القرآن جميع هذه الآراء الواهيه، و الاقاويل الكاذبه، فقد قال عز من قائل: **وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (الانفطار ١٩/)**، و قال: **وَ رَأُوا الْعَذَابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (البقره ١٦٦/)**، و قال: **وَ لَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ تَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَ مَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ، لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَ ضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (الأنعام ٩٤/)**، و قال: **هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (يونس ٣٠/)**، الى غير ذلك من الآيات التى بين فيها: ان الموطن خال عن الأسباب الدنيويه، و بمعزل عن الارتباطات الطبيعيه، و هذا اصل يتفرع عليه بطلان كل واحد من تلك الأقاويل و الأوهام على طريق الإجمال، ثم فصل القول فى نفى واحد واحد منها و إبطاله فقال: **وَ اتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَ لَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ (البقره ٤٨/)**، و قال: **يَوْمَ لَا يَنْبَغُ فِيهِ، وَ لَا خُلَّةٌ، وَ لَا شَفَاعَةٌ (البقره ٢٥٤/)**، و قال:

يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا (الدخان ٤١/)، و قال: **يَوْمَ تُؤَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ (المؤمنون ٣٣/)**، و قال: **مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ**

مُسْتَسْلِمُونَ (الصافات ٢٦)، وقال: وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُتَّبِعُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (يونس ١٨)، وقال: مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (المؤمن ١٨)، وقال: فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ (الشعراء ١٠١)، الى غير ذلك من الآيات الكريمة النافيه لوقوع الشفاعة و تأثير الوسائط و الاسباب يوم القيامة هذا.

ثم إن القرآن مع ذلك لا ينفى الشفاعة من أصلها، بل يشبها بعض الإثبات، قال تعالى:

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْمَاءَ وَالْأَرْضَ وَالْمَاءَ وَالْمَاءَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (السجده ٣)، وقال تعالى: لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ (الأنعام ٥١)، وقال تعالى: قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا (الزمر ٤٤)، وقال تعالى:

لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ (البقره ٢٥٥)، وقال تعالى: إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ (يونس ٣)، وقال تعالى: وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (الأنبياء ٢٨)، وقال: وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (الزخرف ٨٦)، وقال: لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (مريم ٨٧)، وقال تعالى: يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (طه ١١٠)، وقال تعالى: وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ (سبأ ٢٣)، وقال تعالى: وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مَنْ بَعِدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى (النجم ٢٦)، فهذه الآيات كما ترى بين ما يحكم باختصاص الشفاعة بالله عز اسمه كآيات الثلاثه

الأولى و بين ما يعممها لغيره تعالى باذنه و ارتضائه و نحو ذلك، و كيف كان فهي تثبت الشفاعة بلا ريب، غير ان بعضها تثبتها بنحو الاصاله لله وحده من غير شريك، و بعضها تثبتها لغيره باذنه و ارتضائه، و قد عرفت أن هناك آيات تنفيها فتكون النسبه بين هذه الآيات كالنسبه بين الآيات النافيه لعلم الغيب عن غيره، و اثباته له تعالى بالاختصاص و لغيره بارتضائه، قال تعالى: قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ (النمل ٦٥)، و قال تعالى: وَ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ (الأنعام ٥٩) و قال تعالى: عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ (الجن ٢٧)، و كذلك الآيات الناطقه في التوفى و الخلق و الرزق و التأثير و الحكم و الملك و غير ذلك فانها شاعه في اسلوب القرآن، حيث ينفي كل كمال عن غيره تعالى، ثم يثبت له نفسه، ثم يثبت لغيره باذنه و مشيئته، فتفيد ان الموجودات غيره تعالى لا تملك ما تملك من هذه الكمالات بنفسها و استقلالها، و إنما تملكها بتمليك الله لها إياها، حتى أن القرآن تثبت نوعا من المشيه في ما حكم فيه و قضى عليه بقضاء حتم، كقوله تعالى:

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي الدَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ، إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ وَ أَمَّا الَّذِينَ سُرِعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُودٍ (هود ١٠٨)، فقد علق الخلود بالمشيه و خاصه في خلود الجنه مع حكمه بأن العطاء غير مجذوذ، اشعارا بأن قضائه تعالى بالخلود لا يخرج الأمر من يده و لا يبطل سلطانه و ملكه عز سلطانه كما يدل على قوله: إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (هود ١٠٧)، و بالجملة لا إعطاء هناك يخرج الأمر من يده و يوجب له الفقر، و لا ممنع يضطره الى حفظ ما ممنعه و إبطال سلطانه تعالى.

و من هنا يظهر أن الآيات النافيه للشفاعه، إن كانت ناظره الى يوم القيامة فإنما تنفيها عن غيره تعالى بمعنى الاستقلال في الملك، و الآيات المشبهه تثبتها لله سبحانه بنحو الأصاله، و لغيره تعالى باذنه و تملكه، فالشفاعه ثابتة لغيره تعالى باذنه فلننظر ما ذا يفيد كلامه في معنى

الشفاعة و متعلقها؟ و فيمن تجرى؟ و ممن تصح؟ و متى تتحقق؟ و ما نسبتها الى العفو و المغفره منه تعالى؟ و نحو ذلك في أمور
(١)(٢)(٣)(٤).

[سوره البقره (٢): الآيات ٤٩ الى ٦١]

اشاره

وَ إِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبُّونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩)
وَ إِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَ آغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠) وَ إِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ
بَعْدِهِ وَ أَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَ إِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَ الْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ
(٥٣) وَ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنِّي كُنْتُ مِنْكُمْ ظَالِمًا مِمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ فَأَنْظِرُوا إِلَىٰ بَارئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ
بَارئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) وَ إِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَ أَنْتُمْ
تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) وَ ظَلَلْنَا عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ وَ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَ السَّلْوى كُلُوا مِنْ
طَيِّبَاتِهَا وَ لَكُمْ رِزْقَانَا وَ مَا ظَلَمْنَا وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧) وَ إِذْ قُلْنَا أَدْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَ
أَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَ قُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ وَ سَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَيَدَلَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا
عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩) وَ إِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ
إِثْنَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَ اشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَ لَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) وَ إِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ
نُصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَ فِثَائِهَا وَ فُومَهَا وَ عَدْسَهَا وَ بَصَلَهَا قَالَ أَسْتَسْبِدُونَ الَّذِي
هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَ ضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةَ وَ الْمَسِيكَةَ وَ بَاؤُ بِغَضَبِ اللَّهِ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا
يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيَّيْنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكُمْ بِمَا عَصَوْا وَ كَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)

ص: ٨٨

١- ١). البقره ٤٧-٤٨: بحث حول الشفاعة؛ ما هي الشفاعة؟؛ اشكالات الشفاعة؛ فيمن تجرى الشفاعة؟؛ متى تنفع الشفاعة؟

٢- ٢). البقره ٤٧-٤٨: بحث روائي حول الشفاعة.

٣- ٣). البقره ٤٧-٤٨: بحث فلسفي حول النفس و سعادتها و شقاوتها.

٤- ٤). البقره ٤٧-٤٨: بحث اجتماعي حول القانون و ضمان تنفيذه و موضوع الجزاء و الشفاعة؛ طريقه الحكومات التي تلت زمن

الرسول الكريم صلى الله عليه و آله و سلم حول احكام الله تعالى.

قوله تعالى: وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ، أى يتركونهنّ احياء للخدمه من غير أن يقتلوهنّ كالأبناء فالاستحياء طلب الحياه و يمكن أن يكون المعنى و يفعلون ما يوجب زوال حيائهنّ من المنكرات، و معنى يسومونكم يولونكم.

قوله تعالى: وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ، الفرق مقابل الجمع كالفصل و الوصل، و الفرق فى البحر الشق و الباء للسببيه أو الملايسه أى فرقنا لإنجائكم البحر أو لملايستكم دخول البحر.

قوله تعالى: وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، و قصّ تعالى القصة فى سوره الأعراف بقوله: وَوَاَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَاتَّمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِّمَّاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً (الأعراف ١٤٢/)، فعد المواعده فيها أربعين ليله إما للتغليب أو لأنه كانت العشره الأخيره بمواعده أخرى فالأربعون مجموع المواعدين كما وردت به الروايه.

قوله تعالى: فَتَوَبُّوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ الْبَارِئُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَىٰ كَمَا قَالَ تَعَالَى: هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ (الحشر ٢٤/)، وقع فى ثلاث مواضع من كلامه تعالى: اثنان منها فى هذه الآيه و لعله خصّ بالذكر هاهنا من بين الأسماء الملائمه معناه للمورد لأنه قريب المعنى من الخالق و الموجد، من برء يبرأ براء اذا فصل لأنه يفصل الخلق من العدم أو الانسان من الأرض، فكأنه تعالى يقول: هذه التوبه و قتلكم أنفسكم و إن كان أشق ما يكون من الأوامر لكن الله الذى أمركم بهذا الفناء و الزوال بالقتل هو الذى برأكم فالذى أحب وجودكم و هو خير لكم هو يحب الآن حلول القتل عليكم فهو خير لكم و كيف لا يحب خيركم

وقد برأكم، فاختيار لفظ البارئ باضافته اليهم فى قوله: **إِلَىٰ بَارِئِكُمْ**، وقوله **عِنْدَ بَارِئِكُمْ** للاشعار بالاختصاص لإثاره المحبه.

وقوله تعالى: **ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ** ظاهر الآيه و ما تقدمها أن هذه الخطابات و ما وقع فيها من عد أنواع تعدياتهم و معاصيهم إنما نسبت الى الكل مع كونها صادرة عن البعض لكونهم جامعه ذات قوميه واحده يرضى بعضهم بفعل بعض، و ينسب فعل بعضهم الى آخرين. لمكان الوحده الموجوده فيهم، فما كل بنى اسرائيل عبدوا العجل، و لا كلهم قتلوا الأنبياء الى غير ذلك من معاصيهم و على هذا فقوله تعالى: **فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ**، إنما يعنى به قتل البعض و هم الذين عبدوا العجل كما يدل على أيضا قوله تعالى: **إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلِ**، و قوله تعالى: **ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ** تتمه الحكايه من قول موسى كما هو الظاهر، و قوله تعالى: **فَتَابَ عَلَيْكُمْ** يدل على نزول التوبه و قبولها، و قد وردت الروايه أن التوبه نزلت و لما يقتل جميع المجرمين منهم.

و من هنا يظهر أن الأمر كان أمرا امتحانيا نظير ما وقع فى قصه رؤيا ابراهيم عليه السلام و ذبح اسماعيل: **يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا** (الصافات ١٠٥)، فقد ذكر موسى عليه السلام فتوبوا الى بارئكم و اقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم، و أمضى الله سبحانه قوله عليه السلام و جعل قتل البعض قتلا للكل و أنزل التوبه بقوله: **فَتَابَ عَلَيْكُمْ**.

قوله تعالى: **رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ**، الرجز العذاب.

قوله تعالى: **وَلَا تَعْتُوا**، العيث و العثى أشد الفساد.

قوله تعالى: **وَفِتْنَائِهَا وَ قَوْمِهَا**، القثاء الخيار و القوم الثوم او الحنطه.

قوله تعالى: **وَبَأُوْ بَعْضِ**، أى رجعوا.

قوله تعالى: **ذَلِكِ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ**، تعليل لما تقدمه.

قوله تعالى: **ذَلِكِ بِمَا عَصَوْا**، تعليل للتعليل فعصيانهم و مداومتهم للاعتداء هو

الموجب لكفرهم بالآيات و قتلهم الأنبياء كما قال تعالى: ثُمَّ كَانَ لَعَابِئَهُ الَّذِينَ أَصَاؤُا السُّوَالِي أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ كَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (الروم ١٠/)، و في التعليل بالمعصيه وجه سيأتي في البحث الآتي.

[سوره البقره (٢): آيه ٦٢]

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)

بيان:

تكرار الإيمان ثانيا و هو الاتصاف بحقيقته كما يعطيه السياق يفيد أن المراد بالذين آمنوا في صدر الآيه هم المتصفون بالإيمان ظاهرا المتسمون بهذا الاسم فيكون محصّل المعنى أن الأسماء و التسمي بها مثل المؤمنين و اليهود و النصارى و الصابئين لا يوجب عند الله تعالى أجرا و لا أمنا من العذاب كقولهم: لا يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى، و إنما ملاك الامر و سبب الكرامه و السعاده حقيقه الإيمان بالله و اليوم الآخر و العمل الصالح، و لذلك لم يقل من آمن منهم يارجع الضمير الى الموصول اللّازم في الصله لثلا يكون تقريرا للفائده في التسمي على ما يعطيه النظم كما لا يخفى و هذا مما تكررت فيه آيات القرآن أن السعاده و الكرامه تدور مدار العبوديه، فلا اسم من هذه الأسماء ينفع لمتسميه شيئا، و لا وصف من أوصاف الكمال يبقى لصاحبه و ينجيه إلا- مع لزوم العبوديه، الأنبياء و من دونهم فيه سواء، فقد قال تعالى في أنبيائه بعد ما وصفهم بكل وصف جميل: وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (الأنعام / ٨٨)، و قال تعالى في أصحاب نبيّه و من آمن معه مع ما ذكر من عظم شأنهم و علو قدرهم:

وَعَيَّدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (الفتح ٢٩)، فأتى بكلمه منهم و قال فى غيرهم ممن اوتى آيات الله تعالى: وَ لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَ لَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ (الأعراف ١٧٦)، الى غير ذلك من الآيات الناصه على أن الكرامه بالحقيقه دون الظاهر (١).

[سوره البقره (٢): الآيات ٦٣ الى ٧٤]

اشاره

وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَ رَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَ أذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْ لَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤) وَ لَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَ مَا خَلْفَهَا وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٦٦) وَ إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَ تَتَّخِذُنَا هُزُوعًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا اذْعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بُكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فافعلوا مَا تُوْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا اذْعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا لَوْئِهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صِيْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوِئْهَا تَسُرُّ النَّاطِرِينَ (٦٩) قَالُوا اذْعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَ إِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَ لَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةٌ لَا شِيءَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَ مَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) وَ إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارْتُمْ فِيهَا وَ اللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَ يُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَ إِنْ مِنْ الْحِجَارَةِ لِمَا يُتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَ إِنْ مِنْهَا لِمَا يَشَّقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَ إِنْ مِنْهَا لِمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)

ص: ٩٣

قوله تعالى: وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ، الطول هو الجبل كما بدله منه في قوله تعالى:

وَإِذِ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ (الأعراف ١٧١)، و التتق هو الجذب و الاقتلاع، و سياق الآية حيث ذكر أخذ الميثاق أولا و الأمر بأخذ ما أوتوا و ذكر ما فيه أخيرا و وضع رفع الطور فوقهم بين الأمرين مع السكوت عن سبب الرفع و غايتها يدل على أنه كان لإرهابهم بعظمه القدره من دون أن يكون لإجبارهم و إكراههم على العمل بما أوتوه و إلا لم يكن لأخذ الميثاق وجه، فما ربما يقال: أن رفع الجبل فوقهم لو كان على ظاهره كان آيه معجزه

و أوجب إجبارهم و إكراههم على العمل. و قد قال سبحانه: لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ (البقره / ٢٥٦)، و قال تعالى: أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (يونس / ٩٩)، غير وجيه فإن الآيه كما مر لا تدل على أزيد من الإخافه و الإرهاب و لو كان مجرد رفع الجبل فوق بنى اسرائيل إكراها لهم على الإيمان او العمل، لكان أغلب معجزات موسى موجب للإكراه، نعم هذا التأويل و صرف الآيه عن ظاهرها، و القول بأن بنى اسرائيل كانوا فى أصل الجبل فزلزل و زعزع حتى أظل رأسه عليهم، فظنوا أنه واقع بهم فعبر عنها برفعه فوقهم أو نتقه فوقهم، مبنى على أصل إنكار المعجزات و خوارق العادات، و قد مر الكلام فيها و لو جاز أمثال هذه التأويلات لم يبق للكلام ظهور، و لا لبلاغه الكلام و فصاحته أصل تتكى عليه و تقوم به.

قوله تعالى: لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. لعل كلمه ترج و اللانزم فى الترجى صحته فى الكلام كان قائما بنفس المتكلم أو المخاطب أو بالمقام، كأن يكون المقام مقام رجاء و إن لم يكن للمتكلم و المخاطب رجاء فيه و هو لا يخلو عن شوب جهل بعاقبه الامر فالرجاء فى كلامه تعالى إما بملاحظه المخاطب أو بملاحظه المقام. و أما هو تعالى فيستحيل نسبه الرجال إليه لعلمه بعواقب الامور، كما نبه عليه الراغب فى مفرداته.

قوله تعالى: كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ أى صاغرين.

قوله تعالى: فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّأَيِّ عِبْرَةٍ يَّعْتَبِرُ بِهَا، و النكال هو ما يفعل من الإذلال و الإهانه بواحد ليعتبر به آخرون.

قوله تعالى: وَ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةَ الْحَخِّ؛ هذه قصه بقره بنى اسرائيل، و بها سميت السوره سوره البقره. و الأمر فى بيان القرآن لهذه القصة عجيب فان القصة فصل بعضها عن بعض حيث قال تعالى: وَ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِلَىٰ آخِرِهِ؛ ثم قال: وَ إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ثم أنه أخرج فصل منها من وسطها و قدم

أولاً- و وضع صدر القصة و ذيلها ثانيا، ثم إن الكلام كان مع بنى اسرائيل فى الآيات السابقه بنحو الخطاب فانتقل بالالتفات الى الغيبه حيث قال: و اذ قال موسى لقومه ثم التفت الى الخطاب ثانيا بقوله: **وَ إِذِ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَاذْرَأْتُمْ فِيهَا** .

فقوله تعالى: **وَ إِذِ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ خُطَابًا لِّلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ** و هو كلام فى صورته قصه و انما هى مقدمه توضيحيه للخطاب التالى لم يذكر معها السبب الباعث على هذا الامر و الغايه المقصوده منها بل اطلقت إطلاقاً ليتنبه بذلك نفس السامع و تقف موقف التجسس، و تنشط اذا سمعت أصل القصة، و نالت الارتباط بين الكلامين، و لذلك لما سمعت بنو اسرائيل قوله: **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً** تعجبوا من ذلك و لم يحملوه إلا على أن نبى الله موسى يستهزئ بهم لعدم وجود رابطة عندهم بين ذبح البقره و ما يسألونه من فصل الخصومه و الحصول على القاتل قالوا أ اتخذنا هزوا و سخرية.

و انما قالوا ذلك لفقدهم روح الإطاعه و السمع و استقرار ملكه الاستكبار و العتو فيهم، و قولهم: **إنا لا نحوم حول التقليد و المذموم، و انما نؤمن بما نشاهده و نراه** كما قالوا لموسى: **لن نؤمن لك حتى نرى الله جهره و انما وقعوا فيما وقعوا من جهه استقلالهم فى الحكم و القضاء فيما لهم ذلك، و فيما ليس لهم ذلك** فحكموا بالمحسوس على المعقول فطالبوا معاينه الرب بالحس الباصر و قالوا: **يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ** قال **إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ** (الأعراف ١٣٨)، و زعموا أن نبيهم موسى مثلهم يتهوس كتهوسهم، و يلعب كلعبهم، فرموه بالاستهزاء و السفه و الجهاله حتى رد عليهم، و قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين، و انما استعاذ بالله و لم يخبر عن نفسه بأنه ليس بجاهل لأن ذلك منه عليه السلام أخذ بالعصمه الإلهيه التى لا تتخلف لا الحكمه الخلقية التى ربما تتخلف.

و زعموا أن ليس للانسان أن يقبل قولاً- إلا- عن دليل، و هذا حق، لكنهم غلطوا فى زعمهم أن كل حكم يجب العثور على دليله تفصيلاً و لا يكفى فى ذلك الإجمال و من أجل ذلك طالبوا

تفصيل أوصاف البقره لحكمهم أن نوع البقر ليس فيه خاصه الأحياء فإن كان ولا بد فهو في فرد خاص منه يجب تعيينه بأوصاف كامله البيان و لذلك قالوا ادع لنا ربك بين لنا ما هي، و هذا تشديد منهم على أنفسهم من غير جهه فشدد الله عليهم، و قال موسى انه يقول إنها بقره لا فارض، أى ليست بمسنه انقطعت ولادتها و لا بكر أى لم تلد عوان بين ذلك، و العوان من النساء و البهائم ما هو في منتصف السن أى واقعه في السن بين ما ذكر من الفارض و البكر، ثم ترحم عليهم ربهم فوعظهم أن لا يلحوا في السؤال، و لا يشددوا على أنفسهم و يقنعوا بما بين لهم فقال: فافعلوا ما تؤمرون، لكنهم لم يرتدعوا بذلك بل قالوا ادع لنا ربك بين لنا ما لونها، قال إنه يقول انها بقره صفراء فاقع شديد الصفرة في صفاء لونها تسر الناظرين و تم بذلك وصف البقره بيانا، و اتضح أنها ما هي و ما لونها و هم مع ذلك لم يرضوا به، و أعادوا كلامهم الأول، من غير تحجب و انقباض و قالوا ادع لنا ربك بين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا و إنا إن شاء الله لمهتدون، فأجابهم ثانيا بتوضيح في ماهيتها و لونها و قال إنه يقول إنها بقره لا ذلول أى غير مدلل بالحرث و السقى تثير الأرض بالشيار و لا تسقى الحرث فلما تم عليهم البيان و لم يجدوا ما يسألونه قالوا الآن جئت بالحق قول من يعترف بالحقيقه بالإلزام و الحجه من غير أن يجد الى الرد سيلا فيعترف بالحق اضطرارا، و يعتذر عن المبادره الى الإنكار بأن القول لم يكن مبينا من قبل، و لا بينا تاما. و الدليل على ذلك قوله تعالى: فَذَبِّحُوهَا [□] وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ.

قوله تعالى: وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا [□]، شروع في أصل القصة و التدارؤ هو التدافع من الدرء بمعنى الدفع فقد كانوا قتلوا نفسا- و كل طائفه منهم يدفع الدم عن نفسها الى غيرها- و اراد الله سبحانه إظهار ما كتموه.

قوله تعالى: فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضِهَا [□]، أول الضميرين راجع الى النفس باعتبار أنه قتيل، و ثانيهما الى البقره، و قد قيل: إن المراد بالقصة بيان أصل تشريع الحكم حتى ينطبق على الحكم المذكور في التوريه الذى نقلناه، و المراد بإحياء الموتى العثور

بوسيله تشريع هذا الحكم على دم المقتول، نظر ما ذكره تعالى بقوله: **وَ لَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ** (البقره ١٧٩/)، من دون أن يكون هناك إحياء بنحو الإعجاز هذا، و أنت خبير بأن سياق الكلام و خاصه قوله تعالى: **فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى**، يأبى ذلك.

قوله تعالى: **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً** القسوه فى القلب بمنزله الصلابه فى الحجر و كلمه أو بمعنى بل، و المراد بكونها بمعنى بل انطباق معناه على موردها، و قد بين شده قسوه قلوبهم بقوله: **وَ إِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ**، و قوبل فيه بين الحجاره و الماء لكون الحجاره يضرب بها المثل فى الصلابه ككون الماء يضرب به المثل فى اللين فهذه الحجاره على كمال صلابتها يتفجر منها الأنهار على لين مائها و تشقق فيخرج منها الماء على لينه و صلابتها، و لا يصدر من قلوبهم حال يلائم الحق، و لا قول حق يلائم الكمال الواقع.

قوله تعالى: **وَ إِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ**، و هبوط الحجاره ما نشاهد من انشقاق الصخور على قتل الجبال، و هبوط قطعات منها بواسطة قطعات منها بواسطة الزلازل، و صيروره الجمد الذى يتخللها فى فصل الشتاء ماء فى فصل الربيع الى غير ذلك، و عد هذا الهبوط المستند الى أسبابها الطبيعیه هبوطا من خشيه الله تعالى لأن جميع الأسباب منتهيه الى الله سبحانه فانفعال الحجاره فى هبوطها عن سببها الخاص بها انفعال عن أمر الله سبحانه اياها بالهبوط، و هى شاعره لأمر ربها شعورا تكوينيا، كما قال تعالى:

وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَ لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ (الإسراء ٤٤/)، و قال تعالى: **كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ** (البقره ١١٦/)، و الانفعال الشعورى هو الخشيه فهى هابطه من خشيه الله تعالى، فالآيه جاريه مجرى قوله تعالى: **وَ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَ الْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ** (الرعد ١٣/)، و قوله تعالى: **وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعًا وَ كَرْهًا**

وَظَلَّالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (الرعد ١٥/)، حيث عد صوت الرعد تسييحا بالحمد و عد الظلال ساجده لله سبحانه الى غير ذلك من الآيات التي جرى القول فيها مجرى التحليل كما لا يخفى.

و بالجمله فقوله: وَ إِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَهْبِطُ، بيان ثان لكون قلوبهم أفسى من الحجاره فإن الحجاره تخشى الله تعالى، فتهبط من خشيته، و قلوبهم لا تخشى الله تعالى و لا تهابه (١)(٢).

[سوره البقره (٢): الآيات ٧٥ الى ٨٢]

أشاره

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغَضٍ مِنْهُمْ إِلَى بَعْضِ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) وَ مِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّ وَ إِنَّهُمْ إِلَّا يَتُطَّوِّنَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَ وَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢)

ص: ٩٩

- ١- (١). البقره ٦٣-٧٤: بحث فلسفى حول المعجزه و موضوع الرجوع من الفعل الى القوه؛ احياء الموتى؛ المسخ.
- ٢- (٢). البقره ٦٣-٧٤: بحث علمى و اخلاقى حول بنى اسرائيل، الانغمار فى الحياه الماديه، سبب عدم تأثير البحوث الاخلاقيه فى بعض الناس؛ موضوع التقليد.

السياق و خاصه ما فى ذيل الآيات يفيد أن اليهود عند الكفار، و خاصه كفار المدينه:

لقرب دارهم منهم كانوا يعرفون قبل البعثه ظهيرا لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و عندهم علم الدين و الكتاب، و لذلك كان الرجاء فى إيمانهم أكثر من غيرهم، و كان المتوقع أن يؤمنوا به أفواجا فيتأيد بذلك و يظهر نوره، و ينشر دعوته، و لما هاجر النبى الى المدينه و كان من أمرهم ما كان تبديل الرجاء قنوطا، و الطمع يأسا، و لذلك يقول سبحانه: أَ فَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ، الخ؛ يعنى أن كتمان الحقائق و تحريف الكلام من شيمهم، فلا ينبغى أن يستبعد نكولهم عما قالوا و نقضهم ما أبرموا.

قوله تعالى: أَ فَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ، فيه التفات من خطاب بنى اسرائيل الى خطاب النبى و الذين آمنوا و وضعهم موضع الغيبه و كان الوجه فيه أنه لما قصّ قصه البقره و عدل فيها من خطاب بنى اسرائيل الى غيبتهم لمكان التحريف الواقع فيها بحذفها من التوريه كما مر، اريد إتمام البيان بنحو الغيبه بالإشاره الى تحريفهم كتاب الله تعالى فصرف لذلك وجه

قوله تعالى: وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِخِلَافِنَا فَكَاذِبِينَ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِخِلَافِنَا فَكَاذِبِينَ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِخِلَافِنَا فَكَاذِبِينَ (البقره ١٤)، بل المراد بيان موضعين آخرين من مواضع جرائمهم و جهالتهم.

احدهما: أنهم ينافقون فيظاهرون بالإيمان صونا لأنفسهم من الإيذاء و الطعن و القتل.

و ثانيهما: أنهم يريدون تعميمه الأمر و إبهامه على الله سبحانه العالم بسرهم و علانيتهم و ذلك أن العامه منهم، و هم أولو بساطه النفس ربما كانوا ينبسطون للمؤمنين، فيحدثونهم ببعض ما فى كتبهم من بشارات النبى أو ما ينفع المؤمنين فى تصديق النبوه، كما يلوح من لحن الخطاب فكان أوليائهم ينهونه معللا بأن ذلك مما فتح الله لهم، فلا ينبغي أن يفشى للمؤمنين، فيحاجوهم به عند ربهم كأنهم لو لم يحاجوهم به عند ربهم لم يطلع الله عليه فلم يؤاخذهم بذلك و لانزم ذلك أن الله تعالى إنما يعلم علانيه الأمر، دون سره و باطنه و هذا من الجهل بمكان، فرد الله سبحانه عليهم بقوله: أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ الآيه؛ فإن هذا النوع من العلم -و هو ما يتعلق بظاهر الأمر دون باطنه- إنما هو العلم المنتهى الى الحس يفتقر الى بدن مادي مجهز بآلات مادية مقيد بقيود الزمان و المكان مولود لعلل اخرى مادية و ما هو كذلك مصنوع من العالم لا صانع العالم.

قوله تعالى: وَ مِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّا، الأسمى من يقرأ و لا يكتب منسوب الى الام لأن عطوفه الام و شفقتها كانت تمنعها أن ترسل ولدها الى المعلم و تسلمه الى تربيته، فكان يكتبه بتربيه الأسمى، و الامانى جمع امنيه، و هى الأكاذيب، فمحصل المعنى انهم بين من يقرأ الكتاب و يكتبه فيحرفه و بين من لا يقرأ و لا يكتب و لا يعلم من الكتاب الا اكاذيب المحرفين.

قوله تعالى:

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ، الويل هو الهلكة والعذاب الشديد والحزن والخزي والهوان وكل ما يحذر الإنسان أشد الحذر والاشتراء هو الابتاع.

قوله تعالى: فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمُ الْخُضُوعُ؛ الضمائر إما راجعه الى بنى اسرائيل أو لخصوص المحرفين منهم و لكل وجه و على الأول يثبت الويل للاميين منهم أيضا.

قوله تعالى: بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ الْخُضُوعُ؛ الخ؛ الخطيئة هي الحالة الحاصلة للنفس من كسب السيئة، ولذلك أتى بإحاطة الخطيئة بعد ذكر كسب السيئة وإحاطة الخطيئة توجب ان يكون الإنسان المحاط مقطوع الطريق الى النجاه كأن الهدايه لإحاطة الخطيئة به لا- تجد اليه سبيلا- فهو من أصحاب النار مخلدا فيها و لو كان فى قلبه شىء من الإيمان بالفعل، أو كان معه بعض ما لا- يدفع الحق من الأخلاق و الملكات، كالانصاف و الخضوع للحق، أو ما يشابههما لكانت الهدايه و السعاده ممكنتي النفوذ اليه، فإحاطة الخطيئة لا تتحقق الا بالشرك الذى قال تعالى فيه: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ (النساء ٤٨/١)، و من جهه اخرى إلا بالكفر و تكذيب الآيات كما قال سبحانه:

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقره ٣٩/١)، فكسب السيئة، وإحاطة الخطيئة كالكلمة الجامعه لما يوجب الخلود فى النار.

[سوره البقره (٢): الآيات ٨٣ الى ٨٨]

اشاره

وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَ الْيَتَامَىٰ وَ الْمَسَاكِينِ وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَ أَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ (٨٣) وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَ لَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَ تُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ إِنْ يَأْتِكُمْ أُنثَارَىٰ تَفَادَوْهُمْ وَ هُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفْتُونُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضِ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَ مَا اللَّهُ بِعَافٍ لِّعَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ (٨٦) وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَ فَفِينَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَ آتَيْنَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَ أَيْدِنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧) وَ قَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨)

وقوله تعالى: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، الآية في بديع نظمها تبتدى أولاً بالغيبه و تنتهى الى الخطاب حيث تقول: ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ، ثم إنها

تذكر أولاً الميثاق و هو أخذ للعهد، ولا يكون إلا بالقول، ثم تحكى ما أخذ عليه الميثاق فتبتدئ فيه بالخبر، حيث تقول: لا تعبدون إلا الله، وتختتم بالإنشاء حيث تقول و قولوا للناس حسناً، الخ. ولعل الوجه في ذلك كله أن الآيات المتعرضه لحال بنى إسرائيل لما بدئت بالخطاب لمكان اشتغالها على التقرير و التوبيخ و جرت عليه كان سياق الكلام فيها الخطاب ثم لما تبدل الخطاب بالغيبه بعد قصه البقره لنكته داعيه إليها كما مر حتى انتهت الى هذه الآيه، فبدئت أيضا بالغيبه لكن الميثاق حيث كان بالقول و بنى على حكايته حكى بالخطاب فقول:

لا- تعبدون إلا- الله، الخ؛ و هو نهى فى صورته الخبر. وإنما فعل ذلك دلالة على شدة الاهتمام به، كأن الناهى لا يشك فى عدم تحقق ما نهى عنه فى الخارج، و لا- يرتاب فى أن المكلف المأخوذ عليه الميثاق سوف لا ينتهى عن نهيه، فلا يوقع الفعل قطعاً و كذا قوله: وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَ ذَى الْقُرْبَىٰ وَ الْيَتَامَىٰ وَ الْمَسَاكِينِ ، كل ذلك أمر فى صورته الخبر.

ثم إن الانتقال الى الخطاب من قبل الحكاياه أعطى فرصه للانتقال الى أصل الكلام، و هو خطاب بنى إسرائيل لمكان الاتصال فى قوله: وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ، الخ؛ و انتظم بذلك السياق.

قوله تعالى: وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، أمر او خبر بمعنى الامر و التقدير و احسنوا بالوالدين إحساناً، و ذى القربى و اليتامى و المساكين، أو التقدير: و تحسنون بالوالدين إحساناً، الخ؛ و قد رتب موارد الإحسان أخذاً من الأهم و الأقرب الى المهم و الأبعد فقرابه الانسان أقرب إليه من غيرهم، و الوالدان و هما الأصل الذى تتكى عليه و تقوم به شجره وجوده أقرب من غيرهما من الأرحام، و فى غير القرابه أيضا اليتامى احق بالإحسان لصغرهم و فقدهم من يقوم بأمرهم من المساكين. هذا و قوله: وَ الْيَتَامَىٰ ، اليتيم من مات أبوه، و لا- يقال لمن ماتت أمه يتيماً. و قيل اليتيم فى الإنسان إنما تكون من جهة الأب و فى غير الإنسان من سائر الحيوان من جهة الأم و قوله تعالى: وَ الْمَسَاكِينِ ، جمع مسكين و هو الفقير العادم

الدليل. وقوله تعالى: حُسَيْنًا مصدر بمعنى الصفه جىء به للمبالغه. و فى بعض القراءات حسنا، بفتح الحاء و السين صفه مشبهه. و المعنى قولوا للناس حسنا، و هو كناية عن حسن المعاشره مع الناس، كافرهم، و مؤمنهم و لا ينافى حكم القتال حتى تكون آيه القتال ناسخه له لأن مورد القتال غير مورد المعاشره فلا ينافى الأمر بحسن المعاشره كما أن القول الخشن فى مقام التأديب لا ينافى حسن المعاشره.

قوله تعالى: لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ، خبر فى معنى الإنشاء نظير ما مر فى قوله: لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ، و السفك الصب.

قوله تعالى: تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ، التظاهر هو التعارف، و الظهير العون مأخوذ من الظهر لأن العون يلى ظهر الإنسان.

قوله تعالى: وَ هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ، الضمير للشأن و القصه كقوله تعالى: قل هو الله أحد.

قوله تعالى: أَ فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ، أى ما هو الفرق بين الاخراج و الفديه حيث أخذتم بحكم الفديه و تركتم حكم الإخراج و هما جميعا فى الكتاب، أ فتؤمنون ببعض الكتاب و تكفرون ببعض.

قوله تعالى: وَ قَفَّيْنَا، التقفيه الاتباع و إتيان الواحد قفا الواحد.

قوله تعالى: وَ آتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ، سيأتى الكلام فيه فى سوره آل عمران.

قوله تعالى: وَ قَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ جمع أغلف من الغلاف أى قلوبنا محفوظه تحت لفائف و أستار و حجب، فهو نظير قوله تعالى: وَ قَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّهِ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ (السجده ٥/٥)، و هو كناية عن عدم امكان استماع ما يدعون اليه.

اشاره

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بِنَسِي مَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَيَّ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لَبِئْسَ بِغَضَبٍ عَلَيَّ غَضَبٌ وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَ يَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَ هِيَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩١) وَ لَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَ رَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَ عَصَيْنَا وَ أَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمِ اللَّهِ يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣)

بيان:

قوله تعالى: وَ لَمَّا جَاءَهُمُ الْخَبْرُ؛ السياق يدل على أن هذا الكتاب هو القرآن.

وقوله: وَكَانُوا مِنْ قَبْلِ يَسِيْرٍ تَفْتَحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا، على وقوع تعرض بهم من كفار العرب، وأنهم كانوا يستفتحون أى يطلبون الفتح عليهم ببعثه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَهَجْرته وَ أَنْ ذَلِكَ الْاِسْتِفْتاح قد استمر منهم قبل الهجره، بحيث كان الكفار من العرب أيضا يعرفون ذلك منهم لمكان قوله: كَانُوا، وقوله: فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا، أى عرفوا أنه هو بانطباق ما كان عندهم من الأوصاف عليه كفروا.

وقوله تعالى: بِئْسَ مَا اشْتَرَوْا بِيَانٍ لِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بَعْدَ الْعِلْمِ وَأَنَّ السَّبَبَ الْوَحِيدَ فِي ذَلِكَ هُوَ الْبَغْيُ وَالْحَسَدُ، فقوله بغيا، مفعول مطلق نوعى. وقوله أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ، متعلق به، وقوله تعالى: فَبِأَيِّ بَعْضٍ عَلَى غَضَبٍ، أى رجعوا بمصاحبتهم أو بتلبس غضب بسبب كفرهم بالقرآن على غضب بسبب كفرهم بالتوراه من قبل، والمعنى أنهم كانوا قبل البعثه وَ الهجره ظهيرا للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَ مستفتحا به وَ بالكتاب النازل عليه، ثم لما نزل بهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَ نزل عليه القرآن وَ عرفوا أنه هو الذى كانوا يستفتحون به وَ ينتظرون قدومه هاج بهم الحسد، وَأَخَذَهُمُ الْاِسْتِكْبَارُ، فكفروا وَ أنكروا ما كانوا يذكرونه كما كانوا يكفرون بالتوراه من قبل، فكان ذلك منهم كفرا على كفر.

قوله تعالى: وَ يَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ، أى يظهر الكفر بما ورائه، وإلا فهم بالذى انزل إليهم وَ هو التوراه أيضا كافرون.

قوله تعالى: قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ، الفاء للتفريع، والسؤال متفرع على قولهم: نؤمن بما انزل علينا، أى لو كان قولكم: نؤمن بما أنزل علينا حقا وَ صدقا فلم تقتلون أنبياء الله، وَ لم كفرتم بموسى باتخاذ العجل، وَ لم قلتم عند أخذ الميثاق وَ رفع الطور: سمعنا وَ عصينا.

قوله تعالى: وَ أَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ، الإشراف هو السقى، وَ المراد بالعجل حب العجل، وَ وضع موضعه للمبالغه كأنهم قد أشربوا نفس العجل وَ به يتعلق قوله فى قلوبهم، فى الكلام استعارتان أو استعاره وَ مجاز.

قوله تعالى: قُلْ بِئْسَ مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ، بمنزله أخذ النتيجة مما أورد عليهم من قتل الأنبياء والكفر بموسى، والاستكبار بإعلام المعصية، وفيه معنى الاستهزاء بهم (١).

[سورة البقره (٢): الآيات ٩٤ الى ٩٩]

إشارة

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ أَلْدَارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سِنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَحِّحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦) قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩)

بيان:

قوله تعالى: قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الْخَيْرُ؛ لما كان قولهم: لن تمسنا النار إلا أياما معدودة، وقولهم: نؤمن بما أنزل علينا في جواب ما قيل لهم: آمنوا بما أنزل الله يدلان بالالتزام على

ص: ١٠٨

١ - (١). البقره ٨٩-٩٣: بحث روائى حول اليهود و تنبئهم بظهور نبي الاسلام صلى الله عليه و آله و سلم؛ القسم؛ الحق و الباطل.

دعواهم أنهم ناجون في الآخرة دون غيرهم و أن نجاتهم و سعادتهم فيها غير مشوبه بهلاك و شقاء لأنهم ليسوا بزعمهم بمعذبين إلا أياما معدوده و هي أيام عبادتهم للعجل، قابلهم الله تعالى خطابا بما يظهر به كذبهم في دعواهم و انهم يعلمون ذلك من غير تردد و ارتياب فقال تعالى لنبيه: قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ أَى سعادته تلك الدار فإن من ملك دارا فإنما يتصرف فيها بما يستحسنه و يحبه و يحل منها بأجمل ما يمكن و أسعده و قوله تعالى: عِنْدَ اللَّهِ أَى مستقرا عنده تعالى و بحكمه و إذنه، فهو كقوله تعالى: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ (آل عمران ١٩)، و قوله تعالى: خَالِصَهُ أَى غير مشوبه بما تكرهونه من عذاب أو هوان لزعمكم أنكم لا تعذبون فيها إلا أياما معدوده، قوله تعالى: مِنْ دُونِ النَّاسِ و ذلك لزعمكم بطلان كل دين إلا دينكم، و قوله تعالى: فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ و هذا كقوله تعالى: قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (الجمعه ١٦) و هذه مؤاخذه بلازم فطرى بين الأثر فى الخارج بحيث لا يقع فيه أدنى الشك و هو إن الإنسان بل كل موجود ذى شعور اذا خير بين الراحة و التعب اختار الراحة من غير تردد و تذبذب و اذا خير بين حيوه و عيشه مكدره مشوبه و أخرى خالصه صافيه اختار الخالصه الهنيئه قطعاً و لو فرض ابتلائه بما كان يميل عنه الى غيره من حيوه شقيه رديه أو عيشه منغصه لم يزل يتمنى الاخرى الطيبه الهنيئه فلا ينفك عن التحسر له فى قلبه و عن ذكره فى لسانه و عن السعى إليه فى عمله.

فلو كانوا صادقين فى دعواهم أن السعاده الخالصه الاخرويه لهم دون غيرهم من الناس و جب أن يتمنوه جنانا و لسانا و أركاناً و لن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم من قتل الأنبياء و الكفر بموسى و نقض المواثيق و الله عليم بالظالمين.

قوله تعالى: بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ كُنَايَه عن العمل فإن معظم العمل عند الحس يقع بواسطة اليد فيقدم بعد ذلك الى من ينتفع به أو يطلبه فيه عنائتان نسبة التقديم الى الأيدي

دون أصحاب الأيدي و عد كل فعل عملا للأيدي.

و بالجمله أعمال الإنسان و خاصه ما يستمر صدوره منه أحسن دليل على ما طوى عليه ضميره و ارتكز في باطنه و الأعمال الطالحه و الأفعال الخبيثه لا يكشف إلا عن طويه خبيثه تأبى أن تميل الى لقاء الله و الحلول في دار أوليائه.

قوله تعالى: وَ لَتَجِدَنَّهْم أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ، كالدليل المبين لقوله تعالى: و لن يتمنوه أبدا أى و يشهد على أنهم لن يتمنوا الموت، أنهم أحرص الناس على هذه الحياه الدنيا التى لا-حاجب و لا مانع عن تمنى الدار الآخره إلا الحرص عليها و الإخلاد إليها، و التنكير فى قوله تعالى: عَلَى حَيَاتِهِمِ للتحقير كما قال تعالى: وَ مَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (العنكبوت ٦٤).

قوله تعالى: وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا الظاهر أنه عطف على الناس و المعنى و لتجدنهم أحرص من الذين أشركوا.

قوله تعالى: وَ مَا هُوَ بِمُزْخِرِجِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ، الظاهر أن ما نافية و ضمير هو إما للشأن و القصة و أن يعمر مبتدأ خبره قوله: بِمُزْخِرِجِهِ أى بمبعده، و إما راجع الى ما يدل عليه قوله: يَوَدُّ أَحَدُهُمْ، أى و ما الذى يوده بمزخزحه من العذاب. و قوله تعالى:

أَنْ يُعَمَّرَ بيان له و معنى الآيه و لن يتمنوا الموت و أقسم لتجدنهم أحرص الناس على هذه الحياه الحقيقه الرديه الصارفه عن تلك الحياه السعيده الطيبه تجدهم أحرص على الحياه من الذين أشركوا الذين لا يرون بعثا و لا نشورا يود أحدهم لو يعمر أطول العمر و ليس أطول العمر بمبعده من العذاب لأن العمر و هو عمر بالأخره محدود منته الى أمد و أجل.

قوله تعالى: يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ، أى اطول العمر و أكثره، فالألف كناية عن الكثره و هو آخر مراتب العدد بحسب الوضع الافرادى عند العرب و الزائد عليه يعبر عنه بالتكرير و التركيب كعشره آلاف و مائه ألف و ألف ألف.

قوله تعالى: وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ، البصير من أسمائه الحسنی و معناه العلم بالمبصرات فهو من شعب اسم العليم.

قوله تعالى: قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلْبِكَ الخ؛ السياق يدل على أن الآية نزلت جوابا عما قالته اليهود و أنهم تأبوا و استتكفوا عن الإيمان بما أنزل على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، و عللوه بأنهم عدو لجبريل النازل بالوحي إليه. و الشاهد على ذلك أن الله سبحانه يجيبهم فى القرآن و فى جبريل معا فى الآيتين و ما ورد من شأن النزول يؤيد ذلك فأجاب عن قولهم: إنا لا نؤمن بالقرآن لعداوتنا لجبريل النازل به اولا: أن جبريل إنما نزل به على قلبك بإذن الله لا من عند نفسه فعداوتهم لجبريل لا- ينبغى أن يوجب إعراضهم عن كلام نازل بإذن الله. و ثانيا: أن القرآن مصدق لما فى ايديهم من الكتاب الحق و لا معنى للإيمان بأمر و الكفر بما يصدقه. و ثالثا: أن القرآن هدى للمؤمنين به، رابعا: أنه بشرى و كيف يصح لعاقل أن ينحرف عن الهداية و يغمض عن البشرى و لو كان الآتى بذلك عدوا له.

و أجاب عن قولهم: إنا عدو جبريل أن جبريل ملك من الملائكة لا شأن له إلا امتثال ما أمره به الله سبحانه كميكال و سائر الملائكة و هم عباد مكرمون لا- يعصون الله فيما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون، و كذلك رسل الله لا شأن لهم إلا بالله و من الله سبحانه فبغضهم و استعدائهم بغض و استعداء لله و من كان عدو الله و ملائكته و رسله و جبريل و ميكال فإن الله عدو لهم، و إلى هذين الجوابين تشير الآيتان.

قوله تعالى: فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلْبِكَ، فيه التفات من التكلم الى الخطاب و كان الظاهر أن يقال على قلبى، لكن بدل من الخطاب للدلالة على أن القرآن كما لا- شأن فى إنزاله لجبريل و إنما هو مأمور مطيع كذلك لا شأن فى تلقيه و تبليغه لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إلا أن قلبه وعاء للوحي لا يملك منه شيئا و هو مأمور بالتبليغ.

قوله تعالى: عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ، فيه وضع الظاهر موضع المضمرة و النكتة فيه الدلالة

على عله الحكم كانه قيل: فإن الله عدو لهم لأنهم كفرون و الله عدو للكافرين.

قوله تعالى: وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ، فيه دلالة على عله الكفر و أنه الفسق فهم لكفرهم فاسقون و لا يبعد أن يكون اللام فى قوله: الْفَاسِقُونَ للعهد الذكرى، و يكون ذلك إشاره الى ما مر فى أوائل السوره من قوله تعالى: وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ، الآية.

و أما الكلام فى جبريل و كيفية تنزيله القرآن على قلب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و كذا الكلام فى ميكال و الملائكة فسيأتى فيما يناسبه من المحل إنشاء الله (١).

[سوره البقره (٢): الآيات ١٠٠ الى ١٠١]

إشاره

أَوْ كَلَّمَا عَاهِدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَ لَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَانْتَهُمُ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١)

بيان:

قوله تعالى: نَبَذَهُ، النبد الطرح.

قوله تعالى: وَ لَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ، المراد به رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لا كل رسول كان يأتيهم مصدقا لما معهم، لعدم دلالة قوله: وَ لَمَّا جَاءَهُمْ على الاستمرار بل إنما يدل على

ص: ١١٢

١ - ١) البقره ٩٤-٩٩: بحث روائى حول ملاقيه عدد من اليهود مع الرسول الكريم صلى الله عليه و آله و سلم؛ كيفية نوم النبى صلى الله عليه و آله و سلم؛ كيفية ادراك النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى النوم.

الدفعه، و الآيه تشير الى مخالفتهم للحق من حيث كتمانهم بشاره التوراه و عدم إيمانهم بمن يصدق ما معهم.

[سوره البقره (٢): الآيات ١٠٢ الى ١٠٣]

إشاره

وَ اتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَ مَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَ لَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ وَ مَا أُنزِلَ عَلَىٰ الْمَلَائِكَةِ بِبَابِ هَارُوتَ وَ مَارُوتَ وَ مَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ وَ مَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ يَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَ لَا يَنْفَعُهُمْ وَ لَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَ لَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَ لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)

بيان:

قوله تعالى: وَ اتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ السَّخ؛ قد اختلف المفسرون في تفسير الآيه اختلافا عجبيا لا يكاد يوجد نظيره في آيه من آيات القرآن المجيد، فاختلّفوا في مرجع ضمير قوله: اتَّبِعُوا، أ هم اليهود الذين كانوا في عهد سليمان، أو الذين في عهد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أو الجميع؟ و اختلفوا في قوله: تَتْلُوا، هل هو بمعنى تتبع الشياطين و تعمل به أو بمعنى تقرأ، أو بمعنى تكذب؟ و اختلفوا في قوله: الشَّيَاطِينُ، فقيل هم شياطين الجن و قيل شياطين

الإنس وقيل هما معا، و اختلفوا فى قوله: عَلِيٌّ مُلْكُ سُلَيْمَانَ، فقيل معناه فى ملك سليمان، وقيل معناه فى عهد ملك سليمان و قيل معناه على ملك سليمان بحفظ ظاهر الاستعلاء فى معنى على، وقيل معناه على عهد ملك سليمان، و اختلفوا فى قوله: وَ لَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا، فقيل إنهم كفروا بما استخرجوه من السحر الى الناس وقيل إنهم كفروا بما نسبوه الى سليمان من السحر، وقيل إنهم سحروا فعبر عن السحر بالكفر، و اختلفوا فى قوله: يُعَلِّمُونَ الدَّاسَ السَّحَرَ، فقيل إنهم القوا السحر إليهم فتعلموه، وقيل إنهم دلوا الناس على استخراج السحر و كان مدفونا تحت كرسى سليمان فاستخرجوه و تعلموه، و اختلفوا فى قوله: وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ فَقِيلَ مَا مَوْصُولُهُ وَالْعَطْفُ عَلَى قَوْلِهِ: تَتْلُوهُ، وقيل ما موصوله و العطف على قوله: أَلَسَّحَرَ أَى يعلمونهم ما أنزل على الملكين، وقيل ما نافية و الواو استينافية أى و لم ينزل على الملكين سحر كما يدعيه اليهود، و اختلفوا فى معنى الإنزال فقيل إنزال من السماء وقيل بل وجود الأرض و أعاليها، و اختلفوا فى قوله: أَلْمَلَكَيْنِ، فقيل كانا من الملائكة السماء، وقيل بل كانا إنسانين ملكين بكسر اللام أن قرأناه، بكسر اللام كما قرئ كذلك فى الشواذ، أو ملكين بفتح اللام أى صالحين، أو متظاهرين بالصلاح، إن قرأناه على ما قرأ به المشهور، و اختلفوا فى قوله: بِبَابِلَ، فقيل هى بابل العراق وقيل بابل دماوند، وقيل، من نصيبين الى رأس العين، و اختلفوا فى قوله: وَمَا يُعَلِّمَانِ، فقيل علم بمعناه الظاهر، وقيل علم بمعنى اعلم، و اختلفوا فى قوله: فَلَا تَكْفُرْ، فقيل لا تكفر بالعمل بالسحر، وقيل لا تكفر بتعلمه، وقيل بهما معا، و اختلفوا فى قوله:

فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا، فقيل أى من هاروت و ماروت، وقيل أى من السحر و الكفر، وقيل بدلا مما علماه الملكان بالنهى الى فعله، و اختلفوا فى قوله: مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ، فقيل أى يوجدون به حبا و بغضا بينهما، وقيل إنهم يغرون أحد الزوجين و يحملونه على الكفر و الشرك فيفرق بينهما اختلاف المله و النحلة وقيل إنهم يسعون بينهما بالنميمة و الوشاية فيثول الى الفرقة، فهذه نبذة من الاختلاف فى تفسير كلمات ما يشتمل على القصة من الآيه و جملة،

و هناك اختلافات آخر فى الخارج من القصة فى ذيل الآيه و فى نفس القصة، و هل هى قصة واقعه أو بيان على سبيل التمثيل؟ أو غير ذلك؟ و اذا ضربت بعض الأرقام التى ذكرناها من الاحتمالات فى البعض الآخر، ارتقى الاحتمالات الى كميته عجيبة و هى ما يقرب من الف الف و مائتين و ستين الف احتمال!.

و هذا لعمر الله من عجائب نظم القرآن تتردد الآيه بين مذاهب و احتمالات تدهش العقول و تحير الألباب، و الكلام بعد متك على اريكه حسنه متجمل فى أجمل جماله متحل بحلى بلاغته و فصاحته و سيمر بك نظيره هذه الآيه و هى تعالى: أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ وَ يُتْلُوهُ شَاهِدًا مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَىٰ إِمَامًا وَ رَحْمَةً (هود ١٧).

و الذى ينبغى أن يقال: أن الآيه بسياقتها تتعرض لشأن آخر من شئون اليهود و هو تداول السحر بينهم، و أنهم كانوا يستندون فى أصله الى قصة معروفه أو قصتين معروفتين عندهم فيها ذكر من أمر سليمان النبى و الملكين بابل هاروت و ماروت، فالكلام معطوف على ما عندهم من القصة التى يزعمونها إلا- أن اليهود كما يذكره عنهم القرآن أهل تحريف و تغيير فى المعارف و الحقائق فلا- يؤمنون و لا- يؤمن من أمرهم أن يأتوا بالقصص التاريخيه محرفه مغيره على ما هو دأبهم فى المعارف يميلون كل حين الى ما يناسبه من منافعهم فى القول و الفعل و فيما يلوح من مطاوى جمل الآيه كفايه، و كيف كان فيلوح من الآيه أن اليهود كانوا يتناولون بينهم السحر ينسبونه الى سليمان زعما منهم أن سليمان عليه السلام انما ملك الملك و سخر الجن و الإنس و الوحش و الطير، و اتى بغرائب الامور و خوارقها بالسحر الذى هو بعض ما فى أيديهم، و ينسبون بعضه الآخر الى الملكين بابل هاروت و ماروت فرد عليهم القرآن بأن سليمان عليه السلام لم يكن يعمل بالسحر، كيف و السحر كفر بالله و تصرف فى الكون على خلاف ما وضع الله العاده عليه و أظهره على خيال الموجودات الحيه و حواسها؟ و لم يكفر سليمان عليه السلام و هو نبى معصوم، و هو قوله تعالى: وَ مَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَ لَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَ قَوْلُهُ

تعالى: وَ لَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ فسلیمان علیه السلام أعلى كعبا و أقدم ساحه من أن ينسب إليه السحر و الكفر و قد استعظم الله قدره في مواضع من كلامه في عده من السور المكيه النازله قبل هذه السوره كسوره الانعام و الانبياء و النمل و سوره (ص) و فيها أنه كان عبدا صالحا و نبيا مرسلآ آتاه الله العلم و الحكمه و وهب له من الملك ما لا ينبغي لأحد من بعده فلم يكن بساحر بل هو من القصص الخرافيه و الأساطير التي وضعتها الشياطين و تلوها و قرؤها على أوليائهم من الإنس و كفروا بإضلالهم الناس بتعليم السحر. و رد عليهم القرآن في الملكين ببابل هاروت و ماروت بأنه و إن انزل عليهما ذلك و لا ضير في ذلك لأنه فتنه و امتحان إلهي كما ألهم قلوب بني آدم وجوه الشر و الفساد فتنه و امتحانا و هو من القدر، فهما و إن أنزل عليهما السحر إلا أنهما ما كانا يعلمان من أحد إلا و يقولان له إنما نحن فتنه فلا تكفر باستعمال ما تتعلمه من السحر في غير مورد كإبطال السحر و الكشف عن بغي أهله و هم مع ذلك يتعلمون منهما ما يفسدون به اصلح ما وضعه الله في الطبيعه و العاده، فيفترقون به بين المرء و زوجه ابتغاء للشر و الفساد و يتعلمون ما يضرهم و لا ينفعهم، فقله تعالى: وَ اتَّبَعُوا أَى اتبعت اليهود الذين بعد عهد سليمان بتوارث الخلف عن السلف ما تتلوا، أى تضع و تكذب الشياطين من الجن على ملك سليمان و الدليل على أن تتلوا بمعنى تكذب تعديه بعلى و على أن الشياطين هم الجن كون هؤلاء تحت تسخير سليمان و معذيين بعذابه، و بذلك كان عليه السلام يحبسهم عن الإفساد، قال تعالى: وَ مِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَ يَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَ كُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (الأنبياء ٨٢)، و قال تعالى: فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (سبأ ١٤).

قوله تعالى: وَ مَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ، أى و الحال أن سليمان لم يسحر حتى يكفر و لكن الشياطين كفروا، و الحال انهم يضلون الناس و يعلمونه السحر.

قوله تعالى: وَ مَا أُنزِلَ، أى و اتبعت اليهود ما انزل بالإخطار و الإلهام على الملكين

ببابل هاروت و ماروت، والحال انهما ما يعلمان السحر من أحد حتى يحذراه العمل به و يقولوا انما نحن فتنه لكم و امتحان تمتحنون بنا بما نعلمكم فلا تكفروا باستعماله.

قوله تعالى: **فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا**، أى من الملكين و هما هاروت و ماروت، ما يفرقون به أى سحرا يفرقون بعمله و تأثيره بين المرء و زوجته.

قوله تعالى: **وَمَا هُمْ بِبَصِيرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ**، دفع لما يسبق الى الوهم إنهم بذلك يفسدون أمر الصنع و التكوين و يسبقون تقدير الله و يبطلون أمره فدفعه بأن السحر نفسه من القدر لا يؤثر إلا بإذن الله فما هم بمعجزين، و انما قدم هذه الجملة على قوله:

وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ، لأن هذه الجملة أعنى: و يتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء و زوجته، و أحدهما مشتمله على ذكر التأثير، فأردفت بأن هذا التأثير بإذن الله.

قوله تعالى: **وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ**، علموا ذلك بعقولهم لأن العقل لا يرتاب فى أن السحر أشأم منابع الفساد فى الاجتماع الإنسانى و علموا ذلك أيضا من قول موسى فإنه القائل: **وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى** (طه ٦٩).

قوله تعالى: **وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**، أى إنهم مع كونهم عالمين بكونه شرا لهم مفسدا لآخرتهم غير عالمين بذلك حيث لم يعملوا بما علموا فإن العلم اذا لم يهد حامله الى مستقيم الصراط كان ضلالا و جهلا لا علما، قال تعالى: **أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ** (الجاثية ٢٣).

فهؤلاء مع علمهم بالأمر ينبغى أن يتمنى المتمنى لهم العلم و الهداية.

قوله تعالى: **وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا الخ؛ أى اتبعوا الايمان و التقوى، بدل اتباع اساطير الشياطين، و الكفر بالسحر، و فيه دليل على أن الكفر بالسحر كفر فى مرتبه العمل كترك الزكاه، لا كفر فى مرتبه الاعتقاد، و لو كان السحر كفرا فى الاعتقاد لقال تعالى: **وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ الخ؛ و اقتصر على الايمان و لم يذكر التقوى فاليهود آمنوا و لكن لما لم يتقوا****

و لم يرعوا محارم الله، لم يعبا بإيمانهم فكانوا كافرين.

قوله تعالى: لَمُتُّوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، أى من المثوبات و المنافع التى يرومونها بالسحر و يقتنونها بالكفر هذا (١)(٢)(٣).

[سوره البقره (٢): الآيات ١٠٤ الى ١٠٥]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَإِسْمِعُوا لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، أول مورد فى القرآن ورد فيه خطاب المؤمنين بلفظه يا أيها الذين آمنوا، و هو واقع فى القرآن خطابا فى نحو من خمسة و ثمانين موضعا و التعبير عن المؤمنين بلفظه الذين آمنوا بنحو الخطاب او بغير الخطاب مما يختص بهذه الأمة، و أما الامم السابقه فيعبر عنهم بلفظه القوم كقوله: قوم نوح و قوم هود و قوله: قَالَ يَا قَوْمِ

ص: ١١٨

١- ١). البقره ١٠٢-١٠٣: بحث روائى حول سليمان عليه السلام و وفاته؛ السحر؛ هاروت و ماروت و كوكب الزهره، موضوع صحه الروايات و سقمها.

٢- ٢). البقره ١٠٢-١٠٣: بحث فلسفى حول الاعمال الخارقه للعادة، تأثير العلم الجازم؛ احضار الارواح؛ قدره النفس، الفرق بين الاعمال الخارقه للعادة من قبل الناس العاديين و بين معاجز الأنبياء عليهم السلام.

٣- ٣). البقره ١٠٢-١٠٣: بحث علمى حول العلوم الغريبه مثل: السيميا، الليميا، الهيميا، الريميا؛ علم الاعداد و الاوافق؛ الخافيه، التنويم المغناطيسى؛ احضار الارواح.

أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَيَّ بَيْنَهُ الْآيَةَ؛ وقوله: اصحاب مدين و أصحاب الرس، و بني إسرائيل، و يا بني إسرائيل، فالتعبير بلفظه الذين آمنوا مما يختص التشرف به بهذه الامه، غير أن التدبير في كلامه تعالى يعطى أن التعبير بلفظه الذين آمنوا يراد به في كلامه تعالى غير ما يراد بلفظه المؤمنين كقوله تعالى: وَ تَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ (النور ٣١)، بحسب المصداق، قال تعالى: الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ، رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (المؤمن ٧/٨)، فجعل استغفار الملائكة و حمله العرش أولا للذين آمنوا ثم بدله ثانيا من قوله: لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا، و التوبه هي الرجوع، ثم علق دعائهم بالذين آمنوا و عطف عليهم آبائهم و ذرياتهم و لو كان هؤلاء المحكى عنهم بالذين آمنوا هم أهل الايمان برسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، كيف ما كانوا، كان الذين آمنوا شاملا للجميع من الآباء و الأبناء و الأزواج و لم يبق للعطف و التفرقه محل و كان الجميع في عرض واحد و وقعوا في صف واحد. و يستفاد هذا المعنى أيضا من قوله تعالى: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمِمَّا أَكْتَبْنَا لَهُمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِيٍّ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ (الطور / ٢١)، فلو كان ذريتهم الذين اتبعوهم بإيمان مصداقا للذين آمنوا في كلامه تعالى لم يبق لللاحق وجه، و لو كان قوله: وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ قرينه على اراده اشخاص خاصه من الذين آمنوا و هم كل جمع من المؤمنين بالنسبه الى ذريتهم، المؤمنين لم يبق لللاحق أيضا وجه، و لا لقوله، و ما ألتناهم من عملهم من شيء، و وجه صحيح الا في الطبقة الأخيره التي لا ذريه بعدهم يتبعونهم بإيمان فهم يلحقون بأبائهم، و هذا و ان كان معنى معقولا الا أن سياق الآيه و هو سياق التشریف يأبى ذلك لعود المعنى على ذلك التقدير الى مثل معنى قولنا:

المؤمنون بعضهم من بعض أو بعضهم يلحق ببعض و هم جميعا في صف واحد من غير شرافه

للبعض على البعض و لا للمتقدم على المتأخر فإن الملاك هو الإيمان و هو فى الجميع واحد و هذا مخالف لسياق الآيه الدال على نوع كرامه و تشریف للسابق بالحاق ذريته به،فقوله: وَ اتَّبَعْتَهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ بِإِيمَانٍ، قرينه على إرادته أشخاص خاصه بقوله: الَّذِينَ آمَنُوا، و هم السابقون الأولون فى الإيمان برسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم من المهاجرين و الأنصار فى يوم العسره فكلمه الذين آمنوا كلمه تشریف يراد بها هؤلاء،و يشعر بذلك أيضا قوله تعالى: لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ، الى أن قال:

وَ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَ الْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ، الى ان قال: وَ الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَ لِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَ لَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ (الحشر ١٠/١)،فلو كان مصداق قوله: لِلَّذِينَ آمَنُوا، عين مصداق قوله: الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ، كان من وضع الظاهر موضع المضممر من غير وجه ظاهر.

قوله تعالى: لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَ قُولُوا انظُرْنَا، أى بدلوا قول(راعنا)من قول (انظرنا)و لئن لم تفعلوا ذلك كان ذلك منكم كفرا و للكافرين عذاب أليم ففيه نهى شديد عن قول راعنا و هذه كلمه ذكرت آيه أخرى و بينت معناها فى الجمله و هى قوله تعالى: مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَ يَقُولُونَ سَمِعْنَا وَ عَصَيْنَا وَ اسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَ رَاعِنَا لِيَا بَالِيَسْتَتِهِمْ وَ طَغْنَا فى الَّذِينَ (النساء ٤٦/٤)،و منه يعلم ان اليهود كانت تريد بقوله للنبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم راعنا نحوا من معنى قوله: إِسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ و لذلك ورد النهى عن خطاب رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم بذلك و حينئذ ينطبق على ما نقل: أن المسلمين كانوا يخاطبون النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم بذلك اذا القى اليهم كلاما يقولون راعنا يا رسول الله-يريدون أمهلنا و انظرنا حتى نفهم ما تقول-و كانت اللفظه تفيد فى لغه اليهود معنى الشتم فاغتنم اليهود ذلك فكانوا يخاطبون النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم بذلك يظهر التأدب معه و هم يريدون الشتم و معناه عندهم اسمع لا اسمعت فنزل:من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه و يقولون سمعنا و عصينا و اسمع غير مسمع و راعنا،آيه؛و نهى الله المؤمنين عن الكلمه و أمرهم أن يقولوا ما فى معناه و هو انظرنا فقال: لا تقولوا راعنا و قولوا

انظرنا.

قوله تعالى: **وَاللَّكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ**، يريد المتمردين من هذا النهى و هذا أحد الموارد التى أطلق فيها الكفر على ترك التكليف الفرعيه.

قوله تعالى: **يَا يَهُودُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**، لو كان المراد بأهل الكتاب اليهود خاصة كما هو الظاهر لكون الخطابات السابقة مسوقه لهم فتوصيفهم بأهل الكتاب يفيد الإشاره الى العله، و هو أنهم لكونهم أهل كتاب ما يودون نزول الكتاب على المؤمنين لاستلزامه بطلان اختصاصهم بأهليه الكتاب مع أن ذلك ضنه منهم بما لا يملكونه، و معارضه مع الله سبحانه فى سعه رحمته و عظم فضله، و لو كان المراد عموم أهل الكتاب من اليهود و النصارى فهو تعميم بعد التخصيص لاشتراك الفريقين فى بعض الخصائل، و هم على غيظ من الإسلام، و ربما يؤيد هذا الوجه بعض الآيات اللاحقه كقوله تعالى: **وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى** (البقره ١١١/)، و قوله تعالى: **وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ** (البقره ١١٣/).

[سوره البقره (٢): الآيات ١٠٦ الى ١٠٧]

اشاره

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِخْهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) **أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ** (١٠٧)

بيان:

قوله تعالى: **مَا نَنْسَخْ**، النسخ هو الإزاله، يقال: نسخت الشمس الظل اذا ازالته

ص: ١٢١

و ذهبت به، قال تعالى: ﴿مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ (الحج ٥١/)، ومنه أيضا قولهم: نسخت الكتاب اذا نقل من نسخه الى اخرى فكأن الكتاب اذهب به و أبدل مكانه و لذلك بدّل لفظ النسخ من التبديل في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا يَدُلُّنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (النحل ١٠١/)، و كيف كان فالنسخ لا- يوجب زوال نفس الآية من الوجود و بطلان تحققها بل الحكم حيث علق بالوصف و هو الآية و العلامه مع ما يلحق بها من التعليل في الآية بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ، الخ؛ أفاد ذلك أن المراد بالنسخ هو اذهاب اثر الآية من حيث أنها آية، اعنى اذهاب كون الشيء آية و علامه مع حفظ أصله فبالنسخ يزول أثره من تكليف أو غيره مع بقاء أصله و هذا هو المستفاد من اقتران قوله: ﴿نُنسِخُهَا بِقَوْلِهِ: ﴿مَّا نُنسِخُ﴾، و الإنشاء إفعال من النسيان و هو الإذهاب عن العلم كما أن النسخ هو الإذهاب عن العين فيكون المعنى ما نذهب بآية عن العين أو عن العلم نأت بخير منها أو مثلها.

ثم أن كون الشيء آية يختلف باختلاف الأشياء و الحثيات و الجهات، فالبعض من القرآن آية لله سبحانه باعتبار عجز البشر عن اتيان مثله، و الأحكام و التكاليف الإلهيه آيات له تعالى باعتبار حصول التقوى و القرب بها منه تعالى، و الموجودات العينيه آيات له تعالى باعتبار كشفها بوجودها عن وجود صانعها و بخصوصيات وجودها عن خصوصيات صفاته و أسمائه سبحانه، و أنبياء الله و اوليائه تعالى آيات له تعالى باعتبار دعوتهم إليه بالقول و الفعل و هكذا، و لذلك كانت الآية تقبل الشده و الضعف قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ (النجم ١٨/).

و من جهه اخرى الآيه ربما كانت في انها آية ذات جهه واحده و ربما كانت ذات جهات كثيره، و نسخها و إزالتها كما يتصور بجهته الواحده كاهلاكها كذلك يتصور ببعض جهاتها دون بعض اذا كانت ذات جهات كثيره، كآييه من القرآن تنسخ من حيث حكمها الشرعى و تبقى

من حيث بلاغتها وإعجازها ونحو ذلك.

قوله تعالى: **أَوْ تُنْسِيَهَا**، قرء بضم النون و كسر السين من الإنساء بمعنى الأذهاب عن العلم و الذكر و قد مر توضيحه، و هو الكلام مطلق او عام غير مختص برسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بل غير شامل له أصلا لقوله تعالى: **سُنُقِرْتُكَ فَلَا تُنْسِي إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ (الأعلى ٧)**، و هي آية مكيه و آية النسخ مدنيه فلا يجوز عليه النسيان بعد قوله تعالى: **فَلَا تُنْسِي** و أما اشتماله على الاستثناء بقوله: **إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ** فهو على حد الاستثناء الواقع في قوله تعالى:

خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ (هود / ١٠٩)، جىء بها لإثبات بقاء القدره مع الفعل على تغيير الأمر، و لو كان الاستثناء مسوقا لبيان الوقوع فى الخارج لم يكن للامتنان بقوله: **فَلَا تُنْسِي** معنى، اذ كل ذى ذكر و حفظ من الإنسان و سائر الحيوان كذلك يذكر و ينسى و ذكره و نسيانه كلاهما منه تعالى و بمشيئته، و قد كان رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم كذلك قبل هذا الإقراء الامتنانى الموعود بقوله: **سُنُقِرْتُكَ** يذكر بمشيئته الله و ينسى بمشيئته الله تعالى فليس معنى الاستثناء إلا إثبات إطلاق القدره أى سنقرئك فلا تنسى أبدا و الله مع ذلك قادر على إنسائك هذا. و قرء قوله: **نَسَاها** بفتح النون و الهمزه من نسيء نسيئا اذا أخر تأخيرا فيكون المعنى على هذا. ما نسخ من آيه بإزالتها أو تؤخرها بتأخير إظهارها نأت بخير منها أو مثلها و لا يوجب التصرف الإلهى بالتقديم و التأخير فى آياته فوت كمال أو مصلحه، و الدليل على أن المراد بيان أن التصرف الإلهى يكون دائما على الكمال و المصلحه هو قوله: **بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا** فإن الخيره إنما يكون فى كمال شىء موجود أو مصلحه حكم مجعول ففى ذلك يكون موجود مماثلا لآخر فى الخيره أو أزيد منه فى ذلك فافهم (١).

ص: ١٢٣

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ۚ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨) وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعِيدٍ إِيْمَانِكُمْ كُفَارًا حَسِداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعِيدٍ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠) وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۚ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤) وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)

قوله تعالى: أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ، سياق الآية يدل على أن بعض المسلمين -ممن آمن بالنبي- سئل النبي امورا على حد سؤال اليهود نبيهم موسى عليه السلام و الله سبحانه وبخهم على ذلك فى ضمن ما يوبخ اليهود بما فعلوا مع موسى و النبيين من بعده، و النقل يدل على ذلك.

قوله تعالى: سَوَاءَ السَّبِيلِ أَى مَسْتَوَى الطَّرِيقِ.

قوله تعالى: وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ نَقَلَ أَنَّهُ حَى بن الأخطب و بعض من معه من متعصبى اليهود.

قوله تعالى: فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا، قالوا: إنها آية منسوخة بآية القتال.

قوله تعالى: حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرِهِ، فيه كما مر إيماء الى حكم سيشرعه الله تعالى فى حقهم، و نظيره قوله تعالى: فى الآية الآتية أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ، مع قوله تعالى: إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا (التوبه / ٢٩)، و سيأتى الكلام فى معنى الأمر فى قوله تعالى: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي (الإسراء / ٨٥).

قوله تعالى: وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، شروع فى إلحاق النصارى باليهود تصريحاً و سوق الكلام فى بيان جرائمهم معاً.

قوله تعالى: بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ، هذه كثره ثالثه عليهم فى بيان أن السعادة لا تدور مدار الاسم و لا كرامه لأحد على الله إلا بحقيقه الإيمان و العبوديه. اوليها قوله: إِنَّ

الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا (البقره ٦٢/)، وثانيتها، قوله تعالى: بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ (البقره ٨١/)، وثالثتها، هذه الآية و استفاد من تطبيق الآيات تفسير الإيمان بإسلام الوجه الى الله و تفسير الإحسان بالعمل الصالح.

قوله تعالى: وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ، أى و هم يعملون بما أوتوا من كتاب الله لا ينبغي لهم أن يقولوا ذلك و الكتاب يبين لهم الحق و الدليل على ذلك قوله: كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فالمراد بالذين لا- يعملون غير أهل الكتاب من الكفار و مشركى العرب قالوا: إن المسلمين ليسوا على شىء أو أن أهل الكتاب ليسوا على شىء.

قوله تعالى: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ، ظاهر السياق أن هؤلاء كفار مكه قبل الهجره فإن هذه الآيات نزلت فى أوائل ورود رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم المدينة.

قوله تعالى: أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ، يدل على مضى الواقعه و انقضائها لمكان قوله؛ كان، فينطبق على كفار قريش و فعالهم بمكه كما ورد به النقل أن المانعين كفار مكه، كانوا يمنعون المسلمين عن الصلاة فى المسجد الحرام و المساجد التى اتخذوها بفناء الكعبه.

قوله تعالى: وَ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ، المشرق و المغرب و كل جهه من الجهات حيث كانت فى لله بحقيقه الملك التى لا تقبل التبدل و الانتقال، لا كالمملك الذى بيننا معاشر أهل الاجتماع، حيث ان ملكه تعالى مستقر على ذات الشىء محيط بنفسه و أثره، لا- كملكنا المستقر على أثر الاشياء و منافعها، لا على ذاتها، و الملك لا يقوم من جهه انه ملك إلا بمالكة فالله سبحانه قائم على هذه الجهات محيط بها و هو معها، فالمتوجه الى شىء من الجهات متوجه إليه تعالى.

و لما كان المشرق و المغرب إضافيتين شملتسا ساير الجهات تقريبا اذ لا يبقى خارجا منهما إلا نقطتا الجنوب و الشمال الحقيقتان و لذلك لم يقيد إطلاق قوله فأينما، بهما بأن يقال: أينما تولوا

منهما فكأن الإنسان أينما ولى وجهه فهناك إما مشرق أو مغرب، فقوله: **وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ** بمنزله قولنا: ولله الجهات جميعا و إنما اخذ بهما لأن الجهات التي يقصدها الإنسان بوجهه إنما تتعين بشروق الشمس و غروبها و سائر الأجرام العلويه المنيره.

قوله تعالى: **فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**، فيه وضع عله الحكم فى الجزاء موضع الجزاء، و التقدير -و الله أعلم- فأينما تولوا جاز لكم ذلك فإن وجه الله هناك، و يدل على هذا التقدير تعليل الحكم قوله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**، أى إن الله واسع الملك و الاحاطه عليم بقصودكم أينما توجهت، لا كالواحد من الإنسان أو سائر الخلق الجسمانى لا يتوجه إليه إلا إذا كان فى جهه خاصه، و لا أنه يعلم توجه القاصد إليه إلا من جهه خاصه كقدمه فقط، فالتوجه الى كل جهه توجه الى الله، معلوم له سبحانه.

و اعلم أن هذا توسعه فى القبله من حيث الجهه لا من حيث المكان، و الدليل عليه قوله:

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ.

[سوره البقره (٢): الآيات ١١٦ الى ١١٧]

اشاره

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِئَامًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (١١٦) **يَدْبِعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** (١١٧)

بيان:

قوله تعالى: **وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِئَامًا** يعطى السياق، أن المراد بالقائلين بهذه المقاله هم اليهود و النصارى: اذ قالت اليهود: عزير ابن الله، و قالت النصارى: المسيح ابن الله، فإن

وجه الكلام مع أهل الكتاب، وإنما قال أهل الكتاب هذه الكلمة أعنى قولهم: اتخذ الله ولداً أول ما قالوها تشريفاً لأنبيائهم كما قالوا: نحن أبناء الله وأحبنا ثم تلبست بلباس الجد والحقيقة فرد الله سبحانه عليهم في هاتين الآيتين فأضرب عن قولهم بقوله: **بَيِّنْ لَهُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**؛ والخ؛ ويشتمل على برهانين ينفي كل منهما الولادة وتحقق الولد منه سبحانه، فإن اتخاذ الولد هو أن يجزى موجود طبعي بعض أجزاء وجوده، ويفصله عن نفسه فيصير به تربيته تدريجيه فرداً من نوعه مماثلاً لنفسه، وهو سبحانه منزّه عن المثل، بل كل شيء مما في السموات والأرض مملوك له، قائم الذات به، قانت ذليل عنده ذله وجوديه، فكيف يكون شيء من الأشياء ولداً له مماثلاً نوعياً بالنسبة إليه؟ وهو سبحانه بديع السموات والأرض، إنما يخلق ما يخلق على غير مثال سابق، فلا يشبه شيء من خلقه خلقاً سابقاً، ولا يشبه فعله فعل غيره في التقليد والتشبيه ولا في التدريج، والتوصل بالأسباب إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون من غير مثال سابق ولا تدريج، فكيف يمكن أن ينسب إليه اتخاذ الولد؟ وتحققه يحتاج إلى تربيته وتدريج، فقوله: **لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** كل له قانتون برهان تام، وقوله:

بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ برهان آخر تام، وهذا يستفاد من الآيتين:

اولاً: شمول حكم العبادة لجميع المخلوقات مما في السموات والأرض.

و ثانياً: إن فعله تعالى غير تدريجي، ويستدرج من هنا، إن كل موجود تدريجي فله وجه غير تدريجي، به يصدر عنه تعالى كما قال تعالى: **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** (يس ٨٢)، وقال تعالى: **وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصِيرِ** (القمر ٥٠)، وتفصيل القول في هذه الحقيقة القرآنية، سيأتي إنشاء الله في ذيل قوله: **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا** (يس ٨٢)، فانتظر.

قوله تعالى: **سُبْحَانَهُ** مصدر بمعنى التسبيح وهو لا يستعمل إلا مضافاً وهو مفعول

مطلق لفعل محذوف أى سبحته تسيحاً، فحذف الفعل و أضيف المصدر الى الضمير المفعول و أقيم مقامه، و فى الكلمه تأديب إلهى بالتنزيه فيما يذكر فيه ما لا يليق بساحه قدسه تعالى و تقدس.

قوله تعالى: كُلُّ لَهُ قَانِتُونَ، القنوت العباده و التذلل.

قوله تعالى: بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ، بداعه الشىء كونه لا يماثل غيره مما يعرف و يؤنس به.

قوله تعالى: فَيَكُونُ، تفریع على قول كن و ليس فى مورد الجزاء حتى يجزم (١).

[سوره البقره (٢): الآيات ١١٨ الى ١١٩]

إشاره

وَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْ لَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَ نَذِيرًا وَ لَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩)

بيان:

قوله تعالى: وَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ هم المشركون غير أهل الكتاب و يدل عليه المقابله السابقه فى قوله تعالى: وَ قَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ، وَ قَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ، وَ هُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ، قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ، الآيه؛ ففى تلك الآيه الحق أهل الكتاب فى قولهم بالمشركين و الكفار من العرب، و فى هذه الآيه الحق

ص: ١٢٩

المشركين و الكفار بهم، فقال: وقال الذين لا يعلمون لو لا يكلمنا الله أو تأتينا، الآية؛ كذلك قال الذين من قبلهم -و هم أهل الكتاب و اليهود من بينهم- حيث اقترحوا بمثل هذه الأقاويل على نبي الله موسى عليه السلام، فهم و الكفار متشابهون فى أفكارهم و آرائهم، يقول هؤلاء ما قاله أولئك و بالعكس، تشابهت قلوبهم.

قوله تعالى: قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ جواب عن قول الذين لا يعلمون، السخ؛ و المراد ان الآيات التى يطالبون بها مأتية مبينه، و لكن لا- ينتفع بها إلا قوم يوقنون بآيات الله، و أما هؤلاء الذين لا يعلمون، فقلوبهم محجوبه بحجاب الجهل، مؤفه بآفات العصبية و العناد، و ما تغنى الآيات عن قوم لا يعلمون. و من هنا يظهر وجه توصيفهم بعدم العلم، ثم أيد ذلك بتوجيه الخطاب الى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و الإشعار بأنه مرسل من عند الله بالحق بشيرا و نذيرا، فلتطب به نفسه، و ليعلم ان هؤلاء أصحاب الجحيم، مكتوب عليهم ذلك، لا مطمع فى هدايتهم و نجاتهم.

قوله تعالى: وَ لَا تُشِئِلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ، يجرى مجرى قوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (البقره ٦٠).

[سوره البقره (٢): الآيات ١٢٠ الى ١٢٣]

اشاره

وَ لَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَ لَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (١٢٠) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَنَّىٰ فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَ اتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزَىٰ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَ لَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَ لَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣)

قوله تعالى: **وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ**، رجوع الى الطائفتين بعد الالتفات الى غيرهم، وهو بمنزله جمع أطراف الكلام على تفرقتها و تشتتها، فكأنه بعد هذه الخطابات و التوبيخات لهم يرجع الى رسوله و يقول له: هؤلاء ليسوا براضين عنك، حتى تتبع ملتهم التي ابتدعوها بأهوائهم و نظموا بأرائهم، ثم أمره بالرد عليهم بقوله: **قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ** أى ان الاتباع إنما هو لغرض الهدى و لا هدى إلا هدى الله و الحق الذى يجب أن يتبع و غيره - و هو ملتكم - ليس بالهدى، فهى أهوائكم ألستموها لباس الدين و سميتوها باسم المله، ففى قوله: **قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ**، الخ؛ جعل الهدى كناية عن القرآن النازل، ثم اضيف الى الله فأفاد صحه الحصر فى قوله: **إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ** على طريق قصر القلب، و أفاد ذلك خلو ملتهم عن الهدى، و أفاد ذلك كونها أهواء لهم، و استلزم ذلك كون ما عند النبي علماء، و كون ما عندهم جهلا، و اتسع المكان لتعقيب الكلام بقوله: **وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعِيدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ لِمَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ** فانظر الى ما فى هذا الكلام من اصول البرهان العريقه، و وجوه البلاغه على إيجازه، و سلاسه البيان و صفائه.

قوله تعالى: **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ** يمكن أن تكون الجملة بقريته الحصر المفهوم من قوله: **أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ** جوابا للسؤال المقدر الذى يسوق الذهن إليه قوله تعالى: **وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ**، الخ؛ و هو انهم اذا لم يكن مطمع فى إيمانهم، فمن ذا الذى يؤمن

منهم؟ و هل توجيه الدعوه إليهم باطل لغو؟ فأجيب بأن الذين آتيناهم الكتاب و الحال أنهم يتلونه حق تلاوته، أولئك يؤمنون بكتابتهم فيؤمنون بك، أو ان أولئك يؤمنون بالكتاب، كتاب الله المنزل أيما كان، أو ان أولئك يؤمنون بالكتاب الذى هو القرآن. و على هذا: فالقصر فى قوله: **أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ** قصر افراد و الضمير فى قوله: **بِهِ** على بعض التقادير لا يخلو عن استخدام المراد بالذين اتوا الكتاب قوم من اليهود و النصارى ليسوا متبعين للهوى من أهل الحق منهم، و بالكتاب التوراه و الإنجيل، و ان كان المراد بهم المؤمنين برسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و بالكتاب القرآن، فالمعنى، ان الذين آتيناهم القرآن، و هم يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون بالقرآن، لا هؤلاء المتبعون لأهوائهم، فالقصر حينئذ قصر قلب.

قوله تعالى: **يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا، إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ ارجاع ختم الكلام الى بدئه، و آخره الى اوله، و عنده يختتم شطر من خطابات بنى اسرائيل.**

[سوره البقره (٢): آيه ١٢٤]

اشاره

وَ إِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)

بيان:

فقوله تعالى: **وَ إِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ** الخ؛ اشاره الى قصه اعطائه الإمامه و حباه بها، و القصه إنما وقعت فى أواخر عهد إبراهيم عليه السلام بعد كبره و تولد إسماعيل، و إسحاق له و إسكانه إسماعيل و أمه بمكه، كما تنبه به بعضهم ايضا، و الدليل على ذلك قوله عليه السلام على ما حكاه الله سبحانه بعد قوله تعالى له: **إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا**، **وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي**، فإنه عليه السلام قبل مجيء الملائكه بشاره إسماعيل، و إسحاق، ما كان يعلم و لا يظن أن سيكون له ذريه من بعده حتى أنه بعد ما بشرته الملائكه بالأولاد خاطبهم بما ظاهره اليأس و القنوط كما قال تعالى: **وَ نَبَّأَهُمْ**

عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ، إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ: إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ، قَالُوا: لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ، قَالَ أ بَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبْرَ فِيمَ تُبَشِّرُونَ؟ قَالُوا، بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (الحجر ٥٥/)، وكذلك زوجته على ما حكاها الله تعالى في قصه بشارته أيضا اذ قال تعالى: وَ امْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكَتْ، فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَ مِنْ وَّرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ، قَالَتْ، يَا وَيْلَتَى أَ أَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ، قَالُوا أ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، رَحِمَتُ اللَّهُ وَ بَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (هود ٧٣/)، و كلامهما كما ترى يلوح منه آثار اليأس و القنوط و لذلك قابلته الملائكة بنوع كلام فيه تسليتهما و تطيب أنفسهما فما كان هو و لا أهله يعلم أن سيرزق ذريته، و قول صلى الله عليه و آله و سلم: و من ذريتي، بعد قوله تعالى: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلدَّاسِ إِمَامًا، قول من يعتقد لنفسه ذرية، و كيف يسع من له ادنى دربه بأدب الكلام و خاصه مثل إبراهيم الخليل في خطاب يخاطب به ربه الجليل أن يتفوه بما لا- علم له به؟ و لو كان ذلك لكان من الواجب أن يقول: و من ذريتي إن رزقتني ذرية أو ما يؤدي هذا المعنى فالقصه واقعه كما ذكرنا في أواخر عهد إبراهيم بعد البشاره.

على أن قوله تعالى: وَ إِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا، يدل على أن هذه الإمامه الموهوبه إنما كانت بعد ابتلائه بما ابتلاه الله به من الامتحانات و ليست هذه الا أنواع البلاء التي ابتلى عليه السلام بها في حياته، و قد نص القرآن على أن من أوضحها بلاء قضيه ذبح إسماعيل، قال تعالى: قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ، الى ان قال: إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (الصافات ١٠٦/).

و القضيه انما وقعت في كبر إبراهيم، كما حكي الله تعالى عنه من قوله: الْحَمِيدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ، وَ إِسْحَاقَ، إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (إبراهيم ٤١/).

و لنرجع الى الفاظ الآيه فقوله: وَ إِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ، الابتلاء و البلاء بمعنى واحد تقول:

ابتليته و بلوته بكذا، أى امتحنته و اختبرته، اذا قدمت اليه أمرا أو أوقعته في حدث فاخبرته

بذلك و استظهرت ما عنده من الصفات النفسانيه الكامنه عنده كالإطاعه و الشجاعه و السخاء و العفه و العلم و الوفاء أو مقابلاتها،و لذلك لا يكون الابتلاء إلا بعمل فإن الفعل هو الذى يظهر به الصفات الكامنه من الإنسان دون القول الذى يحتمل الصدق و الكذب قال تعالى: **إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ (ن ١٧)**، و قال تعالى: **إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ (البقره ٢٤٩)**.

فتعلق الابتلاء فى الآيه بالكلمات ان كان المراد بها الأقوال أنما هو من جهه تعلقها بالعمل و حكايتها عن العهود و الأوامر المتعلقة بالفعل كقوله تعالى: **وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسِينًا (البقره ٨٣)**، أى عاشروهم معاشره جميله و قوله: **بِكَلِمَاتٍ فَأَتَّمْتُهُنَّ،** الكلمات و هى جمع كلمه و إن أطلقت فى القرآن على العين الخارجى دون اللفظ و القول، كقوله تعالى: **بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ (آل عمران ٤٥)**، إلا أن ذلك بعنايه إطلاق القول كما قال تعالى:

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ، خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (آل عمران ٥٩).

و جميع ما نسب إليه تعالى من الكلمه فى القرآن اريد بها القول كقوله تعالى: **وَلَا مَبْدَأَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ (الأنعام ٣٤)**، و قوله: **لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ (يونس ٩٦)**، و قوله:

يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ (الأنفال ٧)، و قوله: **إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا- يُؤْمِنُونَ (يونس ٩٦)**، و قوله: **وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ (الزمر ٧١)**، و قوله: **وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (المؤمن ٦)**، و قوله: **وَلَوْ لَا كَلِمَةُ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَيَّ أَجَلٌ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ (الشورى ١٤)**، و قوله: **وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا (التوبه ٤١)**، و قوله: **قَالَ فَالْحَقُّ، وَ الْحَقُّ أَقُولُ (ص ٨٤)**، و قوله: **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (النحل ٤٠)**، فهذه و نظائرها أريد بها القول بعنايه أن القول توجيه ما يريد المتكلم إعلامه المخاطب ما عنده كما فى الأخبار أو لغرض تحميله عليه كما فى

الانشاء و لذلك ربما تتصف في كلامه تعالى بالتمام كقوله تعالى: وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ (الأنعام/١١٥)، وقوله تعالى: وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسَيْنِ عَلِيَّ بِنِي إِسْرَائِيلَ (الأعراف/١٣٦)، كأن الكلمة اذا صدرت عن قائلها فهي ناقصة بعد، لم تتم، حتى تلبس لباس العمل و تعود صدقا.

و هذا لا ينافي كون قوله تعالى فعله، فإن الحقائق الواقعيه لها حكم، و للعنايات الكلاميه اللفظيه حكم آخر، فما يريد الله سبحانه إظهاره لواحد من أنبيائه، أو غيرهم بعد خفائه، أو يريد تحميله على أحد قول و كلام له لاشتماله على غرض القول و الكلام و تضمنه غايه الخبر و النبأ، و الأمر و النهي، و إطلاق القول و الكلمه على مثل ذلك شائع في الاستعمال اذا اشتمل على ما يؤديه القول و الكلمه، تقول: لأفعلن كذا و كذا، لقول قلته و كلمه قدمتها، و لم تقل قولاً، و لا قدمت كلمه، و إنما عزمت عزيمة لا تنقضها شفاعه شفيع أو وهن إرادته، و منه قول عنتره:

و قولي كلما جشأت و جاشت

مكانك تحمدي أو تستريحي

يريد بالقول توطين نفسه على الثبات و العزم، على لزومها مكانها لتفوز بالحمد إن قتل، و بالاستراحه إن غلب.

اذا عرفت ذلك ظهر لك أن المراد بقوله تعالى: بِكَلِمَاتٍ، قضايا ابتلى بها و عهود إلهيه اريدت منه، كابتلائه بالكواكب و الأصنام، و النار و الهجره و تضحيته بابنه و غير ذلك و لم يبين في الكلام ما هي الكلمات لأن الغرض غير متعلق بذلك، نعم قوله: قَالَ إِنِّي لَجَاعِعُكَ لِلدَّاسِ إِمَامًا، من حيث ترتيبه على الكلمات تدل على انها كانت أموراً تثبت بها لياقته عليه السلام لمقام الإمامه.

فهذه هي الكلمات و أما إتمامهن فإن كان الضمير في قوله تعالى: أتمهن راجعا الى إبراهيم كان معنى إتمامهن إتيانه عليه السلام ما أريد منه، و امثاله لما أمر به، و إن كان الضمير راجعا إليه تعالى

كما هو الظاهر كان المراد توفيقه لما اريد منه، و مساعدته على ذلك، و أما ما ذكره بعضهم: أن المراد بالكلمات قوله تعالى: قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا، الى آخر الآيات فمعنى لا ينبغي الركون اليه اذ لم يعهد في القرآن إطلاق الكلمات على جمل الكلام.

قوله تعالى: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا، أى مقتدى يقتدى بك الناس، و يتبعونك فى أقوالك و أفعالك، فالإمام هو الذى يقتدى و يأتى به الناس، و لذلك ذكره من المفسرين، أن المراد به النبوه، لأن النبى يقتدى به امتة فى دينهم، قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ، إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ (النساء ٦٣)، لكنه فى غايه السقوط.

اما اولاً: فلأن قوله: إِمَامًا، مفعول ثان لعامله الذى هو قوله: جَاعِلُكَ و اسم الفاعل لا يعمل اذا كان بمعنى الماضى، و انما يعمل اذا كان بمعنى الحال أو الاستقبال فقوله، إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا، و وعد له عليه السلام بالإمامه فى ما سيأتى، مع أنه وحى لا يكون إلا مع نبوه، فقد كان عليه السلام نبيا قبل تقلده الإمامه، فليست الإمامه فى الآية بمعنى النبوه (ذكره بعض المفسرين).

و اما ثانياً: فلأننا بينا فى صدر الكلام: أن قصه الامامه، إنما كانت فى أواخر عهد إبراهيم عليه السلام بعد مجيء البشاره له بإسحاق و إسماعيل، و إنما جاءت الملائكه بالبشاره فى مسيرهم الى قوم لوط و إهلاكهم، و قد كان إبراهيم حينئذ نبيا مرسلًا، فقد كان نبيا قبل أن يكون إمامًا، فإمامته غير نبوته.

و منشأ هذا التفسير و ما يشابهه الابتذال الطارى على معانى الألفاظ الواقعه فى القرآن الشريف فى أنظار الناس من تكرر الاستعمال بمرور الزمن و من جمله تلك الألفاظ لفظ الإمامه، ففسره قوم: بالنبوه و التقدم و المطاعيه مطلقًا، و فسره آخرون بمعنى الخلافه أو الوصايه، أو الرئاسه فى امور الدين و الدنيا—و كل ذلك لم يكن فإن النبوه معناها: تحمّل النبأ من جانب الله، و الرساله معناها تحمّل التبليغ، و المطاعيه و الاطاعه قبول الإنسان ما يراه أو

يأمره غيره و هو من لوازم النبوه و الرساله، و الخلافه نحو من النياه، و كذلك الوصايه، و الرئاسه نحو من المطاعيه و هو مصدره الحكم فى الاجتماع و كل هذه المعانى غير معنى الإمامه التى هى كون الإنسان بحيث يقتدى به غيره بأن يطبق أفعاله و أقواله على أفعاله و أقواله بنحو التبعية، و لا- معنى لأن يقال لنبى من الأنبياء مفترض الطاعه إنى جاعلك للناس نبيا، أو مطاعا فيما تبلغه نبوتك، أو رئيسا تأمر و تنهى فى الدين، أو وصيا، أو خليفه فى الأرض تقضى بين الناس فى مرافعاتهم بحكم الله.

و ليست الإمامه تخالف الكلمات السابقه و تختص بموردها بمجرد العناية اللفظيه فقط، اذ لا يصح أن يقال لنبى-من لوازم نبوته كونه مطاعا بعد نبوته-إنى جاعلك مطاعا للناس بعد ما جعلتك كذلك، و لا يصح ان يقال له ما يؤول اليه معناه و ان اختلف بمجرد عنايه لفظيه، فإن المحذور هو المحذور، و هذه المواهب الإلهيه ليست مقصوره على مجرد المفاهيم اللفظيه، بل دونها حقائق من المعارف الحقيقيه، فلمعنى الإمامه حقيقه وراء هذه الحقائق.

و الذى نجده فى كلامه تعالى: إنه كلما تعرض لمعنى الإمامه تعرض معها للهدايه تعرض التفسير، قال تعالى فى قصص إبراهيم عليه السلام: وَ هَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ نَافِلَةً وَ كَلَّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا (الأنبياء ٧٣)، و قال سبحانه: وَ جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (السجده ٢٤)، فوصفها بالهدايه وصف تعريف، ثم قيدها بالأمر، فبين أن الإمامه ليست مطلق الهدايه، بل هى الهدايه التى تقع بأمر الله، و هذا الأمر هو الذى بين حقيقته فى قوله: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ (يس ٨٣)، و قوله: وَ مَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (القمر ٥٠)، و سنين فى الآيتين ان الأمر الإلهى و هو الذى تسميه الآيه المذكوره بالملكوت وجه آخر للخلق، يواجهون به الله سبحانه، طاهر مطهر من قيود الزمان و المكان خال من التغير و التبدل و هو المراد بكلمه-كن-الذى ليس إلا-وجود الشىء العينى، و هو

قبال الخلق الذى هو وجه آخر من وجهى الأشياء، فيه التغير و التدريج و الانطباق على قوانين الحركة و الزمان، و ليكن هذا عندك على إجماله حتى يأتيك تفصيله إنشاء الله العزيز.

و بالجمله فالامام هاد يهدى بأمر ملكوتى يصاحبه، فالإمامه بحسب الباطن نحو ولايه للناس فى أعمالهم، و هدايتها إيصالها إياهم الى المطلوب بأمر الله دون مجرد إراءه الطريق الذى هو شأن النبى و الرسول و كل مؤمن يهدى الى الله سبحانه بالنصح و المواعظه الحسنه، قال تعالى: **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُنَبِّئَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** (إبراهيم ٧٤)، و قال تعالى: **فِي مَثَلِ آلِ فِرْعَوْنَ، وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ** (المؤمن ٣٨)، و قال تعالى: **فَلَوْ لَا نَفَرْنَا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لَتَيَفَّتْهُوا فِي الدِّينِ وَ لَتُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** (التوبه ١٢٢)، و سيتضح لك هذا المعنى مزيد اتضاح.

ثم انه تعالى بين سبب موهبه الإمامه بقوله: **لَمَّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** الآيه؛ فبين ان الملاك فى ذلك صبرهم فى جنب الله- و قد أطلق الصبر فهو فى كل ما يتلى و يمتحن به عبد فى عبوديته، و كونهم قبل ذلك موقنين، و قد ذكر فى جمله قصص إبراهيم عليه السلام قوله **وَ كَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيُكُونَ مِنَ الْمُؤَقِنِينَ** (الأنعام ٧٥)، و الآيه كما ترى تعطى بظاهرها: أن إراءه الملكوت لإبراهيم كانت مقدمه لإفاضه اليقين عليه، و يتبين به أن اليقين لا ينفك عن مشاهده الملكوت كما هو ظاهر قوله تعالى: **كَأَلَا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ** (التكاثر ٦)، و قوله تعالى: **كَأَلَا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ**، **كَأَلَا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ** -الى أن قال- **كَأَلَا إِنَّ كِتَابَ الْمَاجِدِ لَفِي عِلِّيِّينَ، وَ مَا أَذْرَاكَ مَا عِلِّيُونَ** كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (المطففين ٢١)، و هذه الآيات تدل على أن المقربين هم الذين لا يحجبون عن ربهم بحجاب قلبى و هو المعصيه و الجهل و الريب و الشك، فهم أهل اليقين بالله، و هم يشهدون عليين كما يشهدون الجحيم.

و بالجمله فالإمام يجب أن يكون إنسانا ذا يقين مكشوفاً له عالم الملكوت-متحققاً بكلمات من الله سبحانه-وقد مرّ أن الملكوت هو الأمر الذى هو الوجه الباطن من وجهى هذا العالم، فقوله تعالى: يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا، يدل دلالة واضحة على أن كل ما يتعلق به أمر الهداية-وهو القلوب والأعمال-فالإمام باطنه و حقيقته، ووجهه الأمرى حاضر عنده غير غائب عنه، و من المعلوم أن القلوب والأعمال كسائر الأشياء فى كونها ذات وجهين، فالإمام يحضر عنده و يلحق به أعمال العباد، خيرها و شرّها، و هو المهيم على السبيلين جميعاً، سبيل السعادة و سبيل الشقاوه. و قال تعالى أيضاً: يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ (الإسراء ٧١)، و سيجىء تفسيره بالإمام الحق دون كتاب الأعمال، على ما يظن من ظاهرها، فالإمام هو الذى يسوق الناس الى الله سبحانه يوم تبلى السرائر، كما أنه يسوقهم إليه فى ظاهر هذه الحياه الدنيا و باطنها، و الآيه مع ذلك تفيد أن الإمام لا يخلو عنه زمان من الأزمنه، و عصر من الأعصار، لمكان قوله تعالى: كُلُّ أَنَسٍ، على ما سيجىء فى تفسير الآيه من تقريبه.

ثم إن هذا المعنى أعنى الإمامه، على شرافته و عظمته، لا يقوم إلا بمن كان سعيد الذات بنفسه، اذ الذى ربّما تلبّس ذاته بالظلم و الشقاء، فإنما سعاده بهدايه من غيره، و قد قال الله تعالى: أَمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا- أَنْ يُهْدَى (يونس ٣٥)، و قد قوبل فى الآيه بين الهادى الى الحق و بين غير المهتدى إلا بغيره، أعنى المهتدى بغيره، و هذه المقابله تقتضى أن يكون الهادى الى الحق مهتدياً بنفسه، أن المهتدى بغيره لا يكون هادياً الى الحق البته.

و يستنتج من هنا أمران: أحدهما: أن الإمام يجب أن يكون معصوماً عن الضلال و المعصيه، و الا كان غير مهتد بنفسه، كما مرّ، كما يدل عليه أيضاً قوله تعالى: وَ جَعَلْنَا هُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ إِقَامَ الصَّلَاةِ وَ إِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (الأنبياء ٧٣)، فأفعال الإمام خيرات يهتدى إليها لا بهدايه من غيره بل باهتداء من نفسه

بتأييد إلهي، و تسديد رباني و الدليل عليه قوله تعالى: **فَعَلَّ الْخَيْرَاتِ بِنَاءِ عَلِيٍّ أَنْ الْمَصْدَرِ الْمُضَافِ يَدُلُّ عَلَى الْوُقُوعِ**، ففرق بين مثل قولنا: **وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ أَنْ أَعْمَلُوا الْخَيْرَاتِ** فلا يدل على التحقيق و الوقوع، بخلاف قوله: **وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فَعَلَّ الْخَيْرَاتِ** فهو يدل على أن ما فعلوه من الخيرات إنما هو بوحى باطنى و تأييد سماوى. الثانى: عكس الأمر الأول و هو أن من ليس بمعصوم فلا يكون إماما هاديا الى الحق البتة.

و بهذا البيان يظهر: ان المراد بالظالمين فى قوله تعالى: **قَالَ وَمَنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** مطلق من صدر عنه ظلم ما، من شرك أو معصيه، و ان كان منه فى برهه من عمره، ثم تاب و صلح.

و قد سئل بعض أساتيدنا رحمه الله عليه: عن تقريب دلالة الآية على عصمه الامام.

فأجاب: ان الناس بحسب القسمة العقلية على أربعة أقسام: من كان ظالما فى جميع عمره، و من لم يكن ظالما فى جميع عمره، و من هو ظالم فى أول عمره دون آخره، و من هو بالعكس هذا. و إبراهيم عليه السلام أجل شأننا من أن يسأل الإمامه للقسم الأول و الرابع من ذريته، فبقى قسمان و قد نفى الله أحدهما، و هو الذى يكون ظالما فى أول عمره دون آخره، فبقى الآخر، و هو الذى يكون غير ظالم فى جميع عمره انتهى و قد ظهر مما تقدم من البيان أمور:

الأول: ان الامامه لمجعله.

الثانى: أن الإمام يجب أن يكون معصوما بعصمه إلهيه.

الثالث: أن الأرض و فيه الناس، لا تخلوا عن إمام حق.

الرابع: أن الإمام يجب أن يكون مؤيدا من عند الله تعالى.

الخامس: أن أعمال العباد غير محجوبه عن علم الإمام.

السادس: أنه يجب أن يكون عالما بجميع ما يحتاج اليه الناس فى امور معاشهم و معادهم.

السابع: أنه يستحيل أن يوجد فيهم من يفوقه فى فضائل النفس.

فهذه سبعة مسائل هي امهات مسائل الإمامه، تعطىها الآيه الشريفه بما ينضم إليها من الآيات و الله الهادى.

فان قلت: لو كانت الإمامه هي الهدايه بأمر الله تعالى، و هي الهدايه الى الحق الملازم مع الاهتداء بالذات كما استفيد من قوله تعالى: أَمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ الْآيَةُ؛ كان جميع الأنبياء أئمه قطعاً، لوضوح أن نبوه النبي لا يتم إلا باهتداء من جانب الله تعالى بالوحى، من غير أن يكون مكتسباً من الغير، بتعليم أو إرشاد و نحوهما، و حينئذ فموهبه النبوه تستلزم موهبه الإمامه، و عاد الإشكال الى أنفسكم.

قلت: الذى يتحصّل من البيان السابق المستفاد من الآيه أن الهدايه بالحق و هي الإمامه تستلزم الاهتداء بالحق، و أما العكس و هو أن يكون كل من اهتدى بالحق هادياً لغيره بالحق، حتى يكون كل نبي لاهتدائه بالذات إماماً، فلم يتبين بعد، و قد ذكر سبحانه هذا الاهتداء بالحق، من غير أن يقرنه بهدايه الغير بالحق فى قوله تعالى: وَ هَدَيْنَا لَهُ إِسْرَاقًا وَ يَعْقُوبَ كَلَّامًا هَدَيْنَا وَ نُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ، وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَ سُليْمَانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسَى وَ هَارُونَ وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيَى وَ عِيسَى وَ إِيلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَ إِسْمَاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ يُونُسَ وَ لُوطًا وَ كَلَّامًا فَضَلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ. وَ مِنْ آبَائِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ إِخْوَانِهِمْ وَ اجْتَبَيْنَاهُمْ وَ هَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحُكْمَ وَ النَّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقُصِّدْ وَ كَلَّمْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْبَدَهُ (الأنعام ٧٩)، و سياق الآيات كما ترى يعطى أن هذه الهدايه أمر ليس من شأنه أن يتغير و يتخلف، و أن هذه الهدايه لن ترتفع بعد رسول الله عن أمته، بل عن ذريه إبراهيم منهم خاصه، كما يدل عليه قوله تعالى: وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ إِنِّي أَبْرَأءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ.

وَ جَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (الزخرف ١٨)، فأعلم قومه ببراءته فى الحال

و أخبرهم بهدائته فى المستقبل، و هى الهدايه بأمر الله حقا، لا الهدايه التى يعطيها النظر و الاعتبار، فإنها كانت حاصله مدلولا عليها بقوله: إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي، ثم أخبر الله: أنه جعل هذه الهدايه كلمه باقيه فى عقب إبراهيم، و هذا أحد الموارد التى أطلق القرآن الكلمه فيها على الأمر الخارجى دون القول، كقوله تعالى: وَ أَلْزَمَهُمُ الْتَقْوَى وَ كَانُوا أَحَقَّ بِهَا (الفتح ٢٦).

و قد تبين بما ذكر: أن الإمامه فى ولد إبراهيم بعده، و فى قوله تعالى: قَالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي. قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظالمين إشارة الى ذلك، فإن إبراهيم عليه السلام إنما كان سئل الإمامه لبعض ذريته لا لجميعهم، فاجيب: بنفيها عن الظالمين من ولده، و ليس جميع ولده ظالمين بالضرورة حتى يكون نفيها عن الظالمين نفيها لها عن الجميع، ففيه إجابته لما سأله مع بيان أنها عهد، و عهده تعالى لا ينال الظالمين.

قوله تعالى: لَا يَنَالُ عَهْدِي الظالمين، فى التعبير إشارة الى غايه بعد الظالمين عن ساحة العهد الإلهى، فهى من الاستعاره بالكنايه (١).

[سوره البقره (٢): الآيات ١٢٥ الى ١٢٩]

إشارة

وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَ أَمْنًا وَ اتَّخَذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُضِلًّا وَ عَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْعَاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَ أَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَ مَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَ بئسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَ اجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَ أَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَ تَبَّ عَلَيْنَا إِنْكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَ ابْعِثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)

ص: ١٤٢

قوله تعالى: وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا، إشاره الى تشريع الحجّ و الأمن في البيت، و المثابه هي المرجع، من تاب يثوب اذا رجع.

قوله تعالى: وَ اتَّخَذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُضِيًّا كَأَنَّهُ عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً، بحسب المعنى، فإن قوله: جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً، لما كان إشاره الى التشريع كان المعنى و اذ قلنا للناس ثوبوا الى البيت و حجوا إليه، و اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، و ربما قيل إن الكلام على تقدير القول، و التقدير: و قلنا اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، و المصلى اسم مكان من الصلاة بمعنى الدعاء أى اتخذوا من مقامه عليه السلام مكانا للدعاء و الظاهر ان قوله: جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً، الخ؛ بمنزله التوطئه اشير به الى مناط تشريع الصلاة و لذا لم يقل: و صلوا، فى مقام ابراهيم، بل قال: و اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، فلم يعلق الامر بالصلاه فى المقام، بل علق على اتخاذ المصلى منه.

قوله تعالى: وَ عَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا، العهد هو الأمر و التطهير إما تخلص البيت لعباده الطائفين، و العاكفين، و المصلين، و نسكهم فيكون من

الاستعاره بالكنايه، وأصل المعنى: أن خلصا بيتي لعباده العباد، و ذلك تطهير و إما تنظيفه من الأقدار و الكثافات الطارئه من عدم مبالاة الناس و الركع السجود جمعا راعح و ساجد و كان المراد به المصلون.

قوله تعالى: وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا دَعَاءَ دَعَا بِهِ إِبْرَاهِيمُ يَسْأَلُ بِهِ الْأَمْنَ عَلَىٰ أَهْلِ مَكَّةَ وَ الرِّزْقَ وَ قَدْ اجْتَبَيْتَ دَعْوَتَهُ، وَ حَاشَا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يَنْقَلُ فِي كَلَامِهِ دَعَاءٌ لَا يَسْتَجِيبُهُ وَ لَا يَرُدُّهُ فِي كَلَامِهِ الْحَقِّ فَيَشْتَمِلُ كَلَامُهُ عَلَىٰ هَجَاءٍ لِعَوْلَىٰ بِه لِأَغْ جَاهِلٍ، وَ قَدْ قَالَ تَعَالَى: وَ الْحَقُّ أَقُولُ (ص ٨٤/)، وَ قَالَ تَعَالَى: إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَضْلٌ وَ مَا هُوَ بِالْهَزْلِ (الطارق ١٤/).

و قد نقل القرآن العظيم عن هذا النبي دعوات كثيرة دعا بها، و سألها ربه كدعائه لنفسه في بادئ أمره، و دعائه عند مهاجرته الى سوريه و دعائه و مسألته بقاء الذكر الخير، و دعائه لنفسه و ذريته و لوالديه و للمؤمنين و المؤمنات، و دعائه لأهل مكه بعد بناء البيت، و دعائه و مسألته بعثه النبي من ذريته، و من دعواته و مسائله التي تجم آماله و تشخص مجاهداته و مساعيه في جنب الله و فضائل نفسه المقدسه، و بالجمله تعرف موقعه و زلفاه من الله عز اسمه، و سائر قصصه و ما مدحه به ربه، يستنبط شرح حياته الشريفه، و ستعرض للميسور من ذلك في سوره الأنعام.

قوله تعالى: مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ، لما سئل عليه السلام لبلد مكه الأمن، ثم سئل لأهله أن يرزقوا من الثمرات، استشعر: أن الأهل سيكون منهم مؤمنون و كافرون، و دعائه للأهل بالرزق يعم الكافر و المؤمن، و قد تبرأ من الكافرين و ما يعبدونه، قال تعالى: فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ (التوبه ١١٤/)، فشهد تعالى له بالبراءه و التبري عن كل عدو لله، حتى أبيه، و لذلك لما استشعر ما استشعره من عموم دعوته قيدها بقوله من آمن منهم - و هو يعلم أن رزقهم من الثمرات لا - يتم من دون شركه الكافرين، على ما يحكم به ناموس الحياه الدنيويه

الاجتماعيه-غير أنه خص مسأله-و الله أعلم بما يحكم لسائر عبادته، ويريد في حقهم، فاجيب عليه السلام بما يشمل المؤمن و الكافر، وفيه بيان أن المستجاب من دعوته ما يجرى على حكم العاده و قانون الطبيعه من غير خرق للعاده، و إبطال لظاهر حكم الطبيعه، و لم يقل: و ارزق من آمن من أهله من الثمرات لأن المطلوب استيهاب الكرامه للبلد لكرامه البيت المحرم، و لا- ثمره تحصل في واد غير ذى زرع، و وقع فيه البيت، و لو لا ذلك لم يعمر البلد، و لا وجد أهلا يسكنونه.

قوله تعالى: وَ مَنْ كَفَرَ فَأُمْتِّعُهُ قَلِيلًا، قرء فامتعه من باب الإفعال و التفعيل و الامتاع و التمتع بمعنى واحد.

قوله تعالى: ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ الخ؛ فيه إشاره الى مزيد اكرام البيت و تطيب لنفس إبراهيم عليه السلام، كأنه قيل: ما سأله من اكرام البيت برزق المؤمنين من أهل هذا البلد استجبته و زياده، و لا- يغتر الكافر بذلك أن له كرامه على الله، و انما ذلك اكرام لهذا البلد، و اجابه لدعوتك بأزيد مما سأله، فسوق يضطر الى عذاب النار، و بس المصير.

قوله تعالى: وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْمَاعِيلُ، القواعد جمع قاعده و هى ما قعد من البناء على الارض، و استقر عليه الباقي، و رفع القواعد من المجاز بعد ما يوضع عليها منها، و نسبه الرفع المتعلق بالمجموع الى القواعد وحدها. و فى قوله تعالى: مِنَ الْبَيْتِ تلميح الى هذه العناية المجازيه.

قوله تعالى: رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، دعاء لإبراهيم و اسماعيل، و ليس على تقدير القول، أو ما يشبهه، و المعنى يقولان: ربنا تقبل منا، الخ؛ بل هو فى الحقيقة حكاية المقول نفسه، فإن قوله: يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْمَاعِيلُ حكاية الحال الماضيه، فهما يمثلان بذلك تمثيلا كأنهما يشاهدان و هما مشتغلان بالرفع، و السامع يراهما على حالهما ذلك ثم يسمع دعائهما بألفاظهما من غير وساطه المتكلم المشير الى موقفهما

و عملهما، وهذا كثير في القرآن، وهو من أجمل السياقات القرآنيه- وكلها جميل- وفيه من تمثيل القصة و تقريبه الى الحس ما لا يوجد و لا شيء من نوع بداعته في التقبل بمثل القول و نحوه.

و في عدم ذكر متعلق التقبل- و هو بناء البيت- تواضع في مقام العبوديه، و استحغار لما عملا به و المعنى ربنا تقبل منا هذا العمل اليسير انك أنت السميع لدعوتنا، العليم بما نويناه في قلوبنا.

قوله تعالى: رَبَّنَا وَ اجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ، من البديهي أن الاسلام على ما تداول بيننا من لفظه، و يتبادر الى أذهاننا من معناه أول مراتب العبوديه، و به يمتاز المنتحل من غيره، و هو الأخذ بظاهر الاعتقادات و الأعمال الدينيه، أعم من الإيمان و النفاق، و ابراهيم عليه السّلام- و هو النبي الرسول أحد الخمسه أولى العزم، صاحب المله الحنيفيه- أجل من أن يتصور في حقه أن لا يكون قد ناله الى هذا الحين، و كذا ابنه اسماعيل رسول الله و ذبيحه، أو يكونا قد نالا و لكن لم يعلما بذلك، أو يكونا علما بذلك و أرادا البقاء على ذلك، و هما في ما هما فيه من القربى و الزلفى، و المقام مقام الدعوه عند بناء البيت المحرم، و هما أعلم بمن يسألانه، و أنه من هو، و ما شأنه، على أن هذا الإسلام من الامور الاختياريه التي يتعلق بها الأمر و النهي كما قال تعالى: إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربِّ الْعَالَمِينَ (البقره ١٣١/)، و لا معنى لنسبه ما هو كذلك الى الله سبحانه أو مسئله ما هو فعل اختياري للانسان من حيث هو كذلك من غير عنايه يصح معها ذلك (١).

قوله تعالى: وَ أَرِنَا مَنَاسِكَكَ وَ تَبَّ عَلَيْنَا إِنْكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، يدل على ما مر من معنى الإسلام أيضا، فإن المناسك جمع منسك بمعنى العباده، كما في قوله تعالى:

ص: ١٤٦

١- (١). البقره ١٢٥-١٢٩: بحث حول معنى الإسلام الذي اراده ابراهيم عليه السّلام من الله لذريته؛ الدعاء.

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا (الحج ١٣٤)، أو بمعنى المتعبد، أعنى الفعل المأتى به عبادته وإضافه المصدر يفيد التحقق، فالمراد بمناسكتنا هى الأفعال العبادية الصادره منهما والأعمال التى يعملانها دون الأفعال، والأعمال التى يراد صدورها منهما، فليس قوله: أَرِنَا بِمَعْنَى عَلَّمْنَا أَوْ وَقَفْنَا، بل التسديد بآراءه حقيقه الفعل الصادر منهما، كما أشرنا إليه فى قوله تعالى:

وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَ إِقَامَ الصَّلَاةِ وَ إِيتَاءَ الزَّكَاةِ (الأنبياء ٧٣)، و سنبينه فى محله: ان هذا الوحي تسديد فى الفعل، لا تعليم للتكليف المطلوب، و كأنه إليه الإشارة بقوله تعالى: وَ اذْكُرْ عِبَادَتَنَا إِبْرَاهِيمَ، وَ إِسْحَاقَ، وَ يَعْقُوبَ، أُولَى الْأَيْدِي وَ الْأَبْصَارِ. إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (ص ٤٦).

فقد تبين ان المراد بالإسلام و البصيره فى العبادته، غير المعنى الشائع المتعارف، و كذلك المراد بقوله تعالى: وَ تَبَّ عَلَيْنَا، لان إبراهيم و إسماعيل كانا نبيين معصومين بعصمه الله تعالى، لا يصدر عنهما ذنب حتى يصح توبتهما منه، كتوبتنا من المعاصى الصادره عنا.

قوله تعالى: رَبَّنَا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ الخ؛ دعوه النبى عليه السّلام و قد كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ يقول: «أنا دعوت ابراهيم» (١)(٢).

[سوره البقره (٢): الآيات ١٣٠ الى ١٣٤]

اشاره

وَ مَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا- مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَ لَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَ وَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَ يَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَ إِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)

ص: ١٤٧

١- ١). البقره ١٢٥-١٢٩: بحث روائى حول تطهير بيت الله، سفر ابراهيم الى مكه لمقابله اسماعيل عليه السلام بناء الكعبه: الحجر الاسود؛ معنى ان الشىء من الجنه او جهنم؛ شرف الانبياء و الامور المنسوبه لهم و الاماكن المقدسه كالكعبه و الحجر الاسود؛ معنى الامه.

٢- ٢). البقره ١٢٥-١٢٩: بحث علمى حول دوره كامله من السير العبودى الذى يسير به العبد من موطن نفسه الى قرب ربه...

قوله تعالى: وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ، الرغبه اذا عدّيت بمن أفادت معنى الإعراض و النفره، و اذا عديت بفي أفادت: معنى الشوق و الميل، و سفه يأتي متعديا و لازما، و لذلك ذكر بعضهم أن قوله: نَفْسُهُ مفعول لقوله: سَفِهَ، و ذكر آخرون أنه تمييز لا مفعول، و المعنى على أى حال: إن الإعراض عن مله إبراهيم من حماقه النفس، و عدم تمييزها ما ينفعها مما يضرها و من هذه الآيه يستفاد معنى ما ورد فى الحديث أن العقل ما عبد به الرحمن.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا، الاصطفاء أخذ صفوه الشىء و تمييزه عن غيره اذا اختلطا، و ينطبق هذا المعنى بالنظر الى مقامات الولايه على خلوص العبوديه و هو أن يجرى العبد فى جميع شئونه على ما يقتضيه مملوكيته و عبوديته من التسليم الصرف لربه، و هو التحقق بالدين فى جميع الشئون فإن الدين لا يشتمل إلا على مواد العبوديه فى امور

الدنيا والآخرة و تسليم ما يرضيه الله لعبده فى جميع اموره كما قال الله تعالى: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ (آل عمران ١٩)، فظهر: أن مقام الاصطفاء هو مقام الإسلام بعينه و يشهد بذلك قوله تعالى: إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ، قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ الآية؛ فإن الظاهر أن الظرف متعلق بقوله: إِصْطَفَيْتَاهُ، فيكون المعنى أن اصطفاه إنما كان حين قال له ربه: أسلم:

فأسلم لله رب العالمين فقوله تعالى: إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ، قال أسلمت لرب العالمين، بمنزله التفسير لقوله: إِصْطَفَيْتَاهُ .

و فى الكلام التفات من التكلم الى الغيبه فى قوله: إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ، و لم يقل اذ قلنا له أسلم، و التفات آخر من الخطاب الى الغيبه فى المحكى من قول إبراهيم: قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، و لم يقل: قال أسلمت لك اما الاول، فالنكته فيه: الإشاره الى أنه كان سرا استسر به ربه اذ أسره إليه فيما خلى به معه فإن للسامع المخاطب اتصالا بالمتكلم فاذا غاب المتكلم عن صفه حضوره انقطع المخاطب عن مقامه و كان بينه و بين ما للمتكلم من الشأن و القصة ستر مضروب، فأفاد: أن القصة من مسامرات الانس و خصائص الخلوه.

و اما الثانى: فلأن قوله تعالى: إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ، يفيد معنى الاختصاص باللطف و الاسترسال فى المساره لكن أدب الحضور كان يقتضى من إبراهيم و هو عبد عليه طابع الذله و التواضع أن لا- يسترسل، و لا- يعد نفسه مختصا بكرامه القرب متشرفا بحظيره الانس، بل يراها واحدا من العبيد الأذلاء المربوبين، فيسلم لرب يستكين اليه جميع العالمين فيقول: أسلمت لرب العالمين.

و الإسلام و التسليم و الاستسلام بمعنى واحد، من السلم، و أحد الشئئين اذا كان بالنسبه الى الآخر بحال لا يعصيه و لا يدفعه فقد أسلم و سلم و استسلم له، قال تعالى: بَلِّغْ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ (البقره ١١٢)، و قال تعالى: وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ حَنِيفًا (الأنعام ٧٩)، و وجه الشىء ما يواجهك به، و هو بالنسبه إليه تعالى تمام

وجود الشيء، وإسلام الإنسان له تعالى هو وصف الانقياد والقبول منه لما يرد عليه من الله سبحانه من حكم تكويني، من قدر وقضاء، أو تشريعي من أمر أو نهى أو غير ذلك، ومن هنا كان له مراتب بحسب الواردات بمراتبها (١).

قوله تعالى: **وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ**، الصلاح، هو اللياقة بوجه ربما نسب في كلامه إلى عمل الإنسان وربما نسب إلى نفسه وذاته، قال تعالى: **فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا** (الكهف ١١٠)، وقال تعالى: **وَ أَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَ إِمَائِكُمْ** (النور ٣٢).

و صلاح العمل وإن لم يرد به تفسير بين من كلامه تعالى غير أنه نسب إليه من الآثار ما يتضح به معناه.

فمنها: أنه صالح لوجه الله، قال تعالى: **صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ** (الرعد ٢٢)، وقال تعالى: **وَ مَا تَنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ** (البقره ٢٧٢).

ومن هنا: أنه يرفع الكلم الطيب الصاعد إلى الله سبحانه قال تعالى: **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** (فاطر ١٠)، فيستفاد من هذه الآثار المنسوبة إليه: أن صلاح العمل معنى تهيئه ولياقته لأن يلبس لباس الكرامة ويكون عوناً وممداً لصعود الكلام الطيب إليه تعالى، قال تعالى: **وَ لَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ** (الحج ٣٧)، وقال تعالى:

كُلًّا نُمِدُّ هُوَلاءِ وَ هُوَلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ، وَ مَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (الإسراء ٢٠)، فعطاؤه بمنزله الصورة، و صلاح العمل بمنزله المادة (٢).

قوله تعالى: **وَ وَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَيْنَهُ، أَى وَصَى بِالْمَلَه.**

ص: ١٥٠

١- ١). البقره ١٣٠-١٣٤: بحث حول مراتب الاسلام.

٢- ٢) البقره ١٣٠-١٣٤: بحث في صلاح النفس والذات.

قوله تعالى: فَلَا تَمُوتُنَّ، النهى عن الموت و هو أمر غير اختياري للانسان، و التكليف إنما يتعلق بأمر اختياري انما هو لرجوعه الى أمر يتعلق بالاختيار، و التقدير احذروا أن يغتالكم الموت فى غير حال الإسلام، أى داوموا و أزموا الإسلام لثلا يقع موتكم إلا فى هذا الحال، و فى الآيه إشاره الى أن الدين هو الإسلام كما قال تعالى: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ (آل عمران ١٩).

قوله تعالى: وَ إِلَهَ آبَائِكُمْ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ، فى الكلام إطلاق لفظ الأب على الجدّ و العمّ و الوالد من غير مصحح للتغليب، و حجه فيما سياتى إنشاء الله تعالى فى خطاب إبراهيم لأزر بالأب.

قوله تعالى: إِلَهًا وَاحِدًا، فى هذا الإيجاز بعد الإطناب بقوله: إِلَهَكَ وَ إِلَهَ آبَائِكَ، الخ؛ دفع لإمكان إبهام اللفظ أن يكون إلهه غير إله آبائه على نحو ما يتخذة الوثنيون من الآلهه الكثيره.

قوله تعالى: وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ، بيان للعباده و أنها ليست عباده كيفما اتفقت بل عباده على نهج الإسلام و فى الكلام جمله أن دين إبراهيم هو الإسلام و الموروث منه فى بنى إبراهيم كإسحاق و يعقوب و إسماعيل، و فى بنى إسرائيل، و فى بنى إسماعيل من آل إبراهيم جميعا هو الإسلام لا غير، و هو الذى أتى به إبراهيم من ربه فلا حجه لأحد فى تركه و الدعوه الى غيره (١).

[سوره البقره (٢): الآيات ١٣٥ الى ١٤١]

إشارة

وَ قَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْنَا إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطَ وَ مَا أُوتِيَ مُوسَى وَ عِيسَى وَ مَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صَبَّغَهُ اللَّهُ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صَبْغَةً وَ نَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَ هُوَ رَبُّنَا وَ رَبُّكُمْ وَ لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١)

ص: ١٥١

قوله تعالى: وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَاراً تَهْتَدُوا، لما بين تعالى أن الدين الحق الذى كان عليه أولاد إبراهيم من إسماعيل و إسحاق و يعقوب و أولاده كان هو الإسلام الذى كان عليه إبراهيم حنيفاً، استنتج من ذلك أن الاختلافات و الانشعابات التى يدعو إليها فرق المنتحلين من اليهود و النصارى، أمور اخترعتها هوساتهم، و لعبت بها أيديهم لكونهم

فى شقاق،فتقطعوا بذلك طوائف و أحزابا دينيه،و صبغوا دين الله سبحانه-و هو دين التوحيد و دين الوحده،بصبغه الأهواء و الأغراض و المطامع،مع أن الدين واحد كما أن الإله المعبود بالدين واحد و هو دين إبراهيم،و به فليتمسك المسلمون و ليركوا شقاق أهل الكتاب.

فإن من طبيعه هذه الحياه الأرضيه الدنيويه التغير و التحول فى عين الجرى و الاستمرار كنفس الطبيعه التى هى كالماده لها و يوجب ذلك أن تتغير الرسوم و الآداب و الشعائر القوميه بين طوائف الملل و شعباتها،و ربما يوجب ذلك تغييرا و انحرافا فى المراسم الدينيه،و ربما يوجب دخول ما ليس من الدين فى الدين،أو خروج ما هو منه و الأغراض و الغايات الدنيويه ربما تحل محل الأغراض الدينيه الإلهيه(و هى بليه الدين)،و عند ذلك ينصبغ الدين بصبغه القوميه فيدعو الى هدف دون هدفه الأصيلى و يؤدب الناس غير أدبه الحقيقى،فلا يلبث حتى يعود المنكر(و هو ما ليس من الدين)معروفا يتعصب له الناس لموافقته هوساتهم و شهواتهم و المعروف منكرا ليس له حام يحميه و لا واق يقيه و يثول الأمر الى ما نشاهده اليوم من...

و بالجمله فقولته تعالى: **وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى**، إجمال تفصيل معناه و قالت اليهود كونوا هودا تهتدوا،و قالت النصارى كونوا نصارى تهتدوا،كل ذلك لتشعبهم و شقاقهم.

قوله تعالى: **قُلْ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَاءْنَا بِبُرْهَانٍ بَيِّنٍ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ إِلَّا لِأَن نُّبَيِّنَ لِلنَّاسِ حُدُودَ مَا هُمْ فِيهَا مُشْرِكُونَ**، جواب عن قولهم أى قل،بل نتبع مله إبراهيم حنيفا فإنها الملّه الواحده التى كان عليها جميع أنبيائكم،إبراهيم،فمن دونه،و ما كان صاحب هذه الملّه و هو إبراهيم من المشركين و لو كان فى ملته هذه الانشعابات،و هى الضمائم التى ضمها إليها المبتدعون،من الاختلافات لكان مشركا بذلك،فإن ما ليس من دين الله لا يدعو الى الله سبحانه،بل الى غيره و هو الشرك،

فهذا دين التوحيد الذى لا يشتمل على ما ليس من عند الله تعالى.

قوله تعالى: قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا، لما حكى ما يأمره به اليهود والنصارى من اتباع مذهبهم، ذكر ما هو عنده من الحق (و الحق يقول) وهو الشهادة على الإيمان بالله، والإيمان بما عند الأنبياء، من غير فرق بينهم، وهو الإسلام و خص الإيمان بالله بالذكر وقدمه و أخرجه من بين ما انزل على الأنبياء لأن الإيمان بالله فطرى، لا يحتاج الى بينه النبوه، و دليل الرساله.

ثم ذكر سبحانه ما انزل إلينا وهو القرآن أن المعارف القرآنيه و ما انزل الى إبراهيم و اسماعيل و إسحاق و يعقوب، ثم ذكر ما أوتى موسى و عيسى و خصهما بالذكر لأن المخاطبه مع اليهود والنصارى و هم يدعون إليهما فقط ثم ذكر ما أوتى النبيون من ربهم، ليشمل الشهاده جميع الأنبياء فيستقيم قوله بعد ذلك: لا نفرق بين أحد منهم.

و اختلاف التعبير فى الكلام، حيث عبر عما عندنا و عند إبراهيم و إسحاق و يعقوب بالإنزال و عما عند موسى و عيسى و النبيين بالإيتاء و هو الإعطاء، لعل الوجه فيه أن الأصل فى التعبير هو الإيتاء، كما قال تعالى بعد ذكر إبراهيم، و من بعده، و من قبله من الأنبياء فى سورة الأنعام: أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحُكْمَ وَ النَّبُوَّةَ (الأنعام ٨٩)، لكن لفظ الإيتاء ليس بصريح فى الوحي و الإنزال كما قال تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ (لقمان ١٢)، و قال: وَ لَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَ الْحُكْمَ وَ النَّبُوَّةَ (الجاثية ١٦)، و لما كان كل من اليهود و النصارى يعدون إبراهيم و اسماعيل و إسحاق و يعقوب و الأسباط من أهل ملتهم، فاليهود من اليهود، و النصارى من النصارى، و اعتقادهم أن المله الحق من النصرانية، أو اليهوديه، هى ما أوتيه موسى و عيسى، فلو كان قيل: و ما أوتى إبراهيم و اسماعيل لم يكن بصريح فى كونهم بأشخاصهم صاحب مله بالوحي و الانزال و احتمال أن يكون ما أوتوه، هو الذى أوتيه موسى و عيسى عليهما السلام نسب إليهم بحكم التبعية كما نسب

إيتائه الى بنى إسرائيل، فلذلك خص إبراهيم و من عطف عليه باستعمال لفظ الإنزال، و أما النبيون قبل إبراهيم فليس لهم فيهم كلام حتى يوهم قوله: وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ شَيْئًا يَجِبُ دَفْعُهُ.

قوله تعالى: وَالْأَسْبَاطُ، الأسباط في بنى إسرائيل كالبائل في بنى إسماعيل و السبط كالقبيله الجماعه يجتمعون على أب واحد، و قد كانوا اثنتى عشره أسباطا أمما و كل واحده منهم تنتهى الى واحد من أولاد يعقوب و كانوا اثنتى عشر، فخلف كل واحد منهم أمه من الناس.

فإن كان المراد بالأسباط الامم و الأقوام فنسبه الإنزال إليهم لاشتمالهم على أنبياء من سبطهم، و إن كان المراد بالأسباط الأشخاص كانوا أنبياء أنزل اليهم الوحي و ليسوا بأخوه يوسف لعدم كونهم أنبياء، و نظير الآية قوله تعالى: وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطِ وَ عِيسَىٰ (النساء ١٦٣).

قوله تعالى: فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا، الإتيان بلفظ المثل مع كون أصل المعنى، فإن آمنوا بما آمنتم به، لقطع عرق الخصام و الجدل، فإنه لو قيل لهم أن آمنوا بما آمننا به أمكن أن يقولوا كما قالوا، بل تؤمن بما أنزل علينا و نكفر بما ورائه، لكن لو قيل لهم، إنا آمننا بما لا يشتمل إلا على الحق فآمنوا انتم بما يشتمل على الحق مثله، لم يجدوا طريقا للمراء و المكابره، فإن الذى بيدهم لا يشتمل على صفوه الحق.

قوله تعالى: فِي شِقَاقٍ، الشقاق النفاق و المنازعه و المشاجره و الافتراق.

قوله تعالى: فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ، و وعد لرسول الله بالنصره عليهم، و قد أنجز وعده و سيتم هذه النعمه للامه الإسلاميه اذا شاء، و اعلم: ان الآية معترضه بين الآيتين السابقيه و اللاحقه.

قوله تعالى: صِبْغَةَ اللَّهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً، الصبغه بناء نوع من

الصيغ أى هذا الإيمان المذكور صبغه إلهيه لنا، وهى أحسن الصيغ لا صبغه اليهوديه و النصرانيه بالتفرق فى الدين، و عدم إقامته.

قوله تعالى: وَ نَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ، فى موضع الحال، و هو كبيان العله لقوله: صِبْغَةَ اللَّهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ .

قوله تعالى: قُلْ أَتَحَابُّونَنَا فِي اللَّهِ، إنكار، لمحاجه أهل الكتاب، المسلمين فى الله سبحانه و قد بين وجه الإنكار، و كون محاجتهم لغوا و باطلا، بقوله و هو ربنا و ربكم و لنا أعمالنا و لكم أعمالكم و نحن له مخلصون، و بيانه: أن محاجه كل تابعين فى متبوعهما و مخصصتهما فيه انما تكون لأحد أمور ثلاثه: اما لاختصاص كل من التابعيه بمتبوع دون متبوع الآخر، فيريدان بالحاجه كل تفضيل متبوعه و ربه على الآخر، كالمحاجه بين وثنى و مسلم، و اما لكون كل واحد منهما أو احدهما يريد الاختصاص به، و ابطال نسبه رفيقه، او قربه او ما يشبه ذلك، بعد كون المتبوع واحدا، و اما لكون أحدهما ذا خصائص و خصال لا ينبغى أن ينتسب الى هذا المتبوع و فعاله ذاك الفعال، و خصال تلك الخصال لكونه موجبا، لهتكه او سقوطه او غير ذلك، فهذه علل المحاجه و المخاصمه بين كل تابعين، و المسلمون و أهل الكتاب انما يعبدون إليها واحدا، و أعمال كل من الطائفتين لا تزاحم الاخرى شيئا و المسلمون مخلصون فى دينهم لله، فلا سبب يمكن أن يتشبث به أهل الكتاب فى محاجتهم، و لذلك أنكر عليهم محاجتهم أولا ثم نفى واحدا واحدا من اسبابها الثلاثه، ثانيا.

قوله تعالى: أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ إِلَى قَوْلِهِ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى، و هو قول كل من الفريقين، ان ابراهيم و من ذكر بعده منهم، و لازم ذلك كونهم هودا أو نصارى أو قولهم صرّحوا انهم كانوا هودا أو نصارى، كما يفيد ظاهر قوله تعالى: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ التَّوْرَةِ وَ الْإِنْجِيلِ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (آل عمران ٦٥).

قوله تعالى: قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ، فإن الله اخبرنا و اخبركم فى الكتاب أن

موسى و عيسى و كتابيهما بعد ابراهيم و من ذكر معه.

قوله تعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ، أى كتم ما تحمل شهاده أن الله أخبر بكون تشريع اليهوديه أو النصرانيه بعد ابراهيم و من ذكر معه، فالشهاده المذكوره فى الآيه، شهاده تحمل، أو المعنى كتم شهاده الله على كون هؤلاء قبل التوراه و الانجيل، فالشهاده شهاده أداء، المتعين هو المعنى الأول.

قوله تعالى: تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ، أى ان الغور فى الأشخاص و أنهم ممن كانوا لا ينفع حالكم، و لا يضركم السكوت عن المحاجه و المجادله فيهم، و الواجب عليكم الاشتغال بما تسألون غدا عنه، و تكرار الآيه مرتين لكونهم يفرطون فى هذه المحاجه التى لا تنفع لحالهم شيئاً، و خصوصاً مع علمهم بأن ابراهيم كان قبل اليهوديه و النصرانيه، و إلا فالبحث عن حال الأنبياء، و الرسل بما ينفع البحث فيه كمزايا رسالاتهم و فضائل نفوسهم الشريفه مما ندب الى القرآن حيث يقص قصصهم و يأمر بالتدبر فيها.

[سوره البقره (٢): الآيات ١٤٢ الى ١٥١]

اشاره

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ وَ إِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ (١٤٣) قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ حَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَ إِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) وَ لَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبَلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَ لَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَ إِنْ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧) وَ لِكُلِّ وُجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيهِمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ إِنْهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ حَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَ اِخْشَوْنِي وَ لَأْتِيَنَّكُمْ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠) كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَ يُزَكِّيْكُمْ وَ يُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُعَلِّمُكُمُ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١)

قوله تعالى: سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا، هذا تمهيد ثانيا لما سيأمر تعالى به من اتخاذ الكعبة قبله و تعليم للجواب عما سيعترض به السفهاء من الناس و هم اليهود تعصبا لقبلتهم التي هي بيت المقدس و مشركوا العرب الراصدون لكل امر جديد يحتمل الجدل و الخصام، و قد مهد لذلك اولا بما ذكره الله تعالى من قصص ابراهيم و انواع كرامته على الله سبحانه و كرامه ابنه اسماعيل و دعوتهما للكعبة و مكة و للنبي و الأمة المسلمه و بنائهما البيت و الامر بتطهيره للعباده، و من المعلوم ان تحويل القبلة من بيت المقدس الى الكعبة من اعظم الحوادث الدينيه و اهم التشريعات التي قوبل به الناس بعد هجره النبي الى المدينه و أخذ الاسلام في تحقيق اصوله و نشر معارفه و بث حقائقه، فما كانت اليهود و غيرهم تسكت و تستريح في مقابل هذا التشريع، لانهم كانوا يرون انه يبطل واحدا من اعظم مفاخرهم الدينيه و هو القبلة و اتباع غيرهم لهم فيها و تقدمهم على من دونهم في هذا الشعار الدينى، على ان ذلك تقدم باهر في دين المسلمين، لجمعه و جوههم في عباداتهم و مناسكهم الدينيه الى نقطه واحده يخلصهم من تفرق الوجوه فى الظاهر و شتات الكلمه فى الباطن و استقبال الكعبة اشد تأثيرا و اقوى من امثال الطهاره و الدعاء و غيرهما فى نفوس المسلمين، عند اليهود و مشركى العرب و خاصه عند اليهود كما يشهد به قصصهم المقتصه فى القرآن، فقد كانوا امه لا يرون لغير المحسوس من عالم الطبيعه أصاله و لا لغير الحس وقعا، اذا جاءهم حكم من احكام الله معنوى قبلوه من غير تكلم عليه و اذا جاءهم امر من ربهم صورى متعلق بالمحسوس من الطبيعه كالقتال و الهجره و السجده و خضوع القول و غيرها قابله

بالانكار و قاوموا عليه و دونه أشد المقاومه.

و بالجملة فقد أخبر الله سبحانه عما سيعترضون به على تحويل القبلة و علم رسوله ما ينبغي أن يجابوا و يقطع به قولهم.

قوله تعالى: سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ، أراد بهم اليهود و المشركين من العرب و لذلك عبر عنهم بالناس و إنما سفههم لعدم استقامه فطرتهم و ثقب رأيتهم في أمر التشريع، و السفاهه عدم استقامه العقل و تزلزل الرأي.

قوله تعالى: مَّا وَلَا لَهُمْ، توليه الشيء أو المكان جعله قدام الوجه و أمامه كالاستقبال، قال تعالى فلنولينك قبله ترضيها، الآية، و التولية عن الشيء صرف الوجه عنه كالاستدبار و نحوه، و المعنى ما الذي صرفهم أو صرف وجههم عن القبلة التي كانوا عليها و هو بيت المقدس الذي كان يصلى إليه النبي و المسلمون أيام إقامته بمكة و عده شهور بعد هجرته إلى المدينة و إنما نسبوا القبلة إلى المسلمين مع أن اليهود أقدم في الصلاة إليها ليكون أوقع في إيجاد التعجب و أوجب للاعتراض، و إنما قيل ما وليهم عن قبلتهم و لم يقل ما ولي النبي و المسلمين لما ذكرنا من الوجه، فلو قيل ما ولي النبي و المسلمين عن قبله اليهود لم يكن التعجب واقعا موقعه و كان الجواب عنه ظاهرا لكل سامع بأدنى تنبيه.

قوله تعالى: قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ، اقتصر من بين الجهات بهاتين لكونهما هما المعنيتين لسائر الجهات الأصلية و الفرعية كالشمال و الجنوب و ما بين كل جهتين من الجهات الأربعة الأصلية، و المشرق و المغرب جهتان إضافيتان تتعنان بشروق الشمس أو النجوم و غروبهما، يعمان جميع نقاط الأرض غير نقطتين موهومتين هما نقطتا الشمال و الجنوب الحقيقيتان، و لعل هذا هو الوجه في وضع المشرق و المغرب موضع الجهات.

قوله تعالى: يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، تنكير الصراط لأن الصراط يختلف باختلاف الامم في استعداداتها للهداية إلى الكمال و السعادة.

قوله تعالى: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسِيًّا لْتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا، الظاهر أن المراد كما سنحول القبلة لكم لنهدينكم إلى صراط مستقيم كذلك جعلناكم أمه وسطا، وقيل إن المعنى و مثل هذا الجعل العجيب جعلناكم أمه وسطا (و هو كما ترى)، و أما المراد بكونهم أمه وسطا شهداء على الناس فالوسط هو المتخلل بين الطرفين لا إلى هذا الطرف ولا إلى ذاك الطرف، وهذه الامه بالنسبه إلى الناس -و هم أهل الكتاب و المشركون- على هذا الوصف فإن بعضهم -و هم المشركون و الوثنيون- إلى تقويه جانب الجسم محضا لا يريدون إلا الحياه الدنيا و الاستكمال بملاذها و زخارفها و زينتها، لا يرجون بعثا و لا نشورا، و لا يعثون بشيء من الفضائل المعنويه و الروحيه، و بعضهم كالتصارى إلى تقويه جانب الروح لا يدعون إلا إلى الرهبانيه و رفض الكمالات الجسميه التى أظهرها الله تعالى فى مظاهر هذه النشأه الماديه لتكون ذريعه كامله إلى نيل ما خلق لأجله الإنسان، فهؤلاء أصحاب الروح أبطلوا النتيجة بإبطال سببها و أولئك أصحاب الجسم أبطلوا النتيجة بالوقوف على سببها و الجمود عليها، لكن الله سبحانه جعل هذه الامه وسطا بأن جعل لهم دينا يهدى منتحليه إلى سواء الطريق وسط الطرفين لا إلى هؤلاء و لا إلى هؤلاء بل يقوى كلا من الجانبين -جانب الجسم و جانب الروح- على ما يليق به و يندب إلى جمع الفضيلتين فإن الإنسان مجموع الروح و الجسم لا -روح محضا و لا- جسم محضا، و محتاج فى حياته السعيده إلى جمع كلا الكمالين و السعادتين الماديه و المعنويه، فهذه الامه هى الوسط العدل الذى به يقاس و يوزن كل من طرفى الإفراط و التفريط فهى الشهيده على سائر الناس الواقعه فى الأطراف و النبى صلى الله عليه و آله و سلم و هو المثال الأكمل من هذه الامه -هو شهيد على نفس الأمه فهو صلى الله عليه و آله و سلم ميزان يوزن به حال الآحاد من الأمه، و الأمه ميزان يوزن به حال الناس و مرجع يرجع إليه طرفا الإفراط و التفريط، هذا ما قرره بعض المفسرين فى معنى الآية، و هو فى نفسه معنى صحيح لا يخلو عن دقه إلا أنه غير منطبق على لفظ الآية فإن كون الامه وسطا إنما

يصحح كونها مرجعا يرجع إليه الطرفان، و ميزانا يوزن به الجانبان لا كونها شاهده تشهد على الطرفين، أو يشاهد الطرفين، فلا تناسب بين الوسطية بذاك المعنى و الشهاده و هو ظاهر، على أنه لا وجه حينئذ للتعرض بكون رسول الله شهيدا على الامه إذ لا يترتب شهادة الرسول على الامه على جعل الامه وسطا، كما يترتب الغايه على المغيبي و الغرض على ذيه.

على أن هذه الشهاده المذكوره فى الآيه، حقيقه من الحقائق القرآنيه تكرر ذكرها فى كلامه سبحانه، و اللائح من موارد ذكرها معنى غير هذا المعنى، قال تعالى: فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (النساء ٤١)، و قال تعالى: وَ يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ لَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (النحل ٨٤) و قال تعالى وَ وُضِعَ الْكِتَابُ وَ جِئَءَ بِالْبَشِيرِ وَ الشُّهَدَاءِ (الزمر ٦٩)، و الشهاده فيها مطلقه، و ظاهر الجميع على اطلاقها هو الشهاده على اعمال الامم، و على تبليغ الرسل أيضا، كما يومى إليه قوله تعالى:

فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (الأعراف ٦)، و هذه الشهاده و إن كانت فى الآخره يوم القيمه لكن تحملها فى الدنيا على ما يعطيه قوله تعالى -حكاية عن عيسى عليه السلام-: وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِّمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (المائدة ١١٧) و قوله تعالى: وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (النساء ١٥٩)، و من الواضح أن هذه الحواس العاديه التى فىنا، و القوى المتعلقة بها منا لا- تتحمل إلا صور الأفعال و الأعمال فقط، و ذلك التحمل أيضا إنما يكون فى شىء يكون موجودا حاضرا عند الحس لا معدوما و لا غائبا عنه و أما حقائق الأعمال و المعانى النفسانيه من الكفر و الإيمان و الفوز و الخسران، و بالجمله كل خفى عن الحس و مستبطن عند الإنسان -و هى التى تكسب القلوب، و على يدور حساب رب العالمين يوم تبلى السرائر كما قال تعالى:

وَ لَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ (البقره ٢٢٥)، فهى مما ليس فى وسع الإنسان

إحصائها و الإحاطه بها و تشخيصها من الحاضرين فضلا عن الغائبين إلا رجلاً يتولى الله أمره و يكشف ذلك له بيده، و يمكن أن يستفاد ذلك من قوله تعالى: **وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ** (الزخرف ٨٦)، فإن عيسى داخل في المستثنى في هذه الآية قطعاً- و قد شهد الله تعالى في حقه بأنه من الشهداء- كما مر في الآيتين السابقتين، فهو شهيد بالحق و عالم بالحقيقه.

و الحاصل أن هذه الشهاده ليست هي كون الامه على دين جامع للكمال الجسماني و الروحاني فإن ذلك على أنه ليس معنى الشهاده خلاف ظاهر الآيات الشريفه.

بل هي تحمل حقائق أعمال الناس في الدنيا من سعادته أو شقاءه، و رد و قبول، و انقياد و تمرد، و أداء ذلك في الآخره يوم يستشهد الله من كل شيء، حتى من أعضاء الإنسان، يوم يقول الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا.

و من المعلوم أن هذه الكرامه ليست تنالها جميع الامه، إذ ليست إلا- كرامه خاصه للأولياء الطاهرين منهم، و أما من دونهم من المتوسطين في السعاده، و العدول من أهل الإيمان فليس لهم ذلك، فضلا عن الأجلاف الجافيه، و الفراعنه الطاغيه من الامه، و ستعرف في قوله تعالى:

وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصُّدِّيقِينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (النساء ٦٩)، ان أقل ما يتصف به الشهداء- و هم شهداء الأعمال- أنهم تحت ولايه الله و نعمته و أصحاب الصراط المستقيم، و قد مر إجمالاً في قوله تعالى: **صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ** (فاتحه الكتاب ٧).

فالمراد بكون الامه شهيده أن هذه الشهاده فيهم، كما أن المراد بكون بنى إسرائيل فضلوا على العالمين، أن هذه الفضيله فيهم من غير أن يتصف به كل واحد منهم، بل نسب وصف البعض إلى الكل لكون البعث فيه و منه، فكون الامه شهيده هو أن فيهم من يشهد على الناس

و يشهد الرسول عليهم (١).

قوله تعالى: **وَ مَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ**، المراد بقوله لنعلم: اما علم الرسل و الانبياء مثلا، لان العظماء يتكلمون عنهم و عن اتباعهم، كقول الأمير، قتلنا فلانا و سجننا فلانا، و إنما قتله و سجنه اتباعه لأنفسه، و اما العلم العيني الفعلي منه تعالى الحاصل مع الخلقه و الایجاد، دون العلم قبل الایجاد.

و الانقلاب على العقبين كناية عن الاعراض، فان الانسان - هو منتصب على عقبيه - اذا انقلب من جهه الى جهه، انقلب على عقبيه، فجعل كناية عن الاعراض نظير قوله: **وَ مَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ (الأنفال ١٦)**، و ظاهر الآيه انه دفع لما يختلج في صدور المؤمنين: من تغيير القبلة و نسخها، و من جهه الصلوات التي صلوا الى القبلة، ما شأنها؟

و يظهر من ذلك ان المراد بالقبلة التي كان رسول الله عليها، هو بيت المقدس الكعبه، فلا - دليل على جعل بيت المقدس قبله مرتين، و جعل الكعبه قبله مرتين، اذ لو كان المراد من القبلة في الآيه الكعبه كان لازم ذلك ما ذكر.

و بالجملة كان من المترقب ان يختلج في صدور المؤمنين: أولا، انه لما كان من المقدر ان يستقر القبلة بالآخره على الكعبه فما هو السبب، أولا: في جعل بيت المقدس قبله؟ فبين سبحانه ان هذه الاحكام و التشريعات ليست إلا لأجل مصالح تعود الى تربيته الناس و تكميلهم، و تمحيص المؤمنين من غيرهم، و تمييز المطيعين من العاصين، و المنقادين من المتمردين، و السبب الداعي الى جعل القبلة السابقه في حقهم أيضا هذا السبب بعينه، فالمراد بقوله الا - لنعلم من يتبع الرسول، الا لتمييز من يتبعك، و العدول من لفظ الخطاب الى

ص: ١٦٤

(١ - ١). البقره ١٤٢-١٥٢: بحث من الاشكالات و الرد عليها حول الشهاده على الاعمال (لتكونوا شهداء على الناس) الامه الوسط.

الغيبه لدخاله صفه الرساله فى هذا التميز، و المراد بجعل القبله السابقه: جعلها فى حق المسلمين، و ان كان المراد أصل جعل بيت المقدس قبله فالمراد مطلق الرسول، و الكلام على رسله من غير التفات، غير انه بعيد من الكلام بعض البعد.

و ثانيا: ان الصلوات التى كان المسلمون صلواها الى بيت المقدس كيف حالها، و قد صليت الى غير القبله؟ و الجواب: ان القبله قبله ما لم تنسخ، و ان الله سبحانه اذا نسخ حكما رفعه من حين النسخ، لا من أصله، لرأفته و رحمته بالمؤمنين، و هذا ما أشار اليه بقوله: **وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ، إِنَّ اللَّهَ بِالدَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ**. و الفرق بين الرأفه و الرحمه، و بعد اشتراكهما فى أصل المعنى، ان الرأفه يختص بالمبتلى المفتاق، و الرحمه أعم.

قوله تعالى: **قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا**، الآية تدل على ان رسول الله قبل نزول آيه القبله - و هى هذه الآية - كان يقلب وجهه فى آفاق السماء، و ان ذلك كان انتظارا منه، أو توقعا لنزول الوحي فى أمر القبله، لما كان يجب ان يكرمه الله تعالى بقبله تختص به، لا انه كان لا يرتضى بيت المقدس قبله، و حاشا رسول الله من ذلك، كما قال تعالى: **فلنولينك قبله ترضيها**، فان الرضا بشىء لا يوجب السخط بخلافه بل اليهود على ما فى الروايات الوارده فى شأن نزول الآية كانوا يعيرون المسلمين فى تبعيه قبلتهم، و يتفاخرون بذلك عليهم، فحزن رسول الله ذلك، فخرج فى سواد الليل يقلب وجهه الى السماء ينتظر الوحي من الله سبحانه، و كشف همه فنزلت الآية، و لو نزلت على البقاء بالقبلة السابقه لكانت حجه له صلى الله عليه و آله و سلم على اليهود، و ليس و لم يكن لرسول الله و لا للمسلمين عار فى استقبال قبلتهم، اذ ليس للعبد إلا الاطاعه و القبول، لكن نزلت قبله جديده، فقطع تعبيرهم و تفاخرهم، مضافا الى تعيين التكليف، فكانت حجه و رضى.

قوله تعالى: **قَوْلٌ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ حَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**، الشطر البعض، و شطر المسجد الحرام هو الكعبه، و فى قوله تعالى

شطر المسجد الحرام دون ان يقال: فول وجهك الكعبه، أو يقال: فول وجهك البيت الحرام، محاذاه للحكم فى القبلة السابقه، فانها كانت شطر المسجد الأقصى، وهى الصخره المعروفه هناك، فبدلت من شطر المسجد الحرام- وهى الكعبه- على ان اضافه الشطر الى المسجد، و توصيف المسجد بالحرام يعطى مزايا للحكم، تفوت لو قيل: الكعبه أو البيت الحرام.

و تخصيص رسول الله بالحكم أولا بقوله فول وجهك، ثم تعميم الحكم له و لغيره من المؤمنين بقوله و حيث ما كنتم يؤيد ان القبلة حولت، و رسول الله قائم يصلى فى المسجد -و المسلمون معه- فاختص الامر به، أولا فى شخص صلواته ثم عقب الحكم العام الشامل له و لغيره، و لجميع الأوقات و الأمكنه.

قوله تعالى: **وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ**، و ذلك لاشتمال كتابهم على صدق نبوه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، أو كون قبله هذا النبى الصادق هو شطر المسجد الحرام، و اياما كان فقوله: **أُوتُوا الْكِتَابَ**، يدل على اشتمال كتابهم على حقيه هذا التشريع، اما مطابقه أو تضمنا، و ما الله بغافل عما يعملون من كتمان الحق، و احتكار ما عندهم من العلم.

قوله تعالى: **وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ**، تقرير لهم بالعناد و اللجاج، و ان إباءهم عن القبول ليس لخفاء الحق عليهم، و عدم تبينه لهم، فانهم عالمون بأنه حق علما لا يخالطه شك، بل الباعث لهم على بث الاعتراض و إثارة الفتنة عنادهم فى الدين و جحودهم للحق، فلا- ينبغى لهم حجه، و لا- يقطع إنكارهم آيه، فلو أتيتهم بكل آيه ما تبعوا قبلك لعنادهم و جحودهم، و ما أنت بتابع قبليهم، لانك على بينه من ربك، و يمكن أن يكون قوله: **و ما أنت نهيا فى صوره خبر، و ما بعضهم بتابع قبله بعض، و هم اليهود يستقبلون صخره بيت المقدس أينما كانوا، و النصارى يستقبلون المشرق أينما كانوا، فلا هذا البعض يقبل قبله ذاك البعض، و لا ذاك يقبل قبله هذا اتباعا للهوى.**

قوله تعالى: **وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعِيدٍ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ**، تهديد للنبي، والمعنى متوجه الى امته، وإشاره الى انهم فى هذا التمرد إنما يتبعون أهوائهم و انهم بذلك ظالمون.

قوله تعالى: **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ** ، الضمير فى قوله يعرفونه، راجع الى رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم دون الكتاب، والدليل عليه تشبيه هذه المعرفة بمعرفة الابناء، فان ذلك إنما يحسن فى الانسان، ولا يقال فى الكتاب، ان فلانا يعرفه أو يعلمه، كما يعرف ابنه، على ان سياق الكلام- وهو فى رسول الله، و ما اوحى اليه من أمر القبله، اجنبى عن موضوع الكتاب الذى اوتيه أهل الكتاب، فالمعنى ان أهل الكتاب يعرفون رسول الله بما عندهم من بشارات الكتب كما يعرفون أبنائهم، و ان فريقا منهم ليكتمون الحق و هم يعلمون.

و على هذا ففى الكلام التفات من الحضور الى الغيبه فى قوله يعرفونه، فقد أخذ رسول الله غائباً، و وجه الخطاب الى المؤمنين بعد ما كان صَلَّى الله عليه و آله و سلم حاضراً، و الخطاب معه، و ذلك لتوضيح: ان امره صَلَّى الله عليه و آله و سلم واضح ظاهر عند أهل الكتاب، و مثل هذا النظم كمثل كلام من يكلم جماعه لكنه يخص واحدا منهم بالمخاطبه إظهاراً لفضله، فيخاطبه و يسمع غيره، فاذا بلغ الى ما يخص شخص المخاطب من الفضل و الكرامه، عدل عن خطابه الى مخاطبه الجماعه، ثم بعد الفراغ عن بيان فضله عدل ثانيا الى ما كان فيه أولاً من توجيه الخطاب إليه و بهذا يظهر نكته الالتفات.

قوله تعالى: **الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**، تأكيد للبيان السابق و تشديد فى النهى عن الامتراء، و هو الشك و الارتياب، و ظاهر الخطاب لرسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم و معناه للامه.

قوله تعالى: **وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيٌّ فَاسْتَبِقُوا الْحَيَاتِ**، الوجهه ما يتوجه

إليه كالمقبله، وهذا رجوع الى تلخيص البيان السابق، وبتعديل له من بيان آخر يهدى الناس الى ترك تعقيب أمر القبلة، والاكثار من الكلام فيه، والمعنى ان كل قوم فلهم قبله مشرعه على حسب ما يقتضيه مصالحهم و ليس حكما تكوينيا ذاتيا لا يقبل التغيير و التحويل، فلا يهتم لكم البحث و المشاجره فيه، فاتركوا ذلك و استبقوا الخيرات و سارعوا إليها بالاستباق، فان الله سيجمعكم الى يوم لا ريب فيه، و أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا ان الله على كل شيء قدير.

و اعلم ان الآيه كما انها قابله الانطباق على أمر القبلة لوقوعها بين آياتها كذلك تقبل الانطباق على أمر التكوين، و فيها اشاره الى القدر و القضاء، و جعل الاحكام و الآداب لتحقيقها و سيجيء تمام بيانه فيما يخص به من المقام إنشاء الله.

قوله تعالى: **وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** ، ذكر بعض المفسرين أن المعنى و من أى مكان خرجت، و فى أى بقعه حللت فولّ وجهك و ذكر بعضهم أن المعنى و من حيث خرجت من البلاد، و يمكن أن يكون المراد بقوله و من حيث خرجت؛ مكة، التى خرج رسول الله صلى الله عليه و آله و سلمّ منها كما قال تعالى: **مِنْ قَرْيَةٍ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ** (محمد ٣)، و يكون المعنى أن استقبال البيت حكم ثابت لك فى مكة و غيرها من البلاد و البقاع، و فى قوله و أنه للحق من ربك و ما الله بغافل عما تعملون تأكيد و تشديد.

قوله تعالى: **وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ حَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ** ، تكرار الجملة الاولى بلفظها لعله للدلالة على ثبوت حكمها على أى حال، فهو كقول القائل، اتق الله اذا قمت و اتق الله اذا قعدت، و اتق الله اذا نطقت، و اتق الله اذا سكت، يريد: التزم التقوى عند كل واحده من هذه الأحوال و لتكن معك، و لو قيل اتق الله اذا قمت و اذا قعدت و اذا نطقت و اذا سكت فانت هذه النكته، و المعنى استقبال شطر المسجد الحرام من التى خرجت منها و حيث ما كنتم من الأرض فولّوا

وجوهكم شطره.

قوله تعالى: لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاحْشَوْنِي، بيان لفوائد ثلاث في هذا الحكم الذي فيه أشد التأكيد على ملازمه الامتثال و التحذر عن الخلاف:

إحداها: أن اليهود كانوا يعلمون من كتبهم أن النبي الموعود تكون قبلته الكعبة دون بيت المقدس، كما قال تعالى: وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم، الآية، وفي ترك هذا الحكم الحجج لليهود على المسلمين بأن النبي ليس هو النبي الموعود لكن التزام هذا الحكم والعمل به يقطع حججهم إلا الذين ظلموا منهم، وهو استثناء منقطع، أي لكن الذين ظلموا منهم باتباع الأهواء لا ينقطعون بذلك فلا تخشوهم لأنهم ظالمون باتباع الأهواء، والله لا يهدى القوم الظالمين و احشونى.

و ثانيها: أن ملازمه هذا الحكم يسوق المسلمين الى تمام النعمة عليهم بكمال دينهم، و سنبين معنى تمام النعمة فى الكلام على قوله تعالى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي (المائدة/٤).

و ثالثها: رجاء الاهتداء الى الصراط المستقيم، و قد مر معنى الاهتداء فى الكلام على معنى قوله تعالى: إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (فاتحه الكتاب/٦) (١)(٢).

قوله تعالى: كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ، ظاهر الآية أن الكاف للتشبيه و ما مصدرية، فالمعنى: أنعمنا عليكم بأن جعلنا لكم البيت الذى بناه إبراهيم، و دعا له بما دعا من الخيرات و البركات قبله. كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا و يعلمكم الكتاب

ص: ١٦٩

١- ١). البقره ١٤٢-١٥١: بحث حول «تمام النعمة».

٢- ٢). البقره ١٤٢-١٥١: بحث روائى حول تغيير القبلة من بيت المقدس الى مكه؛ الآية «لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا»؛ الامة الاسلاميه؛ القول و العمل و الايمان.

و الحكمة و يزكيكم مستجيبين لدعوه إبراهيم، اذ قال هو و ابنه إسماعيل ربنا و ابعث فيهم رسولا- منهم يتلو عليهم آياتك و يعلمهم الكتاب و الحكمة و يزكيهم، و فيهم امتنان عليهم بالإرسال كالامتنان يجعل الكعبه قبله، و من هنا يظهر أن المخاطب بقوله فيكم رسولا- منكم، هو الأمه المسلمه، و هو أولياء الدين من الامه خاصه بحسب الحقيقه، و المسلمون جميعا من آل إسماعيل - و هم عرب مضر- بحسب الظاهر، و جميع العرب بل جميع المسلمين بحسب الحكم.

قوله تعالى: **يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا**، ظاهره آيات القرآن لمكان قوله يتلو، فإن العنايه فى التلاوه الى اللفظ دون المعنى، و التركيزه هى التطهير، و هو إزالة الأدناس و القذرات، فيشمل إزالة الاعتقادات الفاسده كالشرك و الكفر، و إزالة الملكات الرذيله من الأخلاق كالكبر و الشح، و إزالة الأعمال و الأفعال الشنيعه كالقتل و الزنا و شرب الخمر و تعليم الكتاب و الحكمة، و تعليم ما لم يكونوا يعلمونه يشمل جميع المعارف الأصلية و الفرعية (١)(٢).

[سوره البقره (٢): آيه ١٥٢]

اشاره

فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَ أَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢)

بيان:

لما امتن الله تعالى على النبي و المسلمين، بإرسال النبي الكريم منهم إليهم نعمه لا تقدر بقدر

ص: ١٧٠

١- ١). البقره ١٤٢-١٥١: بحث علمي حول القبله؛ الجداول الموضوعه فى الزيجات لبيان عرض البلاد و طولها؛ الاشتباه المتقدمين فى تشخيص الطول و العرض كرامه باهره للنبي صلى الله عليه و آله و سلم فى محرابه المحفوظ فى مسجد بالمدينه؛ استخراج قبله بقاع الارض.

٢- ٢). البقره ١٤٢-١٥١: بحث اجتماعي فى الطبيعه الانسانيه و دورها فى تشكيل المجتمع الانساني؛ التوجه العبادي الى الله سبحانه؛ آثار استقبال القبله بالنظر الى الفرد و الى المجتمع.

و منحه على منحه-و هو ذكر منه لهم-اذ لم ينسهم فى هدايتهم الى مستقيم الصراط،و سوقهم الى أقصى الكمال،و زياده على ذلك،و هو جعل القبله،الذى فيه كمال دينهم،و توحيد عبادتهم،و تقويم فضيلتهم الدينيه و الاجتماعيه فرع على ذلك دعوتهم الى ذكره و شكره، ليذكرهم بنعمته على ذكرهم إياه بعبوديته و طاعته،و يزيدهم على شكرهم لنعمته و عدم كفرانهم،و قد قال تعالى: **وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا** (الكهف ٢٤). و قال تعالى: **لِيُنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ** (إبراهيم ٧)،و الآيتان جميعا نازلتان قبل آيات القبله من سوره البقره.

ثم إن الذكر ربما قابل الغفله كقوله تعالى: **وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا** (الكهف ٢٨). و هى انتفاء العلم بالعلم،مع وجود أصل العلم،فالذكر خلافه،و هو العلم بالعلم،و ربما قابل النسيان و هو زوال صورته العلم عن خزانة الذهن،فالذكر خلافه،و منه قوله تعالى: **وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ الْآيَةَ**؛و هو حينئذ كالنسيان معنى ذو آثار و خواص تتفرع عليه،و لذلك ربما أطلق الذكر كالنسيان فى موارد تتحقق فى آثارهما و إن لم تتحقق أنفسهما،فإنك اذا لم تنصر صديقك-و أنت تعلم حاجته الى نصرك فقد نسيت،و الحال أنك تذكره،و كذلك الذكر.

و الظاهر أن إطلاق الذكر على اللفظى من هذا القبيل،فإن التكلم عن الشىء من آثار ذكره قلبا،قال تعالى: **قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا** (الكهف ٨٣).و نظائره كثيره،و لو كان الذكر اللفظى أيضا ذكرا حقيقه فهو من مراتب الذكر،لأنه مقصور عليه و منحصر فيه،و بالجمله:الذكر له مراتب كما قال تعالى: **أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ** (الرعد ٢٨)،و قال: **وَ اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَ خِيفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ** (الأعراف ٢٠٥)،و قال تعالى: **فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا** (البقره ٢٠٠)،فالشده إنما يتصف به المعنى دون اللفظ،و قال تعالى: **وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ**

عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (الكهف ٢٤/١)، و ذيل هذه الآية تـدل على الأمر بـرجاء ما هو أعلى منزله مما هو فيه، فيقول المعنى الى أنك اذا تنزلت من مرتبه من ذكره الى مرتبه هي دونها، و هو النسيان، فاذا ذكر ربك و ارج بذلك ما هو أقرب طريقا و أعلى منزله، فينتج أن الذكر القلبي ذو مراتب في نفسه، و بذلك يتبين صحه قول القائل: إن الذكر حضور المعنى عند النفس، فان الحضور ذو مراتب.

و لو كان لقوله تعالى: فَادْكُرُونِي - و هو فعل متعلق بـياء المتكلم حقيقه من دون تجوز أفاد ذلك، أن للانسان سنخا آخر من العلم غير هذا العلم المعهود عندنا الذي هو حصول صوره المعلوم و مفهومه عند العالم، اذ كلما فرض من هذا القبيل فهو تحديد و توصيف للمعلوم من العالم، و قد تقدست ساحتـه سبحانه عن توصيف الواصفين، قال تعالى سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ (الصافات ١٦٠/١)، و قال: وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (طه ١١٠/١)، و سيجيء بعض ما يتعلق بالمقام في الكلام على الآيتين إنشاء الله.

[سوره البقره (٢): الآيات ١٥٣ الى ١٥٧]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أحياءٌ وَ لَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (١٥٤) وَ لَنَبَلِّغُنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ وَ نَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَ الْأَنْفُسِ وَ الثَّمَرَاتِ وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ الآية، قد تقدم جملة من الكلام في الصبر و الصلاة في تفسير قوله: وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (البقره ١٧٥)، و الصبر: من أعظم الملكات و الأحوال التي يمدحها القرآن، و يكرر الأمر به حتى بلغ قريبا من سبعين موضعا من القرآن حتى قيل فيه: إِنَّ ذَلِكُمْ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (لقمان ١٧)، و قيل: وَ مَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ مَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (فصلت ٣٥)، و قيل: إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (الزمر ١٠).

و الصلاة: من أعظم العبادات التي يحث عليها في القرآن حتى قيل فيها: إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ (العنكبوت ٤٥)، و ما أوصى الله في كتابه بوصايا إلا كانت الصلاة رأسها و أولها.

ثم وصف سبحانه الصبر بأن الله مع الصابرين المتصفين بالصبر، و إنما لم يصف الصلاة، كما في قوله تعالى: وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ وَ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ، الآية، لأن المقام في هذه الآيات، مقام ملاقات الأهل، و مقارعة الأبطال، فالاهتمام بأمر الصبر أنسب بخلاف الآية السابقة، فلذلك قيل لا إن الله مع الصابرين، و هذه المعية غير المعية التي يدل عليه قوله تعالى: وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ (الحديد ٤)، فإنها معية الإحاطة و القيمومه، بخلاف المعية مع الصابرين، فإنها معية إعانه فالصبر مفتاح الفرج.

قوله تعالى: وَ لَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَ لَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ الآية، ربما يقال: إن الخطاب مع المؤمنين الذين آمنوا بالله و رسوله و اليوم

الآخر و أذعنوا بالحياه الآخره، و لا يتصور منهم القول ببطلان الإنسان بالموت، بعد ما أجابوا دعوه الحق و سمعوا شيئا كثيرا من الآيات الناطقه بالمعاد، مضافا الى أن الآيه إنما تثبت الحياه بعد الموت في جماعه مخصوصين، و هم الشهداء المقتولون في سبيل الله، في مقابل غيرهم من المؤمنين، و جميع الكفار، مع أن حكم الحياه بعد الموت عام شامل للجميع فالمراد بالحياه بقاء الاسم، و الذكر الجميل على مر الدهور، و بذلك فسره جمع من المفسرين.

و يردّه أولاً: أن كون هذه حيوه إنما هو في الوهم فقط دون الخارج، فهي حيوه تخيليه ليس لها في الحقيقه إلا الاسم، و مثل هذا الموضوع الوهمي لا يليق بكلامه، و هو تعالى يدعو الى الحق، و يقول: **فَمَا ذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ** (يونس ٣٢)، و أما الذي سأله إبراهيم في قوله: **وَ اجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ** (الشعراء ٨٤)، فإنما يريد به بقاء دعوته الحقه، و لسانه الصادق بعده، لا حسن ثنائه و جميل ذكره بعده فحسب.

و ثانيا: ان ذيل الآيه - و هو قوله تعالى: **وَ لَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ** - لا يناسب هذا المعنى، بل كان المناسب له أن يقال: بل أحياء ببقاء ذكرهم الجميل، و ثناء الناس عليهم بعدهم، لأنه المناسب لمقام التسليه و تطيب النفس.

و ثالثا: أن نظيره هذه الآيه - و هي تفسرها - و وصف حياتهم بعد القتل بما ينافي هذا المعنى، قال تعالى: **وَ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** (آل عمران ١٩٦)، الى آخر الآيات و معلوم أن هذه الحياه حيوه خارجيه حقيقه ليست بتقديره.

و رابعا: ان الجهل بهذه الحياه التي بعد الموت ليس بكل البعيد من بعض المسلمين في اواسط عهد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فإن الذي هو نص غير قابل للتأويل انما هو البعث للقيمه، و اما ما بين الموت الى الحشر - و هي الحياه البرزخيه - فهي و ان كانت من جمله ما بينه القرآن

من المعارف الحقه، لكنها ليست من ضروريات القرآن، والمسلمون غير مجمعين عليه بكل ينكره بعضهم حتى اليوم ممن يعتقد كون النفس غير مجردة عن المادة و ان الانسان يبطل وجوده بالموت و انحلال التركيب، ثم يعيشه الله الى القضاء يوم القيمة، فيمكن ان يكون المراد بيان حيوة الشهداء فى البرزخ لمكان جهل بعض المؤمنين بذلك، و ان علم به آخرون.

فمعنى الآيه-و الله اعلم- و لا- تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله اموات، و لا- تعتقدوا فيهم الفناء و البطلان كما يفيد لفظ الموت عندكم، و مقابله مع الحياه، و كما يعين على هذا القول حواسكم فليسوا باموات بمعنى البطلان، بل احياء و لكن حواسكم لا تنال ذلك و لا- تشعر به، و إلقاء هذا القول على المؤمنين- مع انهم جميعا أو أكثرهم عالمون ببقاء حيوة الانسان بعد الموت، و عدم بطلان ذاته- انما هو لا يقاظهم و تنبيههم بما هو معلوم عندهم، يرتفع بالالتفات اليه الحرج عن صدورهم، و الاضطراب و القلق عن قلوبهم اذا أصابتهم مصيبه القتل، فانه لا يبقى مع ذلك من آثار القتل عند اولياء القتل الا مفارقه فى ايام قلائل فى الدنيا و هو هين فى قبال مرضاه الله سبحانه و ما ناله القتل من الحياه الطيبه، و النعمه المقيمه، و رضوان من الله اكبر، و هذا نظير خطاب النبى بمثل قوله تعالى: **الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُكْفِرِينَ**، الآيه؛ مع انه صلى الله عليه و آله و سلم اول الموقنين بآيات ربه، و لكنه كلام كنى به عن وضوح المطلب، و ظهوره بحيث لا يقبل أى خطور نفسانى لخلافه (1).

قوله تعالى: **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ**، لما أمرهم الله بالاستعانه بالصبر و الصلاه، و نهاهم عن القول بموت من يقتل منهم فى سبيل الله بل هم احياء بين لهم السبب الذى من أجله خاطبهم بما

ص: ١٧٥

خاطب، و هو أنهم سيبتلون بما لا يتمهد لهم المعالى و لا يصفو لهم الأمر فى الحياه الشريفه، و الدين الحنيف إلا به، و هو الحرب و القتال، لا- يدور رحى النصر و الظفر على مرادهم إلا- أن يتحصنوا بهذين الحصنين و يتأيدوا بهاتين القوتين، و هما الصبر و الظفر، و يضيفوا الى ذلك ثالثا و هو خصله ما حفظها قوم إلا ظفروا بأقصى مرادهم و حازوا الغايه القصوى من كمالهم، و اشدت بأسهم و طابت نفسهم، و هو الإيمان بأن القتل منهم غير ميت و لا فقيد، و أن سعيهم بالمال و النفس غير ضائع و لا باطل، فإن قتلوا عدوهم فهم على الحياه، و قد أبادوا عدوهم و ما كان يريد من حكمه الجور و الباطل عليهم- و إن قتلهم عدوهم فهم على الحياه- و لم يتحكم الجور و الباطل عليهم، فلهم إحدى الحسنين على أى حال.

و عامه الشدائد التى يأتى بها هو الخوف و الجوع و نقص الأموال و الأنفس فذكرها الله تعالى، و أما الثمرات فالظاهر أنها الأولاد، فإن تأثير الحرب فى قله النسل بموت الرجال و الشبان أظهر من تأثيره فى نقص ثمرات الأشجار، و ربما قيل: إن المراد ثمرات النخيل، و هى التمر و المراد بالأموال غيرها و هى الدواب من الإبل و الغنم.

قوله تعالى: وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اعاد ذكر الصابرين لبشرهم اولاً، و يبين كيفيه الصبر بتعليم ما هو الصبر الجميل ثانياً، و يظهر به حق الامر الذى يقضى بوجوب الصبر- و هو ملكه تعالى للانسان- ثالثاً، و يبين جزائه العام- و هو الصلاه و الرحمه و الاهتداء- رابعاً.

فأمر تعالى نبيه اولاً بتبشيرهم، و لم يذكر متعلق البشاره لتفخيم امره فانها من الله سبحانه فلا تكون الا خيراً و جميلاً، و قد ضمنها رب العزه، ثم يبين ان الصابرين هم الذين يقولون: كذا و كذا عند إصابه المصيبه، و هى الواقعه التى تصيب الانسان، و لا يستعمل لفظ المصيبه الا فى النازله المكروهه، و من المعلوم ان ليس المراد بالقول مجرد التلفظ بالجمله من غير حضور معناها بالبال، و لا مجرد الاخطار من غير تحقق بحقيقه معناها، و هى ان الانسان مملوك لله

بحقيقه الملك، و ان مرجعه الى الله سبحانه و به يتحقق أحسن الصبر الذى يقطع منابت الجزع و الأسف، و يغسل رين الغفله (١).

قوله تعالى: **أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ** الآية؛ التدبر فى الآيه يعطى أن الصلاه غير الرحمه بوجه، و يشهد به جمع الصلاه و إفراد الرحمه، و قد قال تعالى: **هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ كَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا** (الأحزاب ٤٣)، و الآيه تفيد كون قوله: **وَ كَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا**، فى موقع العله لقوله: **هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ**، و المعنى انه انما يصلى عليكم، و كان من اللازم المترقب ذلك، لأن عاداته جرت على الرحمه بالمؤمنين، و أنتم مؤمنون فكان من شأنكم أن يصلى عليكم حتى يرحمكم، فنسبه الصلاه الى الرحمه نسبه المقدمه الى ذيهها و كالنسبه التى بين الالتفات و النظر، و التى بين الإلقاء فى النار و الإحراق مثلا، و هذا يناسب ما قيل فى معنى الصلاه: أنها الانعطاف و الميل، فالصلاه من الله سبحانه انعطاف الى العبد بالرحمه و من الملائكه انعطاف الى الإنسان بالتوسط فى إيصال الرحمه، و من المؤمنين رجوع و دعاء بالعبوديه و هذا لا ينافى كون الصلاه بنفسها رحمه و من مصاديقها، فإن الرحمه فى القرآن على ما يعطيه التدبر فى موارد هى العطيه المطلقه الإلهيه، و الموهبه العامه الربانيه، كما قال تعالى:

وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ (الأعراف ١٥٦)، و قال تعالى: **وَ رَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ** **إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ** (الأنعام / ١٣٣)، فالإذهاب لغناه و الاستخلاف و الإنشاء لرحمته، و هما جميعا يستندان الى رحمته كما يستندان الى غناه فكل خلق و أمر رحمه، كما أن كل خلق و أمر عطيه تحتاج الى غنى،

ص: ١٧٧

١ - ١). البقره ١٥٣-١٥٧: بحث فى الاخلاق؛ تهذيب الاخلاق و اكتساب الفاضله منها و المسالك المختلفه فيها؛ مسلک فى تهذيب الاخلاق مخصوص بالقرآن الكريم.

قال تعالى: **وَ مَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا** (الإسراء ٢٠/١)، و من عطيته الصلاة فهي أيضا من الرحمه غير أنها رحمه خاصه، و من هنا يمكن أن يوجه جمع الصلاة و أفراد الرحمه في الآيه.

قوله تعالى: **وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**، كأنه بمنزله النتيجة لقوله: **أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ**، و لذلك جدّد اهتداءهم جملة ثانيه مفصولة عن الأولى، و لم يقل:

صلوات من ربهم و رحمه و هدايه، و لم يقل: و أولئك هم المهديون بل ذكر قبولهم للهدايه بالتعبير بلفظ الاهتداء الذي هو فرع مترتب على الهدايه، فقد تبدو أن الرحمه هدايتهم إليه تعالى، و الصلوات كالمقدمات لهذه الهدايه و اهتدائهم نتيجة هذه الهدايه، فكل من الصلاة و الرحمه و الاهتداء غير الآخر و إن كان الجميع رحمه بنظر آخر.

فمثل هؤلاء المؤمنين في ما يخبره الله من كرامته عليهم مثل صديقك تلقاه و هو يريد دارك، و يسأل عنها يريد النزول بك فتلقاه بالبشر و الكرامه، فتورده مستقيم الطريق و أنت معه تسيره، و لا تدعه يضل في مسيره حتى تورده نزله من دارك و تعاهده في الطريق بمأكله و مشربه، و ركوبه و سيره، و حفظه من كل مكروه يصيبه فجميع هذه الامور إكرام واحد لأنك إنما تريد إكرامه، و كل تعاهد تعاهد و إكرام خاص، و الهدايه غير الإكرام، و غير التعاهد، و هو مع ذلك إكرام فكل منها تعاهد، و كل منها هدايه و كل منها إكرام خاص، و الجميع إكرام.

فالإكرام الواحد العام بمنزله الرحمه، و التعاهدات في كل حين بمنزله الصلوات، و النزول في الدار بمنزله الاهتداء.

و الايتان بالجملة الاسميه في قوله: **وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**، و الابتداء باسم الإشاره الدالّ على البعيد، و ضمير الفصل ثانيا و تعريف الخبر بلام الموصول في قوله: **الْمُهْتَدُونَ** كل ذلك

[سوره البقره (٢): آيه ١٥٨]

اشاره

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨)

بيان:

فقوله تعالى: إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ -الى قوله- يَطَّوَّفُ بِهِمَا يشير الى كون المكانين معلّمين بعلامه الله سبحانه، يدلان بذلك عليه، و يذكر انه تعالى و اختصاصهما بكونهما من الشعائر دون بقيه الأشياء جميعا يدل على أن المراد بالشعائر ليست الشعائر التكوينية بل هما شعيرتان بجعله تعالى إياهما معبدين يعبد فيهما، فهما يذكران الله سبحانه، فكونهما شعيرتين يدل على أنه تعالى قد شرع فيهما عباده متعلقه بهما، و تفرع قوله:

فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا -إنما هو للإيدان بأصل تشريع السعى بين الصفا و المروه، لا- لإفاده الندب، و لو كان المراد إفاده الندب كان الأنسب بسياق الكلام أن يمدح التّطوف، لا أن ينفي ذمّه، فإن حاصل المعنى أنه لما كان الصفا و المروه معبدتين

ص: ١٧٩

١- ١). البقره ١٥٣-١٥٧: بحث روائى فى البرزخ و حياه الروح بعد الموت.

٢- ٢). البقره ١٥٣-١٥٧: بحث فلسفى فى النفس؛ هل النفس مجردة عن الماده؟

٣- ٣). البقره ١٥٣-١٥٧: بحث اخلاقى فى علم الاخلاق (و هو الفن الباحث عن الملكات الانسانيه المتعلقه بقواه النباتيه و الحيوانيه و الانسانيه)؛ اصول الاخلاق الفاضله (العفه و الشجاعه و الحكمه و العداله) و فروعها؛ النظرية العجيبة التي ذهب إليها الاشتراكيون من الماديين و النظرية غير حديثه؛ الحسن و القبح مطلق و نسبي.

٤- ٤). البقره ١٥٣-١٥٧: بحث روائى فى الاحكام العقليه و الاحكام الشرعيه.

و منسكين من معابد الله فلا يضركم أن تعبدوه فيهما، وهذا لسان التشريع، ولو كان المراد إفادته التذب كان الأنسب أن يفاد أن الصيفا و المروه لما كانا من شعائر الله فإن الله يحب السعي بينهما -و هو ظاهر- و التعبير بأمثال هذا القول الذي لا يفيد وحده الإلزام في مقام التشريع شائع في القرآن، كقوله تعالى في الجهاد: [□]ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ (الصف ١١)، و في الصوم وَ أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ (البقره ١٨٤)، و في القصر فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ (النساء ١٠١).

قوله تعالى: وَ مَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ، [□]إن كان معطوفا على مدخول فاء التفرع في قوله تعالى: فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ، كان كالتعليل لتشريع التطوف بمعنى آخر أعم من العله الخاصه التي تبين بقوله: [□]إِنَّ الصَّافَا وَ الْمَرْوَةَ، و كان المراد بالتطوع مطلق الإطاعه لا- الإطاعه المندوبه، و إن كان استينافا بالعطف الى اول الآيه كان مسوقا لإفادته محبوبيه التطوف في نفسه ان كان المراد بتطوع الخير هو التطوف او مسوقا لإفادته محبوبيه الحج و العمره ان كانا هما المراد بتطوع الخير هذا.

و الشاكر و العليم اسمان من اسماء الله الحسنی، و الشكر هو مقابله من احسن إليه إحسان المحسن بإظهار لسانا أو عملا كمن ينعم إليه المنعم بالمال فيجازيه بالثناء الجميل الدال على نعمته أو باستعمال المال في ما يرتضيه، و يكشف عن إنعامه، و الله سبحانه و إن كان محسنا قديم الإحسان و منه كل الإحسان لا يد لأحد عنده حتى يستوجهه الشكر إلا أنه جل ثنائه عد الأعمال الصالحه التي هي في الحقيقه إحسانه الى عبادته إحسانا من العبد إليه، فجازاه بالشكر و الإحسان و هو إحسان على إحسان قال تعالى: هَيْلٌ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (الرحمن ٦٠)، و قال تعالى: [□]إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَ كَانَ سَيِّئِكُمْ مَشْكُورًا (الدهر/ ٢٢)، فإطلاق الشاكر عليه تعالى على حقيقه معنى الكلمه من غير مجاز.

إشارة

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (١٦٢)

بيان:

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ، الظاهر -و الله أعلم- أن المراد بالهدى ما تضمنه الدين الإلهي من المعارف والأحكام الذي يهدى تابعيه الى السعادة، وبالبيّنات الآيات والحجج التي هي بينات وأدله وشواهد على الحق الذي هو الهدى، فالبيّنات في كلامه تعالى وصف خاصّ بالآيات النازله، و على هذا يكون المراد بالكتمان -و هو الإخفاء- أعم من كتمان أصل الآيه، و عدم إظهاره للناس، و أو كتمان دلالاته بالتأويل أو صرف الدلاله بالتوجيه، كما كانت اليهود تصنع ببشارات النبوه ذلك فما يجهله الناس لا يظهره لهم، و ما يعلم به الناس يؤوّلونه بصرفه عنه صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ، أفاد أن كتمانهم إنما هو بعيد البيان والتبين للناس، لا لهم فقط، و ذلك أن التبين لكل شخص شخص من أشخاص الناس أمر لا يحتمله

النظام الموجود المعهود في هذا العالم، لا- في الوحي فقط، بل في كل إعلام عمومي و تبين مطلق، بل إنما يكون باتصال الخبر الى بعض الناس من غير واسطه و الى بعض آخرين بواسطتهم، بتبليغ الحاضر الغائب، و العالم الجاهل، فالعالم يعد من وسائط البلوغ و أدواته، كاللسان و الكلام: فاذا بين الخبر للعالم المأخوذ عليه الميثاق بعلمه مع غيره من المشافهين فقد بين للناس، فكتمان العالم علمه هذا كتمان العلم عن الناس بعد البيان لهم و هو السبب الوحيد الذي عده الله سبحانه سببا لاختلاف الناس في الدين و تفرقهم في سبل الهدايه و الضلاله، و إلا- فالدين فطري تقبله الفطره و تخضع له القوه المميزه بعد ما بين لها، قال تعالى: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ الدَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ الدَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (الروم ٣٠)، فالدين فطري على الخلقه لا- يدفعه الفطره أبدا لو ظهر لها ظهورا ما بالصفاء من القلب، كما في الأنبياء، أو ببيان قولي، و لا محاله ينتهي هذا الثاني الى ذلك الأول فافهم ذلك.

و لذلك جمع في الآيه بين كون الدين فطريا على الخلقه و بين عدم العلم به فقال: فطره الله التي فطر الناس عليها، و قال: لكن أكثر الناس لا يعلمون، و قال تعالى: وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ (البقره ٢١٣)، فأفاد أن الاختلاف فيما يشتمل عليه الكتاب إنما هو ناش عن بغى العلماء الحاملين له، فالاختلافات الدينيه و الانحراف عن جاده الصواب معلول بغى العلماء بالإخفاء و التأويل و التحريف، و ظلمهم، حتى أن الله عرف الظلم بذلك يوم القيمه كما قال: فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَهَا عِوَجًا (الأعراف ٤٤)، و الآيات في هذا المعنى كثيره.

قوله تعالى: أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ، بيان لجزاء بغى الكاتمين لما أنزله الله من الآيات و الهدى، و هو اللعن من الله، و اللعن من كل لاعن، و قد كرر اللعن لأن

اللعن مختلف فإنه من الله التبعيد من الرحمه و السعاده و من اللاعنين سؤاله من الله، و قد أطلق اللعن منه و من اللاعنين و أطلق اللاعنين، و هو يدل على توجيه كل اللعن من كل لاعن إليهم و الاعتبار يساعد عليه فإن الذى يقصده لاعن بلعنه هو البعد عن السعاده، و لا -سعاده بحسب الحقيقه، إلا -السعاده الحقيقه الدينيه، و هذه السعاده لما كانت مسينه من جانب الله، مقبوله عند الفطره، فلا يحرم عنها محروم إلا بالرد و الجحود، و كل هذا الحرمان إنما هو لمن علم بها و جحدها عن علم دون من لا يعلم بها و لم تبين له، و قد أخذ الميثاق على العلماء أن يثوا علمهم و ينشروا ما عندهم من الآيات و الهدى، فإذا كتموه و كفوا عن بثه فقد جحدوه فأولئك يلعنهم لله و يلعنهم اللاعنون، و يشهد لما ذكرنا الآيه الآتيه: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ مَا تُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ -الى قوله- أَجْمَعِينَ، الآيه؛ فإن الظاهر أن قوله: إِنَّ للتعليل أو لتأكيد مضمون هذه الآيه، بتكرار ما هو فى مضمونها و معناها و هو قوله: الَّذِينَ كَفَرُوا وَ مَا تُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ .

قوله تعالى: إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ بَيَّنَّا الْآيَةَ لِقَوْمِهِ السَّابِقَهُ، و المراد بتقييد توبتهم بالتبين أن يتبين أمرهم و يتظاهروا بالتوبه، و لازم ذلك أن يبينوا ما كتموه للناس و أنهم كانوا كاتمين و الا فلم يتوبوا بعد لأنهم كاتمون بعد بكتمان أنهم كانوا كاتمين.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ مَا تُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ، كناية عن إصرارهم على كفرهم و عنادهم و تعنتهم فى قبول الحق فإن من لا يدين بدين الحق لا لعناد و استكبار بل لعدم تبينه له ليس بكافر بحسب الحقيقه، بل مستضعف، أمره الى الله، و يشهد بذلك تقييد كفر للكافرين فى غالب الآيات و التكذيب و خاصه فى آيات هبوط آدم المشتمله على أول تشريع شرع لنوع الإنسان، قال تعالى: قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى -الى قوله- وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقره ٣٩)، فالمراد بالذين كفروا فى الآيه هم المكذبون المعاندون -و هم الكاتمون لما أنزل الله- و جازاهم الله تعالى بقوله: أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَ الْمَلَائِكَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ، و هذا حكم

من الله سبحانه أن يلحق بهم كل لعن لعن به ملك من الملائكة أو أحد من الناس جميعا من غير استثناء فهو لاء سيلهم سبيل الشيطان، اذ قال الله سبحانه فيه: **وَإِنَّ عَلِيَّكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (الحجر ٣٥)**، فجعل جميع اللعن عليه فهو لاء- وهم العلماء الكاتمون لعلمهم- شركاء الشيطان في اللعن العام المطلق و نظرائه فيه، فما أشد لحن هذه الآية و أعظم أمرها! و سيجيء في الكلام على قوله تعالى: **لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ لِلْخَبِيثِ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكَبَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ (الأنفال ٣٧)**، ما يتعلق بهذا المقام إنشاء الله العزيز.

قوله تعالى: **خَالِدِينَ فِيهَا**، أى فى اللعنه، و قوله: **لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْتَظَرُونَ**، فى تبديل السياق بوضع العذاب موضع اللعنه دلالة على أن اللعنه تتبدل عليهم عذابا.

[سوره البقره (٢): الآيات ١٦٣ الى ١٦٧]

اشاره

وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْضِيَ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَضْرِبُ الرِّيحُ فِي السَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأُوا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأْنَا مِنْكَ يَا رَبَّنَا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)

قوله تعالى: **وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ**، قد مر معنى الإله في الكلام على البسملة من سورة الحمد في أول الكتاب، وأما الوحده فمفهومها من المفاهيم البديهييه التي لا نحتاج في تصورها الى معرف يدلنا عليها، والشىء ربما يتصف بالوحده من حيث وصف من أوصافه، كرجل واحد، وعالم واحد، وشاعر واحد، فيدل به على أن الصفه التي فيه لا تقبل الشركه و لا تعرضها الكثره، فان الرجوليه التي في زيد مثلاً-و هو رجل واحد-ليست منقسمه بينه و بين غيره، بخلاف ما في زيد و عمرو مثلاً-و هما رجلان-فانه منقسم بين اثنين كثير بهما، فزيد من جهه هذه الصفه-و هي الرجوليه-واحد لا- يقبل الكثره، و إن كان من جهه هذه الصفه و غيرها من الصفات كعلمه، و قدرته، و حياته، و نحوها ليس بواحد بل كثير حقيقه، و الله سبحانه واحد، من جهه أن الصفه التي لا يشاركه فيها غيره، كالالوهيه فهو واحد في الالوهيه، لا- يشاركه فيها غيره تعالى، و العلم و القدره و الحياه، فله علم لا كالعلوم و قدره و حيوه لا كقدره غيره و حياته، و واحد من جهه أن الصفات التي له لا تتكثر و لا تتعدد إلا مفهوما فقط، فعلمه و قدرته و حياته جميعها شىء واحد هو ذاته، ليس شىء منها غير الآخر بل هو تعالى يعلم بقدرته و يقدر بحياته و حى بعلمه، لا كمثل غيره في تعدد الصفات عينا

و مفهومها، و ربما يتصف الشيء بالوحده من جهه ذاته، و هو عدم التكثر و التجزى فى الذات بذاته، فلا تنجزى الى جزء و جزء، و الى ذات و اسم و هكذا، و هذه الوحده هى المسماه بأحديه الذات، و يدل على هذا المعنى بلفظ أحد، الذى لا يقع فى الكلام من غير تقييد بالإضافه إلا اذا وقع فى حيز النفى أو النهى أو ما فى معناهما كقولنا ما جاءنى أحد، فيرتفع بذلك أصل الذات سواء كان واحداً أو كثيراً، لأن الوحده مأخوذه فى أصل الذات لا فى وصف من أوصافه بخلاف قولنا: ما جاءنى واحد فان هذا القول لا يكذب بمجىء اثنين أو أزيد لأن الوحده مأخوذه فى صفه الجائى و هو الرجوليه فى رجل واحد مثلاً فاحتفظ بهذا الإجمال حتى نشرحه تمام الشرح فى قوله تعالى: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (الإخلاص ١)، إنشاء الله تعالى.

قوله تعالى: لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، جىء به لتأكيد نصوصيه الجمله السابقه فى التوحيد و نفى كل توهم أو تأويل يمكن أن يتعلق بها، و النفى فيه نفى الجنس، و المراد بالإله ما يصدق عليه الإله حقيقه و واقعا، و حينئذ فيصح أن يكون الخبر المحذوف هو موجود أو كائن، أو نحوهما، و التقدير لا- إله بالحقيقه و الحق بموجود، و حيث كان لفظه الجلامه مرفوعاً لا- منصوباً فلفظ إلا- ليس للاستثناء، بل وصف بمعنى غير، و المعنى لا إله غير الله بموجود.

قوله تعالى: الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، قد مر الكلام فى معناهما فى تفسير البسمله من سوره الفاتحه و بذكر الاسمين يتم معنى الربوبيه، فإليه تعالى ينتهى كل عطيه عامه، بمقتضى رحمانيته، و كل عطيه خاصه واقعه فى طريق الهدايه و السعاده الاخرويه بمقتضى رحيمته.

قوله تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ السياق كما فى أول البيان يدل على أن الآيه مسوقه للدلاله و البرهنه على ما تضمنته الآيه السابقه أعنى قوله

تعالى: وَ إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، الآيه؛ فإن الآيه تنحل بحسب المعنى الى أن لكل شىء من هذه الأشياء إلها، وأن إله الجميع واحد وأن هذا الإله الواحد هو إلهكم، وأنه رحمن مفيض للرحمة العامه، وأنه رحيم يسوق الى سعادته الغايه- وهي سعادته الآخره- فهذه حقائق حقه، و فى خلق السموات والأرض و اختلاف الليل و النهار الى آخر ما ذكر فى الآيه آيات داله عليها عند قوم يعقلون.

و لو كان المراد إقامه الحجه على وجود إله الإنسان أو أن إله الإنسان واحد لما كان الجميع إلا آيه واحده داله على ذلك من طريق اتصال التدبير، و لكان حق الكلام فى الآيه السابقيه أن يقال: و إلهكم واحد لا إله إلا هو، فالآيه مسوقه للدلاله على الحجه على وجود الإله و على وحدته بمعنى أن إله غير الإنسان من النظام الكبير واحد و أن ذلك بعينه إله الإنسان.

و إجمال الدلاله أن هذه السموات التى قد علتنا و أظلمنا على ما فيها من بدائع الخلقه، و الأرض التى قد أقلتنا و حملتنا مع عجيب أمرها و سائر ما فيها من غرائب التحولات و التقلبات كاختلاف الليل و النهار، و الفلك الجاربه، و الأمطار النازله، و الرياح المصرفه، و السحب المسخره أمور مفتقره فى نفسها الى صانع موجد، فلكل منها إله موجد (و هذا هو الحجه الاولى).

ثم إن هذه الأجرام الجويه المختلفه بالصغر و الكبر و البعد و القرب (و قد وجد الواحد فى الصغر على ما بلغه الفحص العلمى ما يعادل: $10^{10} / 33,000,000,000$ من سانتيمتر مكعب و الواحد فى الكبر ما يعادل الملايين من حجم الأرض و هو كره يعادل قطرها ٩٠٠٠ ميلا- تقريبا، و اكتشف من المسافه بين جرمين علويين ما يقرب من ثلاثه ملايين سنه نوريه، و السنه النوريه من المسافه تعدل $365 * 24 * 60 * 60 * 300,000$ كيلومتر تقريبا)، فانظر الى هذه الأرقام التى تدهش اللب و تبته الفكر و اقض ما أنت قاض فى غرابه الأمر و بداعته تفعل البعض منها فى البعض، و تنفعل البعض منها عن البعض أينما كانت و كيفما

كانت بالجاذبه العامه،و إفاضه النور و الحراره و تحيى بذلك سنه الحركه العامه و الزمان العمومى،و هذا نظام عام دائم تحت قانون ثابت،حتى أن النسبيه العموميه القاصيه بالتغير فى قوانين الحركه فى العالم الجسمانى لا تتجافى عن الاعتراف بأن التغير العمومى أيضا محكوم قانون آخر ثابت فى التغير و التحول،ثم إن هذه الحركه و التحول العمومى تتصور فى كل جزء من أجزاء العالم بصوره خاصه كما بين الشمس التى لعالمنا مع منظومتها ثم تزيد ضيقا فى الدائره كما فى أرضنا مع ما يختص بها من الحوادث و الأجرام،كالقمر و الليل و النهار،و الرياح و السحب و الأمطار،ثم تضيق الدائره،كما فى المكونات الأرضيه:من المعادن و النبات و الحيوان و ساير التراكيب،ثم فى كل نوع من أنواعها،ثم تضيق الدائره حتى تصل النوبه الى العناصر،ثم الى الذرات،ثم الى أجزاء الذرات حتى تصل الى آخر ما انتهى الفحص العلمى الميسور للإنسان الى هذا اليوم،و هى الإلكترون،و البروتون،و يوجد هناك نظير المنظومات الشمسيه جرم مركزى و أشياء يدور حولها دوران الكواكب على مدارتها التى حول شمسها و سبجها فى أفلاكها.

ففى أى موقف من هذه المواقف وقف الإنسان شاهد نظاما عجيبا ذا تحولات و تغيرات، يحفظ بها أصل عالمه،و تحيى بها سنه إلهيه لا تنفذ عجائبه،و لا تنتهى غرائبه،لا استثناء فى جريها و إن كان واحدا،و لا اتفاق فى طيها و إن كان نادرا شاردا،لا يدرك ساحلها و لا يقطع مراحلها،و كلما ركبت عده منها أخذنا من الدقيق الى الجليل وجدتها لا تزيد على عالم واحد ذا نظام واحد،و تدبير متصل حتى ينتهى الأمر الى ما انتهى اليه توسع العلم الى اليوم بالحس المسلح و الارصاد الدقيقه،و كلما حللتها و جزيتها راجعا من الكل الى الجزء حتى تنتهى الى مثل المليكول وجدته لا تفقد من العالم الواحد شيئا ذا نظام واحد و تدبير متصل،على أن كل اثنين من هذه الموجودات متغاير الواحدين ذاتا و حكما شخصا.

فالعالم شىء واحد و التدبير متصل،و جميع الأجزاء مسخره تحت نظام واحد و إن كثرت

و اختلفت أحكامها، و عنت الوجوه للحى القيوم، فإنه العالم الموجد له و المدبر لأمره واحد (و هذا هو البرهان الثانى).

ثم إن الإنسان الذى هو موجود أرضى يحيى فى الأرض و يعيش فى الأرض ثم يموت و يرجع الى الأرض لا يفتقر فى شىء من وجوده و بقائه الى أزيد من هذا النظام الكلى الذى لمجموع هذا العالم المتصل تدبيره، الواحد نظامه، فهذه الأجرام العلويه فى إنارتها و تسخينها، و هذه الأرض فى اختلاف ليلها و نهارها و رياحها و سحبها و أمطارها و منافعها التى تجرى من قطر الى قطر من رزق و متاع هى التى تحتاج إليها الإنسان فى حاجته الماديه و تدبير وجوده و بقائه - و الله من ورائهم محيط - فإنها الموجد لها المدبر لأمرها هو إله الإنسان الموجد له و المدبر لأمره (و هذا هو البرهان الثالث).

ثم ان هذا الإله هو الذى يعطى كلا ما يحتاج اليه فى سعاده الوجوديه و ما يحتاج اليه فى سعاده فى غايته و آخرته لو كان له سعاده اخرويه غائيه فإن الآخره عقبى هذا الدار، و كيف يمكن أن يدبر عاقبه الأمر غير الذى يدبر نفس الأمر؟ (و هذا هو البرهان على الاسمين الرحمن الرحيم).

و عند هذا تم تعليل الآيه الاولى بالثانيه و فى تصدير الآيه بلفظه، إن؛ الداله على التعليل إشاره الى ذلك - و الله العالم -.

فقوله تعالى: **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**، إشاره الى ذوات الأجرام العلويه و الأرض بما تشتمل على تراكيبيها من بدائع الخلق و عجائب الصنع، من صور تقوّم بها أسمائها، و مواد تتألف منها ذواتها، و تحول بعضها الى بعض، و نقص او زياده تطرئها، و تركب او تحلل يعرضها، كما قال: **أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَا نَاتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا** (الرعد ٤١)، و قال:

أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا (الأنبياء ٣٠).

قوله تعالى: وَ اِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، و هو النقيصه و الزياده و الطول و القصر العارضان لهما من جهة اجتماع عاملين من العوامل الطبيعیه، و هي الحركه اليوميه التي للأرض على مركزها و هي ترسم الليل و النهار بمواجهه نصف الكره و أزيد بقليل دائما مع الشمس فتكتسب النور و تمص الحراه، و يسمى النهار، و استتار الشمس عن النصف الآخر و أنقص بقليل فيدخل تحت الظل المخروطي و تبقى مظلما و تسمى الليل، و لا يزالان يدوران حول الأرض، و العامل الآخر ميل سطح الدائره الاستوائيه أو المعدل عن سطح المدار الأرضي في الحركه الانتقاليه الى الشمال و الجنوب، و هو الذي يوجب ميل الشمس من المعدل الى الشمال أو الجنوب الراسم للفصول، و هذا يوجب استواء الليل و النهار في منطقه خط الاستواء و في القطبين، أما القطبان فلهما في كل سنه شمسيه تامه يوم و ليله واحده كل منهما يعدل نصف السنه، و الليل في قطب الشمال نهار في قطب الجنوب و بالعكس، و أما بقية النقطه الاستوائيه فلها في كل سنه شمسيه ثلاثمائه و خمس و ستون ليلا و نهارا تقريبا، و النهار و الليل فيها متساويان، و أما بقية المناطق فيختلف النهار و الليل فيها عددا و في الطول و القصر بحسب القرب من النقطه الاستوائيه و من القطبين، و هذا كله مشروح مبين في العلوم المربوطه بها.

و هذا الاختلاف هو الموجب لاختلاف ورود الضوء و الحراره، و هو الموجب لاختلاف العوامل الموجبه لاختلاف حدوث التراكيب الأرضيه و التحولات في كينونتها مما ينتفع باختلافها الإنسان انتفاعات مختلفه.

قوله تعالى: وَ الْفُلُوكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ، و الفلك هو السفينه يطلق على الواحد و الجمع، و الفلك و الفلكه كالتمر و التمره و المراد بما ينفع الناس المتاع و الرزق تنقلها من ساحل الى ساحل و من قطر من أقطار الأرض الى قطر آخر.

و في عد الفلك في طي الموجودات و الحوادث الطبيعيه التي لا دخل لاختيار الإنسان فيها

كالسماء والأرض و اختلاف الليل و النهار دلالة على أنها أيضا تنتهى مثلها الى صنع الله سبحانه فى الطبيعه فان نسبه الفعل الى الإنسان بحسب الدقه لا تزيد على نسبه الفعل الى سبب من الأسباب الطبيعه، و الاختيار الذى يتبجح به الإنسان لا يجعله سببا تاما مستقلا غير مفتقر الى إرادته الله سبحانه و لا- يجعله أقل احتياجا اليه تعالى بالنسبه الى سائر الأسباب الطبيعه، فلا فرق من حيث الاحتياج الى إرادته الله سبحانه بين أن يفعل قوه طبيعه فى ماده، فتوجد بالفعل و الانفعال و التحريك و التركيب و التحليل صورته من الصور كصوره الحجاره مثلا و بين أن يفعل الإنسان بالتحريك و التقريب و التباعد فى الماده صورته من الصور كصوره السفينه مثلا فى أن الجميع تنتهى الى صنع الله و ايجاده لا يستقل شىء مستغنيا عنه تعالى فى ذاته و فعله.

فالفلك أيضا مثل سائر الموجودات الطبيعه تفتقر الى الإله فى وجودها و تفتقر الى الإله فى تدبير أمرها من غير فرق، و قد أشار تعالى الى هذه الحقيقه بقوله: وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمِمَّا تَعْمَلُونَ (الصفات ٩٦/)، حيث حكاها من إبراهيم فيما قاله لقومه فى خصوص الأصنام التى اتخذوها آلهه فان من المعلوم أن الصنم ليس إلا موجودا صناعيا كالفلك التى تجرى فى البحر، و قال تعالى: وَ لَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (الرحمن ٢٤/)، فعددها ملكا لنفسه، و قال تعالى: وَ سَخَّرَ لَكُمْ الْفُلُكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ (إبراهيم ٣٢/)، فعد تدبير أمرها راجعا اليه (١).

قوله تعالى: وَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ بَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ، فان حقيقته عناصر مختلفه يحملها ماء البحار و غيره ثم يتكاثف بخارا متصاعدا حاملا للحراره حتى ينتهى الى زمهرير الهواء فيتبدل ماء متقاطرا على

ص: ١٩١

١-١). البقره ١٦٣-١٦٧: كلام فى استناد مصنوعات الانسان إلى الله سبحانه.

صوره المطر أو يجمد ثانيا فيصير ثلجا أو بردا فينزل لثقله الى الأرض فتشربه و تحيي به أو تخزنه فيخرج على صورته ينابيع في الأرض بها حيوه كل شىء فالماء النازل من السماء حادث من الحوادث الوجوديه جار على نظام متقن غايه الإتقان من غير انتقاض و استثناء و يستند إليه انتشاء النبات و تكون الحيوان من كل نوع.

و هو من جهه تحدده بما يحفه من حوادث العالم طولا و عرضا تصير معها جميعا شيئا واحدا لا يستغنى عن موجد يوجد و عله تظهره فله إله واحد، و من جهه أنه مما يستند إليه وجود الإنسان حدوثا و بقاء يدل على كون إلهه هو إله الإنسان.

قوله تعالى: وَ تَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ، و هو توجيهها من جانب الى جانب بعوامل طبيعيه مختلفه، و الأغلب فيها أن الأشعه النوريه الواقعه على الهواء من الشمس تتبدل حراره فيه فيعرضه اللطافه و الخفه لأن الحراره من عواملها فلا يقدر على حمل ما يعلوه أو يجاوره من الهواء البارد الثقيل فينحدر عليه فيدفعه بشده فيجري الهواء اللطيف الى خلاف سمت الدفع و هو الريح، و من منافعه تلقيح النبات و دفع الكثافات البخاريه، و العفونات المتصاعده، و سوق السحب الماطره و غيرها، ففيه حيوه النبات و الحيوان و الإنسان.

و هو فى وجوده يدل على الإله و فى التيامه مع سائر الموجودات و اتحاده معها كما مر يدل على إله واحد للعالم، و فى وقوعه طريقا الى وجود الإنسان و بقائه يدل على أن إله الإنسان و غيره واحد.

قوله تعالى: وَ السَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ، السحاب البخار المتكاثف الذى منه الأمطار و هو ضباب بالفتح ما لم ينفصل من الأرض فاذا انفصل و علا سمي سحابا و غيما و غماما و غير ذلك، و التسخير قهر الشىء و تذليله فى عمله، و السحاب مسخر مقهور فى سيره و إمطاره بالريح و البروده و غيرهما المسلطه عليه بإذن الله، و الكلام فى كون السحاب آيه نظير الكلام فى غيره مما عد معه.

واعلم: أن اختلاف الليل والنهار والماء النازل من السماء والرياح المصرفة والسحاب المسخر جعل الحوادث العامه التي منها تتألف نظام التكوين في الأرضيات من المركبات النباتيه والحيوانيه وغيرهما فهذه الآيه كالتفصيل بوجه لإجمال قوله تعالى: وَ بَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَانَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيُنْذِرَ (فصلت ١٠).

قوله تعالى: لَا آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ، العقل - وهو مصدر عقل يعقل - إدراك الشيء وفهمه التام، ومنه العقل اسم لما يميز به الإنسان بين الصلاح والفساد وبين الحق والباطل والصدق والكذب وهو نفس الإنسان المدرك وليس بقوه من قواه التي هي كالفروع للنفس كالقوه الحافظه والباصره وغيرهما.

قوله تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا، الند كالمثل وزنا ومعنى، ولم يقل من يتخذ لله أندادا كما عبر بذلك في سائر الموارد كقوله تعالى: فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا (البقره ٢٢)، وقوله تعالى: وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا (إبراهيم ٣٠)، وغير ذلك لأن المقام مسبوق بالحصر في قوله: وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، الآيه، فكان من اتخذ لله أندادا قد نقض الحصر من غير مجوز واتخذ من يعلم أنه ليس بإله إلهها اتباعا للهوى وتهوينا لحكم عقله ولذلك نكره تحقيرا لشأنه، فقال ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا.

قوله تعالى: يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ، وفي التعبير بلفظ يحبونهم دلالة على أن المراد بالأنداد ليس هو الأصنام فقط بل يشمل الملائكه، وأفرادا من الإنسان الذين اتخذوهم أربابا من دون الله تعالى بل يعم كل مطاع من دون الله من غير أن يأذن الله في إطاعته كما يشهد به ما في ذيل الآيات من قوله: إِذ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا (البقره ١٦٦)، وكما قال تعالى: وَلَا يَتَّخِذُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءَ بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ (آل عمران ٦٤) وقال تعالى: اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ (التوبه / ٣١)، وفي الآيه دليل على أن الحب يتعلق بالله تعالى حقيقه خلافا لمن قال: إن الحب - وهو

وصف شهوانى-يتعلق بالأجسام و الجسمانيات، ولا- يتعلق به سبحانه حقيقه و أن معنى ما ورد من الحب له الإطاعه بالايتمار بالأمر و الانتهاه عن النهى تجوزا كقوله تعالى: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ (آل عمران ٣١).

و الآيه حجه عليهم فإن قوله تعالى: أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ يدل على أن حبه تعالى يقبل الاشتداد، و هو فى المؤمنين أشد منه فى المتخذين لله اندادا، و لو كان المراد بالحب هو الاطاعه مجازا كان المعنى و الذين آمنوا أطوع لله و لم يستقم معنى التفضيل لأن طاعه غيرهم ليست بطاعه عند الله سبحانه فالمراد بالحب معناه الحقيقى (١).

قوله تعالى: وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ، ظاهر السياق أن قوله: إِذْ مفعول يرى، و ان قوله: أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ الى آخر الآيه؛ بيان للعذاب، و لو للتمنى. و المعنى ليتهم يرون فى الدنيا يوما يشاهدون فيه العذاب فيشاهدون أن القوه لله جميعا و قد أخطئوا فى إعطاء شىء منه لأندادهم و أن الله شديد فى عذابه، و اذاقته عاقبه هذا الخطأ فالمراد بالعذاب فى الآيه-على ما بينه ما يتلوه- مشاهدتهم الخطأ فى اتخاذهم اندادا يتوهم قوه فيه و مشاهده عاقبه هذا الخطأ و يؤيده الآيتان التاليتان: اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا فلم يصل من المتبوعين الى تابعيهم نفع كانوا يتوقعونه و رأوا العذاب و تقطعت بهم الأسباب فلم يبق تأثير لشىء دون الله، و قال الذين اتبعوا لو أن لنا كره، و هو تمنى الرجوع الى الدنيا فنتبرأ منهم أى من الأنداد المتبوعين فى الدنيا كما تبرءوا منا فى الآخره، كذلك يريهم الله أى الذين ظلموا باتخاذ الأنداد أعمالهم، و هى حبههم و اتباعهم لهم فى الدنيا حال كونها حسرات عليهم و ما هم بخارجين من النار.

قوله تعالى: وَ مَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ، فيه حجه على القائلين بانقطاع

ص: ١٩٤

[سوره البقره (٢): الآيات ١٦٨ الى ١٧١]

اشاره

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ
وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَبْتَعِ مَا آلفِينَا عَلَيْهِ أَبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا
يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِينَ يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّكُمْ عَنْكُمْ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ
(١٧١)

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالًا طَيِّبًا الى آخر الآيتين، الحلال مقابل الحرام الممنوع اقتحامه، والحل مقابل
الحرمة، والحل مقابل الحرم، والحل مقابل العقده، وهو في جميع موارد استعماله يعطى معنى حرية الشيء في فعله و أثره، و
الطيب-مقابل الخبيث- ما يلائم النفس و الشيء، كالطيب من القول لملائمته السمع،

ص: ١٩٥

١- ١). البقره ١٦٣-١٦٧: بحث روائى فى توحيد الله سبحانه.

٢- ٢). البقره ١٦٣-١٦٧: بحث فلسفى فى الحب؛ الحب تعلق وجودى و انجذاب خاص بين العله المكمله و بين المعلول
المستكمل؛ الحب ذو مراتب مختلفه من الشده و الضعف فانه رابطه وجوديه؛ ان الله سبحانه اهل للحب بأى جهه فرضت.

٣- ٣). البقره ١٦٣-١٦٧: بحث فلسفى فى انقطاع العذاب و الخلود.

و الطيب من العطر يلائم الشامه،و الطيب من المكان يلائم حال المتمكن فيه.و الخطوات بضمين جمع خطوه،و هي ما بين القدمين للماشى،و قرء خطوات بفتحتين و هي جمع خطوه و هي المره،و خطوات الشيطان هي الامور التى نسبتة الى غرض الشيطان-و هو الإغواء بالشرك-نسبه خطوات الماشى الى مقصده و غرضه،فهى الامور التى هي مقدمات للشرك و البعد من الله سبحانه،و الأمر هو تحميل الأمر إرادته نفسه على المأمور ليأتى ما يريد،و الأمر من الشيطان وسوسته و تحميله ما يريد من الإنسان عليه باخطاره فى قلبه و تزيينه فى نظره و السوء ما ينافره الإنسان و يستقبحه بنظر الاجتماع فاذا جاوز حده و تعدى طوره كان فحشاء و لذلك سمى الزنا بالفحشاء و هو مصدر كالسراء و الضراء.

و قد عمم تعالى الخطاب لجميع الناس لأن الحكم الذى يقرعه سمعهم و بينه لهم مما يتلى به الكل،أما المشركون:فقد كان عندهم امور مما حرموه على أنفسهم افتراء على الله كما روى أن ثقيفا و خزاعه و بنى عامر بن صعصعه و بنى مدلج كانوا قد حرموا على أنفسهم أشياء من الحرث و الأنعام و البحيره و السائبه و الوصيله،هذا فى العرب،و فى غيرهم أيضا يوجد أشياء كثيره من هذا القبيل،و أما المؤمنون:فربما كان يبقى بعد الإسلام بينهم امور خرافيه طبق ناموس توارث الأخلاق و الآداب القوميه و السنن المنسوخه بنواسخ غير تدريجيّه كالأديان و القوانين و غيرها فان كل طريقه جديده دينيه أو دنيويه اذا نزلت بدار قوم فانما تتوجه أول ما تتوجه الى اصول الطريقه القديمه و أعراقها فتقطعه فان دامت على حياتها و قوتها-و ذلك بحسن التربيّه و حسن القبول-أماتت الفروع و قطعت الأذنان و إلّا-فاختلطت بقايا من القديمه بالحديثه و التثمت بها و صارت كالمركب النباتى،ما هو بهذا و لا ذاك.

فقوله تعالى: **كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا**، يفيد الإباحه العامه من غير تقييد و اشتراط فيه إلا أن قوله: **وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ**، الخ؛ يفيد: أن هاهنا امورا

تسمى خطوات الشيطان-متعلقه بهذا الأكل الحلال الطيب-إما كف عن الأكل اتباعا للشيطان،و إما إقدام عليه اتباعا للشيطان،ثم ذكر ضابط ما يتبع فيه الشيطان بأنه سوء و فحشاء،و قول ما لا يعلم على الله سبحانه و اذا كان الكف غير جائز إلا برضى من الله تعالى فالفعل أيضا كذلك فليس الأكل مما فى الأرض حلالا طيبا إلا أن يأذن الله تعالى و يشرعه و قد شرعه بهذه الآيه و نظائرها و لا يمنع عنه بنهى أو ردع كما سيأتى من قوله تعالى: **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ الْآيَةَ**؛فرجع معنى الآيه-و الله أعلم-الى نحو قولنا كلوا مما فى الأرض من نعم الله المخلوقه لكم فقد جعله الله لكم حلالا طيبا و لا تتركوا بعضا منها كفا و امتناعا فيكون سوء و فحشاء و قولنا بغير علم أى تشريعا ليس لكم ذلك و هو اتباع خطوات الشيطان.

قوله تعالى: **إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**،السوء و الفحشاء يكونان فى الفعل،و فى مقابله القول،و بذلك يظهر: أن ما يأمر به الشيطان ينحصر فى الفعل الذى هو سوء و فحشاء،و القول الذى هو قول بغير علم.

قوله تعالى: **وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفْقَيْنَا** ،الإلقاء الوجدان أى وجدنا عليه آباءنا،و الآيه تشهد بما استفدناه من الآيه السابقه فى معنى خطوات الشيطان.

قوله تعالى: **أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ** ،جواب عن قولهم،و بيانه أنه قول بغير علم و لا تبين،و ينافيه صريح العقل فان قولهم:بل نتبع ما ألقىنا عليه آباءنا،قول مطلق أى نتبع آباءنا على أى حال و على أى وصف كانوا،حتى لو لم يعلموا شيئا و لم يهتدوا و نقول ما فعلوه حق،و هذا هو القول بغير علم،و يؤدى الى القول بما لا- يقول به عاقل لو تنبه له و لو كانوا اتبعوا آباءهم فيما علموه و اهتدوا فيه و هم يعلمون:إنهم علموا و اهتدوا فيه لم يكن من قبيل الاهتداء بغير علم.

قوله تعالى: وَ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعُقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَ نِدَاءً، المثل هو الكلام السائر و المثل هو الوصف كقوله تعالى: أُنظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (الفرقان ٩/٩)، و النعيق صوت الراعى لغنمه زجرا يقال: نعق الراعى بالغنم ينعق نعيقا اذا صاح بها زجرا، و النداء مصدر نادى ينادى مناداه، و هو أخص من الدعاء فيه معنى الجهر بالصوت و نحوه بخلاف الدعاء، و المعنى -و الله أعلم- و مثلك فى دعاء الذين كفروا كمثل الذى ينعق من البهائم بما لا يسمع من نعيقه إلا دعاء و نداء ما، فينزجر بمجرد قرع الصوت سمعه من غير أن يعقل شيئا فهم صم لا يسمعون كلاما يفيدهم، و بكم لا يتكلمون بما يفيد معنى، و عمى لا يبصرون شيئا فهم لا يعقلون شيئا لأن الطرق المؤديه الى التعقل مسدوده عليهم (١).

[سوره البقره (٢): الآيات ١٧٢ الى ١٧٦]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيْهِ تَشْكُرُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخَيْزِرِ وَ مَا أَهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٧٣) إِنْ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَ يَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ لَا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَهَ بِالْهُدَى وَ الْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَ إِنْ الَّذِينَ اِخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦)

ص: ١٩٨

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، خطاب خاص بالمؤمنين بعد الخطاب السابق للناس فهو من قبيل انتزاع الخطاب من الخطاب، كأنه انصراف عن خطاب جماعه ممن لا- يقبل النصح و لا- يصغى الى القول، و التفات الى من يستجيب الداعى لإيمانه به، و التفاوت الموجود بين الخطابين ناش من تفاوت المخاطبين، فان المؤمنين بالله لما كان يتوقع منهم القبول بدل قوله: ﴿مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالًا طَيِّبًا﴾ من قوله: ﴿طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، و كان ذلك وسيله الى أن يطلب منهم الشكر لله وحده لكونهم موحدين لا يعبدون إلا الله سبحانه، و لذلك بعينه قيل: ما رزقناكم و لم يقل: ما رزقتم أو ما فى الأرض و نحوه، لما فيه من الإيماء أو الدلالة على كونه تعالى معروفًا لهم قريبًا منهم حينئذ رءوفا بهم، و الظاهر أن يكون قوله: ﴿مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، من قبيل إضافة الصفه الى الموصوف لا من قبيل قيام الصفه مقام الموصوف فان المعنى على الأول كلوا من رزقنا الذى كله طيب، و هو المناسب لمعنى التقرب و التحنن الذى يلوح من المقام، و المعنى على الثانى كلوا من طيب الرزق لا- من خبيثه، و هو بعيد المناسبه عن المقام الذى هو مقام رفع الحظر، و النهى عن الامتناع عن بعض ما رزقهم الله سبحانه تشريعا من عند أنفسهم و قولاً بغير علم.

قوله تعالى: ﴿وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، لم يقل و اشكروا لنا بل

اشكروا لله ليكون أدل على الأمر بالتوحيد و لذلك أيضا قيل: إن كنتم إياه تعبدون فدل على الحصر و القصر و لم يقل إن كنتم تعبدونه.

قوله تعالى: **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ مَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ، الإِهْلَالُ لِغَيْرِ اللَّهِ هُوَ الذَّبْحُ لِغَيْرِهِ كَالْأَصْنَامِ.**

قوله تعالى: **فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاطِلٍ وَ لَآءِ عَادٍ،** أى غير ظالم و لا متجاوز حده، و هما حالان عاملهما الاضطرار فيكون المعنى فمن اضطر الى أكل شيء مما ذكر من المنهيات اضطرارا في حال عدم بغيه و عدم عدوه فلا ذنب له في الأكل، و أما لو اضطر في حال البغى و العدو كأن يكونا هما الموجبين للاضطرار فلا يجوز له ذلك، و قوله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ،** دليل على أن التجوز تخفيف و رخصه منه تعالى للمؤمنين و إلا فمناط النهى موجود في صورته الاضطرار أيضا.

قوله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ،** تعريض لأهل الكتاب اذ عندهم شيء كثير من المحللات الطيبة التي حرمها كبرائهم و رؤسائهم في العبادات و غيرها- و عندهم الكتاب الذي لا يقضى فيه بالتحريم- و لم يكتموا ما كتّموه إلا حفظا لما يدر عليهم من رزق الرئاسه و ابهه المقام و الجاه و المال.

و فى الآيه من الدلاله على تجسم الأعمال و تحقق نتائجها ما لا يخفى فإنه تعالى ذكر أولا أن اختيارهم الثمن القليل على ما أنزل الله هو أكل النار فى بطونهم ثم بدل اختيار الكتمان و أخذ الثمن على بيان ما أنزل الله فى الآيه التاليه من اختيار الضلاله على الهدى ثم من اختيار العذاب على المغفره ثم ختمها بقوله: **فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ،** و الذى كان منهم ظاهرا هو الإدامه للكتمان و البقاء عليها فافهم.

[سوره البقره (٢): آيه ١٧٧]

اشاره

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ لَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ الْمَلَائِكَةِ وَ الْكِتَابِ وَ النَّبِيِّنَ وَ آتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَى وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسْكِينِ وَ ابْنَ السَّبِيلِ وَ السَّائِلِينَ وَ فِي الرِّقَابِ وَ أَقَامَ الصَّلَاةَ وَ آتَى الزَّكَاةَ وَ الْمَوْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَ الصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ حِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)

ص: ٢٠٠

قوله تعالى: لَيْسَ الْعَبْرُ أَنْ تُؤَلُّوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، البر بالكسر التوسع من الخير و الإحسان، و البر بالفتح صفه مشبهه منه، و القبل بالكسر فالفتح الجبهه و منه القبله و هى النوع من الجبهه، و ذووا القربى الأقرباء، و اليتامى جمع يتيم و هو الذى لا- والد له، و المساكين جمع مسكين و هو أسوأ حالا- من الفقير، و ابن السبيل المنقطع عن أهله، و الرقاب جمع رقبه و هى رقبه العبد، و البأساء مصدر كالبؤس و هو الشده و الفقر، و الضراء مصدر كالضر و هو أن يتضرر الإنسان بمرض أو جرح أو ذهاب مال أو موت ولد، و البأس شده الحرب.

قوله تعالى: وَ لَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ عَدَلَ عَنْ تَعْرِيفِ الْبِرِّ بِالْكَسْرِ إِلَى تَعْرِيفِ الْبِرِّ بِالْفَتْحِ لِيَكُونَ بَيَانًا وَ تَعْرِيفًا لِلرِّجَالِ مَعَ تَضَمُّنِهِ لَشَرْحِ وَ صَفْهِمْ وَ إِيمَاءِ إِلَى أَنَّهُ لَا أَثَرَ لِلْمَفْهُومِ الْخَالِي عَنِ الْمَصْدَاقِ وَ لَا فَضْلَ فِيهِ، وَ هَذَا دَأْبُ الْقُرْآنِ فِي جَمِيعِ بَيَانَاتِهِ فَانْه يَبِينُ الْمَقَامَاتِ وَ يَشْرَحُ الْأَحْوَالَ بِتَعْرِيفِ رِجَالِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَقْنَعُ بِبَيَانِ الْمَفْهُومِ فَحَسَبَ.

و بالجمله قوله و لكن البر من آمن بالله و اليوم الآخر، تعريف للأبرار و بيان لحقيقه حالهم،

وقد عزّفهم أولاً في جميع المراتب الثلاث من الاعتقاد و الأعمال و الأخلاق بقوله: (مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ) و ثانياً بقوله: (أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا) و ثالثاً بقوله: (وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) .

قوله تعالى: وَ الصَّابِرِينَ فِي الْبُؤْسَاءِ، منصوب على المدح إعظاماً لأمر الصبر، و قد قيل إن الكلام إذا طال بذكر الوصف بعد الوصف فمذهبهم ان يعترضوا بين الأوصاف بالمدح و الذم، و اختلاف الإعراب بالرفع و النصب.

[سوره البقره (٢): الآيات ١٧٨ الى ١٧٩]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَابْتِغِ بِالْمَعْرُوفِ وَ أَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَ رَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَىٰ بِعَدْوٍ ذَلِكُمْ فَلهٖ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَ لَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ، في توجيه الخطاب الى المؤمنين خاصة إشاره الى كون الحكم خاصاً بالمسلمين، و أما غيرهم من أهل الذمه و غيرهم فالآيه ساكنه عن ذلك.

و نسبة هذه الآيه الى قوله تعالى: أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ (المائدة ٤٨/١)، نسبة التفسير، فلا وجه لما ربما يقال، إن هذه الآيه ناسخه لتلك الآيه فلا يقتل حر بعبد و لا رجل بمرأه.

و بالجمله القصاص مصدر؛ قاص يقاص؛ من قص أثره اذا تبعه و منه القصاص لمن يحدث بالآثار و الحكايات كأنه يتبع آثار الماضين فتسميه القصاص بالقصاص لما فيه من متابعه

الجانى فى جنايته فيوقع عليه مثل ما اوقعه على غيره.

قوله تعالى: **فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ**، المراد بالموصول القاتل، و العفو للقاتل إنما يكون فى حق القصاص فالمراد بالشىء هو الحق، و فى تنكيره تعميم للحكم أى أى حق كان سواء كان تمام الحق أو بعضه كما اذا تعدد أولياء الدم فعفى بعضهم حقه للقاتل فلا قصاص حينئذ بل الديه، و فى التعبير عن ولى الدم بالأخ إثاره لحس المحبه و الرأفه و تلويح الى أن العفو أحب.

قوله تعالى: **فَأَتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَ أَدَاءً إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ**، مبتدأ خبره محذوف أى فعليه أن يتبع القاتل فى مطالبه الديه بمصاحبه المعروف، من الاتباع و على القاتل أن يؤدى الديه الى أخيه ولى الدم بالإحسان من غير مماطله فيها إيذائه.

قوله تعالى: **ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَ رَحْمَةٌ**، أى الحكم بانتقال القصاص الى الديه تخفيف من ربكم فلا يتغير فليس لولى الدم أن يقتص بعد العفو فيكون اعتداء فمن اعتدى فاققتص بعد العفو فله عذاب أليم.

قوله تعالى: **وَ لَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**، إشاره الى حكمه التشريع، و دفع ما ربما يتوهم من تشريع العفو و الديه و بيان المزيه و المصلحه التى فى العفو و هو نشر الرحمه و إثثار الرأفه ان العفو اقرب الى مصلحه الناس، و حاصله أن العفو و لو كان فيه ما فيه من التخفيف و الرحمه، لكن المصلحه العامه قائمه بالقصاص فإن الحياه لا يضمنها إلا القصاص دون العفو و الديه و لا كل شىء مما عداهم، يحكم بذلك الإنسان اذا كان ذا لب و قوله لعلكم تتقون، أى القتل و هو بمنزله التعليل لتشريع القصاص (1).

ص: ٢٠٣

اشاره

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْأَقْرَبِينَ وَالأَقْرَبِينَ بِالمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨٢)

بيان:

قوله تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ، لسان الآيه لسان الوجوب فإن الكتابه يستعمل فى القرآن فى مورد القطع و اللزوم و يؤيده ما فى آخر الآيه من قوله حقا، فإن الحق أيضا كالكتابته يقتضى معنى اللزوم لكن تقييد الحق بقوله على المتقين، مما يوهن الدلاله على الوجوب و العزيمه فإن الأنسب بالوجوب أن يقال: حقا على المؤمنين، و كيف كان فقد قيل إن الآيه منسوخه بآيه الإرث، و لو كان كذلك فالمنسوخ هو الفرض دون الندب و أصل المحبوبيه، و لعل تقييد الحق بالمتقين فى الآيه لإفاده هذا الغرض.

و المراد بالخير المال، و كأنه المال المعتد به، دون اليسير الذى لا يعبأ به و المراد بالمعروف هو المعروف المتداول من الصنيعه و الإحسان.

قوله تعالى: فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ، ضمير إثمه راجع الى التبديل، و الباقي من الضمائر الى الوصيه بالمعروف، و هى مصدر يجوز فيه

الوجهان و إنما قال على الذين يدلونه، و لم يقل عليهم ليكون فيه دلالة على سبب الإثم و هو تبديل الوصيه بالمعروف و ليستقيم تفریع الآیه التاليه عليه.

قوله تعالى: **فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ**، الجنف هو الميل و الانحراف، و قيل: هو ميل القدمين الى الخارج كما أن الحنف بالحاء المهمله انحرافهما الى الداخل، و المراد على أى حال الميل الى الإثم بقريته الإثم، و الآيه تفریع على الآيه السابقه عليها، و المعنى (و الله أعلم) فإنما إثم التبديل على الذين يدلون الوصيه بالمعروف، و يتفرع عليه: ان من خاف من وصيه الموصى أن يكون وصيته بالإثم أو مائلا- اليه فأصلح بينهم برده الى ما لا إثم فيه فلا إثم عليه لأنه لم يبدل وصيته بالمعروف بل إنما بدل ما فيه إثم أو جنف.

[سوره البقره (٢): الآيات ١٨٣ الى ١٨٥]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَ لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَ لِتَكْبُرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اه، الإتيان بهذا الخطاب لتذكيرهم بوصف فيهم و هو الايمان، يجب عليهم اذا التفتوا إليه أن يقبلوا ما يواجههم ربهم به من الحكم و إن كان على خلاف مشتبهاتهم و عاداتهم، و قد صدرت آيه القصاص بذلك أيضا لما سمعت أن النصارى كانوا يرون العفو دون القصاص و إن كان سائر الطوائف من الملمين و غيرهم يرون القصاص.

قوله تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ اه، الكتابه معروفه المعنى و يكنى به عن الفرض و العزيمه و القضاء الحتم كقوله: كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي (المجادله ٢١)، و قوله تعالى: وَ نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَرَهُمْ (يس / ١٢)، و قوله تعالى: وَ كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ (المائده ٤٥)، و الصيام و الصوم فى اللغه مصدران بمعنى الكف عن الفعل: كالصيام عن الأكل و الشرب و المباشره و الكلام و المشى و غير ذلك، و ربما يقال: انه الكف عما تشتهيه النفس و تتوق اليه خاصه ثم غلب استعماله فى الشرع فى الكف عن امور مخصوصه، من طلوع الفجر الى المغرب بالنيه، و المراد بالذين من قبلكم الامم الماضيه ممن سبق ظهور الاسلام من امم الانبياء كماه موسى و عيسى و غيرهم، فإن هذا المعنى هو المعهود من اطلاق هذه الكلمه فى القرآن أينما اطلقت، و ليس قوله: كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، فى مقام الاطلاق من حيث الاشخاص و لا- من حيث التنظير فلا يدل على أن جميع امم الانبياء كان مكتوبا عليهم الصوم من غير استثناء و لا على أن الصوم المكتوب عليهم هو الصوم الذى كتب علينا من حيث الوقت و الخصوصيات و الأوصاف، فالتنظير فى الآيه إنما هو من حيث اصل الصوم و الكف لا من حيث خصوصياته.

و المراد بالذين من قبلكم، الامم من الملمين فى الجملة، و لم يعين القرآن من هم، غير أن ظاهر قوله: **كَمَا كَتَبَ**، أن هؤلاء من أهل الملة و قد فرض عليهم ذلك، و لا- يوجد فى التوراه و الانجيل الموجود عند اليهود و النصارى ما يدل على وجوب الصوم و فرضه، بل الكتابان إنما يمدحانه و يعظمان أمره، لكنهم يصومون أياما معدوده فى السنه الى اليوم بأشكال مختلفه:

كالصوم عن اللحم و الصوم عن اللبن و الصوم عن الأكل و الشرب، و فى القرآن قصه صوم زكريا عن الكلام و كذا صوم مريم عن الكلام.

قوله تعالى: **لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**، كان أهل الاوثان يصومون لإرضاء آلهتهم أو لإطفاء نائره غضبها اذا أجرموا جرما أو عصوا معصيه، و اذا أرادوا إنجاح حاجه و هذا يجعل الصيام معامله و مبادله يعطى بها حاجه الرب ليقضى حاجه العبد أو يستحصل رضاه ليستحصل رضا العبد، و إن الله سبحانه أمتع جانبا من أن يتصور فى حقه فقر أو حاجه أو تأثر أو أذى، و بالجملة هو سبحانه برىء من كل نقص، فما تعطيه العبادات من الاثر الجميل، أى عباده كانت و أى أثر كان، إنما يرجع الى العبد دون الرب تعالى و تقدس، كما ان المعاصى أيضا كذلك، قال تعالى: **إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا** (الإسراء/٧)، هذا هو الذى يشير اليه القرآن الكريم فى تعليمه بإرجاع آثار الطاعات و المعاصى الى الانسان الذى لا شأن له إلا الفقر و الحاجه، قال تعالى: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ** (فاطر/ ١٥) و يشير اليه فى خصوص الصيام بقوله: **لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**، و كون التقوى مرجو الحصول بالصيام مما لا ريب فيه فإن كل إنسان يشعر بفطرته أن من أراد الاتصال بعالم الطهاره و الرفعه، و الارتقاء الى مدرجه الكمال و الروحانيه فأول ما يلزمه أن يتنزه عن الاسترسال فى استيفاء لذائذ الجسم و ينقبض عن الجماع فى شهوات البدن و يتقدس عن الاخلاص الى الارض، و بالجملة أن يتقى ما يبعده الاشتغال به عن الرب تبارك و تعالى فهذه تقوى إنما تحصل بالصوم و الكف عن الشهوات، و أقرب من ذلك و أمس لحال عموم الناس من أهل

الدنيا و أهل الآخرة ان يتقى ما يعم به البلوى من المشتبهات المباحه كالأكل و الشرب و المباشره حتى يحصل له التدرب على اتقاء المحرمات و اجتنابها، و تترى على ذلك إرادته فى الكف عن المعاصى و التقرب الى الله سبحانه، فإن من أجاب داعى الله فى المشتبهات المباحه و سمع و أطاع فهو فى محارم الله و معاصيه أسمع و أطوع.

قوله تعالى: أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ، منصوب على الظرفيه بتقدير، فى، و متعلق بقوله:

الصَّيَامِ، و قد مر أن تنكير أيام و اتصافه بالعدد للدلاله على تحقير التكليف من حيث الكلفه و المشقه تشجيعاً للمكلف، و قد مر ان قوله: شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ، الخ؛ بيان للأيام فالمراد بالأيام المعدودات شهر رمضان.

قوله تعالى: فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ، الفاء للتفريع و الجملة متفرعه على قوله: كُتِبَ عَلَيْكُمْ، و قوله: مَّعْدُودَاتٍ اه، أى إن الصيام مكتوب مفروض، و العدد مأخوذ فى الفرض، و كما لا يرفع اليد عن أصل الفرض كذلك لا يرفع اليد عن العدد، فلو عرض عارض يوجب ارتفاع الحكم الفرض عن الأيام المعدودات التى هى أيام شهر رمضان كعارض المرض و السفر، فإنه لا يرفع اليد عن صيام عده من أيام آخر خارج شهر رمضان تساوى ما فات المكلف من الصيام عدداً، و هذا هو الذى أشار تعالى إليه فى الآيه الثالثه بقوله: وَ لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ، فقوله تعالى: أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ، كما يفيد معنى التحقير كما مرّ يفيد كون العدد ركناً مأخوذاً فى الفرض و الحكم.

ثم إن المرض خلاف الصحه و السفر مأخوذ من السفر بمعنى الكشف كأن المسافر ينكشف لسفره عن داره التى يأوى إليها و يكنّ فيها، و كأن قوله تعالى: أَوْ عَلَى سَفَرٍ، و لم يقل: مسافراً للإشارة الى اعتبار فعلية التلبس حالاً دون الماضى و المستقبل.

قوله تعالى: وَ عَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ، الاطاقه كما ذكره بعضهم صرف تمام الطاقه فى الفعل، و لازمه وقوع الفعل بجهد و مشقه، و الفديه هى البدل

و هي هنا بدل مالى و هو طعام مسكين أى طعام يشبع مسكينا جائعا فى أوسط ما يطعم الانسان، و حكم الفديه أيضا فرض كحكم القضاء فى المريض و المسافر لمكان قوله: وَ عَلَى الَّذِينَ، الظاهر فى الوجوب التعيينى دون الرخصه و التخير.

قوله تعالى: فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، التطوع تفعل من الطوع مقابل الكره و هو إتيان الفعل بالرضا و الرغبة، و معنى باب التفعل الاخذ و القبول فمعنى التطوع التلبس فى إتيان الفعل بالرضا و الرغبة من غير كره و استئثار سواء كان فعلا إلزاميا أو غير إلزامي، و اما اختصاص التطوع استعمالا بالمستحبات و المندوبات فمما حدث بعد نزول القرآن بين المسلمين بعنايه ان الفعل الذى يؤتى به بالطوع هو الندب و اما الواجب ففيه شوب كره لمكان الالزام الذى فيه.

و بالجمله التطوع كما قيل: لا دلالة فيه ماده و هيئه على الندب و على هذا فالفاء للتفريع و الجمله متفرعه على المحصل من معنى الكلام السابق، و المعنى و الله أعلم: الصوم مكتوب عليكم مرعيا فيه خير كم و صلاحكم مع ما فيه من استقراركم فى صف الامم التى قبلكم، و التخفيف و التسهيل لكم فأتوا به طوعا لا كرها، فإن من أتى بالخير طوعا كان خيرا له من أن يأتي به كرها.

و من هنا يظهر: أن قوله: فمن تطوع خيرا من قبيل وضع السبب موضع المسبب أعنى وضع كون التطوع بمطلق الخير خيرا مكان كون التطوع بالصوم خيرا نظير قوله تعالى: قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَ لَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ أى فاصبر و لا تحزن فانهم لا يكذبونك.

قوله تعالى: وَ أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، جمله متممه لسابقتها، و المعنى بحسب التقدير - كما مر -: تطوعوا بالصوم المكتوب عليكم فان التطوع بالخير خير و الصوم خير لكم، فالتطوع به خير على خير.

قوله تعالى: شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى، شهر رمضان هو الشهر التاسع من الشهور القمرية العربية بين شعبان و شوال و لم يذكر اسم شيء من الشهور في القرآن الا شهر رمضان.

و النزول هو الورود على المحل من العلو، و الفرق بين الإنزال و التنزيل أن الإنزال دفعي و التنزيل تدريجي، و القرآن اسم للكتاب المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه و آله و سلم باعتبار كونه مقروءا كما قال تعالى: إِذَا جَعَلْتُمْ كُفْرَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (الزخرف ٣)، و يطلق على مجموع الكتاب و على أبعاضه.

و الآيه تدل على نزول القرآن في شهر رمضان، و قد قال تعالى: وَ قُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَ نَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (الإسراء ١٠٦)، و هو ظاهر في نزوله تدريجا في مجموع مده الدعوه و هي ثلث و عشرون سنه تقريبا، و المتواتر من التاريخ يدل على ذلك، و لذلك ربما استشكل عليه بالتنافي بين الآيتين.

و الذي يعطيه التدبر في آيات الكتاب أمر آخر فإن الآيات الناطقه بنزول القرآن في شهر رمضان أو في ليله منه إنما عبرت عن ذلك بلفظ الإنزال الدال على الدفعه دون التنزيل كقوله تعالى: شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ (البقره ١٨٥) و قوله تعالى: حم.

وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلِهِ مُبَارَكَةٍ (الدخان ٣)، و قوله تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (القدر ١)، و اعتبار الدفعه إما بلحاظ اعتبار المجموع في الكتاب او البعض النازل منه كقوله تعالى: كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ (يونس ٢٤)، فإن المطر إنما ينزل تدريجا لكن النظر هاهنا معطوف إلى أخذه مجموعا واحدا، و لذلك عبر عنه بالإنزال دون التنزيل، و كقوله تعالى: كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ (ص ٢٩)، و إما لكون الكتاب ذا حقيقه أخرى وراء ما نفهمه بالفهم العادي الذي يقضى فيه بالتفرق و التفصيل و الانبساط و التدريج هو المصحح لكونه واحدا غير تدريجي و نازلا بالإنزال دون التنزيل.. و هذا

الاحتمال الثاني هو اللائح من الآيات الكريمة كقوله تعالى: **كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَمَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** (هود ١)، فإن هذا الاحكام مقابل التفصيل، والتفصيل هو جعله مفصلا فصلا و قطعه قطعه فالاحكام كونه بحيث لا يتفصل فيه جزء من جزء و لا يتميز بعض من بعض لرجوعه الى معنى واحد لا أجزاء و لا فصول فيه، والآيه ناطقه بأن هذا التفصيل المشاهد فى القرآن إنما طرى عليه بعد كونه محكما غير مفصل (١).

قوله تعالى: **هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ**، الناس، و هم الطبقة الدانية من الانسان الذين سطح فهمهم المتوسط أنزل السطوح، يكثر إطلاق هذه الكلمه فى حقهم، كما قال تعالى: **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** (الروم ٣٠)، وقال تعالى: **وَتِلْكَ الْأُمَّةَ أَلْ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ** (العنكبوت ١٧٣)، وهؤلاء أهل التقليد لا يسعهم تمييز الامور المعنويه بالبينه و البرهان، و لا فرق الحق من الباطل بالحجه إلا- بمبين يبين لهم و هاد يهديهم، و القرآن هدى لهم و نعم الهدى، و أما الخاصه المستكملون فى ناحيتى العلم و العمل، المستعدون للاقتباس من أنوار الهدايه الالهيه و الركون الى فرقان الحق فالقرآن بينات و شواهد من الهدى و الفرقان فى حقهم فهو يهديهم اليه و يميز لهم الحق و يبين لهم كيف يميز، قال تعالى: **يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** (المائد ١٦).

و من هنا يظهر وجه التقابل و البينات من الهدى، و هو التقابل بين العام و الخاص فالهدى لبعض و البينات من الهدى لبعض آخر.

قوله تعالى: **فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ**، الشهاده هى الحضور مع تحمل

ص: ٢١١

١- ١). البقره ١٨٣-١٨٥: بحث تفسيرى مستدل بآيات من القرآن حول كيفية نزول القرآن و معنى نزول القرآن فى شهر رمضان.

العلم من جهته، وشهاده الشهر إنما هو ببلوغه و العلم به، و يكون بالبعض كما يكون بالكل.

و أما كون المراد بشهود الشهر رؤيه هلاله و كون الانسان بالحضر مقابل السفر فلا دليل عليه إلا من طريق الملازمه فى بعض الاوقات بحسب القرائن، و لا قرينه فى الآيه.

قوله تعالى: **فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ** ، ايراد هذه الجملة فى الآيه ثانيا ليس من قبيل التكرار للتأكيد و نحوه لما عرفت أن الآيتين السابقتين مع ما تشتملان عليه مسوقتان للتوطئه و التمهيدي دون بيان الحكم و أن الحكم هو الذى بين فى الآيه الثالثه فلا تكرر.

قوله تعالى: **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَ لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ** ، كأنه بيان لمجموع حكم الاستثناء: و هو الافطار فى شهر رمضان لمكان نفي العسر، و صيام عده من أيام أخر لمكان وجوب اكمال العده، و اللام فى قوله: **لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ** ، للغايه، و هو عطف على قوله: **يُرِيدُ** ، لكونه مشتملا على معنى الغايه، و التقدير و انما أمرناكم بالافطار و القضاء لنخفف عنكم و لتكملوا العده، و لعل ايراد قوله: **وَ لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ** هو الموجب لاسقاط معنى قوله: **وَ عَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامٌ مِسْكِينٍ** ، عن هذه الآيه مع تفهم حكمه بنفى العسر و ذكره فى الآيه السابقه.

قوله تعالى: **وَ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ، ظاهر الجملتين على ما يشعر به لام الغايه (1) أنهما لبيان الغايه غايه اصل الصيام دون حكم الاستثناء فإن تقييد قوله: **شَهْرُ رَمَضَانَ** بقوله: **الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ** الى آخره مشعر بنوع من العليه و ارتباط فرض صيام شهر رمضان بنزول القرآن هدى للناس و بينات من الهدى و الفرقان فيعود معنى الغايه الى ان التلبس بالصوم لاطهار كبريائه تعالى بما نزل عليهم القرآن

ص: ٢١٢

(١-١). المراد بالغايه الغرض و هو اصطلاح (منه).

و اعلن ربوبيته و عبوديتهم، و شكر له بما هداهم الى الحق، و فرق لهم بكتابه بين الحق و الباطل. و لما كان الصوم انما يتصف بكونه شكرا لنعمه اذا كان مشتملا على حقيقه معنى الصوم و هو الاخلاص لله سبحانه فى التنزه عن الواث الطبيعه و الكف عن اعظم مشتريات النفس بخلاف اتصافه بالتكبير لله فإن صورته الصوم و الكف سواء اشتمل على اخلاص النيه أو لم يشتمل يدل على تكبيره تعالى و تعظيمه فرق بين التكبير و الشكر فقرن الشكر بكلمه الترجي دون التكبير فقال: و لتكبروا الله على ما هداكم و لعلكم تشكرون كما قال: فى اول الآيات: لعلكم تتقون (١).

[سوره البقره (٢): آيه ١٨٦]

اشاره

وَ إِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)

بيان:

اشاره

قوله تعالى: وَ إِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ، أحسن بيان لما اشتمل عليه من المضمون و أرق اسلوب و أجمله فقد وضع أساسه على التكلم وحده دون الغيبه و نحوها، و فيه دلالة على كمال العناية بالأمر، ثم قوله: عِبَادِي، و لم يقل: الناس و ما أشبهه يزيد فى هذه العناية، ثم حذف الواسطه فى الجواب حيث قال: فإننى قريب و لم يقل: فقل إنه قريب، ثم التأكيد بـان، ثم الاتيان بالصفه دون الفعل الدال على القرب ليدل على ثبوت القرب و دوامه، ثم الدلالة على تجدد الاجابه و استمرارها حيث أتى بالفعل المضارع الدال عليهما، ثم تقييده الجواب أعنى قوله: أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ بقوله: إِذَا دَعَانِ،

ص: ٢١٣

و هذا القيد لا يزيد على قوله: دَعْوَةُ الدَّاعِ المقيد به شيئاً بل هو عينه، وفيه دلالة على أن دعوه الداع مجابه من غير شرط و قيد كقوله تعالى: اذْعُونِي اَسْتَجِبْ لَكُمْ (المؤمن ١٦٠)، فهذه سبع نكات في الآية تنبئ بالاهتمام في أمر استجابته الدعاء و العناية بها، مع كون الآية قد كرر فيها-على إيجازها-ضمير المتكلم سبع مرات، و هي الآية الوحيدة في القرآن على هذا الوصف.

و الدعاء و الدعوه توجيه نظر المدعو نحو الداعي، و السؤال جلب فائده أو درّ من المسئول يرفع به حاجه السائل بعد توجيه نظره، فالسؤال بمنزله الغايه من الدعاء و هو المعنى الجامع لجميع موارد السؤال كالسؤال لرفع الجهل و السؤال بمعنى الحساب و السؤال بمعنى الاستدرا و غيره.

ثم إن العبوديه كما مر سابقا هي المملوكيه و لا كل مملوكيه بل مملوكيه الانسان فالعبد هو من الانسان أو كل ذى عقل و شعور كما في الملك المنسوب اليه تعالى.

و ملكه تعالى يغاير ملك غيره مغايره الجدم مع الدعوى و الحقيقه مع المجاز فإنه تعالى يملك عباده ملكا طلقا محيطا بهم لا يستقلون دونه فى أنفسهم و لا ما يتبع أنفسهم من الصفات و الأفعال و ساير ما ينسب إليهم من الأزواج و الأولاد و المال و الجاه و غيرها، فكل ما يملكونه من جهه إضافته إليهم بنحو من الانحاء كما فى قولنا: نفسه، و بدنه، و سمعه، و بصره، و فعله، و أثره، و هي أقسام الملك بالطبع و الحقيقه و قولنا: زوجه و ماله و جاهه و حقه،-و هي أقسام الملك بالوضع و الاعتبار-إنما يملكونه بإذنه تعالى فى استقرار النسبه بينهم و بين ما يملكون اياما كان و تملكه فالله عز اسمه، هو الذى اضاف نفوسهم و اعيانهم اليهم و لو لم يشاء لم يضيف فلم يكونوا من رأس، و هو الذى جعل لهم السمع و الابصار و الافئده، و هو الذى خلق كل شىء و قدره تقديرا.

فهو سبحانه الحائل بين الشىء و نفسه، و هو الحائل بين الشىء و بين كل ما يقارنه: من ولد او

زوج او صديق او مال او جاه او حق فهو اقرب الى خلقه من كل شىء مفروض فهو سبحانه قريب على الاطلاق كما قال تعالى: وَ نَحْنُ اقْرَبُ اِلَيْهِ مِنْكُمْ وَ لَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (الواقعه / ٨٥)، وقال تعالى: وَ نَحْنُ اقْرَبُ اِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (ق / ١٦)، وقال تعالى: اِنَّ اللّٰهَ يَحْوِلُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ (الأنفال / ٢٤)، والقلب هو النفس المدركه.

و بالجمله فملكه سبحانه لعباده ملكا حقيقيا و كونهم عبادا له هو الموجب لكونه تعانى قريبا منهم على الاطلاق و اقرب اليهم من كل شىء عند القياس و هذا الملك الموجب لجواز كل تصرف شاء كيفما شاء من غير دافع و لا مانع يقضى ان الله سبحانه ان يجب اى دعاء دعا به احد من خلقه و يرفع بالاعطاء و التصرف حاجته التى سأله فيها فان الملك عام، و السلطان و الاحاطه واقعتان على جميع التقادير من غير تقييد بتقدير دون تقدير لا كما يقوله اليهود: ان الله لما خلق الاشياء و قدر التقادير تم الامر، و خرج زمام التصرف الجديد من يده بما حتمه من القضاء، فلا نسخ و لا بداء و لا استجابه لدعاء لان الامر مفروغ عنه، و لا كما يقوله جماعه من هذه الامه: ان لا صنع لله فى افعال عباده و هم القدرية الذين سماهم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم مجوس هذه الامه فيما رواه الفريقان من قوله صلى الله عليه و آله و سلم: القدرية مجوس هذه الامه.

بل الملك لله سبحانه على الاطلاق و لا يملك شىء شيئا الا بتمليك منه سبحانه و اذن فما شائه و ملكه و اذن فى وقوعه، يقع، و ما لم يشاء و لم يملك و لم يأذن فيه لا يقع و ان بذل فى طريق وقوعه كل جهد و عنايه، قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ (فاطر / ١٥).

فقد تبين: ان قوله تعالى: وَ إِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ، كما يشتمل على الحكم اعنى اجابه الدعاء كذلك يشتمل على علله فكون الداعين عبادا لله تعالى هو الموجب لقربه منهم، و قربه منهم هو الموجب لاجابته المطلقه لدعائهم، و اطلاق الاجابه يستلزم اطلاق الدعاء فكل دعاء دعى به فانه مجيبه الا ان هاهنا امرا و هو انه تعالى

قيد قوله: أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ بقوله إِذَا دَعَانِ، و هذا القيد غير الزائد على نفس المقيد بشيء يدل على اشتراط الحقيقة دون التجوز و الشبه، فان قولنا: اصغ الى قول الناصح اذا نصحك او اكرم العالم اذا كان عالما يدل على لزوم اتصافه بما يقتضيه حقيقته، فالناصح إذا قصد النصح بقوله فهو الذى يجب الاصغاء إلى قوله و العالم إذا تحقق بعلمه و عمل بما علم كان هو الذى يجب إكرامه فقوله تعالى إذا دعان، يدل على أن وعد الاجابه المطلقه، إنما هو إذا كان الداعى داعيا بحسب الحقيقة مريدا بحسب العلم الفطرى و الغريزى مواطئا لسانه قلبه، فإن حقيقه الدعاء و السؤال هو الذى يحمله القلب و يدعو به لسان الفطره، دون ما يأتى به اللسان الذى يدور كيفما أدير صدقا أو كذبا جدا أو هزلا حقيقه أو مجازا، و لذلك ترى أنه تعالى عد ما لا عمل للسان فيه سؤال قال تعالى: وَ اتَّأَكُم مِّنْ كُلِّ مَّاءٍ سَائِلُمُوهُ وَ إِنَّ تَعْرُدُوا نِعْمَتِ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (إبراهيم ٣٤)، فهم فيما لا يحصونها من النعم داعون سائلون و لم يسألوها بلسانهم الظاهر، بل بلسان فقرهم و استحقاقتهم لسانا فطريا وجوديا، و قال تعالى:

يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ كُلِّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (الرحمن ٢٩)، و دلالتة على ما ذكرنا أظهر و أوضح.

فالسؤال الفطرى من الله سبحانه لا يتخطى الاجابه، فما لا يستجاب من الدعاء و لا يصادف الاجابه فقد أحد أمرين و هما اللذان ذكرهما بقوله: دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ .

فإما أن يكون لم يتحقق هناك دعاء، و انما التبس الأمر على الداعى التباسا كان يدعو الانسان فيسأل ما لا يكون و هو جاهل بذلك أو ما لا يريد لو انكشف عليه حقيقه الامر مثل ان يدعو و يسأل شفاء المريض لا إحياء الميت، و لو كان استمكنه و دعا بحياته كما كان يسأله الانبياء لاعيدت حياته و لكنه على بأس من ذلك، أو يسأل ما لو علم بحقيقته لم يسأله فلا يستجاب له فيه.

و إما أن السؤال متحقق لكن لا من الله وحده كمن يسأل الله حاجه من حوائجه و قلبه

متعلق بالاسباب العاديه أو بامور وهميه توهمها كافيه فى امره أو مؤثره فى شأنه فلم يخلص الدعاء لله سبحانه فلم يسأل الله بالحقيقه فإن الله الذى يجيب الدعوات هو الذى لا شريك له فى أمره، لا من يعمل بشركه الاسباب و الاوهام، فهاتان الطائفتان من الدعاه السائلين لم يخلصوا الدعاء بالقلب و إن أخلصوه بلسانهم.

فهذا ملخص القول فى الدعاء على ما تفيده الآيه، و به يظهر معانى سائر الآيات النازله فى هذا الباب كقوله تعالى: قُلْ مَا يَعْجُبُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ (الفرقان ٧٧) و قوله تعالى:

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيَّرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَ تَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (الأنعام ٤١)، و قوله تعالى: قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَ خُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ قُلِ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ مِنْهَا وَ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (الأنعام ٦٤)، فالآيات داله على أن للانسان دعاء غريزيا و سؤالاً فطرياً يسأل به ربه، غير انه إذا كان فى رخاء و رفاه تعلقت نفسه بالاسباب فأشركها لربه، فالتبس عليه الامر و زعم أنه لا- يدعو ربه و لا- يسأل عنه، مع انه لا يسأل غيره فإنه على الفطره و لا تبديل لخلق الله تعالى، و لما وقع الشده و طارت الاسباب عن تأثيرها و فقدت الشركاء و الشفعاء تبين له ان لا منجج لحاجته و لا مجيب لمسأله إلا الله، فعاد إلى توحيدة الفطرى و نسى كل سبب من الاسباب، و وجه وجهه نحو الرب الكريم فكشف شدته و قضى حاجته و اظله بالرخاء، ثم إذا تلبس به ثانيا عاد الى ما كان عليه أولاً من الشرك و النسيان.

و كقوله تعالى: وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (المؤمن ٦٠)، و الآيه تدعو الى الدعاء و تعدد بالاجابه و تزيد على ذلك حيث تسمى الدعاء عباده بقولها: عن عبادتى أى عن دعائى، بل تجعل مطلق العباده دعاء حيث انها تشتمل الوعيد على ترك الدعاء بالنار و الوعيد بالنار انما هو على ترك

العبادة رأساً لا على ترك بعض اقسامه دون بعض فأصل العبادة دعاء فافهم ذلك.

و بذلك يظهر معنى آيات أخر من هذا الباب كقوله تعالى: فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ (المؤمن ١٤)، وقوله تعالى: وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (الأعراف ٥٦)، وقوله تعالى: وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (الأنبياء ٩٠)، وقوله تعالى: ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (الأعراف ٥٥)، وقوله تعالى: إِذْ نَادَى رَبُّهُ نِدَاءً خَفِيًّا -إلى قوله- وَ لَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (مريم ٤)، وقوله تعالى: وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ (الشورى ٢٦)، إلى غير ذلك من الآيات المناسبة، وهي تشتمل على اركان الدعاء و آداب الداعي، وعمدتها الاخلاص فى دعائه تعالى و هو مواطات القلب اللسان و الانقطاع عن كل سبب دون الله و التعلق به تعالى، و يلحق به الخوف و الطمع و الرغبة و الرهبة و الخشوع و التضرع و الاصرار و الذكر و صالح العمل و الايمان و أدب الحضور و غير ذلك مما تشتمل عليه الروايات.

قوله تعالى: فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَ لِيُؤْمِنُوا بِى ، تفریع على ما يدل على الجملة السابقة عليه بالالتزام: ان الله تعالى قريب من عباده، لا يحول بينه و بين دعائهم شىء، و هو ذو عنايه بهم و بما يسألونه منه، فهو يدعوهم الى دعائه، و صفته هذه الصفه، فليستجيبوا له فى هذه الدعوه، و ليقبلوا اليه، و ليؤمنوا به فى هذا النعت، و ليقنوا بأنه قريب مجيب لعلهم يرشدون فى دعائه.

بحث روائى:

عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم فيما رواه الفريقان: الدعاء سلاح المؤمن، و فى عده الداعى فى الحديث القدسى: يا موسى سلنى كل ما تحتاج اليه حتى علف شاتك و ملح عجينك.

و فى المكارم عنه عليه السّلام الدعاء افضل من قراءه القرآن لان الله عزّ و جل قال: قُلْ لِمَا يَعْْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ، و روى ذلك عن الباقر و الصادق عليهما السّلام.

و فى عده الداعى فى روايه محمد بن عجلان عن محمد بن عبيد الله بن على بن الحسين عن ابن عمه الصادق عن آبائه عن النّبى صلّى الله عليه و آله و سلّم قال: أوحى الله الى بعض انبيائه فى بعض وحيه:

و عزتى و جلالى لا - قطعن امل كل آمل امل غيرى بالاياس و لا كسونه ثوب المذله فى الناس و لأبعدنه من فرجى و فضلى، أ يأمل عبدى فى الشدائد غيرى، و الشدائد بيدى و يرجو سوائى و أنا الغنى الجواد، بيدى مفاتيح الابواب و هى مغلقة، و بابى مفتوح لمن دعانى؟ الحديث.

و فى عده الداعى ايضا عن النّبى صلّى الله عليه و آله و سلّم قال: قال الله: ما من مخلوق يعتصم بمخلوق دونى الا قطعت اسباب السموات و اسباب الارض من دونه فان سألتنى لم أعطه و ان دعانى لم أجبه، و ما من مخلوق يعتصم بى دون خلقى الا ضمنت السموات و الارض رزقه، فإن دعانى اجبته و ان سألتنى اعطيته و ان استغفرنى غفرت له.

اقول: و ما اشتمل عليه الحديثان هو الاخلاص فى الدعاء و ليس إبطالا لسببيه الاسباب الوجوديه التى جعلها الله تعالى وسائل متوسطه بين الاشياء و بين حوائجها الوجوديه لا عللا فياضه مستقله دون الله سبحانه، و للانسان شعور باطنى بذلك فانه يشعر بفطرته ان لحاجته سببا معطيا لا يتخلف عنه فعله، و يشعر ايضا ان كل ما يتوجه اليه من الاسباب الظاهريه يمكن ان يتخلف عنه اثره فهو يشعر بأن المبدأ الذى يبتدئ عنه كل امر، و الركن الذى يعتمد عليه و يركن اليه كل حاجه فى تحققها و وجودها غير هذه الاسباب و لا يزم ذلك ان لا يركن الركون التام الى شىء من هذه الاسباب بحيث ينقطع عن السبب الحقيقى و يعتصم بذلك السبب الظاهرى، و الانسان ينتقل الى هذه الحقيقه بأدنى توجه و التفات فإذا سئل او طلب شيئا من حوائجه فوقع ما طلبه كشف ذلك انه سئل ربه و اتصل حاجته، التى شعر بها بشعوره

الباطنى من طريق الاسباب الى ربه فاستفاض منه، و اذا طلب ذلك من سبب من الاسباب فليس ذلك من شعور فطرى باطنى و انما هو امر صوره له تخيله لعلل او جبت هذا التخيل من غير شعور باطنى بالحاجه، و هذا من الموارد التى يخالف فيها الباطن الظاهر.

و نظير ذلك: ان الانسان كثيرا ما يحب شيئا و يهتم به حتى اذا وقع وجده ضارا بما هو أنفع منه و اهم و احب فترك الاول و أخذ بالثانى، و ربما هرب من شىء حتى اذا صادفه وجده أنفع و خيرا مما كان يتحفظ به فأخذ الاول و ترك الثانى، فالصبي المريض اذا عرض عليه الدواء المر امتنع من شربه و أخذ بالبكاء و هو يريد الصحة، فهو بشعوره الباطنى الفطرى يسأل الصحة فيسأل الدواء و ان كان بلسان قوله أو فعله يسأل خلافه، فلانسان فى حياته نظام بحسب الفهم الفطرى و الشعور الباطنى و له نظام آخر بحسب تخيله و النظام الفطرى لا- يقع فيه خطأ و لا- فى سيره خبط، و اما النظام التخيلى فكثيرا ما يقع فيه الخطاء و السهو، فربما سأل الانسان أو طلب بحسب الصوره الخياليه شيئا، و هو بهذا السؤال بعينه يسأل شيئا آخر أو خلافه، فعلى هذا ينبغى أن يقرر معنى الاحاديث، و هو اللائح من قول على عليه السلام فيما سيأتى: أن العطيه على قدر النيه؛ الحديث.

و فى عده الداعى عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم ادعوا الله و انتم موقنون بالاجابه.

و فى الحديث القدسى: أنا عند ظن عبدى بى، فلا يظن بى إلا خيرا.

اقول: و ذلك ان الدعاء مع اليأس أو التردد يكشف عن عدم السؤال فى الحقيقه كما مر، و قد ورد المنع عن الدعاء بما لا يكون.

و فى العده أيضا عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم: إفزعوا الى الله فى حوائجكم، و الجئوا اليه فى مللماتكم، و تضرعوا اليه و ادعوه، فإن الدعاء مخ العباده، و ما من مؤمن يدعوا الله الا استجاب فإما أن يعجله له فى الدنيا أو يؤجل له فى الآخره، و اما أن يكفر له من ذنوبه بقدر ما دعا ما لم يدع بمأثم.

و فى نهج البلاغه فى وصيه له عليه السّلام لابنه الحسين عليه السّلام: ثم جعل فى يديك مفاتيح خزائنه بما اذن لك فيه من مسأله فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمه و استمطرت شآبيب رحمته، فلا- يقنطنك إبطاء إجابته، فإن العطيه على قدر النيه، و ربما اخرت عنك الاجابه ليكون ذلك أعظم لا-جر السائل، و اجزل لعطاء الآمل، و ربما سألت الشىء فلا تؤتاه و اوتيت خيرا منه عاجلا- أو آجلا- أو صرف عنك لما هو خير لك، فلب أمر قد طلبته فيه هلاك دينك لو أوتيته، فلتكن مسألتك فيما يبقى لك جماله، و ينفى عنك وباله، و المال لا يبقى لك و لا تبقى له.

اقول: قوله: فإن العطيه على قدر النيه يريد عليه السّلام به: ان الاستجابه تطابق الدعوه فما سأله السائل منه تعالى على حسب ما عقد عليه حقيقه ضميره و حملة ظهر قلبه هو الذى يؤتاه، لا ما كشف عنه قوله و أظهره لفظه، فإن اللفظ ربما لا يطابق المعنى المطلوب كل المطابقه كما مر بيانه فهى احسن جملة و اجمع كلمه لبيان الارتباط بين المسأله و الاجابه.

و قد بين عليه السّلام بها عده من الموارد التى يترأى فيها تخلف الاستجابه عن الدعوه ظاهرا كالإبطاء فى الاجابه، و تبديل المسئول عنه فى الدنيا بما هو خير منه فى الدنيا، أو بما هو خير منه فى الآخره، أو صرفه إلى شىء آخر أصلح منه بحال السائل، فإن السائل ربما يسأل النعمه الهنيهة و لو اوتيتها على الفور لم تكن هنيهة و على الرغبه فتبطن إجابته لأن السائل سأل النعمه الهنيهة فقد سأل الاجابه على بطؤ، و كذلك المؤمن المهتم بأمر دينه لو سأل ما فيه هلاك دينه و هو لا يعلم بذلك و يزعم ان فيه سعاده و انما سعاده فى آخرته فقد سأل فى الحقيقه لآخرته لا دنياه فيستجاب لذلك فيها لا فى الدنيا.

و فى عده الداعى عن الباقر عليه السّلام ما بسط عبد يده الى الله عزّ و جل إلا استحيى الله أن يردّها صفرا حتى يجعل فيها من فضله و رحمته ما يشاء، فإذا دعا أحدكم فلا يرد يده حتى يمسح بها على رأسه و وجهه، و فى خبر آخر على وجهه و صدره.

اقول: وقد روى في الدر المنثور ما يقرب من هذا المعنى عن عده من الصحابه كسلمان، و جابر، و عبد الله بن عمر، و أنس بن مالك، و ابن أبي مغيث عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ في ثمانى روايات، و فى جميعها رفع اليدين فى الدعاء فلا معنى لانكار بعضهم رفع اليدين بالدعاء معللا بأنه من التجسيم إذ رفع اليدين إلى السماء ايماء الى أنه تعالى فيها-تعالى عن ذلك و تقدس-.

و هو قول فاسد، فإن حقيقه جميع العبادات البدنيه هى تنزيل المعنى القلبى و التوجه الباطنى إلى مواطن الصوره، و إظهار الحقائق المتعاليه عن الماده فى قالب التجسم، كما هو ظاهر فى الصلاه و الصوم و الحج و غير ذلك و أجزاءها و شرائطها، و لو لا ذلك لم يستقم أمر العباده البدنيه، و منها الدعاء، و هو تمثيل التوجه القلبى و المسأله الباطنيه بمثل السؤال الذى نعده فيما بيننا من سؤال الفقير المسكين الدانى من الغنى المتعزز العالى حيث يرفع يديه بالبسط، و يسأل حاجته بالذله و الضراعه، و قد روى الشيخ فى المجالس و الأخبار مسندا عن محمد و زيد ابني على بن الحسين عن أبيهما عن جدهما الحسين عليه السلام عن النبي، و فى عده الداعى مرسلا أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ كان يرفع يديه إذا ابتهل و دعا كما يستطعم المسكين.

و فى البحار عن على عليه السلام أنه سمع رجلا يقول: اللهم إني أعوذ بك من الفتنه، قال عليه السلام: أراك تتعوذ من مالك و ولدك، يقول الله تعالى: **أَتَمَّا أَمْوَالِكُمْ وَ أَوْلَادِكُمْ فَتَنَّهُ وَ لَكِن قُل: اللهم إني أعوذ بك من مضلات الفتن.**

اقول: و هذا باب آخر فى تشخيص معنى اللفظ و له نظائر فى الروايات، و فيها: أن الحق فى معنى كل لفظ هو الذى ورد منه فى كلامه، و من هذا الباب ما ورد فى الروايات فى تفسير معنى الجزء و الكثير و غير ذلك.

و فى عده الداعى عن الصادق عليه السلام: إن الله لا يستجيب دعاء بظهر قلب ساه.

و فى العده أيضا عن على عليه السلام لا يقبل الله دعاء قلب لاه.

اقول: و فى هذا المعنى روايات أخر، و السر فيه عدم تحقق حقيقه الدعاء و المسأله فى

و فى دعوات الراوندى: فى التوراه يقول الله عزّ و جل للعبد: إنك متى ظلمت تدعونى على عبد من عبدى من أجل أنه ظلمك فلك من عبىدى من يدعو عليك من أجل أنك ظلمته فإن شئت أحببتك و أحبته فيك، و إن شئت أخرجتكم إلى يوم القيامة.

اقول: و ذلك أن من سأل شيئاً لنفسه فقد رضى به و رضى بعين هذا الرضا بكل ما يماثله من جميع الجهات، فإذا دعا على من ظلمه بالانتقام فقد دعا عليه لأجل ظلمه فهو راض بالانتقام من الظالم، و اذا كان هو نفسه ظالماً لغيره فقد دعا على نفسه بعين ما دعا لنفسه فإن رضى بالانتقام عن نفسه و لن يرضى أبداً عوقب بما يريد على غيره، و إن لم يرض بذلك لم يتحقق منه الدعاء حقيقه، قال تعالى: **وَ يَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً** (الاسراء ١١).

و فى عده الداعى قال رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم لاجبى ذر: يا أبا ذر أ لا اعلمك كلمات ينفعك الله عزّ و جل بهن؟ قلت بلى يا رسول الله، قال صلّى الله عليه و آله و سلّم: احفظ الله يحفظك الله، احفظ الله تجده امامك، تعرّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشده، و إذا سألت فاسأل الله، و إذا استعنت فاستعن بالله، فقد جرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، و لو أن الخلق كلهم جهدوا على أن ينفعوك بما لم يكتبه الله لك ما قدروا عليه.

اقول: قوله صلّى الله عليه و آله و سلّم: تعرّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشده: يعنى: ادع الله فى الرخاء و لا تنسه حتى يستجيب دعائك فى الشده و لا ينساك، و ذلك أن من نسى ربه فى الرخاء فقد أذعن بالاستقلال الاسباب فى الرخاء، ثم إذا دعا ربه فى الشده كان معنى عمله أنه يذعن بالربوبيه فى حال الشده و على تقديرها، و ليس تعالى على هذه الصفه بل هو رب فى كل حال و على جميع التقادير، فهو لم يدع ربه، و قد ورد هذا المعنى فى بعض الروايات بلسان آخر، فى مكارم الأخلاق عن الصادق عليه السلام قال عليه السلام: من تقدم فى الدعاء أستجيب له إذا نزل البلاء، و قيل:

صوت معروف، و لم يحجب عن السماء، و من لم يتقدم فى الدعاء لم يستجب له اذا نزل البلاء و قالت الملائكه: ان ذا الصوت لا نعرفه الحديث، و هو المستفاد من اطلاق قوله تعالى: نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ (التوبه ٦٧)، و لا- ينافى هذا ما ورد أن الدعاء لا يرد مع الانقطاع، فإن مطلق الشده غير الانقطاع التام.

و قوله صلى الله عليه و آله و سلم: و اذا سألت فاسأل الله و اذا استعنت فاستعن بالله، ارشاد الى التعلق بالله فى السؤال و الاستعانه بحسب الحقيقه فإن هذه الاسباب العاديه التى بين أيدينا انما سببيتها محدوده على قدر الله لها من الحد لا على ما يتراءى من استقلالها فى التأثير بل ليس لها الا الطريقه و الوساطه فى الإيصال، و الامر بيد الله تعالى، فإذا ن الواجب على العبد أن يتوجه فى حوائجه إلى جناب العزه و باب الكبرياء و لا يركن إلى سبب بعد سبب، و إن كان أبى الله أن يجرى الامور الا بأسبابها و هذه دعوه الى عدم الاعتماد على الاسباب الا بالله الذى أفاض عليها السببيه لا أنها هدايه الى الغاء الاسباب و الطلب من غير السبب فهو طمع فيما لا مطمع فيه، كيف و الداعى يريد ما يسأله بالقلب، و يسأل ما يريد باللسان و يستعين على ذلك بأركان وجوده و كل ذلك أسباب؟

و اعتبر ذلك بالإنسان حيث يفعل ما يفعل بأدواته البدنيه فيعطى ما يعطى بيده و يرى ما يرى ببصره و يسمع ما يسمع باذنه فمن يسأل ربه بإلغاء الأسباب كان كمن سأل الإنسان أن يناوله شيئاً من غير يد أو ينظر اليه من غير عين أو يستمع من غير أذن، و من ركن الى سبب من دون الله سبحانه و تعالى كان كمن تعلق قلبه بيده الانسان فى اعطائه أو بعينه فى نظرها أو باذنه فى سمعها و هو غافل معرض عن الإنسان الفاعل بذلك فى الحقيقه فهو غافل مغفل، و ليس ذلك تقييدا للقدرة الإلهيه غير المتناهيه و لا سلبا للاختيار الواجبى، كما أن الانحصار الذى ذكرناه فى الإنسان لا يوجب سلب القدره و الاختيار عنه، لكون التحديد راجعا بالحقيقه الى الفعل لا الى الفاعل، اذ من الضرورى أن الانسان قادر على المناوله و الرؤيه

و السمع لكن المناوله لا يكون الا باليد، و الرؤيه و السمع هما اللذان يكونان بالعين و الاذن لا مطلقا، كذلك الواجب تعالى قادر على الإطلاق غير أن خصوصيه الفعل يتوقف على توسط الاسباب فزيد مثلا و هو فعل لله هو الإنسان الذى ولده فلان و فلانه فى زمان كذا و مكان كذا و عند وجود شرائط كذا و ارتفاع موانع كذا، لو تخلف واحد من هذا العلل و الشرائط لم يكن هو هو، فهو فى ايجاده يتوقف على تحقق جميعها، و المتوقف هو الفعل دون الفاعل فافهم ذلك.

و قوله صلى الله عليه و آله و سلم: فقد جرى القلم بما هو كائن الى يوم القيامة، تفرغ على قوله: و اذا سألت فاسأل الله، من قبيل تعقيب المعلول بالعله فهو بيان عله قوله: و اذا سألت، و سببه، و المعنى أن الحوادث مكتوبه مقدره من عند الله تعالى لا تأثير لسبب من الأسباب فيها حقيقه، فلا تسأل غيره تعالى و لا تستعن بغيره تعالى، و أما هو تعالى: فسلطانه دائم و ملكه ثابت و مشيئه نافذه و كل يوم هو فى شأن، و لذلك عقب الجملة بقوله: و لو أن الخلق كلهم جهدوا؛ الخ.

و من أخبار الدعاء ما ورد عنهم مستفيضا ان الدعاء من القدر.

اقول: و فيه جواب ما استشكله اليهود و غيرهم على الدعاء: ان الحاجه المدعو لها اما ان تكون مقضيه مقدره أو لا، و هى على الاول واجبه و على الثانى ممتنع، و على أى حال لا معنى لتأثير الدعاء، و الجواب: أن فرض تقدير وجود الشئ لا يوجب استغنائه عن أسباب وجوده، و الدعاء من أسباب وجود الشئ فمع الدعاء يتحقق سبب من أسباب الوجود فيتحقق المسبب عن سببه، و هذا هو المراد بقولهم: ان الدعاء من القدر، و فى هذا المعنى روايات أخر.

ففى البحار عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم لا يرد القضاء الا الدعاء.

و عن الصادق عليه السلام: الدعاء يرد القضاء بعد ما أبرم ابراما.

و عن أبى الحسن موسى عليه السلام: عليكم بالدعاء فإن الدعاء و الطلب الى الله عزّ و جل يرد

البلاء، وقد قدر و قضى فلم يبق الا امضائه فإذا دعى الله و سئل صرف البلاء صرفا.

و عن الصادق عليه السلام ان الدعاء يرد القضاء المبرم و قد أبرم ابراما فأكثر من الدعاء فإنه مفتاح كل رحمه و نجاح كل حاجه و لا ينال ما عند الله الا بالدعاء فإنه ليس من باب يكثر قرعه الا أو شك أن يفتح لصاحبه.

اقول: وفيها اشاره الى الإصرار و هو من محققات الدعاء، فان كثرة الاتيان بالقصد يوجب صفائه.

و عن اسماعيل بن همان عن أبي الحسن عليه السلام: دعوه العبد سرا دعوه واحده تعدل سبعين دعوه علانيه.

اقول: وفيها اشاره الى اخفاء الدعاء و اسراره فإنه أحفظ لاخلاص الطلب.

و في المكارم عن الصادق عليه السلام: لا يزال الدعاء محجوبا حتى يصلى على محمد و آل محمد.

و عن الصادق عليه السلام أيضا، من قَدَّم أربعين من المؤمنين ثم دعا أستجيب له.

و عن الصادق عليه السلام أيضا- و قد قال له رجل من اصحابه انى لأجد آيتين فى كتاب الله اطلبهما فلا اجدهما- قال: فقال: و ما هما؟ قلت: ادعوني استجب لكم فندعوه فلا- نرى اجابه، قال افترى الله اخلف وعده؟ قلت: لا، قال: فمه؟ قلت: لا- ادرى قال: لكنى أخبرك من أطاع الله فيما امر به ثم دعاه من جهه الدعاء اجابه، قلت: و ما جهه الدعاء؟ قال: تبدأ فتحمد الله و تمجده و تذكر نعمه عليك فتشكره ثم تصلى على محمد و آله ثم تذكر ذنوبك فتقر بها، ثم تستغفر منها فهذه جهه الدعاء، ثم قال: و ما الآيه الاخرى؟ قلت: و ما أنفقتم من شىء فهو يخلفه و أرانى أنفق و لا أرى خلفا، قال: افترى الله اخلف وعده؟ قلت: لا، قال: فمه؟ قلت: لا ادرى، قال: لو أن أحدكم اكتسب المال من حله و أنفق فى حقه لم ينفق درهمه الا اخلف الله عليه.

اقول: و الوجه فى هذه الاحاديث الواردة فى آداب الدعاء ظاهره فإنها تقرب العبد من

و فى الدر المنثور عن ابن عمر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: ان الله اذا اراد ان يستجيب لعبده اذن له فى الدعاء.

و عن ابن عمر ايضا عنه صلى الله عليه و آله و سلم من فتح له منكم باب الدعاء فتحت له ابواب الرحمه، و فى روايه من فتح له فى الدعاء منكم فتحت له ابواب الجنه.

اقول: و هذه المعنى مروى من طرق ائمه اهل البيت ايضا: من أعطى الدعاء أعطى الاجابه، و معناه واضح مما مر.

و فى الدر المنثور ايضا عن معاذ بن جبل عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: لو عرفتم الله حق معرفته لزالتم لدعائكم الجبال.

اقول: و ذلك ان الجهل بمقام الحق و سلطان الربوبيه و الركون الى الاسباب يوجب الاذعان بحقيقه التأثير للاسباب و قصر المعلومات على عللها المعهوده و اسبابها العاديه حتى ان الانسان ربما زال عن الاذعان بحقيقه التأثير للأسباب لكن يبقى الاذعان بتعين الطرق و وساطه الاسباب المتوسطه فإننا نرى ان الحركه و السير يوجب الاقتراب من المقصد ثم اذا زال منا الاعتقاد بحقيقه تأثير السير فى الاقتراب اعتقدنا بان السير واسطه و الله سبحانه و تعالى هو المؤثر هناك لكن يبقى الاعتقاد بتعين الوساطه و انه لو لا- السير لم يكن قرب و لا- اقتراب، و بالجمله ان المسببات لا- تتخلف عن اسبابها و ان لم يكن للأسباب الا- الوساطه دون التأثير، و هذا هو الذى لا يصدق العلم بمقام الله سبحانه فإنه لا يلائم السلطنه التامه الالهيه، و هذا التوهم هو الذى اوجب ان نعتقد استحاله تخلف المسببات عن اسبابها العاديه كالثقل و الانجذاب عن الجسم، و القرب عن الحركه، و الشيع عن الاكل، و الرى عن الشرب، و هكذا، و قد مر فى البحث عن الاعجاز ان ناموس العليه و المعلوليه، و بعبارة أخرى توسط الاسباب بين الله سبحانه و بين مسبباتها حق لا مناص عنه لكنه لا يوجب قصر الحوادث على اسبابها

العاديه بل البحث العقلي النظرى، و الكتاب و السنه تثبت اصل التوسط و تبطل الانحصار، نعم المحالات العقليه لا مطمع فيها.

اذا عرفت هذا علمت: ان العلم بالله يوجب الازعان بان ما ليس بمحال ذاتى من كل ما تحيله العاده فإن الدعاء مستجاب فيه كما ان العمده من معجزات الانبياء راجعه الى استجابته الدعوه.

و فى تفسير العياشى عن الصادق عليه السلام فى قوله تعالى: فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَ لِيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ انى اقدر ان اعطيهم ما يسألونى.

و فى المجمع، قال: و روى عن ابى عبد الله صلى الله عليه و آله و سلم انه قال: و ليؤمنوا بى اى و ليتحققوا انى قادر على اعطائهم ما سألوه لعلهم يرشدون، اى لعلهم يصيبون الحق، اى يهتدون اليه.

[سوره البقره (٢): آيه ١٨٧]

اشاره

أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَىٰ اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧)

بيان:

قوله تعالى: أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ، الاحلال بمعنى

الاجازة، وأصله من الحل مقابل العقد، والرفث هو التصريح بما يكتفى عنه مما يستقبح ذكره، من الألفاظ التي لا تخلو عنها مباشرة النساء، وقد كنى به هاهنا عن عمل الجماع وهو من أدب القرآن الكريم وكذا سائر الألفاظ المستعملة فيه في القرآن كالمباشرة والدخول والمس واللمس والأتیان والقرب كلها ألفاظ مستعملة على طريق التكنية، وكذا لفظ الوطء والجماع وغيرهما المستعملة في غير القرآن ألفاظ كناية وإن أخرج كثرة الاستعمال بعضها من حد الكناية إلى التصريح، كما أن اللفظ الفرج والغائط بمعناهما المعروف اليوم من هذا القبيل، وتعديه الرفث يالئ لتضمينه معنى الإفضاء على ما قبيل.

قوله تعالى: هُنَّ لِيَابِسٌ لَكُمْ وَ أَنْتُمْ لِيَابِسٌ لَهُنَّ، الظاهر من اللباس معناه المعروف وهو ما يستر به الإنسان بدنه، والجملتان من قبيل الاستعارة فإن كلا من الزوجين يمنع صاحبه عن اتباع الفجور وإشاعته بين أفراد النوع فكان كل منهما لصاحبه لباساً يوارى به سواته ويستر به عورته.

وهذه استعاره لطيفة، وتزيد لطفاً بانضمامها إلى قوله: أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ، فإن الإنسان يستر عورته عن غيره باللباس، وأما نفس اللباس فلا يستر عنه فكذا كل من الزوجين يتقى به صاحبه عن الرفث إلى غيره، وأما الرفث إليه فلا لأنه لباس المتصل بنفسه المباشر له.

قوله تعالى: عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ، الاختيان والخيانة بمعنى، وفيه معنى النقص على ما قيل، وفي قوله: أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ، دلالة على معنى الاستمرار، فتدل الآية على أن هذه الخيانة كانت دائره مستمره بين المسلمين منذ شرع حكم الصيام فكانوا يعصون الله تعالى سرا بالخيانة لأنفسهم، ولو لم تكن هذه الخيانة منهم معصيه لم ينزل التوبه والعفو، وهما وإن لم يكونا صريحين في سبق المعصيه لكنهما، وخاصة إذا اجتمعا، ظاهر في ذلك.

و على هذا فالآية داله على ان حكم الصيام كان قبل نزول الآية حرمة الجماع فى ليله الصيام، و الآية بنزولها شرعت الحليه و نسخت الحرمة كما ذكره جمع من المفسرين، و يشعر به أو يدل عليه قوله: أَحِلَّ لَكُمْ، و قوله: كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ، و قوله: فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَ عَفَا عَنْكُمْ، و قوله: فَالْمَانَ بِاشْرُوهُنَّ، اذ لو لا حرمة سابقه كان حق الكلام ان يقال: فلا جناح عليكم ان تباشروهن أو ما يؤدى هذا المعنى، و هو ظاهر.

قوله تعالى: فَالْمَانَ بِاشْرُوهُنَّ وَ ابْتِغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ، أمر واقع بعد الحضر فيدل على الجواز، و قد سبقه قوله تعالى فى أول الآية: احل لكم و المعنى فمن الآن تجوز لكم مباشرتهن، و الابتغاء هو الطلب، و المراد بابتغاء ما كتب الله هو طلب الولد الذى كتب الله سبحانه ذلك على النوع الانسانى من طريق المباشرة، و فطرم على طلبه بما أودع فيهم من شهوة النكاح و المباشرة، و سخرهم بذلك على هذا العمل فهم يطلبون بذلك ما كتب الله لهم و إن لم يقصدوا ظاهرا إلا ركوب الشهوة و نيل اللذة كما انه تعالى كتب لهم بقاء الحياه و النمو بالاكل و الشرب و هو المطلوب الفطرى و ان لم يقصدوا بالاكل و الشرب إلا الحصول على لذة الذوق و الشبع و الرى، فإنما هو تسخير إلهى.

و اما ما قيل: ان المراد بما كتب الله لهم الحل و الرخصة فإن الله يحب ان يؤخذ برخصه كما يحب ان يؤخذ بعزائمه، فيبعده: ان الكتابه فى كلامه غير معهوده فى مورد الحليه و الرخصه.

قوله تعالى: وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ، الفجر فجران، فجر أول يسمى بالكاذب لبطلانه بعد مكث قليل و بذنب السرحان لمشابهته ذنب الذئب اذا شاله، و عمود شعاعى يظهر فى آخر الليل فى ناحيه الافق الشرقى اذا بلغت فاصله الشمس من دائره الافق الى ثمانيه عشر درجه تحت الافق، ثم يبطل بالاعتراض فيكون معترضا مستطيلا على الأفق كالخيط الابيض الممدود عليه و هو الفجر الثانى، و يسمى الفجر الصادق لصدقه فيما يحكيه و يخبر به من قدوم النهار و اتصاله

بطلوع الشمس.

و من هنا يعلم ان المراد بالخيط الابيض هو الفجر الصادق، و ان كلمه من، بيانيه و ان قوله تعالى: حتى يتبين لكم الخيط الاسود من قبيل الاستعاره بتشبيهه البياض المعترض على الافق من الفجر، المجاور لما يمتد معترضا معه من سواد الليل بخيط أبيض يتبين من الخيط الاسود.

و من هنا يعلم أيضا: ان المراد هو التحديد بأول حين من طلوع الفجر الصادق فان ارتفاع شعاع بياض النهار يبطل الخيطين فلا خيط ابيض و لا خيط اسود.

قوله تعالى: ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ، لما دل التحديد بالفجر على وجوب الصيام الى الليل بعد تبينه استغنى عن ذكره ايثارا للايجاز بل تعرض لتحديده بإتمامه الى الليل، و في قوله: أَتَمُّوا دلالة على انه واحد بسيط و عبادته واحده تامه من غير ان تكون مركبه من أمور عديده كل واحد منها عبادته واحده، و هذا هو الفرق بين التمام و الكمال حيث ان الاول انتهاء وجود ما لا يتألف من اجزاء ذوات آثار و الثانى انتهاء وجود ما لكل من اجزائه اثر مستقل وحده، قال تعالى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي (المائدة/ ٣)، فإن الدين مجموع الصلاة و الصوم و الحج و غيرها التى لكل منها اثر مستقل به، بخلاف النعمة على ما سيجىء بيانه إنشاء الله فى الكلام على الآيه.

قوله تعالى: وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ، العكوف و الاعتكاف هو اللزوم و الاعتكاف بالمكان الاقامه فيه ملازما له.

و الاعتكاف عبادته خاصه من احكامها لزوم المسجد و عدم الخروج منه الا لعذر و الصيام معه، و لذلك صح ان يتوهم جوار مباشره النساء فى ليالى الاعتكاف فى المسجد بتشريع جواز الرفث ليله الصيام فدفع هذا الدخل بقوله: وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ .

قوله تعالى: تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا، أصل الحد هو المنع و اليه يرجع جميع استعمالاته و اشتقاقاته كحد السيف و حد الفجور و حد الدار و الحديد الى غير ذلك، و النهى عن القرب من الحدود كناية عن عدم اقترافها و التعدى إليها، أى لا تقتربوا هذه المعاصى التى هى الاكل و الشرب و المباشرة او لا تتعدوا عن هذه الاحكام و الحرمات الإلهيه التى بينها لكم و هى احكام الصوم بإضاعتها و ترك التقوى فيها.

[سوره البقره (٢): آيه ١٨٨]

اشاره

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكْمِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨)

بيان:

قوله تعالى: وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ، المراد بالاكل الاخذ أو مطلق التصرف مجازاً، و المصحح لهذا الاطلاق المجازى كون الاكل أقرب الافعال الطبيعیه التى يحتاج الانسان الى فعلها و أقدمها فالانسان أول ما ينشأ وجوده يدرك حاجته الى التغذى ثم ينتقل منه الى غيره من الحوائج الطبيعیه كاللباس و المسكن و النكاح و نحو ذلك، فهو أول تصرف يستشعر به من نفسه، و لذلك كان تسميه التصرف و الاخذ، و خاصه فى مورد الاموال، أكلا لا يختص باللغه العربيه بل يعم سائر اللغات.

و المال ما يتعلق به الرغبات من الملك، كأنه مأخوذ من الميل لكونه ما يميل اليه القلب، و البين هو الفصل الذى يضاف الى شيئين فأزيد، و الباطل يقابل الحق الذى هو الامر الثابت بنحو من الثبوت.

و فى تقييد الحكم، أعنى قوله: وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ، بقوله: بَيْنَكُمْ، دلالة على ان جميع الاموال لجميع الناس و إنما قسمه الله تعالى بينهم تقسيماً حقا بوضع قوانين عادله تعدل الملك

تعديلاً حقا يقطع منابت الفساد لا يتعداه تصرف من متصرف إلا كان باطلاً، فالآية كالشارحه لإطلاق قوله تعالى: خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً و في إضافته الاموال الى الناس إمضاء منه لما استقر عليه بناء المجتمع الانساني من اعتبار أصل الملك و احترامه في الجملة من لدن استكن هذا النوع على بساط الارض على ما يذكره النقل و التاريخ، و قد ذكر هذا الاصل في القرآن بلفظ الملك و المال و لام الملك و الاستخلاف و غيرها في أزيد من مائه مورد و لا حاجة الى إيرادها في هذا الموضوع، و كذا بطريق الاستلزام في آيات تدل على تشريع البيع و التجاره و نحوهما في بضعه مواضع كقوله تعالى: وَ أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ (البقره ٢٧٥)، و قوله تعالى: لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ (النساء / ٢٩)، و قوله تعالى: تِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا (التوبه ٢٤)، و غيرها، و السنه المتواتره تؤيده.

قوله تعالى: وَ تُدَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكْمِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً، الإِدْلَاء هو ارسال الدلو في البئر لنزح الماء كنى به عن مطلق تقريب المال الى الحكم ليحكموا كما يريد الراسي، و هو كناية لطيفه تشير الى استبطن حكمهم المطلوب بالرشوه الممثل لحال الماء الذي في البئر بالنسبه الى من يريد، و الفريق هو القطعه المفروقه المعزوله من الشئ، و الجملة معطوفه على قوله: تَأْكُلُوا، فالفعل مجزوم بالنهي، و يمكن ان يكون الواو بمعنى مع و الفعل منصوباً بأن المقدره، و التقدير مع ان تأكلوا فتكون الآية بجملتها كلاماً واحداً مسوقاً لغرض واحد، و هو النهي عن تصالح الراسي و المرتشي على أكل أموال الناس بوضعها بينهما و تقسيمها لانفسهما بأخذ الحاكم ما تدلى به منها اليه و اخذ الراسي فريقاً آخر منها بالإثم و هما يعلمان ان ذلك باطل غير حق (١).

ص: ٢٣٣

اشاره

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْآهِلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩)

بيان:

قوله تعالى: يَسْأَلُونَكَ -الى قوله- لِلنَّاسِ، الالهه جمع هلال و يسمى القمر هلالا اول الشهر القمري اذا خرج من تحت شعاع الشمس الليله الاولى و الثانيه كما قيل، و قال بعضهم الليالى الثلاثه الاول، و قال بعضهم حتى يتحجر، و التحجر ان يستدير بخطه دقيقه، و قال بعضهم: حتى يبهر نوره ظلمه الليل و ذلك فى الليله السابعه ثم يسمى قمرا و يسمى فى الرابعه عشر بدرا، و اسمه العام عند العرب الزبرقان.

و الهلال مأخوذ من استهل الصبى اذا بكى عند الولاده أو صاح، و من قولهم: أهل القوم بالحج اذا رفعوا أصواتهم بالتلبيه، سمي به لان الناس يهلون بذكره اذا رأوا. و المواقيت جمع ميقات و هو الوقت المضروب للفعل، و يطلق ايضا: على المكان المعين للفعل كميات أهل الشام و ميقات أهل اليمن، و المراد هاهنا الاول.

و فى قوله تعالى: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْآهِلَةِ، و ان لم يشرح ان السؤال فى امرها عما ذا؟ عن حقيقه القمر و سبب تشكلاتها المختلفه فى صور الهلال و القمر و البدر كما قيل، أو عن حقيقه الهلال فقط، الظاهر بعد المحاق فى اول الشهر القمري كما ذكره بعضهم، أو عن غير ذلك.

و لكن اتيان الهلال فى السؤال بصوره الجمع حيث قيل: يسألونك عن الالهه دليل على ان

السؤال لم يكن عن ماهية القمر و اختلاف تشكيلاته اذ لو كان كذلك لكان الانسب ان يقال:

يسألونك عن القمر لا عن الالهه، و ايضا لو كان السؤال عن حقيقه الهلال و سبب تشكله الخاص كان الانسب ان يقال: يسألونك عن الهلال اذ لا غرض حينئذ يتعلق بالجمع، ففي اتيان الالهه بصيغه الجمع دلالة على ان السؤال انما كان عن السبب أو الفائده في ظهور القمر هلالا بعد هلال و رسمه الشهور القمرية، و عبر عن ذلك بالالهه لانها هي المحققه لذلك فاجيب بالفائده.

و يستفاد ذلك من خصوص الجواب: قل هي مواقيت للناس و الحج، فإن المواقيت و هي الازمان المضروبه للافعال، و الاعمال انما هي الشهور دون الالهه التي ليست بأزمنه و انما هي أشكال و صور في القمر.

قوله تعالى: وَ لَيْسَ الْبُرِّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا - الى قوله - مِنْ أَبْوَابِهَا، ثبت بالنقل ان جماعه من العرب الجاهلي كانوا اذا أحرموا للحج لم يدخلوا بيوتهم عند الحاجه من الباب بل اتخذوا نقبا من ظهورها و دخلوا منه فنهى عن ذلك الاسلام و امرهم بدخول البيوت من ابوابها، و نزول الآيه يقبل الانطباق على هذا الشأن، و بذلك يصح الاعتماد على ما نقل من شأن نزول الآيه على ما سيأتي نقله.

و لو لا ذلك لامكن ان يقال: ان قوله: وَ لَيْسَ الْبُرِّ الى آخره؛ كناية عن النهى عن امتثال الاوامر الالهيه و العمل بالاحكام المشرعه في الدين إلا على الوجه الذى شرعت عليه، فلا يجوز الحج في غير أشهره، و لا الصيام في غير شهر رمضان و هكذا و كانت الجملة على هذا متمما لاول الآيه، و كان المعنى: ان هذه الشهور أوقات مضروبه لاعمال شرعت فيها و لا يجوز التعدى بها عنها الى غيرها كالحج في غير أشهره، و الصوم في غير شهر رمضان و هكذا فكانت الآيه مشتمله على بيان حكم واحد.

و على التقدير الاول الذى يؤيده النقل فنفي البر عن إتيان البيوت من ظهورها يدل على ان

العمل المذكور لم يكن مما امضاه الدين و إلا لم يكن معنى لنفى كونه برا فانما كان ذلك عاده سيئه جاهليه فنفى الله تعالى كونه من البر، و أثبت ان البر هو التقوى، و كان الظاهر ان يقال: و لكن البر هو التقوى، و انما عدل الى قوله: **وَ لَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى**، اشعارا بان الكمال انما هو فى الانصاف بالتقوى و هو المقصود دون المفهوم الخالى كما مر نظيره فى قوله تعالى: **لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ لَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ**، الآيه.

و الامر فى قوله تعالى: **وَ أُنْتُوا الْبُيُوتِ مِنْ أَبْوَابِهَا**، ليس امرا مولويا و إنما هو إرشاد الى حسن إتيان البيوت من أبوابها لما فيه من الجرى على العاده المألوفه المستحسنه الموافقه للغرض العقلاني فى بناء البيوت و وضع الباب مدخلا و مخرجا فيها، فإن الكلام واقع موقع الردع عن عاده سيئه لا وجه لها إلا خرق العاده الجاربه الموافقه للغرض العقلاني، فلا يدل على أزيد من الهدايه الى طريق الصواب من غير إيجاب، نعم الدخول من غير الباب بمقصد أنه من الدين بدعه محرمه.

قوله تعالى: **وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**، قد عرفت فى أول السوره ان التقوى من الصفات التى يجامع جميع مراتب الايمان و مقامات الكمال، و من المعلوم ان جميع المقامات لا يستوجب الفلاح و السعاده كما يستوجب المقامات الاخيره التى تنفى عن صاحبها الشرك و الضلال و إنما تهدي الفلاح و تبشر بالسعاده، و لذلك قال تعالى: **وَ اتقوا الله لعلكم تفلحون**، فأتى بكلمه الترجى، و يمكن ان يكون المراد بالتقوى امتثال هذا الامر الخاص الموجود فى الآيه و ترك ما ذمه من إتيان البيوت من ظهورها.

[سوره البقره (٢): الآيات ١٩٠ الى ١٩٥]

اشاره

وَ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَ لَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَ أَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُواكُمْ وَ الْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَ لَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوا فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُواكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢) وَ قَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَ الْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤) وَ أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَ أَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥)

قوله تعالى: **وَآتُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَفَاتِلُونَكُمْ**، القتال محاولة الرجل قتل من يحاول قتله، و كونه في سبيل الله إنما هو لكون الغرض منه إقامة الدين و إعلاء كلمه التوحيد، فهو عباده يقصد بها وجه الله تعالى دون الاستيلاء على أموال الناس و أعراضهم فإنما هو في الإسلام دفاع يحفظ به حق الانسانيه المشروعه عند الفطره السليمه كما سنبينه، فان الدفاع محدود بالذات، و التعدي خروج عن الحد، و لذلك عقبه بقوله تعالى: **وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** .

قوله تعالى: وَلَا تَعْتَدُوا السَّخَّاءَ؛ الاعتداء هو الخروج عن الحد، يقال عدا و اعتدى اذا جاوز وحده، والنهي عن الاعتداء مطلق يراد به كل ما يصدق عليه أنه اعتداء كالقتال قبل أن يدعى الى الحق، والابتداء بالقتال، وقتل النساء و الصبيان، وعدم الانتهاء الى العدو، وغير ذلك مما بينه السنه النبويه.

قوله تعالى: وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ -الى قوله- مِنَ الْقَتْلِ، يقال ثقف ثقافه أى وجد و ادرك فمعنى الآية معنى قوله: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ (التوبه ١٦)، و الفتنه هو ما يقع به اختبار حال الشىء، و لذلك يطلق على نفس الامتحان و الابتداء و على ما يلزمه غالبا و هو الشده و العذاب على ما يستعقبه كالضلال و الشرك، و قد استعمل فى القرآن الشريف فى جميع هذه المعانى، و المراد به فى الآية الشرك بالله و رسوله بالزجر و العذاب كما كان يفعله المشركون بمكه بالمؤمنين بعد هجره رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و قبلها.

فالمعنى شددوا على المشركين بمكه كل التشديد بقتلهم حيث وجدوا حتى ينجر ذلك الى خروجهم من ديارهم و جلائهم من أرضهم كما فعلوا بكم ذلك، و ما فعلوه أشد فإن ذلك منهم كان فتنه و الفتنه أشد من القتل لان فى القتل انقطاع الحياه الدنيا، و فى الفتنه انقطاع الحياتين و انهدام الدارين.

قوله تعالى: وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ السَّخَّاءَ؛ فيه نهى عن القتال عند المسجد الحرام حفظا لحرمة ما حفظوه، و الضمير فى قوله: فِيهِ راجع الى المكان المدلول عليه بقوله عند المسجد.

قوله تعالى: فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، الانتهاء الامتناع و الكف، و المراد به الانتهاء عن مطلق القتال عند المسجد الحرام دون الانتهاء عن مطلق القتال بطاعه الدين و قبول الإسلام فإن ذلك هو المراد بقوله ثانيا: فان انتهوا فلا عدوان، و أما هذا الانتهاء

فهو قيد راجع الى أقرب الجمل اليه و هو قوله: **وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ**، و على هذا فكل من الجملتين اعنى قوله تعالى: **فَإِنْ ائْتَهُوا فِإِنَّ اللَّهَ**، و قوله تعالى: **فَإِنْ ائْتَهُوا فَلَا عُدْوَانَ**، قيد لم يتصل به من الكلام من غير تكرار.

و فى قوله تعالى: **فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**، وضع السبب موضع المسبب إعطاء لعله الحكم، و المعنى **فَإِنْ ائْتَهُوا** فان الله غفور رحيم.

قوله تعالى: **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ**، تحديد لأمد القتال كما مر ذكره، و الفتنه فى لسان هذه الآيات هو الشرك باتخاذ الاصنام كما كان يفعل و يكره عليه المشركون بمكته، و يدل عليه قوله تعالى: **وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ**، و الآيه نظيره لقوله تعالى: **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاغْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَ نِعَمَ النَّصِيرِ** (الأنفال ٤٠)، و فى الآيه دلالة على وجوب الدعوه قبل القتال فان قبلت فلا- قتال و ان ردت فلا- ولايه الا لله و نعم المولى و نعم النصير، ينصر عباده المؤمنين، و من المعلوم أن القتال إنما هو ليكون الدين لله، و لا معنى لقتال هذا شأنه و غايته إلا عن دعوه الى الدين الحق و هو الدين الذى يستقر على التوحيد.

قوله تعالى: **فَإِنْ ائْتَهُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ**، أى **فَإِنْ ائْتَهُوا** عن الفتنه و آمنوا بما آمنتتم به فلا تقاتلوهم فلا عدوان إلا على الظالمين، فهو من وضع السبب موضع المسبب كما مر نظيره فى قوله تعالى: **فَإِنْ ائْتَهُوا فِإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**، الآيه؛ فالآيه كقوله تعالى: **فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ** (التوبه ١٢).

قوله تعالى: **الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَ الْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ**، الحرمات جمع حرمه و هى ما يحرم هتكه و يجب تعظيمه و رعايه جانبه، و الحرمات: حرمه الشهر الحرام و حرمه الحرم و حرمه المسجد الحرام، و المعنى أنهم لو هتكوا حرمه الشهر الحرام بالقتال فيه،

وقد هتكوا حين صدوا النبي و أصحابه عن الحج عام الحديبيه و رموهم بالسهم و الحجاره جاز للمؤمنين أن يقاتلوهم فيه و ليس بهتك،فانما يجاهدون في سبيل الله و يمثلون أمره في إعلاء كلمته و لو هتكوا حرمة الحرم و المسجد الحرام بالقتال فيه و عنده جاز للمؤمنين معاملتهم بالمثل،فقوله: **الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ** بيان خاص عقب بيان عام يشمل جميع الحرمات و أعم من هذا البيان العام قوله تعالى عقيب: **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم**،فالمعنى أن الله سبحانه إنما شرع القصاص في الشهر الحرام لأنه شرع القصاص في جميع الحرمات و إنما شرع القصاص في الحرمات لأنه شرع جواز الاعتداء بالمثل.

ثم ندبهم الى ملازمه طريقه الاحتياط في الاعتداء لأن فيه استعمالا للشده و البأس و السطوه و سائر القوى الداعيه الى الطغيان و الانحراف عن جاده الاعتدال و الله سبحانه و تعالى لا يحب المعتدين،و هم أحوج الى محبه الله تعالى و ولايته و نصره فقال تعالى: **و اتقوا الله و اعلموا أن الله مع المتقين.**

و أما أمره تعالى بالاعتداء مع انه لا يحب المعتدين فإن الاعتداء مذموم اذا لم يكن في مقابله اعتداء و أما اذا كان في مقابله الاعتداء فليس إلاّ تعاليا عن ذل الهوان و ارتقاء عن حضيض الاستعباد و الظلم و الضيم،كالتكبر مع المتكبر،و الجهر بالسوء لمن ظلم.

و قوله تعالى: **وَ أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**، أمر بانفاق المال لإقامه القتال في سبيل الله و الكلام في تقييد الإنفاق هاهنا بكونه في سبيل الله نظير تقييد القتال في اول الآيات بكونه في سبيل الله، كما مر،و الباء في قوله: **بِأَيْدِيكُمْ** زائده للتأكيد،و المعنى: **و لا تلقوا أيديكم الى التهلكه كناية عن النهي عن إبطال القوه و الاستطاعه و القدره فان اليد مظهر لذلك،و ربما يقال: ان الباء للسببيه و مفعول لا تلقوا محذوف،و المعنى:**

لا تلقوا أنفسكم بأيدي أنفسكم الى التهلكه،و التهلكه و الهلاك واحد و هو مصير الإنسان

بحيث لا يدري أين هو، وهو على وزن تفعلة بضم العين ليس في اللغة مصدر على هذا الوزن غيره.

و الكلام مطلق أريد به النهى عن كل ما يوجب الهلاك من إفراط و تفريط كما أن البخل و الإمساك عن إنفاق المال عند القتال يوجب بطلان القوه و ذهاب قدره، و فيه هلاك العده بظهور العدو عليهم، و كما أن التبذير بانفاق جميع المال يوجب الفقر و المسكنه المؤديين الى انحطاط الحياه و بطلان المروه.

ثم ختم سبحانه و تعالى الكلام بالاحسان فقال: **وَ أَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** و ليس المراد بالاحسان الكف عن القتال أو الرأفه فى قتل أعداء الدين و ما يشبههما بل الاحسان هو الاتيان بالفعل على وجه حسن بالقتال فى مورد القتال، و الكف فى مورد الكف، و الشده فى مورد الشده، و العفو فى مورد العفو، فدفع الظالم بما يستحقه إحسان على الانسانيه باستيفاء حقها المشروع لها، و دفاع عن الدين المصلح لشأنها كما أن الكف عن التجاوز فى استيفاء الحق المشروع بما لا ينبغى إحسان آخر، و محبه الله سبحانه و تعالى هو الغرض الأقصى من الدين، و هو الواجب على كل متدين بالدين أن يجلبها من ربه بالاتباع، قال تعالى: **قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** (آل عمران ٣١)، و قد بدأت الآيات الشريفه - و هى الآيات القتال - بالنهى عن الاعتداء و ان الله لا يحب المعتدين و ختمت بالأمر بالاحسان و أن الله يحب المحسنين، و فى ذلك من وجوه الحلاوه ما لا يخفى **(١)(٢)(٣)**.

ص: ٢٤١

١-١. البقره ١٩٥-١٩٠: بحث فى الجهاد الذى يأمر به القرآن.

٢-٢. البقره ١٩٥-١٩٠: بحث اجتماعى حق الدفاع الفطرى و سبب الحروب.

٣-٣. البقره ١٩٥-١٩٠: بحث روائى فى القتال؛ الفتنة فى الدين.

وَ اتَّمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفَدِّ يَهُ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦) الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ (١٩٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ (٢٠٠) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢) وَ اذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣)

قوله تعالى: **وَ اتَّمُوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلَّهِ** ، تمام الشيء هو الجزء الذى بانضمامه الى سائر أجزاء الشيء يكون الشيء هو هو، و يترتب عليه آثاره المطلوبه منه فالإتمام هو ضم تمام الشيء اليه بعد الشروع فى بعض أجزائه، و الكمال هو حال أو وصف أو أمر اذا وجد الشيء ترتب عليه من الاثر بعد تمامه ما لا يترتب عليه لو لا الكمال، فانضمام أجزاء الانسان بعضها الى بعض هو تمامه، و كونه إنسانا عالما أو شجاعا أو عفيفا كماله، و ربما يستعمل التمام مقام الكمال بالاستعاره بدعوى كون الوصف الزائد على الشيء داخلا فيه اهتماما بأمره و شأنه، و المراد بإتمام الحج و العمره هو المعنى الاول الحقيقى، و الدليل عليه قوله تعالى بعده: **فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى**، فإن ذلك تفريع على التمام بمعنى إيصال العمل الى آخر أجزائه و ضمه الى أجزائه المأتى بها بعد الشروع و لا معنى يصح تفريعه على الاتمام بمعنى الاكمال و هو ظاهر.

و الحج هو العمل المعروف بين المسلمين الذى شرعه إبراهيم الخليل عليه السلام و كان بعده بين العرب ثم أمضاه الله سبحانه لهذه الأمة شريعته باقيه الى يوم القيامة.

و يتبدى هذا العمل بالاحرام و الوقوف فى العرفات ثم المشعر الحرام، و فيها التضحية بمنى و رمى الجمرات الثلاث و الطواف و صلاته و السعى بين الصفا و المروه، و فيها أمور مفروضة أخرى، و هو على ثلاثة أقسام: حج الافراد، و حج القرآن، و حج التمتع الذى شرعه الله فى آخر عهد رسول الله.

و العمره عمل آخر و هو زياره البيت بالاحرام من أحد المواقيت و الطواف و صلاته و السعى بين الصفا و المروه و التقصير، و هما أعنى الحج، و العمره عبادتان لا يتمان إلا لوجه الله و يدل عليه قوله تعالى: **وَ اتَّمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ، الْآيَهُ.**

قوله تعالى: **فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَ لَا تَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ** الخ؛ الاحصار هو الحبس، و المنع، و المراد الممنوعيه عن الاتمام بسبب مرض أو عدو بعد الشروع بالاحرام و الاستيسار صيروره الشىء يسيرا غير عسير كأنه يجلب اليسر لنفسه، و الهدى هو ما يقدمه الانسان من النعم الى غيره أو الى محل للتقرب به، و اصله من الهديه بمعنى التحفه أو من الهدى بمعنى الهدايه التى هى السوق الى المقصود، و الهدى و الهديه كالتمر و التمره، و المراد به ما يسوقه الانسان للتضحية به فى حجه من النعم.

قوله تعالى: **فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ** الخ؛ الفاء للتفريع، و تفريع هذا الحكم على النهى عن حلق الرأس يدل على ان المراد بالمرض هو خصوص المرض الذى يتضرر فيه من ترك الشعر على الرأس من غير حلق، و الاثيان بقوله: **أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ** بلفظه أو الترديد يدل على ان المراد بالاذى ما كان من غير طريق المرض كالهوام فهو كناية عن التأذى من الهوام كالقمل على الرأس، فهذان الامران يجوزان الحلق مع الفديه بشىء من الخصال الثلاث: التى هى الصيام، و الصدقه، و النسك.

و قد وردت السنه ان الصيام ثلاثه أيام، و ان الصدقه إطعام ستة مساكين، و ان النسك شاه.

قوله تعالى: فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ، تفرّيع على الاحصار، أى اذا أمنتُم المانع من مرض أو عدو أو غير ذلك فمن تمتع بالعمرة الى الحج، أى تمتع بسبب العمرة من حيث ختمها و الاحلال الى زمان الالهلال بالحج فما استيسر من الهدى، فالبراء للسبب، و سببه العمرة للتمتع بما كان لا يجوز له فى حال الاحرام كالنساء و الصيد و نحوهما من جهة تمامها بالاحلال.

قوله تعالى: فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَيْدِي، ظاهر الآية ان ذلك نسك، لا جبران لما فات منه من الالهلال بالحج من الميقات فإن ذلك امر يحتاج الى زياده مؤونه فى فهمه من الآية كما هو ظاهر.

قوله تعالى: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَّةً يَوْمَ ثَلَاثِهِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَ سَبْعِهِ إِذَا رَجَعْتُمْ، جعل الحج ظرفاً للصيام باعتبار اتحاده مع زمان الاشتغال به و مكانه، فالزمان الذى يعد زماناً للحج، و هو من زمان إحرام الحج الى الرجوع، زمان الصيام ثلاثة أيام، و لذلك وردت الروايات عن أئمة أهل البيت ان وقت الصيام قبل يوم الاضحى أو بعد ايام التشريق لمن لم يقدر على الصيام قبله و إلا فعند الرجوع الى وطنه، و ظرف السبعة إنما هو بعد الرجوع فإن ذلك هو الظاهر من قوله: إِذَا رَجَعْتُمْ، و لم يقل حين الرجوع على ان الالتفات من الغيبة الى الحضور فى قوله إِذَا رَجَعْتُمْ لا يخلو عن إشعار بذلك.

قوله تعالى: تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ، أى الثلاثة و السبعة عشره كامله و فى جعل السبعة مكمله للعشره دلالة على أن لكل من الثلاثة و السبعة حكماً مستقلاً آخر على ما مر من معنى التمام و الكمال فى أول الآية فالثلاثة عمل تام فى نفسه، و إنما تتوقف على السبعة فى كمالها لا تمامها.

قوله تعالى: ذَلِكُمْ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، أى الحكم المتقدم ذكره و هو التمتع بالعمرة الى الحج لغير الحاضر، و هو الذى بينه و بين المسجد الحرام

أكثر من اثني عشر ميلا على ما فسرتة السنه، و أهل الرجل خاصته: من زوجته و عياله، و التعبير عن النائي البعيد بأن لا يكون اهله حاضري المسجد الحرام من اللطف التعبيرات، و فيه إيماء الى حكمه التشريع و هو التخفيف و التسهيل، فإن المسافر من البلاد النائية للحج، و هو عمل لا يخلو من الكد و مقاسات التعب و و عثاء الطريق، لا يخلو عن الحاجه الى السكن و الراحة، و الانسان إنما يسكن و يستريح عند أهله، و ليس للنائي أهل عند المسجد الحرام، فبدله الله سبحانه من التمتع بالعمرة الى الحج و الاهلال بالحج من المسجد الحرام من غير ان يسير ثانيا الى الميقات.

و قد عرفت: أن الجملة الداله على تشريع المتعه إنما هي هذه الجملة أعنى قوله: **ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ**، الخ؛ دون قوله: **فَمَنْ تَمَعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ**، و هو كلام مطلق غير مقيد بوقت دون وقت و لا شخص دون شخص و لا حال دون حال.

قوله تعالى: **وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**، التشديد البالغ في هذا التذليل مع أن صدر الكلام لم يشتمل على أزيد من تشريع حكم في الحج ينبئ عن أن المخاطبين كان المترقب من حالهم إنكار الحكم أو التوقف في قبوله كذلك كان الامر فإن الحج خاصه من بين الاحكام المشرعه في الدين كان موجودا بينهم من عصر إبراهيم الخليل معروفا عندهم معمولا به فيهم قد أنسته نفوسهم و ألفتهم قلوبهم و قد أمضاه الاسلام على ما كان تقريبا الى آخر عهد النبي فلم يكن تغيير وضعه أمرا هينا سهل القبول عندهم و لذلك قابله بالانكار و كان ذلك غير واقع في نفوس كثير منهم على ما يظهر من الروايات، و لذلك اضطرب النبي صلى الله عليه و آله و سلم الى أن يخطبهم فيبين لهم أن الحكم لله يحكم ما يشاء، و أنه حكم عام لا يستثنى فيه أحد من نبي أو أمه فهذا هو الموجب للتشديد الذي في آخر الآيه بالأمر بالتقوى و التحذير عن عقاب الله سبحانه.

قوله تعالى: **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ** -الى قوله-

فِي الْحَجِّ، أَى زَمَانِ الْحَجِّ أَشْهَرُ مَعْلُومَاتٍ عِنْدَ الْقَوْمِ وَ قَدْ بَيَّنَّتْهُ السَّنَةُ وَ هِيَ: شَوَالٌ وَ ذُو الْقَعْدَةِ وَ ذُو الْحِجَّةِ.

وَ كُونَ زَمَانِ الْحَجِّ مِنْ ذَى الْحِجَّةِ بَعْضُ هَذَا الشَّهْرِ دُونَ كُلِّهِ لَا يَنَافَى عِنْدَهُ شَهْرًا لِلْحَجِّ فَإِنَّهُ مِنْ قَبِيلِ قَوْلِنَا: زَمَانٌ مُجِئِي الْيَكِّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مَعَ أَنَّ الْمَجِئِءَ إِنَّمَا هُوَ فِي بَعْضِهِ دُونَ جَمِيعِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾، تَذَكَّرَهُ بِأَنَّ الْأَعْمَالَ غَيْرَ غَائِبَةٍ عَنْهُ تَعَالَى، وَ دَعَا إِلَى التَّقْوَى لِثَلَاثِ أَصْنَافٍ مِنَ الْمُشْتَغَلِ بِطَاعَةِ اللَّهِ رُوحَ الْحُضُورِ وَ مَعْنَى الْعَمَلِ، وَ هَذَا دَأْبُ الْقُرْآنِ يَبِينُ أَصُولَ الْمَعَارِفِ وَ يَقْصِدُ الْقِصَصَ وَ ذَكَرَ الشَّرَائِعَ وَ يَشْفَعُ الْبَيَانَ فِي جَمِيعِهَا بِالْعِظَةِ وَ الْوَصِيَّةِ لِثَلَاثِ أَصْنَافٍ مِنَ الْعَمَلِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ مِنْ غَيْرِ عَمَلٍ لَا قِيمَةَ لَهُ فِي الْإِسْلَامِ، وَ لِذَلِكَ خَتَمَ هَذِهِ الدَّعْوَةَ بِقَوْلِهِ: وَ اتَّقُونِي يَا أُولِي الْأَلْبَابِ، بِالْعَدُولِ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى التَّكْلِيمِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ الْإِهْتِمَامِ وَ الْإِقْتِرَابِ وَ التَّعِينِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾، هُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَ ذَرُوا الْبَيْعَ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ (الجمعة ١٠/١)، فَبَدَلَ الْبَيْعَ بِالِابْتِغَاءِ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ فَهُوَ هُوَ، وَ لِذَلِكَ فَسَّرَتْ السَّنَةَ الْإِبْتِغَاءَ مِنَ الْفَضْلِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْبَيْعِ فَدَلَّتْ الْآيَةَ عَلَى إِبَاحَةِ الْبَيْعِ إِثْنَاءَ الْحَجِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾، الْإِفَاضَةُ هِيَ الصَّدُورُ عَنِ الْمَكَانِ جَمَاعَةً فَهِيَ تَدُلُّ عَلَى وَقُوفِ عَرَفَاتٍ كَمَا تَدُلُّ عَلَى الْوُقُوفِ بِالْمَشْعَرِ الْحَرَامِ، وَ هِيَ الْمَزْدَلْفَةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَ اذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ الْخَيْطُ﴾ أَى وَ اذْكُرُوهُ ذَكَرًا يَمِثِّلُ هِدَايَتَهُ إِيَّاكُمْ وَ انكُمْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ هِدَايَتِهِ إِيَّاكُمْ لِمَنْ الضَّالِّينَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾، ظَاهِرُهُ إِجَابَةُ الْإِفَاضَةِ عَلَى

ما كان من دأب الناس و الحاق المخاطبين فى هذا الشأن بهم فىنطبق على ما نقل ان قريشا و حلفائها و هم الحمس كانوا لا يقفون بعرفات بل بالمزدلفه و كانوا يقولون: نحن اهل حرم الله لا- نفارق الحرم فأمرهم الله سبحانه بالافاضه من حيث افاض الناس و هو عرفات.

و على هذا فذكر هذا الحكم بعد قوله: فاذا أفضت من عرفات، بتم الداله على التأخير اعتبار للترتيب الذكرى، و الكلام بمنزله الاستدراك، و المعنى ان أحكام الحج هى التى ذكرت غير انه يجب عليكم فى الافاضه ان تفيضوا من عرفات لا من المزدلفه، و ربما قيل: إن فى الآيتين تقديمًا و تأخيرًا فى التأليف، و الترتيب: ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس، فاذا أفضت من عرفات.

قوله تعالى: فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ - الى قوله- ذِكْرًا، دعوه الى ذكر الله و البلاغ فيه بأن يذكره الناس كذكره آباءه و أشد منه لان نعمته فى حقه و هى نعمه الهدايه كما ذكره بقوله تعالى: وَ اذْكُرُوا كَمَا هَدَاكُمْ اَعْظَمَ مِنْ حَقِّ آبَائِهِ عَلَيْهِ، و قد قيل: إن العرب كانت فى الجاهليه اذا فرغت من الحج مكثت حينًا فى منى فكانوا يتفاخرون بالآباء بالنظم و النثر فبدله الله تعالى من ذكره كذكرهم أو أشد من ذكرهم، و أو فى قوله أو أشد ذكرًا، للاضراب فتفيد معنى بل، و قد وصف الذكر بالشده و هو امر يقبل الشده فى الكيفيه كما يقبل الكثره فى الكميه، قال تعالى: اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (الأحزاب ٤١)، و قال تعالى: وَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا (الأحزاب ٣٥)، فإن الذكر بحسب الحقيقه ليس مقصورًا فى اللفظ، بل هو امر يتعلق بالحضور القلبي و اللفظ حاك عنه، فيمكن ان يتصف بالكثره من حيث الموارد بأن يذكر الله سبحانه فى غالب الحالات كما قال تعالى: الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِي مَآ وَ قُعُودًا وَ عَلَى جُنُوبِهِمْ (آل عمران ١٩١)، و ان يتصف بالشده فى مورد من الموارد، و لما كان المورد المستفاد من قوله تعالى: فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ، موردًا يستوجب التلهى عنه تعالى و نسيانه كان الانسب توصيف الذكر الذى أمر به فيه بالشده دون الكثره كما هو ظاهر.

قوله تعالى: **فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا** الخ؛ تفرّيع على قوله تعالى: **فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ**، و الناس مطلق، فالمراد به أفراد الانسان أعم من الكافر الذى لا يذكر إلا آبائه أى لا يتنغى إلا المفاخر الدنيويه و لا يطلب إلا الدنيا و لا شغل له بالآخره، و من المؤمن الذى لا يريد إلا ما عند الله سبحانه، و لو أراد من الدنيا شيئا لم يرد إلا ما يرتضيه له ربه، و على هذا فالمراد بالقول و الدعاء ما هو سؤال بلسان الحال دون المقال، و يكون معنى الآية أن من الناس من لا يريد إلا الدنيا و لا نصيب له فى الآخره و منهم من لا يريد إلا ما يرتضيه له ربه سواء فى الدنيا أو فى الآخره و لهؤلاء نصيب فى الآخره.

قوله تعالى: **وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ**، اسم من أسماء الله الحسنى، و إطلاقه يدل على شموله للدنيا و الآخره معا، فالحساب جار، كلما عمل عبد شيئا من الحسنات أو غيرها آتاه الله الجزاء جزاء وفاقا.

فالمحصل من معنى قوله: **فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ**، الى آخر الآيات، أن اذكروا الله تعالى فإن الناس على طائفتين: منهم من يريد الدنيا فلا يذكر غيرها و لا نصيب له فى الآخره، و منهم من يريد ما عند الله مما يرتضيه له و له نصيب من الآخره و الله سريع الحساب يسرع فى حساب ما يريده عبده فعطيه كما يريد، فكونوا من أهل النصيب بذكر الله و لا تكونوا ممن لا خلاق له بتركه ذكر ربه فتكونوا قانطين آيسين.

قوله تعالى: **وَ اذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ**، الايام المعدودات هى ايام التشريق و هى اليوم الحادى عشر و الثانى عشر و الثالث عشر من ذى الحجه، و الدليل على ان هذه الايام بعد العشره من ذى الحجه ذكر الحكم بعد الفراغ عن ذكر أعمال الحج، و الدليل على كونها ثلاثه ايام قوله تعالى: **فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ**، الخ؛ فإن التعجل فى يومين إنما يكون اذا كانت الايام ثلاثه، يوم ينفر فيه، و يومان يتعجل فيهما فهى ثلاثه، و قد فسرت فى الروايات بذلك أيضا.

قوله تعالى: فَيَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى، لا- نافية للجنس فقوله: فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ فِي الموضوعين ينفي جنس الا-ثم عن الحاج و لم يقيد بشيء أصلاً، و لو كان المراد لا إثم عليه في التعجل أو في التأخر لكان من اللازم تقييده به، فالمعنى أن من اتم عمل الحج فهو مغفور لا- ذنب له سواء تعجل في يومين أو تأخر، و من هنا يظهر: ان الآيه ليست في مقام بيان التخيير بين التأخر و التعجل للناسك، بل المراد بيان كون الذنوب مغفوره للناسك على أى حال.

و اما قوله: لِمَنِ اتَّقَى، فليس بيانا للتعجل و التأخر و إلا لكان حق الكلام ان يقال: على من اتقى، بل الظاهر ان قوله: لِمَنِ اتَّقَى نظير قوله تعالى: ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، والآيه، و المراد ان هذا الحكم لم اتقى و اما من لم يتق فليس له، من اللازم ان يكون هذه التقوى تقوى مما نهى الله سبحانه عنه في الحج و اختصه به فيئول المعنى ان الحكم إنما هو لمن اتقى تروك الاحرام أو بعضها أما من لم يتق فيجب ان يقيم بمنى و يذكر الله في ايام معدودات، و قد ورد هذا المعنى في بعض ما روى عن أئمة اهل البيت كما سيجيء إنشاء الله.

قوله تعالى: وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ، امر بالتقوى في خاتمه الكلام و تذكير بالحرش و البعث فإن التقوى لا تتم و المعصية لا- تجتنب إلا مع ذكر يوم الجزاء، قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَصِفُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (ص / ٢٦).

و في اختيار لفظ الحرش في قوله تعالى: أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ، مع ما في نسك الحج من حرش الناس و جمعهم لطف ظاهر، و إشعار بأن الناسك ينبغي ان يذكر بهذا الجمع و الافاضه يوما يحشر الله سبحانه الناس لا يغادر منهم أحدا (١).

ص: ٢٥٠

إشارة

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِنَفْسِهِ فَإِنَّهَا وَإِيَّاهُ يُهْلِكُ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسِبْنَاهُ جَهَنَّمَ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧)

بيان:

قوله تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ اعجبه الشيء أى راقه و سره، وقوله: فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، متعلق بقوله: يُعْجِبُكَ، أى ان الاعجاب فى الدنيا من جهة ان هذه الحياه نوع حياه لا تحكم الا على الظاهر، و اما الباطن و السريره فتحت الستر و وراء الحجاب، لا- يشاهده الانسان و هو متعلق الحياه بالدنيا الا ان يستكشف شيئا من امر الباطن من طريق الآثار و يناسبه ما يتلوه: من قوله تعالى: وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ ، و المعنى انه يتكلم بما يعجبك كلامه، من ما يشير به الى رعايه جانب الحق، و العنايه بصلاح الخلق، و تقدم الدين و الامه و هو اشد الخصماء للحق خصومه، و قوله: أَلَدُّ، افعل من لد لدودا اذا اشتد خصومه، و الخصام جمع خصم كصعب و صعاب و كعب و كعاب، و قيل: الخصام مصدر، و معنى ألد الخصام اشد خصومه.

قوله تعالى: وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا مَنَّا لَحْمٌ خَلْقًا؛ التولى هو تملك الولايه و السلطان، و يؤيده قوله تعالى في الآيه التاليه: أخذته العزه بالإثم، الدال على ان له عزه مكتسبه بالاثم الذى يأثم به قلبه غير الموافق للسانه، و السعى هو العمل و الاسراع فى المشى، فالمعنى و اذا تمكن هذا المنافق الشديد الخصومه من العمل و أوتى سلطانا و تولى امر الناس سعى فى الارض ليفسد فيها، و يمكن ان يكون التولى بمعنى الاعراض عن المخاطبه و المواجهه، اى اذا خرج من عندك كانت غيبه مخالفه لحضوره، و تبدل ما كان يظهره من طلب الصلاح و الخير الى السعى فى الأرض لاجل الفساد و الافساد.

قوله تعالى: وَيُهْلِكُ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ، ظاهره انه بيان لقوله تعالى: لِيُفْسِدَ فِيهَا مَنَّا لَحْمٌ خَلْقًا اى يفسد فيها بإهلاك الحرث و النسل، و لما كان قوام النوع الانسانى من حيث الحياه و البقاء بالتغذى و التوليد فهما الركنا القويما اللذان لا غناء عنهما للنوع فى حال: اما التوليد فظاهر، و اما التغذى فانما يركن الانسان فيه الى الحيوان و النبات، و الحيوان يركن الى النبات، فالنبات هو الأصل و يستحفظ بالحرث و هو تربيته النبات، فلذلك علق الفساد على الحرث و النسل فالمعنى انه يفسد فى الارض بإفناء الانسان و اباده هذا النوع بإهلاك الحرث و النسل.

قوله تعالى: وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ، المراد بالفساد ليس ما هو فساد فى الكون و الوجود (الفساد التكويني) فإن النشأ نشأ الكون و الفساد، و عالم التنازع فى البقاء و لا- كون إلا- بفساد، و لا- حياه إلا- بموت، و هما متعانقان فى هذا الوجود الطبيعى فى النشأ الطبيعى، و حاشا ان يبغض الله سبحانه ما هو مقدره و قاضيه.

و انما هو الفساد المتعلق بالتشريع فإن الله انما شرع ما شرعه من الدين ليصلح به اعمال عباده فيصلح اخلاقهم و ملكات نفوسهم فيعتدل بذلك حال الانسانيه و الجامعه البشريه، و عند ذلك تسعد حياتهم فى الدنيا و حياتهم فى الآخره على ما سيجىء بيانه فى قوله تعالى:

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً .

فهذا الذى يخالف ظاهر قوله باطن قلبه اذا سعى فى الارض بالفساد فإنما يفسد بما ظاهره الاصلاح بتحريف الكلمه عن موضعها، و تغيير حكم الله عما هو عليه، و التصرف فى الثاليف الدينيه، بما يؤدى الى فساد الاخلاق و اختلاف الكلمه، و فى ذلك موت الدين، و فناء الانسانيه، و فساد الدنيا، و قد صدق هذه الآيات ما جرى عليه التاريخ من ولايه رجال و ركوبهم اكتاف هذه الامه الاسلاميه، و تصرفهم فى امر الدين و الدنيا بما لم يستعقب للدين الا وبالا، و للمسلمين الا انحطاط، و للامه الا اختلاف، فلم يلبث الدين حتى صار لعبه لكل لا لعب، و لا- الانسانيه الا خطفه لكل خاطف، فنتيجه هذا السعى فساد الارض، و ذلك بهلاك الدين اولاً، و هلاك الانسانيه ثانياً، و لهذا فسر قوله و يهلك الحرث و النسل فى بعض الروايات بهلاك الدين و الانسانيه كما يأتى إن شاء الله.

قوله تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسِبْنَاهُ جَهَنَّمَ وَ لَبِئْسَ الْمِهَادُ، العزه معروفه، و المهاد الوطاء، و الظاهر ان قوله: بِالْإِثْمِ متعلق بالعزه، و المعنى انه اذا أمر بتقوى الله اخذته العزه الظاهره التى اكتسبها بالاثم و النفاق المستبطن فى نفسه، و ذلك ان العزه المطلقه انما هى من الله سبحانه كما قال تعالى: تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ (آل عمران ٢٦)، و قال تعالى: وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ (المنافقين ٨)، و قال تعالى: أَيْتَبَّغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً (النساء ١٣٩).

و حاشا ان ينسب تعالى شيئا الى نفسه و يختصه بإعطائه ثم يستعقب اثماً أو شراً فهذه العزه انما هى عزه يحسبها الجاهل بحقيقه الامر عزه بحسب ظاهر الحياه الدنيا لا عزه حقيقه اعطاها الله سبحانه لصاحبها.

و اما قوله تعالى: بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ وَ شِقَاقِ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَ لَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ (ص ٢)، فليس من قبيل التسميه و الامضاء لكون العزه نكره مع

تعقيب الآيه بقوله: كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ، الخ؛ فهي هناك عزه صوريه غير باقيه و لا أصله.

قوله تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ الخ؛ مقابلته مع قوله تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ، الخ؛ يفيد ان الوصف مقابل الوصف أى كما ان المراد من قوله: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ، بيان ان هناك رجلا- معتزا بإثمه معجبا بنفسه متظاهرا بالاصلاح مضمرا للنفاق لا يعود منه الى حال الدين و الانسانيه الا الفساد و الهلاك كذلك المراد من قوله: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ، الخ؛ بيان ان هناك رجلا آخر باع نفسه من الله سبحانه لا يريد الا ما اراده الله تعالى لا هوى له فى نفسه و لا اعتزاز له الا بربه و لا ابتغاء له الا لمرضات الله تعالى، فيصلح به امر الدين و الدنيا، و يحيى به الحق، و يطيب به عيش الانسانيه، و يدر به ضرع الاسلام، و بذلك يظهر ارتباط الذيل بالصدر أعنى قوله تعالى: وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ، بما قبله، فإن وجود إنسان هذه صفته من رأفه الله سبحانه بعباده اذ لو لا- رجال هذه صفاتهم بين الناس فى مقابل رجال آخرين صفتهم ما ذكر من النفاق و الافساد لانهدمت أركان الدين، و لم تستقر من بناء الصلاح و الرشاد لبنة على لبنة، لكن الله سبحانه لا يزال يزهد ذاك الباطل بهذا الحق و يتدارك إفساد أعدائه بإصلاح أوليائه كما قال تعالى: وَ لَوْ لَا- دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ (البقره ٢٥١)، و قال تعالى: وَ لَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ بِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَ بِيَعُ وَ صِيْلَوَاتُ وَ مَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا (الحج ٤٠)، و قال تعالى: فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (الانعام ٨٩)، فالفساد الطارى على الدين و الدنيا من قبل عده ممن لا هوى له إلا فى نفسه لا يمكن سد ثلمته إلا بالصلاح الفائض من قبل آخرين ممن باع نفسه من الله سبحانه، و لا هوى له إلا من ربه، و إصلاح الارض و من عليها، و قد ذكر هذه المعامله الربيه عند الله بقوله تعالى:

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمَّا لَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ وَ وَعِدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَ الْإِنْجِيلِ وَ الْقُرْآنِ وَ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا

بَيِّعَكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ (التوبه ١١١/)، الى غير ذلك من الآيات.

[سوره البقره (٢): الآيات ٢٠٨ الى ٢١٠]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْخُلُوا فِي السَّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ
الْبَيِّنَاتُ فَاغْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) هِيلَ يَنْظُرُونَ إِلَّا- أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ
تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٢١٠)

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْخُلُوا فِي السَّلْمِ كَافَّةً، السلم و الاسلام و التسليم واحده، و كافه كلمه تأكيد بمعنى جميعا، و لما
كان الخطاب للمؤمنين و قد أمروا بالدخول في السلم كافه، فهو امر متعلق بالمجموع و بكل واحد من اجزائه، فيجب ذلك على
كل مؤمن، و يجب على الجميع ايضا ان لا- يختلفوا في ذلك و يسلموا الامر لله و لرسوله صلى الله عليه و آله و سلم، و ايضا
الخطاب للمؤمنين خاصه فالسلم المدعو اليه هو التسليم لله سبحانه بعد الايمان به فيجب على المؤمنين ان يسلموا الامر اليه، و لا
يذعنوا لانفسهم صلاحا باستبداد من الرأى، و لا- يضعوا لانفسهم من عند انفسهم طريقا يسلكونه من دون ان يبينه الله و
رسوله، فما هلك قوم إلا باتباع الهوى و القول بغير العلم، و لم يسلب حق الحياه و سعادته الجدة عن قوم إلا عن اختلاف.

قوله تعالى: فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ، الزله هي العثره،

و المعنى فإن لم تدخلوا فى السلم كاهه و زلتم-و الزله هى اتباع خطوات الشيطان-فاعلموا ان الله عزيز غير مغلوب فى امره،حكيم لا يتعدى عما تقتضيه حكمته من القضاء فى شأنكم فيقضى فيكم ما تقتضيه حكمته،و يجريه فيكم من غير ان يمنع عنه مانع.

قوله تعالى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا- أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ الْخ؛الظلل جمع ظله و هى ما يستظل به،و ظاهر الآيه ان الملائكه عطف على لفظ الجلاله،و فى الآيه التفات من الخطاب الى الغيبه و تبديل خطابهم بخطاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بالاعراض عن مخاطبتهم بأن هؤلاء حالهم حال من ينتظر ما اوعدناهم به من القضاء على طبق ما يختارونه من اتباع خطوات الشيطان و الاختلاف و التمزق،و ذلك بأن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام و الملائكه،و يقضى الامر حيث لا يشعرون،او بحيث لا يعبأ بهم و بما يقعون فيه من الهلاك، و الى الله ترجع الامور،فلا مفر من حكمه و قضائه،فالسباق يقتضى ان يكون قوله: هَلْ يَنْظُرُونَ،هو الوعيد الذى اوعدهم به فى قوله تعالى فى الآيه السابقه فاعلموا ان الله عزيز حكيم.

ثم إن من الضرورى الثابت بالضروره من الكتاب و السنه ان الله سبحانه و تعالى لا يوصف بصفه الاجسام،و لا ينعى بنعوت الممكنات مما يقضى بالحدوث،و يلزم الفقر و الحاجه و النقص،فقد قال تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (الشورى ١١)،و قال تعالى: وَ اللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ (فاطر ١٥)،و قال تعالى: اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (الزمر ٦٢)،الى غير ذلك من الآيات،و هى آيات محكمات ترجع إليها متشابهات القرآن،فما ورد من الآيات و ظاهرها إسناد شىء من الصفات او الافعال الحادثة اليه تعالى ينبغى ان يرجع إليها،و يفهم منها معنى من المعانى لا ينافى صفاته العليا و اسمائه الحسنى تبارك و تعالى،فالآيات المشتمله على نسبة المجيء او الاتيان اليه تعالى كقوله تعالى: وَ جَاءَ رَبُّكَ وَ الْمَلَكُ صَيِّفًا صَيِّفًا (الفجر ٢٢)، و قوله تعالى: فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا (الحشر ٢)،و قوله تعالى: فَأَتَى اللَّهُ

بُيِّنَ لَهُمْ مِنَ الْقَوَائِدِ (النحل ٢٦)، كل ذلك يراد فيها معنى يلائم ساحه قدسه تقديست اسمائه كالإحاطه و نحوها و لو مجازاً، و على هذا فالمراد بالإتيان فى قوله تعالى: أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ الْإِحَاطَهُ بِهِمُ لِلْقَضَاءِ فِي حَقِّهِمْ.

على أنا نجده سبحانه و تعالى فى موارد من كلامه اذا سلب نسبه من النسب و فعلا من الأفعال عن استقلال الاسباب و وساطه الاوساط فربما نسبها الى نفسه و ربما نسبها الى امره كقوله تعالى: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ (الزمر ٤٢)، و قوله تعالى: يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكَ الْمَوْتِ (السجده ١١)، و قوله تعالى: تَوَفَّيْتَهُ رَسُولَنَا (الأنعام ٦١)، فنسب التوفى تارة الى نفسه، و تارة الى الملائكة ثم قال تعالى فى أمر الملائكة: بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (الأنبياء ٢٧)، و كذلك قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ (يونس ٩٣)، و قوله تعالى: فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ (المؤمن ٧٨)، و كما فى هذه الآية: ان يأتهم الله فى ظلل من الغمام، الآية، و قوله تعالى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ (النحل ٣٣).

و هذا يوجب صحه تقدير الأمر فى موارد على نسبه تشتمل أمور اليه لا- تلائم كبرياء ذاته تعالى نظير: جاء ربك، و يأتهم الله، فالتقدير جاء أمر ربك و يأتهم أمر الله.

فهذا هو الذى يوجب البحث الساذج فى معنى هذه النسب على ما يراه جمهور المفسرين لكن التدبر فى كلامه تعالى يعطى لهذه النسب معنى أرق و ألطف من ذلك، و ذلك أن أمثال قوله تعالى: وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ (فاطر ١٥)، و قوله تعالى: الْعَزِيزُ الْوَهَّابُ (ص ٩)، و قوله تعالى: أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ كُلًّا شَيْءٌ خَلَقَهُ ثُمَّ هَدَى (طه ٥٠)، تفيد أنه تعالى واجد لما يعطيه من الخلقه و شئونها و أطوارها، ملء بما يهبه و وجود به و ان كانت أفهامنا من جهه اعتيادها بالماده و أحكامها الجسمانيه يصعب عليها تصور كيفيه اتصافه تعالى ببعض ما يفيض على خلقه من الصفات و نسبته اليه تعالى، لكن هذه المعانى اذا جردت عن قيود الماده و اوصاف الحدثان لم يكن فى نسبته اليه تعالى محذور فالنقص و الحاجه هو الملاك فى سلب معنى من المعانى عنه

تعالى، فإذا لم يصاحب المعنى نقصا و حاجه لتجريده عنه صح اسناده اليه تعالى بل وجب ذلك لأن كل ما يقع عليه اسم شىء فهو منه تعالى بوجه على ما يليق بكبريائه و عظمته.

فالمجىء و الإتيان الذى هو عندنا قطع الجسم مسافه بينه و بين جسم آخر بالحركه و اقترابه منه اذا جرّد عن خصوصيه الماده كان هو حصول القرب، و ارتفاع المانع و الحاجز بين شيئين من جهه من الجهات، و حينئذ صح إسناده اليه تعالى حقيقه من غير مجاز: فإتيانه تعالى اليهم ارتفاع الموانع بينهم و بين قضائه فيهم، و هذه من الحقائق القرآنيه التى لم يوفق الابحاث البرهانيه لنيله إلا بعد إمعان فى السير، و ركوبها كل سهل و وعر، و إثبات التشكيك فى الحقيقه الوجوديه الاصيله.

و كيف كان فهذه الآيه تتضمن الوعيد الذى ينبئ عنه قوله سبحانه فى الآيه السابقه: إن الله عزيز حكيم، و من الممكن أن يكون وعيدا بما سيستقبل القوم فى الآخره يوم القيامه كما هو ظاهر قوله تعالى فى نظير الآيه: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ (النحل ٣٣)، و من الممكن أن يكون وعيدا بأمر متوقع الحصول فى الدنيا كما يظهر بالرجوع الى ما فى سوره يونس بعد قوله تعالى: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ (يونس ٤٧)، و ما فى سوره الروم بعد قوله تعالى: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا (الروم ٣٠)، و ما فى سوره الانبياء و غيرها على أن الآخره آجله هذه العاجله و ظهور تام لما فى هذه الدنيا، و من الممكن أيضا أن يكون وعيدا بما سيقع فى الدنيا و الآخره معا، و كيف كان فقوله فى ظلل من الغمام يشتمل من المعنى على ما يناسب مورده.

قوله تعالى: وَ قَضَى الْأَمْرَ إِلَى اللَّهِ تُزْجَعُ الْأُمُورُ، السكوت عن ذكر فاعل القضاء، و هو الله سبحانه كما يدل عليه قوله: وَ إِلَى اللَّهِ تُزْجَعُ الْأُمُورُ، لإظهار الكبرياء على ما

يفعله الاعظام فى الإخبار عن وقوع احكامهم و صدور أوامرهم و هو كثير فى القرآن (١).

[سوره البقره (٢): الآيات ٢١١ الى ٢١٢]

اشاره

سَلِّ بِنَى إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيْنَهُ وَ مَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢١١) زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢)

بيان:

قوله تعالى: سَلِّ بِنَى إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيْنَهُ وَ مَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢١١) زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢) فاعلموا أن الله عزيز حكيم، الآية من الوعيد بأخذ المخالفين اخذ عزيز مقتدر.

يقول: هذه بنو إسرائيل فى مرآكم و منظركم و هى الامه التى آتاهم الله الكتاب و الحكم و النبوه و الملك، و رزقهم من الطيبات، و فضّلهم على العالمين، سلّمهم كم آتيناهم من آيه بينه؟ و انظر فى امرهم من اين بدئوا و إلى اين كان مصيرهم؟ حرّفوا الكلم عن مواضعه، و وضعوا فى قبال الله و كتابه و آياته أمورا من عند انفسهم بغيا بعد العلم، فعاقبهم الله أشد العقاب بما حلّ فيهم من اتخاذ الانداد، و الاختلاف و تشتت الآراء، و أكل بعضهم بعضا، و ذهاب السودد، و فناء السعاده، و عذاب الذله و المسكنه فى الدنيا، و لعذاب الآخره اخزى و هم لا ينصرون.

ص: ٢٥٩

و هذه هي السنه الجاريه من الله سبحانه: من يبدل نعمه و اخرجها الى غير مجراها فإن الله يعاقبه، و الله شديد العقاب، و على هذا فقله: وَ مَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ إِلَى قَوْلِهِ الْعِقَابِ مِنْ قَبْلِ وَضْعِ الْكَلِمِ الْمَوْضِعِ الْجَزْئِيِّ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْحُكْمِ، سنه جاريه.

قوله تعالى: زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، فى موضوع التعليل، و إن الملا-ك فى ذلك تزين الحياه الدنيا لهم فانها اذا زينت لانسان دعته الى هوى النفس و شهواتها، و أنس كل حق و حقيقه، فلا- يريد الانسان إلا- نيلها: من جاه و مقام و مال و زينه، فلا يلبث دون ان يستخدم كل شىء لاجلها و فى سبيلها، و من ذلك الدين فىأخذ الدين و سيله يتوسل بها الى التميزات و التعينات، فىنقلب الدين الى تميز الزعماء و الرؤساء و ما يلائم سوددهم و رئاستهم، و تقرب التبعه و المقلده المرءوسين و ما يجلب به تماثل رؤسائهم و ساداتهم كما نشاهده فى أمتنا اليوم، و كنا شاهدناه فى بنى اسرائيل من قبل، و ظاهر الكفر فى القرآن هو الستر أعم من ان يكون كفرا اصطلاحيا أو كفرا مطلقا فى مقابل الايمان المطلق فتزين الحياه الدنيا لا- يختص بالكفار اصطلاحا بل كل من ستر حقيقه من الحقائق الدينيه، و غير نعمه دينيه فهو كافر زينت له الحياه الدنيا فليتها لشديد العقاب.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْخ؛ تبديل الايمان بالتقوى فى هذه الجملة لكون الايمان لا ينفع وحده لو لا العمل.

[سوره البقره (٢): آيه ٢١٣]

اشاره

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣)

ص: ٢٦٠

الآية تبين السبب فى تشريع أصل الدين و تكليف النوع الانسانى به، و سبب وقوع الاختلاف فيه بيان: ان الانسان- و هو نوع مفطور على الاجتماع و التعاون- كان فى أول اجتماعه امه واحده، ثم ظهر فيه بحسب الفطره الاختلاف فى اقتناء المزايا الحيويه، فاستدعى ذلك وضع قوانين ترفع الاختلافات الطارئه، و المشاجرات فى لوازم الحياه فألبست القوانين الموضوعه لباس الدين، و شققت بالتبشير و الانذار: بالثواب و العقاب، و أصلحت بالعبادات المندوبه إليها ببعث النبيين، و إرسال المرسلين، ثم اختلفوا فى معارف الدين أو أمور المبدأ و المعاد، فاختل بذلك أمر الوحده الدينيه، و ظهرت الشعوب و الاحزاب، و تبع ذلك الاختلاف فى غيره، و لم يكن هذا الاختلاف الثانى إلا بغيا من الذين أوتوا الكتاب، و ظلما و عتوا منهم بعد ما تبين لهم أصوله و معارفه، و تمت عليهم الحججه، فالاختلاف اختلافان:

اختلاف فى أمر الدين مستند الى بغى الباغين دون فطرتهم و غريزتهم، و اختلاف فى أمر الدنيا و هو فطرى و سبب لتشريع الدين، ثم هدى الله سبحانه المؤمنين الى الحق المختلف فيه بإذنه، و الله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم.

فالدين الالهى هو السبب الوحيد لسعاده هذا النوع الانسانى، و المصلح لامر حياهه، يصلح الفطره بالفطره و يعدل قواها المختلفه عند طغيانها، و ينظّم للانسان سلك حياهه الدنيويه و الاخروييه، و الماديه و المعنويه، فهذا إجمال تاريخ حياه هذا النوع (الحياه الاجتماعيه و الدينيه) على ما تعطيه هذه الآيه الشريفه.

و قد اکتفت فی تفصیل ذلك بما تفيده متفرقات الآيات القرآنيه النازله فی شئون مختلفه (١).

قوله تعالى: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً، الناس معروف و هو الافراد المجتمعون من الانسان، و الامه هي الجماعه من الناس، و ربما يطلق على الواحد كما في قوله تعالى: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ (النحل ١٢٠/)، و ربما يطلق على زمان معتد به كقوله تعالى:

وَ اذْكَرَ بَعْدَ أُمَّهِ (يوسف ٤٥/)، أي بعد سنين و قوله تعالى: وَ لَئِنْ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَيَّ أُمَّهُ مَعْدُودَةٍ (هود ٨/)، و ربما يطلق على المله و الدين كما قال بعضهم في قوله تعالى:

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (المؤمنون ٥٢/)، و في قوله تعالى: إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (الأنبياء ٩٢/)، و أصل الكلمه من أم يأم اذا قصد فأطلق لذلك على الجماعه لكن لا على كل جماعه، بل على جماعه كانت ذات مقصد واحد و بغيه واحده هي رابطة الوحده بينها، و هو المصحح لاطلاقها على الواحد و على سائر معانيها اذا أطلقت.

و كيف كان فظاهر الآيه يدل على أن هذا النوع قد مر عليهم في حياتهم زمان كانوا على الاتحاد و الاتفاق، و على السداجه و البساطه، لا اختلاف بينهم بالمشاجره و المدافعه في أمور الحياه، و لا اختلاف في المذاهب و الآراء، و الدليل على نفى الاختلاف قوله تعالى:

فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اختلفُوا فِيهِ فَقَد رتب بعثه الانبياء و حكم الكتاب في مورد الاختلاف على كونهم أمه واحده فالاختلاف في أمور الحياه ناش بعد الاتحاد و الوحده، و الدليل على نفى الاختلاف الثاني قوله تعالى: وَ مَا اختلفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ، فالاختلاف في الدين إنما نشأ من قبل حمله الكتاب بعد

ص: ٢٤٢

١ - ١). البقره ٢١٣: بحث في بدء تكوين الانسان؛ تركبه من روح و بدن؛ شعوره الحقيقي و ارتباطه بالاشياء؛ علومه العمليه؛ جريه على استخدام غيره انتفاعاً؛ كونه مدنياً بالطبع؛ حدوث الاختلاف بين افراد الانسان؛ رفع الاختلاف بالدين؛ الاختلاف في نفس الدين، الانسان بعد الدنيا.

□ قوله تعالى: فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ الخ؛ عبر تعالى بالبعث دون الارسال و ما فى معناه لان هذه الوحده المخبر عنها من حال الانسان الأولى حال خمود و سكوت، و هو يناسب البعث الذى هو الاقامه عن نوم أو قطن و نحو ذلك، و هذه النكته لعلها هى الموجه للتعبير عن هؤلاء المبعوثين بالنبيين دون ان يعبر بالمرسلين أو الرسل، على ان البعث و انزال الكتاب كما تقدم بيانه حقيقتهما بيان الحق للناس و تنبيههم بحقيقه أمر وجودهم و حياتهم، و إنبائهم انهم مخلوقون لربهم، و هو الله الذى لا إله إلا هو، و أنهم سالكون كادحون الى الله مبعوثون ليوم عظيم، واقفون فى منزل من منازل السير، لا حقيقه له إلا اللعب و الغرور، فيجب ان يراعوا ذلك فى هذه الحياه و أفعالها، و ان يجعلوا نصب اعينهم انهم من أين، و فى أين، و إلى أين، و هذا المعنى أنسب بلفظ النبى الذى معناه: من استقر عنده النبأ دون الرسول، و لذلك عبر بالنبيين، و فى اسناد بعث النبيين الى الله سبحانه دلالة على عصمه الانبياء فى تلقيهم الوحي و تبليغهم الرساله الى الناس و سيجىء زياده توضيح لهذا فى آخر البيان، و أما التبشير و الانذار أى الوعد برحمه الله من رضوانه و الجنة لمن آمن و اتقى، و الوعيد لعذاب الله سبحانه من سخطه و النار لمن كذب و عصى فهما امس مراتب الدعوه بحال الانسان المتوسط الحال، و إن كان بعض الصالحين من عباده و أوليائه لا تتعلق نفوسهم بغير ربهم من ثواب أو عقاب.

□ قوله تعالى: وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اِخْتَلَفُوا فِيهِ، الكتاب فعال بمعنى المكتوب، و الكتاب بحسب المتعارف من اطلاقه و ان استلزم كتابه بالقلم لكن لكون العهود و الفرامين المفترضه انما يبرم بالكتابه غالبا شاع اطلاقه على كل حكم مفروض واجب الاتباع أو كل بيان بل كل معنى لا يقبل النقض فى إبرامه، و قد كثر استعماله بهذا المعنى فى القرآن، و بهذا المعنى سمي القرآن كتابا و هو كلام الهى، قال تعالى:

كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ (ص ٢٩)، وقال تعالى: إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (النساء ١٠٣)، وفي قوله تعالى فيما اختلفوا فيه، دلالة على ان المعنى: كان الناس امه واحده فاختلفوا فبعث الله، الخ؛ كما مر.

و اللام فى الكتاب اما للجنس و اما للعهد الذهني و المراد به كتاب نوح عليه السلام لقوله تعالى:

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى (الشورى ١٣)، فإن الآيه فى مقام الامتنان و تبين ان الشريعه النازله على هذه الامه جامعه لمتفرقات جميع الشرائع السابقه النازله على الانبياء السالفين مع ما يختص بوحيه النبى صلى الله عليه و آله و سلم فالشريعه مختصه بهؤلاء الانبياء العظام: نوح و ابراهيم و موسى و عيسى و محمد صلى الله عليه و آله و سلم.

و لما كان قوله تعالى: وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اختلفوا فيه، الآيه يدل على ان الشرع إنما كان بالكتاب دلت الآيتان بالانضمام:

أولاً: على ان لنوح عليه السلام كتابا متضمنا لشريعه، و انه المراد بقوله تعالى: وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اختلفوا فيه، إما وحده أو مع غيره من الكتب بناء على كون اللام للعهد أو الجنس.

و ثانيا: ان كتاب نوح أول كتاب سماوى متضمن للشريعه، اذ لو كان قبله كتاب لكان قبله شريعه حاكمه و لذكرها الله تعالى فى قوله: شَرَعَ لَكُمْ، الآيه.

و ثالثا: ان هذا العهد الذى يشير تعالى اليه بقوله: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً، الآيه؛ كان قبل بعثه نوح عليه السلام و قد حكم فيه كتابه عليه السلام.

قوله تعالى: وَمَا اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم، قد مر أن المراد به الاختلاف الواقع فى نفس الدين من حملته، و حيث كان الدين من الفطره كما يدل عليه قوله تعالى: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ

النَّاسَ عَلَيْهَا (الروم ٣٠/)، نسب الله سبحانه الاختلاف الواقع فيه الى البغى.

و فى قوله تعالى: إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ، دلالة على ان المراد بالجملة هو الإشارة الى الاصل فى ظهور الاختلاف الدينى فى الكتاب لا أن كل من انحرف عن الصراط المستقيم أو تدين بغير الدين يكون باغيا و إن كان ضالاً عن الصراط السوى، فإن الله سبحانه لا يعذر الباغى، و قد عذر من اشتبه عليه الامر و لم يجد حيله و لم يهتد سبيلاً، قال تعالى: إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلُمُونَ النَّاسَ وَ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (الشورى ٤٢/)، و قال تعالى: وَ آخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَ آخِرًا سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ - الى أن قال:- وَ آخِرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (التوبة ١٠٦/)، و قال تعالى: إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَ النِّسَاءِ وَ الْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَ لَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (النساء ٩٩/).

على أن الفطره لا- تنافى الغفله و الشبهه، و لكن تنافى التعمد و البغى، و لذلك خص البغى بالعلماء و من استبان له الآيات الإلهيه، قال تعالى: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقره ٣٩/)، و الآيات فى هذا المعنى كثيره، و قد قيد الكفر فى جميعها بتكذيب آيات الله ثم أوقع عليه الوعيد، و بالجملة فالمراد بالآيه أن هذا الاختلاف ينتهى الى بغى حمله الكتاب من بعد علم.

قوله تعالى: فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ، بيان لما اختلف فيه و هو الحق الذى كان الكتاب نزل بمصاحبه، كما دل عليه قوله تعالى: وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ، و عند ذلك عنت الهدايه الإلهيه بشأن الاختلافين معا: الاختلاف فى شأن الحياه، و الاختلاف فى الحق و المعارف الإلهيه الذى كان عامله الاصلى بغى حمله الكتاب، و فى تقييد الهدايه بقوله تعالى: يَأْذِنُهُ دَلَالَهُ عَلَى أَنْ هُدَايَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُؤْلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ تَكُنْ

إلزاماً منهم، وإيجاباً على الله تعالى أن يهديهم لإيمانهم، فإن الله سبحانه لا يحكم عليه حاكم، ولا يوجب عليه موجب إلا ما أوجبه على نفسه، بل كانت الهدايه بإذنه تعالى و لو شاء لم يأذن و لم يهد، و على هذا فقوله تعالى: **وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**، بمنزله التعليل لقوله بإذنه، و المعنى إنما هداهم الله بإذنه لان له أن يهديهم و ليس مضطراً موجبا على الهدايه فى مورد أحدا، بل يهدى من يشاء، و قد شاء أن يهدى الذين آمنوا الى صراط مستقيم (١)(٢)(٣).

[سوره البقره (٢): آيه ٢١٤]

إشارة

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَ الضَّرَّاءُ وَ زُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)

بيان:

قوله تعالى: **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ**، تثبيت لما تدل عليه الآيات السابقة، و هو ان الدين نوع هدايه من الله سبحانه للناس الى ما فيه سعادتهم فى الدنيا و الآخرة، و نعمه جباهم الله بها، فمن الواجب ان يسلموا له و لا يتبعوا خطوات الشيطان، و لا يلقوا فيه الاختلاف، و لا يجعلوا الدواء داء، و لا يبدلوا نعمه الله سبحانه كفرا و نقمه من اتباع الهوى، و ابتغاء زخرف الدنيا و حطامها فيحل عليهم غضب من ربهم كما حل ببني إسرائيل حيث

ص: ٢٦٦

١-١. البقره ٢١٣: كلام فى عصمه الانبياء.

٢-٢. البقره ٢١٣: كلام فى النبوه.

٣-٣. البقره ٢١٣: بحث فلسفى فى النبوه: بحث اجتماعى فى النبوه.

بدلوا نعمه الله من بعد ما جاءتهم، فإن المحنة دائمة، و الفتنة قائمه، و لن ينال أحد من الناس سعادته الدين و قرب رب العالمين إلا بالثبات و التسليم.

و كلمه أم منقطعه تفيد الاضراب، و المعنى على ما قيل: بل أحسبتم ان تدخلوا الجنة، الخ؛ و الخلاف فى أم المنقطعه معروف، و الحق ان ام لإفاده الترديد، و أن الدلاله على معنى الاضراب من حيث انطباق معنى الاضراب على المورد، لا- انها دلالة وضعيه، فالمعنى فى المورد مثلاً: هل انقطعتم بما أمرناكم من التسليم بعد الايمان و الثبات على نعمه الدين، و الاتفاق و الاتحاد فيه أم لا بل حسبتم أن تدخلوا الجنة، الخ.

قوله تعالى: **وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ**، المثل بكسر الميم فسكون الثاء، و المثل بفتح الميم و الثاء كالشبهه و الشبهه، و المراد به ما يمثل الشيء و يحضره و يشخصه عند السامع، و منه المثل بفتحيتين، و هو الجمله أو القصة التى تفيد استحضر معنى مطلوب فى ذهن السامع بنحو الاستعاره التمثيليه كما قال تعالى: **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** (الجمعه ٥/٥)، و منه أيضا المثل بمعنى الصفه كقوله تعالى: **أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ** (الفرقان ٩/٩)، و إنما قالوا له صلى الله عليه و آله و سلم: مجنون و ساحر و كذاب و نحو ذلك، و حيث انه تعالى يبين المثل الذى ذكره بقوله: **مَسَّتْهُمْ الْبَأْسَاءُ وَ الضَّرَاءُ**، الخ؛ فالمراد به المعنى الاول.

قوله تعالى: **مَسَّتْهُمْ الْبَأْسَاءُ وَ الضَّرَاءُ**، الى آخره لما اشتد شوق المخاطب ليفهم تفصيل الاجمال الذى دل عليه بقوله: **وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ**، بين ذلك بقوله: **مَسَّتْهُمْ الْبَأْسَاءُ وَ الضَّرَاءُ**، و البأساء هو الشده المتوجهه الى الانسان فى خارج نفسه كالجمال و الجاه و الاهل و الامن الذى يحتاج إليه فى حياته، و الضراء هى الشده التى تصيب الانسان فى نفسه كالجرح و القتل و المرض، و الزلزله و الزلزال معروف و اصله من زل بمعنى عشر، كررت اللفظه للدلاله على التكرار كان الارض مثلاً تحدث لها بالزلزله عشره بعد عشره، و هو كصر و صرصر،

و صل صلصل، و كب و كبكب، و الزلزال فى الآيه كناية عن الاضطراب و الادهاش.

قوله تعالى: **حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ**، قرء بنصب يقول، و الجملة على هذا فى محل الغايه لما سبقها، و قرء برفع يقول و الجملة على هذا الحكاية الماضيه، و المعنيان و إن كانا جميعا صحيحين لكن الثانى أنسب للسياق، فإن كون الجملة غايه يعلل بها قوله: **وَزُلْزِلُوا** لا يناسب السياق كل المناسبه.

قوله تعالى: **مَتَى نَضْرُؤُا** الله، الظاهر أنه مقول قول الرسول و الذين آمنوا معه جميعا، و لا ضمير فى ان يتفوه الرسول بمثل هذا الكلام استدعاء و طلبا للنصر الذى وعد به الله سبحانه رسوله **وَالْمُؤْمِنِينَ** بهم كما قال تعالى: **وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ** (الصافات/١٧٢)، و قال تعالى: **كَتَبَ اللَّهُ لِمَآ غَلِبْنَا أَنَا وَرُسُلُنَا** (المجادله/ ٢١)، و قد قال تعالى أيضا: **حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا** (يوسف/١١٠)، و هو أشد لحنا من هذه الآيه.

و الظاهر أيضا أن قوله تعالى: **أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** مقول له تعالى لا تتمه لقول الرسول و الذين آمنوا معه...

و الآيه (كما مرت اليه الاشاره سابقا) تدل على دوام أمر الابتلاء و الامتحان و جريانه فى هذه الامه كما جرى فى الامم السابقه.

و تدل أيضا على اتحاد الوصف و المثل بتكرار الحوادث الماضيه غابرا، و هو الذى يسمى بتكرار التاريخ و عوده.

[سوره البقره (٢): آيه ٢١٥]

اشاره

يَسِّرْ لَكُمْ مَا ذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ وَ مَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥)

ص: ٢٦٨

قوله تعالى: **يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ**، قل: ما أنفقتم من خير، قالوا: إن الآيه واقعته على أسلوب الحكمة، فإنهم إنما سألوا عن جنس ما ينفقون و نوعه، و كان هذا السؤال كاللغو لمكان ظهور ما يقع به الانفاق و هو المال على أقسامه، و كان الاحق بالسؤال إنما هو من ينفق له: صرف الجواب الى التعرض بحاله و بيان أنواعه ليكون تنبيها لهم بحق السؤال.

و الذى ذكره وجه بليغ غير أنهم تركوا شيئا، و هو أن الآيه مع ذلك متعرضه لبيان جنس ما ينفقونه، فإنها تعرضت لذلك: أولا بقولها: من خير، إجمالا و ثانيا بقولها: و ما تفعلوا من خير فإن الله به عليم، ففى الآيه دلالة على ان الذى ينفق به هو المال كائنا ما كان، من قليل أو كثير، و ان ذلك فعل خير و الله به عليم، لكنهم كان عليهم ان يسألوا عمن ينفقون لهم و يعرفوه، و هم: الوالدان و الاقربون و اليتامى و المساكين و ابن السبيل.

قوله تعالى: **وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**، فى تبديل الانفاق من فعل الخير هاهنا كتبديل المال من الخير فى أول الآيه إيماء الى أن الانفاق و ان كان مندوبا اليه من قليل المال و كثيره، غير انه ينبغى ان يكون خيرا يتعلق به الرغبه و تقع عليه المحبه كما قال تعالى: **لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ** (آل عمران ٩٢)، و كما قال تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ** (البقره ٢٦٧).

و ايماء الى ان الانفاق ينبغى ان لا يكون على نحو العشر كالانفاق بالمن و الاذى كما قال تعالى: **ثُمَّ لَا يُشْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَى** (البقره ٢٦٢)، و قوله تعالى: **وَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ** (البقره ٢١٩).

اشاره

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ فِيهِ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكَ حَتَّىٰ يَرْدُوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتِطَاعُوا وَمَنْ يَزِدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢١٨)

بيان:

قوله تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ، الكتابه كما مر مرارا ظاهره في الفرض اذا كان الكلام مسوقا لبيان التشريع، وفي القضاء الحتم اذا كان في التكوين فالآيه تدل على فرض القتال على كافة المؤمنين لكون الخطاب متوجها اليهم إلا من أخرجه الدليل مثل قوله تعالى: لَيْسَ عَلَى الْمَأْمُومِي حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَاعِزِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ (النور/ ٦١)، وغير ذلك من الآيات و الادله.

و لم يظهر فاعل كتب لكون الجملة مذيّله بقوله: وَ هُوَ كَرَهُ لَكُمْ وَ هُوَ لَا- يناسب إظهار الفاعل صوتا لمقامه عن الهتك، و حفظا لاسمه عن الاستخفاف أن يقع الكتابه المنسوبه اليه صريحا موردا لكراهه المؤمنين.

و الكره بضم الكاف المشقه التي يدر كها الانسان من نفسه طبعاً أو غير ذلك، و الكره بفتح الكاف: المشقه التي تحمل عليه من خارج كأن يجبره إنسان آخر على فعل ما يكرهه، قال تعالى: لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرِهًا (النساء ١٩)، و قال تعالى: فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ انثِيًا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا (فصلت ١١)، و كون القتال المكتوب كرها للمؤمنين إما لان القتال لكونه متضمنا لفناء النفوس و تعب الابدان و المضار الماليه و ارتفاع الامن و الرخصه و الرفاهيه، و غير ذلك مما يستكرهه الانسان في حياته الاجتماعيه لا محاله كان كرها و شاق للمؤمنين بالطبع، فإن الله سبحانه و إن مدح المؤمنين في كتابه بما مدح، و ذكر ان فيهم رجالا صادقين في إيمانهم مفلحين في سعيهم، لكنه مع ذلك عاتب طائفه منهم بما في قلوبهم من الزيغ و الزلل، و هو ظاهر بالرجوع الى الآيات النازله في غزوه بدر و أحد و الخندق و غيرها، و معلوم ان من الجائر أن ينسب الكراهه و الثاقل الى قوم فيهم كاره و غير كاره و اكثرهم كارهون، فهذا وجه.

قوله تعالى: وَ عَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ، قد مر فيما مر ان أمثال عسى و لعل في كلامه تعالى مستعمل في معنى الترجى، و ليس من الواجب قيام صفه الرجاء بنفس المتكلم بل يكفي قيامها بالمخاطب أو بمقام التخاطب، فالله سبحانه إنما يقول: عسى ان يكون كذا لا لأنه يرجوه، تعالى عن ذلك، بل ليرجوه المخاطب أو السامع.

و تكرر عسى في الآيه لكون المؤمنين كارهين للحرب، محيين للسلم، فأرشدهم الله سبحانه على خطأهم في الامرين جميعا، بيان ذلك: أنه لو قيل: عسى ان تكرهوا شيئا و هو خير لكم أو تحبوا شيئا و هو شر لكم، كان معناه أنه لا عبره بكرهكم و حبكم فإنهما ربما

يخطئان الواقع، و مثل هذا الكلام إنما يلقي الى من اخطأ خطأ واحدا كمن يكره لقاء زيد فقط، و أما من اخطأ خطاءين كان يكره المعاشره و المخالطه و يحب الاعتزال، فالذى تقتضيه البلاغه ان يشار الى خطأه فى الامرين جميعا، فيقال له: لا فى كرهك أصبت، و لا فى حبك اهتديت، عسى ان تكره شيئا و هو خير لك و عسى ان تحب شيئا و هو شر لك لانك جاهل لا تقدر ان تهتدى بنفسك الى حقيقه الامر، و لما كان المؤمنون مع كرههم للقتال محيين للسلم كما يشعر به ايضا قوله تعالى سابقا: أم حسبتم ان تدخلوا الجنة و لما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم، نبههم الله بالخطأين بالجملتين المستقلتين و هما: عسى ان تكرهوا، و عسى ان تحبوا.

قوله تعالى: **وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**، تتميم لبيان خطأهم، فإنه تعالى درج فى بيان ذلك إرفاقا فأذهانهم، فأخذ أولا بإبداء احتمال خطأهم فى كراهتهم للقتال بقوله:

عَسَى أَنْ تَكْرَهُوا، فلما اعتدلت أذهانهم بحصول الشك فيها، و زوال صفة الجهل المركب كثر عليهم ثانيا بأن هذا الحكم الذى كرهتموه أنتم إنما شرعه الله الذى لا يجهل شيئا من حقائق الامور، و الذى ترونه مستند الى نفوسكم التى لا تعلم شيئا إلا ما علمها الله إياه و كشف عن حقيقته، فعليكم ان تسلموا اليه سبحانه الأمر.

و الآيه فى إثبات العلم له تعالى على الاطلاق و نفى العلم عن غيره على الاطلاق تطابق سائر الآيات الداله على هذا المعنى كقوله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ** (آل عمران / ٥)، و قوله تعالى: **وَ لَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ** (البقره ٢٥٥)، و قد سبق بعض الكلام فى القتال فى قوله: **وَ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ** (البقره ١٩٠).

قوله تعالى: **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ**، الآية؛ تشتمل على المنع عن القتال فى الشهر الحرام و ذمه بأنه صد عن سبيل الله و كفر، و اشتغالها مع ذلك على ان إخراج أهل المسجد الحرام منه أكبر عند الله، و ان الفتنه أكبر من القتل، يؤذن بوقوع حادثه هى الموجه للسؤال و ان هناك قتلا، و انه إنما وقع خطأ لقوله تعالى فى آخر الآيات: **إِنَّ الَّذِينَ**

آمَنُوا وَ الَّذِينَ هَاجَرُوا وَ جَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ الْآيَةُ؛ فهذه قرائن على وقوع قتل في الكفار خطأ من المؤمنين في الشهر الحرام في قتال واقع بينهم، و طعن الكفار به، ففيه تصديق لما ورد في الروايات في قصة عبد الله بن جحش و أصحابه.

قوله تعالى: قُلْ قَدْ آتَىٰ فِيهِ كَبِيرٌ وَ صَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ كُفْرٌ بِهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، الصّد هو المنع و الصرف، و المراد بسبيل الله العبادة و النسك و خاصه الحج، و الظاهر ان ضمير به راجع الى السبيل فيكون كفرا في العمل دون الاعتقاد، و المسجد الحرام عطف على سبيل الله اي صد عن سبيل الله و عن المسجد الحرام.

و الآية تدل على حرمة القتال في الشهر الحرام، و قد قيل: إنها منسوخة بقوله تعالى:

فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ (التوبة ١٦)، و ليس بصواب، و قد مر بعض الكلام في ذلك في تفسير آيات القتال.

قوله تعالى: وَ إِخْرَاجَ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَ الْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ، أي و الذي فعله المشركون من إخراج رسول الله و المؤمنين من المهاجرين، و هم أهل المسجد الحرام، منه اكبر من القتال، و ما فتنوا به المؤمنين من الزجر و الدعوة الى الكفر أكبر من القتل، فلا يحق للمشركين ان يطعنوا المؤمنين و قد فعلوا ما هو أكبر مما طعنوا به، و لم يكن المؤمنين فيما اصابوه منهم إلا راجين رحمة الله و الله غفور رحيم.

قوله تعالى: وَ لَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ الى آخر الآية؛ حتى للتعليل أي ليردوكم.

قوله تعالى: وَ مَنْ يَزِدْكَ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ الْخ؛ تهديد للمرتد بحبط العمل و خلود النار (١)(٢).

ص: ٢٧٣

١- ١). البقره ٢١٦-٢١٨: كلام في الحبط.

٢- ٢). البقره ٢١٦-٢١٨: كلام في احكام الاعمال من حيث الجزاء.

اشاره

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ
كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ
تُخَالِطُوهُمْ فَاجْحَوْنَاكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَيْنَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)

بيان:

قوله تعالى: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ، الخمر على ما يستفاد من اللغة هو كل مائع معمول للسكر، و الاصل في معناه الستر، و
سمى به لانه يستر العقل و لا- يدعه يميز الحسن من القبح و الخير من الشر، و يقال: لما تغطى به المرأه رأسها الخمار، و
يقال: خمرت الإناء اذا غطيت رأسها، و يقال: أخمرت العجين اذا أدخلت فيه الخمير، و سميت الخميره خميره لأنها تعجن أولا ثم
تغطى و تخمر من قبل، و قد كانت العرب لا- تعرف من اقسامه إلا الخمر المعمول من العنب و التمر و الشعير، ثم زاد الناس فى
اقسامه تدريجا فصارت اليوم أنواعا كثيره ذات مراتب بحسب درجات السكر، و الجميع خمر.

و الميسر لغه هو القمار و يسمى المقامر ياسرا و الاصل فى معناه السهوله سمي به لسهوله اقتناء مال الغير به من غير تعب الكسب
و العمل، و قد كان اكثر استعماله عند العرب فى نوع خاص من القمار، و هو الضرب بالقداح و هى السهام، و تسمى أيضا: الازلام
و الاقلام.

قوله تعالى: **قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ**، وقرء إثم كثير بالثاء المثلثة، والاثم يقارب الذنب وما يشبهه معنى و هو حال فى الشىء أو فى العقل يبطئ الانسان عن نيل الخيرات فهو الذنب الذى يستتبع الشقاء و الحرمان فى أمور أخرى و يفسد سعادته الحياه فى جهاتها الاخرى و هذان على هذه الصفه.

أما شرب الخمر فمضراته الطيبه و آثاره السيئه فى المعده و الامعاء و الكبد و الرئه و سلسله الاعصاب و الشرائين و القلب و الحواس كالبصره و الذائقه و غيرها مما الف فيه تأليفات من حذاق الاطباء قديما و حديثا، و لهم فى ذلك إحصاءات عجيبيه تكشف عن كثره المبتلين بأنواع الامراض المهلكه التى يستتبعها هذا السم المهلك.

و أما مضراته الخلقية: من تشويه الخلق و تأديته الانسان الى الفحش، و الاضرار و الجنايات، و القتل، و إفشاء السر، و هتك الحرمات، و إبطال جميع القوانين و النواميس الانسانيه التى بنيت عليها أساس سعادته الحياه، و خاصه ناموس العفه فى الاعراض و النفوس و الاموال، فلا عاصم من سكران لا يدرى ما يقول و لا يشعر بما يفعل، و قل ما يتفق جنايه من هذه الجنايات التى قد ملأت الدنيا و نغصت عيشه الانسان إلا و للخمر فيها صنع مستقيما أو غير مستقيم.

و أما مضرته فى الادراك و سلبه العقل و تصرفه الغير المنتظم فى أفكار الانسان و تغييره مجرى الادراك حين السكر و بعد الصحو فمما لا ينكره منكر و ذلك أعظم ما فيه من الاثم و الفساد، و منه ينشأ جميع المفاسد الأخر.

و الشريعة الاسلاميه كما مرت اليه الاشاره وضعت أساس أحكامها على التحفظ على العقل السليم، و نهت عن الفعل المبطل لعمل العقل أشد النهى كالخمر، و الميسر، و الغش، و الكذب، و غير ذلك، من اشد الافعال المبطله لحكومته العقل على سلامه هو شرب الخمر من بين الافعال و قول الكذب و الزور من بين الاقوال.

فهذه الاعمال أعني:الاعمال المبطله لحكومته العقل و على رأسها السياسات المبتنيه على السكر و الكذب هي التي تهدد الانسانيه،و تهدم بنيان السعاده و لا تأتي بثمره عامه الا و هي امر من سابقتها،و كلما زاد الحمل ثقلا و أعجز حامله زيد في الثقل رجاء لقرده،فخاب السعي،و خسر العمل،و لو لم يكن لهذه المحججه البيضاء و الشريعه الغراء الا البناء على العقل و المنع عما يفسده من اتباع الهوى لكفاها فخرا،و للكلام تتمه سنتعرض لها في سورة المائده إن شاء الله.

و لم يزل الناس بقريحتهم الحيوانيه يميلون الى لذائذ الشهوه فيشبع بينهم الاعمال الشهوانيه اسرع من شيوخ الحق و الحقيقه،و انعقدت العادات على تناولها و شق تركها و الجرى على نواميس السعاده الانسانيه،و لذلك ان الله سبحانه شرع فيهم ما شرع من الاحكام على سبيل التدريج،و كلفهم بالرفق و الامهال.

و من جمله تلك العادات الشائعه شرب الخمر فقد أخذ في تحريمه بالتدريج على ما يعطيه التدبر في الآيات المربوطه به فقد نزلت أربع مرات:

إحداها:قوله تعالى: قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ (الأعراف/٣٣)،و الآيه مكيه حرم فيها الإثم صريحا،و في الخمر اثم غير انه لم يبين ان الاثم ما هو ان في الخمر اثم كبيراً.

و لعل ذلك انما كان نوعاً من الارقاق و التسهيل لما في السكوت عن البيان من الاغماض كما يشعر به ايضا قوله تعالى: وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سِكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا (النحل/٦٧)،و الآيه أيضا مكيه،و كأن الناس لم يكونوا متنبهين بما فيه من الحرمة الكبيره حتى نزلت قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى (النساء/٤٣)،و الآيه مدنيه و هي تمتع الناس بعض المنع عن الشرب و السكر في افضل الحالات و في افضل الاماكن و هي الصلاه في المسجد.

و الاعتبار و سياق الآيه الشريفه يأبى ان تنزل بعد آيه البقره و آيتى المائده فإنهما تدلان على النهى المطلق، و لا معنى للنهى الخاص بعد ورود النهى المطلق، على أنه ينافى التدريج المفهوم من هذه الآيات فإن التدريج سلوك من الاسهل الى الاشق لا بالعكس.

ثم نزلت آيه البقره أعنى قوله تعالى: **يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا** و هذه الآيه بعد آيه النساء كما مر بيانه و تشتمل الآيه على التحريم لدلالاتها القطعيه على الإثم فى الخمر «**فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ**» و تقدم نزول آيه الاعراف المكيه الصريحه فى تحريم الاثم.

و النفع خلاف الضرر و يطلقان على الامور المطلوبه لغيرها أو المكروهه لغيرها كما ان الخير و الشر يطلقان على الامور المطلوبه لذاتها أو المكروهه لذاتها، و المراد بالمنافع فيها ما يقصده الناس بهما من الاستفادات الماليه بالبيع و الشرى و العمل و التفكه و التلهى، و لما قوبل ثانيا بين الاثم و المنافع بالكبر أوجب ذلك إفراد المنافع و الغاء جهه الكثره فيها فإن العدد لا تأثير له فى الكبر فقليل: و اثمها اكبر من نفعهما و لم يقل من منافعهما.

قوله تعالى: **وَ يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ، الْعَفْوُ** على ما ذكره الراغب قصد الشىء لتناوله ثم أوجب لحوق العنايات المختلفه الكلاميه به مجيئه لمعانى مختلفه كالعفو بمعنى المغفره و العفو بمعنى إمحاء الاثر و العفو بمعنى التوسط فى الانفاق، و هذا هو المقصود فى المقام، و الله العالم.

و الكلام فى مطابقه الجواب للسؤال فى هذه الآيه نظير ما مر فى قوله تعالى: **يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّذِينَ وَ الْأَقْرَبِينَ، الْآيَهُ.**

قوله تعالى: **يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَ الْأَحْزَهِ، الظرف** أعنى قوله تعالى: **فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ، متعلق بقوله: تَتَفَكَّرُونَ** و ليس بظرف له، و المعنى لعلكم تتفكرون فى امر الدارين و ما يرتبط بكم فى حقيقتهما، و ان الدنيا دار خلقها الله لكم لتحيا فيها و تكسبوا

ما ينفعكم من مقركم و هو الدار الآخرة التي ترجعون فيه الى ربكم فيجازيكم بأعمالكم التي عملتموها في الدنيا.

قوله تعالى: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ، في الآية اشعار بل دلالة على نوع من التخفيف و التسهيل حيث أجازت المخالطة لليتامى، ثم قيل و لو شاء الله لأعتكم، و هذا يكشف عن تشديد سابق من الله تعالى في امر اليتامى يوجب التشويش و الاضطراب في قلوب المسلمين، حتى دعاهم على السؤال عن أمر اليتامى، و الامر على ذلك، فإن هاهنا آيات شديده اللحن في امر اليتامى كقوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَ سَيَصِيلُونَ سَاجِدًا (النساء ١٠)، و قوله تعالى: وَ آتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَ لَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (النساء ٢)، فالظاهر ان الآية نازله بعد آيات سورة النساء، و بذلك يتأيد ما سننقله من سبب نزول الآية في البحث الروائي، و في قوله تعالى: قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ، حيث نكر الاصلاح، دلالة على ان المرضى عند الله سبحانه نوع من الاصلاح لا كل إصلاح و لو كان إصلاحا في ظاهر الامر فقط، فالتنكير في قوله تعالى: إِصْلَاحٌ لِإِفَادَةِ التَّنْوِيعِ فالمراد به الاصلاح بحسب الحقيقة لا بحسب الصورة، و يشعر به قوله تعالى -ذيلًا-: و الله يعلم المفسد من المصلح.

قوله تعالى: وَ إِنَّ تَخَالَطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ، إشاره الى المساواه المجعوله بين المؤمنين جميعا بإلغاء جميع الصفات المميزه التي هي المصادر لبروز أنواع الفساد بين الناس في اجتماعهم من الاستعباد و الاستضعاف و الاستدلال و الاستكبار و أنواع البغى و الظلم، و بذلك يحصل التوازن بين اثقال الاجتماع، و المعادله بين اليتيم الضعيف و الولي القوي، و بين الغنى المثرى و الفقير المعدم، و كذا كل ناقص و تام، و قد قال تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ (الحجرات ١٠).

قوله تعالى: وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ إِلَى آخِرِ آيَةٍ؛ تعديده يعلم بمن كأنها لمكان تضمينه معنى يميز، والعنت هو الكلفه و المشقه.

[سوره البقره (٢): آيه ٢٢١]

اشاره

وَلَا تَتَّكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلِأَمَّةٍ مُؤْمِنَةٍ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَ لَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تَتَّكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَ لَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَ الْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَ يُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)

بيان:

قوله تعالى: وَلَا تَتَّكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ، قال الراغب في المفردات:

أصل النكاح للعقد ثم استعير للجماع، و محال ان يكون في الأصل للجماع ثم استعير للعقد لأن أسماء الجماع، كلها كنايةات، لاستقباحهم ذكره، كاستقباح تعاطيه، و محال أن يستعير من لا يقصد فحشا اسم ما يستفظعونه لما يستحسنونه، انتهى، و هو جيد غير أنه يجب أن يراد بالعقد علقه الزوجيه دون العقد اللفظي المعهود.

قوله تعالى: وَلِأَمَّةٍ مُؤْمِنَةٍ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَ لَوْ أَعْجَبَتْكُمْ، الظاهر أن المراد بالأمة المؤمنة المملوكة التي تقابل الحره و قد كان الناس يستدلون الإماء و يعيرون من تزوج بهن، فتقييد الأمة بكونها مؤمنة، و إطلاق المشركه مع ما كان عليه الناس من استحقاق أمر الإماء و استدلالهن، و التحرز عن التزوج بهن يدل على ان المراد أن المؤمنه و ان كان أمه خير من المشركه و ان كانت حره ذات حسب و نسب و مال مما يعجب الانسان

قوله تعالى: **وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا** وَ لَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ **الْخ**؛ الكلام فيه كالكلام فى الجملة السابقه.

قوله تعالى: **أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ**، اشاره الى حكمه الحكم بالتحريم، و هو ان المشركين لا اعتقادهم بالباطل، و سلوكهم سبيل الضلال رسخت فيهم الملكات الرذيله المزينه للكفر و الفسوق، و المعنيه عن أبصار طريق الحق و الحقيقه، فأثبتت فى قولهم و فى فعلهم الدعوه الى الشرك، و الدلاله الى البوار، و السلوك بالأخره الى النار فهم يدعون الى النار، و المؤمنون - بخلافهم - بسلوكهم سبيل الايمان، و تلبسهم بلباس التقوى يدعون بقولهم و فعلهم الى الجنه و المغفره بإذن الله حيث أذن فى دعوتهم الى الايمان، و اهتدائهم الى الفوز و الصلاح المؤدى الى الجنه و المغفره.

و كان حق الكلام أن يقال: و هؤلاء يدعون الى الجنه، الخ؛ ففيه استخلاف عن المؤمنين و دلالة على ان المؤمنين فى دعوتهم بل فى مطلق شئونهم الوجوديه الى ربهم، لا يستقلون فى شىء من الامور دون ربهم تبارك و تعالى و هو وليهم كما قال سبحانه: **وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ** (آل عمران ٦٨).

و فى الآيه وجه آخر: و هو ان يكون المراد بالدعوه الى الجنه و المغفره هو الحكم المشرع فى صدر الآيه بقوله تعالى: **وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يُؤْمِنَ**، الخ؛ فان جعل الحكم لغرض ردع المؤمنين عن الاختلاط فى العشره مع من لا يزيد القرب منه و الانس به إلا البعد من الله سبحانه، و حثهم بمخالطه من فى مخالطته التقرب من الله سبحانه و ذكر آياته و مراقبه امره و نهيه دعوه من الله الى الجنه، و يؤيد هذا الوجه تذييل هذه الجملة بقوله تعالى: **وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**، و يمكن ان يراد بالدعوه الاعم من الوجهين، و لا يخلو حينئذ السياق عن لطف فافهم.

إشارة

وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِنَفْسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣)

بيان:

قوله تعالى: وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ الخ؛ المحيض مصدر كالحيض، يقال: حاضت المرأة تحيض حيضا وحيضا اذا نزلت طبيعتها الدم المعروف ذا الصفات المعهودة المختصه بالنساء، و لذلك يقال هي حائض كما يقال: هي حامل.

و الاذى هو الضرر على ما قيل، لكنه لا يخلو عن نظر، فإن لو كان هو الضرر بعينه لصح مقابله مع النفع كما ان الضرر مقابل النفع وليس بصحيح، يقال: دواء مضر و ضار، و لو قيل دواء موز أفاذ معنى آخر، و ايضا قال تعالى: لَمَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا- أَذَىٰ (آل عمران ١١١)، و لو قيل لن يضروكم إِلَّا ضررا لفسد الكلام، و ايضا كونه بمعنى الضرر غير ظاهر في امثال قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ (الأحزاب ٥٧)، و قوله تعالى: لَمْ تُؤْذُونِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ (الصف ٥)، الظاهر ان الاذى هو الطارئ على الشيء غير الملائم لطبعه فينطبق عليه معنى الضرر بوجه.

و تسميه المحيض اذى على هذا المعنى لكون هذا الدم المستند الى عاده النساء حاصل من

عمل خاص من طبعها يؤثر به في مزاج الدم الطبيعي الذي يحصله جهاز التغذية فيفسد مقدارا منه عن الحال الطبيعي و ينزله الى الرحم لتطهيره او لتغذيته الجنين او لتهيئته اللبن للإرضاع، و اما على قولهم: ان الاذى هو الضرر فقد قيل: ان المراد بالمحيض اتيان النساء في حال الحيض، و المعنى: يسألونك عن اتيانهن في هذه الحال فاجيب بأنه ضرر و هو كذلك فقد ذكر الاطباء ان الطبيعه مشغله في حال الطمث بتطهير الرحم و اعداده للحمل، و الوقاع يختل به نظام هذا العمل فيضر بنتائج هذا العمل الطبيعي من الحمل و غيره.

قوله تعالى: **فَاعْتَرِلُوا النِّسَاءَ فِي المَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ**، الاعتزال هو أخذ العزله التجنب عن المخالطه و المعاشره، يقال: عزلت نصيبه اذا ميزته و وضعت في جانب بالتفريق بينه و بين سائر الانصباء، و القرب مقابل البعد يتعدى بنفسه و بمن، و المراد بالاعتزال ترك الإتيان من محل الدم على ما سنبين.

و قد كان للناس في أمر المحيض مذاهب شتى: فكانت اليهود تشدد في أمره، و يفارق النساء في المحيض في المأكل و المشرب و المجلس و المضجع، و في التوراه أحكام شديده في أمرهن في المحيض، و أمر من قرب منهن في المجلس و المضجع و المس و غير ذلك، و أما النصارى فلم يكن عندهم ما يمنع الاجتماع بهن أو الاقتراب منهن بوجه، و اما المشركون من العرب فلم يكن عندهم شيء من ذلك غير ان العرب القاطنين بالمدينه و حوالها سرى فيهم بعض آداب اليهود في امر المحيض و التشديد في امر معاشرتهم في هذا الحال، و غيرهم ربما كانوا يستحبون اتيان النساء في المحيض و يعتقدون ان الولد المرزوق حينئذ يصير سفاحا ولوعا في سفك الدماء و ذلك من الصفات المستحسنه عند العشائر من البدويين.

و كيف كان فقوله تعالى: **فَاعْتَرِلُوا النِّسَاءَ فِي المَحِيضِ**، و ان كان ظاهره الامر بمطلق الاعتزال على ما قالت به اليهود، و يؤكد قوله تعالى ثانيا: **وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ**، إلا ان قوله تعالى اخيرا **فَاتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ** - و من المعلوم انه محل الدم - قرينه على ان قوله: **فَاعْتَرِلُوا**

وَلَا تَقْرَبُوا، واقعان موقع الكنايه لا التصريح، والمراد به الإتيان من محل الدم فقط لا مطلق المخالطه و المعاشره و لا مطلق التمتع والاستلذاذ.

فالإسلام قد اخذ في امر المحيض طريقا وسطا بين التشديد التام الذى عليه اليهود و الإهمال المطلق الذى عليه النصارى، و هو المنع عن اتيان محل الدم و الاذن فيما دونه و فى قوله تعالى فى المحيض، وضع الظاهر موضع المضمرة و كان الظاهر أن يقال:فاعتزلوا النساء فيه و الوجه فيه ان المحيض الأول اريد به المعنى المصدرى و الثانى زمان الحيض الثانى غير الاول، و لا يفيد معناه تبديله من الضمير الراجع الى غير معناه.

قوله تعالى: حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ، الطهاره و تقابلها النجاسه-من المعانى الدائره فى ملة الإسلام ذات أحكام و خواص مجعوله فيها تشتمل على شطر عظيم من المسائل الدينيه، و قد صار اللفظان بكثرة الاستعمال من الحقائق الشرعيه أو المتشرعه على ما اصطلح عليه فى فن الاصول (١).

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ، التوبه هى الرجوع الى الله سبحانه و التطهر هو الأخذ بالطهاره و قبولها فهو انقلاص عن القذاره و رجوع الى الأصل الذى هو الطهاره فالمعنيان يتصادقان فى مورد أوامر الله سبحانه و نواهيته، و خاصه فى مورد الطهاره و النجاسه فالإتيان بأمر من أوامره تعالى و الانتهاء عن كل ما نهى عنه تطهر عن قذاره المخالفه و المفسده، و توبه و رجوع إليه عز شأنه، و لمكان هذه المناسبه علل تعالى ما ذكره من الحكم بقوله: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ، فإن من اللازم أن ينطبق ما ذكره من العله على كل ما ذكره من الحكم، أعنى قوله تعالى: فَاعْتَرِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ، و قوله: فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ، و الآية أعنى قوله: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ، مطلقه غير مقيده

ص: ٢٨٣

فتشمل جميع مراتب التوبه و الطهاره كما مر بيانه، ولا يبعد استفاده المبالغه من قوله تعالى:

الْمُتَطَهِّرِينَ، كما جىء بصيغته المبالغه فى قوله: التَّوَابِينَ، فينتج استفاده الكثره فى التوبه و الطهاره من حيث النوع و من حيث العدد جميعا، أعنى: إن الله يحب جميع أنواع التوبه سواء كانت بالاستغفار أو بامثال كل أمر و نهى من تكاليفه أو باتخاذ كل اعتقاد من الاعتقادات الحقه، و يحب جميع أنواع التطهر سواء كان بالاغتسال و الوضوء و الغسل أو التطهر بالاعمال الصالحه أو العلوم الحقه، و يحب تكرار التوبه و تكرار التطهر.

قوله تعالى: نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ، الحرت مصدر بمعنى الزراعه و يطلق كالزراعه على الارض التى يعمل فيها الحرت و الزراعه، و أنى من اسماء الشرط يستعمل فى الزمان كمتى، و ربما استعمل فى المكان أيضا، قال تعالى: يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ (آل عمران ٣٧)، فإن كان بمعنى المكان كان المعنى من أى محل شئتم، و إن كان بمعنى الزمان كان المعنى فى أى زمان شئتم، و كيف كان يفيد الاطلاق بحسب معناه و خاصه من حيث تقييده بقوله: شِئْتُمْ، و هذا هو الذى يمنع الأمر أعنى قوله تعالى: فَأْتُوا حَرْثَكُمْ، أن يدل على الوجوب اذ لا معنى لإيجاب فعل مع إرجاعه الى اختيار المكلف و مشيئته.

ثم إن تقديم قوله تعالى: نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ، على هذا الحكم و كذا التعبير عن النساء ثانيا بالحرت لا يخلو عن الدلاله على أن المراد التوسع فى إتيان النساء من حيث المكان أو الزمان الذى يقصدن منه دون المكان الذى يقصدن منه، فإن كان الإطلاق من حيث المكان فلا- تعرض للآيه للإطلاق الزمانى و لا تعارض له مع قوله تعالى فى الآيه السابقه: فاعتزلوا النساء فى المحيض و لا- تقربوهن حتى يطهرن، الآيه، و إن كان من حيث الزمان فهو مقيد بآيه المحيض، و الدليل عليه اشتمال آيه المحيض على ما يأبى معه أن ينسخه آيه الحرت، و هو دلاله آيه المحيض على أن المحيض أذى و أنه السبب لتشريع حرمة إتيانهن فى المحيض أذى دائما،

و دلالتها أيضا على أن تحريم الإتيان في المحيض نوع تطهير من القذاره و الله سبحانه يحب التطهر دائما، و يمتن على عباده بتطهيرهم كما قال تعالى: **مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيَتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ (المائدة ٦).**

و من المعلوم أن هذا اللسان لا يقبل التقييد بمثل قوله تعالى: **نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ،** المشتمل أولا على التوسعه، و هو سبب كان موجودا مع سبب التحريم و عند تشريعه و لم يؤثر شيئا فلا يتصور تأثيره بعد استقرار التشريع و ثانيا على مثل التذييل الذى هو قوله تعالى: **وَ قَدَّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ،** و من هذا البيان يظهر: أن آيه الحرث لا تصلح لنسخ آيه المحيض سواء تقدمت عليها نزولا أو تأخرت.

فمحصل معنى الآية: أن نسبه النساء الى المجتمع الإنسانى نسبه الحرث الى الإنسان فكما أن الحرث يحتاج اليه لبقاء البذور و تحصيل ما يتغذى به من الزاد لحفظ الحياه و إبقائها كذلك النساء يحتاج اليهن النوع فى بقاء النسل و دوام النوع لأن الله سبحانه جعل تكون الانسان و تصور مادته بصورته فى طباع أرحامهن، ثم جعل طبيعه الرجال و فيهم بعض الماده الاصلية مائله منعطفه إليهن، و جعل بين الفريقين موده و رحمه، و اذا كان كذلك كان الغرض التكوينى من هذا الجعل هو تقديم الوسيله لبقاء النوع فلا معنى لتقييد هذا العمل بوقت دون وقت، أو محل دون محل اذا كان مما يؤدى الى ذلك الغرض و لم يزاحم أمرا آخر واجبا فى نفسه لا يجوز إهماله، و بما ذكرنا يظهر معنى قوله تعالى و قدموا لانفسكم.

قوله تعالى: **وَ قَدَّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ،** قد ظهر: ان المراد من قوله: **قَدَّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ** و خطاب الرجال أو مجموع الرجال و النساء بذلك الحث على إبقاء النوع بالتناكح و التناسل، و الله سبحانه لا يريد من نوع الانسان و بقاءه إلا حياه دينه و ظهور توحيده و عبادته بتقواهم العام، قال تعالى: **وَ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (الذاريات ٥٦)،** فلو أمرهم بشىء مما يرتبط بحياتهم و بقائهم

فإنما يريد توصلهم بذلك الى عباده ربهم لا إخلادهم الى الارض و انهماكهم فى شهوات البطن و الفرج، و تيههم فى أوديه الغى و الغفله.

فالمراد بقوله: قَدَّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ و إن كان هو الاستيلاء و تقدمه أفراد جديدى الوجود و التكون الى المجتمع الانسانى الذى لا يزال يفقد أفرادا بالموت و الفناء، و ينقص عدده بمرور الدهر لكن لا- لمطلوبيتهم فى نفسه بل للتوصل به الى ابقاء ذكر الله سبحانه ببقاء النسل و حدوث أفراد صالحين ذوى أعمال صالحه تعود مثوباتها و خيراتها الى انفسهم و الى صالحى آبائهم المتسبين إليهم كما قال تعالى: وَ نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَارَهُمْ (يس ١٢) (١).

[سوره البقره (٢): الآيات ٢٢٤ الى ٢٢٧]

اشاره

وَ لَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَ تَتَّقُوا وَ تَصِيَلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَ لَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥) لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٦) وَ إِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)

بيان:

قوله تعالى: وَ لَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا الى آخر الآيه؛

ص: ٢٨٦

العرضه بالضم من العرض و هو كإراءه الشيء للشيء حتى يرى صلوحه لما يريده و يقصده كعرض المال للبيع و عرض المنزل للنزول و عرض الغذاء للأكل، و منه ما يقال المهدف: إنه عرضه للسهم، و للفتاه الصالحه للازدواج انها عرضه للنكاح، و للدابه المعده للسفر إنها عرضه للسفر و هذا هو الاصل فى معناها، و اما العرضه بمعنى المانع المعرض فى الطريق و كذلك العرضه بمعنى ما ينصب ليكون معرضا لتوارد الواردات و تواليها فى الورد كالمهدف للسهم حتى يفيد كثره العوارض الى غير ذلك من معانيها فهى مما لحقها من موارد استعمالها غير دخيله فى اصل المعنى.

و الايمان جمع يمين بمعنى الحلف مأخوذه من اليمين بمعنى الجارحه لكونهم يضربون بها فى الحلف و العهد و البيعه و نحو ذلك فاشتق من آله العمل اسم للعمل، للملازمه بينها كما يشتق من العمل اسم لآله العمل كالسبابه للاصبع التى يسب بها و معنى الآيه (و الله اعلم): و لا- تجعلوا الله عرضه تتعلق بها ايمانكم التى عقدتموها بحلفكم ان لا تبروا و تتقوا و تصلحوا بين الناس فإن الله سبحانه لا يرضى ان يجعل اسمه ذريعه للامتناع عما امر به من البر و التقوى و الاصلاح بين الناس، و يؤيد هذا المعنى ما ورد من سبب نزول الآيه على ما سننقله فى البحث الروائى إنشاء الله.

قوله تعالى: لا- يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ اللغو من الافعال ما لا يستتبع أثرا، و أثر الشيء يختلف باختلاف جهاته و متعلقاته، فللميمين أثر من حيث انه لفظ، و اثر من حيث انه مؤكد للكلام، و اثر من حيث انه عقد و اثر من حيث حنثه و مخالفه مؤداه، و هكذا إلا أن المقابله فى الآيه بين عدم المؤاخذه على لغو اليمين و بين المؤاخذه على ما كسبته القلوب و خاصه من حيث اليمين تدل على أن المراد بلغو اليمين ما لا يؤثر فى قصد الحالف، و هو اليمين الذى لا يعقد صاحبه على شيء من قول: لا و الله و بلى و الله.

و الكسب هو اجتلاب المنافع بالعمل بضعه أو حرفه أو نحوهما و اصله فى اقتناء ما يرتفع به حوائج الانسان الماديه ثم استعير لكل ما يجتلبه الانسان بعمل من اعماله من خير او شر ككسب المدح و الفخر و حسن الذكر بحسن الخلق و الخدمات النوعيه و كسب الخلق الحسن و العلم النافع و الفضيله بالاعمال المناسبه لها، و كسب اللوم و الذم، و اللعن و الطعن، و الذنوب و الآثام، و نحوها بالأعمال المستتبعه لذلك، فهذا هو المعنى الكسب و الاكتساب، و قد قيل فى الفرق بينهما أن الاكتساب اجتلاب الإنسان المنفعه لنفسه، و الكسب أعم مما يكون لنفسه او غيره مثل كسب العبد لسيدته و كسب الولي للمولى عليه و نحو ذلك.

و كيف كان فالكاسب و المكتسب هو الإنسان لا غير (١).

قوله تعالى: لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ الشَّخَايَءَ؛ الايلاء من الاليه بمعنى الحلف، و غلب فى الشرع فى حلف الزوج أن لا يأتى زوجته غضبا و اضرارا، و هو المراد فى الآيه، و التربص هو الانتظار، و الفء هو الرجوع.

و الظاهر أن تعديه الايلاء بمن لتضمينه معنى الابتعاد و نحوه فيفيد وقوع الحلف على الاجتناب عن المباشره، و يشعر به تحديد التربص بالاربعه أشهر فإنها الامد المضروب للمباشره الواجبه شرعا، و منه يعلم أن المراد بالعزم على الطلاق العزم مع ايقاعه، و يشعر به أيضا تذييله بقوله تعالى: فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، فإن السمع انما يتعلق بالطلاق الواقع لا بالعزم عليه.

و فى قوله تعالى: فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، دلالة على أن الايلاء لا عقاب عليه على تقدير الفء. و اما الكفارته فهى حكم شرعى لا يقبل المغفره، قال تعالى: لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ
الآيه

ص: ٢٨٨

فالمعنى ان من آلى من امراته يتربص له الحاكم اربعة اشهر فإن رجع الى حق الزوجيه و هو المباشره و كفر و باشر فلا عقاب عليه و ان عزم الطلاق و اوقعه فهو المخلص الآخر، و الله سميع عليم.

[سوره البقره (٢): الآيات ٢٢٨ الى ٢٤٢]

اشاره

وَ الْمَطْلَقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ
بُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَ لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَ لِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
(٢٢٨) الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِنْ سَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسِيرٍ بِإِحْسَانٍ وَ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا
حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ
فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا
أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠) وَ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبَعْنَ أَجَلَهُنَّ فَأُمْسِيهِنَّ كَوَهْنَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ
سِرِّهِنَّ بِمَعْرُوفٍ وَ لَا تُمْسِيهِنَّ كَوَهْنَ ضِرَارًا لَتَعْتَدُوا وَ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَ لَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَ أذْكُرُوا نِعْمَتَ
اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ مَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَ الْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) وَ إِذَا طَلَّقْتُمُ
النِّسَاءَ فَلَبَعْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَغْضُبُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ زَوْجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ
الْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَرْكَى لَكُمْ وَ أَطْهَرُ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢) وَ الْوَالِدَاتُ يُرْضَيْنَ مِنْ أَوْلَادِهِنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ
أَنْ يُتِمَّ الرِّضَاعَةَ وَ عَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَ كِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارُّ وَالِدَةٌ بَوْلِدِهَا وَ لَا مَوْلُودٌ لَهُ
بَوْلِدِهَا وَ عَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِضَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَ تَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَ إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) وَ الَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ
يَذَرُونَ أَرْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ عَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَ اللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) وَ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْتُمْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنَّكُمْ سَتَذَكَّرُوهُنَّ وَ لَكِنْ
لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَ لَا تَعْرُضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ
فَاحْذَرُوهُ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥) لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفَرَّضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَ مَتَّعُوهُنَّ
عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرَهُ وَ عَلَى الْمُفْتَرِ قَدْرَهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَ قَدْ
فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فِنْصَفْ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بَيْنَهُمَا عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَ أَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَ لَا تَسْأُوا الْفَضْلَ
بَيْنَكُمْ إِنْ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧) حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَ الصَّلَاةِ الْوَسْطَى وَ قُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ
رُكْبَانًا فَإِذَا أُمِيتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مِمَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩) وَ الَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذَرُونَ أَرْوَاجًا وَ صِيَةً لِأَرْوَاجِهِمْ
مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠) وَ
لِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢)

قوله تعالى: وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ، اصل الطلاق التخليه عن وثاق و تقييد ثم استعير لتخليه المرأه عن حباله النكاح و قيد الزوجيه ثم صار حقيقه فى ذلك بكثره الاستعمال.

و التربص هو الانتظار و الحبس، و قد قيد بقوله تعالى: بِأَنْفُسِهِنَّ، ليدل على معنى التمكين من الرجال فيفيد معنى العده اعنى عده الطلاق، و هو حبس المرأه نفسها عن الازدواج تحذرا عن اختلاط المياه، و يزيد على معنى العده الاشاره الى حكمه التشريع، و هو التحفظ عن اختلاط المياه و فساد الانساب، و لا يلزم اطراد الحكمه فى جميع الموارد فإن القوانين و الاحكام إنما تدور مدار المصالح و الحكم الغالبه دون العامه، فقوله تعالى يتربصن بأنفسهن بمنزله قولنا:

يعتد دن احترازا من اختلاط المياه و فساد النسل بتمكين الرجال من أنفسهن، و الجملة خبر أريد به الانشاء تأكيدا.

و القروء جمع القراء، و هو لفظ يطلق على الطهر و الحيض معا، فهو على ما قيل من الاضداد، غير ان الاصل فى ماده قرء هو الجمع لكن لا كل جمع بل الجمع الذى يتلوه الصرف و التحويل و نحوه، و على هذا فالأظهر ان يكون معناه الطهر لكونه حاله جمع الدم ثم استعمل فى الحيض لكونه حاله قذفه بعد الجمع، و بهذه العنايه اطلق على الجمع بين الحروف للدلاله على معنى القراءه، و قد صرح أهل اللغه بكون معناه هو الجمع، و يشعر بأن الاصل فى ماده قرء الجمع، قوله تعالى: لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ

(القيامة ١٨)، و قوله تعالى: وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ (الإسراء / ١٠٦)، حيث عبر تعالى في الآيتين بالقرآن، و لم يعبر بالكتاب أو الفرقان أو ما يشبههما، و به سمى القرآن قرآنا.

قال الراغب في مفرداته: و القرء في الحقيقة اسم للدخول في الحيض عن طهر و لما كان اسما جامعا للأمرين: الطهر و الحيض المتعقب له أطلق على كل واحد لأن كل اسم موضوع لمعنيين معا يطلق على كل واحد منهما اذا انفرد، كالمائده للخوان و الطعام، ثم قد يسمى كل واحد منهما بانفراده به، و ليس القرء اسما للطهر مجردا و لا للحيض مجردا، بدليل ان الطاهر التي لم تر أثر الدم لا يقال لها: ذات قرء، و كذا الحائض التي استمر بها الدم لا يقال لها: ذلك، انتهى.

قوله تعالى: وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمَنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ، المراد به تحريم كتمان المطلقة الدم او الولد استعجالا في خروج العده أو إضراراً بالزوج في رجوعه و نحو ذلك، و في تقييده بقوله: إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ مع عدم اشتراط اصل الحكم بالايمان نوع ترغيب و حث لمطاوعه الحكم و التثبت عليه لما في هذا التقييد من الاشاره الى ان هذا الحكم من لوازم الايمان بالله و اليوم الآخر الذي عليه بناء الشريعة الاسلاميه فلا استغناء في الاسلام عن هذا الحكم، و هذا نظير قولنا: أحسن معاشره الناس ان أردت خيرا، و قولنا للمريض: عليك بالحميه إن أردت الشفاء و البرء.

قوله تعالى: وَ بَعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكِ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا، البعوله جمع البعل و هو الذكر من الزوجين ما داما زوجين و قد استشعر منه معنى الاستعلاء و القوه و الثبات في الشدائد لما ان الرجل كذلك بالنسبه الى المرأه ثم جعل اصلا يشق منه الالفاظ بهذا المعنى فقبل لراكب الدابه بعلاها، و للأرض المستعليه بعل، و للصنم بعل، و للنخل اذا عظم بعل و نحو ذلك.

و الضمير فى بعولتهن للمطلقات إلا- ان الحكم خاص بالرجعيات دون مطلق المطلقات الاعم منها و من البائئات، و المشار اليه بذلك التربص الذى هو بمعنى العده، و التقييد بقوله ان ارادوا اصلاحا، للدلاله على وجوب ان يكون الرجوع لغرض الاصلاح لا لغرض الاضرار المنهى عنه بعد بقوله: **وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا**، الآيه.

و لفظ أحق اسم تفضيل حقه ان يتحقق معناه دائما مع مفضل عليه كأن يكون للزوج الاول حق فى المطلقه و لسائر الخطاب حق، و الزوج الاول احق بها لسبق الزوجيه، غير ان الرد المذكور لا يتحقق معنا الآ مع الزوج الاول.

و من هنا يظهر: ان فى الآيه تقديرا لطيفا بحسب المعنى، و المعنى و بعولتهن أحق بهن من غيرهم، و يحصل ذلك بالرد و الرجوع فى ايام العده، و هذه الأحقيه انما تتحقق فى الرجعيات دون البائئات التى لا- رجوع فيها، و هذه هى القرينه على ان الحكم مخصوص بالرجعيات، لا- ان ضمير بعولتهن راجع الى بعض المطلقات بنحو الاستخدام أو ما أشبه ذلك، و الآيه خاصه محكم المدخول بهن من ذوات الحيض غير الحوامل، و اما غير المدخول بها و الصغيره و اليائسه و الحامل فلحكمتها آيات أخر.

قوله تعالى: **وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ** و **لِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ**، المعروف هو الذى يعرفه الناس بالذوق المكتسب من نوع الحياه الاجتماعيه المتداوله بينهم، و قد كرر سبحانه المعروف فى هذه الآيات فذكره فى اثنى عشر موضعا اهتماما بأن يجرى هذا العمل اعنى الطلاق و ما يلحق به على سنن الفطره و السلامه، فالمعروف تتضمن هدايه العقل، و حكم الشرع، و فضيله الخلق الحسن و سنن الادب.

قوله تعالى: **الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَشْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ**، المره بمعنى الدفعه مأخوذه من المرور للدلاله على الواحد من الفعل كما ان الدفعه و الكره و النزله مثلها وزنا و معنى و اعتبارا.

والتسريح أصله الإطلاق في الرعى مأخوذ من سرحت الأبل وهو أن ترعيه للسرحة، وهو شجر له ثمر يريعه الإبل، وقد استعير في الآيه لإطلاق المطلقة بمعنى عدم الرجوع إليها في العده، والتخليه عنها حتى تنقضى عدتها على ما سيجي.

و المراد بالطلاق في قوله تعالى: **الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ**، والطلاق الذي يجوز فيه الرجعه و لذا أردفه بقوله بعد: **فإمساك**، الخ؛ و اما الثالث فالطلاق الذي يدل عليه قوله تعالى: **فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ**، الآيه.

و المراد بتسريحها بإحسان ظاهرا التخليه بينها و بين البينونه و تركها بعد كل من التطليقتين الاوليين حتى تبين بانقضاء العده و إن كان الأظهر انه التطليقه الثالثه كما هو ظاهر الإطلاق في تفريع قوله: **فَإِمْسَاكٌ**، الخ؛ و على هذا فيكون قوله تعالى بعد: **فإن طلقها، الخ؛** بيانا تفصيليا للتسريح بعد البيان الإجمالي.

قوله تعالى: **إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ**، الخوف هو الغلبه على ظنهما ان لا- يقيما حدود الله، و هي أوامره و نواهيه من الواجبات و المحرمات في الدين، و ذلك إنما يكون بتباعد أخلاقهما و ما يستوجه حوائجهما و التباعد المتولد بينهما من ذلك.

قوله تعالى: **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ**، العدول عن التثنيه الى الجمع في قوله: **خِفْتُمْ**، كانه للاشاره الى لزوم ان يكون الخوف خوفا يعرفه العرف و العاده، لا- ما ربما يحصل بالتهوس و التلهي أو بالسوسه و نحوها، و لذلك عدل أيضا عن الإضمار فقليل ألا يقيما حدود الله، و لم يقل **فإن خفتم** ذلك لمكان اللبس.

و أما نفى الجناح عنهما مع ان النهي في قوله: **وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا**، الخ؛ إنما تعلق بالزوج فلأن حرمه الأخذ على الزوج توجب حرمه الاعطاء على الزوجه من باب الإعانه على الاثم و العدوان إلا- في طلاق الخلع فيجوز توافقهما على الطلاق مع الفديه، فلا جناح على الزوج ان يأخذ الفديه، و لا جناح على الزوجه ان تعطى الفديه و تعين على الأخذ فلا جناح عليهما فيما

قوله تعالى: تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ الْخ؛ المشار اليه هي المعارف المذكوره في الآيتين و هي احكام فقهييه مشوبه بمسائل اخلاقيه، و أخرى علميه مبتنيه على معارف اصلية، و الاعتداء و التعدى هو التجاوز.

قوله تعالى: فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ الى آخر الآيه، بيان لحكم التطليقه الثالثه و هو الحرمة حتى تنكح زوجا غيره، و قد نفى الحل عن نفس الزوجه مع ان المحرم إنما هو عقدها أو وطئها ليدل به على تعلق الحرمة بهما جميعا، و ليشعر قوله تعالى: حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ، على العقد و الوطء جميعا، فإن طلقها الزوج الثانى فلا جناح عليهما أى على المرأه و الزوج الامول ان يتراجعا الى الزوجيه بالعقد بالتوافق من الجانبين، و هو التراجع، و ليس بالرجوع الذى كان حقا للزوج فى التطليقتين الاوليين، و ذلك إن ظنا ان يقيما حدود الله.

و وضع الظاهر موضع فى قوله تعالى: وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ، لأن المراد بالحدود غير الحدود.

و فى الآيه من عجب الایجاز ما يبهت العقل، فإن الكلام على قصره مشتمل على أربعة عشر ضميرا مع اختلاف مراجعها و اختلاطها من غير ان يوجب تعقيدا فى الكلام، و لا إغلاقا فى الفهم.

قوله تعالى: وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ - الى قوله - لَتَعْتَدُوا، المراد ببلوغ الاجل الاشراف على انقضاء العده فإن البلوغ كما يستعمل فى الوصول الى الغايه كذلك يستعمل فى الاقتراب منها، و الدليل على ان المراد به ذلك قوله تعالى: فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سِرِّهُنَّ بِمَعْرُوفٍ، اذ لا معنى للامساك و لا التسريح بعد انقضاء العده: و فى قوله تعالى: وَ لَا تُمْسِكُوهُنَّ ضَرَارًا لَتَعْتَدُوا، نهى عن الرجوع بقصد المضاره كما نهى عن التسريح بالأخذ من المهر فى غير الخلع.

قوله تعالى: وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَا يَرْجِعْ إِلَى اللَّهِ لِمَسَاكٍ فَتُنَفَّسَهُ إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ إشاره الى حكمه النهى عن الامساك للمضاره فإن الترويج لتتميم سعادته الحياه، ولا يتم ذلك إلا بسكون كل من الزوجين الى الآخر وإعانتته فى رفع حوائج الغرائز، والامساك خاصه رجوع الى الاتصال والاجتماع بعد الانفصال والافتراق، وفيه جمع الشمل بعد شتاته، وأين ذلك من الرجوع بقصد المضاره.

فمن يفعل ذلك أى امسك ضرار فقد ظلم نفسه حيث حملها على الانحراف عن الطريق التى تهدى إليها فطرته الانسانيه.

على انه اتخذ آيات الله هزوا يستهزئ بها فإن الله سبحانه لم يشرع ما شرعه لهم من الاحكام تشريعا جامدا يقتصر فيه على اجرام الافعال أخذها وإعطاء وإمساكا وتسريحا وغير ذلك، بل بناها على مصالح عامه يصلح بها فاسد الاجتماع، ويتم بها سعادته الحياه الانسانيه، وخلطها بأخلاق فاضله تتربى بها النفوس، وتطهرها الأرواح، وتصفو بها المعارف العالیه: من التوحيد والولايه و سائر الاعتقادات الزاكيه، فمن اقتصر فى دينه على ظواهر الاحكام و نبذ غيرها وراء ظهره فقد اتخذ آيات الله هزوا.

و المراد بالنعمة فى قوله تعالى: وَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، نعمه الدين أو حقيقه الدين و هى السعاده التى تنال بالعمل بشرائع الدين كسعاده الحياه المختصه بتألف الزوجين، فإن الله تعالى سمي السعاده الدينيه نعمه كما فى قوله تعالى: وَ اَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي (المائدہ ٣)، وقوله تعالى: وَ لِيُبَيِّنَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ (المائدہ ٦)، وقوله تعالى: فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا (آل عمران ١٠٣).

و على هذا يكون قوله تعالى بعده: وما أنزل عليكم من الكتاب و الحكمه يعظكم به، كالمفسر لهذه النعمه، و يكون المراد بالكتاب و الحكمه ظاهر الشريعه و باطنها أعنى أحكامها و حكمها.

و يمكن أن يكون المراد بالنعمة مطلق النعم الإلهية، التكوينية و غيرها فيكون المعنى:

اذكروا حقيقه معنى حياتكم و خاصه المزاي و محاسن التألف و السكونه بين الزوجين و ما بينه الله تعالى لكم بلسان الوعظ من المعارف المتعلقة بها فى ظاهر الأحكام و حكمها فإنكم إن تأملتم ذلك أو شكك أن تلزموا صراط السعاده، و لا تفسدوا كمال حياتكم و نعمه وجودكم، و اتقوا الله و لتوجه نفوسكم الى أن الله بكل شىء عليم، حتى لا - يخالف ظاهركم باطنكم، و لا تجتروا على الله بهدم باطن الدين فى صورته تعمير ظاهره.

قوله تعالى: **وَ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ**، العضل المنع، و الظاهر أن الخطاب فى قوله:

فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ، لاولياتهن و من يجرى مجراهم ممن لا يسعهن مخالفته، و المراد بأزواجهن، الأزواج قبل الطلاق، فالآيه تدل على نهى الاولياء و من يجرى مجراهم عن منع المرأة أن تنكح زوجها ثانيا بعد انقضاء العده سخطا و لجاجا كما يتفق كثيرا، و لا دلالة فى ذلك على أن العقد لا يصح إلا بولى.

و المراد بقوله تعالى: **فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ**، انقضاء العده، فإن العده لو لم تنقض لم يكن لاحد من الاولياء و غيرهم ان يمنع ذلك و بعولتهن احق بردهن فى ذلك. على أن قوله تعالى: **أَنْ يَنْكِحْنَ**، دون ان يقال: يرجعن و نحوه ينافى ذلك.

قوله تعالى: **ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ**، هذا كقوله فيما مر: و لا يحل لهن ان يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن إن كن يؤمن بالله و اليوم الآخر، الآية، و إنما خص الموردان من بين الموارد بالتقييد بالإيمان بالله و اليوم الآخر، و هو التوحيد، لان دين التوحيد يدعو الى الاتحاد دون الافتراق، و يقضى بالوصل دون الفصل.

و فى قوله تعالى: **ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ**، التفات الى خطاب المفرد من خطاب الجمع ثم التفات عن خطاب المفرد الى خطاب الجمع، و الاصل فى هذا الكلام خطاب المجموع اعنى

خطاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَآمَتَهُ جَمِيعًا لَكِن رُبَمَا التَفَتَ إِلَى خِطَابِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَحَدَهُ فِي غَيْرِ جِهَاتِ الْأَحْكَامِ كَقَوْلِهِ: تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَقَوْلِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ، وَقَوْلِهِ:

وَ بَعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكِ، وَ قَوْلِهِ: ذَلِكِ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ، حَفْظًا لِقَوَامِ الْخِطَابِ، وَ رِعَايَةً لِحَالِ مَنْ هُوَ رَكْنٌ فِي هَذِهِ الْمَخَاطَبِ وَ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّهُ هُوَ الْمَخَاطَبُ بِالْكَلامِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ، وَ غَيْرِهِ فَخَاطَبَ بِوَسِطَتِهِ، وَ أَمَّا الْخِطَابَاتُ الْمَشْتَمَلَةُ عَلَى الْأَحْكَامِ فَجَمِيعُهَا مُوجَّهَةٌ نَحْوَ الْمَجْمُوعِ، وَ يَرْجِعُ حَقِيقَةُ هَذَا النُّوعِ مِنَ الْإِلْتِفَاتِ الْكَلَامِيَّةِ إِلَى تَوْسِعَةِ الْخِطَابِ بَعْدَ تَضْيِيقِهِ وَ تَضْيِيقِهِ بَعْدَ تَوْسِعَتِهِ فَلْيَتَدَبَّرْ فِيهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ، الزَّكَاةُ هِيَ النَّمُو الصَّالِحُ الطَّيِّبُ، وَ قَدْ مَرَّ الْكَلَامُ فِي مَعْنَى الطَّهَارَةِ، وَ الْمَشَارُ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ذَلِكُمْ عَدَمُ الْمَنْعِ عَنِ رَجُوعِهِنَّ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ، أَوْ نَفْسِ رَجُوعِهِنَّ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ، وَ الْمَالُ وَاحِدٌ، وَ ذَلِكُمْ أَنَّ فِيهِ رَجُوعًا مِنَ الْإِنْتِلَامِ وَ الْإِنْفِصَالِ إِلَى الْإِلْتِيَامِ وَ الْإِتِّصَالِ، وَ تَقْوِيَهُ لِعَرِيزَةِ التَّوْحِيدِ فِي النُّفُوسِ فَيَنْمُو عَلَى ذَلِكَ جَمِيعُ الْفَضَائِلِ الدِّينِيَّةِ، وَ فِيهِ تَرْبِيَةٌ لِمَلَكَةِ الْعِفَّةِ وَ الْحَيَاءِ فِيهِنَّ وَ هُوَ اسْتِرْلَاهُنَّ وَ أَطْهَرَ لِنَفُوسِهِنَّ، وَ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى فِيهِ حَفْظُ قُلُوبِهِنَّ عَنِ الْوُقُوعِ عَلَى الْأَجَانِبِ إِذَا مَنَعْنَ عَنِ نِكَاحِ أَزْوَاجِهِنَّ.

وَ الْإِسْلَامُ دِينُ الزَّكَاةِ وَ الطَّهَارَةِ وَ الْعِلْمِ، قَالَ تَعَالَى: وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ (آل عمران ١٦٤)، وَ قَالَ تَعَالَى: وَ لَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ (المائدة ٧).

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ، أَي إِلَّا مَا يَعْلَمُكُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى:

وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ (آل عمران ١٦٤)، وَ قَالَ تَعَالَى: وَ لَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ (البقرة ٢٥٥)، فَلَا تَنَافَى بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، الْآيَةُ أَي يَعْلَمُونَ بِتَعْلِيمِ اللَّهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ الْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّ الرِّضَاعَةَ. الْوَالِدَاتُ هُنَّ الْإِمَهَاتُ، وَ إِذَا عَدِلَ عَنِ الْإِمَهَاتِ إِلَى الْوَالِدَاتِ لِأَنَّ الْإِمَهَاتُ أَعْمٌ مِنَ

الوالده كما ان الاب اعم من الوالد و الابن اعم من الولد، والحكم فى الآيه مشروع فى خصوص مورد الوالده و الولد و المولود له، و اما تبديل الوالد بالمولود له، ففيه اشاره الى حكمه التشريع فإن الوالد لما كان مولودا للوالد ملحقا به فى معظم أحكام حياته لا- فى جميعها كما سيجىء بيانها فى آيه التحريم من سوره النساء إنشاء الله كان عليه ان يقوم بمصالح حياته و لوازم تربيته، و منها كسوه أمه التى ترضعه، و نفقتها، و كان على أمه أن لا تضار والده لان الولد مولود له.

قوله تعالى: **وَ عَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَ كِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْرَهَا**، المراد بالمولود له هو الوالد كما مر، و الرزق و الكسوه هما النفقه و اللباس، و قد نزلهما الله تعالى على المعروف و هو المتعارف من حالهما، و قد علل ذلك بحكم عام آخر رافع للحرج، و هو قوله تعالى: **لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْرَهَا**، و قد فرع عليه حكيم آخرين، احدهما: حق الحضانه و الارضاع الذى للزوجه و ما اشبهه فلا يحق للزوج ان يحول بين الوالده و ولدها بمنعها عن حضانتها أو رؤيته أو ما أشبه ذلك فإن ذلك مضاره و حرج عليها، و ثانيهما: نفى مضاره الزوجه للزوج بولده بأن تمنعه عن الرؤيه و نحو ذلك، و ذلك قوله تعالى: لا تضار والده بولدها و لا- مولود له بولده، و النكته فى وضع الظاهر موضع الضمير أعنى فى قوله: **بِوَالِدِهِ** دون ان يقول به رفع التناقض المتوهم، فإنه لو قيل: لا مولود له به رجح الضمير الى قوله ولدها و كان ظاهر المعنى: لا مولود له بولد المرأ فأوهم التناقض لان إسناد الولاده الى الرجل يناقض إسنادها الى المرأ، ففى الجملة مراعاة لحكم التشريع و التكوين معا أى إن الولد لهما معا تكويننا فهو ولده و ولدها، و له فحسب تشريعا لانه مولود له.

قوله تعالى: **وَ عَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ**، ظاهر الآيه: ان الذى جعل على الوالد من الكسوه و النفقه فهو مجعول على وارثه إن مات، و قد قيل فى معنى الآيه أشياء أخر لا

يوافق ظاهرها، وقد تركنا ذكرها لانها بالبحث الفقهي أمس فلتطلب من هناك، و الذي ذكرناه هو الموافق لمذهب أئمه أهل البيت فيما نقل عنهم من الاخبار، و هو الموافق أيضا لظاهر الآيه.

قوله تعالى: فَإِنْ أَرَادَ فِضَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَ تَشَاوُرٍ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ الفصال: الفطام، و التشاور: الاجتماع على المشوره، و الكلام تفریع على الحق المجعول للزوجه و نفی الحرج عن البین، فالحضانه و الرضاع ليس واجبا عليها غير قابل التغيير، بل هو حق يمكنها أن تتركه.

فمن الجائز ان يتراضيا بالتشاور على فصال الولد من غير جناح عليهما و لا بأس، و كذا من الجائز ان يسترضع الزوج لولده من غير الزوجه الوالده اذا ردت الولد اليه بالامتناع عن ارضاعه، او لعله أخرى من انقطاع لبن او مرض و نحوه اذا سلم لها ما تستحقها تسليما بالمعروف بحيث لا يزاحم في جميع ذلك حقها، و هو قوله تعالى: وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ .

قوله تعالى: وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ، أمر بالتقوى و ان يكون هذا التقوى بإصلاح صوره هذه الاعمال، فإنها أمور مرتبطه بالظاهر من صورته و لذلك قال تعالى: و اعلموا ان الله بما تعملون بصير، و هذا بخلاف ما في ذيل قوله تعالى السابق: و اذا طلقتم النساء فبلغن اجلهن، الآيه؛ من قوله تعالى: وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، فان تلك الآيه مشتمله على قوله تعالى: وَ لَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لْتَعْتَدُوا، و المضاره ربما عادت الى النيه من غير ظهور في صورته العمل إلا بحسب الأثر بعد.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذُرُونَ أَرْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ عَشْرًا، التوفى هو الاماته، يقال: توفاه الله اذا اماته فهو متوفى بصيغه اسم المفعول، و يذرون مثل يدعون بمعنى يتركون و لا ماضى لهما من مادتهما، و المراد بال عشر الايام

حذفت لدلاله الكلام عليه.

قوله تعالى: **فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ**، المراد ببلوغ الأجل انقضاء العده، وقوله: **فَلَا جُنَاحَ**، الخ؛ كناية عن إعطاء الاختيار لهن في افعالهن فإن اخترن لأنفسهن الازدواج فلهن ذلك، وليس لقرابه الميت منعهن عن شيء من ذلك استنادا الى بعض العادات المبنيه على الجهالة والعمى أو الشح والحسد فإن لهن حقا في ذلك معروفا في الشرع وليس لأحد ان ينهى عن المعروف.

قوله تعالى: **وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**، لما كان الكلام مشتملا على تشريع عده الوفاء و على تشريع حق الازدواج لهن بعدها، و كان كل ذلك تشخيصا للأعمال مستندا الى خبره الالهيه كان الانسب تعليله بأن الله خبير بالاعمال مشخص للمحظور منها عن المباح، فعليه أن يترصد في مورد و أن يختار ما شئت لأنفسهن في مورد آخر، و لذا ذيل الكلام بقول: **و الله بما تعملون خبير**.

قوله تعالى: **لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ**، التعريض هو الميل بالكلام الى جانب ليفهم المخاطب أمرا مقصودا للمتكلم لا- يريد التصريح به، من العرض بمعنى الجانب فهو خلاف التصريح. و الفرق بين التعريض و الكنايه ان للكلام الذى فيه التعريض معنى مقصودا غير ما اعترض به كقول المخاطب للمرأة: **إني حسن المعاشره و احب النساء**، اي لو تزوجت بى سعدت بطيب العيش و صرت محبوبه، بخلاف الكنايه اذ لا- يقصد فى الكنايه غير المكنى عنه كقولك: **فلان كثير الرماد** تريد انه سخي.

و الخطبه بكسر الخاء من الخطب بمعنى التكلم و المراجعة فى الكلام، يقال: **خطب المرأة خطبه بالكسر** اذا كلمها فى أمر التزوج بها فهو خاطب و لا يقال: **خطيب** و يقال **خطب القوم خطبه بضم الخاء** اذا كلمهم، و خاصه فى الوعظ فهو خاطب من الخطباء و خطيب من الخطباء.

و الاكنان من الكن بالفتح بمعنى الستر لكن يختص الاكنان بما يستر فى النفس كما قال: او اكنتم فى انفسكم، و الكن بما يستر بشىء من الاجسام كمحفظة او ثوب او بيت، قال تعالى:

كَانَتْهُمْ بَيْنُصْ مَكْنُونٍ (الصافات ٤٩)، و قال تعالى: كَأَمْثَالِ اللَّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (الواقعه ٢٣)، و المراد بالآيه نفى البأس عن التعريض فى الخطبه او إخفاء أمور فى القلب فى امرها.

قوله تعالى: عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَيَتَذَكَّرُونََهُنَّ، فى مورد التعليل لنى الجناح عن الخطبه و التعريض فيها، و المعنى: ان ذكركم إياهن امر مطبوع فى طباعكم و الله لا ينهى عن امر تقضى به غريزتكم الفطريه و نوع خلقتكم، بل يجوزه، و هذا من الموارد الظاهره فى ان دين الاسلام مبنى على اساس الفطره.

قوله تعالى: وَ لَا تَغْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، العزم عقد القلب على الفعل و تثبيت الحكم بحيث لا يبقى فيه وهن فى تأثيره الا- ان يبطل من رأس، و العقده من العقد بمعنى الشد. و فى الكلام تشبيه علقه الزوجيه بالعقده التى يعقد بها أحد الخيطين بالآخر بحيث يصيران واحدا بالاتصال، كأن حباله النكاح تصير الزوجين واحدا متصلا، ثم فى تعليق عقده النكاح بالعزم الذى هو امر قلبى اشاره الى ان سنخ هذه العقده و العلقه أمر قائم بالنيه و الاعتقاد فإنها من الاعتبارات العقلانيه التى لا موطن لها إلا- ظرف الاعتقاد و الإدراك، نظير الملك و سائر الحقوق الاجتماعيه العقلانيه كما مر بيانه فى ذيل قوله تعالى: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً (البقره ٢١٣)، فى الآيه استعاره و كنايه، و المراد بالكتاب هو المكتوب أى المفروض من الحكم و هو التربص الذى فرضه الله على المعتدات.

فمعنى الآيه: و لا تجروا عقد النكاح حتى تنقضى عدتهن، و هذه الآيه تكشف أن الكلام فيها و فى الآيه السابقه عليها أعنى قوله تعالى: لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ

الآية إنما هو في خطبه المعتدات و في عقدهن، و على هذا فاللام في قوله: **النِّسَاءِ** للعهد دون الجنس و غيره.

قوله تعالى: **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ** الخ؛ إيراد ما ذكر من صفاته تعالى في الآية، اعنى العلم و المغفرة و الحكم يدل على أن الامور المذكوره في الآيتين و هى خطبه المعتدات و التعريض لهن و مواعدتهن سرا من موارد الهلكات لا يرتضيها الله سبحانه كل الارتضاء و إن كان قد أجاز ما أجازها منها.

قوله تعالى: **لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ** **إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ** **لَمْ تَمْسُوهُنَّ** **أَوْ تَفْرِضُوا لِهِنَّ فَرِيضَةً**، المس كناية عن المواقعه، و المراد بفرض الفريضة تسميه المهر، و المعنى: ان عدم مس الزوجه لا يمنع عن صحه الطلاق و كذا عدم ذكر المهر.

قوله تعالى: **وَ مَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ** **وَ عَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرَهُ** **مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ**، التمتع إعطاء ما يتمتع به، و المتاع و المتعه ما يتمتع به، و متاعا مفعول مطلق لقوله تعالى: **وَ مَتَّعُوهُنَّ**، اعترض بينهما قوله تعالى: **عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ** **وَ عَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرَهُ**، و الموسع اسم فاعل من أوسع اذا كان على سعه من المال و كأنه من الافعال المتعديه التى كثر استعمالها مع حذف المفعول اختصارا حتى صار يفيد ثبوت أصل المعنى فصار لازما و المقتر اسم فاعل من أقر اذا كان على ضيق من المعاش، و القدر بفتح الدال و سكونها بمعنى واحد.

و معنى الآية: يجب عليكم ان تمتعوا المطلقات عن غير فرض فريضة متاعا بالمعروف و إنما يجب على الموسع قدره أى ما يناسب حاله و يتقدر به وضعه من التمتع، و على المقتر قدره من التمتع، و هذا يختص بالمطلقه غير المفروضه لها التى لم يسم مهرها، و الدليل على أن هذا التمتع المذكور مختص بها و لا يعم المطلقة المفروضه لها التى لم يدخل بها ما فى الآية التاليه من بيان حكمها.

قوله تعالى: حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ، أى حق الحكم حقا على المحسنين، و ظاهر الجملة و ان كان كون الوصف اعنى الاحسان دخيلا فى الحكم، و حيث ليس الاحسان واجبا استلزم كون الحكم استحبابيا غير وجوبى، إلا- ان النصوص من طرق اهل البيت تفسر الحكم بالوجوب، و لعل الوجه فيه ما مر من قوله تعالى: الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ الآيه فأوجب الاحسان على المسرحين و هم المطلقون فهم المحسنون، و قد حق الحكم فى هذه الآيه على المحسنين و هم المطلقون، و الله اعلم.

قوله تعالى: وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ الْخ؛ أى و ان وقعتم الطلاق قبل الدخول بهن و قد فرضتم لهن فريضه و سميتم المهر فيجب عليكم تأديه نصف ما فرضتم من المهر الى أن يعفون هؤلاء المطلقات او يعفو الذى بيده عقده النكاح من وليهن فيسقط النصف المذكور ايضا، أو الزوج فان عقده النكاح بيده أيضا، فلا- يجب على الزوجه المطلقة رد نصف المهر الذى أخذت، و العفو على أى حال أقرب للتقوى لان من أعرض عن حقه الثابت شرعا فهو على الاعراض عما ليس له بحق من محارم الله سبحانه اقوى و اقدر.

قوله تعالى: وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ الْخ؛ الفضل هو الزيادة كالفضول غير ان الفضل هو الزيادة فى المكارم و المحامد و الفضول هو الزيادة غير المحموده على ما قيل، و فى الكلام ذكر الفضل الذى ينبغى ان يؤثره الانسان فى مجتمع الحياه فيتفاضل به البعض على بعض، و المراد به الترغيب فى الإحسان و الفضل بالعفو عن الحقوق و التسهيل و التخفيف من الزوج للزوجه و بالعكس، و النكته فى قوله تعالى: إن الله على كل شىء بصير، كالنكته فيما مر فى ذيل قوله تعالى: وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ، الآيه.

قوله تعالى: حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ الى آخر الآيه؛ حفظ الشىء ضبطه و هو فى المعانى أعنى حفظ النفس لما تستحضره أو تدركه من المعانى أغلب،

و الوسطى مؤنث الأوسط، و الصلاة الوسطى هى الواقعه فى وسطها، و لا يظهر من كلامه تعالى ما هو المراد من الصلاة الوسطى، و إنما تفسيره السنه، و سيجىء ما ورد من الروايات فى تعيينه.

و اللام فى قوله تعالى: قُومُوا لِلَّهِ، للغايه، و القيام بأمر كناية عن تقلده و التلبس بفعله، و القنوت هو الخضوع بالطاعه، قال تعالى: كُلُّ لَهُ قَانِتُونَ (البقره ١١٦)، و قال تعالى:

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَفْعَلْهُ لِيُحْيِىْكُمْ مِمَّا كُنْتُمْ فِيهِ مَيِّتِينَ (البقره ١١٦)، فمحصل المعنى: تلبسوا بطاعه الله سبحانه بالخضوع مخلصين له و لأجله.

قوله تعالى: فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ عطف الشرط على الجملة السابقه يدل على تقدير شرط محذوف أى حافظوا إن لم تخافوا، و إن خفتم فقدروا المحافظه بقدر ما يمكن من الصلاه راجلين و قوفاً أو مشياً أو راكبين، و الرجال جمع راجل و الركبان جمع راكب، و هذه صلاه الخوف.

و الفاء فى قوله تعالى: فَإِذَا أَمِنتُمْ، للتفريع أى ان المحافظه على الصلاه أمر غير ساقط من اصله بل إن لم تخافوا شيئاً و أمكنت لكم وجبت عليكم و إن تعسر عليكم فقدروها بقدر ما يمكن لكم، و إن زال عنكم الخوف بتجدد الأمن ثانيا عاد الوجوب و وجب عليكم ذكر الله سبحانه.

و الكاف فى قوله تعالى: كَمَا عَلَّمَكُمُ، للتشبيه، و قوله: مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ من قبيل وضع العام موضع الخاص دلالة على الامتنان بسعه النعمه و التعليم، و المعنى على هذا: فاذكروا الله ذكراً يماثل ما علمكم من الصلاه المفروضه المكتوبه فى حال الأمن فى ضمن ما علمكم من شرائع الدين.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّهُ لِأَزْوَاجِهِمْ .

وصيه مفعول مطلق لمقدر، و التقدير ليوصوا وصيه ينتفع به أزواجهم و يتمتعن متاعا الى

الحول بعد التوفى.

و تعريف الحول باللام لا يخلو عن دلالة على كون الآية نازله قبل تشريع عده الوفاه، أعنى الاربعه أشهره و عشره أيام فإن عرب الجاهليه كانت نسائهم يقعدن بعد موت أزواجهن حولا كاملا، فالآيه توصى بأن يوصى الأزواج لهن بمال يتمتعن به الى تمام الحول من غير إخراجهن من بيوتهن، غير ان هذا لما كان حقا لهن و الحق يجوز تركه كان لهن ان يطالبن به، و ان يتركنه فإن خرجن فلا جناح للورثه و من يجرى مجراهم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف، و هذا نظير ما أوصى الله به من حضره الموت ان يوصى للوالدين و الأقربين بالمعروف، قال تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (البقره ١٨٠). و مما ذكرنا يظهر ان الآية منسوخه بآيه عده الوفاه و آيه الميراث بالربع و الثمن.

قوله تعالى: وَ لِلْمُطَلَّاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ، الآية فى حق مطلق المطلقات، و تعليق ثبوت الحكم بوصف التقوى مشعر بالاستحباب.

قوله تعالى: كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، الأصل فى معنى العقل العقد و الامساک و به سمي إدراك الانسان إدراكا يعقد عليه عقلا، و ما أدركه عقلا، و القوه التى يزعم انها إحدى القوى التى يتصرف بها الإنسان يميز بها بين الخير و الشر و الحق و الباطل عقلا، و يقابله الجنون و السفه و الحمق و الجهل باعتبارات مختلفه.

و الألفاظ المستعمله فى القرآن الكريم فى أنواع الإدراك كثيره ربما بلغت العشرين، كالظن، و الحسبان، و الشعور، و الذكر، و العرفان، و الفهم، و الفقه، و الدرايه، و اليقين، و الفكر، و الرأى، و الزعم، و الحفظ، و الحكمه، و الخبره، و الشهاده، و العقل، و يلحق بها مثل القول،

ص: ٣٠٧

[سوره البقره (٢): آيه ٢٤٣]

اشاره

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَخَذَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَعَدُوٌّ لِلنَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣)

بيان:

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ، الرؤيه هاهنا بمعنى العلم، عبر بذلك لدعوى ظهوره بحيث يعد فيه العلم رؤيه فهو كقوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ (إبراهيم ١٩)، وقوله تعالى:

أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَمْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (نوح ١٥).

وقد ذكر الزمخشري ان لفظ ألم تر جرى مجرى المثل، يؤتى به فى مقام التعجب فقولنا: ألم تر كذا وكذا معناه ألا تعجب لكذا وكذا، وحذر الموت مفعول له، ويمكن ان يكون مفعولا مطلقا و التقدير يحذرون الموت حذرا.

ص: ٣٠٨

- ١- ١). البقره ٢٢٨-٢٤٣: بحث فى معانى الالفاظ المستعمله فى القرآن الكريم فى انواع الادراك كالظن و الحسبان و الشعور و الذكر و العرفان و الفهم و الفقه و الدرايه و اليقين و الفكر و الرأى و الزعم و الحفظ و الحكمه و الخبره و الشهاده و العقل.
- ٢- ٢). البقره ٢٢٨-٢٤٣: بحث روائى فى الطلاق؛ الرضاعه؛ الصلاه الوسطى.
- ٣- ٣). البقره ٢٢٨-٢٤٣: بحث علمى فى: حياه المرأه فى الامم غير المتمدنه؛ حياه المرأه فى الامم المتمدنه قبل الاسلام، حال المرأه عند العرب و محيط حياتهم (محيط نزول القرآن)؛ ما ذا ابدعه الاسلام فى امرها؛ حريه المرأه فى المدينه الغريبه.
- ٤- ٤). البقره ٢٢٨-٢٤٣: بحث علمى فى النكاح.

قوله تعالى: فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ، الامر تكويني و لا- ينافي كون موتهم واقعا عن مجرى طبيعي كما ورد في الروايات: ان ذلك كان بالطاعون، و إنما عبر بالامر، دون ان يقال: فاماتهم الله ثم أحياهم ليكون أدله على نفوذ قدره و غلبه الامر، فإن التعبير بالانشاء في التكوينيات أقوى و أكد من التعبير الاخبار كما ان التعبير بصوره الاخبار الدال على الوقوع في التشريعات أقوى و أكد من الانشاء، و لا- يخلو قوله تعالى: ثُمَّ أَحْيَاهُمْ عن الدلالة على ان الله أحياهم ليعيشوا فعاشوا بعد حياتهم، اذ لو كان إحيائهم لعبره يعتبر بها غيرهم أو لاتمام حجه أو لبيان حقيقه لذكر ذلك على ما هو دأب القرآن في بلاغته كما في قصه أصحاب الكهف، على ان قوله تعالى بعد: إن الله لذو فضل على الناس، يشعر بذلك ايضا.

قوله تعالى: وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ، الاظهار في موضع الاضمار أعنى تكرار لفظ الناس ثانيا لما فيه من الدلالة على انخفاض سطح أفكارهم، على ان هؤلاء الذين تفضل الله عليهم بالاحياء طائفه خاصه، و ليس المراد كون الاكثر منهم بعينهم غير شاكرين بل الا- كثر من جميع الناس، و هذه الآيه لا تخلو عن مناسبة ما مع ما بعدها من الآيات المتعرضه لفرض القتال، لما في الجهاد من إحياء المله بعد موتها.

[سوره البقره (٢): الآيات ٢٤٤ الى ٢٥٢]

اشاره

وَ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) مَنْ ذَا الَّذِي يُفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَ اللَّهُ يَقْبِضُ وَ يَبْصُطُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥) أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّ لَهُمْ إِنبِئْنَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ قَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَ أَبْنَانَنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَ قَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَ نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَ لَمْ يُؤْتْ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَ زَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَ الْجِسْمِ وَ اللَّهُ يُؤْتِي مَلِكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَ قَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ بَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَ آلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَ جُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُونَ أَنَّهُمْ مَلَاقُوا اللَّهَ كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ عَلَبْتُمْ فَفَتَنَهُ بِالذَّنِّ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَ لَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَ جُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أفرغ علينا صبراً وَ ثبّتْ أقدامنا وَ أنصُرنا على ألقوم الكافرين (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ قَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَ لَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَ لَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢)

قوله تعالى: [□] [□] وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْآيَةَ؛ فرض و إيجاب للجهاد، وقد قيده تعالى ها هنا و سائر المواضع من كلامه بكونه في سبيل الله لئلا يسبق الى الوهم و لا يستقر في الخيال ان هذه الوظيفة الدينية المهمة لإيجاد السلطه الدنيويه الجافه، و توسعه المملكه الصوريه، كما تخيله الباحثون اليوم في التقدم الاسلامي من الاجتماعيين و غيرهم، بل هو لتوسعه سلطه الدين التي فيها صلاح الناس في دنياهم و آخرتهم.

و في قوله تعالى: [□] [□] وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، تحذير للمؤمنين في سيرهم هذا السير ان لا يخالفوا بالقول اذا أمر الله و رسوله بشيء، و لا- يضمروا نفاقا كما كان ذلك من بنى إسرائيل حيث تكلموا في امر طالوت فقالوا: أتى يكون له الملك علينا، الخ؛ و حيث قالوا: لا طاقه لنا اليوم بجالوت و جنوده، و حيث فشلوا و تولوا لما كتب عليهم القتال و حيث شربوا من النهر بعد ما نهاهم طالوت عن شربه.

قوله تعالى: [□] [□] مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً، القرض معروف و قد عد الله سبحانه ما ينفقونه في سبيله قرضا لنفسه لما مر انه للترغيب، و لانه إنفاق في سبيله، و لانه مما سيرد اليهم اضعافا مضاعفه.

و قد غير سياق الخطاب من الامر الى الاستفهام فقبل بعد قوله: [□] [□] وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ: [□] [□] مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا، و لم يقل: قاتلوا في سبيل الله و اقرضوا، لينشط بذلك ذهن المخاطب بالخروج من حيز الأمر غير الخالي من كلفه التكليف الى حيز الدعوه و الندب فيستريح بذلك و يتهيج.

قوله تعالى: وَاللَّهُ يَبْضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، القبض الأخذ بالشئ اليك و يقابله البسط، والبسط هو البسط قلب سينه صاداً لمجاورته حرف الاطباق و التفخيم و هو الطاء.

و ايراد صفاته الثلاث أعنى: كونه قابضاً و باسطاً و مرجعاً يرجعون اليه للإشعار بأن ما أنفقوه بإقراضه تعالى لا يعود باطلاً و لا يستبعد تضعيفه اضعافاً كثيرة فإن الله هو القابض الباسط، ينقص ما شاء، و يزيد ما شاء، و اليه يرجعون فيوفيهما ما أقرضوه أحسن التوفيه.

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى قَوْلِهِ: فِي سَبِيلِ اللَّهِ، الملاء كما قيل: الجماعة من الناس على رأى واحد، سميت بالملاء لكونها تملأ العيون عظمه و أبهه.

و قولهم لنبيهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله، على ما يعطيه السياق يدل على ان الملك المسمى بجالوت كان قد تملكهم، و سار فيهم بما افتقدوا به جميع شئون حياتهم المستقلة من الديار و الأولاد بعد ما كان الله أنجاهم من آل فرعون، يسومونهم سوء العذاب ببعثه موسى و ولايته و ولايه من بعده من أوصيائه، و بلغ من اشتداد الامر عليهم ما انتبه به الخامد من قواهم الباطنه، و عاد الى انفسهم العصبية الزائلة المضعفه فعند ذلك سأل الملاء منهم نبيهم ان يبعث لهم ملكاً ليرتفع به اختلاف الكلمه من بينهم و تتجمع به قواهم المتفرقه الساقطه عن التأثير، و يقاتلوا تحت امره في سبيل الله.

قوله تعالى: هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا، كان بنو إسرائيل سألوا نبيهم ان يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله و ليس ذلك للنبي بل الأمر في ذلك الى الله سبحانه، و لذلك ارجع نبيهم الامر في القتال و بعث الملك الى الله تعالى، و لم يصرح باسمه تعظيماً لأن الذى أجابهم به هو السؤال عن مخالفتهم و كانت مرجوه منهم ظاهره من حالهم بوحيه تعالى فتزه اسمه تعالى من التصريح به بل إنما أشار الى ان الامر منه و اليه تعالى بقوله: إِنْ كُتِبَ، و الكتابه و هى الفرض انما تكون من الله تعالى.

وقد كانت المخالفه والتوالى عن القتال مرجوا منهم لكنه أوردته بطريق الاستفهام ل يتم الحجه عليهم بإنكارهم فيما سيجيبون به من قولهم: وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

قوله تعالى: قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا، الإخراج من البلاد لما كان ملازما للتفرقه بينهم و بين أوطانهم المألوفه، ومنعهم عن التصرف فيها و التمتع بها، كنى به عن مطلق التصرف و التمتع، و لذلك نسب الإخراج الى الأبناء أيضا كما نسب الى البلاد.

قوله تعالى: فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ، تفريع على قوله نبيهم: هل عسيتم، الخ؛ و قولهم: و ما لنا ان لا- نقاتل، و فى قوله تعالى: و الله عليم بالظالمين، دلالة على ان قول نبيهم لهم: هل عسيتم ان كتب عليكم القتال ان لا تقاتلوه، انما كان لوحى من الله سبحانه: انهم سيتولون عن القتال.

قوله تعالى: وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ أَلَيْكُمْ رَسُولًا مِمَّنْ لَمْ تَلْعَبُوا عَلَيْهِمْ قَبْلَ هَذَا وَمِنْ آلِكُمْ يُرْسِلُ اللَّهُ رُسُلًا تَدْعُونَ إِلَيْهَا أَلَّا تُغْلِبُوا الَّذِينَ لَكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَلِيُخْرِجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ الْبِلَادِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ، فى جوابه عليه السلام هذا حيث نسب بعث الملك الى الله تنبيه بما فات منهم اذ قالوا لنبيهم ابعث لنا ملكا نقاتل و لم يقولوا: اسأل الله ان يبعث لنا ملكا و يكتب لنا القتال.

و بالجمله التصريح باسم طالوت هو الذى أوجب منهم الاعتراض على ملكه و ذلك لوجود صفتين فيه كانتا تنافيان عندهم الملك، و هما ما حكاهما الله تعالى من قولهم أنى يكون له الملك علينا و نحن احق بالملك منه، و من المعلوم ان قولهم هذا لنبيهم، و لم يستدلوا على كونهم احق بالملك منه بشىء يدل على ان دليله كان أمرا بينا لا يحتاج الى الذكر، و ليس إلا ان بيت النبوه و بيت الملك فى بنى إسرائيل و هما بيتان مفتخران بموهبه النبوه و الملك كانتا غير البيت الذى كان منه طالوت، و بعبارة أخرى لم يكن طالوت من بيت الملك و لا من بيت النبوه و لذلك اعترضوا على ملكه بأننا، و هم أهل بيت الملك أو الملك و النبوه معا، أحق بالملك منه لأن الله جعل الملك فينا فكيف يقبل الانتقال الى غيرنا، و هذا الكلام منهم من فروع قولهم بنفى

البداء و عدم جواز النسخ و التغيير حيث قالوا: يد الله مغلوله غلت أيديهم، و قد أجب عنه نبيهم بقوله: إِنَّ اللَّهَ أَضْيَفُكُمْ فَهَذِهِ إِحْدَى الصِّفَتَيْنِ الْمَنَافِيَتَيْنِ لِلْمَلِكِ عِنْدَهُمْ، وَ الصَّفْهَ الثَّانِيَهُ مَا فِي قَوْلِهِمْ: وَ لَمْ يَأْتِ سَعَهُ مِنَ الْمَالِ وَ قَدْ كَانَ طَالُوتَ فَقِيرًا، وَ قَدْ أَجَابَ عَنْهُ نَبِيُّهُمْ بِقَوْلِهِ: وَ زَادَهُ بَسْطَهُ فِي الْعِلْمِ وَ الْجِسْمِ، الْخ.

قوله تعالى: قَالَ إِنَّ اللَّهَ أَضْيَفُكُمْ وَ زَادَهُ بَسْطَهُ فِي الْعِلْمِ وَ الْجِسْمِ، الاصطفاء و الاستصفاة الاختيار و أصله الصفو، و البسطه هي السعه و القدره، و هذان جوابان عن اعتراضهم.

قوله تعالى: وَ قَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ، التابوت هو الصندوق، و هو على ما قيل فعلوت من التوب بمعنى الرجوع لأن الانسان يرجع الى الصندوق رجوعا بعد رجوع (١).

قوله تعالى: وَ بَقِيَّتُهُ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَ آلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ الْخ؛ آل الرجل خاصته من اهله و يدخل فيهم نفسه اذا اطلق، فآل موسى و آل هارون هم موسى و هارون و خاصتهما من اهلها، و قوله: تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ، حال عن التابوت، و في قوله تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ، كسياق صدر الآيه دلالة على أنهم سألوا نبيهم آيه على صدر ما أخبر به: ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا.

قوله تعالى: فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ - الى قوله - مِنْهُمْ، الفصل هاهنا مفارقة المكان كما في قوله تعالى: وَ لَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ (يوسف ٩٤)، و ربما استعمل بمعنى القطع و هو إيجاد المفارقة بين الشيئين كما قال تعالى:

وَ هُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (الأنعام ٥٧)، فالكلمه مما يتعدى و لا يتعدى.

ص: ٣١٤

و الجند المجتمع الغليظ من كل شىء و سمي العسكر جندا لتراكم الاشخاص فيه و غلظتهم، و فى جمع الجند فى الكلام دلالة على أنهم كانوا من الكثرة على حد يعتنى به و خاصه مع ما فيه المؤمنين من القله بعد جواز النهر و تفرق الناس، و نظير هذه النكته موجود فى قوله تعالى: فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ .

و فى مجموع الكلام إشاره الى حق الامر فى شأن بنى إسرائيل و إيفائهم بميثاق الله، فإنهم سألوا بعث الملك جميعا و شدوا الميثاق، و قد كانوا من الكثرة بحيث لما تولوا إلا قليلا منهم عن القتال كان ذلك القليل الباقي جنودا، و هذه الجنود أيضا لم تغن عنهم شيئا بل تخلفوا بشرب النهر و لم يبق إلا القليل من سائبه فشل و نفاق بينهم من جهه المغترفين، و مع ذلك كان النصر للذين آمنوا و صبروا مع ما كان عليه جنود طالوت من الكثره.

و الابتلاء الامتحان، و النهر مجرى الماء الفائض، و الاغتراف و الغرف رفع الشىء و تناوله، يقال: غرّف الماء غرّفه و اغترفه غرّفه اذا رفعه ليتناوله و يشربه.

و فى استثناء قوله تعالى: إِلَّا مَنْ اَعْتَرَفَ غُرْفَهُ بِيَدِهِ عَنْ مَطْلُقِ الشَّرْبِ دلالة على أنه كان المنهى عنه هو الشرب على حاله خاصه، و قد كان الظاهر أن يقال: فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي إِلَّا مَنْ اَعْتَرَفَ غُرْفَهُ بِيَدِهِ غَيْرَ أَنْ وَضَعَ قَوْلَهُ تَعَالَى: وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي ، فى الكلام مع تبديل الشرب بالطعم و معناه الذوق أو جب تحولا فى الكلام من جهه المعنى اذ لو لم تضاف الجملة الثانيه كان مفاد الكلام أن جميع الجنود كانوا من طالوت، و الشرب يوجب انقطاع جمع منه و الاغتراف يوجب الانقطاع من المنقطع أى الاتصال و أما لو اضيفت الجملة الثانيه، أعنى قوله تعالى: وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي الى الجملة الاولى كان مفاد الكلام أن الامر غير مستقر بحسب الحقيقه بعد إلا بحسب الظاهر فالجنود فى الظاهر مع طالوت لكن لم يتحقق بعد أن الذين هم مع طالوت من هم، ثم النهر الذى سيبتليهم الله به سيحقق كلا الفريقين و يشخصهما فيعين به من ليس منه و هو من شرب من النهر، و يتعين به من هو منه و هو من لم يطعمه، و اذا

كان هذا هو المفاد من الكلام لم يفد قوله في الاستثناء الا من اعترف غرفه بيده كون المغترفين من طالوت لان ذلك انما كان مفادا لو كان المذكور هناك الجملة الاولى فقط، واما مع وجود الجملتين فيتعين الطائفتان: اعنى الذين ليسوا منه و هم الشاربون، و الذين هم منه و هم غير الطاعمين، و من المعلوم ان الاخراج من الطائفة الاولى انما يوجب الخروج منها لا الدخول في الثانية، و لازم ذلك ان الكلام يوجب وجود ثلاث طوائف: الذين ليسوا منه، و الذين هم منه، و المغترفون، و على هذا فالباقون معه بعد الجواز طائفتان: الذين هم منه، و الذين ليسوا من الخارجين، فجاز أن يختلف حالهم فى الصبر و الجزع و الاعتماد بالله و القلق و الاضطراب.

قوله تعالى: **فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ** الى آخر الآية؛ الفئه القطعه من الناس، و التدبر فى الآيات يعطى ان يكون القائلون: لا طاقه لنا، هم المغترفون، و المجيئون لهم هم الذين لم يطعموه اصلا، و الظن بقاء الله إما بمعنى اليقين به و اما كنايه عن الخشوع.

و لم يقولوا: يمكن ان تغلب الفئه القليله الفئه الكثيره بإذن الله، بل قالوا: كم فئه، الخ؛ أخذنا بالواقع فى الاحتجاج بإراءه المصدق ليكون أقنع للخصم.

قوله تعالى: **وَلَمَّا بَرَزُوا لِجِبَالِوتَ وَ جُنُودِهِ الخ؛ البروز هو الظهور، و منه البراز و هو الظهور للحرب، و الافراغ صب نحو الماده السیاله فى القالب و المراد افاضه الله سبحانه الصبر عليهم على قدر ظرفيتهم فهو استعاره بالكنايه لطيفه، و كذا تثبيت الاقدام كنايه عن الثبات و عدم الفرار.**

قوله تعالى: **فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ الخ؛ الهزم الدفع.**

قوله تعالى: **وَلَوْ لَا دَفَعَهُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ الخ؛ من المعلوم أن المراد بفساد الارض فساد من على الارض اى فساد الاجتماع الإنسانى و لو استتبع فساد الاجتماع فسادا فى أديم الأرض فإنما هو داخل فى الغرض بالتبع لا بالذات، و هذه حقيقه من**

الحقائق العلميه ينبه لها القرآن (١).

قوله تعالى: تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ الْخَبْرِ؛ كَالخَاتَمِ يَخْتَمُ بِهَا الْكَلَامَ وَالْقِصَّةَ غَيْرَ أَنْ آخِرَ الْآيَةِ: وَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، لَا يَخْلُو عَنْ ارْتِبَاطِ بِالآيَةِ التَّالِيَةِ (٢)(٣)(٤).

[سوره البقره (٢): الآيات ٢٥٣ الى ٢٥٤]

اشاره

تِلْكَ الرَّسَائِلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَ آتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَ أَيْدِنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَ لَكِنْ اِخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَ مِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَ لَا حُلَّةَ وَ لَا شَفَاعَةَ وَ الْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤)

بيان:

قوله تعالى: تِلْكَ الرَّسَائِلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، إشاره الى فخامه امر الرسل و علو مقامهم و لذلك جيء في الإشاره بكلمه تلك الداله على الاشاره الى بعيد، وفيه

ص: ٣١٧

- ١- ١). البقره ٢٤٤-٢٥٢: بحث في: الدفع و الغلبه معنى الآيه؛ «لَوْ لَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ».
- ٢- ٢). البقره ٢٤٤-٢٥٢: بحث روائي في بنى اسرائيل بعد موت موسى و جالوت و طالوت.
- ٣- ٣). البقره ٢٤٤-٢٥٢: بحث علمي و اجتماعي في تنازع البقاء و الانتخاب الطبيعي و بقاء الامثل.
- ٤- ٤). البقره ٢٤٤-٢٥٢: بحث في التاريخ و ما يعنى به القرآن منه.

دلالة على التفضيل الإلهي الواقع بين الأنبياء عليهم السّلام ففيهم من هو أفضل و فيهم من هو مفضل عليه، و للجميع فضل فإن الرسالة في نفسها فضيلة و هي مشتركة بين الجميع، فبيما بين الرسل أيضا اختلاف في المقامات و تفاوت في الدرجات كما أن بين الذين بعدهم اختلافا على ما يدل عليه ذيل الآية إلا ان بين الاختلافيين فرقا، فإن الاختلاف بين الأنبياء اختلاف في المقامات و تفاضل في الدرجات مع اتحادهم في أصل الفضل و هو الرسالة، و اجتماعهم في مجمع الكمال و هو التوحيد، و هذا بخلاف الاختلاف الموجود بين امم الأنبياء بعدهم فإنه اختلاف بالايان و الكفر، و النفي و الاثبات، و من المعلوم أن لا جامع في هذا النحو من الاختلاف، و لذلك فرق تعالى بينهما من حيث التعبير فسمى ما للانبيا تفضيلا و نسبة الى نفسه، و سمي ما عند الناس بالاختلاف و نسبة الى أنفسهم، فقال في مورد الرسل فضلنا، و في مورد أممهم اختلفوا.

و لما كان ذيل الآية متعرضا لمسألة القتال مرتبطا بها و الآيات المتقدمة على الآية أيضا راجعه الى القتال بالامر به و الاقتصار فيه لم يكن مناص من كون هذه القطعة من الكلام أعنى قوله تعالى: **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا** الى قوله **بِرُوحِ الْقُدُسِ** مقدمه لتبيين ما في ذيل الآية من قوله: **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ** الى قوله تعالى: **وَلَكِنَّ اللَّهَ يُفَعِّلُ مَا يُرِيدُ**.

و على هذا فصدر الآية لبيان أن مقام الرسالة على اشتراكه بين الرسل عليهم السّلام مقام تنمو فيه الخيرات و البركات، و تنبع فيه الكمال و السعادة و درجات القربى و الزلفى كالتكليم الالهى و إيتاء البيئات و التأيد بروح القدس، و هذا المقام على ما فيه من الخير و الكمال لم يوجب ارتفاع القتال لاستناده الى اختلاف الناس أنفسهم.

قوله تعالى: **مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ** **دَرَجَاتٍ**، في الجملتين التفات من الحضور الى الغيبة، و الوجه فيه و الله اعلم - ان الصفات الفاضله على قسمين: منها ما هو بحسب نفس مدلول الاسم يدل على الفضيله كالأيات البيئات، و كالتأيد بروح القدس كما ذكر لعيسى عليه السلام فإن هذه الخصال بنفسها غالية سامية، و منها: ما ليس كذلك، و إنما يدل على

الفضيله و يستلزم المنقبه بواسطه الاضافه كالتكليم، فإنه لا يعد فى نفسه منقبه و فضيله إلا أن يضاف الى شىء فيكتسب منه البهاء و الفضل كإضافته الى الله عز اسمه، وكذا رفع الدرجات لا فضيله فيه بنفسه إلا ان يقال:رفع الله الدرجات مثلا فينسب الرفع الى الله، اذا عرفت هذا علمت: أن هذا هو الوجه فى الالتفات مثلا- فنسب الرفع الى الله، اذا عرفت هذا علمت: أن هذا هو الوجه فى الالتفات من الحضور الى الغيبه فى اثنتين من الجمل الثلاث حيث قال تعالى:

مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَ آتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ، فحول وجه الكلام من التكلم الى الغيبه فى الجملتين الاوليين حتى اذا استوفى الغرض عاد الى وجه الكلام الاول و هو التكلم فقال تعالى: و آتينا عيسى بن مريم (١).

قوله تعالى: وَ آتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَ أَيْدِنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، رجوع الى أصل السياق و هو التكلم دون الغيبه كما مر.

و الوجه فى التصريح باسم عيسى مع عدم ذكر غيره من الرسل فى الآية: ان ما ذكره له عليه السلام من جهات التفضيل و هو إيتاء البيئات، و التأيد بروح القدس مشترك بين الرسل جميعا ليس مما يختص ببعضهم دون بعض، قال تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ (الحديد ٢٥)، و قال تعالى: يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا (النحل / ٢)، لكنهما فى عيسى بنحو خاص فجميع آياته كإحياء الموتى و خلق الطير بالنفخ و إبراء الاكمه و الابرص؛ و الاخبار عن المغيبات كانت أمورا متكئه على الحياه مترشحه عن الروح، فلذلك نسبها الى عيسى عليه السلام و صرح باسمه اذ لو لا التصريح لم يدل على كونه فضيله خاصه كما لو قيل: و آتينا بعضهم البيئات و أيدناه بروح القدس، اذ البيئات و روح القدس كما عرفت مشتركه غير مختصه، فلا يستقيم نسبتها الى البعض بالاختصاص إلا مع التصريح باسمه ليعلم

ص: ٣١٩

انها فيه بنحو خاص غير مشترك تقريبا، على ان في اسم عيسى عليه السلام خاصه اخرى و آيه بينه و هي انه ابن مريم لا- أب له، قال تعالى: وَ جَعَلْنَاَهَا وَ ابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (الأنبياء ٩١/)، فمجموع الابن و الام آيه بينه إلهيه و فضيله اختصاصيه اخرى.

قوله تعالى: وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ، العدول الى الغيبه ثانيا لان المقام مقام إظهار ان المشيه و الاراده الربانيه غير مغلوبه، و القدره غير باطله، فجميع الحوادث على طرفي إثباتها و نفيها غير خارجه عن السلطنه الالهيه، و بالجمله وصف الالهيه هي التي تنافى تقييد القدره و توجب إطلاق تعلقها بطرفي الايجاب و السلب فمست حاجه المقام الى اظهار هذه الصفه المتعاليه أعنى الالهيه للذكر فقيل: و لو شاء الله ما اقتتل، و لم يقل: و لو شئنا ما اقتتل، و هذا هو الوجه أيضا في قوله تعالى في ذيل الآيه: و لو شاء الله ما اقتتلوا، و قوله: وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ، و هو الوجه أيضا في العدول عن الاضمار الى الاظهار.

قوله تعالى: وَ لَكِنَّ اِخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَ مِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ، نسب الاختلاف اليهم لا- الى نفسه لانه تعالى ذكر في مواضع من كلامه: ان الاختلاف بالايمان و الكفر و سائر المعارف الاصليه الميينه في كتب الله النازله على انبيائه انما حدث بين الناس بالبغي، و حاشا ان ينتسب اليه سبحانه بغي أو ظلم.

قوله تعالى: وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ، أى و لو شاء الله لم يؤثر الاختلاف في استدعاء القتال و لكن الله يفعل ما يريد و قد أراد ان يؤثر هذا الاختلاف في سوقه الناس الى الاقتتال جريا على سنه الاسباب.

و محصل معنى الآيه و الله العالم: ان الرسل التي ارسلوا الى الناس عباد لله مقربون عند ربهم، مرتفع عن الناس أفقهم و هم مفضل بعضهم على بعض على ما لهم من الاصل الواحد و المقام المشترك، فهذا حال الرسل و قد أتوا للناس بآيات بينات أظهروا بها الحق كل الاظهار

و بينوا طريق الهدايه اتم البيان،و كان لانزمه ان لا- ينساق الناس بعدهم الا الى الوحده و الالفه و المحبه فى دين الله من غير اختلاف و قتال لكن كان هناك سبب آخر أعقم هذا السبب،و هو الاختلاف عن بغى منهم و انشعابهم الى مؤمن و كافر،ثم التفرق بعد ذلك فى سائر شؤون الحياه و السعاده،و لو شاء الله لا عقم هذا السبب أعنى الاختلاف فلم يوجب الاقتتال و ما اقتتلوا، و لكن لم يشأ و أجرى هذا السبب كسائر الاسباب و العلل على سنه الاسباب التى أرادها الله فى عالم الصنع و اليجاد،و الله يفعل ما يريد.

و قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا خَيْرًا مِمَّا كُنْتُمْ أَنْفِقُونَ﴾؛ معناه واضح و فى ذيل الآيه دلالة على ان الاستنكاف عن الانفاق كفر و ظلم (١)(٢).

[سوره البقره (٢): آيه ٢٥٥]

اشاره

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)

بيان:

قوله تعالى: اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، قد تقدم فى سوره الحمد بعض

ص: ٣٢١

١- ١). البقره ٢٥٣-٢٥٤ بحث روائى حول الآيه «تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ»؛ كيفيه تكليم الله لموسى عليه السلام.

٢- ٢) البقره ٢٥٣-٢٥٤ بحث فلسفى فى الكلام.

الكلام فى لفظ الجلاله، وانه سواء أخذ من آله الرجل بمعنى تاه و وله أو من آله بمعنى عبد فلازم معناه الذات المستجمع لجميع صفات الكمال على سبيل التلميح.

وقد تقدم بعض الكلام فى قوله تعالى: لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فى قوله تعالى: وَ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ (البقره ١٦٣)، و ضمير هو و ان رجع الى اسم الجلاله لكن اسم الجلاله لما كان علما بالغلبه يدل على نفس الذات من حيث انه ذات و ان كان مشتملا على بعض المعانى الوصفيه التى يلمح باللام أو بالاطلاق إليها، فقوله: لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، يدل على نفى حق الثبوت عن الآلهه التى تثبت من دون الله.

و اما اسم الحى فمعناه ذو الحياه الثابته على وزان سائر الصفات المشبهه فى دلالتها على الدوام و الثبات.

و الناس فى بادئ مطالعتهم لحال الموجودات وجدوها على قسمين: قسم منها لا يختلف حاله عند الحس ما دام وجوده ثابتا كالأحجار و سائر الجمادات، و قسم منها ربما تغيرت حاله و تعطلت قواه و أفعاله مع بقاء وجودها على ما كان عليه عند الحس، و ذلك كالانسان و سائر اقسام الحيوان و النبات فإنما ربما نجدتها تعطلت قواها و مشاعرها و أفعالها ثم يطرأ عليها الفساد تدريجا، و بذلك أذعن الانسان بان هناك وراء الحواس امرا آخر هو المبدأ للاحاساسات و الادراكات العلميه و الأفعال المبتنيه على العلم و الاراده و هو المسمى بالحياه و يسمى بطلانه بالموت، فالحياه نحو وجود يترشح عنه العلم و القدره.

وقد ذكر الله سبحانه هذه الحياه فى كلامه ذكر تقرير لها، قال تعالى: اِعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا (الحديد ١٧)، و قال تعالى: اِنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِى (فصلت ٣٩)، و قال تعالى: وَ لَا يَشْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَ لَا الْأَمْوَاتُ (فاطر ٢٢)، و قال تعالى: وَ جَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا (الأنبياء ٣٠)، فهذه تشمل حياه أقسام الحى من الانسان و الحيوان و النبات.

و كذلك القول فى اقسام الحياه، قال تعالى: وَ رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ اطْمَأَنَّنُوا بِهَا (يونس ٧)، و قال تعالى: رَبَّنَا اُمَّتْنَا اثنَتَيْنِ وَ اَحْيَيْنَا اثنَتَيْنِ (المؤمن ١١)، و الاحياء ان المذكور ان يشتملان على حياتين: إحداهما: الحياه البرزخيه، و الثانيه: الحياه الآخره، فللحياه أقسام كما للحى أقسام.

و الله سبحانه مع ما يقرر هذه الحياه الدنيا يعدها فى مواضع كثيره من كلامه شيئا رديا هينا لا يعبأ بشأنه كقوله تعالى: وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (الرعد ٢٦)، و قوله تعالى: تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (النساء ٩٤)، و قوله تعالى: تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (الكهف ٢٨)، و قوله تعالى: وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ (الأنعام ٣٢)، و قوله تعالى: وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (الحديد ٢٠)، فوصف الحياه الدنيا بهذه الاوصاف فعدها متاعا و المتاع ما يقصد لغيره، و عدها عرضا و العرض ما يعترض ثم يزول، و عدها زينه و الزينه هو الجمال الذى يضم على الشىء ليقصد الشىء لاجله فيقع غير ما قصد و يقصد غير ما وقع، و عدها لهوا و اللهو ما يلهيك و يشغلك بنفسه عما يهملك، و عدها لعبا و اللب هو الفعل الذى يصدر لغايه خياليه لا حقيقيه، و عدها متاع الغرور و هو ما يغر به الانسان.

و يفسر جميع هذه الآيات و يوضحها قوله تعالى: وَ مَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوَ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (العنكبوت ٦٤)، يبين ان الحياه الدنيا إنما تسلب عنها حقيقه الحياه أى كمالها فى مقابل ما تثبت للحياه الآخره حقيقه الحياه و كمالها، و هى الحياه التى لا موت بعدها، قال تعالى: آمِنِينَ لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى (الدخان ٥٦)، و قال تعالى: لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَ لَدَيْنَا مَزِيدٌ (ق ٣٥)، فلهم فى حياتهم الآخره أن لا يعتربهم الموت، و لا يعترضهم نقص فى العيش و تنغص، لكن الاول من الوصفين أعنى الامن هو الخاصه الحقيقه للحياه الضروريه له.

فالحياه الاخرويه هي الحياه بحسب الحقيقه لعدم إمكان طرو الموت عليها بخلاف الحياه الدنيا، لكن الله سبحانه مع ذلك أفاد في آيات آخر كثيره انه تعالى هو المفيض للحياه الحقيقه الاخرويه و المحيي للإنسان في الآخره، و بيده تعالى أزمه الامور، فأفاد ذلك ان الحياه الاخرويه أيضا مملوكه لا مالكه و مسخره لا مطلقه أعنى انها إنما ملكت خاصتها المذكوره بالله لا بنفسها.

و من هنا يظهر ان الحياه الحقيقه يجب ان تكون بحيث يستحيل طرو الموت عليها لذاتها و لا يتصور ذلك إلا بكون الحياه عين ذات الحي غير عارضه لها و لا طارئه عليها بتمليك الغير و إفاضته، قال تعالى: **وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ** (الفرقان ٥٨)، و على هذا فالحياه الحقيقه هي الحياه الواجبه، و هي كون وجوده بحيث يعلم و يقدر بالذات.

و من هنا يعلم: ان القصر في قوله تعالى: **هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** قصر حقيقى غير إضافى، و ان حقيقه الحياه التى لا يشوبها موت و لا يعترها فناء و زوال هي حياته تعالى.

فالوقوف فيما نحن فيه من قوله تعالى: **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**؛ الآية؛ و كذا في قوله تعالى: **الْمَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** (آل عمران ١) ان يكون لفظ الحي خبرا بعد خبر فيفيد الحصر لان التقدير، الله الحي فالآيه تفيد ان الحياه لله محضا إلا ما أفاضه لغيره.

و اما اسم القيوم فهو على ما قيل: فيعول كالقيام فيعال من القيام وصف يدل على المبالغه و القيام هو حفظ الشىء و فعله و تدبيره و تربيته و مراقبه عليه و القدره عليه، كل ذلك مأخوذ من القيام بمعنى الانتصاب للملازمه العاديه بين الانتصاب و بين كل منها.

و قد اثبت الله تعالى اصل القيام بامور خلقه لنفسه في كلامه حيث قال تعالى: **أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ** (الرعد ٣٣)، و قال تعالى و هو أشمل من الآيه السابقه شهد الله أنه لا إله إلا هو و الملائكهُ و أولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزیز الحكيم (آل عمران ١٨)، فأفاد انه قائم على الموجودات بالعدل فلا يعطى و لا يمنع شيئا فى الوجود

(و ليس الوجود إلا- الاعطاء و المنع)-الاعطاء بالعدل يعطى كل شىء ما يستحقه ثم بين ان هذا القيام بالعدل مقتضى اسميه الكريمين:العزير الحكيم فبعزته يقوم على كل شىء و بحكمته يعدل فيه.

و بالجملة لما كان تعالى هو المبدأ الذى يبتدى منه وجود كل شىء و أوصافه و آثاره لا مبدأ سواه الا و هو ينتهى اليه،فهو القائم على كل شىء من كل جهه بحقيقه القيام الذى لا يشوبه فتور و خلل،و ليس ذلك لغيره قط الا بإذنه بوجه،فليس له تعالى الا القيام من غير ضعف و فتور،و ليس لغيره الا ان يقوم به،فهناك حصران:حصر القيام عليه،و حصره على القيام،و أول الحصرين هو الذى يدل عليه كون القيوم فى الآيه خبرا بعد خبر لله(الله القيوم)، و الحصر الثانى هو الذى تدل عليه الجملة التاليه أعنى قوله: **لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ** .

و قد ظهر من هذا البيان ان اسم القيوم ام الاسماء الاضافيه الثابته له تعالى جميعا و هى الاسماء التى تدل على معان خارجه عن الذات بوجه كالخالق و الرازق و المبدئ و المعيد و المحيى و المميت و الغفور و الرحيم و الودود و غيرها.

قوله تعالى: **لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ** ،السنه بكسر السين الفتور الذى يأخذ الحيوان فى اول النوم،و النوم هو الركود الذى يأخذ حواس الحيوان لعوامل طبيعيه تحدث فى بدنه،و الرؤيا غيره و هى ما يشاهده النائم فى منامه.

و قد أورد على قوله: **سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ** انه على خلاف الترتيب الذى تقتضيه البلاغه فإن المقام مقام الترقى،و الترقى فى الاثبات انما هو من الأضعف الى الأقوى كقولنا:فلان يقدر على حمل عشره أمان بل عشرين،و فلان يوجد بالمئات بل بالالوف و فى النفى بالعكس كما نقول:لا يقدر فلان على حمل عشرين و لا عشره،و لا يوجد بالالوف و لا بالمئات،فكان ينبغى ان يقال:لا تأخذه نوم و لا سنه.

و الجواب:ان الترتيب المذكور لا يدور مدار الاثبات و النفى دائما كما يقال:فلان يجهد

حمل عشرين بل عشره ولا يصح العكس، بل المراد هو صحه الترقى و هي مختلفه بحسب الموارد، و لما كان أخذ النوم أقوى تأثيرا و أضر على القيوميه من السنه كان مقتضى ذلك ان ينفى تأثير السنه و أخذها أولا ثم يترقى الى نفى تأثير ما هو أقوى منه تأثيرا، و يعود معنى لا تأخذه سنه و لا نوم الى مثل قولنا: لا يؤثر فيه هذا العامل الضعيف بالفتور فى امره و لا ما هو أقوى منه.

قوله تعالى: لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ لما كانت القيوميه التامه التى له تعالى لا تتم إلا بأن يملك السماوات و الارض و ما فيهما بحقيقه الملك ذكره بعدهما، كما ان التوحيد التام فى الالوهيه لا يتم إلا بالقيوميه، و لذلك ألحقها بها ايضا.

و هاتان جملتان كل واحده منهما مقيده أو كالمقيد به بقيد فى معنى دفع الدخل، أعنى قوله تعالى: له ما فى السماوات و ما فى الارض، مع قوله تعالى: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، و قوله تعالى: يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، مع قوله تعالى: وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ .

فأما قوله تعالى: لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، فقد عرفت معنى ملكه تعالى (بالكسر) للموجودات و ملكه تعالى (بالضم) لها، و الملك بكسر الميم و هو قيام ذوات الموجودات و ما يتبعها من الاوصاف و الآثار بالله سبحانه هو الذى يدل عليه قوله تعالى: لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، فالجمله تدل على ملك الذات و ما يتبع الذات من نظام الآثار.

و قد تم بقوله: أَلْقِيَوْمَ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ان السلطان المطلق فى الوجود لله سبحانه لا تصرف إلا- و هو له و منه، فيقع من ذلك فى الوهم انه اذا كان الامر على ذلك فهذه الاسباب و العلل الموجوده فى العالم ما شأنها؟ و كيف يتصور فيها و منا التأثير و لا تأثير إلا لله سبحانه؟

فاجيب بأن تصرف هذه العلل و الاسباب فى هذه الموجودات المعلوله توسط فى التصرف، و بعبارة اخرى شفاعة فى موارد المسيبات ياذن الله سبحانه، فإنما هى شفعاء، و الشفاعة- و هى بنحو توسط فى ايصال الخير أو دفع الشر، و تصرف ما من الشفيع فى امر المستشفع-انما تنافى السلطان الالهى و التصرف الربوبى المطلق اذا لم ينته الى اذن الله، و لم يعتمد على مشيه الله تعالى بل كانت مستقلة غير مرتبطة و ما من سبب من الاسباب و لا- عله من العلل الا و تأثيره بالله و نحو تصرفه ياذن الله، فتأثيره و تصرفه نحو من تأثيره و تصرفه تعالى فلا سلطان فى الوجود الا سلطانه و لا قيوميه الا قيوميته المطلقة عز سلطانه.

و على ما بيناه فالشفاعة هى التوسط المطلق فى عالم الاسباب و الوسائط أعم من الشفاعة التكوينية و هى توسط الاسباب فى التكوين، و الشفاعة التشريعية أعنى التوسط فى مرحله المجازاه التى تثبتها الكتاب و السنه فى يوم القيامة على ما تقدم البحث عنها فى قوله تعالى:

وَ اتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَيْنَ نَفْسٍ شَيْئًا (البقره ٤٨/١)، و ذلك ان الجملة أعنى قوله تعالى: من ذا الذى يشفع عنده، مسبوقة بحديث القيوميه و الملك المطلق الشاملين للتكوين و التشريع معاً، بل المتماسين بالتكوين ظاهراً فلا موجب لتقيدهما بالقيوميه و السلطنه التشريعتين حتى يستقيم تذييل الكلام بالشفاعة المخصوصه بيوم القيامة.

فمساق هذه الآيه فى عموم الشفاعة مساق قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ (يونس ٣)، و قوله تعالى: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ (السجده ٤)، و قد عرفت فى البحث عن الشفاعة ان حدها كما ينطبق على الشفاعة التشريعيه كذلك ينطبق على السببيه التكوينية، فكل سبب من الاسباب يشفع عند الله لمسببيه بالتمسك بصفات فضله و جوده و رحمته لا يصال نعمه الوجود الى مسببه، فنظام السببيه بعينه ينطبق على نظام

الشفاعه كما ينطبق على نظام الدعاء و المسأله، قال تعالى: يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (الرحمن ٢٩)، و قال تعالى: وَ آتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ (إبراهيم ٣٤)، و قد مر بيانه في تفسير قوله تعالى: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي (البقره / ١٨٦).

قوله تعالى: يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ، سياق الجملة مع مسبوقتها بأمر الشفاعة يقرب من سياق قوله تعالى:

بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْتَبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَ هُمْ مِنْ حَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ (الأنبياء ٢٨)، فالظاهر ان ضمير الجمع الغائب راجع الى الشفعاء الذي تدل عليه الجملة السابقه معنى فعلمه تعالى بما بين ايديهم و ما خلفهم كناية عن كمال احاطته بهم، فلا يقدرون بواسطه هذه الشفاعة و التوسط المأذون فيه على انفاذ امر لا يريد الله سبحانه و لا- يرضى به فى ملكه، و لا يقدر غيرهم ايضا ان يستفيد سوءا من شفاعتهم و وساطتهم فيدخل فى ملكه تعالى فيفعل فيه ما لم يقدره.

و الى نظير هذا المعنى يدل قوله تعالى: وَ مَا نَنْتَرِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَ مَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (مريم ٦٤)، و قوله تعالى: عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسِّرُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتٍ رَبِّهِمْ وَ أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَ أَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (الجن ٢٨)، فإن الآيات تبين إحاطته تعالى بالملائكة و الانبياء لثلا يقع منهم ما لم يردده، و لا ينتزلوا إلا بأمره، و لا يبلغوا إلا ما يشاؤه. و على ما بيناه فالمراد بما بين أيديهم: ما هو حاضر مشهود معهم، و بما خلفهم: ما هو غائب عنهم بعيد منهم كالمستقبل من حالهم، و يثول المعنى الى الشهاده و الغيب.

و بالجملة قوله: يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، كناية عن إحاطته تعالى بما هو حاضر

معهم موجود عندهم و بما هو غائب عنهم آت خلفهم، و لذلك عقبه بقوله تعالى: **وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ**، تبينا
لتمام الاحاطه الربويه و السلطه الإلهيه أى إنه تعالى عالم محيط بهم و بعلمهم و هم لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء.

و لا ينافى إرجاع ضمير الجمع المذكور العاقل و هو قوله «هم» فى المواضع الثلاث الى الشفعاء ما قدمناه من ان الشفاعة أعم من
السببيه التكوينية و التشريعيه، و أن الشفعاء هم مطلق العلل و الاسباب، و ذلك لأن الشفاعة و الوساطه و التسبيح و التحميد لما
كان المعهود من حالها انها من أعمال أرباب الشعور و العقل شاع التعبير عنها بما يخص أولى العقل من العبارة.

و على ذلك جرى ديدن القرآن فى بياناته كقوله تعالى: **وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**
(الأسراء/٤٤)، و قوله تعالى: **ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَ هِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ انثبيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**
(فصلت/١١)، الى غير ذلك من الآيات.

و بالجمله قوله: **وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ**، يفيد معنى تمام التدبير و كماله، فإن من كمال التدبير أن يجهل
المدبر (بالفتح) بما يريده المدبر (بالكسر) من شأنه و مستقبل أمره لئلا يحتال فى التخلص عما يكرهه من أمر التدبير فيفسد على
المدبر (بالكسر) تدبيره، كجماعه مسيرين على خلاف مشتاهم و مرادهم فيبالغ فى التعميه عليهم حتى لا يدروا من أين سيروا، و
فى أين نزلوا، و إلى أين يقصد بهم.

فيبين تعالى بهذه الجملة ان التدبير له و بعلمه بروابط الاشياء التى هو الجاعل لها، و بقيه الاسباب و العلل و خاصه أولو العلم منها
و إن كان لها تصرف و علم لكن ما عندهم من العلم الذى ينتفعون به و يستفيدون منه فإنما هو من علمه تعالى و بمشيئته و
إرادته، فهو من شئون العلم الالهى، و ما تصرفوا به فهو من شئون التصرف الالهى و انحاء تدبيره، فلا يسع لمقدم منهم أن يقدم
على خلاف ما يريده الله سبحانه من التدبير الجارى فى مملكته إلا و هو بعض

و فى قوله تعالى: **وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ**، على تقدير ان يراد بالعلم المعنى المصدرى أو معنى اسم المصدر لا المعلوم دلالة على ان العلم كله لله و لا يوجد من العلم عند عالم إلا و هو شىء من علمه تعالى، ونظيره ما يظهر من كلامه تعالى من اختصاص القدره و العزه و الحياه بالله تعالى، قال تعالى: **وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** (البقره ١٦٥)، و قال تعالى: **أَيَّبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** (النساء / ١٣٩)، و قال تعالى: **هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** (المؤمن ١٦٥)، و يمكن ان يستدل على ما ذكرناه من انحصار العلم بالله تعالى بقوله: **إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** (يوسف ٨٣)، و قوله تعالى: **وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** (آل عمران ٦٦)، الى غير ذلك من الآيات، و فى تبديل العلم بالإحاطه فى قوله: **وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ**، لطف ظاهر.

قوله تعالى: **وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**، الكرسي معروف و سمي به لتراكم بعض اجزائه بالصنائه على بعض، و ربما كنى بالكرسي عن الملك فيقال: كرسي الملك، و يراد منطقته نفوذه و متسع قدرته.

و كيف كان فالجمل السابقه على هذه الجملة أعنى قوله: **لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**، الخ؛ تفيد ان المراد بسعه الكرسي احاطه مقام السلطنه الالهيه، فيتعين للكرسي من المعنى: انه المقام الربوبى الذى يقوم به ما فى السموات و الارض من حيث انها مملوكة مدبره معلومه، فهو من مراتب العلم، و يتعين للسعه من المعنى: انها حفظ كل شىء مما فى السموات و الارض بذاته و آثاره، و لذلك ذيله بقوله: **وَلَا يُؤْدُهُ حِفْظُهُمَا**.

قوله تعالى: **وَلَا يُؤْدُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**، يقال: آده يؤده أودا اذا ثقل عليه و اجهده و اتعبه، و الظاهر ان مرجع الضمير فى يؤده، هو الكرسي و إن جاز رجوعه اليه تعالى، و نفى الأود و التعب عن حفظ السموات و الارض فى ذيل الكلام ليناسب ما افتتح

به من نفى السنه و النوم فى القيوميه على ما فى السموات و الارض.

و محصل ما تفيده الآيه من المعنى: ان الله لا إله إلا هو له كل الحياه و له القيوميه المطلقه من غير ضعف و لا فتور، و لذلك وقع التعليل بالاسمين الكريمين: العلى العظيم فإنه تعالى لعلوه لا تناله أيدي المخلوقات فيوجبوا بذلك ضعفا فى وجوده و فتورا فى أمره، و لعظمته لا- يجهده كثره الخلق و لا- يطيقه عظمه السموات و الارض، و جمله: هو العلى العظيم، لا تخلو عن الدلاله على الحصر، و هذا الحصر إما حقيقى كما هو الحق، فإن العلو و العظمه من الكمال و حقيقه كل كمال له تعالى، و اما دعوى لمسييس الحاجه اليه فى مقام التعليل ليختص العلو و العظمه به تعالى دعوى، فيسقط السموات و الارض عن العلو و العظمه فى قبال علوه و عظمته تعالى (١).

[سوره البقره (٢): الآيات ٢٥٦ الى ٢٥٧]

اشاره

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧)

بيان:

قوله تعالى: لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ، الاكراه هو

ص: ٣٣١

الاجبار و الحمل على الفعل من غير رضى، و الرشد بالضم و الضمتين: إصابه وجه الامر و محجه الطريق و يقابله الغى، فهما أعم من الهدى و الضلال، فإنهما إصابه الطريق الموصل و عدمها على ما قيل، و الظاهر ان استعمال الرشد فى اصابه محجه الطريق من باب الانطباق على المصداق، فإن اصابه وجه الامر من سالك الطريق ان يركب المحجه و سواء السبيل، فلزومه الطريق من مصاديق اصابه وجه الامر، فالحق ان معنى الرشد و الهدى معنيان مختلفان ينطبق أحدهما بعنايه خاصه على مصاديق الآخر و هو ظاهر، قال تعالى: فَإِنْ أَنْسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا (النساء/٦)، و قال تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ (الأنبياء/٥١)، و كذلك القول فى الغى و الضلال، و لذلك ذكرنا سابقا: ان الضلال هو العدول عن الطريق مع ذكر الغايه و المقصد، و الغى هو العدول مع نسيان الغايه فلا يدري الانسان الغوى ما ذا يريد و ما ذا يقصد.

و فى قوله تعالى: لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ، نفى الدين الاجبارى، لما أن الدين و هو سلسله من المعارف العلميه التى تتبعها أخرى عمليه يجمعها أنها اعتقادات، و الاعتقاد و الايمان من الامور القليه التى لا يحكم فيها الا-كراه و الاجبار، فإن الاكراه انما يؤثر فى الاعمال الظاهريه و الافعال و الحركات البدنيه الماديه، و أما الاعتقاد القلبى فله علل و أسباب اخرى قلبيه من سنخ الاعتقاد و الادراك، و من المحال أن ينتج الجهل علما، أو تولد المقدمات غير العلميه تصديقا علميا، فقوله: لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ، ان كان قضيه اخباريه حاكيه عن حال التكوين انتج حكما دينيا بنفى الاكراه على الدين و الاعتقاد، و ان كان حكما انشائيا تشريعا كما يشهد به ما عقبه تعالى من قوله: قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ، كان نهيا عن الحمل على الاعتقاد و الايمان كرها، و هو نهى متك على حقيقه تكوينيه، و هى التى مر بيانها أن الاكراه انما يعمل و يؤثر فى مرحله الافعال البدنيه دون الاعتقادات القليه.

و قد بين تعالى هذا الحكم بقوله: قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ، و هو فى مقام التعليل فإن الإكراه

والاجبار إنما يركن إليه الأمر الحكيم و المرى العاقل فى الامور المهمه التى لا- سبيل الى بيان وجه الحق فيها لبساطه فهم المأمور و رداءه ذهن المحكوم، أو لاسباب وجهات اخرى، فيتسبب الحاكم فى حكمه بالا-كراه أو الامر بالتقليد و نحوه، و أما الامور المهمه التى تبين وجه الخير و الشر فيها، و قرر وجه الجزاء الذى يلحق فعلها و تركها فلا حاجه فيها الى الاكراه، بل للانسان أن يختار لنفسه ما شاء من طرفى الفعل و عاقبتى الثواب و العقاب، و الدين لما انكشفت حقائقه و اتضح طريقه بالبيانات الإلهيه الموضحة بالسنة النبويه فقد تبين أن الدين رشد و الرشده فى اتباعه، و الغى فى تركه و الرغبه عنه، و على هذا لا موجب لان يكره أحد أحدا على الدين.

و هذه احدى الآيات الداله على أن الاسلام لم يبتن على السيف و الدم، و لم يفت بالاكراه و العنوه على خلاف ما زعمه عده من الباحثين من المنتحلين و غيرهم أن الاسلام دين السيف و استدلوا عليه: بالجهد الذى هو أحد أركان هذا الدين.

و قد تقدم الجواب عنه فى ضمن البحث عن آيات القتال و ذكرنا هناك أن القتال الذى ندب اليه الاسلام ليس لغايه احراز التقدم و بسط الدين بالقوه و الاكراه، بل لاحياء الحق و الدفاع عن أنفس متاع للفطره و هو التوحيد، و أما بعد انبساط التوحيد بين الناس و خضوعهم لدين النبوه و لو بالتهود و التنصر فلا نزاع لمسلم مع موحد و لا جدال، فالاشكال ناش عن عدم التدبر.

و يظهر مما تقدم أن الآيه أعنى قوله: [□] لا إكراه فى الدين غير منسوخه بآيه السيف كما ذكره بعضهم.

و من الشواهد على أن الآيه غير منسوخه التعليل الذى فيها أعنى قوله: [□] قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ، فإن الناسخ ما لم ينسخ عله الحكم لم ينسخ نفس الحكم، فإن الحكم باق ببقاء سببه، و معلوم أن تبين الرشده من الغى فى أمر الاسلام امر غير قابل للارتفاع بمثل آيه السيف، فإن

قوله: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ مَثَلًا أَوْ قَوْلَهُ: وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْآيَةَ لَا يُؤْثِرَانِ فِي ظَهْرٍ حَقِيهِ الدِّينِ شَيْئًا حَتَّى يَنْسَخَا حَكْمًا مَعْلُولًا لِهَذَا الظَّهْرِ.

و بعبارة اخرى الآيه تعلق قوله: لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ بظهور الحق، و هو معنى لا يختلف حاله قبل نزول حكم القتال و بعد نزوله، فهو ثابت على كل حال، فهو غير منسوخ.

قوله تعالى: فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ الَّتِي هِيَ الطَّاغُوتُ وَالتَّجَاوُزُ عَنِ الْحُدُودِ لَا يَخْلُو عَنْ مَبَالِغِهِ فِي الْمَعْنَى كَالْمَلَكُوتِ وَالجَبْرُوتِ، وَاسْتَمْسَكَ بِمَا يَحْصُلُ بِهِ الطَّغْيَانُ كَأَقْسَامِ الْمَعْبُودَاتِ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَالْأَصْنَامِ وَ الشَّيَاطِينِ وَ الْجِنِّ وَ أَيْمَةِ الضَّلَالِ مِنَ الْإِنْسَانِ وَ كُلِّ مَتَّبِعٍ لَا يَرْضَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِاتِّبَاعِهِ، وَ يَسْتَوِي فِيهِ الْمَذْكَرُ وَ الْمَوْثُوتُ وَ الْمَفْرُودُ وَ التَّشْبِيهِ وَ الْجَمْعُ.

وَ إِنَّمَا قَدِمَ الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ فِي قَوْلِهِ: فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ، لِإِوَافِقِ التَّرْتِيبِ الَّذِي يَنَاسِبُهُ الْفِعْلُ الْوَاقِعُ فِي الْجُزْءِ أَعْنَى الْاسْتِمْسَاكِ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى، لِأَنَّ الْاسْتِمْسَاكَ بِشَيْءٍ إِنَّمَا يَكُونُ بِتَرْكِ كُلِّ شَيْءٍ وَ الْأَخْذُ بِالْعُرْوَةِ، فَهَنَّاكَ تَرَكَ ثُمَّ أَخَذَ، فَكَدِمَ الْكُفْرَ وَ هُوَ تَرَكَ عَلَى الْإِيمَانِ وَ هُوَ أَخَذَ لِإِوَافِقِ ذَلِكَ، وَ الْاسْتِمْسَاكَ هُوَ الْأَخْذُ وَ الْإِمْسَاكَ بِشَيْءٍ، وَ الْعُرْوَةُ: مَا يُؤْخَذُ بِهِ مِنَ الشَّيْءِ كَعُرْوَةِ الدَّلْوِ وَ عُرْوَةِ الْإِنَاءِ، وَ الْعُرْوَةُ هِيَ كُلُّ مَا لَهُ أَصْلٌ مِنَ النَّبَاتِ وَ مَا لَا يَسْقُطُ وَرَقَهُ، وَ أَصْلُ الْبَابِ التَّعْلُقُ يُقَالُ: عَرَاهُ وَ اعْتَرَاهُ أَي تَعْلَقُ بِهِ.

وَ الْكَلَامُ أَعْنَى قَوْلِهِ: فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى، مَوْضُوعٌ عَلَى الْاسْتِعَارَةِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ بِالنَّسْبَةِ إِلَى السَّعَادَةِ بِمَنْزِلَةِ عُرْوَةِ الْإِنَاءِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْإِنَاءِ وَ مَا فِيهِ، فَكَمَا لَا يَكُونُ الْأَخْذُ أَخْذًا مُطْمَئِنًّا حَتَّى يَقْبُضَ عَلَى الْعُرْوَةِ كَذَلِكَ السَّعَادَةُ الْحَقِيقِيَّةُ لَا يَسْتَقِرُّ أَمْرُهَا وَ لَا يَرْجَى نَيْلُهَا إِلَّا أَنْ يُؤْمِنَ الْإِنْسَانُ بِاللَّهِ وَ يَكْفُرَ بِالطَّاغُوتِ.

قوله تعالى: لَا أَنْفِصًا مِّنْهُمَا وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، الْإِنْفِصَامُ: الْإِنْقِطَاعُ وَ الْإِنْكَسَارُ، وَ الْجُمْلَةُ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنَ الْعُرْوَةِ تَوْكِيدٌ مَعْنَى الْعُرْوَةِ الْوُثْقَى، ثُمَّ عَقِبَهُ بِقَوْلِهِ: وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ،

لكون الايمان و الكفر متعلقا بالقلب و اللسان.

□
قوله تعالى: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قد مر شرط من الكلام فى معنى إخراجهم من النور الى الظلمات، و قد بينا هناك أن هذا الإخراج و ما يشاكله من المعانى امور حقيقيه غير مجازيه خلافا لما توهمه كثير من المفسرين و سائر الباحثين أنها معان مجازيه يراد بها الاعمال الظاهريه من الحركات و السكنات البدنيه، و ما يترتب عليها من الغايات الحسنه و السيئه، فالنور مثلا هو الاعتقاد الحق بما يرتفع به ظلمه الجهل و حيره الشك و اضطراب القلب، و النور هو صالح العمل من حيث أن رشده بين، و أثره فى السعاده جلى، كما ان النور الحقيقى على هذه الصفات. و الظلمه هو الجهل فى الاعتقاد و الشبهه و الريبه و طالح العمل، كل ذلك بالاستعاره. و الإخراج من الظلمه الى النور الذى ينسب الى الله تعالى كالأخراج من النور الى الظلمات الذى ينسب الى الطاغوت نفس هذه الاعمال و العقائد، فليس وراء هذه الاعمال و العقائد، لا فعل من الله تعالى و غيره كالأخراج مثلا و لا أثر لفعل الله تعالى و غيره كالنور و الظلمه و غيرهما، هذا ما ذكره قوم من المفسرين و الباحثين.

و ذكر آخرون: ان الله يفعل فعلا- كالأخراج من الظلمات الى النور و إعطاء الحياه و السعده و الرحمه و ما يشاكلها و يترتب على فعله تعالى آثار كالنور و الظلمه و الروح و الرحمه و نزول الملائكه، لا ينالها أفهامنا و لا يسعها مشاعرنا، غير أنا نؤمن بحسب ما أخبر به الله- و هو يقول الحق- بأن هذه الامور موجوده و أنها أفعال له تعالى و إن لم نحط بها خبرا، و لازم هذا القول أيضا كالقول السابق أن يكون هذه الالفاظ أعنى أمثال النور و الظلمه و الإخراج و نحوها مستعمله على المجاز بالاستعاره، و إنما الفرق بين القولين أن مصاديق النور و الظلمه و نحوهما على القول الأول نفس أعمالنا و عقائدنا، و على القول الثانى امور خارجه عن أعمالنا و عقائدنا لا سبيل لنا الى فهمها، و لا طريق الى نيلها و الوقوف عليها.

و القولاين جميعا خارجان عن صراط الاستقامه كالمفرط و المفرط، و الحق في ذلك أن هذه الامور التي أخبر الله سبحانه بإيجادها و فعلها عند الطاعه و المعصيه إنما هي امور حقيقه واقعيه من غير تجوز غير أنها لا تفارق أعمالنا و عقائدنا بل هي لوازمها التي في باطنها، و قد مر الكلام في ذلك، و هذا لا ينافي كون قوله تعالى: يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، و قوله تعالى: يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ، كناية عن هدايه الله سبحانه و إضلال الطاغوت، لما تقدم في بحث الكلام أن النزاع في مقامين: أحدهما كون النور و الظلمه و ما شابههما ذا حقيقه في هذه النشأه أو مجرد تشبيه لا حقيقه له، و ثانيهما: أنه على تقدير تسليم أن لها حقائق و واقعيات هل استعمال اللفظ كالنور مثلا في الحقيقه التي هي حقيقه الهدايه حقيقه أو مجاز؟ و على أى حال فالجملتان أعني: قوله تعالى: يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، و قوله تعالى: يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ، كنيان عن الهدايه و الاضلال، و إلا لزم أن يكون لكل من المؤمن و الكافر نور و ظلمه معا، فإن لزم إخراج المؤمن من الظلمه الى النور أن يكون قبل الايمان في ظلمه و بالعكس في الكافر، فعامه المؤمنين و الكفار - و هم الذين عاشوا مؤمنين فقط أو عاشوا كفارا فقط - اذا بلغوا مقام التكليف فإن آمنوا خرجوا من الظلمات الى النور، و إن كفروا خرجوا من النور الى الظلمات، فهم قبل ذلك في نور و ظلمه معا و هذا كما ترى.

لكن يمكن أن يقال: إن الانسان بحسب خلقتة على نور الفطره، هو نور إجمالي يقبل التفصيل، و أما بالنسبه الى المعارف الحقه و الاعمال الصالحه تفصيلا فهو في ظلمه بعد لعدم تبين أمره، و النور و الظلمه بهذا المعنى لا يتنافيان و لا يمتنع اجتماعهما، و المؤمن بإيمانه يخرج من هذه الظلمه الى نور المعارف و الطاعات تفصيلا، و الكافر بكفره يخرج من نور الفطره الى ظلمات الكفر و المعاصي التفصيليه، و الايمان بالنور مفردا و بالظلمات جمعا في قوله تعالى: يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، و قوله تعالى: يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى

الظلمات، للإشارة إلى ان الحق واحد لا اختلاف فيه كما ان الباطل متشتت مختلف لا وحده فيه، قال تعالى: وَ أَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ (الأنعام ١٥٣).

[سوره البقره (٢): الآيات ٢٥٨ الى ٢٦٠]

اشاره

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَ هِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَ شَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَ انظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَ لِنَجْعَلَك آيَةً لِلنَّاسِ وَ انظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لِمَ تُؤْمِنُ قَالِ بَلَى وَ لَكِن لِيُطَمِّنَ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصِرْ بِهِنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَ اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ، المحاجه إلقاء الحجه قبال الحجه لإثبات المدعى أو لإبطال ما يقابله، و اصل الحجه هو القصد، غلب استعماله فيما يقصد به اثبات دعوى من الدعاوى، وقوله: فِي رَبِّهِ متعلق بحاج، و الضمير لإبراهيم كما يشعر به قوله تعالى فيما بعد: قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، و هذا الذي حاج إبراهيم عليه السلام في ربه هو الملك الذي كان يعاصره و هو نمروود من ملوك بابل على ما يذكره التاريخ و الروايه.

و بالتأمل في سياق الآيه، و الذي جرى عليه الامر عند الناس و لا يزال يجرى عليه يعلم معنى هذه المحاجه التي ذكرها الله تعالى في هذه الآيه، و الموضوع الذي وقعت فيه محاجتهما (1).

قوله تعالى: أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ، ظاهر السياق: انه من قبيل قول القائل: أساء الى فلان لانى احسنت اليه يريد: ان احسانى اليه كان يستدعى ان يحسن الى لكنه بدل الاحسان من الإساءه فأساء إلى، و قولهم: و اتق شر من احسنت اليه، قال الشاعر:

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر

و حسن فعل كما يجزى سنمار

فالجمله أعنى قوله: أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ بتقدير لام التعليل و هى من قبيل وضع الشىء موضع ضده للشكوى و الاستعداد و نحوه، فإن عدوان نمروود و طغيانه في هذه المحاجه كان ينبغى ان يعلل بضد انعام الله عليه بالملك، لكن لما لم يتحقق من الله في حقه الا الإحسان اليه و ايتائه الملك فوضع في موضع العله فدل على كفرانه لنعمه الله فهو بوجه كقوله تعالى:

فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا (القصص ٨) فهذه نكته في ذكر ايتائه

ص: ٣٣٨

و هناك نكته اخرى و هي:الدلاله على رداءه دعواه من رأس،و ذلك انه انما كان يدعى هذه الدعوى لملك آتاه الله تعالى من غير ان يملكه لنفسه،فهو انما كان نمرود الملك ذا السلطه و السطوه بنعمه من ربه،و أما هو في نفسه فلم يكن الا واحدا من سواد الناس لا- يعرف له وصف،و لا- يشار اليه بنعت،و لهذا لم يذكر اسمه و عبر عنه بقوله: الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ، دلالة على حقاره شخصه و حسه أمره.

و اما نسبه ملكه الى ايتاء الله تعالى فقد مر في المباحث السابقة:انه لا محذور فيه،فإن الملك و هو نوع سلطنه منبسطه على الامه كسائر انواع السلطنه و قدره نعمه من الله و فضل يؤتیه من يشاء،و قد أودع في فطره الإنسان معرفته،و الرغبة فيه،فإن وضعه في موضعه كان نعمه و سعاده،قال تعالى: وَ ابْتِغِ فِيهَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ (القصص ٧٧)،و ان عدا طوره و انحرف به عن الصراط كان في حقه نقمه و بوارا،قال تعالى: أَلَمْ تَرِ إِلَى الَّذِينَ يَدَّٰلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ (إبراهيم ٢٨)،و قد مر بيان ان لكل شىء نسبه اليه تعالى على ما يليق بساحه قدسه تعالى و تقدس من جهه الحسن الذى فيه دون جهه القبح و المساءه.

قوله تعالى: قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ ،الحياه و الموت و إن كانا يوجدان في غير جنس الحيوان ايضا كالنبات،و قد صدقه القرآن كما مر بيانه في تفسير آيه الكرسي،لكن مراده عليه السلام منهما اما خصوص الحياه و الممات الحيوانيين أو الاعم الشامل له لإطلاق اللفظ،و الدليل على ذلك قول نمرود:أنا أحيى و أميت،فإن هذا الذى ادعاه لنفسه لم يكن من قبيل إحياء النبات بالحرث و الغرس مثلا،و لا احياء الحيوان بالسفاد و التوليد مثلا، فإن ذلك و أشباهه كان لا يختص به بل يوجد في غيره من أفراد الانسان،و هذا يؤيد ما وردت به الروايات:انه أمر بإحضار رجلين ممن كان في سجنه فأطلق احدهما و قتل الآخر،و قال

عند ذلك:أنا أحيى و أميت.

و انما أخذ عليه السّلام فى حجته الاحياء و الاماته لانهما أمران ليس للطبيعه الفاعله للحياه فيهما صنع، و خاصه الحياه التى فى الحيوان حيث تستتبع الشعور و الاراده و هما أمران غير ماديين قطعاً، و كذا الموت المقابل لها، و الحجه على ما فيها من السطوع و الوضوح لم تنجح فى حقهم، لانه انحطاطهم فى الفكر و خبطهم فى التعقل كان فوق ما كان يظنه عليه السّلام فى حقهم، فلم يفهموا من الاحياء و الاماته إلا- المعنى المجازى الشامل لمثل الاطلاق و القتل، فقال نمرود: انا أحيى و أميت و صدقه من حضره، و من سياق هذه المحاجه يمكن أن يحسد المتأمل ما بلغ اليه الانحطاط الفكرى يومئذ فى المعارف و المعنويات، و لا ينافى ذلك الارتقاء الحضارى و التقدم المدنى الذى يدل عليه الآثار و الرسوم الباقية من بابل كده و مصر الفراعنه و غيرهما، فإن المدنيه الماديه أمر و التقدم فى معنويات المعارف أمر آخر، و فى ارتقاء الدنيا الحاضره فى مدنيته و انحطاطها فى الاخلاق و المعارف المعنويه ما تسقط به هذه الشبهه.

و من هنا يظهر: وجه عدم أخذه عليه السّلام فى حجته مسئله احتياج العالم بأسره الى الصانع الفاطر للسموات و الارض كما اخذ به فى استبصار نفسه فى بادى أمره على ما يحكيه الله عنه بقوله: **إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ خَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** (الأنعام ٧٩/)، فإن القوم على اعترافهم بذلك بفطرتهم اجمالاً- كانوا أنزل سطحاً من ان يعقلوه على ما ينبغي ان يعقل عليه بحيث ينجح احتجاجه و يتضح مراده عليه السّلام، و ناهيك فى ذلك ما فهموه من قوله: **رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ** .

قوله تعالى: **قَالَ أَنَا أَحْيِي وَ أُمِيتُ**، أى فأنا ربك الذى وصفته بأنه يحيى و يميت.

قوله تعالى: **فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ**، لما ايس عليه السّلام من مضى احتجاجه بأن ربه الذى يحيى و يميت، لسوء فهم الخصم و تمويهه و تليسه الامر على من حضر عندهما عدل عن بيان ما هو مراده من الاحياء

و الاماتة الي حجه أخرى، إلا- انه بنى هذه الحجة الثانية على دعوى الخصم فى الحجة الاولى كما يدل عليه التفريع بالفاء فى قوله: فَإِنَّ اللَّهَ، الخ؛ والمعنى: إن كان الامر كما تقول: انك ربي و من شأن الرب ان يتصرف فى تدبير امر هذا النظام الكونى فالله سبحانه يتصرف فى الشمس ياتيانها من المشرق فتصرف انت ياتيانها من المغرب حتى يتضح انك رب كما ان الله رب كل شىء أو انك الرب فوق الارباب فبهت الذى كفر، و انما فرع الحجة على ما تقدمها لثلا يظن ان الحجة الاولى تمت لنمرود و انتجت ما ادعاه، و لذلك ايضا قال: فإن الله و لم يقل: فإن ربي لأن الخصم استفاد من قوله: ربي سوء و طبقه على نفسه بالمغالطة فأتى عليه السلام ثانيا بلفظه الجلاله ليكون مصونا عن مثل التطبيق السابق! و قد مر بيان ان نمرود ما كان يسعه ان يتفوه فى مقابل هذه الحجة بشىء دون ان يبهت فيسكت.

قوله تعالى: وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ، ظاهر السياق انه تعليل لقوله فبهت الذى كفر فبهته هو عدم هدايه الله سبحانه إياه لا كفره، و بعبارة اخرى معناه ان الله لم يهده فبهت لذلك و لو هداه لغلب على ابراهيم فى الحجة لا انه لم يهده فكفر لذلك و ذلك لان العناية فى المقام متوجهة الى محاجته ابراهيم عليه السلام لا الى كفره و هو ظاهر.

و من هنا يظهر: ان فى الوصف إشعارا بالعليه أعنى: ان السبب لعدم هدايه الله الظالمين هو ظلمهم كما هو كذلك فى سائر موارد هذه الجملة من كلامه تعالى كقوله: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ وَ هُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلَامِ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (الصف ٧)، و قوله: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (الجمعه ٥)، و نظير الظلم الفسق فى قوله تعالى: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الفَاسِقِينَ (الصف ٥).

و بالجملة الظلم و هو الانحراف عن صراط العدل و العدول عما ينبغى من العمل الى غير ما ينبغى موجب لعدم الاهتداء الى الغايه المقصوده، و مؤد الى الخيبه و الخسران بالآخره، و هذه

من الحقائق الناصعه التي ذكرها القرآن الشريف و أكد القول فيها في آيات كثيرة (١).

قوله تعالى: أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَ هِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا، الخاويه هي الخاليه يقال: خوت الدار تخوى خواء اذا خلت، و العروش جمع العرش و هو ما يعمل مثل السقف للكرم قائما على أعمده، قال تعالى: جَدَاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَ غَيْرِ مَّعْرُوشَاتٍ (الأنعام/١٤١)، و من هنا أطلق على سقف البيت العرش، لكن بينهما فرقا، فإن السقف هو ما يقوم من السطح على الجدران و العرش هو السقف مع الاركان التي يعتمد عليها كهيئه عرش الكرم، و لذا صح أن يقال في الديار أنها خاليه على عروشها و لا يصح أن يقال: خاليه على سقفها.

قوله تعالى: قَالَ أَنَّى يُخَيَّبِي هَذِهِ اللَّهُ، أى أنى يحيى الله أهل هذه القرية ففيه مجاز كما في قوله تعالى: وَ شِئْلِ الْقَرْيَةِ (يوسف/٨٢).

و إنما قال هذا القول استعظاما للأمر و لقدرة الله سبحانه من غير استبعاد يؤدي الى الانكار أو ينشأ منه، و الدليل على ذلك قوله على ما حكى الله تعالى عنه في آخر القصة: أعلم أن الله على كل شيء قدير و لم يقل: الآن كما في ما يماثله من قوله تعالى حكاية عن امرأه العزيز:

الآن حَصَّصَ الْحَقُّ (يوسف/٥١)، و سيجىء توضيحه قريبا.

على أن الرجل نبي مكلم و آيه مبعوثه الى الناس و الانبياء معصومون حاشاهم عن الشك و الارتياب فى البعث الذى هو أحد اصول الدين.

قوله تعالى: فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ، ظاهره توفيه بقبض روحه و إبقائه على هذا الحال مائه عام ثم إحيائه برد روحه إليه.

قوله تعالى: قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ

ص: ٣٤٢

١- ١). البقره ٢٥٨-٢٦٠ كلام فى الاحسان و هدايته و الظلم و اضلاله.

للإمام، اللبث هو المكث و ترديد الجواب بين اليوم و بعض اليوم يدل على اختلاف وقت إمامته و إحيائه كأوائل النهار و أواخره، فحسب الموت و الحياه نوما و انتباها، ثم شاهد اختلاف وقتيهما فتردد في تخلل الليله بين الوقتين و عدم تخللها فقال يوما (لو تخللت الليله) أو بعض يوم (لو لم تتخلل) قال: بل لبثت مائه عام.

قوله تعالى: فَأَنْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَ شَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ -الى قوله- لَحْمًا، سياق هذه الجمل في أمره عجيب فقد كرر فيها قوله: انظر ثلاث مرات و كان الظاهر أن يكتفى بواحد منها، و ذكر فيها أمر الطعام و الشراب و الحمار و الظاهر السابق الى الذهن أنه لم يكن الى ذكرها حاجه، و جيء بقوله: وَ لِنَجْعَلَمَكَ مَتَخَلِّلا فِي الْكَلَامِ و كان الظاهر أن يتأخر عن جمله: و انظر الى العظام، على ان بيانه ما استعظمه هذا المار بالقريه- و هو احياء الموتى بعد طول المده و عروض كل تغير عليها- قد حصل بإحيائه نفسه بعد الموت فما الموجب لان يؤمر ثانيا بالنظر الى العظام؟ لكن التدبر في أطراف الآيه الشريفه يوضح خصوصيات القصة إيضاحا ينحل به العقده و تنجلي الشبهه المذكوره (1).

قوله تعالى: فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَّمَ كُلَّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، رجوع منه بعد التبين الى علمه الذي كان معه قبل التبين، كأنه عليه السلام لما خطر بباله خاطر الذي ذكره بقوله: أَنِّي يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ أَقْنَعُ نَفْسَهُ بِمَا عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ بِالْقُدْرَةِ الْمَطْلُوقَةِ ثُمَّ لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ لَهُ الْأَمْرَ بِيَانِ إِشْهَادٍ وَ عِيَانِ رَجَعَ إِلَىٰ نَفْسِهِ وَ صَدَّقَ مَا اعْتَمَدَ عَلَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ، و قال لم تزل تنصح لي و لا تخونني في هدايتك و تقويمك و ليس ما لا تزال نفسى تعتمد عليه من كون القدره مطلقه جهلا، بل علم يليق بالاعتماد عليه.

و هذا أمر كثير النظائر فكثيرا ما يكون للإنسان علم بشيء ثم يخطر بباله و يهجمس في نفسه

ص: ٣٤٣

خاطر ينافيه، لا للشك و بطلان العلم، بل لاسباب و عوامل اخرى فيقنع نفسه حتى تنكشف الشبهه ثم يعود فيقول أعلم أن كذا كذا و ليس كذا كذا فيقرر بذلك علمه و يطيب نفسه!

قوله تعالى: **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ**، قد مر أنه معطوف على مقدر و التقدير: و اذكر اذ قال، الخ؛ و هو العامل في الظرف، و قد احتمل بعضهم ان يكون عامل الظرف هو قوله: **قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنُ**، و ترتيب الكلام: أو لم تؤمن اذ قال إبراهيم رب أرنى، الخ؛ و ليس بشيء.

و فى قوله: **أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ**، دلالة:

أولا على انه عليه السّلام إنما سأل الرؤيه دون البيان الاستدلالي، فإن الانبياء و خاصه مثل النبي الجليل إبراهيم الخليل ارفع قدرا من ان يعتقد البعث و لا حجه له عليه، و الاعتقاد النظرى من غير حجه عليه إما اعتقاد تقليدى أو ناش عن اختلال فكرى و شىء منهما لا ينطبق على ابراهيم عليه السّلام، على انه عليه السّلام إنما سأل ما سأل بلفظ كيف، و انما يستفهم بكيف عن خصوصيه وجود الشىء لا- عن اصل وجوده فإنك اذا قلت: أ رأيت زيدا كان معناه السؤال عن تحقق أصل الرؤيه، و اذا قلت: كيف رأيت زيدا كان أصل الرؤيه مفروغا عنه و انما السؤال عن خصوصيات الرؤيه، فظهر انه عليه السّلام انما سأل البيان بالإراءه و الاشهاد لا بالاحتجاج و الاستدلال.

و ثانيا: على ان ابراهيم عليه السّلام إنما سأل أن يشاهد كيفيه الاحياء لا أصل الاحياء كما أنه ظاهر قوله: **كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ**، و هذا السؤال متصور على وجهين:

الوجه الاول: أن يكون سؤالا عن كيفيه قبول الأجزاء الماديه الحياه، و تجمعها بعد التفرق و التبديد، و تصورها بصوره الحى، و يرجع محصله الى تعلق قدره بالاحياء بعد الموت و الفناء.

و الوجه الثانى: أن يكون عن كيفيه إفاضه الله الحياه على الاموات و فعله بأجزائها الذى به

تلبس الحياه، و يرجع محصله الى السؤال عن السبب و كيفيه تأثيره، و هذا بوجه هو الذى يسميه الله سبحانه بملكوت الاشياء فى قوله عز من قائل: **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ (يس ٨٣).**

و انما سأل ابراهيم عليه السلام عن الكيفيه بالمعنى الثانى دون المعنى الاول: أما أولا: فلأنه قال:

كيف تحيى الموتى، بضم التاء من الاحياء فسأل عن كيفيه الاحياء الذى هو فعل ناعت لله تعالى و هو سبب حياه الحى بأمره، و لم يقل: كيف تحيى الموتى، بفتح التاء من الحياه حتى يكون سؤالاً- عن كيفيه تجمع الاجزاء و عودها الى صورتها الاولى و قبولها الحياه، و لو كان السؤال عن الكيفيه بالمعنى الثانى لكان من الواجب أن يرد على الصوره الثانيه، و اما ثانياً:

فلأنه لو كان سؤاله عن كيفيه قبول الاجزاء للحياه لم يكن لاجراء الامر بيد ابراهيم وجه، و لكفى فى ذلك أن يريد الله احياء شىء من الحيوان بعد موته، و اما ثالثاً: فلأنه كان اللازم على ذلك أن يختم الكلام بمثل أن يقال: و اعلم ان الله على كل شىء قدير لا- بقوله: **وَ اعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**، على ما هو المعهود من دأب القرآن الكريم فإن المناسب للسؤال المذكور هو صفه القدره دون صفتى العزه و الحكمه فإن العزه و الحكمه- و هما وجدان الذات كل ما تفقده و تستحقه الاشياء و احكامه فى امره- انما ترتبطان بإفاضه الحياه لا استفاضه ماده لها فافهم ذلك (١).

قوله تعالى: **قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنُ قَالاَ بَلَىٰ وَ لَكِن لَّيَطْمَئِنُّ قَلْبِي**، بلى كلمه يرد به النفى و لذلك ينقلب به النفى إثباتاً كقوله تعالى **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ (الأعراف ١٧٢)** و لو قالوا نعم لكان كفراً، و الطمأنينه و الاطمينان سكون النفس بعد انزعاجها و اضطرابها، و هو مأخوذ من قولهم: اطمأنت الارض و ارض مطمئنه اذا كانت فيه انخفاض يستقر فيها

ص: ٣٤٥

الماء اذا سال إليها و الحجر اذا هبط إليها.

و قد قال تعالى: أَوْ لَمْ تُؤْمِنُ، و لم يقل: أَمْ لَمْ تُوْمِنَ لِلشعار بأن للسؤال و الطلب محلا- لكنه لا- ينبغي ان يقارن عدم الإيمان بالاحياء: و لو قيل: أَمْ لَمْ تُوْمِنَ دل على ان المتكلم تلقى السؤال منبعثا عن عدم الايمان، فكان عتابا و ردعا عن مثل هذا السؤال، و ذلك ان الواو للجميع، فكان الاستفهام معه استفهاما عن ان هذا السؤال هل يقارنه عدم الايمان، لا استفهاما عن وجه السؤال حتى ينتج عتابا و ردعا.

و الايمان مطلق فى كلامه تعالى، و فيه دلالة على ان الايمان بالله سبحانه لا يتحقق مع الشك فى أمر الاحياء و البعث، و لا ينافى ذلك اختصاص المورد بالاحياء لأن المورد لا يوجب تخصيص عموم اللفظ و لا تقييد إطلاقه.

و كذا قوله تعالى حكاية عنه عليه السلام: لِيُطَمِّئَنَّ قَلْبِي، مطلق يدل على كون مطلوبه عليه السلام من هذا السؤال حصول الاطمينان المطلق و قطع منابت كل خطور قلبى و اعراقه، فإن الوهم فى إدراكاتها الجزئية و احكامها لما كانت معتكفه على باب الحس و كان جل أحكامها و تصديقاتها فى المدركات التى تتلقاها من طريق الحواس فهى تنقبض عن مطاوعه ما صدقه العقل، و إن كانت النفس مؤمنه موقفه به، كما فى الاحكام الكليه العقلية الحقه من الامور الخارجه عن الماده الغائبه عن الحس فإنها تستنكف عن قبولها و ان سلمت مقدماتها المنتجه لها، فتخطر بالبال أحكاما مناقضه لها، ثم تثير الاحوال النفسانية المناسبه لاستنكافها فتقوى و تتأيد بذلك فى تأثيرها المخالف، و ان كانت النفس من جهه عقلها موقفه بالحكم مؤمنه بالأمر فلا تضرها إلا أذى، كما ان من بات فى دار مظلمه فيها جسد ميت فإنه يعلم: ان الميت جماد من غير شعور و إرادته فلا يضر شيئا، لكن الوهم تستنكف عن هذه النتيجة و تستدعى من المتخيله ان تصور للنفس صوراً هائله موحشه من أمر الميت ثم تهيج صفه الخوف فتتسلط على النفس، و ربما بلغ الى حيث يزول العقل أو تفارق النفس.

فقد ظهر: أن وجود الخطورات المنافية للعقائد اليقينية لا ينافي الإيمان و التصديق دائما، غير أنها تؤذى النفس، و تسلب السكون و القرار منها، و لا يزول وجود هذه الخواطر إلا بالحس أو المشاهده، و لذلك قيل: إن للمعانيه أثرا لا يوجب مع العلم، و قد أخبر الله تعالى موسى فى الميقات بضلال قومه بعباده العجل فلم يوجب ذلك ظهور غضبه حتى اذا جاءهم و شاهدتهم و عاين أمرهم غضب و ألقى الألواح و أخذ برأس أخيه يجره اليه.

و قد ظهر من هنا و مما مر سابقا أن ابراهيم عليه السّلام ما كان يسأل المشاهده بالحس الذى يتعلق بقبول أجزاء الموتى الحياه بعد فقدها، بل انما كان يسأل مشاهده فعل الله سبحانه و أمره فى إحياء الموتى، و ليس ذلك بمحسوس و ان كان لا ينفك عن الامر المحسوس الذى هو قبول الأجزاء الماديه للحياه بالاجتماع و التصور بصوره الحى، فهو عليه السّلام انما كان يسأل حق اليقين.

قوله تعالى: **﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَهُ مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾**، صرهن بضم الصاد على إحدى القراءتين من صار يصور اذا قطع أو امال، أو بكسر الصاد على القراءه الأخرى من صار يصير بأحد المعنيين، و قرائن الكلام يدل على إرادته معنى القطع، و تعديته يالى تدل على تضمين معنى الإماله. فالمعنى: اقطعهن ممبلا اليك أو أملهن قاطعا إياهن على الخلاف فى التضمين من حيث التقدير.

و كيف كان فقوله تعالى: **﴿فَخُذْ أَرْبَعَهُ مِنَ الطَّيْرِ﴾**، الخ؛ جواب عن ما سأله ابراهيم عليه السّلام بقوله: **﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾**، و من المعلوم و جوب مطابقه الجواب للسؤال، فبلاغه الكلام و حكمه المتكلم يمنعان عن اشتمال الكلام على ما هو لغو زائد لا يترتب على وجوده فائده عائده الى الغرض المقصود من الكلام و خاصه القرآن الذى هو خير كلام القاه خير متكلم الى خير سامع واع، و ليست القصه على تلك البساطه التى تتراءى منها فى بادية

النظر، و لو كان كذلك لتم الجواب بإحياء ميت ما كيف كان، و لكان الزائد على ذلك لغوا مستغنى عنه و ليس كذلك، و لقد أخذ فيها قيود و خصوصيات زائده على أصل المعنى، فاعتبر في ما أريد إحيائه أن يكون طيرا، و ان يكون حيا، و ان يكون ذا عدد أربعة، و ان يقتل و يخلط و يمزج أجزائها، و ان يفرق الاجزاء المختلطة أبعاضا ثم يوضع كل بعض في مكان بعيد من الآخر كقله هذا الجبل و ذاك الجبل، و أن يكون الإحياء بيد ابراهيم عليه السلام (نفس السائل) بدعوته إياهن، و ان يجتمع الجميع عنده.

فهذه كما ترى خصوصيات زائده في القصة، هي لا محاله دخيله في المعنى المقصود افادته، و قد ذكروا لها وجوها من النكات لا تزيد الباحث الا عجباً (يعلم صحه ما ذكرناه بالرجوع الى مفصلات التفاسير).

و كيف كان فهذه الخصوصيات لا- بد ان تكون مرتبطة بالسؤال، و الذي يوجد في السؤال -و هو قوله: رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى- أمران.

أحدهما: ما اشتمل عليه قوله: تُحْيِي و هو ان المسئول مشاهده الإحياء من حيث انه وصف لله سبحانه لا- من حيث انه وصف لأجزاء المادة الحامله للحياه.

و ثانيهما: ما اشتمل عليه لفظ الموتى من معنى الجمع فإنه خصوصيه زائده.

أما الاول: فيرتبط به في الجواب أجزاء هذا الامر بيد ابراهيم نفسه حيث يقول: فخذ، فصرهن، ثم اجعل، بصيغه الامر و يقول ثم ادعهن يأتينك، فإنه تعالى جعل إتيانهن سعيا و هو الحياه مرتبطا متفرعا على الدعوه، فهذه الدعوه هي السبب الذي يفيض عنه حياه ما أريد إحيائه، و لا إحياء إلا بأمر الله، فدعوه ابراهيم إياهن بأمر الله، قد كانت متصله نحو اتصال بأمر الله الذي منه تترشح حياه الاحياء، و عند ذلك شاهده ابراهيم و رأى كيفيه فيضان الامر بالحياه، و لو كانت دعوه ابراهيم إياهن غير متصله بأمر الله الذي هو ان يقول لشيء أراده: كن فيكون، كمثل أقوالنا غير المتصله إلا بالتخيل كان هو أيضا كمثلنا اذ قلنا لشيء كن فلا

يكون، فلا تأثير جزافي في الوجود.

و اما الثانى:فقوله كيف تحيى الموتى تدل على ان لكثرة الاموات و تعددها دخلا- فى السؤال، و ليس إلا ان الاجساد بموتها و تبدد أجزائها و تغير صورها و تحول أحوالها تفقد حاله التميز و الارتباط الذى بينها فتضل فى ظلمه الفناء و البوار، و تصير كالأحاديث المنسيه لا خبر عنها فى خارج و لا ذهن فكيف تحيط بها القوه المحييه و لا محاط فى الواقع.

و هذا هو الذى أورده فرعون على موسى عليه السّلام و أجاب عنه موسى بالعلم كما حكاه الله تعالى بقوله قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَىٰ (طه ٥١).

و بالجملة فأجابه الله تعالى بأن أمره بأن يأخذ أربعة من الطير(و لعل اختيار الطير لكون هذا العمل فيها أسهل و أقل زمانا) فيشاهد حياتها و يرى اختلاف اشخاصها و صورها، و يعرفها معرفه تامه أولا- ثم يقتلها و يخلط أجزائها خلطا دقيقا ثم يجعل ذلك ابعاضا، و كل بعض منها على جبل لتفقد التميز و التشخص، و تزول المعرفه، ثم يدعوهم يأتينه سعيًا، فإنه يشاهد حينئذ ان التميز و التصور بصوره الحياه كل ذلك تابع للدعوه التى تتعلق بأنفسها، أى إن أجسادها تابعه لانفسها لا بالعكس، فإن البدن فرع تابع للروح لا بالعكس، بل نسبه البدن الى الروح بوجه نسبه الظل الى الشاخص، فاذا وجد الشاخص تبع وجوده وجود الظل و الى أى حال تحول الشاخص أو أجزائه تبعه فيه الظل حتى اذا انعدم تبعه فى الانعدام، و الله سبحانه اذا أوجد حيا من الاحياء، أو أعاد الحياه الى أجزاء مسبوقة بالحياه فإنما يتعلق بإيجاده بالروح الواجده للحياه أولا ثم يتبعه أجزاء المادة بروابط محفوظه عند الله سبحانه لا نحيط بها علما فيتعين الجسد بتعين الروح من غير فصل و لا مانع و بذلك يشعر قوله تعالى: ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا أى مسرعات مستعجلات.

و هذا هو الذى يستفاد من قوله تعالى: وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ

بَيْلٌ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (السجده ١١/١)، وقد مر بعض الكلام في الآيه في البحث عن تجرد النفس و سياى تفصيل الكلام فى محله إنشاء الله.

فقوله تعالى: فَخَذُّ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ انما امر بذلك ليعرفها فلا يشك فيها عند إعادته الحياه إليها و لا ينكرها، و ليرى ما هى عليه من الاختلاف و التميز أولا و زوالهما ثانيا، و قوله:

فَصَيَّرَهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَيَّ كُلَّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا أَى اذبحهن و بدد أجزاءهن و اخلطها ثم فرقها على الجبال الموجوده هناك لتباعده الاجزاء و هى غير متميزه، و هذا من الشواهد على ان القصه انما وقعت بعد مهاجره ابراهيم من أرض بابل الى سوره فإن أرض بابل لا جبل بها، و قوله ثم ادعهن، أى ادع الطيور يا طاوس و يا فلان و يا فلان، و يمكن ان يستفاد ذلك مضافا الى دلالة ضمير «هن» الراجعه الى الطيور من قوله: أَدْعُهُنَّ، فإن الدعوه لو كانت لأجزاء الطيور دون أنفسها كان الانسب ان يقال: ثم نادهن فإنها كانت على جبال بعيده عن موقفه عليه السّلام و اللفظ المستعمل فى البعيد خاصه هو النداء دون الدعاء، و قوله: يَا تَيْنَكَ سَعِيًّا، أى يتجسدن و اتصفن بالاتيان و الاسراع اليك.

قوله تعالى: وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، أى عزيز لا- يفقد شيئا بزواله عنه، حكيم لا- يفعل شيئا الا- من طريقه اللائق به، فيوجد الاجساد بإحضار الأرواح و ايجادها دون العكس.

و فى قوله تعالى: وَاعْلَمْ أَنَّ، الخ؛ دون ان يقال ان الله، الخ؛ دلالة على أن الخطور القلبي الذى كان ابراهيم يسأل ربه المشاهده ليظمن قلبه من ناحيته كان راجعا الى حقيقه معنى الاسمين: العزيز الحكيم، فأفاده الله سبحانه بهذا الجواب العلم بحقيقتهما (1).

ص: ٣٥٠

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَىٰ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣) أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْمَأْذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ إِنْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثِيَّتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) أَيُّدُ أَحَدِكُمْ أَنَّ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصْحَابُ الْكِبَرِ وَ لَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْطَازٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦) أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧) الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨) يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩) وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٢٧٠) إِنْ تَدِيدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَ يُكْفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١) لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا-إِنْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوفِّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تظَلْمُونَ (٢٧٢) لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَاهُ اللَّهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْئَلُونَ فِي الْأَرْضِ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْيَاءً مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤)

قوله تعالى: **مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةِ الْخَمْصِ**؛ المراد بسبيل الله كل أمر ينتهي الى مرضاته سبحانه لغرض ديني فعل الفعل لأجله، فإن الكلمة في الآية مطلقه، و ان كانت الآية مسبوقة بآيات ذكر فيها القتال في سبيل الله، و كانت كلمه، في سبيل الله، مقارنه للجهاد في غير واحد من الآيات، فإن ذلك لا يوجب التخصيص و هو ظاهر.

قوله تعالى: **أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُيُوبَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٍ**، السنبل معروف و هو على فنل، قيل الأصل في معنى مادته الستر سمي به لانه يستر الحبات التي تشتمل عليها في الأعلفه.

و من اسخف الإشكال ما أورد على الآية أنه تمثيل بما لا تحقق له في الخارج و هو اشتمال السنبله على مائه حبه، و فيه أن المثل كما عرفت لا يشترط فيه تحقق مضمونه في الخارج فالامثال التخيلية اكثر من ان تعد و تحصى، على ان اشتمال السنبله على مائه حبه و إنبات الحبه الواحده سبعمائه حبه ليس بعزيز الوجود.

قوله تعالى: وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ، أى يزيد على سبعمائه لمن يشاء فهو الواسع لا مانع من جوده و لا محدد لفضله كما قال تعالى: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً (البقره ٢٤٥/)، فأطلق الكثره و لم يقيدها بعدد معين.

قوله تعالى: الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مِمَّا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَى الْخ؛ الاتباع للحقوق و اللاحاق، قال تعالى: فَأَتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (الشعراء ٦٠/) أى لحقوهم، و قال تعالى: وَ أَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً (القصص / ٤٢)، أى ألحقناهم، و المن هو ذكر ما ينغص المعروف كقول المنعم للمنع عليه: أنعمت عليك بكذا و كذا و نحو ذلك، و الاصل فى معناه على ما قيل القطع، و منه قوله تعالى: لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (فصلت ٨/)، أى غير مقطوع، و الاذى الضرر العاجل أو الضرر اليسير، و الخوف توقع الضرر، و الحزن الغم الذى يغلظ على النفس من مكروه واقع أو كالواقع.

قوله تعالى: قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَ مَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صِدْقَةٍ الْخ؛ المعروف من القول ما لا- ينكره الناس بحسب العاده، و يختلف باختلاف الموارد، و الاصل فى معنى المغفره هو الستر، و الغنى مقابل الحاجه و الفقر، و الحلم السكوت عند المكروه من قول أو فعل.

و ترجيح القول المعروف و المغفره على صدقه يتبعها اذى ثم المقابله يشهد بأن المراد بالقول المعروف الدعاء أو لفظ آخر جميل عند رد السائل اذا لم يتكلم بما يسوء المسئول عنه، و الستر و الصفح اذا شفح سؤاله بما يسوؤه و هما خير من صدقه يتبعها اذى، فإن اذى المنفق للمنفق عليه يدل على عظم إنفاقه و المال الذى أنفقه فى عينه، و تأثره عما يسوؤه من السؤال، و هما علتان يجب أن تراحا عن نفس المؤمن، فإن المؤمن متخلق بأخلاق الله، و الله سبحانه غنى لا- يكبر عنده ما أنعم و جاد به، حلیم لا يتعجل فى المؤاخذه على السيئه، و لا يغضب عند كل جهاله، و هذا معنى ختم الآيه بقوله: وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ .

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ الخ؛ تدل الآيه على حبط الصدقه بلحوق المن و الأذى، و ربما يستدل بها على حبط كل معصيه أو الكبيره خاصه لما يسبقها من الطاعات، و لا دلالة فى الآيه على غير المن و الأذى بالنسبه الى الصدقه و قد تقدم إشباع الكلام فى الحبط.

قوله تعالى: كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ، لما كان الخطاب للمؤمنين، و المرائى غير مؤمن كما ذكره الله سبحانه لانه لا يقصد بأعماله وجه الله لم يعلق النهى بالرياء كما علقه على المن و الأذى، بل انما شبه المتصدق الذى يتبع صدقته بالمن و الأذى بالمرائى فى بطلان الصدقه، مع أن عمل المرائى باطل من رأس و عمل المانّ و المؤذى وقع أولا صحيحا ثم عرضه البطلان.

و اتحاد سياق الافعال فى قوله: يُنْفِقُ مَالَهُ، و قوله: وَلَا يُؤْمِنُ مِنْ دُونِ أَنْ يُقَالَ: و لم يؤمن يدل على أن المراد من عدم ايمان المرائى فى الإنفاق بالله و اليوم الآخر عدم ايمانه بدعوه الإنفاق الذى يدعو إليها الله سبحانه، و يعد عليه جزيل الثواب، اذ لو كان يؤمن بالداعى فى دعوته هذه، و بيوم القيامه الظاهر فيه الجزاء لقصده فى فعله وجه الله، و أحب و اختار جزيل الثواب، و لم يقصد به رياء الناس، فليس المراد من عدم ايمان المرائى عدم ايمانه بالله سبحانه رأسا.

و يظهر من الآيه: ان الرياء فى عمل يستلزم عدم الايمان بالله و اليوم الآخر فيه.

قوله تعالى: فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ ثَرَابٌ الى آخر الآيه؛ الضمير فى قوله:

فَمَثَلُهُ راجع الى الذى ينفق ماله رياء الناس و المثل له، و الصفوان و الصفا الحجر الأملس و كذا الصلد، و الوايل: المطر الغزير الشديد الوقع.

و الضمير فى قوله: لَا يَقْدِرُونَ راجع الى الذى ينفق رياء لأنه فى معنى الجمع، و الجملة تبين وجه الشبه و هو الجامع بين المشبه و المشبه به، و قوله تعالى: وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الْكَافِرِينَ بِيَانٍ لِلْحُكْمِ بِوَجْهِ عَامٍ وَهُوَ أَنَّ الْمَرَاتِي فِي رِيَائِهِ مِنْ مَصَادِيقِ الْكَافِرِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ، وَلِذَلِكَ أَفَادَ مَعْنَى التَّعْلِيلِ.

و خِلاصُهُ مَعْنَى الْمَثَلِ: أَنَّ حَالَ الْمَرَاتِي فِي إِتْفَاقِهِ رِئَاءً وَ فِي تَرْتِبِ الثَّوَابِ عَلَيْهِ كَحَالِ الْحِجْرِ الْأَمْلَسِ الَّذِي عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ التُّرَابِ إِذَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ وَابِلَ الْمَطَرِ، فَإِنَّ الْمَطَرَ وَ خَاصَّهُ وَابِلُهُ هُوَ السَّبَبُ الْبَارِزُ لِحَيَاةِ الْأَرْضِ وَ اخْضِرَارِهَا وَ تَزِينِهَا بِزِينَةِ النَّبَاتِ، إِلَّا أَنَّ التُّرَابَ إِذَا وَقَعَ عَلَى الصَّفْوَانِ الصَّلْدِ لَا يَسْتَقِرُّ فِي مَكَانِهِ عِنْدَ نَزْوِلِ الْوَابِلِ بَلْ يَغْسِلُهُ الْوَابِلُ وَ يَبْقَى الصَّلْدُ الَّذِي لَا يَجْذِبُ الْمَاءَ، وَ لَا يَتْرَبِي فِيهِ بَذَرُ لِنَبَاتٍ، فَالْوَابِلُ وَ إِنْ كَانَ مِنْ أَظْهَرِ أَسْبَابِ الْحَيَاةِ وَ النَّمُوِّ وَ كَذَا التُّرَابِ لَكِنْ كَوْنُ الْمَحَلِّ صِلْدًا يَبْطُلُ عَمَلُ هَذَيْنِ السَّبَبَيْنِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ النِّقْصُ وَ الْقُصُورُ مِنْ جَانِبِهِمَا فَهَذَا حَالُ الصَّلْدِ.

وَ هَذَا حَالُ الْمَرَاتِي فَإِنَّهُ لَمَّا لَمْ يَقْصِدْ مِنْ عَمَلِهِ وَجْهَ اللَّهِ لَمْ يَتْرَبْ عَلَى عَمَلِهِ ثَوَابٌ وَ إِنْ كَانَ الْعَمَلُ كَالْإِتْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنَ الْأَسْبَابِ الْبَارِزَةِ لِتَرْتِبِ الثَّوَابِ، فَإِنَّهُ مَسْلُوبُ الْإِسْتِعْدَادِ لَا يَقْبَلُ قَلْبُهُ الرَّحْمَةَ وَ الْكِرَامَةَ.

وَ قَدْ ظَهَرَ مِنَ الْآيَةِ: أَنَّ قَبُولَ الْعَمَلِ يَحْتَاجُ إِلَى نِيَةِ الْإِخْلَاصِ وَ قِصْدِ وَجْهِ اللَّهِ، وَ قَدْ رَوَى الْفَرِيقَانِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: أَنَّهُ قَالَ: إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَ تَثْبِيْتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ، ابْتِغَاءَ الْمَرْضَاهِ هُوَ طَلْبُ الرِّضَا، وَ يَعُودُ إِلَى إِرَادَةِ وَجْهِ اللَّهِ، فَإِنَّ وَجْهَ الشَّيْءِ هُوَ مَا يُوَاجِهُكَ وَ يَسْتَقْبِلُكَ بِهِ، وَ وَجْهَهُ تَعَالَى بِالنِّسْبَةِ إِلَى عَبْدِهِ الَّذِي أَمَرَهُ بِشَيْءٍ وَ إِرَادَهُ مِنْهُ هُوَ رِضَايَتُهُ عَنِ فِعْلِهِ وَ امْتِثَالِهِ، فَإِنَّ الْأَمْرَ يَسْتَقْبَلُ الْأُمُورَ أَوَّلًا بِالْأَمْرِ فَإِذَا امْتَثَلَ اسْتَقْبَلَهُ بِالرِّضَا عَنْهُ، فَمَرْضَاهُ اللَّهُ عَنِ الْعَبْدِ الْمَكْلُوفِ بِتَكْلِيفٍ هُوَ وَجْهُهُ إِلَيْهِ، فَابْتِغَاءُ مَرْضَاهُ اللَّهُ هُوَ إِرَادَةُ وَجْهِهِ عَزَّ وَ جَلَّ.

وَ أَمَّا قَوْلُهُ: وَ تَثْبِيْتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ فَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ التَّصَدِيقَ وَ الْيَقِينَ. وَ قِيلَ: هُوَ

التثبت اى يتثبتون اين يضعون اموالهم، وقيل: هو التثبت فى الانفاق فإن كان لله امضى، و ان كان خالطه شىء من الرياء امسك، و قيل: التثبيت توطين النفس على طاعه الله تعالى، وقيل:

هو تمكين الله. و انت خبير بأن شيئا من الاقوال لا ينطبق على الآيه إلا بتكلف.

و الذى ينبغى ان يقال- و الله العالم- فى المقام: هو ان الله سبحانه لما اطلق القول اولا فى مدح الانفاق فى سبيل الله، و ان له عند الله عظيم الاجر اعترضه ان استثنى منه نوعين من الانفاق لا يرتضيهما الله سبحانه، و لا يترتب عليهما الثواب، و هما الانفاق رياء الموجب لعدم صحه العمل من رأس و الانفاق الذى يتبعه من أو أدى فإنه يبطل بهما و ان انعقد اولا صحيحا، و ليس يعرض البطلان، لهذين النوعين الا- من جهه عدم ابتغاء مرضاه الله فيه من رأس، أو لزوال النفس عن هذه النيه اعنى ابتغاء المرضاه ثانيا بعد ما كانت عليها اولا، فأراد فى هذه الآيه بيان حال الخاصه من أهل الانفاق الخالصه بعد استثناء المرئين و اهل المن و الاذى، و هم الذين ينفقون اموالهم ابتغاء وجه الله ثم يقرون انفسهم على الثبات على هذه النيه الطاهره الناميه من غير ان يتبعوها بما يبطل العمل و يفسده.

و من هنا يظهر ان المراد بابتغاء مرضاه الله ان لا يقصد بالعمل رثاء و نحوه مما يجعل النيه غير خالصه لوجه الله، و بقوله تثبिता من انفسهم تثبیت الانسان نفسه على ما نواه من النيه الخالصه، و هو تثبیت ناش من النفس واقع على النفس. فقوله تثبिता تميز و كلمه من نشويه و قوله انفسهم فى معنى الفاعل، و ما فى معنى المفعول مقدر. و التقدير تثبिता من انفسهم لانفسهم، أو مفعول مطلق لفعل من مادته.

قوله تعالى: كَمَثَلِ جَنِّ بَرَبُوهٖ اَصَابَهَا وَاِبِلٌ اِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الاصل فى ماده ربا الزيادة، و الربوه بالحركات الثلاث فى الرء الارض الجيده التى تزيد و تعلق فى نموها، و الاكل بضمين ما يؤكل من الشىء و الواحده أكله. و الطل اضعف المطر القليل الأثر.

و الغرض من المثل ان الانفاق الذى أريد به وجه الله لا يتخلف عن اثرها الحسن البته، فإن

العنايه الالهيه واقعه عليه متعلقه به لانحفاظ اتصاله بالله سبحانه و ان كانت مراتب العنايه مختلفه لاختلاف درجات النيه فى الخلوص، و اختلاف وزن الاعمال باختلافها، كما ان الجنه التى فى الربوه اذا اصابها المطر لم تلبث دون ان تؤتى أكلها ايتاء جيدا البته و إن كان إيتائها مختلفا فى الجوده باختلاف المطر النازل عليه من وابل و طل.

و لوجود هذا الاختلاف ذيل الكلام بقوله: **وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** أى لا يشتبه عليه امر الثواب، و لا يختلط عليه ثواب الاعمال المختلفه فيعطى ثواب هذا لذاك و ثواب ذاك لهذا.

قوله تعالى: **أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ** الخ؛ الود هو الحب و فيه معنى التمنى، و الجنه: الشجر الكثير الملتف كالبستان سميت بذلك لانها تجن الارض و تسترها و تقيها من ضوء الشمس و نحوه، و لذلك صح ان يقال: تجرى من تحتها الانهار، و لو كانت هى الارض بما لها من الشجر مثلا لم يصح ذلك لافادته خلاف المقصود، و لذلك قال تعالى فى مثل الربوه و هى الارض المعموره: **رَبُّوهُ ذَاتِ قَرَارٍ وَ مَعِينٍ** (المؤمنون ٥٠/١)، و كرر فى كلامه قوله: **جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** فجعل المعين (و هو الماء) فيها لا جاريا تحتها.

و من فى قوله: **مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ** للتبيين و يفيد معنى الغلبه دون الاستيعاب، فإن الجنه و البستان و ما هو من هذا القبيل إنما يضاف الى الجنس الغالب فيقال جنه العنب أو جنه من أعناب اذا كان الغالب فيها الكرم و هى لا- تخلو مع ذلك من شجر شتى، و لذلك قال تعالى ثانيا:

له فيها من كل الثمرات.

و الكبر كبر السن و هو الشيخوخه، و الذريه الاولاد، و الضعفاء جمع الضعيف، و قد جمع تعالى فى المثل بين إصابه الكبر و وجود الذريه الضعفاء لتثبيت مسيس الحاجه القطعيه الى الجنه المذكوره مع فقدان باقى الاسباب التى يتوصل إليها فى حفظ سعادته الحياه و تأمين المعيشه، فإن صاحب الجنه لو فرض شابا قويا لأمكنه ان يستريح الى قوه يمينه لو أصيبت

جنته بمصيبه، و لو فرض شيخا هرما من غير ذريه ضعفاء لم يسؤ حاله تلك المساءه لانه لا يرى لنفسه إلا أياما قلائل لا يبطئ عليه زوالها و انقضائها، و لو فرض ذا كبر و له اولاد أقوياء يقدرون على العمل و اكتساب المعيشه امكنهم ان يقتاتوا بما يكتسبون، و ان يستغنوا عنها بوجه! لكن اذا اجتمع هناك الكبر و الذريه الضعفاء، و احترقت الجنه انقطعت الاسباب عنهم عند ذلك، فلا صاحب الجنه يمكنه ان يعيد لنفسه الشباب و القوه أو الايام الخاليه حتى يهيئ لنفسه نظير ما كان قد هيأها، و لا لذريته قوه على ذلك، و لا لهم رجاء ان ترجع الجنه بعد الاحتراق الى ما كانت عليه من النضاره و الاثمار.

و الاعصار الغبار الذى يلتف على نفسه بين السماء و الارض كما يلتف الثوب على نفسه عند العصر.

و هذا مثل ضربه الله للذين ينفقون أموالهم ثم يتبعونه منا و أذى فيحبط عملهم و لا سبيل لهم الى إعادة العمل الباطل الى حال صحته و استقامته، و انطباق المثل على الممثل ظاهر، و رجا منهم التفكير لان امثال هذه الأفاعيل المفسده للأعمال انما تصدر من الناس و معهم حالات نفسانيه كحب المال و الجاه و الكبر و العجب و الشح، لا تدع للانسان مجال الثبت و التفكير و تميز النافع من الضار، و لو تفكروا لتبصروا.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ الخ؛ التيمم هو القصد و التعمد، و الخبيث ضد الطيب، و قوله: مِنْهُ متعلق بالخبيث، و قوله: تُنْفِقُونَ حال من فاعل لا- تيمموا، قوله: وَ لَسْتُمْ بِأَخْدِيهِ حال من فاعل تنفقون، و عامله الفعل، و قوله ان تغمضوا فيه فى تأويل المصدر، و اللام مقدر على ما قيل و التقدير إلا لاغماضكم فيه، أو المقدر باء المصاحبه و التقدير إلا بمصاحبه الاغماض.

و معنى الآيه ظاهر، و إنما بين تعالى كيفيه مال الانفاق، و انه ينبغى ان يكون من طيب المال لا من خبيثه الذى لا يأخذه المنفق إلا بإغماض، فإنه لا يتصف بوصف الجود و السخاء، بل

يتصور بصوره التخلص، فلا- يفيد حبا للصنيعه و المعروف و لا كمالا للنفس، و لذلك ختمها بقوله: وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ
أى راقبوا فى إنفاقكم غناه و حمده فهو فى عين غناه يحمد إنفاقكم الحسن فأنفقوا من طيب المال، أو انه غنى محمود لا ينبغي
ان تواجهوه بما لا يليق بجلاله جل جلاله.

قوله تعالى: الشَّيْطَانُ يُعِدُّكُمْ لِلْفَقْرِ وَ يَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ إقامه للحجه على ان اختيار خبيث المال للانفاق ليس بخير للمنفقين
بخلاف اختيار طيبه فإنه خير لهم، ففى النهى مصلحه أمرهم كما ان فى المنهى عنه مفسده لهم، و ليس إمساكهم عن انفاق طيب
المال و بذله إلا لما يرونه مؤثرا فى قوام المال و الثروه فتقبض نفوسهم عن الاقدام الى بذله بخلاف خبيثه فإنه لا قيمه له يعنى
بها فلا بأس بإنفاقه، و هذا من تسويل الشيطان يخوف أوليائه من الفقر، مع ان البذل و ذهاب المال و الانفاق فى سبيل الله و ابتغاء
مرضاته مثل البذل فى المعاملات لا يخلو عن العوض و الربح كما مر، مع ان الذى يغنى و يقنى هو الله سبحانه دون المال، قال
تعالى:

وَ أَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَ أَقْنَىٰ (النجم ٤٨).

و بالجملة لما كان إمساكهم عن بذل طيب المال خوفا من الفقر خطأ نبه عليه بقوله:

الشيطان يعدكم الفكر، غير انه وضع السبب موضع المسبب، أعنى انه وضع وعد الشيطان موضع خوف انفسهم ليدل على انه
خوف مضر لهم فإن الشيطان لا يأمر إلا بالباطل و الضلال إما ابتداء و من غير واسطه، و إما بالآخره و بواسطه ما يظهر منه انه حق.

و لما كان من الممكن ان يتوهم ان هذا الخوف حق و إن كان من ناحيه الشيطان دفع ذلك بإتباع قوله: الشَّيْطَانُ يُعِدُّكُمْ لِلْفَقْرِ
بقوله: وَ يَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ أولاً، فإن هذا الامسك و التثاقل منهم يهين فى نفوسهم ملكه الامسك و سجيته البخل، فيؤدى الى رد
أوامر الله المتعلقة بأموالهم و هو الكفر بالله العظيم، و يؤدى الى إلقاء أرباب الحاجه فى تهلكه الاعسار و الفقر و المسكنه التى
فيه تلف النفوس و انهتك الاعراض و كل جنايه و فحشاء، قال تعالى:

وَ مِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ فَاعْتَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ إِلَى ان قَالَ: الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (التوبه / ٧٩).

ثم ياتباعه بقوله: وَ اللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَ فَضْلًا وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ثانيًا، فإن الله قد بين للمؤمنين: ان هناك حقا و ضلالا لا ثالث لهما، و ان الحق و هو الطريق المستقيم هو من الله سبحانه، و ان الضلال من الشيطان، قال تعالى: فَمَّا ذَا بَعِدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ (يونس ٣٢)، و قال تعالى: قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ (يونس ٣٥)، و قال تعالى في الشيطان: إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (القصص ١٥)، و الآيات جميعا مكيه، و بالجمله نبه تعالى بقوله: وَ اللَّهُ يَعِدُكُمْ ، بأن هذا الخاطر الذي يخطر ببالكم من جهه الخوف ضلال من الفكر فإن مغفره الله الزيادة التي ذكرها في الآيات السابقه انما هما في البذل من طيبات المال.

فقوله تعالى: وَ اللَّهُ يَعِدُكُمْ، الخ؛ نظير قوله: الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ، الخ؛ من قبيل وضع السبب موضع المسبب، و فيه القاء المقابله بين وعد الله سبحانه الواسع العليم و وعد الشيطان، لينظر المنفقون في امر الواعدين و يختاروا ما هو اصلح لبالهم منهما.

فحاصل حجه الآيه: ان اختياركم الخبيث على الطيب انما هو لخوف الفقر، و الجهل بما يستتبعه هذا الانفاق، أما خوف الفقر فهو القاء، شيطاني، و لا يريد الشيطان بكم الا الضلال و الفحشاء فلا يجوز ان تتبعوه، و اما ما يستتبعه هذا الانفاق فهو الزيادة و المغفره اللتان ذكرتا لكم في الآيات السابقه، و هو استتباع بالحق لان الذي يعدكم استتباع الانفاق لهذه المغفره و الزيادة هو الله سبحانه و وعده حق، و هو واسع يسعه ان يعطى ما وعده من المغفره و الزيادة و عليم لا يجهل شيئا و لا حالا من شىء فوعده وعده عن علم.

قوله تعالى: يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ، الايتاء هو الاعطاء، والحكمه بكسر الحاء على فعله بناء نوع يدل على نوع المعنى فمعناه النوع من الإحكام و الإتيان أو نوع من الامر المحكم المتقن الذى لا يوجد فيه ثلمه و لا فتور، و غلب استعماله فى المعلومات العقلية الحقه الصادقه التى لا تقبل البطلان و الكذب البته.

و الجمله تدل على ان البيان الذى بين الله به حال الانفاق بجمع علله و أسبابه و ما يستتبعه من الاثر الصالح فى حقيقه حياه الانسان هو من الحكمه، فالحكمه هى القضايا الحقه المطابقه للواقع من حيث اشتمالها بنحو على سعادته الانسان كالمعارف الحقه الالهيه فى المبدأ و المعاد، و المعارف التى تشرح حقائق العالم الطبيعى من جهه مساسها بسعادته الانسان كالحقائق الفطريه التى هى أساس التشريعات الدينيه.

قوله تعالى: وَ مَنْ يُؤْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا، المعنى ظاهر، و قد أبهم فاعل الايتاء مع ان الجمله السابقه عليه تدل على انه الله تبارك و تعالى ليدل الكلام على ان الحكمه بنفسها منشأ الخير الكثير فالتلبس بها يتضمن الخير الكثير، لا من جهه انتساب اتيانه اليه تعالى، فإن مجرد انتساب الايتان لا يوجب ذلك كإيتاء المال، قال تعالى فى قارون:

وَ آتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مِمَّا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ (القصص / ٧٦)؛ و انما نسب إليها الخير الكثير دون الخير مطلقاً، مع ما عليه الحكمه من ارتفاع الشأن و نفاسه الامر لان الامر مختوم بعنايه الله و توفيقه، و امر السعاده مراعى بالعاقبه و الخاتمه.

قوله تعالى: وَ مِمَّا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ، اللب هو العقل لانه فى الانسان بمنزله اللب من القشر، و على هذا المعنى استعمل فى القرآن، و كأن لفظ العقل بمعناه المعروف اليوم من الاسماء المستحدثه بالغلبه و لذلك لم يستعمل فى القرآن و إنما استعمل منه الافعال مثل يعقلون.

و التذكر هو الانتقال من النتيجة الى مقدماتها، أو من الشئ الى نتائجها، و الآيه تدل

على أن اقتناص الحكمه يتوقف على التذكر، وأن التذكر يتوقف على العقل، فلا حكمه لمن لا عقل له. وقد مر بعض الكلام في العقل عند البحث عن ألفاظ الإدراك المستعمله في القرآن الكريم.

قوله تعالى: **وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ**، أى ما دعاكم الله سبحانه اليه أو دعوتكم أنفسكم اليه بإيجابه عليها بالنذر من بذل المال فلا يخفى على الله يثيب من أطاعه و يؤاخذ من ظلم، ففيه إيماء الى التهديد، و يؤكد قوله تعالى: **وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ**.

و فى هذه الجملة أعنى قوله: **وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ**، دلالة اولاه على أن المراد بالظلم هو الظلم على الفقراء و المساكين فى الإمساك عن الإنفاق عليهم، و حبس حقوقهم المالىة، لا الظلم بمعنى مطلق المعصيه فإن فى مطلق المعصيه أنصارا و مكفريات و شفعاء كالتوبه، و الاجتناب عن الكبائر، و شفعاء يوم القيامة اذا كان من حقوق الله تعالى، قال تعالى: **لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا** الى ان قال: **وَ أَنْبِئُوا إِلَهِكُمْ رَبَّكُمْ** (الزمر ٥٤)، و قال تعالى: **إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ** (النساء ٣١)، و قال تعالى: **وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى** (الأنبياء ٢٨).

و من هنا يظهر: وجه اتيان الانصار بصيغه الجمع فإن فى مورد مطلق الظلم أنصارا.

و ثانيا: أن هذا الظلم و هو ترك الإنفاق لا- يقبل التكفير و لو كان من الصغائر لقبه فهو من الكبائر، و أنه لا يقبل التوبه، و يتأيد بذلك ما وردت به الروايات: أن التوبه فى حقوق الناس غير مقبوله إلا برد الحق الى مستحقه، و أنه لا يقبل الشفاعة يوم القيامة كما يدل عليه قوله تعالى: **إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ** قالوا **لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَ لَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ** الى أن قال: **فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ** (المدثر / ٤٨).

و ثالثاً: أن هذا الظالم غير مرتضى عند الله إذ لا شفاعه إلا لمن ارتضى الله دينه كما مر بيانه فى بحث الشفاعه، و من هنا تظهر النكته فى قوله تعالى: يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ، حيث أتى بالمرضاة و لم يقل ابتغاء وجه الله.

و رابعاً: أن الامتناع من أصل انفاق المال على الفقراء مع وجودهم و احتياجهم من الكبائر الموبقه، و قد عد تعالى الامتناع عن بعض أقسامه كالزكاة شركاً بالله و كفر بالآخره، قال تعالى: وَيَلِّ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (فصلت ٧)، و السوره مكيه و لم تكن شرعت الزكاة المعروفه عند نزولها.

قوله تعالى: إِنَّ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ الخ؛ الابداء هو الاظهار، و الصدقات جمع صدقه، و هى مطلق الانفاق فى سبيل الله أعم من الواجب و المندوب و ربما يقال: إن الاصل فى معناها الانفاق المندوب.

و قد مدح الله سبحانه كلا من شقى التريد، لكون كل واحد من الشقين ذا آثار صالحه، فأما اظهار الصدقه فإن فيه دعوه عمليه الى المعروف، و تشويقاً للناس الى البذل و الانفاق، و تطيباً لنفوس الفقراء و المساكين حيث يشاهدون أن فى المجتمع رجالاً رحماء بحالهم، و أموالاً - موضوعه لرفع حوائجهم، مدخره ليوم يؤسهم فى زوال اليأس و القنوط عن نفوسهم، و حصول النشاط لهم فى أعمالهم، و اعتقاد وحده العمل و الكسب بينهم و بين الاغنياء المثرين، و فى ذلك كل الخير، و أما اخفائها فإنه حينئذ يكون أبعد من الرياء و المن و الأذى، و فيه حفظ لنفوس المحتاجين عن الخزي و المذله، و صون لماء و جوههم عن الابتذال، و كلاءه لظاهر كرامتهم، فصدقه العلن أكثر نتاجاً، و صدقه السر أخلص طهاره.

و لما كان بناء الدين على الاخلاص و كان العمل كلما قرب من الاخلاص كان أقرب من الفضيله رجح سبحانه جانب صدقه السر فقال: و ان تخفوها و تعطوها الفقراء فهو خير لكم فإن كلمه خير أفعل التفضيل، و الله تعالى خير بأعمال عباده لا يخطئ فى تمييز الخير من

غيره، و هو قوله تعالى: **وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** .

قوله تعالى: **لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**، فى الكلام التفات عن خطاب المؤمنين الى خطاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، و كأن ما كان يشاهده رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم من فعال المؤمنين فى صدقاتهم من اختلاف السجاياء بالإخلاص من بعضهم و المن و الأذى و الثاقل فى إنفاق طيب المال من بعض مع كونهم مؤمنين أوجد فى نفسه الشريفه و جدا و حزنا فسلاه الله تعالى بالتنبيه على أن أمر هذا الايمان الموجود فيهم و الهدى الذى لهم إنما هو الى الله تعالى يهدى من يشاء الى الايمان و الى درجاته، و ليس يستند الى النبى لا وجوده و لا بقائه حتى يكون عليه حفظه، و يشتق من زواله أو ضعفه، أو يسوؤه ما آل إليه الكلام فى هذه الآيات من التهديد و الإيعاد و الخشونه.

و الشاهد على ما ذكرناه قوله تعالى: **هُدَاهُمْ**، بالتعبير بالمصدر المضاف الظاهر فى تحقق التلبس، على أن هذا المعنى أعنى فى استناد الهدايه الى النبى صلى الله عليه و آله و سلم و إسناده الى الله سبحانه حيث وقع فى القرآن و وقع فى مقام تسليه النبى و تطيب قلبه.

فالجمله أعنى قوله: **لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** جمله معترضه اعترضت فى الكلام لتطيب قلب النبى بقطع خطاب المؤمنين و الإقبال عليه صلى الله عليه و آله، نظير الاعتراض الواقع فى قوله تعالى: **لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ الآيات**، (القيمه ١٧)؛ فلما تم الاعتراض عاد الى الأصل فى الكلام من خطاب المؤمنين.

قوله تعالى: **وَ مَا تَنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَ مَا تَنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءً وَجْهَ اللَّهِ إِلَى آخِر الآيه**؛ رجوع الى خطاب المؤمنين بسياق خال عن التبشير و الإنذار و التحنن و التغيظ معاً، فإن ذلك مقتضى معنى قوله تعالى: **وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** كما لا يخفى. فقصر الكلام على الدعوه الخاليه بالدلاله على أن ساحه المتكلم الداعى منزله عن الانتفاع بما

يتعب هذه الدعوه من المنافع، وإنما يعود نفعه الى المدعوين، فما تنفقوا من خير فلا أنفسكم لكن لا مطلقا بل فى حال لا تنفقون إلا ابتغاء وجه الله، فقوله: **وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ** حال، من ضمير الخطاب و عامله متعلق الظرف أعنى قوله: **فَلَا تُنْفِسُكُمْ** .

و لما أمكن ان يتوهم ان هذا النفع العائد الى أنفسهم ببذل المال مجرد اسم لا مسمى له فى الخارج، و ليس حقيقته إلا تبديل الحقيقه من الوهم عقب الكلام بقوله: **وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ**، فبين ان نفع هذا الانفاق المندوب و هو ما يترتب عليه من مثوبه الدنيا و الآخره ليس امرا وهميا، بل هو أمر حقيقى واقعى سيوفيه الله تعالى اليكم من غير ان يظلمكم بفقد أو نقص.

و إبهام الفاعل فى قوله: **يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ**، لما تقدم أن السياق سياق الدعوه فطوى، ذكر الفاعل ليكون الكلام ابلغ فى النصح و انتفاء غرض الانتفاع من الفاعل كأنه كلام لا متكلم له، فلو كان هناك نفع فلسامع لا غير.

قوله تعالى: **لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ** الى آخر الآية؛ الحصر هو المنع و الحبس، و الأصل فى معناه التضيق، قال الراغب فى المفردات: و الحصر و الاحصار المنع من طريق البيت، فالاحصار يقال: فى المنع الظاهر كالعدو، و المنع الباطن كالمرض، و الحصر لا يقال، إلا فى المنع الباطن، فقوله تعالى: **فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَحْمُولٌ عَلَى الْأَمْرَيْنِ** و كذلك قوله: **لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**، و قوله عزّ و جل: **أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ**، أى ضاقت بالبخل و الجبن، انتهى. و التعفف التلبس بالعفه، و السيماء العلامه، و الالحاف هو الالحاح فى السؤال.

و فى الآيه بيان مصرف الصدقات، و هو أفضل المصروف، و هم الفقراء الذين منعوا فى سبيل الله و حبسوا فيه بتأديه عوامل و اسباب الى ذلك: اما عدو اخذ مالهم من الستر و اللباس أو منعهم التعيش بالخروج الى الاكتساب أو مرض أو اشتغال بما لا يسعهم معه الاشتغال

بالكسب كطالب العلم و غير ذلك.

و فى قوله تعالى يحسبهم الجاهل اى الجاهل بحالهم اغنياء من التعفف دلالة على انهم غير متظاهرين بالفقر إلا ما لا سبيل لهم الى ستره من علائم الفقر و المسكنه من بشره أو لباس خلق أو نحوهما.

و من هنا يظهر: ان المراد بقوله: لا يَسْتَيْلُونَ النَّاسَ إِخْفًا أَنَّهُمْ لا- يسألون الناس اصلاً حتى ينجر الى الالحاف و الاصرار فى السؤال، فإن السؤال أول مره يجوز للنفس الجزع من مراره الفقر فيسرع إليها ان لا تصبرونهم بالسؤال فى كل موقف، و الالحاف على كل أحد، كذا قيل، و لا يبعد ان يكون المراد نفي الالحاف لا اصل السؤال، و يكون المراد بالالحاف ما يزيد على القدر الواجب من إظهار الحاجة، فإن مسمى الاظهار عند الحاجة المبرمه لا بأس به بل ربما صار واجبا، و الزائد عليه و هو الالحاف هو المذموم.

و فى قوله تعالى: تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ دون ان يقال تعرفونهم نوع صون لجاههم و حفظ لسترهم الذى تستروا به تعففا من الانهتاك فإن كونهم معروفين بالفقر عند كل أحد لا يخلو من هوان امرهم و ظهور ذلهم. و أما معرفه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بحالهم بتوسمه من سيماهم، و هو نبيهم المبعوث اليهم الرؤوف الحنين بهم فليس فيه كسر لشأنهم، و لا ذهاب كرامتهم، و هذا- و الله أعلم- هو السر فى الالتفات عن خطاب المجموع الى خطاب المفرد.

قوله تعالى: الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ السر و العلانيه متقابلان و هما حالان من ينفقون و التقدير مسرين و معلنين، و استيفاء الازمنه و الاحوال فى الانفاق للدلالة على اهتمام المنفقين فى استيفاء الثواب، و إمعانهم فى ابتغاء مرضاه الله، و إرادته وجهه، و لذلك تدلى الله سبحانه منهم فوعدهم وعدا حسنا بلسان الرأفه و التلطف

فقال: لهم أجرهم عند ربهم، الخ (١).

[سورة البقره (٢): الآيات ٢٧٥ الى ٢٨١]

اشاره

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ
وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥)
يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا
الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَ
إِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرِهِ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ
نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)

ص: ٣٦٨

١- ١). البقره ٢٦١-٢٧٤ بحث روائى فى الانفاق و الصدقه و الحكمه.

قوله تعالى: الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ، الخبط هو المشى على غير استواء، يقال خبط البعير إذا اختل جهه مشيه، وللإنسان في حياته طريق مستقيم لا ينحرف عنه، فإنه لا محاله ذو أفعال و حركات في طريق حياته بحسب المحيط الذى يعيش فيه، وهذه الافعال محفوظة النظام بأحكام اعتقاديه عقلانيه وضعها و نظمها الإنسان ثم طبق عليها أفعاله الانفراديه و الاجتماعيه، فهو يقصد الاكل اذا جاع، و يقصد الشرب اذا عطش، و الفراش اذا اشتهى النكاح، و الاستراحة اذا تعب، و الاستظلال اذا أراد السكن و هكذا، و ينسبط لامور و ينقبض عن اخرى فى معاشرته، و يريد كل مقدمه عند اراده ذيها، و اذا طلب مسببا مال الى جهه سببه.

و هذه الافعال على هذه الاعتقادات مرتبطه متحده نحو اتحاد متلائمه غير متناقضه و مجموعها طريق حياته (1).

قوله تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا، قد تقدم الوجه فى تشبيه البيع بالربا دون العكس بأن يقال: إنما الربا مثل البيع فإن من استقر به الخبط و الاختلال كان واقفا فى موقف خارج عن العاده المستقيمه، و المعروف عند العقلاء و المنكر عندهم سيات عنده، فاذا أمرته بترك ما يأتيه من المنكر و الرجوع الى المعروف أجابك- لو أجاب- أن

ص: ٣٦٩

الذى تأمرنى به كالى تنهانى عنه لا مزيه له عليه، و لو قال: ان الذى تنهانى عنه كالى تأمرنى به كان عاقلا غير مختل الادراك فإن معنى هذا القول: أنه يسلم أن الذى يؤمر به أصل ذو مزيه يجب اتباعه لكنه يدعى ان الذى ينهى عنه ذو مزيه مثله، و لم يكن معنى كلامه إبطال المزيه و إهماله كما يراه الممسوس، و هذا هو قول المرابى المستقر فى نفسه الخبط: إنما البيع مثل الربا، و لو أنه قال: ان الربا مثل البيع لكان رادا على الله جاحدا للشريعه لا خابطا كالممسوس.

و الظاهر ان قوله تعالى: ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا حكاية لحالهم الناطق بذلك و ان لم يكونوا قالوا ذلك بألسنتهم، و هذا السياق أعنى حكاية الحال بالقول، معروف عند الناس.

قوله تعالى: وَ أَحْيَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبَا، جملة مستأنفه بناء على ان الجملة الفعلية المصدره بالماضى لو كانت حالا- لوجب تصديرها بقدم. يقال: جاءنى زيد و قد ضرب عمرا، و لا يلائم كونها حالا ما يفيد أول الكلام من المعنى، فإن الحال قيد لزمان عامله و ظرف لتحققه، فلو كانت حالا- لأفادت: أن تخبطهم لقولهم انما البيع مثل الربا انما هو فى حال أحل الله البيع و حرم الربا عليهم، مع ان الامر على خلافه فهم خابطون بعد تشريع هذه الحليه و الحرمة و قبل تشريعهما، فالجملة ليست حاله و انما هى مستأنفه.

و هذه المستأنفه غير متضمنه للتشريع الابتدائى على ما تقدم أن الآيات ظاهره فى سيق أصل تشريع الحرمة، بل بانيه على ما تدل عليها آيه آل عمران: أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (آل عمران ١٣٠) فالجملة أعنى قوله: وَ أَحْيَلَّ اللَّهُ، الخ؛ لا- تدل على إنشاء الحكم، بل على الإخبار عن حكم سابق و توطئه لتفرع قوله بعدها: فمن جاءه موعظه من ربه، الخ؛ هذا ما ينساق اليه ظاهر الآيه الشريفه.

قوله تعالى: **فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ**، تفرغ على قوله: **وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ**، الخ؛ والكلام غير مقيد بالربا، فهو حكم كلي وضع في مورد جزئي للدلالة على كونه مصداقا من مصاديقه يلحقه حكمه، والمعنى ان ما ذكرناه لكم في امر الربا موعظه جاءكم من ربكم و من جاءه موعظه، الخ؛ فان انتهيتم فلکم ما سلف و أمرکم الى الله. و من هنا يظهر: ان المراد من مجيء الموعظه بلوغ الحكم الذي شرعه الله تعالى، و من الانتهاء التوبه و ترك الفعل المنهى عنه انتهاءً عن نهيه تعالى، و من كون ما سلف لهم عدم انعطاف الحكم و شموله لما قبل زمان بلوغه، و من قوله: **فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ**، انه لا يتحتم عليهم العذاب الخالد الذي يدل عليه قوله: **وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**، فهم منتفعون فيما اسلفوا بالتخلص من هذه المهلكه، و يبقى عليهم: ان امرهم الى الله فربما اطلقهم في بعض الاحكام، و ربما وضع عليهم ما يتدارك به ما فوتوه.

و اعلم: ان أمر الآيه عجيب، فان قوله: **فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ** مع ما يشتمل عليه من التسهيل و التشديد حكم غير خاص بالربا، بل عام يشمل جميع الكبائر الموبقه، و القوم قد قصرُوا في البحث عن معناها حيث اقتصرُوا بالبحث عن مورد الربا خاصه من حيث العفو عما سلف منه، و رجوع الامر الى الله فيمن انتهى، و خلود العذاب لمن عاد اليه بعد مجيء الموعظه، هذا كله ما تراه من العموم في الآيه.

و أما قوله: **وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**، فوقع العود في هذه الجملة في مقابل الانتهاء الواقع في الجملة السابقة يدل على ان المراد به العود الذي يجمع عدم الانتهاء، و يلازم ذلك الإصرار على الذنب و عدم القبول للحكم و هذا هو الكفر أو الرده باطنا و لو لم يتلفظ في لسانه بما يدل على ذلك، فإن من عاد الى ذنب و لم ينته عنه و لو بالندم فهو غير مسلم للحكم تحقيقا و لا يفلح ابدا. فالترديد في الآيه بحسب الحقيقه بين تسليم الحكم الذي لا يخلو عن البناء على عدم المخالفه و بين الإصرار الذي لا يخلو غالبا عن

عدم التسليم المستوجب للخلود على ما عرفت.

و من هنا يظهر الجواب عن استدلال المعتزله بالآيه على خلود مرتكب الكبيره فى العذاب. فان الآيه و ان دلت على خلود مرتكب الكبيره بل مطلق من اقترف المعصيه فى العذاب لكن دلالتها مقصوره على الارتكاب مع عدم تسليم الحكم و لا محذور فيه.

قوله تعالى: **يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتِ** الخ؛ المحق نقصان الشئ حالا بعد حال، و وقوعه فى طريق الفناء و الزوال تدريجا، و الإرباء الإنماء، و الأئيم الحامل للإثم، و قد مر معنى الأثم.

و قد قوبل فى الآيه بين إرباء الصدقات و محق الربا، و قد تقدم ان إرباء الصدقات و إنمائها لا يختص بالآخره بل هى خاصه لها عامه تشمل الدنيا كما تشمل الآخره فمحق الربا ايضا كذلك لا محاله.

فكما أن من خاصه الصدقات أنها تنمى المال إنماء يلزمها ذلك لزوما قهريا لا ينفك عنها من حيث أنها تنشر الرحمه و تورث المحبه و حسن التفاهم و تألف القلوب و تبسط الامن و الحفظ، و تصرف القلوب عن ان تهتم بالغضب و الاختلاس و الإفساد و السرقة، و تدعو الى الاتحاد و المساعده و المعاونه، و تنسد بذلك أغلب طرق الفساد و الفناء الطارئه على المال، و يعين جميع ذلك على نماء المال و دره أضعافا مضاعفه.

كذلك الربا من خاصته انه يمحق المال و يفنيه تدريجا من حيث انه ينشر القوه و الخساره، و يورث البغض و العداوه و سوء الظن، و يفسد الامن و الحفظ، و يهيج النفوس على الانتقام بأى وسيله أمكنت من قول أو فعل مباشره أو تسييبا، و تدعوا الى التفرق و الاختلاف، و تفتح بذلك أغلب طرق الفساد و أبواب الزوال على المال، و قلما يسلم المال عن آفه تصيبه، أو بليه تعمه.

و كل ذلك لأن هذين الامرين أعنى الصدقه و الربا مربوطان مما سان بحياه طبقه الفقراء

والمعوزين وقد هاجت بسبب الحاجه الضروريه احساساتهم الباطنيه، واستعدت للدفاع عن حقوق الحياه نفوسهم المنكوبه المستذله، وهموا بالمقابله بالغما ما بلغت، فان أحسن اليهم بالصنيعه والمعروف بلا عوض- والحال هذه- وقعت احساساتهم على المقابله بالإحسان وحسن النيه وأثرت الاثر الجميل، وإن أسىء اليهم باعمال القسوه والخشونه وإذهاب المال والعرض والنفس قابلوها بالانتقام والنكايه بأى وسيله، وقلما يسلم من تبعات هذه الهمم المهلكه أحد من المرابين على ما يذكره كل أحد مما شاهد من اخبار آكلى الربا من ذهاب اموالهم و خراب بيوتهم و خسران مساعيهم (1).

قوله تعالى: وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ، تعليل لمحق الربا بوجه كلى، والمعنى ان آكل الربا كثير الكفر لكفره بنعم كثيره من نعم الله لستره على الطرق الفطريه فى الحياه الانسانيه، وهى طرق المعاملات الفطريه، وكفره بأحكام كثيره فى العبادات والمعاملات المشروعه، فإنه بصرف مال الربا فى مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه يبطل كثيرا من عباداته بفقدان شرائط مأخوذه فيها، وباستعماله فيما بيده من المال الربوى يبطل كثيرا من معاملات، ويضمن غيره، ويغضب مال غيره فى موارد كثيره، وباستعمال الطمع والحرص فى اموال الناس والخشونه والقسوه فى استيفاء ما يعده لنفسه حقا يفسد كثيرا من اصول الاخلاق والفضائل وفروعها، وهو اثم مستقر فى نفسه الإثم فالله سبحانه لا يحبه لأن الله لا يحب كل كفار أثيم.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ الخ؛ تعليل يبين به ثواب المتصدقين والمنتهين عما نهى الله عنه من أكل الربا بوجه عام ينطبق على المورد انطباقا.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ، خطاب للمؤمنين وأمر لهم بتقوى الله وهو توطئه لما يتعقبه من الامر بقوله و ذروا

ص: ٣٧٣

(١-١). البقره ٢٧٥-٢٨١ بحث فى العلل و الاسباب التى تبنى عليها الامور؛ المجتمع و الفرد.

ما بقى من الربا، وهو يدل على انه كان من المؤمنين فى عهد نزول الآيات من يأخذ الربا، و له بقايا منه فى ذمه الناس من الربا فأمر بتركها، و هدد فى ذلك بما سيأتى من قوله: فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ، الآية.

و هذا يؤيد ما سنقله من الروايه فى سبب نزول الآية فى البحث الروائى الآتى.

و فى تقييد الكلام بقوله: إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ إشارة الى ان تركه من لوازم الايمان، و تأكيد لم تقدم من قوله: وَمَنْ عَادَ، الخ؛ و قوله: وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ، الخ.

قوله تعالى: فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ، الاذن كالعلم وزنا و معنى، و قرء فأذنوا بالامر من الايدان، و الباء فى قوله بحرب لتضمينه معنى اليقين و نحوه، و المعنى: أيقنوا بحرب أو أعلموا انفسكم باليقين بحرب من الله و رسوله، و تنكير الحرب لإفاده التعظيم أو التنويع، و نسبه الحرب الى الله و رسوله لكونه مرتبطا بالحكم الذى لله سبحانه فيه سهم بالجعل و التشريع و لرسوله فيه سهم بالتبليغ، و لو كان لله وحده لكان امرا تكوينيا، و اما رسوله فلا يستقل فى امر دون الله سبحانه قال تعالى: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ (آل عمران ١٢٨).

و الحرب من الله و رسوله فى حكم من الاحكام مع من لا يسلمه هو تحميل الحكم على من رده من المسلمين بالقتال كما يدل عليه قوله تعالى: فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ (الحجرات ٩)، على ان الله تعالى صنعا آخر فى الدفاع عن حكمه و هو محاربه إياهم من طريق الفطره و هو تهيج الفطره العامه على خلافهم، و هى التى تقطع انفسهم، و تخرب ديارهم، و تعفى آثارهم، قال تعالى: وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا مَرَفِيًّا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (الإسراء ١٦).

قوله تعالى: وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ، كلمه و ان تبتم، تؤيد ما مر ان الخطاب فى الآية لبعض المؤمنين ممن كان يأخذ الربا و له بقايا

على مدينه و معامليه، و قوله: فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوَالِكُمْ أى أصول أموالكم الخالصه من الربا لا- تظلمون بأخذ الربا و لا- تظلمون بالتعدى الى رءوس أموالكم، و فى الآيه دلاله على إمضاء اصل الملك أولا، و على كون أخذ الربا ظلما كما تقدم ثانيا، و على إمضاء اصناف المعاملات حيث عبر بقوله رءوس أموالكم و المال إنما يكون رأسا اذا صرف فى وجوه المعاملات و أصناف الكسب ثالثا.

قوله تعالى: وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرِهِ فَنُظِرْهُ إِلَىٰ مَيْسَرِهِ، لفظه كان تامه أى اذا وجد ذو عسره، و النظره المهله، و الميسره اليسار، و التمكن مقابل العسره أى اذا وجد غريم من غرمائكم لا يتمكن من أداء دينه الحال فانظروه و امهلوه حتى يكون متمكنا ذا يسار فيؤدى دينه. و الآيه و إن كانت مطلقه غير مقيده لكنها منطبقه على مورد الربا، فإنهم كانوا اذا حل أجل الدين يطالبونه من المدين فيقول المدين لغريمه زد فى أجلى كذا مده أزيدك فى الثمن بنسبه كذا، و الآيه تنهى عن هذه الزيادة الربويه و يأمر بالانظار.

قوله تعالى: وَ أَنْ تَصِيَّدُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، أى و إن تضعوا الدين عن المعسر فتصدقوا به عليه فهو خير لكم إن كنتم تعلمون فإنكم حينئذ قد بدلتم ما تقصدونه من الزيادة من طريق الربا الممحق من الزيادة من طريق الصدقه الرايبه حقا.

قوله تعالى: وَ اتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ الْخ؛ فيه تذييل لآيات الربا بما تشتمل عليه من الحكم و الجزاء بتذكير عام بيوم القيامه ببعض أوصافه الذى يناسب المقام، و يهيب ذكره النفوس لتقوى الله تعالى و الورع عن محارمه فى حقوق الناس التى تتكى عليه الحياه، و هو ان أمامكم يوما ترجعون فيه الى الله فتوفى كل نفس ما كسبت و هم لا يظلمون.

و اما معنى هذا الرجوع مع كوننا غير غائبين عن الله، و معنى هذه التوفيه فسيجىء الكلام فيه فى تفسير سوره الأنعام إنشاء الله تعالى.

و قد قيل: إن هذه الآيه: و اتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت و هم

لا- يظلمون، آخر آيه نزلت على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و سيجيء ما يدل عليه من الروايات فى البحث الروائى التالى (١)(٢)(٣).

[سوره البقره (٢): الآيات ٢٨٢ الى ٢٨٣]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلَا يَكْتُبُ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيَمْلِكْ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشُّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثَمُ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)

ص: ٣٧٦

١- ١). البقره ٢٧٥-٢٨١: بحث روائى فى الربا.

٢- ٢). البقره ٢٧٥-٢٨١: بحث علمى فى: المال؛ البيع و الربا؛ نتائج الرأسماليه المشثومه، السبب فى شيوع الشيوعيه.

٣- ٣). البقره ٢٧٥-٢٨١: بحث علمى فى الدرهم و الدينار و الذهب و الفضة.

قوله تعالى: إِذَا تَدَايَنْتُمْ الخ؛ التداين، مديانه بعضهم بعضا، و الاملال و الاملاء إلقاء الرجل للكاتب ما يكتبه، و البخس هو النقص و الحيف و السأمة هي الملال، و المضاراه مفاعله من الضرر و يستعمل لما بين الاثنين و غيره. و الفسوق هو الخروج عن الطاعة. و الرهان، و قرء فرهن بضمتين و كلاهما جمع الرهن بمعنى المرهون.

و الاظهار الواقع فى موقع الاضمار فى قوله تعالى: فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ، لرفع اللبس برجوع الضمير الى الكاتب السابق ذكره.

و الضمير البارز فى قوله: أَنْ يُبَيِّنَ هُوَ فَلْيُمْلَأْ وَرِيئُهُ، فائدته تشريك من عليه الحق مع وليه، فإن هذه الصورة تغاير الصورتين الأوليين بأن الولى فى الصورتين الأوليين هو المسئول بالامر المستقل فيه بخلاف هذه الصورة فإن الذى عليه الحق يشارك الولى فى العمل فكأنه قيل: ما يستطيعه من العمل فعليه ذلك و ما لا يستطيعه هو فعلى وليه.

و قوله: أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا، على تقدير حذر أن تضل إحداهما، و فى قوله: إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وضع الظاهر موضع المضمرة، و النكته فيه اختلاف معنى اللفظ فى الموضعين، فالمراد من الاول إحداهما لا على التعيين، و من الثانى إحداهما بعد ضلال الاخرى، فالمعنيان مختلفان.

و قوله: وَ اتَّقُوا أَمْرًا بِالتقوى فيما ساقه الله اليهم فى هذه الآيه من الامر و النهى، و أما قوله:

وَ يُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ، فكلام مستأنف مسوق في مقام الامتنان، كقوله تعالى في آيه الإِثْر: يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا (النساء ١٧٦)، فالمراد به الامتنان بتعليم شرائع الدين و مسائل الحلال و الحرام.

و ما قيل: إن قوله: وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ يُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ يدل على أن التقوى سبب للتعليم الإلهي، فيه أن و ان كان حقا يدل عليه الكتاب و السنه، لكن هذه الآيه بمعزل عن الدلاله عليه لمكان واو العطف، على أن هذا المعنى لا يلائم سياق الآيه و ارتباط ذيلها بصدرها.

و يؤيد ما ذكرنا تكرار لفظ الجلاله ثانيا فانه لو لا كون قوله و يعلمكم الله، كلاما مستأنفا كان مقتضى السياق ان يقال: يعلمكم بإضمار الفاعل، ففي قوله تعالى: وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ يُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ، أظهر الاسم اولاً- و ثانيا لوقوعه في كلامين مستقلين، و أظهر ثالثا ليدل به على التعليل، كأنه قيل: هو بكل شيء عليم لأنه الله.

و اعلم: ان الآيتين تدلان على ما يقرب من عشرين حكما من أصول أحكام الدين و الرهن و غيرهما، و الاخبار فيها و فيما يتعلق بها كثيره لكن البحث عنها راجع الى الفقه، و لذلك آثرنا الإغماض عن ذلك فمن أراد البحث عنها فعليه بمطانه من الفقه.

[سوره البقره (٢): آيه ٢٨٤]

اشاره

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ إِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)

بيان:

قوله تعالى: لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ ، كلام يدل على ملكه تعالى

ص: ٣٧٨

لعالم الخلق مما فى السموات و الارض، و هو توطئه لقوله بعده: و إن تبدوا ما فى انفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله، أى إن له ما فى السموات و الارض و من جملتها أنتم و أعمالكم و ما اكتسبتها نفوسكم، فهو محيط بكم مهيم على اعمالكم لا يتفاوت عنده كون أعمالكم باديه ظاهره، او خافيه مستوره فيحاسبكم عليها.

و ربما استظهر من الآيه: كون السماء مسانخا لأعمال القلوب و صفات النفس فما فى النفوس هو مما فى السموات، و لله ما فى السموات كما ان ما فى النفوس اذا أبدى بعمل الجوارح كان مما فى الارض، و لله ما فى الارض فما انطوى فى النفوس سواء أبدى أو أظهر مملوك لله محاط له سيتصرف فيه بالمحاسبه.

قوله تعالى: **وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ** ، الابداء هو الإظهار مقابل الاخفاء، و معنى ما فى أنفسكم ما استقر فى أنفسكم على ما يعرفه أهل العرف و اللغه من معناه، و لا- مستقر فى النفس إلا- الملكات و الصفات من الفضائل و الرذائل كالإيمان و الكفر و الحب و البغض و العزم و غيرها فإنها هى التى تقبل الاظهار و الاخفاء. أما إظهارها فإنما تتم بأفعال مناسبة لها تصدر من طريق الجوارح يدركها الحس و يحكم العقل بوجود تلك المصادر النفسيه المسانخه لها، اذ لو لا تلك الصفات و الملكات النفسانيه من إرادته و كراهه و إيمان و كفر و حب و بغض و غير ذلك لم تصدر هذه الافعال، فبصدور الافعال يظهر للعقل وجود ما هو منشأها. و أما إخفائها فبالكف عن فعل ما يدل على وجودها فى النفس.

و بالجمله ظاهر قوله: **فِي أَنْفُسِكُمْ** ، الثبوت و الاستقرار فى النفس، و لا يعنى بهذا الاستقرار التمكن فى النفس بحيث يمتنع الزوال كالملكات الراسخه، بل ثبوتها تماما يعتد به فى صدور الفعل كما يشعر به قوله: **إِنْ تُبْدُوا** و قوله: **أَوْ تُخْفُوهُ** فان الوصفين يدلان على ان ما فى النفس بحيث يمكن ان يكون منشأ للظهور او غير منشأ له و هو الخفاء، و هذه الصفات يمكن ان

تكون كذلك سواء كانت أحوالا او ملكات، و أما الخطورات و الهواجس النفسانيه الطارقه على النفس من غير إرادته من الانسان و كذلك التصورات الساذجه التي لا تصديق معها كتصور صور المعاصى من غير نزوع و عزم فلفظ الآيه غير شامل لها البتة لأنها كما عرفت غير مستقره فى النفس، و لا منشأ لصدور الافعال.

فتحصل: أن الآيه إنما تدل على الاحوال و الملكات النفسانيه التي هى مصادر الافعال من الطاعات و المعاصى، و أن الله سبحانه و تعالى يحاسب الانسان بها، فتكون الآيه فى مساق قوله تعالى: لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ و لَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ (البقره / ٢٢٥)، و قوله تعالى: فَإِنَّهُ آتِمُّ قَلْبُهُ (البقره / ٢٨٣)، و قوله تعالى: إِنَّ السَّمْعَ و الْبَصِيرَ و الْفؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عِنْدَهُ مَسْئُولًا (الإسراء / ٣٦)، فجميع هذه الآيات داله على أن للقلوب و هى النفوس أحوالا- و أوصافا يحاسب الانسان بها، و كذا قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا و الْمَآخِرَةِ (النور / ٩)، فانها ظاهره فى ان العذاب إنما هو على الحب الذى هو أمر قلبى، هذا.

فهذا ظاهر الآيه و يجب أن يعلم: أن الآيه إنما تدل على المحاسبه بما فى النفوس سواء أظهر أو أخفى، و أما كون الجزاء فى صورتى الإخفاء و الاظهار على حد سواء، و بعبارة اخرى كون الجزاء دائرا مدار العزم سواء فعل أو لم يفعل و سواء صادف الفعل الواقع المقصود او لم يصادف كما فى صورته التجرى مثلا فالآيه غير ناظره الى ذلك.

قوله تعالى: فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ و يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ و اللَّهُ عَلِيمٌ كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الترديد فى التفریع بين المغفره و العذاب لا يخلو من الاشعار بأن المراد بما فى النفوس هى الصفات و الاحوال النفسانيه السيئه، و ان كانت المغفره ربما استعملت فى القرآن فى غير مورد المعاصى أيضا لكنه استعمال كالنادر يحتاج الى ثبوت القرائن الخاصه. و قوله: إِنَّ اللَّهَ تَعْلِيلٌ رَاجِعٌ إِلَى مَضْمُونِ الْجُمْلَةِ الْأَخِيرَةِ، او الى مدلول الآيه بتمامها.

اشاره

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِكْرَامًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفُرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)

بيان:

قوله تعالى: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ، تصديق لايمان الرسول و المؤمنين، و إما أفرد رسول الله عنهم بالايمن بما أنزل اليه من ربه ثم ألحقهم به تشريفا له، و هذا دأب القرآن في الموارد التي تناسب التشریف أن يكرم النبي بإفراده و تقديم ذكره ثم اتباع ذلك بذكر المؤمنين كقوله تعالى: فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ (الفتح ٢٦)، و قوله تعالى: يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا (التحریم / ٨).

قوله تعالى: كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، تفصيل للإجمال الذي تدل عليه الجملة السابقة، فان ما أنزل الى رسول الله يدعو الى الايمان و تصديق الكتب و الرسل و الملائكة الذين هم عباد مكرمون، فمن آمن بما أنزل على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقد آمن

بجميع ذلك، كل على ما يليق به.

قوله تعالى: **لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ**، حكاية لقولهم من دون توسط لفظ القول، وقد مر في قوله تعالى: **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** (البقره ١٢٧/)، النكته العامه فى هذا النحو من الحكايه، و أنه من أجمل السياقات القرآنيه، و النكته المختصه بالمقام مضافا الى أن فيه تمثيلا- لحالهم و قالهم أن هذا الكلام إنما هو كلام منتزع من خصوص حالهم فى الايمان بما أنزل الله تعالى، فهم لم يقولوه إلا- بلسان حالهم، و ان كانوا قالوه فقد قاله كل منهم وحده و فى نفسه، و أما تكلمهم به لسانا واحدا فليس الا بلسان الحال.

و من عجيب أمر السياق فى هذه الآيه ما جمع بين قولين محكيين منهم مع التفرقه فى نحو الحكايه أعنى قوله تعالى: **لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**، الخ؛ حيث حكى البعض من غير توسط القول و البعض الآخر بتوسطه، و هما جميعا من قول المؤمنين فى اجابه دعوه الداعى.

و الوجه فى هذه التفرقه أن قولهم: **لَا نُفَرِّقُ**، الخ؛ مقول لهم بلسان حالهم بخلاف قولهم:

سمعنا و أطعنا.

و قد بدأ تعالى بالإخبار عن حال كل واحد منهم على نعت الافراد فقال: **كل آمن بالله** ثم عدل الى الجمع فقال: **لا نفرق بين أحد الى آخر الآيتين**، لأن الذى جرى من هذه الامور فى أهل الكتاب كان على نعت الجمع كما أن اليهود فرقت بين موسى و بين عيسى و محمد، و النصرارى فرقت بين موسى و عيسى، و بين محمد فانشعبوا شعبا و تحزبوا أحزابا و قد كان الله تعالى خلقهم امه واحده على الفطره، و كذلك المؤاخذه و الحمل و التحميل الواقع عليهم إنما وقعت على جماعتهم، و كذلك ما وقع فى آخر الآيه من سؤال النصره على الكافرين، كل ذلك أمر مرتبط بالجماعه دون الفرد، بخلاف الايمان فإنه أمر قائم بالفرد حقيقه.

ص: ٣٨٢

قوله تعالى: وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، قولهم سمعنا و أطعنا، إنشاء و ليس باخبار و هو كناية عن الاجابه إيماننا بالقلب و عملا- بالجوارح، فإن السمع يكنى به لغه عن القبول و الاذعان، و الاطاعه تستعمل فى الانقياد بالعمل فمجموع السمع و الاطاعه يتم به أمر الايمان.

و قولهم سمعنا و أطعنا إيفاء لتمام ما على العبد من حق الربوبيه فى دعوتها. و هذا تمام الحق الذى جعله الله سبحانه لنفسه على عبده: أن يسمع ليطيع، و هو العباده كما قال تعالى: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا (الذاريات / ٥٧)، و قال تعالى: أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنْ اعْبُدُونِي (يس / ٦١).

و قد جعل سبحانه فى قبال هذا الحق الذى جعله لنفسه على عبده حقا آخر لعبده على نفسه و هو المغفره التى لا يستغنى عنه فى سعاده نفسه أحد: الانبياء و الرسول فمن دونهم فوعدهم ان يغفر لهم ان أطاعوه بالعبوديه كما ذكره اول ما شرع الشريعه لآدم و ولده فقال:

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا يَخَوْفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (البقره ٣٨)، و ليس الا المغفره.

و القوم لما قالوا: سمعنا و أطعنا و هو الاجابه بالسمع و الطاعه المطلقين من غير تقييد فأوفوا الربوبيه حقها سأله تعالى حقهم الذى جعله لهم و هو المغفره فقالوا عقيب قولهم سمعنا و أعطنا: غفرانك ربنا و إليك المصير، و المغفره و الغفران: الستر، و يرجع مغفرته تعالى الى دفع العذاب و هو ستر على نواقص مرحله العبوديه، و يظهر عند مصير العبد الى ربه، و لذلك عقبوا قولهم: غفرانك ربنا بقولهم: و إليك المصير.

قوله تعالى: لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْجَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ عَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ، الوسع هو الجده و الطاقه، و الاصل فى الوسع هو السعه المكانية ثم يتخيل لقدره

الانسان شبه الظرفيه لما يصدر عنه من الافعال الاختياريه،فما يقدر عليه الانسان من الاعمال كأنه تسعه قدرته،و ما لا يقدر عليه لا تسعه فانطبق عليه معنى الطاقه،ثم سميت الطاقه وسعا فليل:وسع الانسان أى طاقته و ظرفيه قدرته.

و قد عرفت:أن تمام حق الله تعالى على عبده:ان يسمع و يطيع،و من البين أن الانسان إما يقول:«سمعا»فيما يمكن ان تقبله نفسه بالفهم،و أما لا- يقبل الفهم فلا- معنى لاجابته بالسمع و القبول.و من البين أيضا ان الانسان انما يقول:«طاعه»فيما يقبل مطاوعه الجوارح و أدوات العمل،فإن الاطاعه هى مطاوعه الانسان و تأثر قواه و أعضائه عن تأثير الأمر المؤثر مثلا، و أما ما لا يقبل المطاوعه كأن يؤمر الانسان ان يسمع ببصره،او يحل بجسمه أزيد من مكان واحد،او يتولد من أبويه مره ثانيه فلا يقبل إطاعه و لا يتعلق بذلك تكليف مولوى،فإجابته داعى الحق بالسمع و الطاعه لا تتحقق الا فى ما هو اختيارى للإنسان تتعلق به قدرته،و هو الذى يكسب به الانسان لنفسه ما ينفعه أو يضره،فالكسب نعم الدليل على أن ما كسبه الانسان إما وجدته و تلبس به من طريق الوسع و الطاقه.

فظهر مما ذكرنا ان قوله: **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ** ،كلام جار على سنه الله الجاريه بين عباده:ان لا يكلفهم ما ليس فى وسعهم من الايمان بما هو فوق فهمهم و الإطاعه لما هو فوق طاقه قواهم، و هى ايضا السنه الجاريه عند العقلاء و ذوى الشعور من خلقه،و هو كلام ينطبق معناه على ما يتضمنه قوله حكاية عن الرسول و المؤمنين:سمعنا و أطعنا من غير زياده و لا نقيصه.

و الجملة أعنى قوله: **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا** ،متعلقه المضمون بما تقدمها و ما تأخر عنها من الجمل المسروده فى الآيتين.

أما بالنسبه الى ما تقدمها فإنها تفيد:أن الله لا يكلف عباده بأزيد مما يمكنهم فيه السمع و الطاعه و هو ما فى وسعهم ان يأتوا به.

و أما بالنسبه الى ما تأخر عنها فإنها تفيد أن ما سأله النبي و المؤمنون من عدم المؤاخذه

على الخطأ و النسيان، و عدم حمل الإصر عليهم، و عدم تحميلهم ما لا طاقة لهم به، كل ذلك و إن كانت أموراً حرجية لكنها ليست من التكليف بما ليس في الوسع، فإن الذى يمكن أن يحمل عليهم مما لا طاقة لهم به ليس من قبيل التكليف، بل من قبيل جزاء التمرد و المعصية، و أما المؤاخذة على الخطأ و النسيان فإنهما و ان كانتا بنفسهما غير اختياريين لكنهما اختياريان من طريق مقدماتهما. فمن الممكن ان يمنع عنهما مانع بالمنع عن مقدماتهما او بإيجاب التحفظ عنهما، و خاصه اذا كان ابتلاء الإنسان بهما مستندا الى سوء الاختيار، و مثل الكلام فى حمل الاصر فإنه اذا استند الى التشديد على الانسان جزاء لتمرده عن التكليف السهله بتبديلها مما يشق عليه و يحترج منه، فإن ذلك ليس من التكليف المنفى عنه تعالى غير الجائز عند العقل، لأنها مما اختاره الانسان لنفسه بسوء اختياره فلا محذور فى توجيهه اليه.

قوله تعالى: رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا، لما قالوا فى مقام اجابه الدعوه سمعنا و أطعنا و هو قول ينبئ عن الاجابه المطلقه من غير تقييد ثم التفتوا الى ما عليه وجودهم من الضعف و الفتور، و التفتوا أيضا الى ما آل اليه امر الذين كانوا من قبلهم و قد كانوا أمما أمثالهم استرحموا ربهم و سألوه ان لا يعاملهم معامله من كان قبلهم من المؤاخذة و الحمل و التحميل لانهم علموا بما علمهم الله ان لا حول و لا قوه إلا بالله، و ان لا عاصم من الله إلا رحمته.

و النبى صلى الله عليه و آله و سلم و إن كان معصوما من الخطأ و النسيان لكنه إنما يعتصم بعصمه الله و يسان به تعالى فصح له ان يسأل ربه ما لا يأمنه من نفسه، و يدخل نفسه لذلك فى زمرة المؤمنين.

قوله تعالى: رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِيصِرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا، الاصر هو الثقل على ما قيل، و قيل هو حبس الشىء بقره، و هو قريب من المعنى الاول فإن فى الحبس حمل الشىء على ما يكرهه و يثقل عليه.

و المراد بالذين من قبلنا: هم أهل الكتاب و خاصه اليهود على ما تشير السوره الى كثير من

قصصهم، و على ما يشير اليه قوله تعالى: وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ (الأعراف ١٥٧).

قوله تعالى: رَبَّنَا وَ لَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، المراد بما لا طاقة لنا به ليس هو التكليف الابتدائي بما لا يطاق، اذ قد عرفت ان العقل لا يجوزه أبدا، و ان كلامه تعالى أعنى ما حكاه بقوله: وَ قَالُوا سَيَمْعِنَا وَ أَطْعَمَنَا يبدل على خلافه بل المراد به جزاء السيئات الواصلة اليهم من تكليف شاق لا يتحمل عاده، أو عذاب نازل، أو رجز مصيب كالمسخ و نحوه.

قوله تعالى: وَ اغْفُ عَنَّا وَ اغْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا، العفو محو أثر الشيء، و المغفرة ستره، و الرحمة معروفه، و أما بحسب المصداق فاعتبار المعانى اللغويه يوجب ان يكون سوق الجمل الثلاث من قبيل التدرج من الفرع الى الاصل، و بعبارة أخرى من الاخص فائده الى الاعم، فعليها يكون العفو منه تعالى هو إذهاب اثر الذنب و إمحائه كالعقاب المكتوب على المذنب، و المغفرة هي إذهاب ما فى النفس من هيئه الذنب و الستر عليه، و الرحمة هي العطيه الالهيه التى هي ساتره على الذنب و هيئته.

و عطف هذه الثلاثه أعنى قوله: وَ اغْفُ عَنَّا وَ اغْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا على قوله: رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا على ما للجميع من السياق و النظم يشعر: بأن المراد من العفو و المغفرة و الرحمة ما يتعلق بذنوبهم من جهه الخطأ و النسيان و نحوها. و منه يظهر ان المراد بهذه المغفرة المسئوله هاهنا غير الغفران المذكور فى قوله: غُفِرَ لَكَ رَبَّنَا فَإِنَّهُ مَغْفِرُهُ مطلقه فى مقابله الاجابه المطلقه على ما تقدم، و هذه مغفرة خاصه فى مقابل الذنب عن نسيان أو خطأ، فسؤال المغفرة غير مكرر.

و قد كرر لفظ الرب فى هذه الادعيه أربع مرات لبعث صفه الرحمة بالايماء و التلويح الى صفه العبوديه فإن ذكر الربوبيه يخطر بالبال صفه العبوديه و المذله.

قوله تعالى: أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ، استئناف و دعاء مستقل، و المولى هو الناصر لكن لا كل ناصر بل الناصر الذى يتولى أمر المنصور فإنه من الولاية بمعنى تولى الامر، و لما كان تعالى وليا للمؤمنين فهو موليتهم فيما يحتاجون فيه الى نصره، قال تعالى: وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (آل عمران ٦٨)، و قال تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (محمد ١١).

و هذا الدعاء منهم يدل على انهم ما كان لهم بعد السمع و الطاعة لأصل الدين هم إلا فى إقامته و نشره و الجهاد لإعلان كلمه الحق، و تحصيل اتفاق كلمه الامم عليه، قال تعالى: قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (يوسف ١٠٨)، فالدعوه الى دين التوحيد هو سبيل الدين و هو الذى يتعقب الجهاد و القتال و الامر بالمعروف و النهى عن المنكر و سائر أقسام الدعوه و الانذار، كل ذلك لحسم ماده الاختلاف من بين هذا النوع، و يشير الى ما به من الاهميه فى نظر شارع الدين قوله تعالى:

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ (الشورى ١٣)، فقولهم انت مولانا فانصرنا يدل على جعلهم الدعوه العامه فى الدين أول ما يسبق الى أذهانهم بعد عقد القلب على السمع و الطاعة، و الله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

[سوره آل عمران (٣): الآيات ١ الى ٦]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَ
أَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو
(٤) إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ (٦)

بيان:

غرض السوره دعوه المؤمنين الى توحيد الكلمه فى الدين و الصبر و الثبات فى حمايه حماه

بتنبيههم بما هم عليه من دقه الموقف لمواجهتهم أعداء كاليهود و النصارى و المشركين و قد جمعوا جمعهم و عزموا عزمهم على إطفاء نور الله تعالى بأيديهم و بأفواههم.

و يشبه أن تكون هذه السوره نازله دفعه واحده، فإن آياتها- و هى مائتا آيه-ظاهره الاتساق و الانتظام من أولها الى آخرها، متناسبه آياتها، مرتبطه أغراضها.

و لذلك كان مما يترجح فى النظر أن تكون السوره إنما نزلت على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و قد استقر له الأمر بعض الاستقرار و لما يتم استقراره، فإن فيها ذكر غزوه أحد، و فيها ذكر المباهله مع نصارى نجران، و ذكرنا من أمر اليهود، و حثنا على المشركين، و دعوه الى الصبر و المصابره و المرابطه، و جميع ذلك يؤيد أن السوره نزلت أيام كان المسلمون مبتلين بالدفاع عن حمى الدين بعامة قواهم و جميع أركانهم، فمن جانب كانوا يقاومون الفشل و الفتور الذين يدبان فى داخل جماعتهم بفتنه اليهود و النصارى، و يحاجونهم و يجاوبونهم، و من جانب كانوا يقاتلون المشركين، و يعيشون فى حال الحرب و انسلاخ الأمن، فقد كان الاسلام فى هذه الأيام قد انتشر صيته فثارت الدنيا عليه من اليهود و النصارى و مشركى العرب، و وراء ذلك الروم و العجم و غيرهم.

و الله سبحانه يذكر المؤمنين فى هذه السوره من حقائق دينه الذى هداهم به ما يطيب به نفوسهم، و يزول به رين الشبهات و الوسوس الشيطانيه و تسويلات أهل الكتاب عن قلوبهم، و يبين لهم: أن الله سبحانه لم يغفل عن تدبير ملكه، و لم يعجزه خلقه، و إنما اختار دينه و هدى جمعا من عباده اليه على طريقه العاده الجاريه، و السنه الدائمه، و هى سنه العلل و الأسباب، فالمؤمن و الكافر جاريان على سنه الأسباب، فيوم للكافر و يوم للمؤمن، فالدار دار الامتحان، و اليوم يوم العمل، و الجزاء غدا.

قوله تعالى: **لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**، قد مرّ الكلام فيه فى تفسير آيه الكرسي، و تحصل من هناك أن المراد به بيان قيامه تعالى أتم القيام على أمر الإيجاد و التدبير،

فنظام الموجودات بأعيانها و آثارها تحت قيمومه الله لا مجرد قيمومه التأثير كالقيمومه فى الأسباب الطبيعىه الفاقده للشعور بل قيمومه حياه تستلزم العلم و القدره؛ فالعلم الإلهى نافذ فيها لا يخفى عليه شىء منها، و القدره مهيمنه عليها لا يقع منها إلا ما شاء وقوعه و أذن فيه، و لذلك عقبه بقوله بعد آيتين: إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض و لا فى السماء هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء.

قوله تعالى: نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، قد مر أن التنزيل يدل على التدرىج كما أن الإنزال يدل على الدفعه.

و ربما ينقض ذلك بقوله: لَوْ لَا نَزَّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ جُمْلَةً وَاحِدَةً (الفرقان ٣٢)، و بقوله تعالى: أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً (المائدة ١١٢)، و قوله تعالى: لَوْ لَا نَزَّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ (الأنعام ٣٧)، و قوله تعالى: قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً (الأنعام ٣٧)، و لذلك ذكر بعض المفسرين: أن الأولى أن يقال: إن معنى نزل عليك الكتاب: أنزله إنزالاً بعد إنزال دفعاً للنقض.

و الجواب: أن المراد بالتدرىج فى النزول ليس هو تخلل زمان معتد به بين نزول كل جزء من اجزاء الشىء و بين جزئه الآخر بل الأشياء المركبه التى توجد بوجود أجزائها لوجودها نسبه الى مجموع الاجزاء و بذلك يصير الشىء أمراً واحداً غير منقسم، و التعبير عنه من هذه الجهه بالنزول كقوله تعالى: أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً (الرعد ١٧)، و هو الغيث. و نسبته من حيث وجوده بوجود أجزائه واحداً بعد واحد سواء تخلل بينهما زمان معتد به أو لم يتخلل و هو التدرىج، و التعبير عنه بالتنزيل كقوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ (الشورى / ٢٨).

و من هنا يظهر: أن الآيات المذكوره للنقض غير ناقضه فإن المراد بقوله لو لا نزل عليه القرآن جمله واحده الآية: أن ينزل عليه القرآن آيه بعد آيه فى زمان متصل واحد من غير

تخلل زمان معتد به كما كان عليه الأمر في نزول القرآن في الشئون و الحوادث و الأوقات المختلفه، و بذلك يظهر الجواب عن بقيه الآيات المذكوره.

و أما ما ذكره البعض المزبور فهو على أنه استحسان غير جائز في اللغة البتة، لا يدفع شيئاً من النقص بالآيات المذكوره، بل هي بحالها و هو ظاهر.

و قد جرى كلامه تعالى ان يعبر عن إفاضه الكتاب على النبي صلى الله عليه و آله و سلم بالتنزيل و النزول، و النزول يستلزم مقاما أو مكانا عاليا رفيعا يخرج منه الشئء نوعا من الخروج و يقصد مقاما أو مكانا آخر أسفل فيستقر فيه، و قد وصف نفسه تعالت ذاته بالعلو و رفعه الدرجات و قد وصف كتابه أنه من عنده، قال تعالى: **إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ** (الشورى ٥١)، و قال تعالى:

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ (البقره ٨٩)، فصح بذلك استعمال لفظ النزول في مورد استقرار الوحي في قلب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، و قد ذكروا أن الحق هو الخبر من حيث إن بحذائه خارجا ثابتا كما ان الصدق هو الخبر من حيث إنه مطابق للخارج، و على هذا فإطلاق الحق على الأعيان الخارجيه و الامور الواقعيه كما يطلق على الله سبحانه: أنه حق، و على الحقائق الخارجيه أنها حقه إنما هو من جهه أن كلا- منها حق من جهه الخبر عنها، و كيف كان فالمراد بالحق في الآيه: الامر الثابت الذي لا يقبل البطلان.

و الظاهر أن الباء في قوله: **بِالْحَقِّ** للمصاحبه و المعنى: نزل عليك الكتاب تنزيلا يصاحب الحق و لا يفارقه، فيوجب مصاحبه الحق ان لا يطرأ عليه و لا يخالطه باطل فهو في أمن من جهه ظهور الباطل عليه، ففي قوله: **نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ** استعاره بالكنايه، و قد قيل في معنى الباء وجوه أخر لا يخلو عن سقم.

و التصديق من الصدق يقال: صدقت مقالا كذا أى قررته على الصدق و اعترفت بكونه صدقا و صدقت فلانا أى اعترفت بصدقه فيما يخبر به.

و المراد مما بين يديه التوراه و الانجيل كما قال تعالى: **إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى** الى ان

قال: وَ آتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى إِلَى أَنْ قَالَ: وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ الْآيَةَ (المائدة ٤٨)، و الكلام لا يخلو عن دلالة على أن ما بأيدي اليهود و النصارى من التوراه و الانجيل لا يخلو عن بعض ما أنزله الله على موسى و عيسى عليهما السلام، و إن كانا لا يخلوان عن السقط و التحريف، فإن الدائر بينهم فى عصر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم هو التوراه الموجوده اليوم و الانجيل الأربعة المشهوره، فالقرآن يصدق التوراه و الانجيل الموجودين، لكن فى الجملة لا بالجملة لمكان الآيات الناطقه بالتحريف و السقط فيهما، قال تعالى: وَ لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى أَنْ قَالَ: وَ جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ إِلَى أَنْ قَالَ: وَ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِذَا نَصَرْنَا رَأَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ الْآيَةَ (المائدة ١٤).

قوله تعالى: وَ أَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلِ هُدًى لِلدَّاسِ، التوراه كلمه عبرانيه بمعنى الشريعة، و الانجيل لفظ يونانى، و قيل فارسى الأصل معناه البشاره، و سيجىء استيفاء البحث عن الكتابين فى قوله تعالى: إِذَا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَ نُورٌ الْآيَاتِ (المائدة ٤٤).

و مما أصر عليه القرآن تسميه كتاب عيسى عليه السلام بالإنجيل بصيغه الافراد و القول بأنه نازل من عند الله سبحانه، مع ان الأنجيل كثيره، و المعروفه منها أعنى الأنجيل الأربعة كانت موجوده قبل نزول القرآن و فى عهده، و هى التى ينسب تأليفها الى لوقا و مرقس و متى و يوحنا، و لا يخلو ما ذكرناه من أفراد الاسم و التوصيف بالنزول عن دلالة على التحريف و الإسقاط، و كيف كان لا يخلو ذكر التوراه و الانجيل فى هذه الآيه و فى أول السوره من التعريض لليهود و النصارى على ما سيدكره من أمرهم و قصص تولد عيسى و نبوته و رفعه.

قوله تعالى: وَ أَنْزَلَ الْفُرْقَانَ، الفرقان ما يفرق به بين الحق و الباطل على ما فى الصحاح، و اللفظ بمادته يدل على الأعم من ذلك، و هو كل ما يفرق به بين شىء و شىء. قال

تعالى: يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقِي الْجَمْعَانِ (الأنفال ٤١)، وقال تعالى: يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا (الأنفال ٢٩). وإذا كان الفرق المطلوب عند الله فيما يرجع الى معنى الهدايه هو الفرق بين الحق و الباطل فى العقائد و المعارف و بين وظيفه العبد و ما ليس بوظيفه له بالنسبه الى الأعمال الصادره عنه فى الحياه الدنيا انطبق معناه على مطلق المعارف الأصلية و الفرعيه التى أنزلها الله تعالى على أنبيائه بالوحي، أعم من الكتاب و غيره. قال تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَ هَارُونَ الْفُرْقَانَ (الأنبياء ٤٨)، وقال تعالى: وَ إِذِ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ الْفُرْقَانَ (البقره ٥٣)، وقال تعالى: تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَيَّ عَبْدِهِ لِيُكَونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (الفرقان ١).

و قد عبر تعالى عن هذا المعنى بالميزان فى قوله: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَ أَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَ الْمِيزَانَ لِيُقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ (الحديد ٢٥). و هو فى وزان قوله: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ (البقره ٢١٣). فالميزان كالفرقان هو الدين الذى يحكم بين الناس بالعدل مع ما ينضم اليه من المعارف و وظائف العبوديه، و الله أعلم.

و قيل: المراد بالفرقان القرآن. و قيل: الدلاله الفاصله بين الحق و الباطل. و قيل: الحججه القاطعه لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم على من حازه فى أمر عيسى. و قيل: النصر. و قيل: العقل. و الوجه ما قدمناه.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ - الى قوله - ذُو انْتِقَامٍ، الانتقام على ما قيل مجازاه المسىء على إساءته، و ليس من لازم المعنى أن يكون للتشفى، فإن ذلك من لوازم الانتقامات التى بيننا حيث إن إساءه المسىء يوجب منقصه و ضررا فى جانبنا فتندارك ذلك بالمجازاه الشديده التى توجب تشفى قلوبنا، و أما هو تعالى فأعز ساحة من أن ينتفع أو يتضرر بشىء من أعمال عباده، لكنه وعد - له الوعد الحق - أن سيقضى بين عباده بالحق إن خيرا

فخيرا و إن شرافرا. قال تعالى: وَ اللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ (المؤمن ٢٠)، و قال تعالى:

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَ يَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (النجم ٣١). كيف و هو عزيز على الإطلاق منبع الجانب من أن ينتهك محارمه. و قد قيل إن الأصل فى معنى العزه الامتناع.

و قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ، من حيث إطلاق العذاب و عدم تقييده بالآخره أو يوم القيمه ربما تضمن الوعيد بالعذاب فى الدنيا كما فى الآخره. و هذا من الحقائق القرآنيه التى ربما قصر الباحثون فى استيفاء البحث عنه و ليس ذلك إلا لكوننا لا نعد شيئا عذابا إلا اذا اشتمل على شىء من الآلام الجسمانيه، أو نقص أو فساد فى النعم الماديه كذهاب الأموال و موت الأعزه و نقاهه الأبدان، مع أن الذى يعطيه القرآن بتعليمه أمر وراء ذلك (١).

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ الخ؛ قد علل تعالى عذاب الذين كفروا بآياته بأنه عزيز ذو انتقام لكن لما كان هذا التعليل لا يخلو عن حاجه الى ضميمه تنضم إليه ليتم المطلوب فإن العزيز ذا الانتقام يمكن أن يخفى عليه كفر بعض من كفر بنعمته فلا يبادر بالعذاب و الانتقام، فعقب لذلك الكلام بقوله: إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ، فبين أنه عزيز لا يخفى عليه شىء ظاهر على الحواس و لا- غائب عنها، و من الممكن أن يكون المراد مما فى الارض و ما فى السماء الأعمال الظاهره القائمه بالجوارح و الخفيه الكامنه فى القلوب على حد ما نبهنا عليه فى قوله تعالى: لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ الْآيَه (البقره ٢٨٤).

قوله تعالى: هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ، التصوير إلقاء

ص: ٣٩٤

(١- ١). آل عمران ١-٦: كلام فى معنى العذاب فى القرآن.

الصورة على الشيء و الصورة تعم ما له ظل كالمثال و ما لا ظل له. و الأرحام جمع رحم و هو مستقر الجنين من الإناث.

قوله تعالى: لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، فيه عود الى ما بدئ به الكلام في الآيات من التوحيد، و هو بمنزله تلخيص الدليل للتأكيد.

فإن هذه الامور المذكوره أعنى: هدايه الخلق بعد ايجادهم، و إنزال الكتاب و الفرقان، و إتقان التدبير بتعذيب الكافرين امور لا بد أن تستند الى إله يدبرها و اذ لا إله إلا الله تعالى شأنه فهو الذى يهدى الناس و هو الذى ينزل الكتاب و الفرقان، و هو يعذب الكافرين بآياته، و إنما يفعل ما يفعل من الهدايه و الإنزال و الانتقام و التقدير بعزته و حكمته (١).

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٧ الى ٩]

اشاره

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَنْ يَعْلَمْ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧) رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩)

ص: ٣٩٥

١-١). آل عمران ١-٦: بحث روائي في: وفد نجران، مناظره الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم مع وفد نجران حول النبي عيسى عليه السلام؛ تكوين الانسان.

قوله تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ، عبر تعالى بالإنزال دون التنزيل لأن المقصود بيان بعض أوصاف مجموع الكتاب النازل و خواصه، و هو أنه مشتمل على آيات محكمة و آخر متشابهه ترجع الى المحكمات و تبين بها، فالكتاب مأخوذ بهذا النظر أمرا واحدا من غير نظر الى تعدد و تكثر، فناسب استعمال الإنزال دون التنزيل.

قوله تعالى: مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ، مادمه حكم تفيد معنى كون الشيء بحيث يمنع ورود ما يفسده أو يبعثه أو يخل أمره عليه، و منه الإحكام و التحكيم، و الحكم بمعنى القضاء، و الحكمه بمعنى المعرفة التامه و العلم الجازم النافعه، و الحكمه بفتح الحاء لزمام الفرس، ففى الجميع شىء من معنى المنع و الإتيان، و ربما قيل: إن الماده تدل على معنى المنع مع إصلاح.

و المراد هاهنا من إحكام المحكمات إتيان هذه الآيات من حيث عدم وجود التشابه فيها كالمتشابهات، فإنه تعالى و إن وصف كتابه بإحكام الآيات فى قوله: كِتَابٌ أُحْكِمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَضَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (هود ١)، لكن اشتمال الآيه على ذكر التفصيل بعد الإحكام دليل على أن المراد بالإحكام حال من حالات الكتاب كان عليها قبل النزول و هى كونه واحدا لم يطرأ عليه التجزى و التبعض بعد بتكثُر الآيات، فهو إتيانه قبل وجود التبعض، فهذا الإحكام وصف لتمام الكتاب، بخلاف وصف الإحكام و الإتيان الذى لبعض آياته بالنسبه الى بعض آخر من جهة امتناعها عن التشابه فى المراد (١).

قوله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ

ص: ٣٩٦

و ابتغاء تَأْوِيلِهِ، الزيف هو الميل عن الاستقامه، و يلزمه اضطراب القلب و قلقه بقريته ما يقابله في ذيل الآيه من قوله: وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا، فَإِنَّ الْآيَةَ تَصِفُ حَالَ النَّاسِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى تَلْقَى الْقُرْآنَ بِمُحْكَمِهِ وَ مُتَشَابِهِهِ، وَ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ زَائِعُ الْقَلْبِ وَ مَائِلُهُ وَ مُضْطَرِبُهُ فَهُوَ يَتَّبِعُ الْمُتَشَابِهَ ابْتِغَاءً لِلْفِتْنَةِ وَ التَّأْوِيلِ، وَ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ رَاسِخُ الْعِلْمِ مُسْتَقِرُّ الْقَلْبِ يَأْخُذُ بِالْمُحْكَمِ وَ يُؤْمِنُ بِالْمُتَشَابِهِ وَ لَا يَتَّبِعُهُ، وَ يَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ لَا يَزِيغَ قَلْبَهُ بَعْدَ الْهُدَايَةِ.

و من هنا يظهر: أن المراد باتباع المتشابه اتباعه عملا- لا- إيمانا، و ان هذا الاتباع المذموم اتباع للمتشابه من غير ارجاعه الى المحكم، اذ على هذا التقدير يصير الاتباع اتباعا للمحكم و لا ذم فيه.

و المراد بابتغاء الفتنة طلب إضلال الناس، فإن الفتنة تقارب الاضلال في المعنى، يقول تعالى: يريدون باتباع المتشابه إضلال الناس في آيات الله سبحانه، و أمرا آخر هو أعظم من ذلك، و هو الحصول و الوقوف على تأويل القرآن و ما أخذ أحكام الحلال و الحرام حتى يستغنوا عن اتباع محكمات الدين فينتسخ بذلك دين الله من أصله.

و التأويل من الاول و هو الرجوع، فتأويل المتشابه هو المرجع الذي يرجع إليه، و تأويل القرآن هو المأخذ الذي يأخذ منه معارفه (1).

قوله تعالى: وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ، ظاهر الكلام رجوع الضمير الى ما تشابه، لقربه كما هو الظاهر أيضا في قوله: وَ ابْتِغَاءً تَأْوِيلَهُ، و قد عرفت أن ذلك لا- يستلزم كون التأويل مقصورا على الآيات المتشابهه. و من الممكن أيضا رجوع الضمير الى الكتاب كالضمير في قوله: مَا تَشَابَهَ مِنْهُ .

و ظاهر الحصر كون العلم بالتأويل مقصورا عليه سبحانه، و أما قوله: وَ الرَّاسِخُونَ فِي

ص: ٣٩٧

الْعِلْمُ، فظاهر الكلام أن الواو للاستيناف بمعنى كونه طرفا للترديد الذى يدل عليه قوله فى صدر الآيه: فأما الذين فى قلوبهم زيغ، والمعنى: أن الناس فى الأخذ بالكتاب قسمان: فمنهم من يتبع ما تشابه منه و منهم من يقول اذا تشابه عليه شىء منه: آمننا به كل من عند ربنا، وإنما اختلفا لاختلافهم من جهة زيغ القلب و رسوخ العلم.

على أنه لو كان الواو للعطف، و كان المراد بالعطف تشريك الراسخين فى العلم بالتأويل كان منهم رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم و هو أفضلهم و كيف يتصور أن ينزل القرآن على قلبه و هو لا يدرى ما اريد به، و من دأب القرآن اذا ذكر الامه أو وصف أمر جماعه و فيهم رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم أن يفرد بالذكر أولا- و يميزه بالشخص تشريفا له و تعظيما لأمره ثم يذكرهم جميعا كقوله تعالى:

آمِينَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ (البقره ٢٨٥)، و قوله تعالى: ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَيِّئَاتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (التوبه ٢٦)، و قوله تعالى: لَكِنَّ الرَّسُولَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ (التوبه ٨٨)، و قوله تعالى: وَ هَذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا (آل عمران ٦٨)، و قوله تعالى: لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ (التحریم ٨)، الى غير ذلك، فلو كان المراد بقوله: وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ، إنهم عالمون بالتأويل- و رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم منهم قطعاً- كان حق الكلام كما عرفت أن يقال: و ما يعلم تأويله إلاّ الله و رسوله و الراسخون فى العلم، هذا و إن أمكن أن يقال: إن قوله فى صدر الآيه: هو الذى أنزل عليك الكتاب، الخ؛ يدل على كون النبى عالما بالكتاب فلا حاجه الى ذكره ثانيا.

فالظاهر أن العلم بالتأويل مقصور فى الآيه عليه تعالى، و لا ينافى ذلك ورود الاستثناء عليه كما أن الآيات داله على انحصار علم الغيب عليه تعالى مع ورود الاستثناء عليه كما فى قوله تعالى: عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ (الجن / ٢٧)، و لا- ينافيه أيضا: كون المستثنى الراسخين فى العلم بعينهم، اذ لا منافاه بين أن تدل هذه الآيه على شأن من شئون الراسخين فى العلم، و هو الوقوف عند شبهه و الإيمان و التسليم فى

مقابل الزائغين قلبا و بين أن تدل آيات أخر على أنهم أو بعضا منهم عالمون بحقيقه القرآن و تأويل آياته على ما سيجىء بيانه.

قوله تعالى: **وَ الرّٰسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا**، الرسوخ هو أشد الثبات، و وقوع الراسخين فى العلم فى مقابله الذين فى قلوبهم زيغ ثم توصيفهم بأنهم يقولون آمنا به كل من عند ربنا يدل على تمام تعريفهم، و هو أن لهم علما بالله و بآياته لا يدخله ريب و شك، فما حصل لهم من العلم بالمحكمات ثابت لا يتزلزل، و هم يؤمنون به و يتبعونه أى يعلمون به و اذا وردت عليهم آيه متشابهه لم يوجب تشابهها اضطراب قلوبهم فيما عندهم من العلم الراسخ بل آمنوا بها و توقفوا عن اتباعها عملا.

و فى قولهم: آمنا به كل من عند ربنا ذكر الدليل و النتيجة معا فإن كون المحكم و المتشابه جميعا من عند الله تعالى يوجب الايمان بالكل: محكمه و متشابهه، و وضوح المراد فى المحكم يوجب اتباعه عملا، و التوقف فى المتشابه من غير رده لأنه من عند الله و لا- يجوز اتباع ما ينافى المحكم من معانيه المتشابهه لسطوع البيان فى المحكم فيجب أن يتبع من معانيه المحتمل ما يوافق معنى المحكم، و هذا بعينه إرجاع المتشابه الى المحكم فقوله: **كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا** بمنزله الدليل على الأمرين جميعا، أعنى: الايمان و العمل فى المحكم، و الايمان فقط فى المتشابه و الرجوع فى العمل الى المحكم.

قوله تعالى: **وَ مَا يَدَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**، التذكر هو الانتقال الى دليل الشىء لاستنتاجه، و لما كان قولهم: كل من عند ربنا كما مر استدلالا منهم و انتقالا لما يدل على فعلهم سماه الله تعالى تذكرا و مدحهم به.

و الألباب جمع لب و هو العقل الزكى الخالص من الشوائب، و قد مدحهم الله تعالى مدحا جميلا فى موارد من كلامه، و عرفهم بأنهم أهل الايمان بالله و الإنابه اليه و اتباع أحسن القول، ثم وصفهم بأنهم على ذكر من ربهم دائما فأعقب ذلك أنهم أهل التذكر أى الانتقال الى المعارف

الحقه بالدليل و أهل الحكمه و المعرفه، قال تعالى: وَ الَّذِينَ اخْتَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَ أُولَئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (الزمر ١٨/)، و قال تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَ قُعُودًا وَ عَلَيَّ جُنُوبِهِمْ (آل عمران ١٩١/)، و هذا الذكر الدائم و ما يتبعه من التذلل و الخضوع هو الإنابه الموجه لتذكرهم بآيات الله و انتقالهم الى المعارف الحقه كما قال تعالى: وَ مَا يَتَذَكَّرْ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (غافر ١٣/)، و قد قال وَ مَا يَذَكَّرْ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ (البقره ٢٦٩/)، (آل عمران ٧/).

قوله تعالى: رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَ هَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ، و هذا من آثار رسوخهم فى العلم فإنهم لما علموا بمقام ربهم، و عقلوا عن الله سبحانه أيقنوا أن الملك لله وحده، و أنهم لا يملكون لأنفسهم شيئاً فمن الجائز أن يزيع قلوبهم بعد رسوخ العلم فالتجئوا الى ربهم، و سألوه أن لا يزيع قلوبهم بعد اذ هداهم، و أن يهب لهم من لدنه رحمه تبقى لهم هذه النعمه، و يعينهم على السير فى صراط الهدايه، و السلوك فى مراتب القرب.

و أما سؤال أن يهبهم رحمه بعد سؤال أن لا يزيع قلوبهم فلأن عدم إزاعه القلب لا يستلزم بقاء الرسوخ فى العلم فمن الجائز أن لا يزاع قلوبهم و ينتزع عنها العلم فتبقى سدى مهمله لا سعداء بالعلم و لا أشقياء بالازاعه بل فى حال الجهل و الاستضعاف، و هم فى حاجه مبرمه الى ما هم عليه من العلم، و مع ذلك لا تقف حاجتهم فى ما هم عليه من الموقف بل هم سائرو طريق يحتاجون فيه الى أنواع من الرحمه لا يعلمها و لا يحصيها إلا الله سبحانه، و هم مستشعرون بحاجتهم هذه، و الدليل عليه قولهم بعد: ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه.

فقولهم: ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا، استعاذه من نزول الزيع الى قلوبهم و إزاعته

العلم الراسخ الذى فيها، و قولهم: و هب لنا من لدنك رحمه إنك أنت الوهاب استمطار لسحاب الرحمه حتى تدوم بها حياه قلوبهم، و تنكير الرحمه، و توصيفها بكونها من لدنه إظهار منهم الجهل بشأن هذه الرحمه، و أنها كيف ينبغي أن تكون غير أنهم يعلمون أنه لو لا رحمه من ربهم و لو لا كونها من لدنه لم يتم لهم أمر.

و فى الاستعاذه من الزيغ الى الله محضا و استيهاب الرحمه من لدنه محضا دلالة على أنهم يرون تمام الملك لله محضا من غير توجه الى أمر الأسباب.

قوله تعالى: رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ، هذا منهم بمنزله التعليل لسؤال الرحمه، و ذلك لعلمهم بأن إقامه نظام الخلقه و دعوه الدين و كدح الإنسان فى مسير وجوده كل ذلك مقدمه لجمعهم الى يوم القيامه الذى لا يغنى فيه و لا ينصر أحد إلا بالرحمه كما قال تعالى: إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ (الدخان ٤٢/١)، و لذلك سألوا رحمه من ربهم و فوضوا تعيينها و تشخيصها اليه لينفعهم فى أمرهم.

و قد وصفوا هذا اليوم بأنه لا ريب فيه لنتجه بذلك كمال اهتمامهم بالسؤال و الدعاء، و عللوا هذا التوصيف أيضا بقولهم: إن الله لا يخلف الميعاد لأن شأنهم الرسوخ فى العلم، و لا يرسخ العلم بشيء و لا يستقر تصديق إلا مع العلم بعلته المنتجه، و عله عدم ارتيابهم فى تحقق هذا اليوم هو ميعاد الله سبحانه به فذكروه (١)(٢)(٣).

ص: ٤٠١

- ١ - ١. آل عمران ٧-٩: كلام تفصيلي فى المحكم و المتشابه و التأويل (المحكم و المتشابه، ما معنى كون المحكمات ام الكتاب؟ ما معنى التأويل؟ هل يعلم تأويل القرآن غير الله سبحانه؟ ما هو السبب فى اشمال الكتاب على المتشابه).
- ٢ - ٢. آل عمران ٧-٩: بحث روائى فى: المحكم و المتشابه؛ الراسخون فى العلم.
- ٣ - ٣. آل عمران ٧-٩: بحث روائى فى تفسير القرآن.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ
 قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتْغَلْبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ
 (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ
 إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣) زَيْنَ لِّدَّاسٍ حُبِّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَ
 الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَتُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا
 عِنْدَ رَبِّهِمْ جَزَاءٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ
 رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَفِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧) شَهِدَ
 اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، أغنى عنه ماله من فلان أى أعطاه الغنى و رفع حاجته فلا حاجة به اليه و الانسان فى بادية تكونه و شعوره يرى نفسه محتاجه الى الخارج منه، و هذا أول علمه الفطرى الى احتياجه الى الصانع المدبر ثم إنه لما توسط فى الأسباب و أحس بحوائجه بدأ بإحساس الحاجة الى كماله البدنى النباتى و هو الغذاء و الولد، ثم عرفت له نفسه سائر الكمالات الحيوانيه، و هى التى يزينها له الخيال من زخارف الدنيا من زينه الملبس و المسكن و المنكح و غير ذلك، و عندئذ يتبدل طلب الغذاء الى طلب المال الذى يظنه مفتاحا لحل جميع مشكلات الحياه لأن العاده الغالبه تجرى على ذلك فيظن أن سعادته حياهه فى المال و الولد بعد ما كان يظن أن ضامن سعادته هو الغذاء و الولد، ثم انكباب نفسه على مشتوياته، و قصر همه على الأسباب يوجب أن يقف قلبه عند الأسباب، و يعطى لها الاستقلال، و حينئذ ينسى ربه، و يتشبث بذيل المال و الولد، و فى هذا الجهل هلاكه فإنه يستر به آيات ربه و يكفر بها، و قد التبس عليه الأمر فإن ربه هو الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا يستغنى عنه شىء بحال و لا يغنى عنه شىء بحال.

قوله تعالى: وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ، الوقود بفتح الواو ما توقد به النار و تشتعل، و الآيه جاريه مجرى قوله تعالى: فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجَارَةُ (البقره / ٢٤)، و قوله تعالى: إِنَّكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ (الأنبياء / ٩٨)، و قد مر بعض الكلام فى معنى ذلك فى سورة البقره.

والايتان بالجمله الاسميه، والابتداء باسم الإشارة، وكونه دالا على البعد و توسط ضمير الفصل، وإضافه الوقود الى النار دون أن يقال وقود، كل ذلك يؤكد ظهور الكلام في الحصر، ولازمه كون المكذبين من الكفار هم الأصل في عذاب النار وإيقاد جهنم، وأن غيرهم إنما يحترقون بنارهم؛ ويتأيد بذلك ما سيأتي بيانه في قوله تعالى: لِيُمَيِّزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضِ الْآيَةِ (الأنفال/٣٧).

قوله تعالى: كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ الى آخر الآيه؛ الدأب على ما ذكره هو السير المستمر، قال تعالى: وَ سَيَخْرُ لَكُمْ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ دَائِبِينَ (إبراهيم/٣٣)، ومنه تسميه العاده دأبا لأنه سير مستمر، وهذا المعنى هو المراد في الآيه.

وقوله كَذَّابِ، متعلق بمقدر يدل عليه قوله في الآيه السابقه: لن تغنى عنهم، ويفسر الدأب قوله: كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا و هو في موضع الحال؛ وتقدير الكلام كما مرت اليه الإشارة: إن الذين كفروا كذبوا بآياتنا واستمروا عليها دائبين فزعموا أن في أموالهم وأولادهم غنى لهم من الله كذاب آل فرعون و من قبلهم و قد كذبوا بآياتنا.

وقوله تعالى: فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ، ظاهر الباء أنها تفيد السببيه، يقال:

أخذته بذنبه أى بسبب ذنبه لكن مقتضى المحاذاه التي بين الآيتين؛ وقياسه حال هؤلاء الذين كفروا في دأبهم على آل فرعون و الذين من قبلهم في دأبهم أن يكون البناء للآله، فإنه ذكر في الذين كفروا أنهم و قود النار تشتعل عليهم أنفسهم و يعذبون بها فكذلك آل فرعون و من قبلهم إنما أخذوا بذنوبهم و كان العذاب الذى حل بساحتهم هو عين الذنوب التي اذنبوها، و كان مكرهم هو الحائق بهم، و ظلمهم عائدا اليهم، قال تعالى: وَ لَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ (فاطر/٤٣)، و قال تعالى: وَ مَا ظَلَمُونَا وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (البقره/٥٧).

فالمعنى -و الله أعلم- أن آل فرعون كانوا دائبين على دأب هؤلاء الذين كفروا في الكفر

و تكذيب الآيات، ولا ريب في هذا الخبر فإننا كنا حاضرين شاهدين و قد كذبوا بآياتنا نحن فأخذناهم.

□
و أما قوله: فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ، فهو رجوع بعد استيفاء المقصود الى الأصل في الكلام و هو اسلوب الغيبة، و فيه مع ذلك إرجاع الحكم الى مقام اللوحيه القائمه بجميع شئون العالم و المهيمنه على كل ما دق و جل، و لذلك كرر لفظ الجلاله ثانيا في قوله و الله شديد العقاب، و لم يقل: و هو شديد العقاب للدلاله على أن كفرهم و تكذيبهم هذا منازعه و محاربه مع من له جلال اللوحيه و يهون عليه أخذ المذنب بذنبه، و هو شديد العقاب لأنه الله جل اسمه.

قوله تعالى: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتٌّ تَعْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ الى آخر الآيه؛ الحشر هو اخراج الجماعه عن مقرهم بالازعاج، و لا يستعمل في الواحد، قال تعالى: وَ حَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (الكهف ٤٧)، و المهاد هو الفراش، و ظاهر السياق أن المراد بالذين كفروا هم المشركون كما انه ظاهر الآيه السابقه: إن الذين كفروا لن تغني عنهم، الخ؛ دون اليهود، و هذا هو الأنسب لاتصال الآيتين حيث تذكر هذه الآيه الغلبه عليهم و حشرهم الى جهنم و قد أشارت الآيه السابقه الى تقويهم و تعززهم بالاموال و الأولاد.

□
قوله تعالى: قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَفَتَا؛ ظاهر السياق أن يكون الخطاب للذين كفروا، و الكلام من تتمه قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: ستغلبون و تحشرون، الخ؛ و من الممكن أن يكون خطابا للمؤمنين بدعوتهم الى الاعتبار و التفكير بما من الله عليهم يوم بدر حيث أيدهم بنصره تأييدا عجيبا بالتصرف في إبصار العيون، و على هذا يكون الكلام مشتملا على نوع من الالتفات بتوسعه خطاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ في قوله قُلْ لِلَّذِينَ بتوجيهه اليه و الى من معه من المؤمنين؛ لكن السياق - كما عرفت - للأول أنسب.

و الآيه - بما تشتمل عليه من قصه التقاء الفئتين و نصره تعالى للفئه المقاتله في سبيل الله - و ان لم تتعرض بتشخيص القصه و تسميه الوقعه غير أنها قابله الانطباق على وقعه بدر،

و السوره نازله بعدها بل و بعد احد.

فمحصل معنى الآيه: أنكم أيها المشركون لو كنتم من اولى الأبصار و البصائر لكفاكم فى الاعتبار و الدلاله على أن الغلبه للحق و أن الله يؤيد بنصره من يشاء و لا يغلب بمال و لا ولد ما رأيتموه يوم بدر فقد كان المؤمنون مقاتلين فى سبيل الله سبحانه، و قد كانوا فته قليله مستذلين لا- يبلغون ثلث الفئه الكافره، و لا- يقاسون بهم قوه، كانوا ثلاثمائه و ثلاثه عشر رجلا ليس لهم إلا سته أدرع و ثمانيه سيوف و فرسان، و كان جيش المشركين قريبا من ألف مقاتل لهم من العده و القوه و الخيل و الجمال و الهيئه ما لا يقدر بقدر، فنصر الله المؤمنين على قلتهم و ذلتهم على أعدائه و كثرهم فى أعينهم فكانوا يرونهم مثليهم رأى العين، و أيدهم الملائكه فلم ينفع المشركين ما كانوا يتعززون به من أموال و أولاد و لم يغنهم جمعهم و لا كثرتهم و قوتهم من الله شيئا.

و قد ذكر الله سبحانه دأب آل فرعون و الذين من قبلهم فى تكذيب آيات الله و أخذهم بذنوبهم فى سوره الأنفال عند ذكر القصة مرتين كما ذكره هاهنا بعينه.

و فى موعظتهم بتذكير وقعه بدر إيماء الى أن المراد بالغلبه فى الآيات السابقه الغلبه بالقتل و الإباده، فى آياته تهديد بالقتال.

قوله تعالى: **فِنَّهٗ تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ وَّ أُخْرٰى كَافِرَهٗ**، لم يقل و أُخرى فى سبيل الشيطان أو فى سبيل الطاغوت و نحو ذلك لأن الكلام غير مسوق للمقايسه بين السبيلين بل لبيان أن لا- غنى من الله تعالى، و أن الغلبه له فالمقابله بالحقيقه بين الايمان بالله و الجهاد فى سبيله و بين الكفر به تعالى.

و الظاهر من السياق أن الضميرين فى قوله يرونهم مثليهم راجعان الى قوله: **فِنَّهٗ تَقَاتِلُ**، أى الفئه الكافره يرون المؤمنين مثلى المؤمنين فهم يرونهم ستمائه و سته و عشرين و لقد كانوا ثلاثمائه و ثلاثه عشر رجلا، و أما احتمال اختلاف الضميرين مرجعا بأن يكون المعنى: يرون

المؤمنين مثلى عدد الكافرين فبعيد عن اللفظ، و هو ظاهر.

قوله تعالى: **وَ اللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ**، إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار، التأييد من الأيد و هو القوه، و المراد بالأبصار قيل: هو العيون الظاهرية لكون الآيه مشتمله على التصرف في رؤيه العيون، و قيل: هو البصائر لأن العبره إنما تكون بالبصيره القلبيه دون البصر الظاهري، و الأمر هين، فإن الله سبحانه في كلامه يعدد من لا يعتبر بالعبر و المثالات أعمى، و يذكر أن العين يجب أن تبصر و تميز الحق من الباطل و في ذلك دعوى أن الحق الذى يدعو اليه ظاهر متجسد محسوس يجب أن يبصره البصر الظاهر، و أن البصيره و البصر في مورد المعارف الإلهيه واحد (بنوع من الاستعاره) لنهايه ظهورها و وضوحها، و الآيات في ذلك كثيره جدا، و من أحسنها دلاله على ما ذكرنا قوله تعالى: **فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَ لَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** (الحج ١٧٤)، أى أن الأبصار إنما هي في القلوب دون الرؤوس، و قوله تعالى: **وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا** (الأعراف ١٧٩)، و الآيه في مقام التعجب، و قوله تعالى: **وَ جَعَلَ عَلَيَّ بَصِيرَهُ غِشَاوَةً** (الجاثيه ٢٣)، الى غير ذلك من الآيات، فالمراد بالأبصار فيما نحن فيه هو العيون الظاهرية بدعوى أنها هي التى تعتبر و تفهم فهو من الاستعاره بالكنايه، و النكته فيه ظهور المعنى كأنه بالغ حد الحس، و يزيد في لطفه أن المورد يتضمن التصرف في رؤيه العين الظاهره.

و ظاهر قوله: **إِنَّ فِي ذَلِكَ**، الخ؛ أنه تتمه لكلامه تعالى الذى يخاطب به النبي صلى الله عليه و آله و سلم و ليس تتمه لقول النبي المدلول عليه بقوله: **قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا، الخ؛** و الدليل عليه الكاف في قوله: **ذَلِكَ**، فإنه خطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم، و في هذا العدول الى الخطاب الخاص بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم إيماء الى قله فهمهم و عمى قلوبهم أن يعتبروا بأمثال هذه العبر.

قوله تعالى: **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ الخ؛** الآيه و ما يتلوها بمنزله البيان و شرح حقيقه الحال لما تقدم من قوله تعالى **آنفًا: إن الذين كفروا لن تغنى عنهم**

أموالهم و لا أولادهم من الله شيئاً، الخ؛ إذ يظهر منه أنهم يعتقدون الاستغناء بالأموال و الأولاد من الله سبحانه فالآية تبين أن سبب ذلك أنهم انكبوا على حب هذه المشتريات و انقطعوا إليها عن ما يهمهم من أمر الآخرة، و قد اشتبه عليهم الأمر فإن ذلك متاع الحياه الدنيا، ليس لها الا انها مقدمه لنيل ما عند الله من حسن المآب مع أنهم غير مبدعين فى هذا الحب و الاشتها و لا مبتكرون بل مسخرون بالتسخير الإلهى بتعزيز أصل هذا الحب فيهم ليم لهم الحياه الأرضيه فلو لا ذلك لم يستقم أمر النوع الإنسانى فى حياته و بقاءه بحسب ما قدره الله سبحانه من أمرهم حيث قال: **وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ** (البقره ٣٦).

و إنما قدر لهم ذلك ليتخذوها وسيله الى الدار الآخرة و يأخذوا من متاع هذه ما يتمتعون به فى تلك لا لينظروا الى ما فى الدنيا من زخرفها و زينتها بعين الاستقلال و ينسوا بها ما ورائها، و يأخذوا الطريق مكان المقصد فى عين أنهم سائرون الى ربهم، قال تعالى: **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَ إِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا** (الكهف / ٨).

إلا أن هؤلاء المغفلين أخذوا هذه الوسائل الظاهره الإلهيه التى هى مقدمات و ذرائع الى رضوان الله سبحانه امورا مستقلة فى نفسها محبوبه لذاتها و زعموا أنها تغنى عنهم من الله شيئاً فصارت نغمه عليهم بعد ما كانت نعمه و وبالا بعد ما كانت مثوبه مقربه. قال تعالى: **إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَ أَزْيَّتْ وَ ظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ** الى أن قال: **وَ يَوْمَ نَخْشِرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ الى أن قال: وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ** (يونس ٣٠)؛ تشير الآيات الى أمر الحياه و زينتها بيده تعالى لا ولى لها دونه لكن الإنسان باغتراره بظاهرها يظن أن أمرها اليه، و أنه قادر على تدبيرها و تنظيمها

فيتخذ لنفسه فيها شركاء-كالأصنام و ما بمعناها من المال و الولد و غيرهما،إن الله سيوقفه على زلته فيذهب هذه الزينه،و يزيل الروابط التي بينه و بين شركائه،و عند ذلك يضل عن الإنسان ما افتراه على الله من شريك في التأثير و يظهر له معنى ما علمه في الدنيا و حقيقته،و رد الى الله مولاه الحق.

و هذا التزين أعنى:ظهور الدنيا للإنسان بزينه الاستقلال و جمال الغايه و المقصد لا- يستند الى الله سبحانه فإن الرب العليم الحكيم أ منع ساحة من أن يدبر خلقه بتدبير لا يبلغ به غايته الصالحه،و قد قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ بِالْأَلْبَانِ عَلِيمٌ (الطلاق/٣)،و قال تعالى: وَ اللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ (يوسف/٢١)،بل إن استند وإنما يستند الى الشيطان قال تعالى: وَ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (الأنعام/٤٣)،و قال تعالى: وَ إِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ (الأنفال/٤٨).

نعم لله سبحانه الإذن في ذلك لitem أمر الفتنه،و تستقيم التريه كما قال تعالى: أ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (العنكبوت/٤)،و على هذا الإذن يمكن أن يحمل قوله تعالى: كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ (الأنعام/١٠٨)،و إن أمكن أيضا أن يحمل على ما مر من معنى التزين المنسوب إليه تعالى في قوله تعالى: إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (الكهف / ٧) (١).

قوله تعالى: ذَلِكُمْ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، أى هذه الشهوات امور يتمتع بها لإقامه هذه الحياه التي هي أقرب الحياتين منكم(و هما الحياه الدنيا و الحياه الاخرى)،و الحياه

ص: ٤٠٩

الدنيا وكذا المتاع الذى يتمتع به لها أمر فان دأثر ليس لها عاقبه باقيه صالحه، وصلاح العقبى و حسن المآب إنما هو عند الله سبحانه و هو قوله تعالى: وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ .

قوله تعالى: قُلْ أَ أُتْبِكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَمَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَاتٌ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ الآيه مسوقه لبيان قوله: وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ و قد وضع فيها محل هذه الشهوات الفانيه الباطله امور هى خير للانسان لكونها باقيه و حسنه حقيقه من غير بطلان، و هى امور مجانيه لهذه الشهوات فى ما يريده الانسان من خواصها و آثارها غير أنها خاليه عن القبح و الفساد غير صارفه للانسان عن ما هو خير منها، و هى الجنه و مطهرات الأزواج و رضوان الله تعالى.

و قد اختلفت الأزواج بالذكر مع كون ذكر الجنه كالمشتمل عليها لكون الوقاع أعظم اللذائذ الجسميه عند الانسان، و لذلك أيضا قدم ذكر النساء فى قوله: مِنَ النِّسَاءِ وَ الْبَنِينَ وَ الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ، الخ.

و أما الرضوان بكسر الراء و ضمها فهو الرضا، و هو أن يلائم الأمر الواقع نفس صاحبه من غير أن يمتنع منه و يدافعه، و يقابله السخط.

و قد تكرر فى القرآن ذكر رضى الله سبحانه، و هو منه تعالى كما يتصور بالنسبه الى فعل عبادته فى باب الطاعه كذلك يتصور بالنسبه الى غير باب الطاعه كالأوصاف و الأحوال و غير ذلك إلا- أن جل الموارد التى ذكر فيها أو كلها من قبيل الرضا بالطاعه، و لذلك ربما قوبل بينه و بين رضا العبد فرضاه عن عبده لطاعته، و رضى العبد عنه لجزائه الحسن أو لحكمه كقوله تعالى: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ (البينه ٨/)، و قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (الفجر ٢٨/)، و قوله تعالى: وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ الْآيَةِ (البراءه ١٠٠/).

و ذكر الرضوان هاهنا أعنى فى عداد ما هو خير للناس من مشتبهات الحياه الدنيا يدل على أنه نفسه من مشتبهات الإنسان أو يستلزم أمرا هو كذلك؛ ولذلك عنى بذكره فى مقابل الجنات و الأزواج فى هذه الآيه، وكذلك فى مقابل الفضل و المغفره و الرحمه فى قوله: فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْوَاناً (المائدہ ٢)، و قوله: وَ مَغْفِرَةً مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَاناً (الحديد ٢٩)، و قوله:

بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَ رِضْوَانٍ (البراءه ٢١).

و لعل الذى يكشف عن هذا الذى أبهمته هذه الآيه هو التدبير فى المعنى الذى ذكرناه و فى قوله تعالى: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، الآيه؛ و قوله: رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً، الآيه؛ حيث علق رضاه بأنفسهم، و الرضا عن أنفسهم غير الرضا عن أفعالهم فيعود المعنى الى أنه لا يمنعهم عن نفسه فيما يسألونه فيقول الى معنى قوله: لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا (ق ٣٥)، فى رضوان الله عن الانسان المشيه المطلقه للانسان.

و من هنا يظهر: أن الرضوان فى هذه الآيه قوبل به من الشهوات المذكوره فى الآيه السابقه أن الإنسان يحسب أنه لو اقتناها و خاصه القناطر المقنطره من بينها افادته إطلاق المشيه و أعطته سعه القدره فله ما يشاء، و عنده ما يريد. و قد اشتبه عليه الأمر فإنما يتم ذلك برضا الله الذى اليه أمر كل شىء.

قوله تعالى: وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ لما تحصل من هذه الآيه و التى قبلها: أن الله أعد للانسان فى كلتا الدارين (الدنيا و الآخره) نعما يتنعم بها و مآرب اخرى مما تلتذ به نفسه كالأزواج، و ما يؤكل و يشرب، و الملك و نحوها، و هى متشابهه فى الدارين غير أن ما فى الدنيا مشترك بين الكافر و المؤمن مبدول لهما معا و ما فى الآخره مختص بالمؤمن لا يشاركه فيها الكفار كان المقام مظنه سؤال الفرق فى ذلك، و بلفظ آخر سؤال وجه المصلحه فى اختصاص المؤمن بنعم الآخره أجاب عنه بقوله: وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ، و معناه: أن هذا الفرق الذى فرق الله به بين المؤمن و الكافر ليس مبني على العبث و الجراف تعالى عن ذلك بل إن فى

الفريقين أمرا هو المستدعى لهذا الفرق و الله بصير بهم يرى ما فيهم من الفرق و هو التقوى فى المؤمن دون الكافر، وقد وصف هذا التقوى و عرفه بما يلحق بهذه الآيه من قوله: الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا، الى آخر الآيتين؛ و ملخصه: أنهم يظهرون فافتهم الى ربهم و عدم استغنائهم عنه، و يصدقون ذلك بالعمل الصالح و لكن الكافر يستغنى عن ربه بشهوات الدنيا و ينسى آخرته و عاقبه أمره (١).

قوله تعالى: الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَ قِنَا عَذَابَ النَّارِ وصف للمتقين المدلول عليهم بقوله فى الآيه السابقه: للذين اتقوا، فوصفهم أنهم يقولون ربنا و فيه إظهار للعبوديه بذكره تعالى بالربوبيه و استرحام منه تعالى فيما يسألونه بقولهم: إننا آمننا، و الجملة ليست فى مقام الامتنان عليه تعالى فان المن منه تعالى بالإيمان كما قال تعالى: بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ (الحجرات ١٧). بل استنجاز لما وعد الله تعالى عباده أنه يغفر لمن آمن منهم، قال تعالى: وَ آمَنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ (الأحقاف / ٣١)، و لذلك فرعوا عليه قولهم: فاغفر لنا ذنوبنا، بفاء التفریع. و فى تأكيد قولهم بان دلاله على صدقهم و ثباتهم فى إيمانهم.

و المغفره للذنوب لا يستلزم التخلص من العذاب بمعنى أن الوقايه من عذاب النار فضل من الله سبحانه بالنسبه الى من آمن به و عبده من غير استحقاق من العبد يثبت له حقا على الله سبحانه أن يجيره من عذاب النار، أو ينعمه بالجنه فإن الإيمان و الاطاعه أيضا من نعمه و لا- يملك غيره تعالى منه شيئا الا ما جعله على نفسه من حق، و من الحق الذى جعل على نفسه لعباده أن يغفر لهم و يقيهم عذاب النار ان آمنوا به، قال تعالى: وَ آمَنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ

ص: ٤١٢

١- ١). آل عمران ٢٦-٢٧: بحث فى اللذائذ الدنيويه و الآخرويّه؛ القصد من اللذائذ الآخرويّه؛ حقيقه الانسان الوجوديه.

ذُنُوبِكُمْ وَ يُجِزُّكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (الأحقاف ٣١).

و ربما استفيد من بعض الآيات أن الوقايه من عذاب النار هو المغفره و الجنه كقوله تعالى:

هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَ يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ يُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَ مَسَاكِينًا طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ (الصف ١٢)، فإن في الآيتين الاخيرتين تفصيل لما اجمل في الآيه الاولى من قوله: هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ، و هذا معنى دقيق سنشرحه في مورد يناسبه ان وفقنا له.

قوله تعالى: الصَّابِرِينَ وَ الصَّادِقِينَ الى آخر الآيه؛ وصفهم بخمس خصال لا- يشذ منها تقوى من متق، فالصبر لسبقه على بقيه الخصال و إطلاقه يشمل أقسام الصبر، و هى ثلاث: صبر على الطاعه، و صبر عن المعصيه، و صبر عند المصيبه.

و الصدق و إن كان بحسب تحليل حقيقته هو مطابقه ظاهر الإنسان من قول و فعل لباطنه لكنه بهذا المعنى يشتمل جميع الفضائل الباقية كالصبر و القنوت و غيرهما و ليس بمراد فالمراد به (و الله أعلم) الصدق فى القول فحسب.

و القنوت هو الخضوع لله سبحانه و يشمل العبادات و أقسام النسك، و الإنفاق هو بذل المال لمن يستحق البذل، و الاستغفار بالأسحار يستلزم قيام آخر الليل و الاستغفار فيه، و السنه تفسره بصلاه الليل و الاستغفار فى قنوت الوتر، و قد ذكر الله أنه سبيل الإنسان الى ربه كما فى سورتى المزمل و الدهر من قوله تعالى بعد ذكر قيام الليل و التهجد به: إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (المزمل ١٩)، (الدهر ٢٩).

قوله تعالى: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَ الْمَلَائِكَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ، أصل الشهاده هو المعاينه أعنى: تحمل العلم عن حضور و حس ثم استعمل فى أدائها و إظهار الشاهد ما تحمله من العلم ثم صار كالمشترك بين التحمل و التأديه بعنايه وحده

الغرض فإن التحمل يكون غالبا لحفظ الحق و الواقع من أن يبطل بنزاع أو تغلب أو نسيان أو خفاء فكانت الشهادة تحفظا على الحق و الواقع، فبهذه العناية كان التحمل و التأديبه كلاهما شهادة أى حفظا و إقامة للحق، و القسط هو العدل.

و لما كانت الآيات السابقة أعنى قوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، الى قوله: وَ الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ، تبين: أن الله سبحانه لا- إله غيره و لا يغنى عنه شىء، و أن ما يحسبه الإنسان مغنيا عنه و يركن إليه فى حياته ليس إلا زينه و إلا متاعا خلقه الله ليتمتع به فى سبيل ما هو خير منه و لا ينال الى بتقوى الله تعالى، و بعبارة أخرى:

هذه النعم التى يحن إليها الإنسان مشتركه فى الدنيا بين الكافر و المؤمن مختصه فى الآخرة بالمؤمن أقام الشهادة فى هذه الآيه على أن هذا الذى بينته الآيات حق لا ينبغى أن يرتاب فيه.

فشهد(و هو الله عز اسمه)على أنه لا إله إلا هو و اذ ليس هناك إله غيره فليس هناك أحد يغنى منه شيئا من مال أو ولد أو غير ذلك من زينه الحياه أو أى سبب من الأسباب اذ لو أغنى شىء من هذه منه شيئا لكان إليها دونه أو معتمدا الى إله دونه منتهيا اليه و لا إله غيره.

شهد بهذه الشهادة و هو قائم بالقسط فى فعله، حاكم بالعدل فى خلقه اذ دبر أمر العالم بخلق الأسباب و المسببات و القاء الروابط بينها، و جعل الكل راجعا اليه بالسير و الكدح و التكامل و ركوب طبق عن طبق، و وضع فى مسير هذا المقصد نعمًا لينتفع منها الإنسان فى عاجله لآجله و فى طريقه لمقصده لا ليركن اليه و يستقر عنده فالله يشهد بذلك و هو شاهد عدل.

و من لطيف الأمر أن عدله يشهد على نفسه و على وحدته فى الوهيته أى إن عدله ثابت بنفسه و مثبت لوحدانيته، بيان ذلك: أنا إنما نعتبر فى الشاهد العدالة ليكون جاريا على مستوى طريق الحياه ملازما لصراط الفطره من غير أن يميل الى إفراط أو تفريط فيضع الفعل فى غير موضعه فتكون شهادته مأمونه عن الكذب و الزور فملازمه الصدق و المجاراه مع

صراط التكوين يوجب عداله الإنسان فنفس النظام الحاكم فى العالم و الجارى بين أجزاءه الذى هو فعله سبحانه هو العدل محضاً.

و نحن فى جميع الوقائع التى لا ترضى بها نفوسنا من الحوادث الكونيه أو نجدها على خلاف ما نميل إليه و نطمع فيه ثم نعترض عليها و نناقش فيها إنما نذكر فى الاعتراض على ما يظهر لنا من حكم عقولنا أو تميل إليه غرائزنا، و جميع ذلك مأخوذه من نظام الكون ثم نبحت عنها فيظهر سبب الحادثه فتسقط الشبهه أو نعجز عن الحصول على السبب فلا يقع فى أيدينا إلا الجهل بالسبب أى عدم العلم دون العلم بالعدم، فنظام الكون (و هو فعل الله سبحانه) هو العدل فافهم ذلك.

و لو كان هناك إله يغنى منه فى شىء من الامور لم يكن نظام التكوين عدلاً مطلقاً بل كان فعل كل إله عدلاً بالنسبه إليه و فى دائره قضائه و عمله!

و بالجملة فالله سبحانه يشهد، و هو شاهد عدل، على أنه لا إله إلا هو يشهد لذلك بكلامه و هو قوله: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، على ما هو ظاهر الآيه الشريفه، فالآيه فى إشتمالها على شهادته تعالى للتوحيد نظيره قوله تعالى: لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً (النساء ١٦٦).

و الملائكه يشهدون بأنه لا إله إلا هو، فإن الله يخبر فى آيات مكيه نازله قبل هذه الآيات بأنهم عباد مكرمون لا يعصون ربهم و يعملون بأمره و يسبحونه و فى تسييحهم شهاده أن لا إله غيره، قال تعالى: بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (الأنبياء / ٢٧)، و قال تعالى: وَ الْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ (الشورى ٥).

و أولو العلم يشهدون أنه لا إله إلا هو يشاهدون من آياته الآفاقيه و الأنفسيه و قد ملأت مشاعرهم و رسخت فى عقولهم.

قوله تعالى: لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، الجملة كالمعترضه الدخيله فى الكلام

لاستيفاء حتى معترض يفوت لو لا ذكره مع عدم كونه مقصودا في الكلام أصاله، و من أدب القرآن أن يظهر تعظيم الله جل شأنه في موارد يذكر أمره ذكرا يخطر منه بالبال ما لا- يليق بساحه كبريائه كقوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ (يونس ١٦٨)، فقوله: سبحانه قصد به التعظيم في مقام يحكى فيه قول لا يلائم حقه تعالى، و نظيره بوجه قوله تعالى:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمُ الْآيَةَ﴾ (المائدة ٦٤).

و بالجمله لما اشتمل أول الآيه على شهاده الله و الملائكه و اولى العلم-بنفى الشريك كان من حق الله سبحانه على من يحكى و يخبر عن هذه الشهاده أعنى المتكلم (و هو فى الآيه هو الله سبحانه) و على من يسمع ذلك أن يوحد الله بنفى الشريك عنه فيقول: لا- إله إلا- هو. نظير ذلك قوله تعالى فى قصه الإفك: ﴿وَلَوْ لَا إِذِ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ (النور ١٦)، فإن من حقه تعالى عليهم أن اذا سمعوا بهتاننا و أرادوا تنزيه من بهت عليه أن ينزهوا الله قبله فإنه تعالى أحق من يجب تنزيهه.

فموضع قوله: لا- إله إلا- هو العزيز الحكيم موضع الثناء عليه تعالى لاستيفاء حق تعظيمه و لذا تمم بالاسمين العزيز الحكيم، و لو كان فى محل النتيجة من الشهاده لكان حق الكلام أن يتمم بوصفى الوحده و القيام بالقسط، فهو تعالى حقيق بالتوحيد اذا ذكرت الشهاده المذكوره على وحدانيته لأنه المتفرد بالعزه التى يمنع جانبه أن يستدل بوجود شريك له فى مقام الالوهيه، و المتوحد بالحكمه التى تمنع غيره أن ينقض أمره فى خلقه أو ينفذ فى خلال تدبيره و ما نظمه من أمر العالم فيفسد عليه ما أراده.

و قد تبين بما مر من البيان وجه تكرار كلمه التوحيد فى الآيه، و كذا وجه تسميها بالاسمين:

العزيز الحكيم، و الله العالم.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ١٩ الى ٢٥]

إشارة

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَامُ وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١٩) ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَ مَنْ اتَّبَعَنِي وَ قُلْ لِلَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ وَ الْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٢٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيَّيْنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ يَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢١) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٢٢) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أوتُوا نَصْرًا مِنْ الْكِتَابِ يُدْعُونَ إِلَى الْكِتَابِ لِيُحْكَمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَ هُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٢٣) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَ غَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٢٤) ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْتَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٥)

قوله تعالى: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ، قد مر معنى الإسلام بحسب اللغة

و كأن هذا المعنى هو المراد هاهنا بقريته ما يذكره من اختلاف أهل الكتاب بعد العلم بغيا بينهم فيكون المعنى: إن الدين عند الله سبحانه واحد لا اختلاف فيه لم يأمر عباده إلا به، ولم يبين لهم فيما أنزله من الكتاب على أنبيائه إلا إياه، ولم ينصب الآيات الداله إلا له و هو الإسلام الذى هو التسليم للحق الذى هو حق الاعتقاد و حق العمل، و بعبارة اخرى هو التسليم للبيان الصادر عن مقام الربوبية فى المعارف و الأحكام، و هو و إن اختلف كما و كيفا فى شرائع أنبيائه و رسله على ما يحكيه الله سبحانه فى كتابه غير أنه ليس فى الحقيقه إلاّ - أمرا واحدا، و إنما اختلاف الشرائع بالكمال و النقص دون التضاد و التنافى، و التفاضل بينها بالدرجات، و يجمع الجميع أنها تسليم و إطاعة لله سبحانه فيما يريد من عباده على لسان رسله.

فهذا هو الدين الذى أراده الله من عباده و بينه لهم، و لآزمه أن يأخذ الانسان بما تبين له من معارفه حق التبين، و يقف عند الشبهات و قوف التسليم من غير تصرف فيها من عند نفسه و أما اختلاف أهل الكتاب من اليهود و النصارى فى الدين مع نزول الكتاب الإلهى عليهم، و بيانه تعالى لما هو عنده دين و هو الإسلام له فلم يكن عن جهل منهم بحقيقه الأمر و كون الدين واحدا بل كانوا عالمين بذلك، و انما حملهم على ذلك بغيمهم و ظلمهم من غير عذر و ذلك كفر منهم بآيات الله المبينه لهم حق الأمر و حقيقته لا - بالله فإنهم يعترفون به، و من يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب، يحاسبه سريعا فى دنياه و آخرته: أما فى الدنيا فبالخزى و سلب سعادته الحياه عنه، و أما فى الآخرة فبالإيم عذاب النار.

و الدليل على عموم سرعه الحساب للدنيا و الآخرة قوله تعالى بعد آيتين: أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا و آخره و ما لهم من نصيرين.

قوله تعالى: فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ؛ الضمير فى حاجوك راجع الى أهل الكتاب و هو ظاهر و المراد به محتاجتهم فى أمر الاختلاف بأن يقولوا:

أن اختلافنا ليس لبغى منا بعد البيان بل إنما هو شىء ساقنا اليه عقولنا و أفهامنا و اجتهادنا فى

تحصيل العلم بحقائق الدين من غير أن ندع التسليم لجانب الحق سبحانه و أن ما تراه و تدعو اليه يا محمد من هذا القبيل، أو يقولوا ما يشابه ذلك، و الدليل على ذلك قوله: فقل: أَسَلِمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ، و قوله: وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَ الْأُمِّيِّينَ أَ أَسَلِمْتُمْ، فإن الجملتين حجه سقت لقطع خصامهم و حجاجهم لا إعراض عن المحاجه معهم.

و معناها مع حفظ ارتباطها بما قبلها: إن الدين عند الله الإسلام لا يختلف فيه كتب الله و لا يرتاب فيه سليم العقل، و يتفرع عليه أن لا حجه عليك في إسلامك و أنت مسلم، فإن حاجوك في أمر الدين فقل: أسلمت وجهي لله و من اتبعن فهذا هو الدين و لا حجه بعد الدين في أمر الدين ثم سلهم: أ أسلموا فإن أسلموا فقد اهتدوا و ليقبلوا ما أنزل الله عليك و على من قبلك و لا حجه عليهم و لا مخاصمه بعد ذلك بينكم، و إن تولوا فلا تخصمهم و لا تحاجهم فلا ينبغى الخصام في أمر ضرورى، و هو إن الدين هو التسليم لله سبحانه، و ما عليك إلا البلاغ.

و قد أشرك سبحانه في الآيه بين أهل الكتاب و الاميين بقوله: وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَ الْأُمِّيِّينَ أَ أَسَلِمْتُمْ، لكون الدين مشتركاً بينهم و إن اختلفوا في التوحيد و التشريك.

و قد علق الإسلام على الوجه - و هو ما يستقبلك من الشىء أو الوجه بالمعنى الأخص لكون إسلام الوجه لاشتماله على معظم الحواس و المشاعر إسلاماً لجميع البدن - ليدل على معنى الإقبال و الخضوع لأمر الرب تعالى، و عطف قوله: وَ مَنْ اتَّبَعَنِي حَفِظًا لمقام التبعية و تشريفاً للنبي صلى الله عليه و آله و سلم.

قوله تعالى: وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَ الْأُمِّيِّينَ أَ أَسَلِمْتُمْ الى آخر الآيه؛ المراد بالاميين المشركين سموا بذلك لتسميه من وضع في مقابلهم بأهل الكتاب، و كذا كان أهل الكتاب يسمونهم كما حكاه تعالى من قوله: لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ (آل عمران/ ٧٥)، و الامى هو الذى لا يكتب و لا يقرأ.

و فى قوله تعالى: وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ دلالة

اولا:على النهى عن المراء و الإلحاح فى المحاجه فإن المحاجه مع من ينكر الضرورى لا تكون إلا مراء و لجاجا فى البحث.

و ثانيا:على أن الحكم فى حق الناس و الأمر مطلقا الى الله سبحانه،و ليس للنبي صلى الله عليه و آله و سلم إلا أنه رسول مبلغ لا حاكم مسيطر كما قال تعالى: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ (آل عمران/ ١٢٨)،و قال تعالى: لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (الغاشيه٢٣/).

و ثالثا:على تهديد أهل الكتاب و المشركين فإن ختم الكلام بقوله: وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ، بعد قوله: فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ لَا يَخْلُو مِنْ ذَلِكَ،و يدل على ذلك ما وقع من التهديد فى نظير الآيه، و هو قوله تعالى: قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ إِلَى أَنْ قَالَ: وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (البقره/ ١٣٧)،تذكر الآيه أن أهل الكتاب إن تولوا عن الإسلام فهم مصرون على الخلاف ثم يهددهم بما يسلى به النبي و يطيب نفسه،فالآيه أعنى قوله: وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ، كناية عن الأمر بتخليه ما بينهم و بين ربهم،و إرجاع أمرهم اليه،و هو بصير بعباده يحكم فيهم بما تقتضيه حالهم و يسأله لسان استعدادهم.

و من هنا يظهر:أن ما ذكره بعض المفسرين،أن فى الآيه دليلا على حريه الاعتقاد فى أمر الدين و أن لا إكراه فيه ليس بوجيه فإن الآيه كما عرفت مسوقه لغير ذلك.

و فى قوله: بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ حيث أخذ عنوان العبوديه و لم يقل:بصير بهم أو بصير بالناس و نحو ذلك إشعار بأن حكمه نافذ فيهم ماض عليهم فإنهم عباده و مربوطون له أسلموا أو تولوا.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِالْآيَاتِ اللَّهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛الكلام فى الآيه و إن كان مسوقا سوق الاستيناف لكنه مع ذلك لا يخلو عن إشعار و بيان للتهديد الذى يشعر به آخر الآيه السابقه فإن مضمونها منطبق على أهل الكتاب و خاصه اليهود.

و قوله: يَكْفُرُونَ،و يقتلون،فى موضعين للاستمرار و يدلان على كون الكفر بآيات

اللّه و هو الكفر بعد البيان بغيا، و قتل الأنبياء و هو قتل من غير حق، و قتل الذين يدعون الى القسط و العدل و ينهون عن الظلم و البغى دأبا و عادته جاريه فيما بينهم كما يشتمل عليه تاريخ اليهود، فقد قتلوا جمعا كثيرا و جما غفيرا من أنبيائهم و عبادهم الآمرين بالمعروف و الناهين عن المنكر و كذا النصارى جروا مجراهم.

و قوله: فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ تصريح بشمول الغضب و نزول السخط، و ليس هو العذاب الاخرى فحسب بدليل قوله تعالى عقيب الآيه: أولئك الذين حبّطت أعمالهم فى الدنيا و الآخرة، الخ؛ فهم مبشرون بالعذاب الدنيوى و الاخرى معا، أما الاخرى فأليم عذاب النار، و أما الدنيوى فهو ما لقوه من التقتيل و الإجلاء و ذهاب الأموال و الأنفس، و ما سخط الله عليهم بإلقاء العداوه و البغضاء بينهم الى يوم القيامة على ما تصرح به آيات الكتاب العزيز.

و فى قوله تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْمَآخِرَةِ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ، دلالة اولاه: على حبط عمل من قتل رجلا من جهه أمره بالمعروف أو نهيه عن المنكر و ثانيا: على عدم شمول الشفاعة له يوم القيامة لقوله: وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ .

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ يومى الى تسجيل البغى على أهل الكتاب حسب ما نسبه الله تعالى اليهم و أنهم يبغون باتخاذ الخلاف و إيجاد اختلاف الكلمه فى الدين فإنهم اذا دعوا الى حكم الكتاب كتاب الله بينهم لم يسلموا له و تولوا و أعرضوا عنه و ليس ذلك إلا باغترارهم بقولهم لن تمسنا، الخ؛ و بما افتروه على الله فى دينهم.

و المراد بالذين اوتوا نصيبا من الكتاب أهل الكتاب و إما لم يقل: اوتوا الكتاب، و قيل:

اوتوا نصيبا من الكتاب ليدل على أن الذى فى أيديهم من الكتاب ليس إلا نصيبا منه دون جميعه لأن تحريفهم له و تغييرهم و تصرفهم فى كتاب الله أذهب كثيرا من أجزائه كما يومى اليه

قوله فى آخر الآيه التاليه: و غرهم فى دينهم ما كانوا يفترون، و كيف كان فالمراد-و الله أعلم- أنهم يتولون عن حكم كتاب الله اعترازا بما قالوا و اغترارا بما وضعوه من عند أنفسهم و استغناء به عن الكتاب.

قوله تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ سَخًّا؛ معناه واضح، و اغترارهم بفريتهم التى افترتها أنفسهم مع أن الإنسان لا ينخدع عن نفسه مع العلم بأنها خدعه باطله إنما هو لكون المغرورين غير المفتريين؛ و على هذا فنسبه الافتراء الذى توسل إليها سابقوهم الى هؤلاء المغرورين من اللاحقين لكونهم امه واحده يرضى بعضهم بفعال بعض.

و إما لأن الاغترار بغرور النفس و الغرور بالفريه الباطله مع العلم بكونها فريه باطله و ذكر المغرور أنه هو الذى افترى ما يغتر به من الفريه ليس من أهل الكتاب و من اليهود خاصه ببعيد، و قد حكى الله عنهم مثل بل ما هو أعجب من ذلك حيث قال تعالى: وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغُضِّهِمْ إِلَىٰ بَعْضِ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ (البقره ٧٧).

قوله تعالى: فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ مدخول كيف مقدر يدل على الكلام مثل يصنعون و نحوه، و فى الآيه إيعاد لهؤلاء الذين تولوا اذا دعوا الى كتاب الله ليحكم بينهم و هم معرضون غير أنه لما اريد بيان أنهم غير معجزين لله سبحانه اخذ فى الكلام من حالهم يوم القيامه و هم مستسلمون يومئذ ما يضاهى حالهم فى الدنيا عند الدعوه الى حكم كتاب الله و هم غير مسلمين له مستكبرون عنه، و لهذا اخذ بالمحاذاه بين الكلامين، و عبر عن ما يجرى عليهم يوم القيامه بمثل قوله: إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ، الخ؛ دون أن يقال: اذا أحييناهم أو بعثناهم أو ما يماثل ذلك.

و المعنى-و الله أعلم- أنهم يتولون و يعرضون اذا دعوا الى كتاب الله ليحكم بينهم اغترارا بما افتروه فى دينهم و استكبارا عن الحق فكيف يصنعون اذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه و هو يوم

يظلمون، و إذا كان كذلك كان الواجب عليهم أن لا- يتولوا و يعرضوا مظهرين بذلك أنهم معجزون لله غالبون على أمره فإن القدره كله لله و ما هي إلا أيام مهله و فتنه.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٢٦ الى ٢٧]

اشاره

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَ تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَ تُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَ تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ تُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ تَرزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)

بيان:

قوله تعالى: قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ، أمر بالالتجاء الى الله تعالى الذى بيده الخير على الإطلاق و له القدره المطلقه ليتخلص من هذه الدعاوى الوهميه التى نشبت فى قلوب المنافقين و المتمردين من الحق من المشركين و أهل الكتاب فضلوا و هلكوا بما قدره لأنفسهم من الملك و العزه و الغنى من الله سبحانه، و يعرض الملتجى نفسه على إفاضه مفيض الخير و الرازق لمن يشاء بغير حساب.

قوله تعالى: تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ؛ الملك باطلاقه شامل لكل ملك حقا أو باطلا عدلا أو جورا فان الملك (كما تقدم بيانه فى قوله: أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ، الآية؛ (البقره ٢٥٨/)) فى نفسه موهبه من مواهب الله و نعمه يصلح لأن يترتب عليه آثار حسنه فى المجتمع الإنسانى و قد جبل الله النفوس على حبه و الرغبة فيه، و الملك

الذى تقلده غير أهله ليس بمذموم من حيث إنه ملك، وإنما المذموم إما تقلد من لا يليق بتقلده كمن تقلده جورا و غصبا، وإما سيرته الخبيثة مع قدرته على حسن السير، ويرجع هذا الثانى أيضا بوجه الى الأول.

قوله تعالى: **وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ**؛ العز كون الشىء بحيث يصعب مناله؛ ولذا يقال للشىء النادر الوجود أنه عزيز الوجود أى صعب المنال، ويقال عزيز القوم لمن يصعب قهره و الغلبه عليه من بينهم فهو صعب المنال بالقهر و الغلبه، و صعب المنال من حيث مقامه فيهم و وجدانه كل ما لهم من غير عكس ثم استعمل فى كل صعوبه كما يقال: يعز على كذا. قال تعالى: **عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ** (التوبه ١٢٨/)، أى صعب عليه. و استعمل فى كل غلبه كما يقال. من عزَّ بَرَّ أى من غلب سلب، قال تعالى: **«وَعَزَّيْنِي فِي الْخِطَابِ»**، ص-٢٣، أى غلبنى، و الأصل فى معناه ما مر.

و يقابله الذل و هو سهوله المنال بقهر محقق أو مفروض. قال تعالى: **وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ** (البقره ٦١/)، و قال تعالى: **وَ اخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ** (الإسراء ٢٤/)، و قال تعالى: **أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** (المائده ٥٤/).

و العزه من لوازم الملك على الإطلاق، و كل من سواه اذا تملك شيئا فهو تعالى خوله ذلك و ملكه، و إن ملك على قوم فهو تعالى آتاه ذلك فكانت العزه له تعالى محضا و ما عنده غيره منها فانما هو بايتائه و إفضاله. قال تعالى: **أَيَّتَعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** (النساء / ١٣٩)، و قال تعالى: **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ** (المنافقون ٨/). و هذه هى العزه الحقيقيه و أما غيرها فانما هى ذل فى صورته عز. قال تعالى: **بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ وَ شِقَاقٍ** (ص ٢/). و لذا أردفه بقوله: **كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَا تَجِئْ بِمَنْصُورٍ** (ص ٣/).

و للذل بالمقابله ما يقابل العز من الحكم فكل شىء غيره تعالى ذليل فى نفسه إلا من أعزه الله تعالى (تعز من تشاء و تذلل من تشاء).

قوله تعالى: بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلِيمٌ كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛ الأصل فى معنى الخير هو الانتخاب و إنما نسمى الشىء خيرا لأننا نقيسه الى شىء آخر نريد أن نختار أحدهما فنتخبه فهو خير و لا نختار إلا لكونه متضمنا لما نريده و نقصده فما نريده هو الخير بالحقيقه، و إن كنا أردناه أيضا لشىء آخر فذلك الآخر هو الخير بالحقيقه، و غيره خير من جهته، فالخير بالحقيقه هو المطلوب لنفسه يسمى خيرا لكونه هو المطلوب اذا قيس الى غيره، و هو المنتخب من بين الأشياء اذا أردنا واحدا منها و ترددنا فى اختياره من بينها.

فالشىء كما عرفت إنما يسمى خيرا لكونه منتخبا اذا قيس الى شىء آخر مؤثرا بالنسبه الى ذلك الآخر ففى معناه نسبه الى الغير و لذا قيل: إنه صيغه التفضيل و أصله أخير. و ليس بأفعل التفضيل، و إنما يقبل انطباق معنى التفضيل على مورده فيتعلق بغيره كما يتعلق أفعل التفضيل؛ يقال: زيد أفضل من عمرو، و زيد أفضلهما، و يقال: زيد خير من عمرو، و زيد خيرا هما.

و لو كان خير صيغه التفضيل لجرى فيه ما يجرى عليه، و يقال أفضل و أفاضل و فضلى و فضليات، و لا يجرى ذلك فى خير بل يقال: خير و خيره و أخيار و خيرات كما يقال: شيخ و شيخه و أشياخ و شيخات فهو صفة مشبهه.

و لعل الوجه فى جميع ذلك اعتبار ما فى ماده الخير من معنى الانتخاب فلم يطلق اطلاق الاسم عليه تعالى صونا لساحته تعالى أن يقاس الى غيره بنحو الإطلاق و قد عنت الوجوه لجنابه؛ و أما التسميه عند الإضافه و النسبه، و كذا التوصيف فى الموارد المقتضيه لذلك فلا محذور فيه.

قوله تعالى: إِنَّكَ عَلِيمٌ كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فى مقام التعليل لكون الخير بيده تعالى فإن القدره المطلقه على كل شىء توجب أن لا يقدر أحد على شىء إلا بإقداره تعالى إياه على

ذلك، ولو قدر أحد على شيء من غير أن تستند قدرته الى إقداره تعالى كان مقدوره من هذه الجبهه خارجا عن سعه قدرته تعالى فلم يكن قديرا على كل شيء؛ و اذا كانت لقدرته هذه السعه كان كل خير مفروض مقدورا عليه له تعالى؛ و كان أيضا كل خير أفاضه غيره منسوبا اليه مفاضاً عن يديه فهو له أيضا فجنس الخير الذى لا يشذ منه شاذ بيده، و هذا هو الحصر الذى يدل عليه قوله تعالى: **بِيَدِكَ الْخَيْرُ** .

قوله تعالى: **تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَ تُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ**؛ الولوج هو الدخول، و الظاهر كما ذكره أن المراد من إيلاج الليل فى النهار، و إيلاج النهار فى الليل ما هو المشاهد من اختلاف الليل و النهار فى عرض السنه بحسب اختلاف عروض البقاع و الأمكنه على بسيط الأرض، و اختلاف ميول الشمس فتأخذ الأيام فى الطول و الليالى فى القصر و هو ولوج النهار فى الليل بعد انتهاء الليالى فى الطول من أول الشتاء الى أول الصيف ثم يأخذ الليالى فى الطول و الأيام فى القصر و هو ولوج الليل فى النهار بعد انتهاء النهار فى الطول من أول الصيف الى أول الشتاء، كل ذلك فى البقاع الشماليه، و الأمر فى البقاع الجنوبيه على عكس الشماليه منها، فالطول فى جانب قصر فى الجانب الآخر فهو تعالى يولج الليل فى النهار و النهار فى الليل دائما، أما الاستواء فى خط الاستواء و القطبين فإنما بحسب الحس و أما فى الحقيقه فحكم التغيير دائم و شامل.

قوله تعالى: **وَ تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ تُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ** و ذلك إخراج المؤمن من صلب الكافر، و إخراج الكافر من صلب المؤمن فإنه تعالى سمى الإيمان حيوه و نورا، و الكفر موتا و ظلمه كما قال تعالى: **أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا** (الأنعام ١٢٢)، و يمكن أن يراد الأعم من ذلك و من خلق الأحياء كالنبات و الحيوان من الأرض العديمه الشعور و إعادته الأحياء الى الأرض بإماتتها فإن كلامه تعالى كالصريح فى أنه يبدل الميت الى الحى و الحى الى

الميت، قال تعالى: ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعِيدٌ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (المؤمنون ١٥)، الى غيرها من الآيات.

قوله تعالى: وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ، المقابله المذكوره آنفا تعطى أن يكون قوله: وَ تَرْزُقُ، الخ؛ بيانا لما سبقه من إيتاء الملك و العز و الإيلاج و غيره، فالعطف عطف تفسير فيكون من قبيل بيان الخاص من الحكم بما هو أعم منه كما أن قوله: بِيدِكَ الْخَيْرُ، بالنسبه الى ما سبقه من هذا القبيل؛ و المعنى: إنك متصرف في خلقك بهذه التصرفات لأنك ترزق من تشاء بغير حساب (١)(٢)(٣)(٤).

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٢٨ الى ٣٢]

اشاره

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاءً وَ يُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨) قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يُعْلَمَهُ اللَّهُ وَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَ مَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَ بَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَ يُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ اللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَ يُغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)

ص: ٤٢٧

١-١. آل عمران ٢٦-٢٧: بحث في معنى الرزق في القرآن.

٢-٢. آل عمران ٢٦-٢٧: بحث روائي في: معنى ايتاء الملك و انواعه؛ حكمومه بنى اميه؛ الآيه «تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ»؛ معنى الرزق.

٣-٣. آل عمران ٢٦-٢٧: بحث علمي في الحكمومه (الملك).

٤-٤. آل عمران ٢٦-٢٧: بحث فلسفي في: العليه؛ استناد الافعال الى الله سبحانه.

قوله تعالى: لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ الأولياء جمع الولي من الولاية و هي فى الأصل ملك تدبير أمر الشئ فولى الصغير أو المجنون أو المعتوه هو الذى يملك تدبير امورهم و امور أموالهم فالمال لهم و تدبير أمره لوليهم، ثم استعمل و كثر استعماله فى مورد الحب لكونه يستلزم غالبا تصرف كل من المتحابين فى امور الآخر لإفضائه الى التقرب و التأثير عن اراده المحبوب و سائر شئونه الروحيه فلا يخلو الحب عن تصرف المحبوب فى امور المحب فى حياته.

فاتخاذ الكافرين أولياء هو الامتراج الروحى بهم بحيث يودى الى مطاوعتهم و التأثير منهم فى الأخلاق و سائر شئون الحياه و تصرفهم فى ذلك؛ و يدل على ذلك تقييد هذا النهى بقوله:

مَنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ،فان فيه دلالة على ايثار حبههم على حب المؤمنين، و القاء أزمه الحياه اليهم دون المؤمنين، و فيه الركون اليهم و الاتصال بهم و الانفصال عن المؤمنين.

قوله تعالى: وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ؛ أى و من يتخذهم أولياء من دون المؤمنين، و إنما بدل من لفظ عام للإشعار بنهايه نفره المتكلم منه حتى أنه لا يتلفظ به الا بلفظ عام كالتكنيه عن القبائح، و هو شائع فى اللسان؛ و لذلك أيضا لم يقول: و من يفعل ذلك من المؤمنين كأن فيه صونا للمؤمنين من أن ينسب اليهم مثل هذا الفعل.

و من في قوله: مِنَ اللَّهِ، لا ابتداء، و يفيد في أمثال هذا المقام معنى التحزب أى ليس من حزب الله فى شىء كما قال تعالى: وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (المائدة ٥٦)، و كما فيما حكاه عن ابراهيم عليه السلام من قوله: فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي (إبراهيم ٣٦)، أى من حزبي، و كيف كان فالمعنى و الله أعلم: ليس من حزب الله مستقرا فى شىء من الأحوال و الآثار.

قوله تعالى: إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً، الاتقاء فى الأصل أخذ الوقايه للخوف ثم ربما استعمل بمعنى الخوف استعمالا للمسبب فى مورد السبب و لعل التقيه فى المورد من هذا القبيل.

و الاستثناء منقطع فإن التقرب من الغير خوفا بإظهار آثار التولى ظاهرا من غير عقد القلب على الحب و الولايه ليس من التولى فى شىء لأن الخوف و الحب أمران قليبان متباينان و متنافيان أثرا فى القلب فكيف يمكن اتحادهما؟ فاستثناء الاتقاء استثناء منقطع.

و فى الآيه دلالة ظاهره على الرخصه فى التقيه على ما روى عن أمه أهل البيت عليهم السلام كما تدل عليه الآيه النازله فى قصه عمار و أبويه ياسر و سميه و هى قوله تعالى: مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (النحل ١٠٦).

و بالجمله الكتاب و السنه متطابقان فى جوازها فى الجملة، و الاعتبار العقلى يؤكده لا بغيه للدين، و لا هم لشارعه إلا ظهور الحق و حياته، و ربما يترتب على التقيه و المجاراه مع أعداء الدين و مخالفي الحق من حفظ مصلحه الدين و حيوه الحق ما لا يترتب على تركها، و إنكار ذلك مكابره و تعسف، و سنستوفى الكلام فيها فى البحث الروائى التالى، و فى الكلام على قوله تعالى: مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ (النحل / ١٠٦).

قوله تعالى: وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ، التحذير تفعيل من الحذر و هو الاحتراز من أمر مخيف و قد حذر الله عباده من عذابه كما قال تعالى: إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (الإسراء ٥٧)، و حذر من المنافقين و فتنه الكفار فقال: هُمْ الْعِيدُ فَأَحْذَرَهُمْ (المنافقين ٤)، و قال: وَ أَحْذَرَهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ (المائدة ٤٩)، و حذرهم من نفسه كما في هذه الآيه و ما يأتي بعد آيتين، و ليس ذلك إلا للدلالة على أن الله سبحانه نفسه هو المخوف الواجب الاحتراز في هذه المعصيه، أى ليس بين هذا المجرم و بينه تعالى شىء مخوف آخر حتى يتقى عنه بشىء أو يتحصن منه بحصن، و إنما هو الله الذى لا-عاصم منه، و لا أن بينه و بين الله سبحانه أمر مرجو فى دفع الشر عنه من ولى و لا شفيع، ففى الكلام أشد التهديد، و يزيد فى اشتداده تكراره مرتين فى مقام واحد و يؤكد تذييله أولاً بقوله: وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ، و ثانياً بقوله: وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ على ما سيحىء من بيانه.

و من جهه اخرى: يظهر من مطاوى هذه الآيه و سائر الآيات الناهيه عن اتخاذ غير المؤمنين أولياء أنه خروج عن زى العبوديه، و رفض لولايه الله سبحانه، و دخول فى حزب أعدائه لإفساد أمر الدين؛ و بالجمله هو طغيان و إفساد لنظام الدين الذى هو أشد و أضر بحال الدين من كفر الكافرين و شرك المشركين فإن العدو الظاهر عداوته المباين طريقته مدفوع عن الحومه سهل الانتقاء و الحذر؛ و أما الصديق و الحميم اذا استأنس مع الأعداء و دب فيه أخلاقهم و سننهم فلا يلبث فعاله إلا أن يذهب بالحومه و أهلها من حيث لا يشعرون، و هو الهلاك الذى لا رجاء للحياه و البقاء معه.

و فى قوله: وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ، دلالة على أن لا مفر لكم منه و لا صارف له؛ ففيه تأكيد التهديد السابق عليه.

و الآيات أعنى قوله تعالى: لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ، الآيه؛ و ما يتبعها من الآيات من ملاحم القرآن، و سيحىء بيانه إنشاء الله فى سوره المائده.

قوله تعالى: قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يُعْلَمَهُ اللَّهُ، الآيه؛ نظيره قوله تعالى: وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ (البقره ٢٨٤/)، غير أنه لما كان الأنسب بحال العلم أن يتعلق بالمخفى بخلاف الحساب فإن الأنسب له أن يتعلق بالبادى الظاهر قدم ذكر الإخفاء فى هذه الآيه على ذكر الأداء، وجرى بالعكس منه فى آيه البقره كما قيل.

وقد أمر فى الآيه رسوله بإبلاغ هذه الحقيقه—و هو علمه بما تخفيه أنفسهم أو تبديه—من دون أن يباشره بنفسه كسابق الكلام، وليس ذلك إلا ترفعا عن مخاطبه من يستشعر من حاله أنه سيخالف ما وصاه كما مر ما يشبه ذلك فى قوله: وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ .

وفى قوله تعالى: وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ مضاهاه لما مر من آيه البقره و قد مر الكلام فيه.

قوله تعالى: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ، الظاهر من اتصال السياق أنه من تتمه القول فى الآيه السابقه الذى أمر به النبى صلى الله عليه وآله وسلم؛ والظرف متعلق بمقدر أى و اذكر يوم تجد، أو متعلق بقوله: يُعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ، و لا- ضير فى تعليق علمه تعالى بما سنشاهده من أحوال يوم القيامة فإن هذا اليوم ظرف لعلمه تعالى بالنسبه الى ظهور الأمر لنا لا بالنسبه الى تحققه منه تعالى، وذلك كظهور ملكه وقدرته وقوته فى اليوم، قال تعالى: يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (المؤمن ١٦/)، وقال: لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ (هود ٤٣/)، وقال:

وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (البقره ١٦٥/)، وقال:

وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (الانفطار ١٩/)، اذ من المعلوم أن الله سبحانه له كل الملك والقدره والقوه والأمر دائما—قبل القيامة وفيها و بعدها—و إنما اختص يوم القيامة بظهور هذه الامور لنا معاشر الخلائق ظهورا لا ريب فيه.

و من ذلك يظهر أن تعلق الظرف بقوله: يَعلِّمُهُ اللهُ، لا يفيد تأخر علمه تعالى بسرائر عبادته من خير أو شر الى يوم القيامة.

على أن فى قوله تعالى: مُخَضَّرًا، دون أن يقول: حاضرًا دلالة على ذلك فإن الإحضار إنما يتم فيما هو موجود غائب فالأعمال موجودة محفوظة عن البطلان يحضرها الله تعالى لخلقه يوم القيامة، و لا حافظ لها إلا الله سبحانه، قال تعالى: وَ رَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (سبأ/ ٢١)، و قال: وَ عِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (ق٤/).

و قوله: تَجِدُ، من الوجدان خلاف الفقدان، و من قوله: مِنْ خَيْرٍ و مِنْ سُوءٍ للبيان، و التنكير للتعميم، أى تجد كل ما عملت من الخير و إن قل و كذا من السوء و قوله: وَ مَا عَمِلْتَ مِنْ سُوءٍ، معطوف على قوله ما عملت من خير على ما هو ظاهر السياق و الآية من الآيات الدالة على تجسم الأعمال، و قد مر البحث عنها فى سورة البقرة.

قوله تعالى: تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَ بَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا، الظاهر أنه خبر لمبتدأ محذوف و هو الضمير الراجع الى النفس، و لو للتمنى، و قد كثر دخوله فى القرآن على أن المفتوحه المشدده، فلا يعبا بما قيل من عدم جوازه و تأويل ما ورد فيه ذلك من الموارد.

و الأمد يفيد معنى الفاصله الزمانيه؛ قال الراغب فى مفردات القرآن: الأمد و الأبد يتقاربان، لكن الأبد عباره عن مداه الزمان التى ليس لها حد محدود، و لا يتقيد، لا يقال: أمد كذا، و الأمد مداه لها حد مجهول اذا اطلق، و قد ينحصر نحو أن يقال: أمد كذا، كما يقال: زمان كذا، و الفرق بين الزمان و الأمد، أن الأمد يقال باعتبار الغايه، و الزمان عام فى المبدأ و الغايه، و لذا قال بعضهم: الأمد و المدى يتقاربان، انتهى.

و فى قوله: تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَ بَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا، دلالة على أن حضور سيئ العمل يسوء النفس كما يشعر بالمقابلة بأن حضور خير العمل يسرها، و إنما تود الفاصله الزمانيه بينها و بينه دون أن تود أنه لم يكن من أصله لما يشاهد من بقاءه بحفظ الله فلا يسعها إلا أن تحب بعده و عدم

حضوره فى أشق الأحوال، و عند أعظم الأحوال كما يقول لقرين السوء نظير ذلك، قال تعالى:

نَقِصْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ أَلَيْسَ بِذُنُوبِكُمْ أَكْبَرُ إِذِ جَاءَنَا قَالُوا يَا لَيْتَ بَيْنَنَا قُرْبَانًا (الزخرف ٣٨).

قوله تعالى: وَيَحِذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ ذكر التحذير ثانيا يعطى من أهميه المطلب و البلوغ فى التهديد ما لا يخفى، و يمكن أن يكون هذا التحذير الثانى ناظرا الى عواقب المعصيه فى الآخره كما هو مورد نظر هذه الآيه، و التحذير الأول ناظرا الى وبالها فى الدنيا أو فى الأعم من الدنيا و الآخره.

و أما قوله: وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ فهو-على كونه حاكيا عن رأفته و حنانه تعالى المتعلق بعباده كما يحكى عن ذلك الإتيان بوصف العبوديه و الرقيه-دليل آخر على تشديد التهديد اذ أمثال هذا التعبير فى موارد التخويف و التحذير إنما يؤتى بها لتثبيت التخويف و ايجاد الإذعان بأن المتكلم ناصح لا يريد الا الخير و الصلاح، تقول: إياك أن تتعرض لى فى أمر كذا فإنى آليت أن لا اسامح مع من تعرض لى فيه، انما اخبرك بهذا رأفه بك و شفقه.

فيقول المعنى-و الله أعلم-الى مثل أن يقال: ان الله لرافته بعباده ينهاتهم قبالا أن يتعرضوا لمثل هذه المعصيه التى وبال أمرها واقع لا محاله من غير أن يؤثر فيه شفاعه شافع و لا دفع دافع.

قوله تعالى: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ، قد تقدم كلام فى معنى الحب، و أنه يتعلق بحقيقه معناه بالله سبحانه كما يتعلق بغيره فى تفسير قوله تعالى:

و الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ (البقره ١٦٥).

و نزيد عليه هاهنا: أنه لا ريب أن الله سبحانه-على ما ينادى به كلامه-إنما يدعو عبده الى الإيمان به و عبادته بالإخلاص له و الاجتناب عن الشرك كما قال تعالى: أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ (الزمر ٣)، و قال تعالى: وَ مَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ

(البينه ٥/٥)، و قال تعالى: فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (المؤمن / ١٤)، الى غير ذلك من الآيات (١).

قوله تعالى: وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ، الرحمة الواسعة الإلهية و ما عنده من الفيوضات المعنوية و الصورية غير المتناهية غير موقفه على شخص أو صنف من أشخاص عباده و أصنافهم، و لا استثناء هناك يحكم على إطلاق إفاضته، و لا سبيل يلزمه على الإمساك إلا حرمان من جهة عدم استعداد المستفيض المحروم أو مانع أبداه بسوء اختياره، قال تعالى: وَ مَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (الإسراء ٢٠).

و الذنوب هي المانعة من نيل ما عنده من كرامه القرب و الزلفى و جميع الأمور التي هي من توابعها كالجنه و ما فيها، و إزاله رينها عن قلب الإنسان و مغفرتها و سترها عليه هي المفتاح الوحيد لانفتاح باب السعادة و الدخول فى دار الكرامه، و لذلك عقب قوله: يُحِبُّكُمْ اللَّهُ بقوله:

وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، فإن الحب كما تقدم يجذب المحب الى المحبوب، و كما كان حب العبد لربه يستدعى منه التقرب بالإخلاص له و قصر العبودية فيه كذلك حبه تعالى لعبده يستدعى قربه من العبد، و كشفه حجب البعد و سبحات الغيبه، و لا حجاب إلا الذنب فيستدعى ذلك مغفره الذنوب، و أما ما بعده من الكرامه و الإفاضه فالجود كاف فيه كما تقدم آنفا.

و التأمل فى قوله تعالى: كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِنَا لَمَحْجُوبُونَ (المطففين ١٥)، مع قوله تعالى فى هذه الآية: يُحِبُّكُمْ اللَّهُ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ كاف فى تأييد ما ذكرناه.

قوله تعالى: قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ اه، لما كانت الآيه السابقه تدعو الى اتباع الرسول، و الاتباع و هو اقتفاء الأثر لا يتم إلا مع كون المتبع (اسم مفعول) سالك سبيل،

ص: ٤٣٤

و السبيل الذى يسلكه النبى صلى الله عليه و آله و سلم إنما هو الصراط المستقيم الذى هو لله سبحانه، و هو الشريعة التى شرعها لنبىه و افترض طاعته فيه كرر ثانيا فى هذه الآيه معنى اتباع النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى قالب الإطاعة إشعارا بأن سبيل الإخلاص الذى هو سبيل النبى هو بعينه مجموع أوامر و نواه و دعوه و إرشاد فيكون اتباع الرسول فى سلوك سبيله هو إطاعة الله و رسوله فى الشريعة المشرعه. و لعل ذكره تعالى مع الرسول للإشعار بأن الأمر واحد، و ذكر الرسول معه سبحانه لان الكلام فى اتباعه.

و من هنا يظهر عدم استقامه ما ذكره بعضهم فى الآيه: أن المعنى: أطيعوا الله فى كتابه و الرسول فى سنته.

و ذلك أنه مناف لما يلوح من المقام من أن قوله: قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ، الخ؛ كالمبين لقوله: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي، على أن الآيه مشعره بكون إطاعة الله و إطاعة الرسول واحده، و لذا لم يكرر الأمر، و لو كان مورد الإطاعة مختلفا فى الله و رسوله لكان الأنسب أن يقال: أطيعوا الله و أطيعوا الرسول كما فى قوله تعالى: أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ (النساء ٥٩)، كما لا يخفى.

و اعلم أن الكلام فى هذه الآيه من حيث إطلاقها و من حيث انطباقها على المورد نظير الكلام فى الآيه السابقه.

قوله تعالى: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ، فيه دلالة على كفر المتولى عن هذا الأمر كما يدل على ذلك سائر آيات النهى عن تولى الكفار و فيه أيضا إشعار بكون هذه الآيه كالمبينه لسابقتها حيث ختمت بنفى الحب عن الكافرين بأمر الإطاعة، و قد كانت الآيه الاولى متضمنه لإثبات الحب للمؤمنين المنقادين لأمر الاتباع فافهم ذلك (١).

ص: ٤٣٥

إشارة

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَ نُوحًا وَ آلَ إِبْرَاهِيمَ وَ آلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤)

بيان:

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَ نُوحًا الى آخر الآيه؛ الاصطفاء كما مر بيانه في قوله تعالى: لَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا (البقره ١٣٠/)، أخذ صفوه الشيء و تخليصه مما يكدره فهو قريب من معنى الاختيار، و ينطبق من مقامات الولايه على مقام الإسلام، و هو جرى العبد في مجرى التسليم المحض لأمر ربه فيما يرتضيه له.

لكن ذلك غير الاصطفاء على العالمين، و لو كان المراد بالاصطفاء هنا ذاك الاصطفاء لكان الأنسب أن يقال: من العالمين، و أفاد اختصاص الإسلام بهم و اختل معنى الكلام، فالاصطفاء على العالمين، نوع اختيار و تقديم لهم عليهم في أمر أو امور لا يشاركهم فيه أو فيها غيرهم.

و من الدليل على ما ذكرناه من اختلاف الاصطفاء قوله تعالى: وَ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَ طَهَّرَكِ وَ اصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (آل عمران ٤٢/)، حيث فرّق بين الاصطفاءين فالاصطفاء غير الاصطفاء.

قوله تعالى: ذُرِّيَّةً بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، الذريه في الأصل صغار الأولاد على ما ذكروا ثم استعملت في مطلق الأولاد، و هو المعنى المراد في الآيه؛ و هي منصوبه عطف بيان.

و في قوله: بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ دلالة على أن كل بعض فرض منها يبتدئ و ينتهى من البعض

الآخر و اليه. و لازمه كون المجموع متشابه الأجزاء لا. يفترق البعض من البعض في أوصافه و حالاته، و اذا كان الكلام في اصطفتائهم أفاد ذلك أنهم ذريه لا يفترقون في صفات الفضيله التي اصطفتاهم الله لأجلها على العالمين اذ لا جزاف و لا لعب في الأفعال الإلهيه، و منها الاصطفاء الذي هو منشأ خيرات هامه في العالم.

قوله تعالى: وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، أى سمع بأقوالهم الداله على باطن ضمائرهم، عليم بباطن ضمائرهم و ما فى قلوبهم فالجمله بمنزله التعليل لاصطفتائهم، كما أن قوله: ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، بمنزله التعليل لشمول موهبه الاصطفاء لهؤلاء الجماعه، فالمحصل من الكلام: ان الله اصطفى هؤلاء على العالمين، و إنما سرى الاصطفاء الى جميعهم لأنهم ذريه متشابهه الأفراد، بعضهم يرجع الى البعض فى تسليم القلوب و ثبات القول بالحق، و إما أنعم عليهم بالاصطفاء على العالمين لأنه سمع عليم يسمع أقوالهم و يعلم ما فى قلوبهم.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٣٥ الى ٤١]

اشاره

إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتُهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسِينًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَ أَذْكَرَ رَبِّكَ كَثِيرًا وَ سَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكَارِ (٤١)

قوله تعالى: إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ؛ النذر إيجاب الإنسان على نفسه ما ليس بواجب. و التحرير هو الإطلاق عن وثاق، و منه تحرير العبد عن الرقيه، و تحرير الكتاب كأنه إطلاق للمعاني عن محفظه الذهن و الفكر. و التقبل هو القبول عن رغبه و رضی كتقبل الهديه و تقبل الدعاء و نحو ذلك.

و في قوله: قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي، دلالة على أنها إنما قالت هذا القول حينما كانت حاملا، و أن حملها كان من عمران، و لا يخلو الكلام من إشعار بأن زوجها عمران لم يكن حيا عندئذ و إلا لم يكن لها أن تستقل بتحرير ما في بطنها هذا الاستقلال كما يدل عليه أيضا ما سيأتي من قوله تعالى: وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ

الآية (آل عمران ٤٤)، على ما سيحىء من البيان.

و من المعلوم أن تحرير الاب أو الام للولد ليس تحريرا عن الرقيه و إنما هو تحرير عن قيد الولاية التي للوالدين على الولد من حيث تربيته و استعماله فى مقاصدهما و افتراض طاعتهما فبالتحريم يخرج من تسلط أبويه عليه فى استخدامه، و اذا كان التحريم منذورا لله سبحانه يدخل فى ولاية الله يعبده و يخدمه؛ أى يخدم فى البيع و الكنائس و الأماكن المختصة بعبادته تعالى فى زمان كان فيه تحت ولاية الأبوين لو لا- التحريم؛ و قد قيل: إنهم كانوا يحرون الولد لله فكان الأبوان لا يستعملانه فى منافعهما: و لا يصرفانه فى حوائجهما بل كان يجعل فى الكنسيه يكنسها و يخدمها لا يبرح حتى يبلغ الحلم ثم يخير بين الإقامة و الرواح فإن أحب أن يقيم أقام، و إن أحب الرواح ذهب لشأنه.

و فى الكلام دلالة على أنها كانت تعتقد أن ما فى بطنها ذكر لا اناث حيث إنها تناجى ربها عن جزم و قطع من غير اشتراط و تعليق حيث تقول: نذرت لك ما فى بطنى محررا من غير أن تقول مثلا إن كان ذكرا و نحو ذلك.

و ليس تذكير قوله: مُحَرَّرًا، من جهه كونه حالا عن ما الموصوله التي يستوى فيه المذكر و المؤنث اذ لو كانت نذرت تحير ما فى بطنها سواء كان ذكرا أو انثى لم يكن وجه لما قالتها تحزنا و تحسرا لما وضعتها: رب إنى وضعتها انثى؛ و لا وجه ظاهر لقوله تعالى: وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى؛ على ما سيحىء بيانه.

و فى حكايته تعالى لما قالتها عن جزم دلالة على أن اعتقادها ذلك لم يكن عن جزاف أو اعتمادا على بعض القرائن الحدسيه التي تسبق الى أذهان النسوان بتجارب و نحوه فكل ذلك ظن، و الظن لا يغنى من الحق شيئا، و كلامه تعالى لا يشتمل على باطل إلا مع إبطاله، و قد قال تعالى: اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَ مَا نَغِيضُ الْأَرْحَامَ وَ مَا تَزِدُّهُمُ الرِّعْدُ (الرعد ٨)، و قال تعالى:

عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَ يَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ (لقمان ٣٤)، فجعل العلم بما فى

الأرحام من الغيب المختص به تعالى، وقال تعالى: **لِلْعَالَمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَيَّ غَيْبِيهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ** (الجن ٢٧/)، فجعل علم غيره بالغيب منتهيها الى الوحي فحكايته عنها الجزم في القول فيما يختص علمه بالله سبحانه يدل على أن علمها بذكوره ما في بطنها كان ينتهي بوجه الى الوحي، ولذلك لما تبينت أن الولد انثى لم تياس عن ولد ذكر فقالت ثانيا عن جزم و قطع:

و إني اعينها بك و ذريتها من الشيطان الرجيم، الآية؛ فأثبتت لها ذريه و لا سبيل الى العلم به ظاهرا.

و مفعول قولها: فتقبل مني، و إن كان محذوفا محتملا لأن يكون هو.

نذرها من حيث إنه عمل صالح أو يكون هو ولدها المحرر لكن قوله تعالى: **فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ**، لا يخلو عن إشعار أو دلالة على كون مرادها هو قبول الولد المحرر.

قوله تعالى: **فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ**؛ في وضع الضمير المؤنث موضع ما في بطنها إيجاز لطيف، والمعنى فلما وضعت ما في بطنها و تبينت أنه انثى قالت:

رب إني وضعتها انثى، و هو خبر اريد به التحسر و التحزن دون الإخبار و هو ظاهر.

قوله تعالى: **وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ**، جملتان معترضتان و هما جميعا مقولتان له تعالى لا لامرأه عمران، و لا أن الثانيه مقوله لها و الاولى مقوله لله.

أما الاولى فهي ظاهره لكن لما كانت قولها: رب إني وضعتها انثى، مسوقا لإظهار التحسر كان ظاهر قوله: **وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ**، أنه مسوق لبيان أنا نعلم أنها انثى لكننا أردنا بذلك إنجاز ما كانت تتمناه بأحسن وجه و أرضى طريق، و لو كانت تعلم ما أردناه من جعل ما في بطنها انثى لم تتحسر و لم تحزن ذاك التحسر و التحزن و الحال أن الذكر الذي كانت ترجوه لم يكن ممكنا أن يصير مثل هذا الانثى التي وهبناها لها، و يترتب عليه ما يترتب على خلق هذه الانثى فإن غايه أمره أن يصير مثل عيسى نبيا مبرئا للأكمه و الأبرص و محييا للموتى لكن هذه

الانثى ستم به كلمه الله و تلد ولدا بغير أب، و تجعل هى و ابنها آيه للعالمين، و يكلم الناس فى المهد، و يكون روحا و كلمه من الله، مثله عند الله كمثل آدم الى غير ذلك من الآيات الباهره فى خلق هذه الانثى الطاهره المباركه و خلق ابنها عيسى عليهما السلام.

و من هنا يظهر: أن قوله: **وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى**، مقول له تعالى لا لامراه عمران، و لو كان مقولا لها لكان حق الكلام ان يقال: و ليس الانثى كالذكر لا- بالعكس و هو ظاهر فإن من كان يرجو شيئا شريفا أو مقاما عاليا ثم رزق ما هو أخس منه و أردأ إنما يقول عند التحسر: ليس هذا الذى وجدته هو الذى كنت أطلبه و أبتغيه أو ليس ما رزقته كالذى كنت أرجوه، و لا يقول: ليس ما كنت أرجوه كهذا الذى رزقته البته، و ظهر من ذلك أن اللام فى الذكر و الانثى معا أو فى الانثى فقط للعهد.

و قد أخذ أكثر المفسرين قوله: **وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى**، تتمه قول امراه عمران، و تكلفوا فى توجيه تقديم الذكر على الانثى بما لا يرجع الى محصل، من أراده فليرجع الى كتبهم.

قوله تعالى: **وَ إِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَ إِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ وَ ذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**؛ معنى مريم فى لغتهم العابده و الخادمه على ما قيل، و منه يعلم وجه مبادرتها الى تسميه المولوده عند الوضع، و وجه ذكره تعالى لتسميتها بذلك فإنها لما أيست من كون الولد ذكرا محررا للعباده و خدمه الكنيسه بادرت الى هذه التسميه و أعدتها بالتسميه للعباده و الخدمه. فقولها: **وَ إِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ** بمنزله أن تقول: **إِنِّي جَعَلْتُ مَا وَضَعْتُهَا مَحْرَرَةً لَكَ**، و الدليل على كون هذا القول منها فى معنى النذر قوله تعالى: **فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَ أُنَبِّئُهَا بُرَاتًا حَسَنًا**، الآية.

ثم أعادتها و ذريتها بالله من الشيطان الرجيم ليستقيم لها العباده و الخدمه و يطابق اسمها المسمى.

و الكلام فى قولها: **وَ ذُرِّيَّتَهَا**، من حيث أنه قول مطلق من شرط و قيد لا يصح ان تفوه به فى

حضره التخاطب ممن لا- علم له به مع أن مستقبل حال الإنسان من الغيب الذى لا يعلمه إلا الله سبحانه؛ نظير الكلام فى قولها: رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا، على ما تقدم بيانه فليس إلا أنها كانت تعلم أن سترزق من عمران ولدا ذكرا صالحا ثم لما حملت و توفى عمران لم تشك أن ما فى بطنها هو ذلك الولد الموعود، ثم لما وضعتها و بان لها خطأ حدسها أيقنت أنها سترزق ذلك الولد من نسل هذه البنت المولوده فحولت نذرهما من الابن الى البنت، و سميتها مريم (العابده، الخادمه) و أعادتها و ذريتها بالله من الشيطان الرجيم هذا ما يعطيه التدبر فى كلامه تعالى.

قوله تعالى: فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَ أُنَبِّئُهَا بُرَاتًا حَسِينًا؛ القبول اذا قيد بالحسن كان بحسب المعنى هو التقبل الذى معناه القبول عن الرضا، فالكلام فى معنى قولنا:

فتقبلها ربها تقبلا فإنما حلل القبول الى القبول الحسن ليدل على أن حسن القبول مقصود فى الكلام، و لما فى التصريح بحسن القبول من التشريف البارز.

و حيث قوبل بهاتين الجملتين أعنى قوله: فَتَقَبَّلَهَا الى قوله: حَسَنًا، الجملتان فى قولها:

وَ إِنِّي سَمَّيْتُهَا الى قولها: الرَّجِيمِ كان مقتضى الانطباق أن يكون قوله: فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ، قبولاً لقولها و إنى سميتها مريم، و قوله: وَ أُنَبِّئُهَا بُرَاتًا حَسِينًا، قبولاً و إجابته لقولها: و إنى اعيدها بك و ذريتها من الشيطان الرجيم، فالمراد بتقبلها بقبول حسن ليس هو القبول بمعنى قبول تقرب امرأه عمران بالنذر، و إعطاء الثواب الاخرى لعملها فإن القبول إنما نسب الى مريم لا الى النذر و هو ظاهر بل قبول البنت بما أنها مسماه بمريم و محرره فيعود معناه الى اصطفاؤها (و قد مر أن معنى الاصطفاء هو التسليم التام لله سبحانه) فافهم ذلك.

و المراد بإنباتها نباتاً حسناً إعطاء الرشد و الزكاه لها و لذريتها، و إفاضه الحياه لها و لمن ينمو منها من الذريه حيوه لا يمسه نفث الشيطان و رجس تسويله و وسوسته، و هو الطهاره.

و هذان أعنى القبول الحسن الراجع الى الاصطفاء، و النبات الحسن الراجع الى التطهير هما اللذان يشير اليهما قوله تعالى فى ذيل هذه الآيات: وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ، والآيه و سنوضحه بيانا إنشاء الله العزيز.

فقد تبين أن اصطفاء مريم و تطهيرها إنما هما استجاباه لدعوه امها كما أن اصطفائها على نساء العالمين فى ولاده عيسى عليه السلام، و كونها و ابنها آيه للعالمين تصديق لقوله تعالى: وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى .

قوله تعالى: وَ كَفَّلَهَا زَكَرِيَّا، و انما كفلها بإصابه القرعه حيث اختصموا فى تكفلها ثم تراضوا بينهم بالقرعه فأصاب القرعه زكريا كما يدل عليه قوله تعالى: وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُتْلَىٰ أُولَآئِكَ أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ، الآيه.

قوله تعالى: كَلِمًا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَ جَدَّ عِنْدَهَا رِزْقًا النَّخ؛ المحراب المكان المخصوص بالعباده من المسجد و البيت، قال الراغب: و محراب المسجد، قيل: سمي بذلك لأنه موضع محاربه الشيطان و الهوى، و قيل: سمي بذلك لكون حق الإنسان فيه أن يكون حريبا (أى سليبا) من أشغال الدنيا و من توزع خاطر، و قيل الأصل فيه أن محراب البيت صدر المجلس ثم اتخذت المساجد فسمى صدره به و قيل: بل المحراب أصله فى المسجد و هو اسم خص به صدر المجلس فسمى صدر البيت محرابا تشبيها بمحراب المسجد، و كأن هذا أصح، قال عز و جل: يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَ تَمَاثِيلَ، انتهى.

و ذكر بعضهم أن المحراب هنا هو ما يعبر عنه أهل الكتاب بالمذبح، و هو مقصوره فى مقدم المعبد، لها باب يصعد اليه بسلم ذى درجات قليلة، و يكون من فيه محجوبا عن من فى المعبد.

أقول: و اليه ينتهى اتخاذ المقصوره فى الإسلام.

و فى تنكير قوله: رِزْقًا، إشعار بكونه رزقا غير معهود كما قيل: إنه كان يجد عندها فاكهه

الشتاء فى الصيف، و فاكهه الصيف فى الشتاء، و يؤيده أنه لو كان من الزرق المعهود، و كان تنكيره يفيد أنه ما كان يجد محرابها خاليا من الرزق بل كان عندها رزق ما دائما لم يقنع زكريا بقولها: هو من عند الله إن الله يرزق، الخ؛ فى جواب قوله: يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا، لإمكان أن يكون يأتيها بعض الناس ممن كان يختلف الى المسجد لغرض حسن أو سيئ.

على أن قوله تعالى: هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ، الخ؛ يدل على أن زكريا تلقى وجود هذا الرزق عندها كرامه إلهيه خارقه فأوجب ذلك أن يسأل الله أن يهب له من لدنه ذريه طيبه، فقد كان الرزق رزقا يدل بوجوده على كونه كرامه من الله سبحانه لمريم الطاهره، و مما يشعر بذلك قوله تعالى: قَالَ يَا مَرْيَمُ، الخ؛ على ما سيحىء من البيان.

و قوله: قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ، الخ؛ فصل الكلام من غير أن يعطف على قوله: وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا، يدل على أنه عليه السلام إنما قال لها ذلك مره واحده فأجابت بما قنع به و استيقن أن ذلك كرامه لها و هنالك دعا و سأل ربه ذريه طيبه.

قوله تعالى: هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً، الخ؛ طيب الشىء ملائمته لصاحبه فيما يريد لأجله، فالبلد الطيب ما يلائم حيوه أهله من حيث الماء و الهواء و الرزق و نحو ذلك، قال تعالى: وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ لِبَاتِهِ يَأْذِنُ رَبِّهِ (الأعراف ٥٨)، و العيشه الطيبه و الحياه الطيبه ما يلائم بعض أجزائها بعضا و يسكن إليها قلب صاحبها و منه الطيب للعطر الزكى فالذريه الطيبه هو الولد الصالح لأبيه مثلا الذى يلائم من حيث صفاته و أفعاله ما عند أبيه من الرجاء و الامنيه فقول زكريا عليه السلام: رب هب لى من لدنك ذريه طيبه، لما كان الباعث له عليه ما شاهد من أمر مريم و خصوص كرامتها على الله و امتلاء قلبه من شأنها لم يملك من نفسه دون أن يسأل الله أن يهب له مثلها خطرا و كرامه، فكون ذريته طيبه أن يكون لها ما لمريم من الكرامه عند الله و الشخصيه فى نفسها، و لذلك استجيب فى عين ما سأل من الله، و وهب له يحيى و هو أشبه

الأنبياء يعيسى عليهما السلام، و أجمع الناس لما عند عيسى و أمه مريم الصديقه من صفات الكمال و الكرامه، و من هنا ما سماه تعالى يحيى و جعله مصدقا بكلمه من الله و سيذا و حصورا و نيبا من الصالحين، و هذه أقرب ما يمكن أن يشابه بها إنسان مريم و ابنه عيسى عليهما السلام على ما سنينه ان شاء الله تعالى.

قوله تعالى: فَنادته الملائكة و هو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك يحيى إلى آخر الآية؛ ضمائر الغيبه و الخطاب لذكريا، و البشرى و الإخبار و التبشير الإخبار بما يفرح الإنسان بوجوده.

و قوله: أن الله يبشرك يحيى، دليل على أن تسميته يحيى إنما هو من جانب الله سبحانه كما تدل عليه نظائر هذه الآيات في سورة مريم، قال تعالى: يَا ذَكَرْنَا إِنَّا نَبِّشُرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (مريم ٧٧).

و تسميته يحيى و كون التسميه من عند الله سبحانه في بدء ما بشر به ذكريا قبل تولد يحيى و خلقه يؤيد ما ذكرناه آنفا: أن الذى طلبه ذكريا من ربه أن يرزقه ولدا يكون شأنه شأن مريم، و قد كانت مريم هى و ابنها عيسى عليهما السلام آيه واحده كما قال تعالى: وَ جَعَلْنَاهَا وَ ابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (الأنبياء ٩١).

فروعى فى يحيى عليه السلام ما روعى فيهما من عند الله سبحانه، و قد روعى فى عيسى عليه السلام كمال ما روعى فى مريم، فالمرعى فى يحيى هو الشبه التام و المحاذاه الكامله مع عيسى عليهما السلام فيما يمكن ذلك، و لعيسى فى ذلك كله التقدم التام لأن وجوده كان مقدرا قبل استجابته دعوه ذكريا عليه السلام فى حق يحيى، و لذلك سبقه عيسى فى كونه من اولى العزم صاحب شريعته و كتاب و غير ذلك لكنهما تشابها و تشابه أمرهما فيما يمكن.

و فى قوله: مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ دلاله على كونه من دعاه عيسى فالكلمه هو عيسى المسيح كما ذكره تعالى فى ذيل هذه الآيات فى بشاره الروح لمريم.

و السيد هو الذى يتولى أمر سواد الناس و جماعتهم فى أمر حياتهم و معاشهم أو فى فضيله من الفضائل المحموده عندهم ثم غلب استعماله فى شريف القوم لما أن التولى المذكور يستلزم شرفا بالحكم أو المال أو فضيله اخرى.

و الحصور هو الذى لا يأتى النساء، و المراد بذلك فى الآيه بقريته السياق الممتنع عن ذلك للإعراض عن مشتبهات النفس زهدا.

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ انى يَكُونُ لى غُلامٌ وَ قد بَلَغَنِى الكِبَرُ وَ امرأتى عاقراً استنهام تعجيب و استعمال لحقيقه الحال لا استبعاد و استعظام مع تصريح البشاره بذلك و أن الله سبحانه سيرزقه ما سأله من الولد مع أنه ذكر هذه الوصفين اللذين جعلهما منشأ للتعجب و الاستعلام فى ضمن مسأله على ما فى سوره مريم حيث قال رَبِّ انى وَ هَنَ العَظْمُ مِنى وَ اشتَعَلَ الرَّأسُ شَيْباً وَ لَمَّ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيّاً وَ انى خَفْتُ المَوالى مِنَ ورائى وَ كَانتِ امرأتى عاقراً فَهَبْ لى مِن لَدُنكَ وَلِيّاً (مريم ٥).

لكن المقام يمثل معنى آخر فكأنه عليه السلام لما انقلب حالا من مشاهده أمر مريم و تذكر انقطاع عقبه لم يشعر إلا و قد سأل ربه ما سأل و قد ذكر فى دعائه ما له سهم وافر فى تأثره و تحزنه و هو بلوغ الكبر، و كون امرأته عاقرا، فلما استجيبت دعوته و بشر بالولد كأنه صحا و أفاق مما كان عليه من الحال، و أخذ يتعجب من ذلك و هو بالغ الكبر و امرأته عاقرا، فصار ما كان يثير على وجهه غبار اليأس و سيماء الحزن يغيره الى نظره التعجب المشوب بالسرور.

على أن ذكر نواقص الأمر بعد البشاره بقضاء أصل الحاجه و استعمال كيفية رفع واحد واحد منها إنما هو طلب تفهم خصوصيات الإفاضه و الإنعام التذاذا بالنعمة الفائضه بعد النعمة نظير ما وقع فى بشرى إبراهيم بالذريه، قال تعالى: وَ بَنَيْنَاهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ إنا مِنْكُمْ وَ جُلُونا قالوا لا تَوجَلْ إنا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ قال

أَشْرَتْهُ نِيَّ عَلِيٍّ أَنْ مَسَّنِيَ الْكَبِيرُ فَبِعَمِّ تَبَشَّرُونَ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ قَالُوا مَنْ يَقْنُطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (الحجر ٥٦/)، فذكر في جواب نهى الملائكة إياه عن القنوط أن استفهامه لم يكن عن قنوط كيف و هو غير ضال و القنوط ضالاه، بل السيد اذا أقبل على عبده إقبالا- يؤذن بالقرب و الانس و الكرامه أوجب ذلك انبساطا من العبد و ابتهاجا يستدعى تلذذه من كل حديث، و تمتعه في كل باب.

و في قوله: وَقَدْ بَلَّغَنِي الْكَبِيرُ مِنْ مَرَاعَاهِ الْأَدَبِ مَا لَا يَخْفَى فَإِنَّهُ كَنَاهُ عَنْ أَنَّهُ لَا يَجِدُ مِنْ نَفْسِهِ شَهْوَةَ النِّكَاحِ لِبُلُوغِ الشَّيْخُوخَةِ وَ الْهَرَمِ. و قد اجتمعت في امرأته الكبر و العقر معا.

قوله تعالى: قَالَا كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، فاعل قال و إن كان هو الله سبحانه سواء كان من غير وساطة الملائكة و حيا أو بواسطة الملائكة الذين كانوا ينادونه فالقول على اى حال قوله تعالى لكن الظاهر أنه منسوب إليه تعالى بواسطة لملك فالقائل هو الملك و قد نسب إليه تعالى لأنه بأمره، و الدليل على ذلك قوله تعالى في سورة مريم في القصة: قَالَا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (مريم ٩/).

و انه يظهر اولاً: أنه سمع الصوت من حيث كان يسمعه أولاً. و ثانياً: أن قوله: كَذَلِكَ، خبر لمبتدأ محذوف، و التقدير: الأمر كذلك أى الذى بشرت به من الموهبه هو كذلك كائن لا- محاله، و فيه إشاره الى كونه من القضاء المحتوم الذى لا ريب في وقوعه نظير ما ذكره الروح في جواب مريم على ما حكاها الله تعالى: قَالَا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ -الى أن قال:- وَ كَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (مريم ٢١/)، و ثالثاً: أن قوله: اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ كلام مفصول في مقام التعليل لمضمون قوله: كَذَلِكَ اه.

قوله تعالى: قَالَا رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ

إلا- رمزاً الى آخر الآيه؛قال في المجمع:الرمز الإيماء بالشفقتين،وقد يستعمل في الإيماء بالحاجب و العين و اليد،و الأول أغلب،انتهى،و العشى الطرف المؤخر من النهار،و كأنه مأخوذ من العشوه و هى الظلمه الطارئه فى العين المانع عن الإبصار فأخذوا ذلك وصفا للوقت لرواحه الى الظلمه،و الإيكار صدر النهار و الطرف المقدم منه،و الأصل فى معناه الاستعجال (١)(٢)(٣).

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٤٢ الى ٦٠]

إشاره

وَ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَ طَهَّرَكِ وَ اصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَ اسْمِعِي وَ ارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ذَلِكَ مِنْ أَمْرِ الْعِيبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَ جِيهًا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَ يُكَلِّمُ الذَّاسَ فِي الْمَهِيدِ وَ كَهَلًا وَ مِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَ لَمْ يَمَسَّ مِنِّي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧) وَ يُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ (٤٨) وَ رَسُولًا- إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَانْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُبْرِي الْأَكْمَةَ وَ الْأَبْرَصَ وَ أَحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُبَيِّنُ لَكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَ مَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩) وَ مَصِدْقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَ لِأَحْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥١) فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ إِشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَ رَافِعُكَ إِلَيَّ وَ مُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ جَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيهِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذُّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٦) وَ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧) ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨) إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠)

ص: ٤٤٨

١- ١). آل عمران ٣٥-٤١: بحث فى سؤال زكريا ربه أن يجعل له آيه...

٢- ٢). آل عمران ٣٥-٤١: كلام فى الخواطر الملكيه و الشيطانيه و ما يلحق بها من التكليم.

٣- ٣). آل عمران ٣٥-٤١: بحث روائى فى ولاده مريم؛دعاء زكريا فى طلب الذريه.

قوله تعالى: وَإِذِ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ؛ الجملة معطوفه على قوله: إِذِ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ، فتكون شرحا مثله لاصطفاء آل عمران المشتمل عليه قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى، الآية.

و في الآية دليل على كون مريم محدثه تكلمها الملائكه و هي تسمع كلامهم كما يدل عليه أيضا قوله في سوره مريم: فأرسلنا اليه روحنا فتمثل لها بشرا سويا، الى آخر الآيات؛ و سيأتي الكلام في المحدث.

و قد تقدم في قوله تعالى: فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ؛ الآية: أن ذلك بيان لاستجابته دعوه ام مريم: و إنى سميتها مريم: و إنى اعينها بك و ذريتها من الشيطان الرجيم، الآية؛ و أن قول الملائكه لمريم: إن الله اصطفاك و طهرتك إخبار لها بما لها عند الله سبحانه من الكرامه و المنزله فارجع الى هناك.

فاصطفاؤها قبلها لعباده الله، و تطهيرها اعتصامها بعصمه الله فهي مصطفاه معصومه؛ و ربما قيل: إن المراد من تطهيرها جعلها بتولا لا تحيض فيتها لها بذلك أن لا تضطر الى

الخروج من الكنيسة، ولا بأس به غير أن الذى ذكرناه هو الأوفق بسياق الآيات.

قوله تعالى: وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ قد تقدم فى قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لِيُؤْتِيَهُم مِّنْ رُّوحِهِمْ أَن يَدْعُوا بِهِمْ وَيَعْرِفُونَ رَبَّهُمْ وَلَئِنِ اتَّبَعُوا أَمْرِيَ كَانُوا يَكْفُرُونَ. قوله: عَلَىٰ الْعَالَمِينَ أن الاصطفاء المتعدى بعلى يفيد معنى التقدم، وأنه غير الاصطفاء المطلق الذى يفيد معنى التسليم؛ وعلى هذا فاصطفأؤها على نساء العالمين تقديم لها عليهن.

و هل هذا التقديم تقديم من جميع الجهات أو من بعضها؟ ظاهر قوله تعالى فيما بعد الآية: اذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك، الآية؛ وقوله تعالى: وَالتى أَحْصَيْتِ نَتَّ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (الأنبياء ٩١)، وقوله تعالى: وَ مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْتِ نَتَّ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُّوحِنَا وَصَدَّقْتِ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا الْقَانِتِينَ (التحریم ١٢)؛ حيث لم تشتمل عمما تختص بها من بين النساء إلا على شأنها العجيب فى ولاده المسيح عليه السلام أن هذا هو وجه اصطفاؤها و تقديمها على النساء من العالمين.

و أما ما اشتملت عليه الآيات فى قصتها من التطهير و التصديق بكلمات الله و كتبه، و القنوت و كونها محدثه فهى امور لا تختص بها بل يوجد فى غيرها، و أما ما قيل: إنها مصطفاه على نساء عالمى عصرها فإطلاق الآية يدفعه.

قوله تعالى: يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ؛ القنوت هو لزوم الطاعه عن خضوع على ما قيل، و السجده معروفه. و الركوع هو الانحناء أو مطلق التذلل.

و لما كان النداء يوجب تلفيت نظر المنادى (اسم مفعول) و توجيه فهمه نحو المنادى (اسم فاعل) كان تكرار النداء فى المقام بمنزله أن يقال لها: إن لك عندنا نبأ بعد نبأ فاستمعى لهما و أصغى اليهما: أحدهما ما أكرمك الله به من منزله و هو مالک عند الله، و الثانى ما يلزمك من وظيفه العبوديه بالمحاذاه، و هو ما لله سبحانه عندك، فيكون هذا إيفاء للعبوديه و شكرا

للمنزله فيقول معنى الكلام الى كون قوله: يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي، الخ؛ بمنزله التفرع لقوله: يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ، الخ؛ أى اذا كان كذلك فاقنتى و اسجدى و اركعى مع الراكعين، و لا يبعد أن يكون كل واحده من الخصال الثلاثه المذكوره فى هذه الآيه فرعا لواحد من الخصال الثلاثه المذكوره فى الآيه السابقه، و إن لم يخل عن خفاء فلي تأمل.

قوله تعالى: ذَلِكَ مِنْ أَلْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ؛ عدّه من أنباء الغيب نظير ما عدت قصه يوسف عليه السّلام من أنباء الغيب التى توحى الى رسول الله؛ قال تعالى: ذَلِكَ مِنْ أَلْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَمَدِّيهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ (يوسف ١٠٢)، و أما ما يوجد من ذلك عند أهل الكتاب فلا عبره به لعدم سلامته من تحريف المحرفين كما أن كثيرا من الخصوصيات المقتضه فى قصص زكريا غير موجوده فى كتب العهدين على ما وصفه الله فى القرآن.

و يؤيد هذا الوجه قوله تعالى فى ذيل الآيه: و ما كنت لديهم اذ يلقون، الخ.

على أن النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم و قومه كانوا اميين غير عالمين بهذه القصص و لا أنهم قرءوها فى الكتب كما ذكره تعالى بعد سرد قصه نوح: تِلْكَ مِنْ أَلْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَ لَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا (هود ٤٩)، و الوجه الأول أوفق بسياق الآيه.

قوله تعالى: وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ الخ؛ القلم فتحتين القدح الذى يضرب به القرعه، و يسمى سهما أيضا، و جمعه أقلام، فقوله: يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أى يضربون بسهامهم ليعينوا بالقرعه أيهم يكفل مريم.

و فى هذه الجملة دلالة على أن الاختصاص الذى يدل عليه قوله: وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ إنما هو اختصاصهم و تشاحهم فى كفاله مريم، و أنهم لم يتناها حتى تراضوا بالاقتراع بينهم فضربوا بالقرعه فخرج السهم لزكريا فكفلها بدليل قوله: وَ كَفَّلَهَا زَكَرِيَّا، الآيه.

قوله تعالى: إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ الْخَبْرَ؛ الظاهر أن هذه البشارة هي التي يشتمل عليها قوله تعالى في موضع آخر: فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا الآيات (مريم ١٩/)، فتكون البشارة المنسوبة الى الملائكة هاهنا هي المنسوبة الى الروح فقط هناك.

وقد قيل في وجهه أن المراد بالملائكة هو جبرئيل، عبر بالجمع عن الواحد تعظيما لامر كما يقال: سافر فلان فركب الدواب وركب السفن، وإنما ركب دابه واحده و سفينه واحده، و يقال: قال له الناس كذا، وإما قاله واحد و هكذا، ونظيره الآية قوله في قصه زكريا السابقة:

فنادته الملائكة ثم قوله: قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، الآية.

و ربما قيل: إن جبرئيل كان معه غيره فاشتركوها في نداءها.

و الذى يعطيه التدبر في الآيات التي تذكر شأن الملائكة أن بين الملائكة تقدما و تأخرا من حيث مقام القرب، و أن للمتأخر التبعية المحضه لأوامر المتقدم بحيث يكون فعل المتأخر رتبة، عين فعل المتقدم، و قوله عين قوله نظير ما نشاهده و ندعن به من كون أفعال قوانا و أعضائنا عين أفعالنا من غير تعدد فيه تقول: رأته عيناي و سمعته اذناي، و رأيته و سمعته، و يقال فعلته جوارحي و كتبه يدي و رسمته أناملي و فعلته أنا و كتبه أنا، و كذلك فعل المتبوع من الملائكة فعل التابعين له المؤتمرين لأمره بعينه، و قوله قولهم من غير اختلاف، و بالعكس كما أن فعل الجميع فعل الله سبحانه و قولهم قوله، كما قال تعالى: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا (الزمر / ٤٢)، فنسب التوفى الى نفسه، و قال: قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ (السجده ١١/)، فنسبه الى ملك الموت و قال: حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا (الأنعام ٦١/)، فنسبه الى جمع من الملائكة.

و نظيره قوله تعالى: إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ (النساء ١٦٣/)، و قوله: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ

عَلَى قَلْبِكَ (الشعراء/١٩٤)، و قوله: مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلْبِكَ (البقره/٩٧)، و قوله: كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كَرَامٍ بَرَرَةٍ (عبس/١٦).

فظهر أن بشاره جبريل هي عين بشاره من هو تحت أمره من جماعه الملائكه و هو من سادات الملائكه و مقربيههم على ما يدل عليه قوله تعالى: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثُمَّ أَمِينٍ (التكوير/٢١)، و سيأتي زياده توضيح لهذا الكلام في سورة فاطر إن شاء الله تعالى.

و يؤيد ما ذكرناه قوله تعالى في الآيه التاليه: قال كذلك الله يفعل ما يشاء، فإن ظاهره أن القائل هو الله سبحانه مع أنه نسب هذا القول في سورة مريم في القصة الى الروح، قال تعالى:

قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَعْجًا قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ الْآيَاتِ (مريم/٢١).

و في تكلم الملائكه و الروح مع مريم دلالة على كونها محدثه بل قوله تعالى في سورة مريم في القصة بعينها: فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (مريم/١٧)، يدل على معاينتها الملك زياده على سماعها صوته، و سيجيء تمام الكلام في المعنى في البحث الرائي الآتى إنشاء الله.

قوله تعالى: بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ؛ قد مر البحث في معنى كلامه تعالى في تفسير قوله: تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ (البقره/٢٥٣).

و الكلمه و الكلم كالتمره و التمر جنس و فرد و تطلق الكلمه على اللفظ الواحد الدال على المعنى، و على الجملة سواء صح السكوت عليها مثل زيد قائم أو لم يصح مثل إن كان زيد قائما، هذا بحسب اللغه، و أما بحسب ما يصطلح عليه القرآن أعنى الكلمه المنسوبه الى الله تعالى فهي الذى يظهر به ما أراده الله تعالى من أمر نحو كلمه الإيجاد و هو قوله تعالى لشيء أراده: كن، أو كلمه الوحي و الإلهام و نحو ذلك.

و أما المراد بالكلمه فقد قيل: إن المراد به المسيح عليه السّلام من جهه أن من اسبقه من الأنبياء أو خصوص أنبياء بنى إسرائيل بشروا به بعنوان أنه منجى بنى إسرائيل؛ قال فى نظير المورد هذه كلمتى التى كنت أقولها، و نظيره قوله تعالى فى ظهور موسى عليه السّلام: وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسَيْنِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا (الأعراف ١٣٧/)، و فيه أن ذلك و إن كان ربما ساعده كتب العهدين لكن القرآن الكريم خال عن ذلك بل القرآن يعد عيسى بن مريم مبشرا لا مبشرا به، على أن سياق قوله: اسْمُهُ الْمَسِيحُ كتب العهدين لا يناسبه فإن الكلمه على هذا ظهور عيسى الخبر به قبلا لا نفس عيسى، و ظاهر قوله: اسْمُهُ الْمَسِيحُ، أنا لمسيح اسم الكلمه لا اسم من تقدمت فى حقه الكلمه.

و ربما قيل: إن المراد به عيسى عليه السّلام لإيضاحه مراده تعالى بالتوراه، و بيانه تحريفات اليهود و ما اختلفوا فيه من امور الدين كما حكى الله تعالى عنه ذلك فيما يخاطب به بنى إسرائيل: وَ لَأَبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ (الزخرف ٦٣/)، و فيه أنه نكته تصحح هذا التعبير لكنها خاليه عما يساعدها من القرائن.

و ربما قيل: إن المراد بكلمه منه البشاره نفسها، و هى الإخبار بحملها بعيسى و ولادته فمعنى قوله: يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ: يبشرك ببشاره هى أنك ستلدين عيسى من غير مس بشر، و فيه أن سيقال الذيل أعنى قوله: اسْمُهُ الْمَسِيحُ، لا يلائمه و هو ظاهر.

و ربما قيل: إن المراد به عيسى عليه السّلام من جهه كونه كلمه الإيجاد أعنى قوله: كُنْ و إنما اختص عيسى عليه السّلام بذلك مع كون كل إنسان بكل شىء موجودا بكلمه كن التكوينييه لأن سائر الأفراد من الإنسان يجرى ولادتهم على مجرى الأسباب العاديه المألوفه فى العلوق من ورود ماء الرجل على نطفه الإناث، و عمل العوامل المقارنه فى ذلك، و لذلك يسند العلوق اليه كما يسند سائر المسببات الى أسبابها، و لما لم يجر علوق عيسى هذا المجرى و فقد بعض الأسباب العاديه التدريجييه كان وجوده بمجرد كلمه التكوين من غير تخلل الأسباب العاديه فكان نفس الكلمه كما يؤيده قوله تعالى: وَ كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَ رُوْحٌ مِنْهُ (النساء ١٧١/)، و قوله تعالى فى آخر هذه الآيات: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الآيه؛ و هذا أحسن الوجوه.

و المسيح هو الممسوح سمي به عيسى عليه السلام لأنه كان مسيحا باليمين و البركه أو لأنه مسح بالتطهير من الذنوب، أو مسح بدهن بورك فيه و كانت الأنبياء يمسحون به أو لأن جبرائيل مسحه بجناحه حين ولادته ليكون عوده من الشيطان، أو لأنه كان يمسح رءوس اليتامى، أو لأنه كان يمسح عن الأعمى بيده فيبصر، أو لأنه كان لا يمسح ذا عاهه بيده إلا براء، فهذه وجوه ذكرها في تسميته بالمسيح.

و تقييد عيسى بابن مريم مع كون الخطاب في الآية لمريم للتنبيه على أنه مخلوق من غير أب، و يكون معروفا بهذا النعت، و أن مريم شريته في هذه الآية كما قال تعالى: **وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ** (الأنبياء ٩١).

قوله تعالى: **وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ**، الوجهه هي المقبوليه، و كونه عليه السلام مقبولا في الدنيا مما لا خفاء فيه، و كذا في الآخرة بنص القرآن.

و معنى المقربين ظاهر فهو مقرب عند الله داخل في صف الأولياء و المقربين من الملائكه من حيث التقريب كما ذكره تعالى بقوله: **لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَ لَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ** (النساء ١٧٢)، و قد عرف تعالى معنى التقريب بقوله: **إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ أَلَى أَنْ قَالَ: - وَ كُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً - أَلَى أَنْ قَالَ: وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ** (الواقعه / ١١)، و الآية كما ترى تدل على أن هذا التقرب و هو تقرب الى الله سبحانه حقيقته سبق الإنسان سائر أفراد نوعه في سلوك طريق العود الى الله الذى سلوكه مكتوب على كل إنسان بل كل شىء، قال تعالى: **يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ** (الانشقاق / ٦)، و قال تعالى: **أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ** (الشورى ٥٣).

و أنت اذا تأملت كون المقربين صفه الأفراد من الإنسان و صفه الأفراد من الملائكه علمت أنه لا يلزم أن يكون مقاما اكتسابيا فإن الملائكه لا يحرزون ما أحرزوه فى المقام عند الله سبحانه بالكسب فلعله مقام تناله المقربون من الملائكه بهبه إلهيه و المقربون من الإنسان بالعمل.

و قوله وجيها في الدنيا و الآخرة، حال، و كذا ما عطف عليه من قوله: **وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ** ، و يكلم اه، و من الصالحين، و يكلمه اه، رسولا اه.

قوله تعالى: وَ يُكَلِّمُ الذَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا، المهدي ما يهيا للصبى من الفراش، و الكهل من الكهولة و هو ما بين الشباب و الشيخوخه، و هو ما يكون الإنسان فيه رجلا تاما قويا، و لذا قيل: الكهل من وخطه الشيب أى خالطه، و ربما قيل: إن الكهل من بلغ أربعاً و ثلاثين.

و كيف كان ففيه دلالة على أنه سيعيش حتى يبلغ سن الكهولة ففيه بشاره اخرى لمريم.

و فى التصريح بذلك مع دلالة الأناجيل على أنه لم يعيش فى الأرض أكثر من ثلاثه و ثلاثين سنة نظر ينبغى أن يمعن فيه، و لذا ربما قيل: إن تكليمه للناس كهلا إنما هو بعد نزوله من السماء فإنه لم يمكث فى الأرض ما يبلغ به سن الكهولة، و ربما قيل: إن الذى يعطيه التاريخ بعد التثبت أن عيسى عليه السلام عاش نحواً من أربع و ستين سنة خلافا لما يظهر من الأناجيل.

و الذى يظهر من سياق قوله: فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا، أنه لا يبلغ سن الشيخوخه، و إنما ينتهى الى سن الكهولة؛ و على هذا فقد أخذ فى البيان كلامه فى طرفى عمره: الصبى و الكهولة.

قوله تعالى: قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَ لَمْ يَمَسَّ مِنِّي بَشَرٌ، خطابها لربها مع كون المكلم إياها الروح المتمثل بناء على ما تقدم أن خطاب الملائكة و خطاب الروح و كلامهم كلام الله سبحانه فقد كانت تعلم أن الذى يكلمها هو الله سبحانه و إن كان الخطاب متوجها إليها من جهة الروح المتمثل أو الملائكة و لذلك خاطبت ربها.

و يمكن أن يكون الكلام من قبيل قوله تعالى: قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (المؤمنون ٩٩)، فهو من الاستغاثة المعترضه فى الكلام.

قوله سبحانه: قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ قد مرت الإشاره الى أن تطبيق هذا الجواب بما فى سورة مريم من قوله: قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلذَّاسِ وَ رَحْمَةً مِّنَّا وَ كَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (مريم/ ٢١)، يفيد أن يكون قوله هاهنا: كذلك كلاما تاما تقديره: الأمر كذلك و معناه أن الذى بشرت به أمر مقضى لا مرد له.

و أما التعجب من هذا الأمر فإنما يصح لو كان هذا الأمر مما لا يقدر عليه الله سبحانه أو يشق: أما قدره فإن قدرته غير محدوده يفعل ما يشاء، و أما صعوبته و مشقته فإن العسر

و الصعوبه إنما يتصور اذا كان الأمر مما يتوسل إليه بالأسباب فكلما كثرت المقدمات و الأسباب و عزت و بعد منالها اشتد الأمر صعوبه، و الله سبحانه لا يخلق ما يخلق بالأسباب بل اذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون.

فقد ظهر أن قوله: كَذَلِكَ كَلام تام أريد به رفع اضطراب مريم و تردد نفسها، و قوله: اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، رفع العجز الذى يوهمه التعجب، و قوله: إِذَا قَضَىٰ، رفع لتوهم العسر و الصعوبه.

قوله تعالى: وَ يُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ، اللام فى الكتاب و الحكمة للجنس. و قد مر أن الكتاب هو الوحي الرافع لاختلافات الناس؛ و الحكمة هى المعرفة النافعه المتعلقة بالاعتقاد أو العمل، و على هذا فعطف التوراه و الإنجيل على الكتاب و الحكمة مع كونهما كتابين مشتملين على الحكمة من قبيل ذكر الفرد بعد الجنس لأهميه فى اختصاصه بالذكر، و ليست لام الكتاب لاستغراق لقوله تعالى: وَ لَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا (الزخرف ٦٣)، و قد مر بيانه.

و أما التوراه فالذى يريد القرآن منها هو الذى نزله الله على موسى عليه السلام فى الميقات فى ألواح على ما يقصه الله سبحانه فى سوره الأعراف؛ و أما الذى عند اليهود من الأسفار فهم معترفون بانقطاع اتصال السند ما بين بختنصر من ملوك بابل و كورش من ملوك الفرس، غير أن القرآن يصدق أن التوراه الموجود بأيديهم فى زمن النبى صلى الله عليه و آله و سلم غير مخالفه للتوراه الأصل بالكلية و إن لعبت بها يد التحريف؛ و دلالة آيات القرآن على ذلك واضحه.

و أما الإنجيل و معناه البشاره فالقرآن يدل على أنه كان كتابا واحدا نازلا على عيسى فهو الوحي المختص به، قال تعالى: وَ أَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلِ هُدًى لِلنَّاسِ (آل عمران / ٤)، و أما هذه الأناجيل المنسوبه الى متى و مرقس و لوقا و يوحنا فهى كتب مؤلفه بعده عليه السلام.

و يدل أيضا على أن الأحكام إنما هى فى التوراه، و أن الانجيل لا تشتمل إلا على بعض النواسخ كقوله فى هذه الآيات: مصدقا لما بين يدي من التوراه و لأحل لكم بعض الذى حرم عليكم، الآية؛ و قوله: وَ آتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَ نُورٌ وَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ

وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ وَ لِيُحَكِّمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ (المائدة ٤٧/)، ولا يبعد أن يستفاد من الآيه أن فيه بعض الأحكام الإثباتيه.

و يدل أيضا على أن الإنجيل مشتمل على البشاره بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ كالتوراه، قال تعالى:

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنجِيلِ (الأعراف ١٥٧/).

قوله تعالى: وَ رَسُولًا إِلَيَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ ظاهره أنه عليه السَّلام كان مبعوثا الى بنى إسرائيل خاصه كما هو اللائح من الآيات فى حق موسى عليه السَّلام، وقد مر فى الكلام على النبوه فى ذيل قوله تعالى: كَانَ الدَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ الآيه (البقره ٢١٣/)، أن عيسى عليه السَّلام كموسى من أولى العزم و هم مبعوثون الى أهل الدنيا كافه.

لكن العقده تنحل بما ذكرناه هناك فى الفرق بين الرسول و النبي أن النبوه هى منصب البعث و التبليغ، و الرساله هى السفاره الخاصه التى تستتبع الحكم و القضاء بالحق بين الناس؛ إما بالبقاء و النعمه، أو بالهلاك كما يفيدته قوله تعالى: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ (يونس ٤٧/).

و بعباره اخرى النبي هو الإنسان المبعوث لبيان الدين للناس، و الرسول هو المبعوث لاداء بيان خاص يستتبع رده الهلاك و قبوله البقاء و السعاده كما يؤيده بل يدل عليه ما حكاه الله سبحانه من مخطابات الرسل لأممهم كنوح و هود و صالح و شعيب و غيرهم عليهم السَّلام.

و على ذلك شواهد من القرآن الكريم كرساله موسى الى فرعون، قال تعالى: إِذْ هَبْتَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (طه ٢٤/)، و إيمان السحره لموسى و ظهور قبل إيمانهم و لم يكونوا من بنى إسرائيل، قال تعالى: قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَ مُوسَىٰ (طه ٧٠/)، و دعوه قوم فرعون، قال تعالى: وَ لَقَدْ فَتَنَّا قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَ جَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (الدخان ١٧/)، و نظير ذلك ما كان من أمر إيمان الناس بعسى فلقد آمن به عليه السَّلام قبل بعثه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و الروم و أمم عظيمه من الغربيين كالإفرنج و النمسا و البروس و إنجلترا و أمم من الشرقيين كنجران و هم جميعهم ليسوا من بنى إسرائيل؛ و القرآن لم يخص -فيما يذكر فيه النصارى- نصارى بنى

إسرائيل خاصة بالذكر بل يعمم مدحه أو ذمه الجميع.

قوله تعالى: **أَنْتَى قَدْ جِئْتُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنْتَى أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْنِ -الى قوله-** **وَ أَخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ**، الخلق جمع أجزاء الشئ، وفيه نسبة الخلق الى غيره تعالى كما يشعر به أيضا قوله تعالى: **فَبَارَكْ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** (المؤمنون ١٤).

و الأكمه هو الذى يولد مطموس العين؛ و قد يقال لمن تذهب عينه، قال: كمهت عيناه حتى ابيضتا؛ قاله الراغب، و الأبرص من كان به برص و هو مرض جلدى معروف.

و فى قوله: **وَ أَخِي الْمَوْتَى** حيث علق الإحياء بالموتى و هو جمع دلالة لا أقل من الإشعار بالكثرة و التعدد.

و كذا قوله: **بِإِذْنِ اللَّهِ**، سيق للدلالة على أن صدور هذه الآيات المعجزه منه عليه السّلام مستند الى الله تعالى من غير أن يستقل عيسى عليه السّلام بشئ من ذلك، و إنما كرر تكرارا يشعر بالإصرار لما كان من المترقب أن يضل فيه الناس فيعتقدوا بالوهيته استدلالا بالآيات المعجزه الصادره عنه عليه السّلام، و لذا كان يقيد كل آيه يخبر بها عن نفسه مما يمكن أن يضلوا به كالخلق و إحياء الموتى بإذن الله ثم ختم الكلام بقوله: **إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ**.

و ظاهر قوله: **أَنْتَى أَخْلَقْتُ لَكُمْ**، الخ؛ أن هذه الآيات كانت تصدر عنه صدورا خارجيا لا. أن الكلام مسوق لمجرد الاحتجاج و التحدى، و لو كان مجرد قول لقطع العذر و إتمام الحجه لكان من حق الكلام أن يقيد بقيد يفيد ذلك كقولنا: إن سألتم أو أردتم أو نحو ذلك.

قوله تعالى: **وَ أُتْبِتُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَ مَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ**، و هذا إخبار بالغيب المختص بالله تعالى، و من خصه من رسله بالوحى؛ و هو آيه اخرى و إخبار بغيب صريح التحقق لا يتطرق اليه الشك و الريب فإن الإنسان لا يشك عادة فيما أكله و لا فيما ادخره فى بيته.

و إنما لم يقيد هذه الآيه بإذن الله مع أن الآيه لا تتحقق إلا بإذن منه تعالى كما قال: **وَ مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ** (المؤمن ٧٨)، لأن هذه الآيه عبر عنها بالإنباء و هو كلام قائم بعيسى عليه السّلام بعد فعلا له فلا يليق أن يسند الى ساحه القدس بخلاف الآيتين السابقتين أعنى الخلق و الإحياء فإنها فعل الله بالحقيقه و لا ينسبان الى غيره إلا بإذنه.

على أن الآيتين المذكورتين ليستا كالإنبياء فإن الضلاله الى الناس فيهما أسرع منه في الإنبياء فإن القلوب الساذجه تقبل الوهيه خالق الطير و محبى الموتى بأدنى وسوسه و مغلطه بخلاف الوهيه من يخبر بالمغيبات فإنها لا- تذعن باختصاص الغيب بالله سبحانه بل تعتقده أمرا مبتذلا جازي النيل لكل مرتاض أو كاهن مشعبذ فكان من الواجب عند مخاطبتهم أن يقيد الآيتين المذكورتين بالإذن دون الأخيره، وكذا الإبرار فيكفى فيها مجرد ذكر أنها آيه من الله، و خاصه اذا لقي الخطاب الى قوم يدعون أنهم مؤمنون، ولذلك ذيل الكلام بقوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ أى إن كنتم صادقين فى دعويكم الإيمان.

قوله تعالى: وَ مُصِِّدَقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَ لِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، عطف على قوله: وَ رَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ، و كون المعطوف مبني على التكلم مع كون المعطوف عليه مبني على الغيبه أعنى كون عيسى عليه السلام فى قوله: وَ مُصِِّدَقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، متكلماً و فى قوله: وَ رَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ، غائبا ليس مما يضر بالعطف بعد تفسيره قوله: وَ رَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ، بقول عيسى: أنى قد جئتكم، فإن وجه الكلام يتبدل بذلك من الغيبه الى الحضور فيستقيم به العطف.

و تصديقه للتوراه التى بين يديه إنما هو تصديق لما علمه الله من التوراه على ما تفيده الآيه السابقه، و هو التوراه الأصل النازل على موسى عليهما السلام فلا دلالة لكونه مصدقا للتوراه التى فى زمانه على كونها غير محرفه كما لا دلالة لتصديق نبينا محمد صلى الله عليه و آله و سلم للتوراه التى بين يديه على كونها غير محرفه.

قوله تعالى: وَ لِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، فإن الله تعالى كان حرم عليهم بعض الطيبات، قال تعالى: فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ (النساء ١٦٠).

و الكلام لا يخلو عن دلالة عن إمضائه عليه السلام لأحكام التوراه إلا ما نسخه الله تعالى بيده من الأحكام الشاقه المكتوبه على اليهود؛ ولذا قيل: ان الإنجيل غير مشتمل على الشريعة، و قوله: وَ لِأَجْلِ، معطوف على قوله: بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، و اللام للغايه، و المعنى: قد جئتكم لأنسخ

بعض الأحكام المحرمة المكتوبه عليكم.

قوله تعالى: وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ؛ الظاهر أنه لبيان أن قوله: فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ، متفرع على إتيان الآيه لا- على إحلال لمحرّمات فهو لدفع الوهم، ويمكن أن يكون هو مراد من قال: إن إعادته الجملة للفرقه بين ما قبلها و ما بعدها فإن مجرد التفرقه ليست من المزايا فى الكلام.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ، فيه قطع لعذر من اعتقد الوهيته لتفرسه عليه السّلام ذلك منهم أو لعلمه بذلك بالوحي كما ذكرنا نظير ذلك فى تقييد قوله: فَيَكُونُ طَيْرًا، و قوله: وَأُخِي الْمَوْتَى، بقوله: بِإِذْنِ اللَّهِ لكن الظاهر من قوله تعالى فيما يحكى قول عيسى عليه السّلام:

مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ (المائدة ١١٧)، أن ذلك كان بأمر من ربه و وحي منه.

قوله تعالى: فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؛ لما كانت البشاره التى بشر بها مريم مشتمله على جمل قصص عيسى عليه السّلام من حين حمله الى حين رسالته و دعوته اقتصر عليها اقتصاصا إيجازا فى الكلام و فرع عليها تتمه الجملة من قصته و هو انتخابه حواربيه و مكر قومه به و مكر الله بهم فى تطهيره منهم و توفيه و رفعه اليه، و هو تمام القصة.

و قد اعتبر فى القصة المقدار الذى يهم إلقائه الى النصرارى حين نزول الآيات، و هم نصرارى نجران: الوفد الذين أتوا المدينه للبحث و الاحتجاج، و لذلك اسقط منها بعض الخصوصيات التى تشتمل عليه قصصه المذكوره فى سائر السور القرآنيه كسوره النساء و المائده و الأنبياء و الزخرف و الصف.

و قد قيد الأنصار فى قوله: مَنْ أَنْصَارِي بقوله: إِلَى اللَّهِ لىتم به معنى التشويق و التحريص الذى سيق لأجله هذا الاستفهام نظير قوله تعالى: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا (البقره ٢٤٥).

و الظرف متعلق بقوله: أَنْصَارِي، بتضمين النصره معنى السلوك و الذهاب أو ما يشابههما كما حكى عن إبراهيم عليه السّلام من قوله: إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّهْدِينِ (الصافات ٩٩).

قوله تعالى: قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ أَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ؛ حوارى الإنسان من اختص به من الناس، وقيل أصله من الحور و هو شدة البياض؛ و لم يستعمل القرآن هذا اللفظ إلا فى خواص عيسى عليه السّلام من أصحابه.

و قولهم: آمَنَّا بِاللَّهِ، بمنزل التفسير لقولهم: نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ و هذا مما يؤيد كون قوله: أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ جاريا مجرى التضمين كما مر فإنه يفيد معنى السلوك فى الطريق إلى الله، و الإيمان طريق.

و هل هذا أول إيمانهم بعيسى عليه السّلام؟ ربما استفيد من قوله تعالى: كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ (الصف / ١٤)، أنه إيمان بعد إيمان، و لا ضير فيه كما يظهر بالرجوع إلى ما أوضحناه من كون الإيمان و الإسلام ذوى مراتب مختلفه بعضها فوق بعض.

بل ربما دل قوله تعالى: وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَ أَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (المائدة ١١١)، أن إجابتهم إنما كانت بوحى من الله تعالى إليهم، و أنهم كانوا أنبياء فيكون الإيمان الذى أجابوه به هو الإيمان بعد الإيمان.

على أن قولهم: و أشهد بأننا مسلمون ربنا آمنا بما أنزلت و أتبعنا الرسول، و هذا الإسلام هو التسليم المطلق لجميع ما يريد الله تعالى منهم و فيهم -يدل أيضا على ذلك فإن هذا الإسلام لا يتأتى إلا من خالص المؤمنين لا من كل من شهد بالتوحيد و التوبه مجرد شهاده، بيان ذلك أنه قد مر فى البحث عن مراتب الإيمان و الإسلام: أن كل مرتبه من الإيمان تسبقها مرتبه من مراتب الإسلام كما يدل عليه قولهم: آمنا بالله و أشهد بأننا مسلمون، حيث أتوا فى الإيمان بالفعل و فى الإسلام بالصفه فأول مراتب الإسلام هو التسليم و الشهاده على أصل الدين إجمالا، و يتلوه الإذعان القلبي بهذه الشهاده الصوريه فى الجملة، و يتلوه (و هو المرتبه الثانيه من الإسلام) التسليم القلبي لمعنى الإيمان و ينقطع عنده السخط و الاعتراض الباطنى بالنسبه إلى جميع ما يأمر به الله و رسوله و هو الاتباع العملى فى الدين، و يتلوه (و هو المرتبه الثانيه من الإيمان) خلوص العمل و استقرار وصف العبوديه فى جميع الأعمال و الأفعال، و يتلوه (و هو المرتبه الثالثه من الإسلام) التسليم لمحبه الله و إرادته تعالى فلا يحب و لا يريد شيئا إلا بالله، و لا

يقع هناك إلا ما أحبه الله و أراده و لا خبر عن محبه العبد و إرادته في نفسه، و يتلوه (و هو المرتبه الثالثه من الإيمان) شيوع هذا التسليم العبودى في جميع الأعمال.

قوله تعالى: رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ، مقول قول الحواريين حذف القول من اللفظ للدلاله على حكاية نفس الواقعه و هو من الأساليب اللطيفه في القرآن الكريم، و قد مر بيانه، و قد سألوهم أن يكتبهم من الشاهدين، و فرّعوا ذلك على إيمانهم و إسلامهم جميعا لأنّ تبليغ الرسول رسالته إنما يتحقق ببيانه ما أنزله الله عليه قولا و فعلا، أى بتعليمه معالم الدين و عمله بها، فالشهاده على التبليغ إنما يكون بتعلمها من الرسول و اتباعه عملا حتى يشاهد أنه عامل بما يدعو اليه لا يتخطاه و لا يتعداه.

و الظاهر أن هذه الشهاده هي التي يومى إليها قوله تعالى: فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (الأعراف ٦٦)، و هي الشهاده على التبليغ، و أما قوله تعالى: وَ إِذَا سَجَعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْ الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (المائدہ ٨٣)، فهو شهاده على حقيقه رساله الرسول دون البليغ، و الله أعلم.

قوله تعالى: وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ، الماكرون هم بنو إسرائيل، بقريته قوله: فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ ، و قد مر الكلام في معنى المكر المنسوب اليه تعالى في ذيل قوله: وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (البقره ٢٦).

قوله تعالى: إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ خُذْ بِكَ التَّوْفَىٰ أَخَذَ الشَّيْءَ أَخْذًا تَامًا، و لذا يستعمل في الموت لأن الله يأخذ عند الموت نفس الإنسان من بدنه قال تعالى: تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا (الأنعام ٦١)، أى أماتته، و قال تعالى: وَ قَالُوا أَ إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَ أَتَانَا خَلْقٌ جَدِيدٌ -الى أن قال:- قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ (السجده ١١)، و قال تعالى: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ الْأُخْرَى (الزمر ٤٢)، و التأمل في الآيتين الأخيرتين يعطى أن التوفى لم يستعمل في القرآن بمعنى الموت بل بعنايه الأخذ و الحفظ، و بعباره اخرى إنما استعمل التوفى بما في حين الموت من الأخذ للداله على أن نفس الإنسان لا يبطل و لا يفنى بالموت الذى

يظن الجاهل أنه فناء و بطلان بل الله تعالى يحفظها حتى يبعثها بالرجوع إليه، وإلا فهو سبحانه يعبر في الموارد التي لا تجرى فيه هذه العناية بلفظ الموت دون التوفى كما في قوله تعالى: **وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ** (آل عمران ١٤٤/)، وقوله تعالى: **لَا يُفْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا** (فاطر ٣٦/)، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة جدا حتى ما ورد في عيسى عليه السلام بنفسه كقوله: **وَ السَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا** (مريم ٣٣/)، وقوله: **وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا** (النساء ١٥٩/)، فمن هذه الجبهة لا صراحه للتوفى في الموت.

على أن قوله تعالى في رد دعوى اليهود: **وَ قَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَ مَا قَتَلُوهُ وَ مَا صَالَبُوهُ وَ لَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَ إِنْ الَّذِينَ اٰخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِمَّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَ قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلِ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا** (النساء ١٥٩/)، يؤيد ذلك فإن اليهود كانت تدعى أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم عليه السلام و كذلك كانت تظن النصارى: أن اليهود قتلت عيسى بن مريم عليه السلام بالصلب غير أنهم كانوا يزعمون أن الله سبحانه رفعه بعد قتله من قبره الى السماء على ما فى الأناجيل، و الآيات كما ترى تكذب قصه القتل و الصلب صريحا.

و الذى يعطيه ظاهر قوله: **وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا** (النساء ١٥٩/)، هو أن اليهود لم يموت حتى يؤمن به أهل الكتاب، على هذا فيكون توفيه عليه السلام أخذه من بين اليهود لكن الآية مع ذلك غير صريحة فيه و إنما هو الظهور، و سيجىء تمام الكلام فى ذلك فى آخر سورة النساء.

قوله تعالى: **وَ رَافِعَكَ إِلَيْنَا وَ مَطَهَّرَكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا**، الرفع خلاف الوضع، و الطهاره خلاف القذاره، و قد مر الكلام فى معنى الطهاره.

و حيث قيد الرفع بقوله: **إِلَيْنَا**، أفاد ذلك أن المراد بالرفع الرفع المعنوى دون الرفع الصوى اذ لا مكان له تعالى من سنخ الأمكنه الجسمانيه التى تتعاورها الأجسام و الجسمانيات بالحلول فيها، و القرب و البعد منها، فهو من قبيل قوله تعالى فى ذيل الآية: **ثُمَّ إِلَيْنَا** مرجعكم، و خاصه

لو كان المراد بالتوفى هو القبض لظهور أن المراد حينئذ هو رفع الدرجة و القرب من الله سبحانه، نظير ما ذكره تعالى فى حق المقتولين فى سبيله: أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ (آل عمران / ١٦٩)، و ما ذكره فى حق إدريس عليه السلام: وَ رَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (مريم / ٥٧).

و ربما يقال: إن المراد برفعه إليه رفعه بروحه و جسده حيا الى السماء على ما يشعر به ظاهر القرآن الشريف أن السماء أى الجسمانية هى مقام القرب من الله سبحانه، و محل نزول البركات، و مسكن الملائكة المكرمين، و لعلنا نوفق للبحث عن معنى السماء فيما سيأتى إنشاء الله تعالى.

و التطهير من الكافرين حيث أتبع به الرفع الى الله سبحانه أفاد معنى التطهير المعنوى دون الظاهرى الصورى، فهو إبعاده من الكفار و صونه عن مخالطتهم و الوقوع فى مجتمعهم المتقدر بقذاره الكفر و الجحود.

قوله تعالى: وَ جَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وعد منه تعالى له عليه السلام أنه سيفوق متبعى عيسى عليه السلام على مخالفيه الكافرين بنبوته، و أن تفوقهم هذا سيدوم الى يوم القيامة، و إنما ذكر تعالى فى تعريف هؤلاء الفائقين على غيرهم أن الفائقين هم الذين اتبعوه و أن غيرهم هم الذين كفروا من غير أن يقول هم بنو إسرائيل أو اليهود المنتحلون بشريعه موسى عليه السلام أو غير ذلك.

غير أنه تعالى لما أخذ الكفر فى تعريف مخالفيه ظهر منه أن المراد باتباعه هو الاتباع على الحق أعنى الاتباع المرضى لله سبحانه فيكون الذين اتبعوه هم أتباعه المستقيمون من النصارى قبل ظهور الاسلام و نسخه دين عيسى، و المسلمون بعد ظهور الإسلام فإنهم هم أتباعه على الحق، و على هذا فالمراد بالتفوق هو التفوق بحسب الحججه دون السلطنه و السيطرة، فمحصل معنى الجملة: أن متبعيك من النصارى و المسلمين ستفوق حجتهم على حجة الكافرين بك من اليهود الى يوم القيامة، هذا ما ذكره و ارتضاه المفسرون فى معنى الآية.

و الذى أراه أن الآية لا تساعد عليه لا بلفظها و لا بمعناها فإن ظاهر قوله إني متوفيك و رافعك إلى و مطهرك من الذين كفروا و جاعل الذين اتبعوك، أنه إخبار عن المستقبل و أنه سيتحقق فيما يستقبل حال التكلم توف و رفع و تطهير و جعل على أن قوله: وَ جَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ ، وعد

حسن و بشرى، و ما هذا شأنه لا يكون إلا فى ما سيأتى، و من المعلوم أن ليست حجه متبعى عيسى عليه السّلام إلا حجه عيسى نفسه، و هى التى ذكرها الله تعالى فى ضمن آيات البشاره أعنى بشاره مريم، و هذه الحجج حجج فائقه حين حضور عيسى قبل الرفع، و بعد رفع عيسى بل كانت قبل رفعه عليه السّلام أقطع لعذر الكفار و منبت خصومتهم، و أوضح فى رفع شبههم، فما معنى وعده عليه السّلام أنه ستفوق حجه متبعيه على حجه مخالفه؟ ثم ما معنى تقييد هذه الغلبه و التفوق بقوله: **إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**، مع أن الحججه فى غلبتها لا تقبل التقييد بوقت و لا يوم على أن تفوق الحججه على الحججه باق على حاله يوم القيامة على ما يخبر به القرآن فى ضمن أخبار القيامة.

فالمراد جعل النصارى- و هم الذين اتبع أسلافهم عيسى عليه السّلام- فوق اليهود و هم الذين كفروا بعيسى عليه السّلام و مكروا به، و الغرض فى المقام بيان نزول السخط الإلهى على اليهود، و حلول المكر بهم، و تشديد العذاب على امتهم، و لا- ينافى ما ذكرناه كون المراد بالاتباع هو الاتباع على الحق كما استظهرناه فى أول الكلام كما لا يخفى.

و يؤيد هذا المعنى تغيير الاسلوب فى الآيه الآتية أعنى قوله: **وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**، اذ لو كان المراد بالذين اتبعوا هم أهل الحق و النجاه من النصارى و المسلمين فقط كان الأنسب أن يقال: و أما الذين اتبعوك فيوفيهم اجورهم من غير تغيير للسياق كما لا يخفى.

و هاهنا وجه آخر و هو أن يكون المراد بالذين اتبعوا هم النصارى و المسلمون قاطبه و تكون الآيه مخبره عن كون اليهود تحت إذلال من يدعن لزوم اتباع عيسى الى يوم القيامة؛ و التقريب عين التقريب، و هذا أحسن الوجوه فى توجيه الآيه عند التدبر.

قوله تعالى: **ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**؛ و قد جمع سبحانه فى هذا الخطاب بين عيسى و بين الذين اتبعوه و الذين كفروا به، و هذا مآل أمرهم يوم القيامة، و بذلك يختم أمر عيسى و خبره من حين البشاره به الى آخر أمره و نبأه.

قوله تعالى: **فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذُّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ**، ظاهره أنه متفرع على قوله: **فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ**، تفرع التفصيل على الإجمال فيكون بياناً للحكم الإلهى فى يوم القيامة بالعذاب لليهود الذين كفروا و توفيه الأجر للمؤمنين.

لكن اشتمال التفریع على قوله: فِي الدُّنْيَا، يدل على كونه متفرعا على مجموع قوله: وَ لِّجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ، الخ؛ فيدل على أن نتيجة هذا الجعل و الرجوع تشديد العذاب عليهم في الدنيا بيد الذين فوقهم الله تعالى عليهم، و في الآخرة بالنار، و ما لهم في ذلك من ناصرين.

و هذا أحد الشواهد على أن المراد بالتفويق في الآية السابقة هو التسليط بالسيطره و القوه دون التأيد بالحجه.

و في قوله: وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ دلالة على نفى الشفاعة المانعه عن حلول العذاب بساحتهم، و هو حتم القضاء كما تقدم.

قوله تعالى: وَ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ؛ و هذا وعد حسن بالجزاء الخير للذين اتبعوا إلا أن مجرد صدق الاتباع لما لم يستلزم استحقاق جزيل الثواب لأن الاتباع كما عرفت وصف صادق على الامه بمجرد تحققه و صدوره عن عده من أفرادها و حينئذ إنما يؤثر الأثر الجميل و الثواب الجزيل بالنسبه الى من تلبس به شخصا دون من انتسب اليه اسما فلذلك بدل الذين اتبعوك من مثل قوله: الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، ليستقيم المعنى فإن السعاده و العاقبه الحسينى تدور مدار الحقيقه دون الاسم كما يدل عليه قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (البقره ٦٢).

فهذا أجر الذين آمنوا و عملوا الصالحات من الذين اتبعوا عيسى عليه السلام أن الله يوفيههم اجرهم، و أما غيرهم فليس لهم من ذلك شىء، و قد اشير الى ذلك فى الآية بقوله: وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ .

و من هنا يظهر السر فى ختم الآية-و هى آيه الرحمه و الجنه-بمثل قوله: وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ

الظَّالِمِينَ مع أن المعهود في آيات الرحمة و النعمة أن تختتم بأسماء الرحمة و المغفرة أو بمدح حال من نزلت في حقه الآية نظير قوله تعالى: وَ كُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسَيْنِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (الحديد ١٠)، وقوله تعالى: إِنَّ تَقْرُضُوا اللَّهَ فَرَضًا حَسِينًا يُضَاعِفُهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (التغابن ١٧)، وقوله تعالى: وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (التغابن ٩)، وقوله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (الجاثية ٣٠)، الى غير ذلك من الآيات.

فقوله: وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ مسوق لبيان حال الطائفة الاخرى ممن انتسب الى عيسى عليه السلام بالاتباع و هم غير الذين آمنوا و عملوا الصالحات.

قوله تعالى: ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَ الدُّكْرِ الْحَكِيمِ إشاره الى اختتام القصة. و المراد بالذكر الحكيم القرآن الذى هو ذكر لله محكم من حيث آياته و بياناته، لا يدخله باطل، و لا يلج فيه هزل.

قوله تعالى: إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، تلخيص لموضع الحاجة مما ذكره من قصه عيسى فى تولده تفصيلاً، و الإيجاز بعد الإطناب- و خاصة فى مورد الاحتجاج و الاستدلال- من مزايا الكلام؛ و الآيات نازله فى الاحتجاج و متعرضه لشأن وفد النصرارى نصرارى نجران فكان من الأنسب ان يوجز البيان فى خلقته بعد الإطناب فى قصته ليدل على أن كيفية ولادته لا تدل على أزيد من كونه بشرا مخلوقا نظير آدم عليهما السلام فليس من الجائر أن يقال فيه أزيد و أعظم مما قيل فى آدم، و هو أنه بشر خلقه الله من غير أب.

فمعنى الآية: أن مثل عيسى عند الله أى وصفه الحاصل عنده تعالى أى ما يعلمه الله تعالى من كيفية خلق عيسى الجارى بيده أن كيفية خلقه يضاهى كيفية خلق آدم، و كيفية خلقه أنه

جمع أجزائه من تراب ثم قال له كن فتكون تكونا بشريا من غير أب.

فالبيان بحسب الحقيقه منحل الى حجتين تفي كل واحده منهما على وحدتها بنفى الالوهيه عن المسيح عليه السلام.

إحداهما: أن عيسى مخلوق لله -على ما يعلمه الله و لا يضل في علمه- خلقه بشر و إن فقد الأب و من كان كذلك كان عبدا لا ربا.

و ثانيهما: أن خلقته لا- تزيد على خلقه آدم فلو اقتضى سنخ خلقه أن يقال بالوهيته بوجه لاقتضى خلق آدم ذلك مع أنهم لا يقولون بها فيه فوجب أن لا يقولوا بها في عيسى عليه السلام أيضا لمكان المماثله.

قوله تعالى: **الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ** تأكيد لمضمون الآيه السابقه بعد تأكيده بأن و نحوه نظير تأكيد تفصيل القصة بقوله: **ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَ الذُّكْرِ الْحَكِيمِ**، الآيه؛ و فيه تطيب لنفس رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بأنه على الحق، و تشجيع له في المحاجه.

و هذا أعنى قوله: **الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ** من أبداع البيانات القرآنيه حيث قيد الحق بمن الداله على الابتداء دون غيره بأن يقال: الحق مع ربك لما فيه من شائبه الشرك و نسبه العجز اليه تعالى بحسب الحقيقه.

و ذلك أن هذه الأقاويل الحقه و القضايا النفس الأمريه الثابته كائنه ما كانت و ان كانت ضروريه غير ممكنه التغير عما هي عليه كقولنا: الأربعة زوج، و الواحد نصف الاثنين، و نحو ذلك إلا أن الإنسان إنما يقتنصها من الخارج الواقع في الوجود و الوجود كله منه تعالى، فالحق كله منه تعالى كما أن الخير كله منه، و لذلك كان تعالى لا يسأل عما يفعل و هم يسألون، فإن فعل غيره إنما يصاحب الحق اذا كان حقا، و أما فعله تعالى فهو الوجود الذي ليس الحق إلا

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٤١ الى ٤٣]

اشاره

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَابْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٤١) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٣)

بيان:

اشاره

قوله تعالى: فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ، الفاء للتفريع، و هو تفريع المباهله على التعليم الإلهي بالبيان البالغ في أمر عيسى بن مريم عليهما السلام مع ما أكده في ختمه بقوله: الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ. و الضمير في قوله: فيه راجع الى عيسى أو الى الحق المذكور في الآية السابقة.

و قد كان البيان السابق منه تعالى مع كونه بيانا إلهيا لا يرتاب فيه مشتملا على البرهان الساطع الذي يدل عليه قوله: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ، الآية، فالعلم الحاصل فيه علم من جهة البرهان أيضا، و لذلك كان يشمل أثره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ غيره من كل سامع فلو

ص: ٤٧١

١- ١). آل عمران ٤٢-٤٠: بحث روائي في: استناد مريم؛ فاطمه الزهراء عليها السلام؛ خير نساء الجنة؛ بعثه عيسى عليه السلام و حياته.

٢- ٢). آل عمران ٤٢-٤٠: بحث روائي في معنى المحدث.

فرض تردد من نفس السامع المحاج من جهة كون البيان وحيا إلهيا لم يجز الارتياب فيه من جهة كونه برهانا يناله العقل السليم، ولعله لذلك قيل: من بعد ما جاءك من العلم و لم يقل: من بعد ما بيناه لهم.

و هاهنا نكته اخرى و هي أن في تذكيره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بالعلم تطيبا لنفسه الشريفه أنه غالب بإذن الله، و أن ربه ناصره و غير خاذله البته.

قوله تعالى: فَقُلْ نَدْعُوا أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ وَ نِسَاءَنَا وَ نِسَاءَكُمْ وَ أَنْفُسَنَا وَ أَنْفُسَكُمْ، المتكلم مع الغير في قوله: نَدْعُوا، غيره في قوله: أَبْنَاءَنَا وَ نِسَاءَنَا وَ أَنْفُسَنَا فإنه في الأول مجموع المتخاصمين من جانب الإسلام و النصرانية، و في الثاني و ما يلحق به من جانب الإسلام، و لذا كان الكلام في معنى قولنا: ندع الأبناء و النساء و الأنفس فنَدَعُو نحن أبنائنا و نساءنا و أنفسنا و تدعون أنتم أبنائكم و نساءكم و أنفسكم، ففي الكلام إيجاز لطيف.

و المباهله و الملاعنه و إن كانت بحسب الظاهر كالمحاجه بين رسول الله و بين رجال النصارى لكن عممت الدعوه للأبناء و النساء ليكون أدل على اطمينان الداعي بصدق دعوه و كونه على الحق لما أودعه الله سبحانه في قلب الانسان من محبتهم و الشفقة عليهم فتراه يقيهم بنفسه، و يركب الأهوال و المخاطرات دونهم، و في سبيل حمايتهم و الغيره عليهم و الذب عنهم، و لذلك بعينه قدم الأبناء على النساء لأن محبه الإنسان بالنسبه اليهم أشد و أدوم.

قوله تعالى: ثُمَّ نَبِّهْهُمْ لَعَنَّا لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ، الابتهاال من البهله بالفتح و الضم و هي اللعنه؛ هذا أصله ثم كثر استعماله في الدعاء و المسأله اذا كان مع إصرار و إلحاح.

و قوله: فَتَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ، كالبيان للابتهاال، و قد قيل: فتجعل، و لم يقل، فنسأل إشاره الى كونها دعوه غير مردوده حيث يمتاز بها الحق من الباطل على طريق التوقف و الابتناء.

و قوله: الْكَاذِبِينَ مسوق سوق العهد دون الاستغراق أو الجنس اذ ليس المراد جعل اللعنه

على كل كاذب أو على جنس الكاذب بل على الكاذبين الواقعيين في أحد طرفي المحاجه الواقعه بينه صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلم و بين النصارى حيث قال صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلم: إن الله لا إله غيره و إن عيسى عبده و رسوله، و قالوا: إن عيسى هو الله أو إنه ابن الله أو إن الله ثالث ثالثه.

و على هذا فمن الواضح أن لو كانت الدعوى و المبالهه عليها بين النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلم و بين النصارى أعنى كون أحد الطرفين مفردا و الطرف الآخر جمعا كان من الواجب التعبير عنه بلفظ يقبل الانطباق على المفرد و الجمع معا كقولنا: فنجعل لعنه الله على من كان كاذبا بالكلام يدل على تحقق كاذبين بوصف الجمع في أحد طرفي المحاجه و المبالهه على أى حال: إما في جانب النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلم و إما في جانب النصارى، و هذا يعطى أن يكون الحاضرون للمبالهه شركاء في الدعوى فإن الكذب لا يكون إلا في دعوى فلمن حضر مع رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلم، و هم على و فاطمه و الحسنان عليهم السّلام شركه في الدعوى و الدعوه مع رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلم و هذا من أفضل المناقب التى خص الله به أهل بيت نبيه عليهم السّلام كما خصهم باسم الأنفس و النساء و الأبناء لرسوله صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلم من بين رجال الامه و نسائهم و أبنائهم (1).

قوله تعالى: **إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصُّ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ**؛ هذا إشاره الى ما تقدم من قصص عيسى عليه السلام؛ و الكلام مشتمل على قصر القلب أى ما قصصناه هو الحق دون ما تدعيه النصارى من أمر عيسى.

و فى الإتيان بيان و اللام و ضمير الفصل تأكيد بالغ لتطبيب نفس رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلم و تشجيعة فى أمر المبالهه بإيقاظ صفه يقينه و بصيرته و وثوقه بالوحى الذى أنزله الله سبحانه اليه، و يتعقبه التأكيد الثانى بإيراد الحقيقه بلازمها و هو قوله: **وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ** فإن هذه الجملة لازمه كون القصص المذكور حقا.

ص: ٤٧٣

قوله تعالى: وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ معطوف على أول الآيه؛ وهو بما فيه من التأكيد البالغ تطيب آخر و تشجيع لنفس النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن الله لا يعجز عن نصره الحق و تأييده، و لا- أنه يغفل أو يلهو عن ذلك بإهمال أو جهل فإنه هو العزيز (فلا يعجز عما أراد) الحكيم (فلا يجهل و لا يهمل) لا ما عملته أو هام خصماء الحق من إله غير الله سبحانه.

و من هنا يظهر وجه الآيتان بالاسمين: العزيز الحكيم، و أن الكلام مسوق لقصر القلب أو الأفراد.

□
قوله تعالى: فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ؛ لما كان الغرض من المحاجه و كذا المباهله بحسب الحقيقه هو إظهار الحق لم يكن يعقل التولى عن الطريق لمريد الغرض و المقصد فلو كانوا أرادوا بذلك إظهار الحق و هم يعلمون أن الله سبحانه و لى الحق لا يرضى بزهوره و دحوضه لم يتولوا عنها فإن تولوا فإنما هو لكونهم لا يريدون بالمحاجه ظهور الحق بل الغلبه الظاهريه و الاحتفاظ على ما فى أيديهم من حاضر الوضع، و السنه التى استحكمت عليه عادتهم، فهم إنما يريدون ما تزينه لهم أهوائهم و هوساتهم من شكل الحياه، لا الحياه الصالحه التى تنطبق على الحق و السعاده فهم لا يريدون إصلاحا بل إفساد الدنيا بإفساد الحياه السعيده فإن تولوا فإنما هو لأنهم مفسدون.

و من هنا يظهر أن الجزاء وضع فيه السبب مكان المسبب أعنى الإفساد مكان عدم إرادته ظهور الحق.

و قد ضمن الجزاء وصف العلم حيث قيل: فإن الله عليم، ثم اكد بأن ليدل على أن هذه الصفه متحققه فى نفوسهم ناشبه فى قلوبهم فيشعر بأنهم سيتولون عن المباهله لا محاله، و قد

بحث روائى:

فى تفسير القمى عن الصادق عليه السّلام: أن نصارى نجران لما وفدوا على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، وكان سيدهم الأهمّ والعاقب والسيد، وحضرت صلاتهم فأقبلوا يضربون الناقوس و صلوا، فقال أصحاب رسول الله: يا رسول الله هذا فى مسجدك؟ فقال: دعوهم فلما فرغوا دنوا من رسول الله فقالوا الى ما تدعو؟ فقال: الى شهاده أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله، وأن عيسى عبد مخلوق يأكل ويشرب ويحدث، قالوا: فمن أبوه؟ فنزل الوحي على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال: قل لهم: ما تقولون فى آدم، أ كان عبدا مخلوقا يأكل ويشرب ويحدث وينكح؟ فسألهم النبى، فقالوا نعم: قال فمن أبوه؟ فبهتوا فأنزل الله: إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب، الآية؛ وقوله: فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعِيدٍ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ - الى قوله:- فَتَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ، فقال رسول الله: فبأهلونى فإن كنت صادقاً أنزلت اللعنه عليكم، وان كنت كاذباً أنزلت على فقالوا أنصفت فتواعدوا للمباهله فلما رجعوا الى منازلهم قال رؤسائهم السيد والعاقب والأهمّ ان باهلنا بقومه باهلناه فإنه ليس نبيا، وإن باهلنا باهل بيته خاصه لم نباهله فإنه لا يقدم الى أهل بيته إلا وهو صادق فلما أصبحوا جاءوا الى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ومعهم أمير المؤمنين وفاطمه والحسن والحسين عليهم السّلام فقال النصارى: من هؤلاء؟ فقيل لهم هذا ابن عمه وصيه وختنه على بن أبى طالب، وهذا ابنته فاطمه، وهذا ابنه الحسن والحسين ففرقوا فقالوا لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم نعطيك الرضا فاعفنا من المباهله فصالحهم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم على الجزيه وانصرفوا.

ص: ٤٧٥

و فى العيون بإسناده عن الريان بن الصلت عن الرضا عليه السّلام فى حديثه مع المأمون و العلماء فى الفرق بين العتره و الامه، و فضل العتره على الامه، و فيه قالت العلماء: هل فسر الله الاصطفاء فى كتابه؟ فقال الرضا عليه السّلام: فسر الاصطفاء فى الظاهر سوى الباطن فى اثنى عشر موضعا و ذكر المواضع من القرآن، و قال فيها: و أما الثالثه حين ميز الله الطاهرين من خلقه، و أمر نبيه بالمباهله بهم فى آيه الابتهاال فقال عزّ و جل فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا و أبناءكم و نساءنا و نساءكم و أنفسنا و أنفسكم، قالت العلماء: عنى به نفسه، قال أبو الحسن: غلطتم إنما عنى به على بن أبى طالب؛ و مما يدل على ذلك قول النبى: لينتهين بنو وليعه أو لأبعثن اليهم رجلا كنفسى يعنى على بن أبى طالب، و عنى بالأبناء الحسن و الحسين، و عنى بالنساء فاطمه فهذه خصوصيه لا يتقدمهم فيها أحد، و فضل لا يلحقهم فيه بشر، و شرف لا يسبقهم اليه خلق اذ جعل نفس على كنفسه؛ الحديث.

و عنه بإسناده الى موسى بن جعفر عليهما السّلام فى حديث له مع الرشيد، قال الرشيد له: كيف قلت: إنا ذريه النبى، و النبى لم يعقب، و إنما العقب للذكر لا للأنثى، و أنتم ولد البنت و لا يكون له عقب. فقلت: أسأله بحق القرابه و القبر و من فيه إلا ما أعفانى عن هذه المسأله، فقال: تخبرنى بحجتكم فيه يا ولد على و أنت يا موسى يعسو بهم و إمام زمانهم، كذا أنهى إلى، و لست أعفيك فى كل ما أسألك عنه حق تأتيني فيه بحجه من كتاب الله، و أنتم تدعون معشر ولد على أنه لا يسقط عنكم منه شىء لا ألف و لا واو إلا تأويله عندكم، و احتججتم بقوله عزّ و جل: ما فرطنا فى الكتاب من شىء، و قد استغنيتم عن رأى العلماء و قياسهم.

فقلت: تأذن لى فى الجواب؟ فقال: هات، قلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم و من ذريته داود و سليمان و أيوب و يوسف و موسى و هارون و كذلك نجزى المحسنين و زكريا و يحيى و عيسى و إلياس، من أبو عيسى يا أمير المؤمنين؟ فقال: ليس له أب فقلت: إنما ألحقه بذرارى الأنبياء من طريق مريم، و كذلك ألحقنا الله تعالى بذرارى النبى من

أمنا فاطمه، أزيدك يا أمير المؤمنين؟ قال: هات، قلت: قول الله عزّ وجل: فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبنائكم ونسائنا ونسائكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين، ولم يدع أحد أنه أدخل النبي تحت الكساء عند المباهله مع النصارى إلاّ - على بن أبى طالب و فاطمه و الحسن و الحسين فكان تأويل قوله: أبنائنا الحسن و الحسين، و نساءنا فاطمه، و أنفسنا على بن أبى طالب.

و فى سؤالات المأمون عن الرضا عليه السّلام: قال المأمون: ما الدليل على خلافه جدك على بن أبى طالب؟ قال: آيه أنفسنا قال: لو لا نسائنا قال لو لا أبنائنا.

أقول: قوله: آيه أنفسنا يريد أن الله جعل نفس على كنفس نبيه صلّى الله عليه و آله و سلّم و قوله: لو لا نسائنا معناه: أن كلمه نسائنا فى الآيه دليل على أن المراد بالأنفس الرجال فلا فضيله فيه حينئذ، و قوله: لو لا أبنائنا معناه أن وجود أبنائنا فيها يدل على خلافه فإن المراد بالأنفس لو كان هو الرجال لم يكن مورد لذكر الأبناء.

و فى تفسير العياشى بإسناده عن حريز عن أبى عبد الله عليه السّلام، قال: إن أمير المؤمنين عليه السّلام سئل عن فضائله فذكر بعضها ثم قالوا له زدنا فقال إن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم أتاه حبران من أحبار النصارى من أهل نجران فتكلما فى أمر عيسى فأنزل الله هذه الآيه: إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم، إلى آخر الآيه؛ فدخل رسول الله فأخذ بيد على و الحسن و الحسين و فاطمه ثم خرج و رفع كفه الى السماء، و فرج بين أصابعه، و دعاهم الى المباهله، قال: و قال أبو جعفر عليهما السّلام و إن كذلك المباهله يشبك يده فى يده يرفعهما الى السماء فلما رآه الحبران قال أحدهما لصاحبه: و الله لئن كان نبيا لنهلكن و إن كان غير نبى كفانا قومه فكفا و انصرفا.

أقول: و هذا المعنى أو ما يقرب منه مروى فى روايات أخر من طرق الشيعة و فى جميعها أن الذين أتى بهم النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم للمباهله هم على و فاطمه و الحسنان فقد رواه الشيخ فى أماليه بإسناده عن عامر بن سعد عن أبيه؛ و رواه أيضا فيه بإسناده عن عبد الرحمن بن كثير عن

الصادق عليه السّلام، ورواه فيه أيضا بإسناده عن سالم ابن أبي الجعد يرفعه إلى أبي ذر رضوان الله عليه، ورواه أيضا فيه بإسناده عن ربيعة ابن ناقد عن علي عليه السّلام، ورواه المفيد في كتاب الاختصاص بإسناده عن محمد بن الزبيرقان عن موسى بن جعفر عليهما السّلام، ورواه أيضا فيه عن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جده، ورواه العياشي في تفسيره عن محمد بن سعيد الاردني عن موسى بن محمد بن الرضا عن أخيه، ورواه أيضا عن أبي جعفر الأحول عن الصادق عليه السّلام، ورواه أيضا فيه في روايه اخرى عن الأحول عنه عليه السّلام، و عن المنذر عن علي عليه السّلام، ورواه أيضا فيه بإسناده عن عامر بن سعد، ورواه الفرات في تفسيره معنعنا عن أبي جعفر و عن أبي رافع و الشعبي و علي عليه السّلام و شهر بن حوشب، ورواه في روضه الواعظين و في إعلام الوري، و في الخرائج و غيرها.

و في تفسير الثعلبي عن مجاهد و الكلبي: أنه صَلَّى الله عليه و آله و سلّم لما دعاهم الى المباهله قالوا: حتى نرجع و ننظر فلما تخالوا قالوا للعاقب- و كان ذا رأيهم- يا عبد المسيح ما ترى؟ فقال: و الله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمدا نبى مرسل، و لقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم؛ و الله ما باهل قوم نبيا قط فعاش كبيرهم، و لا نبت صغيرهم و لئن فعلتم لنهلكن فإن أبيتتم إلا إلف دينكم، و الإقامة على ما أنتم عليه فوادعوا الرجل و انصرفوا الى بلادكم.

فأتوا رسول الله و قد غدا محتضنا بالحسين آخذا بيد الحسن و فاطمه تمشى خلفه، و على خلفها و هو يقول: اذا أنا دعوت فأمنوا، فقال اسقف نجران، يا معشر النصارى إنى لأرى وجوها لو سألوا الله أن يزيل جبلا- من مكانه لأزاله بها فلا تباهلوا فتهلكوا، و لا- يبقى على وجه الأرض نصرانى الى يوم القيامة، فقالوا: يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك، و أن نترك على دينك و نثبت على ديننا، قال: فاذا أبيتتم المباهله فأسلموا، يكن لكم ما للمسلمين، و عليكم ما عليهم فأبوا، قال: فإنى اناجزكم، فقالوا: ما لنا بحرب العرب طاقه و لكن نصالحك على أن لا- تغزونا، و لا- تخيفنا، و لا- تردنا عن ديننا على أن تؤدى اليك كل عام ألفى حله: ألف في صفر،

و ألف فى رجب و ثلاثين درعا عاديه من حديد فصالحهم على ذلك.

و قال: و الذى نفسى بيده إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران و لو لاعنوا لمسخوا قرده و خنازير، و لاضطرم عليهم الوادى ناراً، و لاستأصل الله نجران و أهله حتى الطير على رءوس الشجر، و لما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا.

أقول: و روى القصة: قريبا منه فى كتاب المغازى عن ابن إسحاق، و رواه أيضا المالكى فى الفصول المهمه عن المفسرين قريبا منه، و رواه الحموى عن ابن جريح قريبا منه.

و قوله: ألف فى صفر المراد به المحرم و هو أول السنه عند العرب و قد كان يسمى صفرا فى الجاهليه فيقال صفر الأول و صفر الثانى و قد كانت العرب تنسى فى الصفر الأول ثم أقر الإسلام الحرمة فى الصفر الأول فسمى لذلك بشهر الله المحرم ثم اشتهر بالمحرم.

و فى صحيح مسلم عن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبىه قال: أمر معاويه بن أبى سفيان سعدا فقال: ما يمنعك أن تسب أبا تراب، قال أما ما ذكرت ثلاث قالهن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فلن أسبه، لأن يكون لى واحده منهن أحب الى من حمر النعم، سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يقول حين خلفه فى بعض مغازيه فقال له على: يا رسول الله خلقتنى مع النساء و الصبيان؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: أ ما ترضى أن تكون منى بمنزله هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى؟ و سمعته يقول يوم خيبر: لاعطين الرايه غدا رجلا يحب الله و رسوله، و يحبه الله و رسوله، قال: فتناولنا لها، فقال: أدعوا لى عليا فأتى به أرمم العين فبصق فى عينيه و دفع الرايه إليه ففتح الله على يده. و لما نزلت هذه الآيه: قل تعالوا ندع أبناءنا و أبناءكم و نساءنا و نساءكم و أنفسنا و أنفسكم ثم نبتهل، دعا رسول الله عليا و فاطمه و حسنا و حسينا و قال:

اللهم هؤلاء أهل بيتى.

أقول: و رواه الترمذى فى صحيحه، و رواه أبو المؤيد الموفق بن أحمد فى كتاب فضائل على، و رواه أيضا أبو نعيم فى الحليه عن عامر بن سعد عن أبىه، و رواه الحموينى فى كتاب فرائد

و فى حليه الأولياء لأبى نعيم بإسناده عن عامر بن أبى وقاص عن أبىه قال: لما نزلت هذه الآيه دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليا و فاطمه و حسنا و حسيننا فقال: اللهم هؤلاء أهل بيتى.

و فيه بإسناده عن الشعبى عن جابر قال: قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العاقب و الطيب فدعاهما الى الإسلام فقالا: أسلمنا يا محمد فقال: كذبتما إن شئتما أخبرتكما ما يمنعكما من الإسلام فقالا: فهات الينا، قال: حب الصليب و شرب الخمر و أكل لحم الخنزير، قال جابر:

فدعاهما الى الملا عنه فواعدها الى أن يفداه بالغداه فغدا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و أخذ بيد على و الحسن و الحسين و فاطمه فأرسل اليهما فأبيا أن يجيباه و أقرّا له، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و الذى بعثنى بالحق لو فعلا لأمطر عليهما الوادى نارا قال جابر: فيهم نزلت: ندع أبنائنا و أبنائكم، قال جابر: أنفسنا و أنفسكم رسول الله و على، و أبنائنا الحسن و الحسين، و نساءنا فاطمه.

أقول: و رواه ابن المغازلى فى مناقبه بإسناده عن الشعبى عن جابر، و رواه أيضا الحموينى فى فرائد السمطين بإسناده عنه، و رواه المالكى فى الفصول المهمة مرسلا عنه، و رواه أيضا عن أبى داود الطيالسى عن شعبه الشعبى مرسلا، و رواه فى الدر المنثور عن الحاكم و صححه و عن ابن مردويه و أبى نعيم فى الدلائل عن جابر.

و فى الدر المنثور أخرج أبو نعيم فى الدلائل من طريق الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس:

أن وفد نجران من النصارى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و هم أربعة عشر رجلا من أشرافهم منهم السيد و هو الكبير، و العاقب و هو الذى يكون بعده و صاحب رأيهم ثم ساق القصة نحو مما مر.

و فيه أيضا أخرج البيهقى فى الدلائل من طريق سلمه بن عبد يشوع عن أبىه عن جده: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كتب الى أهل نجران قبل أن ينزل عليه طس سليمان: بسم الله إله إبراهيم

و إسحاق و يعقوب من محمد رسول الله الى اسقف نجران و أهل نجران إن أسلمتم فإنى أحمد اليكم الله إله إبراهيم و إسحاق و يعقوب، أما بعد فإنى أدعوكم الى عباده الله من عباده العباد، و أدعوكم الى ولايه من الله من ولايه العباد فإن أبيتم فالجزيه، و إن أبيتم فقد آذنتكم بالحرب و السلام، فلما قرأ الاسقف الكتاب فضع به و دعر ذعرا شديدا، فبعث الى رجل من أهل نجران يقال له: شرحبيل بن وداعه فدفع اليه كتاب النبي صلى الله عليه و آله و سلم فقرأه، فقال له الاسقف: ما رأيك؟ فقال شرحبيل: قد علمت ما وعد الله إبراهيم فى ذريه إسماعيل من النبوه فما يؤمن أن يكون هذا الرجل؟ ليس لى فى النبوه رأى، لو كان رأى من أمر الدنيا أشرت عليك فيه، و جهدت لك، فبعث الاسقف الى واحد بعد واحد من أهل نجران فكلهم قالوا مثل قول شرحبيل فاجتمع رأيهم على أن يبعثوا شرحبيل بن وداعه، و عبد الله بن شرحبيل و جبار بن فيض فيأتونهم بخبر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم.

فانطلق الوفد حتى أتوا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فسألهم و سألوهم فلم نزل به و بهم المسأله حتى قالوا له: ما تقول فى عيسى بن مريم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ما عندى فيه شىء يومى هذا فأقيموا حتى اخبركم بما يقال فى عيسى صبح الغد، فأنزل الله هذه الآيه: إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب- الى قوله: -فنجعل لعنه الله على الكاذبين، فأبوا أن يقرؤا بذلك، فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم الغد بعد ما أخبرهم الخبر أقبل مشتملا على الحسن و الحسين فى خميله له و فاطمه تمشى خلف ظهره للملاعنه، و له يومئذ عده نسوه، فقال شرحبيل لصاحبيه: إنى أرى أمرا مقبلا إن كان هذا الرجل نبيا مرسلًا فلاعناه لا- يبقى على وجه الأرض منا شعر و لا ظفر إلا هلك فقالا له: ما رأيك؟ فقال: رأيت أن الحكمة فإنى أرى رجلا لا يحكم شططا أبدا، فقالا له: أنت و ذلك، فتلقي شرحبيل رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقال: إنى قد رأيت خيرا من ملاعنتك، قال: و ما هو؟ قال حكمك اليوم الى الليل و ليلتك الى الصباح فمهما حكمت فينا فهو جائز، فرجع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و لم يلاعنهم، و صالحهم على الجزيه.

و فيه أخرج ابن جرير عن علباء بن أحمر اليشكري، قال: لما نزلت هذه الآية: **فَقُلْ لِلْعَالَمِينَ أَدْبَارُهَا وَأَبْنَاءُكُمْ** الآية، أرسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى علي وفاطمة وبنيهما الحسن والحسين، ودعا اليهود ليلاعنهم، فقال شاب من اليهود: ويحكم أليس عهدتم بالأمس إخوانكم الذين مسخوا قرده وخنازير؟ لا تلاعنوا فانتهاوا.

أقول: والرواية تؤيد أن يكون الضمير في قوله تعالى: **فَمَنْ حِاجَّكَ فِيهِ**، راجعا إلى الحق في قوله: **الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ**، فبذلك حكم المباهله لغير خصوص عيسى بن مريم عليه السلام، وتكون حينئذ هذه قصة أخرى واقعه بعد قصه دعوه وفد نجران إلى المباهله على ما تقصه الأخبار الكثيرة المتظافره المنقوله أكثرها فيما تقدم.

وقال ابن طاوس في كتاب سعد السعود رأيت في كتاب تفسير ما نزل من القرآن في النبي وأهل بيته تأليف محمد بن العباس بن مروان: أنه روى خبر المباهله من أحد وخمسين طريقا عن سماه من الصحابة وغيرهم، وعد منهم الحسن بن علي عليهما السلام وعثمان بن عفان وسعد بن أبي وقاص وبكر بن سمال وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عباس وأبا رافع مولى النبي وجابر بن عبد الله والبراء بن عازب وأنس بن مالك.

وروى ذلك في المناقب عن عدة من الرواه والمفسرين وكذا السيوطي في الدر المنثور.

ومن عجيب الكلام ما ذكره بعض المفسرين حيث قال: إن الروايات متفق على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم اختار للمباهله عليا وفاطمة ولديهما، ويحملون كلمة نساءنا على فاطمه، وكلمة أنفسنا على علي فقط، ومصادر هذه الروايات الشيعة، ومقصدهم منها معروف؛ وقد اجتهدوا في ترويجها ما استطاعوا حتى راجت على كثير من أهل السنة، ولكن واضعيها لم يحسنوا تطبيقها على الآية فإن كلمة نساءنا لا يقولها العربي ويريد بها بنته لا سيما إذا كان له أزواج ولا يفهم هذا من لغتهم. وأبعد من ذلك أن يراد بأنفسنا على، ثم إن وفد نجران الذين قالوا: إن الآية نزلت فيهم لم يكن معهم نساءهم وأولادهم، وكل ما يفهم من الآية أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يدعو

المحاجين و المجادلين فى عيسى من أهل الكتاب الى الاجتماع رجالا- و نساء و أطفالا و يجمع هو المؤمنون رجالا و نساء و أطفالا، و يتهلون الى الله تعالى بأن يلعن الكاذب فيما يقول عن عيسى.

و هذا الطلب يدل على قوه يقين صاحبه، و ثقته بما يقول كما يدل امتناع من دعوا الى ذلك من أهل الكتاب سواء كانوا نصارى نجران أو غيرهم على امترائهم فى حجاجهم و مماراتهم فيما يقولون، و زلزالهم فيما يعتقدون، و كونهم على غير بينه و لا يقين، و أنى لمن يؤمن بالله أن يرضى بأن يجتمع هذا الجمع من الناس المحقين و المبطلين فى صعيد واحد متوجهين الى الله فى طلب لعنه و إبعاده من رحمته؟ و أى جرأه على الله و استهزاء بقدرته و عظمته أقوى من هذا؟

قال: أما كون النبى صلى الله عليه و آله و سلم و المؤمنون كانوا على يقين مما يعتقدون فى عيسى عليه السلام فحسبنا فى بيانه قوله تعالى: **مَنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ، فَالْعِلْمِ، فإلعلم فى هذه المسائل الاعتقادية لا يراد به إلا اليقين، و فى قوله: **نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ** «الخ» و جهان:**

أحدهما: أن كل فريق يدعو الآخر فأنتم تدعون أبناءنا، و نحن ندعو أبناءكم؛ و هكذا الباقي.

و ثانيهما: أن كل فريق يدعو أهله فنحن المسلمون ندعو أبناءنا و نساءنا و أنفسنا؛ و أنتم كذلك.

و لا- إشكال فى وجه من وجهى التوزيع فى دعوه الأ-نفس، و إنما الإشكال فيه على قول الشيعة، و من شايعهم على القول بالتخصيص، انتهى.

أقول: و هذا الكلام- و أحسب أن الناظر فيه يكاد يتهمنا فى نسبه الى مثله، و اللبيب لا يرضى بإيداعه و أمثاله فى الزبر العلميه- إنما أوردناه على وهنه و سقوطه ليعلم أن النزعه و العصبية الى أين يورد صاحبه من سقوط الفهم و رداء النظر فيهدم كل ما بنى عليه و يبنى كل ما هدمه و لا يبالي، و لأن الشر يجب أن يعلم ليجنب عنه.

و الكلام فى مقامين: أحدهما: دلالة الآيه على أفضله على عليه السلام، و هو بحث كلامى خارج عن الغرض الموضوع له هذا الكتاب؛ و هو النظر فى معانى الآيات القرآنيه.

و ثانيهما: البحث عما ذكره هذا القائل من حيث تعلقه بمدلول آيه المباهله، و الروايات الوارده فى ما جرى بين النبى صلى الله عليه و آله و سلم و بين وفد نجران؛ و هذا بحث تفسيرى داخل فى غرضنا.

و قد عرفت ما تدل عليه الآيه، و أن الذى نقلناه من الأخبار المتكثره المتظافره هو الذى يطابق مدلول الآيه، و بالتأمل فى ذلك يتضح وجوه الفساد فى هذه الحججه المختلفه و النظر الواهى الذى لا يرجع الى محصل، و هاك تفصيلها:

منها: أن قوله: و مصادر هذه الروايات الشيعه-الى قوله- و قد اجتهدوا فى ترويجها ما استطاعوا حتى راجت على كثير من أهل السنه، بعد قوله: إن الروايات متفقه، ليت شعرى أى روايات يعنى بهذا القول؟ أ مراده هذه الروايات المتظافره التى أجمعت على نقلها و عدم طرحها المحدثون، و ليست بالواحد و الاثنتين و الثلاث أطبق على نقلها و تلقيها بالقبول أهل الحديث، و أثبتها أرباب الجوامع فى جوامعهم، و منهم مسلم فى صحيحه و الترمذى فى صحيحه و أيدها أهل التاريخ.

ثم أطبق المفسرون على إيرادها و إيداعها فى تفاسيرهم من غير اعتراض أو ارتياب، و فيهم جمع من أهل الحديث و التاريخ كالطبرى و أبى الفداء بن كثير و السيوطى و غيرهم ثم من الذى يعنيه من الشيعه المصادر لهذه الروايات؟ أ يريد بهم الذين تنتهى إليهم سلاسل الأسناد فى الروايات أعنى سعد بن أبى وقاص و جابر بن عبد الله و عبد الله بن عباس و غيرهم من الصحابه؟ أو التابعين الذين نقلوا عنهم بالأخذ و الروايه كأبى صالح و الكلبي و السدى و الشعبى و غيرهم، و أنهم تشيعوا لنقلهم ما لا يرتضيه بهواه فهؤلاء و أمثالهم و نظرائهم هم الوسائط فى نقل السنه، و مع رفضهم لا تبقى سنه مذكوره و لا سيره مأثوره، و كيف يسع لمسلم أو باحث حتى ممن لا ينتحل بالإسلام أن يبطل السنه ثم يروم أن يطلع على تفاصيل

ما جاء به النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلم من تعليم و تشريع و القرآن ناطق بحججه قول النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلم و سيرته، و ناطق ببقاء الدين على حياته، و لو جاز بطلان السنه من رأس لم يبق للقرآن أثر و لا لإنزاله ثمر.

أو أنه يريد أن الشيعة دسوا هذه الأحاديث في جوامع الحديث و كتب التاريخ، فيعود محذور سقوط السنه، و بطلان الشريعة بل يكون البلوى أعم و الفساد أتم.

و منها: قوله: و يحملون كلمه نساءنا على فاطمه، و كلمه أنفسنا على عليّ فقط، مراده به أنهم يقولون بأن كلمه نساءنا أطلقت و اريدت بها فاطمه و كذا المراد بكلمه أنفسنا عليّ فقط، و كأنه فهمه مما يشتمل عليه بعض الروايات السابقه: قال جابر: نساءنا فاطمه و أنفسنا على الخير، و قد أساء الفهم فليس المراد في الآية بلفظ نساءنا فاطمه، و بلفظ أنفسنا على بل المراد أنه صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلم اذ لم يأت في مقام الامتثال إلاّ بها و به كشف ذلك أنها هي المصداق الفرد لنساءنا، و أنه هو المصداق الوحيد لأنفسنا و أنهما مصداق أبنائنا، و كان المراد بالأبناء و النساء و الأنفس في الآية هو الأهل فهم أهل بيت رسول الله و خاصته كما ورد في بعض الروايات بعد ذكر إتيانه صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلم بهم أنه قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي فإن معنى الجملة: أنى لم أجد من أدعوه غير هؤلاء.

و يدل على ما ذكرناه من المراد ما وقع في بعض الروايات: أنفسنا و أنفسكم رسول الله و عليّ، فإن اللفظ صريح في أن المقصود بيان المصداق دون معنى اللفظ.

و منها: قوله: و لكن واضعها لم يحسنوا تطبيقها على الآية فإن كلمه نساءنا لا يقولها العربى و يريد بها بنته لا سيما اذا كان له أزواج و لا يفهم هذا من لغتهم، و أبعد من ذلك أن يراد بأنفسنا على، و هذا المعنى العجيب الذى توهمه هو الذى أوجب أن يطرح هذه الروايات على كثرتها ثم يطعن على روايتها و كل من تلقاها بالقبول، و يرميهم بما ذكره و قد كان من الواجب عليه أن يتنبه لموقفه من تفسير الكتاب، و يذكر هؤلاء الجم الغفير من أئمه البلاغه و أساتيد البيان،

و قد أوردوها فى تفسيرهم و سائر مؤلفاتهم من غير أى تردد أو اعتراض.

فهذا صاحب الكشاف- وهو الذى ربما خطأ أئمة القراءه فى قراءتهم- يقول فى ذيل تفسير الآية: و فيه دليل لا شىء أقوى منه على فضل أصحاب الكساء عليهم السّلام و فيه برهان واضح على صحه نبوه النّبى صلّى الله عليه و آله و سلّم لأنه لم يرو أحد من موافق و لا مخالف: أنهم أجابوا الى ذلك، انتهى.

فكيف خفى على هؤلاء العظماء أبطال البلاغه و فرسان الأدب أن هذه الأخبار على كثرتها و تكررها فى جوامع الحديث تنسب الى القرآن أنه يغلط فى بيانه فيطلق النساء (و هو جمع) فى مورد نفس واحده؟.

لا و عمرى، و إنما التبس الأمر على هذا القائل و اشتبه عنده المفهوم بالمصداق فتوهم: أن الله عز اسمه لو قال لنبىه صلّى الله عليه و آله و سلّم: فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا و أبنائكم، الخ؛ و صح أن المحاجين عند نزول الآية وفد نجران و هم أربعة عشر رجلا على ما فى بعض الروايات ليس عندهم نساء و لا أبناء؛ و صح أيضا أن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم خرج الى مباحلتهم و ليس معه إلاّ على و فاطمه و الحسنان كان لازم ذلك أن معنى من حاج وفد نجران، و معنى نساءنا المرأه الواحده، و معنى أنفسنا النفس الواحده، و بقى نسائكم و أبنائكم لا معنى لهما اذ لم يكن مع الوفد نساء و لا أبناء!.

و كان عليه أن يضيف الى ذلك لزوم استعمال الأبناء و هو جمع فى التثنيه و هو أشنع من استعمال الجمع فى المفرد فإن استعمال الجمع فى المفرد ربما وجد فى كلام المولدين و إن لم يوجد فى العربيه الأصليه إلاّ فى التكلم لغرض التعظيم لكن استعمال الجمع فى المثنى مما لا مجوز له أصلا.

فهذا هو الذى دعاه الى طرح الروايات و رميها بالوضع، و ليس الأمر كما توهمه.

توضيح ذلك أن الكلام البليغ إنما يتبع فيه ما يقتضيه المقام من كشف ما يهّم كشفه فربما كان المقام مقام التخاطب بين متخاطبين أو قبيلين ينكر أو يجهل كل منهما حال صاحبه فيوضع

الكلام على ما يقتضيه الطبع و العاده فيؤتى فى التعبير بما يناسب ذلك فأحد القبيلين المتخاصمين اذا أراد أن يخبر صاحبه أن الخصومه و الدفاع قائمه بجميع أشخاص قبيله من ذكور و اناث و صغير و كبير فإنما يقول:نخاصمكم أو نقاتلكم بالرجال و الطعائن و الأولاد فيضع الكلام على ما تقتضيه الطبع و العاده فإن العاده تقتضى أن يكون للقبيل من الناس نساء و أولاد و الغرض متعلق بأن يبين للخصم أنهم يد واحده على من يخاصمهم و يخاصمونه،و لو قيل:نخاصمكم أو نقاتلكم بالرجال و النساء و ابنين لنا كان إخبارا بأمر زائد على مقتضى المقام محتاجا الى عناية زائده و تعرفا الى الخصم لنكته زائده.

و أما عند المتعارفين و الأصدقاء و الأئخله فربما يوضع الكلام على مقتضى الطبع و العاده فيقال فى الدعوه للضيافه و الاحتفال:سنقرئكم بأنفسنا و نساتنا و أطفالنا،و ربما يسترسل فى التعرف فيقال:سنخدمكم بالرجال و البنات و السبطين الصبيين؛و نحو ذلك.

فللطبع و العاده و ظاهر الحال حكم،و لواقع الأمر و خارج العين حكم،و ربما يختلفان،فمن بنى كلامه على حكاية ما يعلم من ظاهر حاله،و يقضى به الطبع و العاده فيه ثم بدا حقيقه حاله و واقع أمره على خلاف ما حكاه من ظاهر حاله لم يكن غالطا فى كلامه،و لا كاذبا فى خبره، و لا لاغيا هازلا فى قوله.

و الآيه جاريه على هذا المجرى فقوله.فقل تعالوا ندع أبناءنا و أبناءكم و نساءنا و نساءكم و أنفسنا و أنفسكم،الخ؛اريد به على ما تقدم:أدعهم الى أن تحضر أنت و خاصتك من أهلك الذين يشاركونك فى الدعوى و العلم،و يحضروا بخاصتهم من أهليهم،ثم وضع الكلام على ما يعطيه ظاهر الحال أن لرسول الله فى أهله رجالا و نساء و أبناء و لهم فى أهليهم رجال و نساء و أبناء فهذا مقتضى ظاهر الحال،و حكم الطبع و العاده فيه و فيهم،أما واقع الأمر و حقيقته فهو أنه لم يكن له صلى الله عليه و آله و سلم من الرجال و النساء و البنين إلا- نفس و بنت و ابنان،و لم يكن لهم إلا- رجال من غير نساء و لا أبناء،و لذلك لما أتاهم برجل و امرأه و ولدين لم يجبهوه بالتلحين و التكذيب،

ولا- أنهم اعتذروا عن الحضور بأنك أمرت بإحضار النساء والأبناء وليس عندنا نساء ولا أبناء، ولا أن من قصت عليه القصة رماها بالوضع والتمويه.

و من هنا يظهر فساد ما أورده بقوله: ثم وفد نجران الذين قالوا إن الآية نزلت فيهم لم يكن معهم نساء ولا أبناء.

و منها: قوله: وكل ما يفهم من الآية أمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ان يدعو المحاجين و المجادلين في عيسى من أهل الكتاب الى الاجتماع رجالا و نساء و أطفالا، و يجمع هو المؤمنين رجالا و نساء و أطفالا، و يتهلون الى الله بأن يلعن الكاذب فيما يقول عن عيسى- الى قوله- و أنى لمن يؤمن بالله أن يرضى أن يجتمع مثل هذا الجمع من الناس المحقين و المبطلين في صعيد واحد متوجهين الى الله تعالى في طلب لعنه و إبعاده من رحمته؟ و أى جرأه على الله و استهزاء بقدرته و عظمته أقوى من هذا؟

و ملخصه أن الآية تدعو الفريقين الى الاجتماع بأنفسهم و نسائهم و ذراريهم في صعيد واحد ثم الابتهاال بالملاعنه، و ينبغى أن يستبان ما هذا الاجتماع المدعو اليه؟

أ هو اجتماع الفريقين كافه أعنى المؤمنين بأجمعهم و هم يومئذ (1) عرب ربيعه و مضر جلهم أو كلهم من اليمن و الحجاز و العراق و غيرها، و النصارى و هم أهل نجران من اليمن و نصارى الشام و سواحل البحر الابيض و أهل الروم و الإفرنج و الإنجليز و النمسا و غيرهم.

و هؤلاء الجماهير في مشارق الأرض و مغاربها تربو نفوسهم بالرجال و النساء و الذرارى يومئذ على الملائين بعد الملائين، و لا يشك ذو لب أن من المتعذر اجتماعهم في صعيد واحد فالأسباب العاديه تأبى ذلك بجميع أركانها، و لازم ذلك أن يندب القرآن الناس الى المحال،

ص: ٤٨٨

١- ١). و هو سنه تسع على ما ذكره بعض المؤرخين أو عشر على ما ذكره آخرون و إن لم يخل جميعا عن الاشكال على ما سيجىء في البحث الروائى عن الآيات التاليه لهذه الآيات.

و ينبط ظهور حجته، و تبين الحق الذى يدعيه على ما لا يكون البتة، و كان ذلك عذرا (و نعم العذر) للنصارى فى عدم إجابتهم دعوه النبى صلى الله عليه و آله و سلم الى المباهله، و كان ذلك أضر لدعواه منه لدعواهم.

أم هو اجتماع الحاضرين من الفريقين و من فى حكمهم أعنى المؤمنين من أهل المدينة و ما والاها، و أهل نجران و من والاها، و هذا و إن كان أقل و أخف شناعه من الوجه السابق لكنه من حيث استحاله التحقق و امتناع الوقوع كسابقه فمن الذى كان يسعه يومئذ أن يجمع أهل المدينة و نجران قاطبه حتى النساء و الذرارى منهم فى صعيد للملاعه، و هل هذه الدعوه إلاّ تعليقا بالمحال، و اعترافا بأن الحق متعذر الظهور.

أم هو اجتماع المتلبسين بالخصام و الجدال من الفريقين أعنى النبى صلى الله عليه و آله و سلم و الحاضرين عنده من المؤمنين، و وفد نجران من النصارى، و يرد عليه حينئذ ما أورده بقوله: «ثم إن وفد نجران الذين قالوا: إن الآيه نزلت فيهم لم يكن معهم نساءهم و أولادهم، و كان ذلك وقوعا فيما ذكره من المحذور».

و منها: قوله: أما كون النبى صلى الله عليه و آله و سلم و المؤمنين كانوا على يقين مما يعتقدون فى عيسى عليه السلام فحسبنا فى بيانه قوله تعالى: **مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَالْعِلْمِ** فى هذه المسائل الاعتقادية لا يراد به إلاّ اليقين.

أقول: أما كون العلم فيها بمعنى اليقين فهو حق و أما كون الآيه داله على كون المؤمنين على يقين من أمر عيسى عليه السلام فليت شعرى من أين له إثبات ذلك؟ و الآيه غير متعرضه بلفظها (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك، الخ؛ إلاّ لشأن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، و مقام التخاطب أيضا لا يشمل غيره صلى الله عليه و آله و سلم من المؤمنين فإن الوفد من النصارى ما كان لهم هم إلاّ المحاجه و الخصام مع النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و لم يكن لهم هوى فى لقاء المؤمنين، و لا كلموهم بكلمه، و لا كلمهم المؤمنون بكلمه.

نعم لو دلت الآية على حصول العلم لأحد غير النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لدل فيمن جيء به للمباهلة على ما استفدناه من قوله تعالى: مِنَ الْكَاذِبِينَ فيما تقدم.

بل القرآن يدل على عدم عموم العلم و اليقين لجميع المؤمنين حيث يقول تعالى: وَمِمَّنْ يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (يوسف ١٠٦)، فوصفهم بالشرك و كيف يجتمع الشرك مع اليقين، و يقول تعالى: وَإِذْ يَقُولُ الْمُفْتُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (الأحزاب ١٢)، و يقول تعالى: وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَأِذَا نُزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَيِّتِ فَأَوْلى لَهُمْ طَاعَهُ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَأِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ -الى أن قال:- أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ (محمد ٢٣)، فاليقين لا يتحقق به إلا بعض اولى البصيره من متبعى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى: فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَشِدُّ لِمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَ مِنَ اتَّبَعَنِ (آل عمران ٢٠)، و قال تعالى: قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مِنَ اتَّبَعَنِي (يوسف ١٠٨).

و منها: قوله: و فى قوله نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ، الخ؛ وجهان: أحدهما: أن كل فريق يدعو الآخر، الخ؛ قد عرفت فساد وجهه الأول و عدم انطباقه على لفظ الآية اذ قد عرفت أن الغرض كان مستوفى حاصلًا لو قيل: تعالوا نبتهل فنجعل لعنه الله على الكاذبين، و إنما زيد عليه قوله: نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ وَ نِسَاءَنَا وَ نِسَاءَكُمْ وَ أَنْفُسَنَا وَ أَنْفُسَكُمْ، ليدل على لزوم إحضار كل من الفريقين عند المباهله أعز الأشياء عنده و أحبها اليه و هو الأبناء و النساء و الأنفس (الأهل و الخاصه)، و هذا إنما يتم لو كان معنى الآية: ندعو نحن أبناءنا و نساءنا و أنفسنا و تدعون أنتم أبناءكم و نساءكم و أنفسكم، ثم نبتهل، و أما لو كان المعنى ندعو نحن أبناءكم و نساءكم و أنفسكم و تدعون أنتم أبناءنا و نساءنا و أنفسنا ثم نبتهل بطل الغرض المذكور.

على أن هذا المعنى فى نفسه مما لا ىرتضيه الطبع السليم فما معنى تسليط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم النصارى على أبنائه و نساؤه، و سؤاله أن ىسلطوه على ذراريهم و نسايتهم ليتداعوا فيتم الحضور و المباهله مع تأتي ذلك بدعوه كل فريق أهل نفسه لها؟

على أن هذا المعنى ىحتاج فى فهمه من الآيه الى فهم معنى التسليط و ما يشابهه- كما تقدم- منها، و أنى لنا فهمه؟ فالحق أن هذا الوجه ساقط، و أن الوجه الآخر و هو أن ىكون المراد دعوه كل أهل نفسه هو المتعين.

و منها: قوله: و لا- إشكال فى وجه من وجهى التوزيع فى دعوه الأنفس، و إنما الإشكال فى على قول الشيعة و من شايعهم على القول بالتخصيص، ىريد بالإشكال ما اورد على الآيه من لزوم دعوه الإنسان نفسه، و هذا الإشكال غير مرتبط بشىء من الوجهين أصلا و إنما هو إشكال على القول بكون المراد بأنفسنا هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما ىحكى عن بعض المناظرات المذهبية حيث ادعى أحد الخصمين أن المراد بأنفسنا، رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاورد عليه بلزوم دعوه الإنسان نفسه و هو باطل تشير اليه الروايه الثانيه المنقوله عن العيون فيما تقدم.

و من هنا ىظهر سقوط قوله: إنما الإشكال فى على قول الشيعة فإن قولهم على ما قدمنا: أن المراد بأنفسنا هو الرجال من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، و هم بحسب المصداق رسول الله و على عليهما الصلاه و السلام، و لا إشكال فى دعوه بعضهم بعضا.

فلا إشكال عليهم حتى على ما نسبه إليهم بزعمه: أن معنى أنفسنا على فإنه لا إشكال فى دعوه النبى صلى الله عليه وآله وسلم عليا عليه السلام.

و قال تلميذه فى المنار بعد الإشاره الى الروايات: و أخرج ابن عساكر عن جعفر ابن محمد عن أبيه فقلُّ نَعَالُوا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَ كُمْ الْآيَةَ؛ قال: فجاء بأبى بكر و ولده، و عمر و ولده، و عثمان و ولده. قال: و الظاهر أن الكلام فى جماعه المؤمنين.

ثم قال بعد نقل كلام أستاذه المنقول سابقا: و فى الآيه ما ترى من الحكم بمشاركه النساء

للرجال فى الاجتماع للمباراه القوميه و المناضله الدينيه، و هو مبنى على اعتبار المرأه كالرجل حتى فى الامور العامه إلا ما استثنى منها الى آخر ما أظن به من الكلام.

أقول: أما ما ذكره من الروايه فهى روايه شاذه تخالف جميع روايات الآيه على كثرتها و اشتهاها و قد أعرض عن هذه الروايه المفسرون، و هى مع ذلك تشتمل على ما لا يطابق الواقع، و هو جعله لكل من المذكورين فيه ولدا. و لا ولد يومئذ لجميعهم البته.

و كأنه يريد بقوله: و الظاهر أن الكلام فى جماعه المؤمنين، أن يستظهر من الروايه الدلاله على أن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أحضر جميع المؤمنين و أولادهم فيكون قوله: فجاء بأبى بكر و ولده، الخ؛ كناية عن إحضاره عامه المؤمنين، و كأنه يريد به تأييد شيخه فيما ذكره من المعنى. و أنت ترى ما عليه الروايه من الشذوذ و الإعراض و المتن ثم فى الدلاله على ما ذكره من المعنى.

و أما ما ذكره من دلاله الآيه على مشاركه النساء الرجال فى الحقوق العامه فلو تم ما ذكره دل على مشاركه الأطفال أيضا، و فى هذا وحده كفايه فى بطلان ما ذكره.

و قد قدمنا الكلام فى اشتراكهن معهم عند الكلام على آيات الطلاق فى الجزء الثانى من الكتاب و سيأتى شطر فى ما يناسبه من المورد من غير حاجه الى مثل ما استفاده من الآيه.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٦٤ الى ٧٨]

اشاره

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَ مَا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَ لَا نَصْرَانِيًّا وَ لَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هَذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨) وَ دَتَّ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضْمَلُونَكُمْ وَ مَا يُضْمَلُونَ إِلَّا أَنْفُسِهِمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ (٦٩) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبَسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَ تَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) وَ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ جَهَّ النَّهَارَ وَ أَكْفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَ لَا تَتَّبِعُوا إِلَّا مَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤) وَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ فَايَمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَ اتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦) إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ أَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَ لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ لَا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧) ... (٧٨) وَ إِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَ مَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَ يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ مَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)

قوله تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، الخطاب لعامه أهل الكتاب، والدعوه فى قوله: تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ «إلخ» بالحقيقه إنما هى الى الاجتماع على معنى الكلمه بالعمل به، وإنما تنسب الى الكلمه لتدل على كونها دائره بألسنتهم كقولنا اتفقت كلمه القوم على كذا فيفيد معنى الإذعان و الاعتراف و النشر و الإشاعه. فالمعنى:

تعالوا تأخذ بهذه الكلمه متعاونين متعاضدين فى نشرها و العمل بما توجهه.

و السواء فى الأصل مصدر، و يستعمل وصفا بمعنى مساوى الطرفين، و سواء بيننا و بينكم أى مساو من حيث الأخذ و العمل بما توجهه، و على هذا فتوصيف الكلمه بالسواء توصيف بحال المتعلق و هو الأخذ و العمل، و قد عرفت أن العمل إنما يتعلق بمعنى الكلمه لا نفسها كما أن تعليق الاجتماع أيضا على المعنى لا يخلو من عنايه مجازيه فى الكلام و جوه من لطائف

العنايات:نسبه الاجتماع الى المعنى ثم وضع الكلمه مكان المعنى ثم توصيف الكلمه بالسواء!

قوله تعالى: **أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ** **وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا** **وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا** **مِنْ دُونِ اللَّهِ**، تفسير للكلمه السواء؛و هي التى يوجبها الإسلام لله.

و المراد بقوله: **أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ**، نفى عباده غير الله لا- إثبات عباده الله تعالى على ما مرت الإشارة اليه فى معنى كلمه الإخلاص (لا إله إلا الله): أن لازم كون إلا الله،بدلا لا استثناء كون الكلام مسوقا لبيان نفى الشريك دون إثبات الإله،فإن القرآن يأخذ إثبات وجود الإله و حقيقته مفروغا عنه.

و لما كان الكلام مسوقا لنفى الشريك فى العباده و لا ينحسم به ماده الشرك اللازم من اعتقاد النبوه و التثليث و نحو ذلك أردفه بقوله: **وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا** **وَلَا يَتَّخِذُ**، الخ؛فإن تسميه العباده بعباده الله لا تصير العباده عباده لله سبحانه ما لم يخلص الاعتقاد و لم يتجرد الضمير من الاعتقادات و الآراء المولوده من أصل الشرك لأن العباده حينئذ إنما تكون عباده إله له شريك،و العباده التى يعبد بها أحد الشريكين و إن خص باسمه و وجه نحوه ليست إلا نابتة منبت التشريك لأنها لا تعدو أن تكون سهما يسهم له و حظا يقسم له من بين الشريكين أو الشركاء ففهيها بعينها نحو عباده للغير (1).

و هذا الذى يدعو اليه النبى بأمر الله سبحانه،و هو الذى يدل عليه قوله: **أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ** **وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا** **وَلَا يَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا** **مِنْ دُونِ اللَّهِ**، هو الذى يجمع غرض النبوه فى السيره التى كانت الأنبياء تدعو إليها و تبسطها على المجتمع الإنسانى.

قوله تعالى: **فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** استشهاد،بأنهم(و هم

ص: ٤٩٥

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَ مِنْ اتَّبَعَهُ) عَلَى الدِّينِ الْمَرْضَى عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَ هُوَ الْإِسْلَامُ، قَالَ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ (آلِ عِمْرَانَ: ١٩)، فَيَنْقَطِعُ بِذَلِكَ خِصَامَهُمْ وَ حِجَابَهُمْ إِذْ لَا حِجَبَ عَلَى الْحَقِّ وَ أَهْلِهِ.

وَ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ التَّوْحِيدَ فِي الْعِبَادَةِ مِنْ لَوَازِمِ الْإِسْلَامِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الظَّاهِرُ أَنَّهُ مَقُولُ الْقَوْلِ الْوَاقِعِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ، وَ كَذَا مَا يَأْتِي بَعْدَ أَرْبَعِ آيَاتٍ فِيكَوْنُ مَقُولًا- لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَ إِنْ كَانَ ظَاهِرَ سِيَاقِ قَوْلِهِ: بَعْدَ آيَتَيْنِ: إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هَذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا، الْآيَةُ؛ أَنْ يَكُونَ الْخَطَابُ مِنَ اللَّهِ لَا مِنْ رَسُولِهِ بِإِذْنِهِ.

وَ مُحَاجَّتُهُمْ فِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِضَمِّ كُلِّ طَائِفَةٍ إِيَّاهُ إِلَى نَفْسِهَا يَشْبَهُ أَنْ تَكُونَ أَوْلًا- بِالْمُحَاجَّةِ لِإِظْهَارِ الْمُحَقِّقِ كَأَنَّ تَقْوِيلَ الْيَهُودِ: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي أَثْنَى اللَّهُ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ مِنْهُ فَتَقْوِيلُ النَّصَارَى: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ عَلَى الْحَقِّ، وَ قَدْ ظَهَرَ الْحَقُّ بِظُهُورِ عَيْسَى مَعَهُ، ثُمَّ تَبَدَّلَ إِلَى اللَّجَاجِ وَ الْعَصِييَةِ فَتَدْعَى الْيَهُودُ أَنَّهُ كَانَ يَهُودِيًّا، وَ تَدْعَى النَّصَارَى أَنَّهُ كَانَ نَصْرَانِيًّا، وَ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْيَهُودِيَّةَ وَ النَّصْرَانِيَّةَ إِنَّمَا نَشَأَتَا جَمِيعًا بَعْدَ نَزُولِ التَّوْرَةِ وَ الْإِنْجِيلِ وَ قَدْ نَزَلَا جَمِيعًا بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَهُودِيًّا بِمَعْنَى الْمُتَّحِلِّ بِالدِّينِ الَّذِي يَخْتَصُّ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ لَا نَصْرَانِيًّا بِمَعْنَى الْمُتَّعَبِدِ بِشَرِيعَةِ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَوْ قِيلَ فِي إِبْرَاهِيمَ شَيْءٌ لَوْجِبَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ كَانَ عَلَى الْحَقِّ حَنِيفًا مِنَ الْبَاطِلِ إِلَى الْحَقِّ مُسْلِمًا لِلَّهِ سَبْحَانَهُ، وَ هَذِهِ الْآيَاتُ فِي مَسَاقِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطَ كَانُوا يَهُودًا أَوْ نَصَارَى، قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ (البقرة: ١٤٠).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَتَّكُمْ هُوَلَاءِ- حَاجَّكُمْ فِيْمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيْمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ الْآيَةَ؛ الْآيَةُ تَثَبَّتْ لَهُمْ عِلْمًا فِي الْمُحَاجَّةِ الَّتِي وَقَعَتْ بَيْنَهُمْ، وَ تَنَفَى عِلْمًا وَ تَثَبَّتْ لِلَّهِ تَعَالَى، وَ لِذَلِكَ ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ: أَنَّ الْمَعْنَى: أَنْكُمْ حَاجَّكُمْ: فِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ لَكُمْ

بِهِ

علم ما، كالعالم بوجوده و نبوته، فلم تحتاجون فيما ليس لكم به علم و هو كونه يهوديا أو نصرانيا و الله يعلم و أنتم لا تعلمون، أو أن المراد بالعلم علم ما بعيسى و خبره، و المعنى أنكم تحتاجون في عيسى و لكم بخبره علم فلم تحتاجون فيما ليس لكم به علم و هو كون إبراهيم يهوديا أو نصرانيا، هذا ما ذكروه.

و أنت تعلم أن شيئا من الوجهين لا- ينطبق على ظاهر سياق الآية: أما الأول فلأنه لم تقع لهم محاجه في وجود إبراهيم و نبوته، و أما الثانى فلأن المحاجه التى وقعت منهم في عيسى لم يكونوا فيها على الصواب بل كانوا مخطئين في خبره كاذبين في دعواهم فيه فكيف يمكن أن يسمى محاجه فيما لهم له علم؛ و كلامه تعالى على أى حال يثبت منهم محاجه فيما لهم به علم كما يثبت لهم محاجه فيما ليس لهم به علم، فما هذه المحاجه التى هى فيما لهم به علم؟ على أن ظاهر الآية أن هاتين إنما جرتا جميعا فيما بين أهل الكتاب أنفسهم لا بينهم و بين المسلمين و إلا كان المسلمون على الباطل في الحجاج الذى أهل الكتاب فيه على علم؛ و هو ظاهر.

و الذى ينبغى ان يقال- و الله العالم- ان من المعلوم أن المحاجه كانت جاريه بين اليهود و النصرارى في جميع موارد الاختلاف التى كانت بينهم، و عمدته ذلك نبوه عيسى عليه السلام و ما كانت تقوله النصرارى في حقه (إنه الله، أو ابنه، أو التثليث) فكانت النصرارى تحاج اليهود في بعثته و نبوته و هم على علم منه، و كانت اليهود تحاج النصرارى، و تبطل الوهيته و نبوته و التثليث و هم على علم منه فهذه محاجتهم فيما لهم به علم، و اما محاجتهم فيما ليس لهم به علم فمحاجتهم في أمر إبراهيم أنه كان يهوديا أو نصرانيا.

و ليس المراد بجهلهم به جهلهم بنزول التوراه و الإنجيل بعده و هو ظاهر، و لا- ذهولهم عن أن السابق لا يكون تابعا للاحق فإنه خلاف ما يدل عليه قوله تعالى: أَفَلَا تَعْقِلُونَ، فإنه يدل على أن الأمر يكفى فيه أدنى تنبيه، فهم عالمون بأنه كان سابقا على التوراه و الإنجيل لكنهم ذاهلون عن مقتضى علمهم و هو أنه لا يكون حينئذ يهوديا و لا نصرانيا بل على دين الله الذى

هو الإسلام لله.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ﴾؛ قد مر تفسيره فيما مر، وقد قيل: إن اليهود والنصارى كما كانوا يدعون أن إبراهيم عليه السلام منهم وعلى دينهم كذلك عرب الجاهلية من الوثنية كانت تدعى أنهم على الدين الحنيف دين إبراهيم عليه السلام حتى كان أهل الكتاب يسمونهم الحنفاء، و يدعون بالحنيفيه الوثنيه.

ولما وصف الله سبحانه إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿وَ لَكِنْ كَانَ حَنِيفًا﴾، ووجب بيانه حتى لا يتوهم منه الوثنيه فلذلك أردفه بقوله: ﴿مُشْلِمًا﴾ و ﴿مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، أى كان على الدين المرضي عند الله تعالى وهو الإسلام وما كان من المشركين كعرب الجاهلية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هَذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية فى موضع التعليل للكلام السابق و بيان للحق فى المقام و المعنى - و الله العالم - أن هذا النبى المعظم إبراهيم لو أخذت النسبه بينه و بين من بعده من المنتحلين و غيرهم لكان الحق أن لا يعد تابعا لمن بعده بل يعتبر الأولويه به و الأقربيه منه، و الأقرب من النبى الذى له شرع و كتاب هم الذين يشاركونه فى اتباع الحق، و التلبس بالدين الذى جاء به، و الأولي بهذا المعنى بإبراهيم عليه السلام هذا النبى و الذين آمنوا لأنهم على الإسلام الذى اصطفى الله به إبراهيم و كذا كل من اتبعه دون من يكفر بآيات الله و يلبس الحق بالباطل.

و فى قوله لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ تعريض لأهل الكتاب من اليهود و النصارى بنحو الكنايه أى لستم أولى بإبراهيم لعدم اتباعكم إياه فى إسلامه لله.

و فى قوله: و هذا النبى و الذين آمنوا أفراد للنبى عليه السلام و من اتبعه من المؤمنين من الذين اتبعوا إبراهيم إجلالا للنبى و صونا لمقامه أن يطلق عليه الاتباع كما يستشعر ذلك - مثل قوله تعالى:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ﴾ (الأنعام ٩٠)، حيث لم يقل: فبهم اقتده.

و قد تمم التعليل و البيان بقوله: ﴿وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فإن ولايه إبراهيم (ولى الله)، من ولايه

اللّٰهُ، واللّٰهُ ولىّ المؤمنين دون غيرهم الكافرين بآياته اللابسين الحق بالباطل.

قوله تعالى: **وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ**؛ الطائفة الجماعة من الناس، وكان الأصل فيه أن الناس وخاصة العرب كانوا أولاً يعيشون شعوباً وقبائل بدويين يطوفون صيفاً وشتاءً بماشيتهم فى طلب الماء والكلاء، وكانوا يطوفون وهم جماعة تحذروا من الغيلة والغارة فكان يقال لهم جماعة طائفه، ثم اقتصر على ذكر الوصف (الطائفة) للدلالة على الجماعة.

وأما كون أهل الكتاب لا يضلون إلا أنفسهم فإن أول الفضائل الإنسانية الميل إلى الحق واتباعه فحب صرف الناس عن الحق إلى الباطل من جهة أنه من أحوال النفس وأخلاقها رذيله نفسانية - وبئس الرذيلة - وإثم من آثامها ومعاصيها وبغيها بغير حق، وما ذا بعد الحق إلا الضلال فحبهم لإضلال المؤمنين وهم على الحق لإضلال بعينه لأنفسهم من حيث لا يشعرون.

وكذا لو تمكنوا من بعضهم بإلقاء الشبهات فأضلوه بذلك فإنما يضلون أولاً أنفسهم لأن الإنسان لا يفعل شيئاً من خير أو شر إلا لنفسه كما قال تعالى: **مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** (حم السجده ٤٦)، وأما ضلال من ضل بإضلالهم فليس بتأثير منهم بل هو بسوء فعال الضال الغاوى وشآمه إرادته بإذن من الله، قال تعالى:

مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نُنْفِئُهُمْ يَمْهَدُونَ (الروم ٤٤)، وقال تعالى:

وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (الشورى ٣١)، وقد مر شطر من الكلام فى خواص الأعمال فى الكلام على قوله تعالى: **حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ** (البقره/ ٢١٧)، فى الجزء الثانى من الكتاب.

وهذا الذى ذكرناه من المعارف القرآنية التى يفيدها التوحيد الأفعالى الذى يتفرع على

شمول حكم الربوبية و الملك، و به يوجه ما يفيدده قوله تعالى: **وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ** **وَمَا يَشْعُرُونَ**، من الحصر.

قوله تعالى: **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ**، قد مر أن الكفر بآيات الله غير الكفر بالله تعالى، و أن الكفر بالله هو الالتزام بنفى التوحيد صريحا كالوثنيه و الدهريه، و الكفر بآيات الله إنكار شىء من المعارف الإلهيه بعد ورود البيان و وضوح الحق، و أهل الكتاب لا ينكرون أن للعالم إلها واحدا، و إنما ينكرون امورا من الحقائق بيئتها لهم الكتب السماويه المنزله عليهم و على غيرهم كتبوه النبى صلى الله عليه و آله و سلم و كون عيسى عبدا لله و رسولا منه، و أن إبراهيم ليس يهودى و لا نصرانى، و أن يد الله مبسوطه، و أن الله غنى؛ **الذي** غير ذلك، فأهل الكتاب فى لسان القرآن كافرون بآيات الله غير كافرين بالله، و لا ينافية قوله تعالى: **قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ لَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ** (التوبه ٢٩)، حيث نفى الإيمان عنهم صريحا، و ليس إلا الكفر و ذلك أن ذكر عدم تحريمهم للحرام و عدم تدينهم بدين الحق فى الآيه يشهد بأن المراد من توصيفهم بعدم الإيمان هو التوصيف بلازم الحال فلازم حالهم من الكفر بآيات الله عدم الإيمان بالله و اليوم الآخر و إن لم يشعروا به، و ليس بالكفر الصريح.

و فى قوله تعالى: **وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ** -و الشهاده هو الحضور و العلم عن حس- دلالة على أن المراد بكفرهم بآيات الله إنكارهم كون النبى صلى الله عليه و آله و سلم هو النبى الموعود الذى بشر به التوراه و الإنجيل مع مشاهدتهم انطباق الآيات و العلام المذكوره فيهما عليه.

و من هنا يظهر فساد ما ذكره بعضهم: أن لفظ الآيات عام شامل لجميع الآيات و لا وجه لتخصيصه بآيات النبوه بل المراد كفرهم بجميع الآيات الحقه و الوجه فى فساده ظاهر.

قوله تعالى: **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ** الى آخر الآيه؛ اللبس بفتح اللام إلقاء الشبهه و التمويه أى تظهرون الحق فى صوره الباطل.

و فى قوله: وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ دلاله أو تلويح على أن المراد باللبس و الكتمان ما هو فى المعارف الدينيه غير ما يشاهد من الآيات كالأيات التى حرفوها أو كتموها أو فسروها بغير ما يراد منها.

و هاتان الآيتان أعنى قوله: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ -الى قوله: وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ -تممه لقوله تعالى: وَ دَّتْ طَائِفَةٌ الْآيَةَ؛ و على هذا فعتاب الجميع بفعال البعض بنسبته إليهم من جهة اتحادهم فى العنصر و النسل و الصفة، و رضاء البعض بفعال البعض و هو كثير الورد فى القرآن.

قوله تعالى: وَ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ المراد بوجه النهار بقريته مقابلته بآخره هو أوله فإن وجه الشىء ما يبدو و يظهر به لغيره و هو فى النهار أوله، و سياق قولهم يكشف عن نزول وحي على النبي صلى الله عليه و آله و سلم فى وجه النهار يوافق ما عليه أهل الكتاب و آخر فى آخره يخالف ما هم عليه فإنما هو الذى دعاهم الى أن يقولوا هذا القول.

و على هذا فقوله: بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا أريد به شىء خاص من وحي القرآن يوافق ما عند أهل الكتاب، و قوله: وَجْهَ النَّهَارِ منصوب على الظرفيه و متعلق بقوله: أُنزِلَ، لا بقوله:

آمنوا(صيغه الأمر)لأنه أقرب، و قوله: وَ أَكْفُرُوا آخِرَهُ فى معنى و كفروا بما أنزل فى آخره فيكون من وضع الظرف موضع المظروف بالمجاز العقلى نظير قوله تعالى: بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ (سبأ ٣٣).

و بذلك يتأيد ما ورد فى سبب النزول عن أئمة أهل البيت: أن هذه كلمه قالتها اليهود حين تغيير القبلة حيث صلى رسول الله صلاه الصبح الى بيت المقدس و هو قبله اليهود، ثم حولت القبلة فى صلاه الظهر نحو الكعبه فقالت طائفه من اليهود: آمنوا بما أنزل على الذين آمنوا وجه النهار يريدون استقبال بيت المقدس، و اكفروا آخره يريدون استقبال الكعبه. و يؤيده قولهم

بعده على ما حكاه الله: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، أى لا تثقوا بمن لا يتبع دينكم بالإيمان به ففتشوا عنده شيئاً من أسراركم و البشارات التى عندكم و كان من علائم النبى صلى الله عليه و آله و سلم أنه يحول القبلة الى الكعبة.

قوله تعالى: وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ الخ؛ الذى يعطيه السياق هو أن تكون هذه الجملة من قول أهل الكتاب تتمه لقولهم: آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا، و كذا قوله تعالى: أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ، و يكون قوله قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ جملة معترضه هو جواب الله سبحانه عن مجموع ما تقدم من كلامهم أعنى قولهم: آمنوا بما انزل الى قوله: دِينَكُمْ، على ما يفيدته تغيير السياق، و كذا قوله تعالى: قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ، جوابه تعالى عن قولهم: أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ إِلَىٰ آخِرِهِ؛ هذا هو الذى يقتضيه ارتباط أجزاء الكلام و اتساق المعانى فى الآيتين أولاً، و ما تناظر الآيتين من الآيات الحاكية لأقوال اليهود فى الجدل و الكيد ثانياً.

و المعنى -و الله أعلم- أن طائفة من أهل الكتاب -و هم اليهود- قالت أى قال بعضهم لبعض: صدقوا النبى و المؤمنى فى صلاتهم وجه النهار الى بيت المقدس و لا تصدقوهم فى صلاتهم الى الكعبة آخر النهار، و لا تثقوا فى الحديث بغيركم فيخبروا المؤمنى أن من شواهد نبوه النبى الموعود تحويل القبلة الى الكعبة فإن فى تصديقكم أمر الكعبة و إفشائكم ما تعلمونه من كونها من امارات صدق الدعوه محذور أن يؤتى المؤمنون مثل ما اوتيتم من القبلة فيذهب به سوددكم و يبطل تقدمكم فى أمر القبلة، و محذور أن يقيموا عليكم الحججه عند ربكم أنكم كنتم عالمين بأمر القبلة الجديده شاهدين على حقيقته ثم لم تؤمنوا.

فأجاب الله تعالى عن قولهم فى الإيمان بما فى وجه النهار و الكفر فى آخره و أمرهم بكتمان أمر القبلة لئلا يهتدى المؤمنون الى الحق بأن الهدى الذى يحتاج اليه المؤمنون الذى هو حق الهدى إنما هو هدى الله دون هداكم، فالؤمنون فى غنى عن ذلك فإن شتمم فاتبعوا و إن شتمم فاكفروا

و إن شئتم فأفسوا و إن شئتم فاكتموا.

و أجاب تعالى عما ذكروه من مخافه أن يؤتى أحد مثل ما اوتوا أو يحاجوهم عند ربهم بأن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء لا بيدكم حتى تحبسوه لأنفسكم و تمنعوا منه غيركم، و أما حديث الكتمان مخافه المحاجه فقد أعرض عن جوابه لظهور بطلانه كما فعل كذلك في قوله تعالى في هذا المعنى بعينه: وَ إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغَضٍ مِنْهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَ تَجِدُهُمْ بِمَا فَوَّحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحِاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَ فَلا تَعْقِلُونَ أَوْ لا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ (البقره ٧٧)، فقوله: أَوْ لا يَعْلَمُونَ، إيدان بأن هذا القول بعد ما علموا أن الله لا يتفاوت فيه السر و العلانيه كلام منهم لا يستوى على تعقل صحيح، و ليس جوابا لمكان الواو في قوله: أَوْ لا يَعْلَمُونَ .

قوله تعالى: قُلْ إِنَّ الْفُضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ، الفضل هو الزائد عن الاقتصاد، و يستعمل في المحمود كما أن الفضول يستعمل في المذموم، قال الراغب: و كل عطيه لا تلزم من يعطى يقال لها فضل نحو قوله: وَ سِئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ - ذلك فضل الله - ذو الفضل العظيم، و على هذا قوله: قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ - و لو لا فضل الله - انتهى.

و على هذا فقوله: إِنَّ الْفُضْلَ بِيَدِ اللَّهِ ، من قبيل الإيجاز بالقناعه بكبرى البيان القياسى؛ و التقدير: قل إن هذا الإنزال و الإيتاء الإلهى الذى تحتالون فى تخصيصه بأنفسكم بالتظاهر على الإيمان و الكفر، و الإيصاء بالكتمان أمر لا نستوجهه معاشر الناس على الله تعالى بل هو من الفضل، و الفضل بيد الله الذى له الملك و له الحكم فله أن يؤتیه من يشاء و الله واسع عليم.

قوله تعالى: يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ، فلما كان الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء و كان واسعا عليهما أمكن أن يختص بعض عباده ببعض نعمه فإن له أن يتصرف فى ملكه كيف يشاء، و ليس اذا لم يكن ممنوع التصرف فى فضله و إيتائه عباده

أن يجب عليه أن يؤتى كل فضله كل أحد فإن هذا أيضا نوع ممنوعه في التصرف بل له أن يختص بفضله من يشاء.

□
و قد ختم الكلام بقوله: وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ و هو بمنزله التعليل لجميع المعانى السابقه فإن لازم عظمه الفضل على الإطلاق أن يكون بيده يؤتیه من يشاء،و أن يكون واسعا في فضله؛و أن يكون عليما بحال عباده و ما هو اللائق بحالهم من الفضل،و أن يكون له أن يختص بفضله من يشاء.

□
و في تبديل الفضل بالرحمه في قوله: يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ، دلالة على أن الفضل و هو العطيته غير الواجبه من شعب الرحمه،قال تعالى: وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ (الأعراف / ١٥٦)،و قال وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا (النور ٢١)، و قال تعالى: قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ (الإسراء / ١٠٠).

□
قوله تعالى: وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ -إلى قوله:

سَبِيلٌ إشاره الى اختلافهم في حفظ الأمانات و اليهود اختلافا فاحشا آخذنا بطرفي التضاد و أن هذا و إن كان في نفسه رذيله قوميه ضاره إلا- أنه ناش بينهم فاش في جماعتهم من رذيله اخرى اعتقاديه و هي ما يشتمل عليه قولهم:ليس علينا في الاميين سبيل،فانهم كانوا يسمون أنفسهم بأهل الكتاب،و غيرهم بالاميين فقولهم:ليس علينا في الاميين سبيل معناه نفى أن يكون لغير إسرائيلى على إسرائيلى سبيل،و قد أسندوا الكلمه الى الدين،و الدليل عليه قوله تعالى: وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ بَلَى،الخ.

فقد كانوا يزعمون- كما أنهم اليوم على زعمهم-أنهم هم المخصوصون بالكرامه الإلهيه لا تعدوهم الى غيرهم بما أن الله سبحانه جعل فيهم نبوه و كتابا و ملكا فلهم السيادة و التقدم على غيرهم،و استنتجوا من ذلك أن الحقوق المشرعه عندهم اللانزمه المراعاة عليهم كحرمة أخذ

الرباء و أكل مال الغير: و هضم حقوق الناس إنما هي بينهم معاشر أهل الكتاب فالمحرم هو أكل مال الإسرائيلي على مثله، و المحظور هضم حقوق يهودى على أهل ملته، و بالجملة إنما السبيل على أهل الكتاب لأهل الكتاب، و أما غير أهل الكتاب فلا سبيل له على أهل الكتاب فلهم أن يحكموا فى غيرهم ما شاءوا و يفعلوا فى من دونهم ما أرادوا، و هذا يؤدى الى معاملتهم مع غيرهم معامله الحيوان العجم كائنا من كان.

و القنطار و الدينار معروفان، و المقابله بينهما-على ما فيها من المحسنات البديعيه-و المقام مقام يذكر فيه الأمانه تفيد أنه كنى بهما عن الكثير و القليل، و المراد أن منهم من لا يخون الأمانه و إن كثرت و ثقلت قيمتها، و منهم من يخونها و إن قلت و خفت.

و كذا الخطاب الموضوع فى الكلام بقوله: **إِنْ تَأْمَنَّهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ**، غير متوجه الى مخاطب معين بل هو للتكنيه عن أى مخاطب يمكن أن يخاطب بهذا الكلام للإشعار بأن الحكم عام غير مقصور على واحد دون واحد، و الكلام فى معنى قولنا: إن يأمنه مؤتمن أى مؤتمن كان بقنطار يؤده اليه.

و ما فى قوله: **إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا**، مصدرية على ما قيل، و التقدير **إِلَّا** أن تدوم قائما عليه، و ذكر القيام عليه للدلاله على الإلحاح و الاستعجال فإن قيام المطالب على ساقه عند المطالبه من غير قعود دليل على ذلك، و ربما قيل: إن ما ظرفيه، و ليس بشىء.

و قوله: **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنَ سَبِيلٌ**، ظاهر السياق أن ذلك إشاره الى مجموع المضمون المأخوذ من سابق القول أى كون بعضهم يؤدى الأمانه و إن كانت خطيره مهمه، و بعضهم لا- يؤديها و إن كانت حقيره لا يعبأ بها إنما هو لقولهم، ليس علينا فى الاميين سبيل فأوجب ذلك اختلافا بينهم فى الصفات الروحيه كحفظ الأمانات و الاتقاء عن تضييع حقوق الناس، و الاغترار بالكرامه مع أنهم يعلمون أن الله لم يسن لهم ذلك فى الكتاب و لا رضى بمثل هذه الأفعال منهم.

قوله تعالى: وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ إبطال لدعواهم أنه ليس علينا فى الاميين سبيل، و دليل على أنهم كانوا ينسبون ذلك الى الوحي السماوى و التشريع الدينى كما مر.

قوله تعالى: بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَ اتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ، رد لكلامهم و إثبات لما نفوه بقولهم: ليس علينا فى الاميين سبيل؛ و إيفاء العهد تميمه بالتحفظ من العذر و النقص؛ و التوفيه بالبدل و الإعطاء و ايفاء؛ و الاستيفاء الأخذ و التناول و ايفاء.

و المراد بالعهد ما أخذ الله الميثاق عليه من عباده أن يؤمنوا به و يعبدوه على ما يشعر به قوله فى الآيه التاليه: إن الذين يشتركون بعهد الله و ايمانهم ثمنا قليلا، أو مطلق العهد الذى منه عهد الله تعالى.

و قوله: فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ من قبيل وضع الكبرى موضع الصغرى إيثارا للإيجاز، و التقدير فإن الله يحبه لأنه متق و الله يحب المتقين، و المراد أن كرامه الله لعباده المتقين حبه لهم لا ما زعمتموه من نفى السبيل.

فمفاد الكلام ان الكرامه الإلهيه ليست بذاك المبتذل السهل التناول حتى ينالها كل من انتسب اليه انتسابا أو يحسبها كل محتال أو مختال كرامه جنسيه أو قوميه بل يشترط فى نيلها الوفاء بعهد الله و ميثاقه و التقوى فى الدين فاذا تمت الشرائط حصلت الكرامه و هى المحبه و الولايه الإلهيه التى لا تعدو عباده المتقين، و أثرها النصره الإلهيه، و الحياه السعيده التى تعمر الدنيا و تصلح بال أهلها، و ترفع درجات الآخره.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَشْرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ أَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا تَعْلِيلٌ لِلْحُكْمِ الْمَذْكُورِ فى الآيه السابقه، و المعنى أن الكرامه الإلهيه خاصه بمن أوفى بعهدده و اتقى لأن غيرهم - و هم الذين يشتركون بعهد الله و ايمانهم ثمنا قليلا - لا كرامه لهم.

و لما كان نقض عهد الله و ترك التقوى إنما هو للتمتع بزخارف الدنيا و إيثار شهوات الأولى

على الاخرى كان فيه وضع متاع الدنيا موضع إيفاء العهد و التقوى، و تبادل العهد به، و لذلك شبه عملهم ذلك بالمعامله فجعل عهد الله مبيعا يشتري بالمتاع، و سمي متاع الدنيا و هو قليل بالثمن القليل، و الاشرء هو البيع فقيل: يشترون بعهد الله و ايمانهم ثمنا قليلا، أى يبدلون العهد و الايمان من متاع الدنيا.

قوله تعالى: **أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛** الخلاق النصيب، و التزكيه هى الإنماء نمووا صالحا، و لما كان الوصف المأخوذ فى بيان هذه الطائفه من الناس مقابلا للوصف المأخوذ فى الطائفه الاخرى المذكوره فى قوله: **مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَ اتَّقَىٰ**، ثم كانت التبعات المذكوره لوصفهم امورا سلبيه أفاد ذلك:

أولاً: أن الإتيان فى الإشاره بلفظ أولئك الدال على البعد لإفاده بعد هؤلاء من ساحه القرب كما أن الموفون بعهدهم المتقون مقربون لمكان حب الله تعالى لهم.

و ثانياً: أن آثار محبه الله سبحانه هى الخلاق فى الآخره، و التكليم و النظر يوم القيامه، و التزكيه و المغفره، و هى رفع أليم العذاب. و الخصال التى ذكرها الله تعالى لهؤلاء الناقضين لعهد الله و ايمانهم امور ثلاثه:

أحدها: أنهم لا نصيب لهم فى الآخره، و المراد بالآخره هى الدار الآخره (من قيام الوصف مقام الموصوف) و يعنى بها الحياه التى بعد الموت كما أن المراد بالدنيا هى الدار الدنيا و هى الحياه الدنيا قبل الموت.

و نفى النصيب عنهم فى الآخره لاختيارهم نصيب الدنيا عليه، و من هنا يظهر أن المراد بالثمن القليل هو الدنيا، و إنما فسرناه فيما تقدم بمتاع الدنيا لمكان توصيفه تعالى إياه بالقليل، و قد وصف به متاع الدنيا فى قوله -عز من قائل- **قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ** (النساء/٧٧)، على أن متاع الدنيا هو الدنيا.

و ثانياً: أن الله لا يكلمهم و لا ينظر إليهم يوم القيامه، و قد حوذى به المحبه الإلهيه للمتقين

من حيث إن الحب يوجب تزود المحب من المحبوب بالاسترسال بالنظر و التكليم عند الحضور و الوصال، و اذ لا يجبهم الله فلا يكلمهم و لا- ينظر إليهم يوم القيامة و هو يوم الإحضار و الحضور، و التدرج من التكليم الى النظر لوجود القوه و الضعف بينهما فإن الاسترسال فى التكليم أكثر منه فى النظر فكأنه قيل: لا نشرفهم لا كثيرا و لا قليلا.

و ثالثها: أن الله لا يزيكهم و لهم عذاب أليم، و إطلاق الكلام يفيد أن المراد بهما ما يعم التركيه و العذاب فى الدنيا و الآخرة.

قوله تعالى: **وَ إِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ** و **مَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ**، اللتى هو قتل الحبل، و لى الرأس و اللسان إمالتهما. قال تعالى: **لَوْوَا رُؤُسَهُمْ** (المنافقون ٥/٥)، و قال تعالى: **لَيَّا بِأَلْسِنَتِهِمْ** (النساء ٤٦/٤٦)، و الظاهر أن المراد بذلك أنهم يقرءون ما افتروه من الحديث على الله سبحانه بألحان يقرءون بها الكتاب تليسا على الناس ليحسبوه من الكتاب و ما هو من الكتاب.

و تكرار لفظ الكتاب ثلاث مرات فى الكلام لدفع اللبس فإن المراد بالكتاب الأول هو الذى كتبه بأيديهم و نسبه الى الله سبحانه، و بالثانى الكتاب الذى أنزله الله تعالى بالوحى، و بالثالث هو الثانى كرر لفظه لدفع اللبس و للإشارة الى أن الكتاب بما أنه كتاب الله أرفع منزله من أن يشتمل على مثل تلك المفتريات، و ذلك لما فى لفظ الكتاب من معنى الوصف المشعر بالعليه.

و نظيره تكرار لفظ الجلاله فى قوله: **وَ يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ** و **مَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ**، فالمعنى و ما هو من عند الله الذى هو إله حقا لا يقول إلا الحق، قال تعالى: **وَ الْحَقُّ أَقُولُ** (ص / ٨٤).

و أما قوله: **وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ** و **هُمْ يَعْلَمُونَ** تكذيب بعد تكذيب لنسبتهم ما اختلقوه من الوحى الى الله سبحانه فإنهم كانوا يلبسون الأمر على الناس بلحن القول فأبطله

اللَّهِ بِقَوْلِهِ: وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ ثُمَّ كَانُوا يَقُولُونَ بِالسَّنْتِهِمْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَكَذَّبَهُمُ اللَّهُ: أَوْلَا بِقَوْلِهِ: وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَثَانِيَا بِقَوْلِهِ: وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ، وَزَادَ فِي الْفَائِدَةِ أَوْلَا أَنْ الْكَذِبَ مِنْ دَابِّهِمْ وَدِيدِنِهِمْ، وَثَانِيَا أَنْ ذَلِكَ لَيْسَ كَذِبًا صَادِرًا عَنْهُمْ بِالتَّبَاسِ مِنَ الْأَمْرِ عَلَيْهِمْ بَلْ هُمْ عَالِمُونَ بِهِ مُتَعَمِدُونَ فِيهِ (١).

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٧٩ الى ٨٠]

إشارة

مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّائِيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٨٠)

بيان:

قوله تعالى: مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ، البشر مرادف للإنسان، ويطلق على الواحد والكثير فالإنسان الواحد بشر كما أن الجماعة منه بشر.

وقوله: مَا كَانَ لِشَيْءٍ، اللام للملك أي لا يملك ذلك أي ليس له بحق كقوله تعالى:

مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا (النور/١٦)، وقوله: وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُغَلَّ (آل عمران/١٦١).

ص: ٥٠٩

١ - ١). آل عمران ٦٤-٧٨: بحث روائي حول الآية «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ...»؛ دعوته رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم لأهل الكتاب؛ كتب رسول الله إلى الملوك و الامراء.

وقوله تعالى: أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ، اسم كان إلا- أنه توطئه لما يتبعه من قوله: ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ، و ذكر هذه التوطئه مع صحه المعنى بدونها ظاهرا يفيد وجها آخر لمعنى قوله: مَا كَانَ لِبَشَرٍ، فإنه لو قيل: ما كان لبشر أن يقول للناس، كان معناه أنه لم يشرع له الحق وإن أمكن أن يقول ذلك فسقا و عتوا، ولكنه اذا قيل: ما كان لبشر أن يؤتیه الله الكتاب و الحكم و النبوه، ثم يقول: كان معناه أن إيتاء الله له العلم و الفقه بما عنده و تربيته له بتربيته ربانيه لا يدعه أن يعدو طور العبوديه، و لا يوسع له أن يتصرف فيما لا- يملكه و لا يحق له كما يحكيه تعالى عن عيسى عليه السلام في قوله: وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ (المائدة ١١٦).

و من هنا تظهر النكته في قوله: أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ، الخ؛ دون أن يقال: مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ، الخ؛ فإن العباره الثانيه تفيد معنى أصل التشريع كما تقدم بخلاف قوله: أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ، الخ؛ فإنه يفيد أن ذلك غير ممكن البتة أى أن التربيه الربانيه و الهدايه الالهيه لا- تتخلف عن مقصدها كما قال تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هُولَاءِ (يعنى قوم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم) فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (الأنعام ٨٩).

فمحصل المعنى أنه لا يسع لبشر أن يجمع بين هذه النعم الالهيه و بين دعوه الناس الى عباده نفسه بأن يؤتى الكتاب و الحكم و النبوه ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله، فالآيه بحسب السياق بوجه كقوله تعالى: لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ -الى أن قال:- وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَ لَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لَا نَصِيرًا (النساء ١٧٣)، فإن المستفاد من الآيه: أن المسيح و كذا الملائكه المقربون أجل شأننا و أرفع قدرا أن يستنكفوا عن عباده الله فإن

الاستنكاف عن عبادته يستوجب أليم العذاب، و حاشا أن يعذب الله كرام أنبيائه و مقربى ملائكته.

قوله تعالى: **وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّائِينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ** الربانى منسوب الى الرب، زيد عليه الألف و النون للدلالة على التفخيم كما يقال لحيانى لكثير اللحية و نحو ذلك، فمعنى الربانى شديد الاختصاص بالرب و كثير الاشتغال بعبوديته و عبادته، و الباء فى قوله: **بِمَا كُنْتُمْ**، للسببيه، و ما مصدرية، و الكلام بتقدير القول و المعنى، و لكن يقول: كونوا ربانيين بسبب تعليمكم الكتاب للناس و دراستكم إياه فيما بينكم.

و الدراسة أخص من التعليم فإنه يستعمل غالبا فيما يتعلم عن الكتاب بقراءته، قال الراغب: درس الدار بقى أثرها، و بقاء الأثر يقتضى انمحائه فى نفسه، فلذلك فسر الدروس بالانمحاء، و كذا درس الكتاب، و درست العلم تناولت أثره بالحفظ، لما كان تناول ذلك بمداوه القراءه عبر عن إدامه القراءه بالحفظ، قال تعالى: و درسوا ما فيه، و قال: بما كنتم تعلمون الكتاب و بما كنتم تدرسون، و ما آتيناهم من كتب يدرسونها انتهى.

و محصل الكلام أن البشر الذى هذا شأنه إنما يدعوكم الى التلبس بالإيمان و اليقين بما فى الكتاب الذى تعلمونه و تدرسونه من اصول المعارف الإلهيه، و الاتصاف و التحقق بالملكات و الأخلاق الفاضله التى يشتمل عليها، و العمل بالصالحات التى تدعون الناس إليها حتى تنقطعوا بذلك الى ربكم، و تكونوا به علماء ربانيين.

و قوله: **بِمَا كُنْتُمْ**، حيث اشتمل على الماضى الدال على التحقق لا- يخلو عن دلالة ما على أن الكلام فى الآيه مسوق للتعريض بالنصارى من أهل الكتاب فى قولهم: إن عيسى أخبرهم بأنه ابنه و كلمته على الخلاف فى تفسير البنوه، و ذلك أن بنى إسرائيل هم الذين كان فى أيديهم كتاب سماوى يعلمونه و يدرسونه و قد اختلفوا فيه اختلافا يصاحب التغيير

والتحريف، و ما بعث عيسى عليه السلام إلا لبيّن لهم بعض ما اختلفوا فيه، و ليحل بعض الذى حرم عليهم، و بالجمله ليدعوهم الى القيام بالواجب من وظائف التعليم و التدريس و هو أن يكونوا ربانيين فى تعليمهم و دراستهم كتاب الله سبحانه.

و الآيه و إن لم تأب الانطباق على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بوجه فقد كانت لدعوته أيضا مساس بأهل الكتاب الذين كانوا يعلمون و يدرسون كتاب الله لكن عيسى عليه السلام أسبق انطباقا عليه، و كانت رسالته خاصة ببني إسرائيل بخلاف رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم.

و أما سائر الأنبياء العظام من اولى العزم و الكتاب: كنوح و إبراهيم و موسى فمضمون الآيه لا ينطبق عليهم و هو ظاهر.

قوله تعالى: **وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا** عطف على قوله يقول: على القراءه المشهوره التى هى نصب يأمركم، و هذا كما كان طائفه من أهل الكتاب كالصابئين يعبدون الملائكه و يسندون ذلك الى الدعوه الدينيه، و كعرب الجاهليه حيث كانوا يقولون إن الملائكه بنات الله، و هم يدعون أنهم على دين إبراهيم عليه السلام، هذا فى اتخاذ الملائكه أربابا.

و أما اتخاذ النبيين أربابا فكقول اليهود: عزيز ابن الله على ما حكاه القرآن و لم يجوز لهم موسى عليه السلام ذلك، و لا وقع فى التوراه إلا توحيد الرب و لو جوز لهم ذلك لكان أمرا به حاشاه من ذلك.

و قد اختلفت الآيتان: أعنى قوله: **ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي** مِنْ دُونِ اللَّهِ و قوله:

وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا من جهتين فى سياقهما: الاولى: أن المأمور فى الاولى (ثم يقول للناس) الناس، و فى الثانيه هم المخاطبون بالآيه، و الثانيه: أن المأمور به فى الأولى العبوديه له و فى الثانيه اتخاذ أربابا.

أما الاولى فحيث كان الكلام مسوقا للتعريض بالنصارى فى عبادتهم لعيسى، و قولهم

بألوهيته صريحا مسندين ذلك الى دعوته كان ذلك نسبه منهم إليه أنه قال: كونوا عبادا لى بخلاف اتخاذ الملائكه و النبيين أربابا بالمعنى الذى قيل فى غير عيسى فإنه يضاد الألوهيه بلازمه لا بصريحه فلذلك قيل: أربابا، و لم يقل: آلهه.

و أما الثانيه فالوجه فيه أن التعبيرين كليهما (كونوا عبادا لى-يأمركم أن تتخذوا) أمر لو تعلق بأحد تعلق بهؤلاء الذين يخاطبون بهذه الآيات من أهل الكتاب و العرب لكن التعبير لما وقع فى الآيه الأولى بالقول، و القول يقضى بالمشافهه و لم يكن الحاضرون فى زمن نزول الآيه حاضرين اذ ذاك لا جرم قيل: ثم يقول للناس، و لم يقل: ثم يقول لكم؛ و هذا بخلاف لفظ الأمر المستعمل فى الآيه الثانيه فإنه لا يستلزم شفاها بل يتم مع الغيبه فإن الأمر المتعلق بالأسلاف متعلق بالأخلاف مع حفظ الوحده القوميه، و أما القول فهو لإفادته بحسب الانصراف إسماع الصوت يقضى بالمشافهه و الحضور إلا أن يعنى به مجرد معنى التفهيم.

و على هذا فالأصل فى سياق هذه الآيات الحضور و خطاب الجمع؛ كما جرى عليه قوله تعالى: أو يأمركم، الى آخر الآيه.

قوله تعالى: أَيْأَمْرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعِيدٌ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ظاهر الخطاب أنه متعلق بجميع المنتحلين بالنبوه من أهل الكتاب أو المدعين للانتساب الى الانبياء كما كانت عرب الجاهليه تزعم أنهم حنفاء و الكلام موضوع على الفرض و التقدير فالمعنى أنكم على تقدير إجابتكم هذا البشر الذى اوتى الكتاب و الحكم و النبوه تكونون مسلمين لله متحلين بحليه الإسلام مصبوغين بصبغته فكيف يمكنه أن يأمركم بالكفر و يضلكم عن السبيل الذى هداكم إليه ياذن الله سبحانه.

و من هنا يظهر أن المراد بالإسلام هو دين التوحيد الذى هو دين الله عند جميع الأنبياء على ما يدل عليه أيضا احتفاف الآيات بهذا المعنى من الإسلام أعنى قوله تعالى من قبل: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ (آل عمران ١٩)، و قوله تعالى من بعد: أَلَمْ يَغَيِّرْ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ

-الى أن قال- وَ مَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (آل عمران ٨٥) (١)(٢).

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٨١ الى ٨٥]

إشارة

وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَ أَقْرَضُكُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلَيَّ ذَلِكَمْ إِيصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢) أَ فَغَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَتَّبِعُونَ وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعًا وَ كَرْهًا وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَ مَا أُنزِلَ عَلَيَّ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطَ وَ مَا أُوتِيَ مُوسَى وَ عِيسَى وَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَ مَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)

ص: ٥١٤

١-١). آل عمران ٧٩-٨٠: بحث في قصة عيسى عليه السلام في فصول (ما هي قصة عيسى و أمه في القرآن، منزله عيسى عند الله و موقفه في نفسه، ما الذي قاله عيسى عليه السلام و ما الذي قيل فيه؟ احتجاج القرآن على مذهب التثليث، المسيح من الشفعاء عند الله و ليس بفاد، من اين نشأ هذه الآراء.

٢-٢). آل عمران ٧٩-٨٠: بحث تاريخي في: قصة التوراه الحاضره؛ قصة المسيح و الانجيل.

قوله تعالى: وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمِهِ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ، الآية تنبئ عن ميثاق مأخوذ، وقد أخذ الله هذا الميثاق للنبیین كما يدل عليه قوله تعالى: ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ، الخ؛ كما أنه تعالى أخذ من النبیین على ما يدل عليه قوله: أَلْقَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَيَّ ذَلِكَمُ إِضْرِي، الخ؛ وقوله بعد: قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ، الى آخر الآية؛ فالميثاق ميثاق مأخوذ للنبیین و مأخوذ منهم و إن كان مأخوذاً من غيرهم أيضا بواسطتهم.

و على هذا فمن الجائز أن يراد بقوله تعالى: مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ الميثاق المأخوذ منهم أو المأخوذ لهم و الميثاق واحد، و بعبارة اخرى يجوز أن يراد بالنبیین، المأخوذ لهم الميثاق و المأخوذ منهم الميثاق إلا أن سياق قوله تعالى: مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْإِيمَانَ الْآتِينَ فِي اتِّصَالِهِ بِهذه الآية يؤيد كون المراد بالنبیین هم الذين أخذ منهم الميثاق فإن وحده السياق تعطى أن المراد: أن النبیین بعد ما آتاهم الله الكتاب و الحكم و النبوه لا يتأتى لهم أن يدعوا الى الشريك و كيف يتأتى لهم ذلك؟ و قد أخذ منهم الميثاق على الإيمان و النصره لغيرهم من النبیین الذين يدعون الى توحيد الله سبحانه، فالأنسب أن يبدأ بذكر الميثاق من حيث أخذه من النبیین.

و قوله: لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمِهِ، القراءه المشهوره، و هى قراءه غير حمزه بفتح اللام و التخفيف فى «لَمَّا» و عليها فما موصول و آتيتكم، - و قرأ آتيناكم - صلته، و الضمير محذوف، يدل عليه قوله: مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمِهِ، و الموصول مبتدأ خبره قوله: لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، الخ؛ و اللام فى لما ابتدائية، و فى لتؤمنن به لام القسم، و المجموع بيان للميثاق المأخوذ، و المعنى: للذى آتيتكموه من كتاب و حكمه ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم آمنتهم به

و نصرتموه البته.

و يمكن أن يكون ما شرطيه و جزاؤها قوله لتؤمنن به، و المعنى مهما آتيتكم من كتاب و حكمه ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به و لتنصرنه؛ و هذا أحسن لأن دخول اللام المحذوف قسمها فى الجزاء أشهر، و المعنى عليه أسلس و أوضح، و الشرط فى موارد المواثيق أعرف، و أما قراءه كسر اللام فى «لما» فاللام فيها للتعليل و ما موصوله، و الترجيح لقراءه الفتح.

و الخطاب فى قوله: آتَيْتُكُمْ، و قوله: جَاءَكُمْ، و إن كان بحسب النظر البدوى للنبيين لكن قوله بعد: أَأَقْرَضْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلَيَّ ذَلِكُمْ إِصْرِي، قرينه على أن الخطاب للنبيين و اممهم جميعا أى ان الخطاب مختص بهم و حكمه شامل لهم و لاممهم جميعا فعلى الامم أن يؤمنوا و ينصروا كما على النبيين أن يؤمنوا و ينصروا.

و ظاهر قوله: ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ، التراخى الزمانى أى أن على النبي السابق أن يؤمن و ينصر النبي اللاحق، و أما ما يظهر من قوله: قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ، الخ؛ أن الميثاق مأخوذ من كل من السابق و اللاحق للآخر، و أن على اللاحق أن يؤمن و ينصر السابق كالعكس فإنما هو أمر يشعر به فحوى الخطاب دون لفظ الآيه كما سيجىء إن شاء الله العزيز.

و قوله: لَتُؤْمِنَنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ، الضمير الأول و إن كان من الجائر أن يرجع الى الرسول كالضمير الثانى اذ لا ضمير فى إيمان نبي لنسبى آخر، قال تعالى: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلَائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ الْآيَةَ (البقره ٢٨٥)، لكن الظاهر من قوله: قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَ مَا أُنزِلَ عَلَيَّ إِِبْرَاهِيمَ، الخ؛ رجوعه الى ما أوتوا من كتاب و حكمه، و رجوع الضمير الثانى الى الرسول، و المعنى لتؤمنن بما آتيتكم من كتاب و حكمه و لتنصرن الرسول الذى جاءكم مصدقا لما معكم.

قوله تعالى: قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلَيَّ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا،

ص: ٥١٦

الاستفهام للتقرير، والإقرار معروف، والإصر هو العهد، وهو مفعول أخذتم، وأخذ العهد يستلزم مأخوذاً منه غير الآخذ وليس إلا أمم الأنبياء، فالمعنى أقررتم أنتم بالميثاق، وأخذتم على ذلكم عهدي من أممكم قالوا: أقرنا.

قوله تعالى: **قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ**، ظاهر الشهادة كما مر أن يكون على الغير فهي شهادة من الأنبياء و أممهم جميعاً، ويشهد لذلك كما مر قوله: **قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ**، ويشهد لذلك السياق أيضاً، فإن الآيات مسوقة للاحتجاج على أهل الكتاب في تركهم إجابته دعوه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما أنها تحتج عليهم في ما نسبوه إلى عيسى و موسى عليهما السلام و غيرهما كما يدل عليه قوله تعالى: **أَفَعَيِّرْ دِينَ اللَّهِ يَتَّبِعُونَ**، وغيره.

و ربما يقال: إن المراد بقوله: **فَاشْهَدُوا**، شهادة بعض الأنبياء على بعض كما ربما يقال: إن المخاطبين بقوله: **فَاشْهَدُوا**، هم الملائكة دون الأنبياء.

و المعنيان و إن كانا جائزين في نفسيهما غير أن اللفظ غير ظاهر في شيء منهما بغير قرينه، و قد عرفت أن القرينه على الخلاف.

و من اللطائف الواقعة في الآيه أن الميثاق مأخوذ من النبيين للرسول على ما يعطيه قوله: **وَ إِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ** - إلى قوله - **ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ**، و قد مر في ذيل قوله تعالى: **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً** (البقره ٢١٣)، الفرق بين النبوه و الرساله و أن الرسول أخص مصداقا من النبي.

فعلى ظاهر ما يفيد اللفظ يكون الميثاق مأخوذاً من مقام النبوه لمقام الرساله من غير دلالة على العكس.

و بذلك يمكن المناقشه فيما ذكر بعضهم أن المحصل من معنى الآيه أن الميثاق مأخوذ من عامه النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً، و يأمر بعضهم بالإيمان ببعض، أى إن الدين واحد يدعو إليه جميع الأنبياء، و هو ظاهر.

فمحصل معنى الآيه على ما مر: أن الله أخذ الميثاق من الأنبياء و امهم أن لو آتاهم الله الكتاب و الحكمه و جاءهم رسول مصدق لما معهم ليؤمنن بما آتاهم و ينصرن الرسول و ذلك من الأنبياء تصديق من المتأخر للمتقدم و المعاصر، و بشاره من المتقدم بالتأخر و توصيه الامه، و من الامه الإيمان و التصديق و النصرة، و لازم ذلك وحده الدين الإلهي.

قوله تعالى: **فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ نَحْ**؛ تأكيد للميثاق المأخوذ المذكور، و المعنى واضح.

قوله تعالى: **أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَ لَهُ أَسْلَمَ**، تفریع على الآيه السابقه المتضمنه لأخذ ميثاق النبيين، و المعنى فاذا كان دين الله واحدا و هو الذى أخذ عليه الميثاق من عامه النبيين و امهم و كان على المتقدم من الأنبياء و الامم أن يبشروا بالرسول المتأخر و يؤمنوا بما عنده و يصدقوه فما ذا يقصده هؤلاء معاشر أهل الكتاب و قد كفروا بك و ظاهر حالهم أنهم يبغون الدين فهل يبغون غير الإسلام الذى هو دين الله الوحيد؟ و لذلك لا يصدقونك و لا يتمسكون بدين الإسلام مع أنه كان يجب عليهم الاعتصام بالإسلام لأنه الدين الذى يبتنى على الفطره؛ و كذلك يجب أن يكون الدين، و الدليل عليه أن من فى السموات و الأرض من اولى العقل و الشعور مسلمون لله فى مقام التكوين فيجب أن يسلموا عليه فى مقام التشريع.

قوله تعالى: **وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً**، هذا الإسلام الذى يعم من فى السموات و الأرض و منهم أهل الكتاب الذين يذكر أنهم غير مسلمين، و لفظ أسلم صيغه ماض ظاهره المضى و التحقق لا محاله و هو التسليم التكويني لأمر الله دون الإسلام بمعنى الخضوع العبودي، و يؤيده أو يدل عليه قوله طوعا و كرها.

و على هذا فقوله: **وَ لَهُ أَسْلَمَ**، من قبيل الاكتفاء بذكر الدليل و السبب عن ذكر المدلول و المسبب؛ و تقدير الكلام: أ فغير الإسلام يبغون؟ و هو دين الله لأن من فى السموات و الأرض

مسلمون له منقادون لأمره، فإن رضوا به كان انقيادهم طوعاً من أنفسهم، وإن كرهوا ما شاءه و أرادوا غيره كان الأمر أمره و جرى عليهم كرها من غير طوع.

و من هنا يظهر أن الواو فى قوله: طَوْعاً وَ كَرْهاً، للتقسيم، و أن المراد بالطوع و الكره رضاهم بما أراد الله فيهم مما يحبونه، و كراحتهم لما أراد فيهم مما لا يحبونه كالموت و الفقر و المرض و نحوها.

قوله تعالى: وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ هذا سبب آخر لوجوب ابتغاء الإسلام دينا فإن مرجعهم الى الله مولاهم الحق لا الى ما يهديهم اليه كفرهم و شركهم.

قوله تعالى: قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَا أُنزِلَ عَلَيْنَا، أمر النبى أن يجرى على الميثاق الذى أخذ منه و من غيره فيقول عن نفسه و عن المؤمنين من امته: آمنا بالله و ما أنزل علينا، الخ.

و هذا من الشواهد على أن الميثاق مأخوذ من الأنبياء و اممهم جميعا كما مرت الإشارة اليه آنفا.

قوله تعالى: وَ مَا أُنزِلَ عَلَيْنَا مِنْ آيَاتٍ إِلَّا نَسْنَأُهَا نَسْأً وَ كَذِبًا مُّبِينًا، أمر النبى أن يجرى على الميثاق الذى أخذ منه و من غيره فيقول عن نفسه و عن المؤمنين من امته: آمنا بالله و ما أنزل علينا، الخ. غيرهم.

و قوله: وَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ، تعميم للكلام ليشمل آدم و نوحا و من دونهما، ثم جمع الجميع بقوله: لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ .

قوله تعالى: وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ الخ؛ نفى لغير مورد

الإثبات من الميثاق المأخوذ، وفيه تأكيد لوجوب الجرى على الميثاق (١).

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٨٦ الى ٩١]

إشارة

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولَئِكَ جَزَاءُ هَيْمٍ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٨) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ إِزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفْرًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٩١)

بيان:

قوله تعالى: كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ، الاستفهام يفيد الاستبعاد والإنكار، والمراد به استحالة الهداية، وقد ختم الآية بقوله: وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ، وقد مر في نظير هذه الجملة أن الوصف مشعر بالعلية أى لا يهديهم مع وجود هذا

ص: ٥٢٠

١- ١). آل عمران ٨١-٨٥: بحث روائي في ان الله اخذ الميثاق على الانبياء...

الوصف فيهم، و ذلك لا ينافي هدايته لهم على تقدير رجوعهم و توبتهم منه.

و أما قوله: وَ شَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ فَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِهِمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَشَهَادَتُهُمْ هُوَ مَشَاهِدَتُهُمْ أَنَّ آيَاتِ النَّبِيِّ الَّتِي عِنْدَهُمْ مَنْطِقُهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ كَمَا يَفِيدُهُ قَوْلُهُ:

وَ جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ، وَ إِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِهِمْ أَهْلُ الرَّدَّةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَشَهَادَتُهُمْ هِيَ إِقْرَارُهُمْ بِالرَّسَالَةِ لَا إِقْرَارًا صُورِيًّا مَبْنِيًّا عَلَى الْجِهَالَةِ وَ الْحَمِيَةِ وَ نَحْوَهُمَا بَلْ إِقْرَارًا مُسْتَنَدًا إِلَى ظُهُورِ الْأَمْرِ كَمَا يَفِيدُهُ قَوْلُهُ: وَ جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ .

وَ كَيْفَ كَانَ الْأَمْرُ فَانْضِمَامُ قَوْلِهِ: وَ شَهِدُوا، الْخ؛ إِلَى أَوَّلِ الْكَلَامِ يَفِيدُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْكَفْرِ هُوَ الْكَفْرُ بَعْدَ ظُهُورِ الْحَقِّ وَ تَمَامِ الْحُجَّةِ فَيَكُونُ كَفْرًا عَنِ عِنَادِ مَعَ الْحَقِّ وَ لَجَاجٍ مَعَ أَهْلِهِ وَ هُوَ الْبَغْيُ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ الظُّلْمُ الَّذِي لَا يَهْتَدِي صَاحِبُهُ إِلَى النِّجَاحِ وَ الْفَلَاحِ.

وَ قَدْ قِيلَ فِي قَوْلِهِ: وَ شَهِدُوا، الْخ؛ إِنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: إِيمَانِهِمْ لِمَا فِيهِ مِنْ مَعْنَى الْفِعْلِ، وَ التَّقْدِيرُ كَفَرُوا بَعْدَ أَنْ آمَنُوا وَ شَهِدُوا، الْخ؛ أَوْ أَنَّ الْوَاوَ لِلْحَالِ؛ وَ الْجُمْلَةُ حَالِيَةٌ بِتَّقْدِيرِ «قَدْ».

قَوْلُهُ تَعَالَى: أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنْ عَلَيْنَهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ - إِلَى قَوْلِهِ -: وَ لَا هُمْ يُنظَرُونَ، قَدْ مَرَّ الْكَلَامُ فِي مَعْنَى عَوْدِ جَمِيعِ اللَّعْنَةِ عَلَيْهِمْ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (البقرة ١٥٩).

قَوْلُهُ تَعَالَى: إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَ أَصْلَحُوا الْخ؛ أَي دَخَلُوا فِي الصَّلَاحِ، وَ الْمُرَادُ بِهِ كَوْنُ تَوْبَتِهِمْ نَصُوحًا تَغْسِلُ عَنْهُمْ دَرَنَ الْكُفْرِ وَ تَطْهَرُ بَاطِنَهُمْ بِالْإِيمَانِ، وَ أَمَّا الْإِتْيَانُ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فَهُوَ وَ إِنْ كَانَ مِمَّا يَتَفَرَّعُ عَلَى ذَلِكَ وَ يَلْزِمُهُ غَيْرُ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَقْصُومٍ لِهَذِهِ التَّوْبَةِ وَ لَا رُكْنًا مِنْهَا؛ وَ لَا فِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَيْهِ.

وَ فِي قَوْلِهِ: فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَضَعُ الْعَلَّةِ مَوْضِعَ الْمَعْلُولِ وَ التَّقْدِيرُ فَيَغْفِرُ اللَّهُ لَهُ وَ يَرْحَمُهُ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ؛

تعليل لما يشتمل عليه قوله أولا: كيف يهدى الله قوما كفروا، السخ؛ و هو من قبيل التعليل بتطبيق الكلى العام على الفرد الخاص، و المعنى أن الذى يكفر بعد ظهور الحق و تمام الحججه عليه، و لا يتوب بعده توبه مصلحه إنما هو أحد رجلين إما كافر يكفر ثم يزيد كفرا فيطغى، و لا سبيل للصالح اليه فهذا لا يهديه الله و لا يقبل توبته لأنه لا يرجع بالحقيقه بل هو منغمر فى الضلال، و لا مطمع فى اهتدائه.

و إما كافر يموت على كفره و عناده من غير توبه يتوبها فلا يهديه الله فى الآخره بأن يدخله الجنه اذ لم يرجع الى ربه و لا بدل لذلك حتى يفتدى به، و لا شفيع و لا ناصر حتى يشفع له أو ينصره.

و من هنا يظهر أن قوله: **وَ أُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ** باشتماله على اسميه الجملة، و الإشاره البعيده فى أولئك، و ضمير الفصل، و الاسميه و اللام فى الخبر يدل على تأكد الضلال فيهم بحيث لا ترجى هدايتهم.

و كذا يظهر أن المراد بقوله: **وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ** نفى انتفاعهم بالشفعاء الذين هم الناصرون يوم القيامة فإن الإتيان بصيغه الجمع يدل على تحقق ناصرين يوم القيامة كما مر نظيره فى الاستدلال على الشفاعة بقوله تعالى: فما لنا من شافعين، الآية؛ فى مبحث الشفاعة (آيه ٤٨ من سوره البقره) فارجع إليه.

و قد اشتملت الآية الثانيه على ذكر نفى الفداء و الناصرين لكونهما كالبدل، و البدل إنما يكون من فائت يفوت الإنسان، و قد فاتتهم التوبه فى الدنيا و لا بدل لها يحل محلها فى الآخره.

و من هنا يظهر أن قوله: **وَ مَا تَوَا وَ هُمْ كُفَّارٌ** فى معنى: و فاتتهم التوبه فلا ينتقض هذا البيان الظاهر فى الحصر بما ذكره الله تعالى فى قوله: **وَ لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَ لَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفَّارٌ** **أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** (النساء ١٨)، فإن المراد بحضور الموت ظهور آثار الآخره و انقطاع الدنيا؛ و تفوت

عند ذلك التوبه.

و الملاء فى قوله: مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا مقدار ما يسعه الإناء من شىء، فاعتبر الأرض إناء يملأه الذهب فالجمله من قبيل الاستعاره التخيليه و الاستعاره بالكنايه.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٩٢ الى ٩٥]

اشاره

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَ مِمَّا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢) كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِيَنى إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَ مِمَّا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥)

بيان:

قوله تعالى: لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ، النيل هو الوصول، و البر هو التوسع فى فعل الخير، قال الراغب: البر خلاف البحر، و تصور منه التوسع فاشتق منه البر أى التوسع فى فعل الخير، انتهى.

و مراده من فعل الخير أعم مما هو فعل القلب كالاعتقاد الحق و النيه الطاهره أو فعل الجوارح كالعباده لله و الإنفاق فى سبيل الله تعالى، و قد اشتمل على القسمين جميعا قوله تعالى:

ص: ٥٢٣

لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَ لَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَ آتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَ ابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَ فِي الرِّقَابِ وَ أَقَامَ الصَّلَاةَ وَ آتَى الزَّكَاةَ وَ الْمُؤْمِنُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَ الصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَ حِينَ الْبَأْسِ الْآيَةَ (البقره ١٧٧).

قوله تعالى: وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ، تطيب لنفوس المنفقين أن ما ينفقونه من المال المحبوب عندهم لا يذهب مهدورا من غير أجر فإن الله الذي يأمرهم به عليم بإنفاقهم و ما ينفقونه.

قوله تعالى: كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ، الطعام كل ما يطعم و يتغذى به و كان يطلق عند أهل الحجاز على البر خاصة و ينصرف اليه عندهم لدى الإطلاق، و الحل مقابل الحرمة، و كأنه مأخوذ من الحل مقابل العقد و العقل فيفيد معنى الإطلاق، و إسرائيل هو يعقوب النبي عليه السلام سمي به لأنه كان مجاهدا في الله مظفرا به، و يقول أهل الكتاب: إن معناه المظفر الغالب على الله سبحانه لأنه صارع الله في موضع يسمى فينييل فغلبه (على ما في التوراه) و هو مما يكذبه القرآن و يحيله العقل.

و قوله: إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ استثناء من الطعام المذكور آنفا، و قوله: مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ متعلق بكان في الجملة الاولى، و المعنى لم يحرم الله قبل نزول التوراه شيئا من الطعام على بنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه.

و في قوله تعالى: قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، دلالة على أنهم كانوا ينكرون ذلك، أعنى حليه كل الطعام عليهم قبل التوراه، و يدل عليه أنهم كانوا ينكرون النسخ في الشرائع و يحيلون ذلك كما مر ذكره في ذيل قوله تعالى: مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا الْآيَةَ (البقره ١٠٦)، فهم كانوا ينكرون بالطبع قوله تعالى: فَبَطَلْ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ

و كذا يدل قوله تعالى بعد: قل صدق الله فاتبعوا مله إبراهيم حنيفاً، أنهم كانوا يجعلون ما ينكرونه (من حليه كل الطعام عليهم قبل التوراه، و كون التحريم إنما نزل عليهم لظلمهم بنسخ الحل بالحرمة) وسيله الى إلقاء الشبهه على المسلمين، و الاعتراض على ما كان يخبر به رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم عن ربه أن دينه هو مله إبراهيم الحنيف، و هى مله فطريه لا- إفراط فيها و لا تفريط، كيف؟ و هم كانوا يقولون: إن إبراهيم كان يهودياً على شريعته التوراه، فكيف يمكن أن تشتمل ملته على حليه ما حرمتها التوراه، و النسخ غير جائز؟

فقد تبين أن الآيه إنما تتعرض لدفع شبهه أوردتها اليهود، و يظهر من عدم تعرض الآيه لنقل الشبهه عنهم كما يجرى عليه القرآن فى غالب الموارد كقوله تعالى: **وَ قَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ (المائدة ٦٤/)**، و قوله: **وَ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً (البقره/ ٨٠)**، و قوله: **وَ قَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ (البقره ٨٨/)**، الى غير ذلك من الآيات الكثيره.

و كذا قوله تعالى بعد عده آيات: **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصِيدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ - الى أن قال -: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (آل عمران ١٠٠/)**.

و بالجملة يظهر من ذلك أنها كانت شبهه تلقيه اليهود لا على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بل على المؤمنين فى ضمن ما كانوا يتلاقون و يتحاورون.

قوله تعالى: **قُلْ فَاتُوا بِالْتَّورَاهِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** أى حتى يتبين أن أى الفريقين على الحق، أنا أم أنتم، و هذا إلقاء جواب منه تعالى على نبيه صلى الله عليه و آله و سلم.

قوله تعالى: **فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**، ظاهره أنه كلام لله سبحانه يخاطب به نبيه صلى الله عليه و آله و سلم، و على هذا ففيه تطيب لنفس النبى صلى الله عليه و آله و سلم بأن أعدائه من اليهود هم الظالمون بعد هذا البيان لافتراءهم الكذب على

اللّه، و تعريض لليهود، و الكلام يجرى مجرى الكنايه.

و أما احتمال كون الكلام من تنمّه كلام النبي صلى الله عليه و آله و سلم فلا يلائمه ظاهر إفراد خطاب الإشاره فى قوله: مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، و على هذا أيضا يجرى الكلام مجرى الكنايه و الستر على الخصم المغلوب ليقع الكلام موقعه من القبول كما فى قوله تعالى: إنا أو إياكم لعلّى هدى أو فى ضلالٍ مبين (سبأ ٢٤/١)، و المشار اليه بذلك هو البيان و الحجّه.

و إنما قال: من بعد ذلك مع أن المفترى ظالم على أى حال لأن الظلم لا يتحقق قبل التبين كما قيل، و القصر فى قوله: فأولئك هم الظالمون قصر قلب على أى حال.

قوله تعالى: قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا السخ؛ أى فاذا كان الحق معى فيما أخبرتكم به و دعوتكم اليه فاتبعوا دينى و اعترفوا بحليه لحم الإبل و غيره من الطيبات التى أحلها الله، و إنما كان حرما عليكم عقوبه لاعتدائكم و ظلمكم كما أخبر تعالى به.

فقوله: فَاتَّبِعُوا، السخ؛ كالكنايه عن اتباع دينه، و إنما لم يذكره بعينه لأنهم كانوا معترفين بمله إبراهيم، ليكون إشاره الى كون ما يدعو اليه من الدين حنيفا فطريا لأن الفطره لا تمنع الإنسان من أكل الطيبات من اللحوم و سائر الرزق.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٩٦ الى ٩٧]

إشاره

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)

ص: ٥٢٦

قوله تعالى: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ البيت معروف؛ والمراد بوضع البيت للناس وضعه لعبادتهم وهو أن يجعلوه ذريعه يتوسل به إلى عبادة الله سبحانه، ويستعان به فيها بأن يعبد الله فيه، وبقصده والمسیر إليه وغير ذلك؛ والدليل على ذلك ما يشتمل عليه الكلام من كونه مباركا وهدى للعالمين وغير ذلك، ويشعر به التعبير عن الكعبة بالذي ببكة فإن فيه تلويحاً إلى ازدحام الناس عنده في الطواف والصلاة وغيرهما من العبادات والمناسك، وأما كونه أول بيت بنى على الأرض ووضع لتنتفع به الناس فلا دلالة على ذلك من جهة اللفظ.

والمراد ببكة أرض البيت سميت بكة لآزدحام الناس فيها، وربما قيل إن بكة هي مكة، وإنه من تبديل الميم بباء كما في قولهم: لازم ولازب وراتم وراتب ونحو ذلك، وقيل: هو اسم للحرم، وقيل: المسجد، وقيل: المطاف.

والمباركة مفاعله من البركة وهي الخير الكثير، فالمباركة إفاضة الخير الكثير عليه وجعله فيه، وهي وإن كانت تشمل البركات الدنيوية والأخروية، إلا أن ظاهر مقابلتها مع قوله:

هُدًىٍ لِلْعَالَمِينَ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا إِفَاضَةَ الْبَرَكَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَعَمَدَتِهَا وَفُورُ الْأَرْزَاقِ وَتَوَفُّرُ الْهَمَمِ وَالِدُّوَاعِي إِلَى عِمْرَانِهِ بِالْحَجِّ إِلَيْهِ وَالْحُضُورِ عِنْدَهُ وَالْإِحْتِرَامِ لَهُ وَإِكْرَامِهِ فِيؤُولِ الْمَعْنَى إِلَى مَا يَتَضَمَّنُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي دَعْوِهِ إِبْرَاهِيمَ: رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (إبراهيم ٣٧).

وكونه هدى هو إراءته للناس سعادته آخرتهم، وإيصاله إياهم إلى الكرامة والقرب والزلفى بما وضعه الله للعبادة، وبما شرع عنده من أقسام الطاعات والنسك، ولم يزل منذ بناه إبراهيم

قوله تعالى: فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ، الآيات و إن وصفت بالبينات، و أفاد ذلك تخصصا ما فى الموصوف إلا إنها مع ذلك لا- تخرج عن الإبهام، و المقام مقام بيان مزايا البيت و مفاخره التى بها يتقدم على غيره فى الشرف و لا يناسب ذلك إلا الإتيان ببيان واضح، و الوصف بما لا غبار عليه بالإبهام و الإجمال، و هذا من الشواهد على كون قوله: مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ، الى آخر الآيه؛ بيانا لقوله: آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فالآيات هى:

مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ، و تقرير الأمن فيه، و إيجاب حجه على الناس المستطيعين.

لكن لا كما يتراءى من بعض التفاسير من كون الجمل الثلاث بدلا أو عطف بيان من قوله:

آيَاتٌ لوضوح أن ذلك يحتاج الى رجوع الكلام بحسب التقدير الى مثل قولنا: هى مقام إبراهيم، و الأمن لمن دخله، و حجه لمن استطاع اليه سبيلا، و فى ذلك إرجاع قوله: وَ مَنْ دَخَلَهُ، سواء كان إنشاء أو إخبارا الى المفرد بتقدير أن و إرجاع قوله: وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ، و هى جملة إنشائية الى خبريه ثم عطفه على الجملة السابقة و تأويلها الى المفرد بذلك أو بتقدير أن فيها أيضا، و كل ذلك مما لا يساعد عليه الكلام البته.

و إنما سيقت هذه الجمل الثلاث أعنى قوله: مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ، الخ؛ كل لغرض خاص من إخبار أو إنشاء حكم ثم تتبين بها الآيات فتعطى فائده البيان كما يقال: فلان رجل شريف هو ابن فلان و يقرى الضيف و يجب علينا أن نتبعه.

قوله تعالى: مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ مبتدأ لخبر محذوف و التقدير فيه مقام إبراهيم، و هو الحجر الذى عليه أثر قدمى إبراهيم الخليل عليه السلام، و قد استفاض النقل بأن الحجر مدفون فى المكان الذى يدعى اليوم بمقام إبراهيم على حافه المطاف حيال الملتزم، و قد أشار اليه أبو طالب عم النبي فى قصيدته اللاميه:

و موطئ ابراهيم فى الصخر رطبه

على قدميه حافيا غير ناعل

و ربما يفهم من قوله: مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ أن البيت أو فى البيت موضع قيام إبراهيم بعباده الله سبحانه.

ويمكن أن يكون تقدير الكلام: هى مقام إبراهيم و الأمن و الحج ثم وضع قوله: وَ مَنْ دَخَلَهُ ، و قوله: وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ ، و هما جملتان مشتملتان على حكم إنشائي موضع الخبرين، و هذا من أعاجيب اسلوب القرآن حيث يستخدم الكلام المسوق لغرض فى سبيل غرض آخر فيضعه موضعه لينتقل منه إليه فيفيد فائدتين، و يحفظ الجهتين كحكاية الكلام فى موضع الإخبار كقوله: كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلَائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ (البقره ٢٨٥/)، و كما مر فى قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ الْآيَةَ (البقره ٢٥٨/)، و قوله: أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ الْآيَةَ (البقره ٢٥٩/)، و قد بينا النكته فى ذلك فى تفسير الثانية، و كما فى قوله تعالى: يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَ لَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (الشعراء ٨٩/)، و كما فى قوله تعالى: وَ لَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ الْآيَةَ (البقره ١٧٧/)، حيث وضع صاحب البر مكان البر، و كما فى قوله تعالى: وَ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ الْآيَةَ (البقره ١٧١/)، و مثله غالب الأمثال الواردة فى القرآن الكريم.

و على هذا فوزان قوله: فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ -الى قوله- عَنِ الْعَالَمِينَ فى التردد بين الإنشاء و الإخبار، ووزان قوله: وَ أَذْكَرُ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَ عَذَابٍ أَلِيمٍ أَرْكُضُ بِرَجُلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَ شَرَابٌ وَ وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَ ذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَ لَا تَحْنُتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (ص ٤٤/).

قوله تعالى: وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مِنَ اسْتِطَاعٍ إِلَيْهِ سَبِيلًا، الحج بالكسر (و قرئ بالفتح) هو القصد ثم اختص استعماله بقصد البيت على نهج مخصوص بينه

الشرع، و قوله: سَبِيلًا تَمَيِّزُ مِنْ قَوْلِهِ: اسْتَطَاعَ .

و الآيه تتضمن تشريع الحج إمضاء لما شرع لإبراهيم عليه السلام كما يدل عليه قوله تعالى حكاية لما خوطب به إبراهيم: وَ أذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ الْآيَةَ (الحج ٢٧/١)، و من هنا يظهر أن وزن قوله: وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ الْخِ؛ ووزان قوله تعالى: وَ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا في كونه إخبارا عن تشريع سابق و إن كان من الممكن أن يكون إنشاء على نحو الإمضاء لكن الأظهر من السياق هو الأول كما لا يخفى.

قوله تعالى: وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ، الكفر هاهنا من الكفر بالفروع نظير الكفر بترك الصلاة و الزكاه فالمراد بالكفر الترك. و الكلام من قبيل وضع المسبب أو الأثر مقام السبب أو المنشأ كما أن قوله: فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ، الخ؛ من قبيل وضع العله موضع المعلول، و التقدير: و من ترك الحج فلا يضر الله شيئا فإن الله غني عن العالمين (١)(٢).

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٩٨ الى ١٠١]

إشاره

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعِيدَ إِيْمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ وَ أَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ وَ مَنْ يَعْتَصِم بِإِلَهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١)

ص: ٥٣٠

١- ١. آل عمران ٩٦-٩٧: بحث روائي في: مكة؛ المسجد الحرام؛ الحج.

٢- ٢. آل عمران ٩٦-٩٧: بحث تاريخي في: بناء الكعبه؛ تاريخ الكعبه؛ شكل الكعبه؛ كسوه الكعبه؛ منزله الكعبه؛ ولايه الكعبه.

قوله تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ الْخ؛ المراد بالآيات بقرينه وحده السياق حليه الطعام قبل نزول التوراه، وكون القبلة هي الكعبه فى الإسلام.

قوله تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ -الى قوله:-

عَوَجًا، الصد الصرف، وقوله: تَبْغُونَهَا أى تطلبون السبيل، وقوله: عَوَجًا: العوج المعطوف المحرف، والمراد طلب سبيل الله معوجا من غير استقامه.

قوله تعالى: وَ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ، أى تعلمون أن الطعام كان حلا قبل نزول التوراه و أن من خصائص النبوه تحويل القبلة الى الكعبه، و قد حاذى فى عداهم شهداء فى هذه الآيه ما فى الآيه السابقه من عد نفسه تعالى شهيدا على فعلهم و كفرهم، و فيه من اللطف ما لا يخفى فهم شهداء على حقيه ما ينكرونه و الله شهيد على إنكارهم و كفرهم. و لما نسب الشهاده اليهم فى هذه الآيه أبدل ما ذيل به الآيه السابقه أعنى قوله: وَ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ من قوله فى ذيل هذه الآيه: و ما الله بغافر عما تعملون فأفاد ذلك أنهم شهداء على الحقيه، و الله سبحانه شهيد على الجميع.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا -الى قوله:- وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ، المراد بالفريق كما تقدم هم اليهود أو فريق منهم، وقوله تعالى: وَ أَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ أى يمكنكم أن تعتصموا بالحق الذى يظهر لكم بالإنصات الى آيات الله و التدبر فيها ثم الرجوع فيما خفى عليكم منها لقله التدبر أو الرجوع ابتداء الى رسوله الذى هو فيكم غير محتجب عنكم و لا- بعيد منكم، و استظهار الحق بالرجوع اليه ثم إبطال شبه القتها اليهود إليكم

و التمسك بآيات الله و برسوله و الاعتصام بهما اعتصام بالله؛ و من يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم.

فالمراد بالكفر فى قوله: وَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ، الكفر بعد الايمان، و قوله: وَ أَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ، كناية من إمكان الاعتصام فى الاجتناب عن الكفر بآيات الله و برسوله، و قوله: وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ ، بمنزله الكبرى الكليه لذلك و المراد بالهدايه الى صراط مستقيم الاهتداء الى إيمان ثابت و هو الصراط الذى لا يختلف و لا يتخلف أمره، و يجمع سالكيه فى مستواه و لا يدعهم يخرجون عن الطريق فيضلوا.

و فى تحقيق الماضى فى قوله: فَقَدْ هُدِيَ ، مع حذف الفاعل دلالة على تحقق الفعل من غير شعور بفاعله.

و يتبين من الآيه أن الكتاب و السنه كافيان فى الدلالة على كل حق يمكن أن يضل فيه.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ١٠٢ الى ١١٠]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَ لَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَ لَا تَفَرَّقُوا وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَ كُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَ لَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَ اختلفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَ أَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩) كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَ أَكْثَرُهُمْ الْفَاسِقُونَ (١١٠)

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، قد مر فيما مر أن التقوى و هو نوع من الاحتراز اذا كان تقوى الله سبحانه كان تجنباً و تحرزاً من عذابه كما قال تعالى:

فَاتَّقُوا الذَّارَاتِي وَقُودْهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ (البقره ٢٤)، و ذلك إنما يتحقق بالجري على ما يريد و يرتضيه فهو امتثال أوامره تعالى، و الانتهاء عن نواهيه، و الشكر لنعمة، و الصبر عند بلائه، و يرجع الاخيران جميعاً الى الشكر بمعنى وضع الشيء موضعه و بالجملة تقوى الله

ص: ٥٣٣

سبحانه أن يطاع ولا يعصى و يخضع له فيما أعطى أو منع.

لكنه اذا أخذ التقوى حق التقوى الذى لا- يشوبه باطل فاسد من سنخه كان محض العبوديه التى لا- تشوبها إنيه و غفله، و هى الطاعه من غير معصيه، و الشكر من غير كفر، و الذكر من غير نسيان، و هو الإسلام الحق أعنى الدرجه العليا من درجاته؛ و على هذا يرجع معنى قوله: **وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** الى نحو قولنا: و دوموا على هذه الحال (حق التقوى) حتى تموتوا.

و هذا المعنى غير ما يستفاد من قوله تعالى: **فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتِطَعْتُمْ** (التغابن ١٦)، فإن هذه الآيه فى معنى أن لا تدرؤا التقوى فى شىء مما تستطيعونه غير أن الاستطاعه تختلف باختلاف قوى الأشخاص و أفهامهم و هممهم، و لا ريب أن حق التقوى بالمعنى الذى ذكرناه ليس فى وسع كثير من الناس، فإن فى هذا المسير الباطنى مواقف و معاهد و مخاطر لا يعقلها إلا العالمون، و دقائق و لطائف لا- يتنبه لها إلا- المخلصون، فرب مرحله من مراحل التقوى لا يصدق الفهم العامى بكونها مما تستطيعه النفس الإنسانيه فيجزم بكونها غير مستطاعه و إن كان أهل التقوى الحقه خلفوها وراء ظهورهم، و أقبلوا بهمهمهم على ما هو أشق و أصعب.

فقوله: **فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتِطَعْتُمْ**، الآيه؛ كلام يتلقاه الأفهام المختلفه بمعان مختلفه على حسب ما يطبقه كل فهم على ما يستطيعه صاحبه ثم يكون ذلك وسيله ليفهم من هذه الآيه أعنى قوله: **اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَ لَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** أن المراد أن يقعوا فى صراط حق التقوى، و يقصدوا نيل هذا المقام و الشخوص و المثول فيه، و ذلك نظير الاهتداء الى الصراط المستقيم الذى لا يتمكن منه إلا الأوحديون، و مع ذلك يدعى اليه جميع الناس، فيكون محصل الآيتين: (اتقوا الله حق تقاته- فاتقوا الله ما استطعتم) أن يندب جميع الناس و يدعوا الى حق التقوى ثم يؤمروا بالسير الى هذا المقصد ما قدرؤا و استطاعوا، و ينتج ذلك أن يقع الجميع فى صراط التقوى إلا أنهم فى مراحل مختلفه، و على درجات مختلفه على طبق ما عندهم من

الأفهام و الهمم، و على ما يفاض عليهم من توفيق الله و تأييده و تسديده، فهذا ما يعطيه التدبر فى معنى الآيتين.

و منه يظهر: أن الآيتين غير مختلفتين بحسب المضمون، و لا أن الآية الاولى أعنى قوله:

إَتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، الآية؛ اريد بها عين ما اريد من قوله: فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتِطَعْتُمْ، الآية؛ بل الآية الاولى تدعو الى المقصد و الثانيه تبين كيفيه السلوك.

قوله تعالى: وَ لَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ الموت من الامور التكوينية التى هى خارجه عن حومه اختيارنا، و لذلك يكون الأمر و النهى المتعلقان به و بأمثاله أمرا و نهيا تكوينيين كقوله فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا (البقره ٢٤٣/)، و قوله: أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (يس ٨٢/)، إلا- أنه ربما يجعل الأمر غير الاختيارى مضافا الى أمر اختيارى فيتركبان بنحو و ينسب المركب الى الاختيار فيتأتى الأمر و النهى الاعتبارى حينئذ كقوله تعالى: فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُكْفِرِينَ (البقره ١٤٧/)، و قوله: وَ لَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (هود ٤٢/)، و قوله: وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (التوبه ١١٩/)، و غير ذلك، فإن أصل الكون لازم تكوينى للإنسان لا أثر لاختياره فيه لكنه بارتباطه بأمر اختيارى كالامتراء و الكفر و التزام الصدق مثلا يعد أمرا اختياريا فيؤمر به و ينهى عنه أمرا و نهيا مولويين.

و بالجمله النهى عن الموت إلا مع الإسلام إنما هو لمكان عدده اختياريا و يرجع بالآخره الى الكنايه عن لزوم التزام الإسلام فى جميع الحالات حتى يقع الموت فى واحده من هذه الحالات، فيكون الميت مات فى حال الإسلام.

قوله تعالى: وَ اغْتَصَبَ مُوَا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَ لَا تَفَرَّقُوا، ذكر سبحانه فيما مر من قوله: وَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ وَ أَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ، الآية؛ أن التمسك بآيات الله و برسوله (الكتاب و السنه) اعتصام بالله مأمون معه المتمسك المعتصم، مضمون له الهدى، و التمسك بذيل الرسول تمسك بذيل الكتاب فإن الكتاب هو الذى يأمر

بذلك فى مثل قوله: وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا (الحشر ٧).

وقد بدل فى هذه الآيه الاعتصام المندوب إليه فى تلك الآيه بالاعتصام بحبل الله فأنتج ذلك أن حبل الله هو الكتاب المنزل من عند الله، وهو الذى يصل ما بين العبد و الرب و يربط السماء بالأرض، وإن شئت قلت: إن حبل الله هو القرآن و النبى صلى الله عليه و آله و سلم فقد عرفت أن مآل الجميع واحد.

و القرآن و إن لم يدع إلا- الى حق التقوى و الإسلام الثابت لكن غرض هذه الآيه غير غرض الآيه السابقه الأمره بحق التقوى و الموت على الإسلام فإن الآيه السابقه تتعرض لحكم الفرد، و هذه الآيه تتعرض لحكم الجماعه المجتمعه و الدليل عليه قوله: «جَمِيعاً» و قوله «وَلَا تَنْفَرُوا» فالآيات تأمر المجتمع الإسلامى بالاعتصام بالكتاب و السنه كما تأمر الفرد بذلك.

قوله تعالى: وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا جملة اذ كنتم، بيان لما ذكر من النعمه، و عليه يعطف قوله:

وَ كُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرِهِ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا .

و الأمر بذكر هذه النعمه مبنى على ما عليه دأب القرآن أن يضع تعليمه على بيان العلل و الأسباب، و يدعو الى الخير و الهدى من وجهه من غير أن يأمر بالتقليد العامى المعمى، و حاشا التعليم الإلهى أن يهدى الناس الى السعاده و هى العلم النافع و العمل الصالح ثم يأمر بالوقوع فى تيه التقليد و ظلمه الجهل.

لكن يجب أن لا يشتبه الأمر و لا يختلط الحال على المتدبر الباحث، فالله سبحانه يعلم الناس حقيقه سعادتهم، و يعلم الوجه فيها ليتصروا بارتباط الحقائق بعضها ببعض، و أن الجميع فائضه من منبع التوحيد مع وجوب إسلامهم لله لأنه الله رب العالمين و اعتصامهم بحبله لأنه حبل الله رب العالمين كما يومى اليه ما فى آخر الآيات من قوله: تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا

قوله تعالى: وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرِهِ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا، شفا الحفرة طرفها الذى يشرف على السقوط فيها من كان به.

و المراد من النار إن كان نار الآخرة، فالمراد بكونهم على شفا حفرتها أنهم كانوا كافرين ليس بينهم وبين الوقوع فيها إلا الموت الذى هو أقرب الى الإنسان من سواد العين الى بياضها فأنقذهم الله منها بالإيمان.

و إن كان المراد بيان حالهم فى مجتمعهم الفاسد الذى كانوا فيه قبل إيمانهم و تألف قلوبهم، و كان المراد بالنار هى الحروب و المنازعات- و هو من الاستعمالات الشائعه بطريق الاستعاره- فالمقصود أن المجتمع الذى بنى على تشتت القلوب و اختلاف المقاصد و الأهواء، و لا محاله لا يسير مثل هذا المجتمع بدليل واحد يهديهم الى غايه واحده بل بأدله شتى تختلف باختلاف الميول الشخصيه و التحكمات الفرديه اللاغيه التى تهديهم الى أشد الخلاف و الاختلاف- يشرفهم الى أرداد التنازع، و يهددهم دائما بالقتال و النزال، و يعددهم الفناء و الزوال، و هى النار التى لا- تبقى و لا تذر على حفرة الجهاله التى لا منجى و لا مخلص للساقط فيها.

فهؤلاء و هم طائفه من المسلمين كانوا قد آمنوا قبل نزول الآيه بعد كفرهم، و هم المخاطبون الأقربون بهذه الآيات لم يكونوا يعيشون مدى حياتهم قبل الإسلام إلا- فى حال تهددهم الحروب و المقاتلات أنا بعد آن، فلا أمن و لا راحه و لا فراغ، و لم يكونوا يفقهون ما حقيقه الأمن العام الذى يعم المجتمع بجميع جهاتها من جاه و مال و عرض و نفس و غير ذلك.

ثم لما اجتمعوا على الاعتصام بحبل الله، و لاحت لهم آيات السعاده، و ذاقوا شيئاً من حلاوه النعم و جدوا صدق ما يذكرهم به الله من هناء النعمه و لذيذ السعاده فكان الخطاب أوقع فى نفوسهم و نفوس غيرهم.

ولذلك بنى الكلام ووضعت الدعوه على أساس المشاهده و الوجدان دون مجرد التقدير و الفرض فليس العيان كالبيان، ولا التجارب كالفرض و التقدير، ولذلك بعينه أشار فى التحذير الآتى فى قوله: **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا، الخ؛** الى حال من قبلهم فإن مآل حالهم بمرأى و مسمع من المؤمنين فعليهم أن يعتبروا بهم و بما آل اليه أمرهم فلا يجرؤا مجراهم و لا يسلكوا مسلكهم.

ثم نبههم الله على خصوصيه هذا البيان فقال: كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون.

قوله تعالى: **وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ الخ؛** التجربه القطعيه تدل على أن المعلومات التى يهيئها الإنسان لنفسه فى حياته-و لا يهيئ و لا يدخر لنفسه إلا ما ينتفع به-من أى طريق هيأها و بأى وجه ادخرها تزول عنه اذا لم يذكرها و لم يدم على تكرارها بالعمل، و لا نشك أن العمل فى جميع شئونه يدور مدار العلم يقوى بقوته، و يضعف بضعفه **و يصلح بصلاحه، و يفسد بفساده،** و قد مثل الله سبحانه حالهما فى قوله: **الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ الَّذِي خَبَثَ لَآ يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا الْآيَه (الأعراف ٥٨).**

و لا نشك أن العلم و العمل متعاكسان فى التأثير فالعلم أقوى داع الى العمل و العمل الواقع المشهود أقوى معلم يعلم الإنسان.

و هذا الذى ذكر هو الذى يدعو المجتمع الصالح الذى عندهم العلم النافع و العمل الصالح أن يتحفظوا على معرفتهم و ثقافتهم، و أن يردوا المتخلف عن طريق الخير المعروف عندهم إليه، و أن لا يدعوا المائل عن طريق الخير المعروف و هو الواقع فى مهبط الشر المنكر عندهم أن يقع فى مهلكه الشر و ينهوه عنه.

و هذه هى الدعوه بالتعليم و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و هى التى يذكرها الله فى هذه الآيه بقوله: **يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ .**

و من هنا يظهر السر في تعبيره تعالى عن الخير و الشر بالمعروف و المنكر فإن الكلام مبني على ما في الآية السابقه من قوله: وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، الخ؛ و من المعلوم أن المجتمع الذي هذا شأنه يكون المعروف فيه هو الخير، و المنكر فيه هو الشر، و لو لا- العبره بهذه النكته لكان الوجه في تسميه الخير و الشر بالمعروف و المنكر كون الخير و الشر معروفا و منكرا بحسب نظر الدين لا بحسب العمل الخارجي.

و أما قوله وَ لَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ فَقَدْ قِيلَ: إن «من» للتبعيض بناء على أن الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و كذا الدعوه من الواجبات الكفائيه.

و ربما قيل: إن «من» بيانيه و المراد منه و لتكونوا بهذا الاجتماع الصالح امه يدعون الى الخير فيجري الكلام على هذا مجرى قولنا: ليكن لي منك صديق أي كن صديقا لي. و الظاهر أن المراد بكون «من» بيانيه كونها نشؤيه ابتدائيه.

و الذي ينبغي أن يقال: أن البحث في كون من تبعيضيه أو بيانيه لا يرجع الى ثمره محصله فإن الدعوه و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر امور لو وجبت لكانت بحسب طبعها واجبات كفائيه اذ لا- معنى للدعوه و الأمر و النهي المذكورات بعد حصول الغرض فلو فرضت الالامه بأجمعهم داعيه الى الخير أمره بالمعروف ناهيه عن المنكر كان معناه أن فيهم من يقوم بهذه الوظائف فالأمر قائم على أي حال، و الخطاب إن كان للبعض فهو ذاك، و إن كان للكل كان أيضا باعتبار البعض، و بعبارة اخرى المسئول بها الكل و المثاب بها البعض، و لذلك عقبه بقوله: وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ فالظاهر أن من تبعيضيه، و هو الظاهر من مثل هذا التركيب في لسان المحاورين و لا يصار الى غيره إلا بدليل.

و اعلم أن هذه الموضوعات الثلاثة أعنى الدعوه و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ذوات أبحاث تفسيريه طويله عميقه ستعرض لها في موضع آخر يناسبها إنشاء الله تعالى. و كذا ما يتعلق بها من الأبحاث العلميه و النفسيه و الاجتماعيه.

قوله تعالى: وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ. لا يبعد أن يكون قوله: مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ متعلقا بقوله: وَاخْتَلَفُوا فقط وحينئذ كان المراد بالاختلاف التفرق من حيث الاعتقاد، بالتفرق الاختلاف و التشتت من حيث الأبدان و قدم التفرق على الاختلاف لأنه كالمقدمه المؤديه إليه لأن القوم مهما كانوا مجتمعين متواصلين اتصلت عقائد بعضهم ببعض و اتحدت بالتماس و التفاعل، و حفظهم ذلك من الاختلاف فاذا تفرقوا و انقطع بعضهم عن بعض أدهم ذلك الى اختلاف المشارب و المسالك، و لم يلبثوا دون أن يستقل أفكارهم و آرائهم بعضها عن بعض، و برز فيهم الفرقة، و انشق عصا الوحده فكأنه تعالى يقول: و لا تكونوا كالذين تفرقوا بالأبدان أولا، و خرجوا من الجماعه، و أفضاهم ذلك الى اختلاف العقائد و الآراء أخيرا.

قوله تعالى: يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ الى آخر الآيتين؛ لما كان المقام مقام الكفر بالنعمة و هو نظير الخيانه مما يوجب حسه الانفعال و الخجل ذكر سبحانه من بين أنواع عذاب الآخره ما يناسبها بحسب التمثيل و هو سواد الوجه الذى يكنى به فى الدنيا عن الانفعال و الخجل و نحوهما كما يشعر أو يدل على ذلك قوله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ .

و كذا ذكر من ثواب الشاكرين لهذه النعمه ما يناسب الشكر و هو بياض الوجه المكنى به فى الدنيا عن الارتضاء و الرضا.

قوله تعالى: تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ، الظرف متعلق بقوله:

تَتْلُوهَا، و المراد كون التلاوه تلاوه حق من غير أن يكون باطلا شيطانيا، أو متعلق بالآيات باستشمام معنى الوصف فيه أو مستقر متعلق بمقدر، و المعنى أن هذه الآيات الكاشفه عن ما يصنع الله بالطائفتين: الكافرين و الشاكرين مصاحبه للحق من غير أن تجرى على نحو الباطل و الظلم، و هذا الوجه أوفق لما يتعقبه من قوله: وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا .

قوله تعالى: وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ، تنكير الظلم و هو فى سياق النفى يفيد الاستغراق، و ظاهر قوله: لِلْعَالَمِينَ و هو جمع محلى باللام أن يفيد الاستغراق، و المعنى على هذا أن الله لا يريد ظلماً أى ظلم فرض لجميع العالمين، و كافه الجماعات، و هو كذلك فإنما التفرق بين الناس أمر يعود أثره المشئوم الى جميع العالمين و كافه الناس.

قوله تعالى: وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ، لما ذكر أن الله لا يريد الظلم علل ذلك بما يزول معه توهم صدور الظلم فذكر أن الله تعالى يملك جميع الأشياء من جميع الجهات فله أن يتصرف فيها كيف يشاء فلا يتصور فى حقه التصرف فيما لا يملكه حتى يكون ظلماً و تعدياً.

على أن الشخص إنما ينحو الظلم اذا كان له حاجة لا يتمكن من رفعها إلا بالتعدى على ما لا يملكه، و الله الغنى الذى له ما فى السموات و الأرض هذا ما قرره بعضهم لكنه لا يلائم ظاهر الآية فإن هذا الجواب يبتنى بالحقيقه على غناه تعالى دون ملكه، و المذكور فى الآية هو الملك دون الغنى، و كيف كان فملكه دليل أنه تعالى ليس بظالم.

و هناك دليل آخر و هو أن مرجع جميع الامور أيا ما كانت اليه تعالى فليس لغيره تعالى من الأمر شىء حتى يسلبه الله عنه و ينتزعه من يده و يجرى فيه إرادته نفسه فيكون بذلك ظالماً، و هذا هو الذى يشير اليه قوله: وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

و الوجهان كما ترى متلازمان أحدهما مبنى على أن كل شىء له تعالى و الثانى مبنى على أن شيئاً من الامور ليس لغيره تعالى.

قوله تعالى: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلدَّاسِ، المراد بإخراج الامه للناس (و الله أعلم) إظهارها لهم، و مزيه هذه اللفظه (الإخراج) أن فيها إشعاراً بالحدوث و التكون قال تعالى: الَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (الأعلى ١٤)، و الخطاب للمؤمنين فيكون قرينه على أن المراد بالناس عامه البشر و الفعل أعنى قوله: كُنْتُمْ منسلخ عن الزمان-على ما قيل-

و الامه إنما تطلق على الجماعه و الفرد لكونهم ذوى هدف و مقصد يؤمرونه و يقصدونه، و ذكر الايمان بالله بعد الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر من قبيل ذلك الكل بعد الجزء أو الأصل بعد الفرع.

فمعنى الآيه أنكم معاشر المسلمين خير امه أظهرها الله للناس بهدايتها لأنكم على الجماعه تؤمنون بالله و تأتون بفريضتى الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و من المعلوم أن انبساط هذا التشريف على جميع الامه لكون البعض متصفين بحقيقه الايمان و القيام بحق الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر هذا محصل ما ذكروه فى المقام (١).

[سوره آل عمران (٣): الآيات ١١١ الى ١٢٠]

اشاره

لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أذىً وَ إِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُؤلُّوكُمْ الْأُدبارَ ثُمَّ لَا يُنصِرُونَ (١١١) ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحِجْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حِجْلٍ مِنَ النَّاسِ وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسِيكَنَهُ ذِئْبِكَ بِأَنَّهُمْ كانوا يُكْفِرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ الْأَنْبياءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَ كانوا يَعْتَدُونَ (١١٢) لَيْسُوا سِواءً مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ وَ هُمْ يَسْتَجِدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يُؤْمِنُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَ أولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَ ما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥) إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا- أولادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ أولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَياهِ الدُّنيا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ أَصابَتْ حَرَّتِ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَ ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧) يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بَطانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبالاً وَ دُوا ما عَيْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ وَ ما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) ها أَنْتُمْ أولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَ لا يُحِبُّونَكُمْ وَ تَؤْمِنُونَ بِالْكِتابِ كُلِّهِ وَ إِذا لَقُّوكُمْ قالُوا آمَنَّا وَ إِذا حَلَّوا عَصُوا عَلَيْكُمْ الْأَنايِلَ مِنَ الْعَظِيطِ قُلْ مُوتُوا بِعَظِيطِكُمْ إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِنْ تَمَسَّيْتُمْ كُمْ حَسَبَهُ تَسْؤُهُمْ وَ إِنْ تَصَّ بِكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِها وَ إِنْ تَصَبَّرُوا وَ تَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنْ اللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)

ص: ٥٤٢

١- ١). آل عمران ١٠٢-١١٠: بحث روائى حول: الآيه «اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ»؛ القرآن المجيد؛ حديث الثقلين؛ حال الامه بعد النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

بيان:

قوله تعالى: لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذَى الْخَيْلِ الْأُذَى مَا يَصِلُ إِلَى الْحَيَّوَانِ مِنَ الضَّرَرِ: إما فى نفسه أو جسمه أو تبعاته دنيويا كان أو اخرويا على ما ذكره الراغب مفردات القرآن.

ص: ٥٤٣

قوله تعالى: **ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ**، الذلة بناء نوع من الذل، والذل بالضم ما كان عن قهر، وبالكسر ما كان عن تصعب و شماس على ما ذكره الراغب، ومعناه العام حال الانكسار و المطاوعه، و يقابله العز و هو الامتناع.

و قوله: **تُقِفُوا** أى وجدوا، و الحبل السبب الذى يوجب التمسك به العصمه؛ و قد استعير لكل ما يوجب نوعا من الأمان و العصمه و الوقايه كالعهد و الذمه و الأمان، و المراد (و الله أعلم): أن الذلة مضروبه عليهم كضرب السكه على الفاز أو كضرب الخيمه على الإنسان فهم مكتوب عليهم أو مسلط عليهم الذلة إلا بحبل و سبب من الله، و حبل و سبب من الناس.

و قد كرر لفظ الحبل بإضافته الى الله و الى الناس لاختلاف المعنى بالإضافه فانه من الله القضاء و الحكم تكوينا أو تشريعا، و من الناس البناء و العمل.

و المراد بضرب الذلة عليهم القضاء التشريعى بذلتهم، و الدليل على ذلك قوله: **أَيِّنَّمَا تُقِفُوا فَإِن ظاهراً** معناه أينما وجدهم المؤمنون أى تسلطوا عليهم، و هو إنما يناسب الذلة التشريعيه التى من آثارها الجزيه.

فيؤول معنى الآية الى أنهم أذلاء بحسب حكم الشرع الإسلامى إلا أن يدخلوا تحت الذمه أو أمان من الناس بنحو من الأنحاء.

قوله تعالى: **وَ بِمَاؤُ بَغَضِبٍ مِنَ اللَّهِ وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ**، بءوا أى اتخذوا مباءه و مكانا، أو رجعوا، و المسكنه أشد الفقر، و الظاهر أن المسكنه أن لا يجد الإنسان سييلا الى النجاه و الخلاص عما يهدده من فقر أو أى عدم، و على هذا فيتلاءم معنى الآية صدرا و ذيلا.

قوله تعالى: **ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَ كَانُوا يَعْتَدُونَ**؛ و المعنى أنهم عصوا و كانوا قبل

ذلك يستمرون على الاعتداء.

قوله تعالى: لَيْسُوا سَوَاءً -الى قوله:- بِالْمُتَّقِينَ، السواء مصدر اريد به معنى الوصف أى ليسوا مستويين فى الوصف و الحكم فإن منهم امه قائمه يتلون آيات الله، الخ؛ و من هنا يظهر أن قوله: مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، الخ؛ فى مقام التعليل يبين به وجه عدم استواء أهل الكتاب.

و قد اختلف فى قوله: قَائِمَةٌ فَقِيلَ: أى ثابتة على أمر الله، وقيل: أى عادله، وقيل: أى ذو امه قائمه أى ذو طريقه مستقيمه، و الحق أن اللفظ مطلق يحتمل الجميع غير أن ذكر الكتاب و ذكر أعمالهم الصالحة يعين أن المراد هو القيام على الإيمان و الطاعة.

و الآناء جمع إني بكسر الهمزة أو فتحها، وقيل: إنو و هو الوقت.

و المسارعة المبادره و هى مفاعله من السرعة قال فى المجمع: و الفرق بين السرعة و العجله أن السرعة هى التقدم فيما يجوز أن يتقدم فيه، و هى محموده، و ضدها الإبطاء، و هو مذموم، و العجله هى التقدم فيما لا ينبغى أن يتقدم فيه و هى مذمومه، و ضدها الأناه و هى محموده، انتهى، و الظاهر أن السرعة فى الأصل وصف للحركة، و العجله وصف للمتحرك.

و الخيرات مطلق الأعمال الصالحة من عباده أو إنفاق أو عدل أو قضاء حاجه، و هو جمع محلى باللام؛ و معناه الاستغراق، و يكثر إطلاقه على الخيرات المالىه كما أن الخير يكثر إطلاقه على المال.

و قد عد الله سبحانه لهم جمل مهمات الصالحات، و هى الإيمان، و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و المسارعه فى كل خير، ثم وصفهم بأنهم صالحون فهم أهل الصراط المستقيم و زملاء النبيين و الصديقين و الشهداء لقوله تعالى: إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ (الحمد ٧)، و قوله تعالى: فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصُّدِّيقِينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ الصَّالِحِينَ الْآيَه (النساء ٦٩)،

قيل: المراد بهؤلاء الممدوحين عبد الله بن سلام و أصحابه.

قوله تعالى: وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ، من الكفران مقابل الشكر أى يشكر الله لهم فيرده اليهم من غير ضيعه كما قال تعالى: وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (البقره ١٥٨/)، وقال: وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ - الى أن قال- وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ (البقره ٢٧٢/).

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ، ظاهر وحده السياق أن المراد بهؤلاء،الذين كفروا هم الطائفه الاخرى من أهل الكتاب الذين لم يستجيبوا دعوه النبوه، و كانوا يوطئون على الإسلام،و لا يألون جهدا فى إطفاء نوره.

و ربما قيل: إن الآيه ناظره الى حال المشركين فتكون التوطئه لما سيشير اليه من قصه أحد لكن لا يلائمه ما سيأتى من قوله: وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا، الخ؛فإن ذلك بيان لحال اليهود مع المسلمين دون حال المشركين،و من هناك يظهر أن اتصال السياق لم ينقطع بعد.

و ربما جمع بعض المفسرين بين حمل هذه الآيه على المشركين و حمل تلك على اليهود،و هو خطأ.

قوله تعالى: مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الآيه؛الصر البرد الشديد،و إنما قيد الممثل بقوله: فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ليدل على أنهم منقطعون عن الدار الآخرة فلا يتعلق إنفاقهم إلا بهذه الحياه،و قيد حرث القوم بقوله: ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ليحسن ارتباطه بقوله بعده: وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ .

و محصل الكلام أن إنفاقهم فى هذه الحياه و هم يريدون به إصلاح شأنهم و نيل مقاصدهم الفاسده لا يثمر لهم إلا الشقاء،و فساد ما يريدونه و يحسبونه سعادته لأنفسهم كالريح التى فيها صر تهلك حرث الظالمين،و ليس ذلك إلا ظلما منهم لأنفسهم فإن العمل الفاسد لا يأتى إلا

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ الْآيَةَ؛ سميت الوليجه بطنه و هي ما يلي البدن من الثوب و هي خلاف الظهاره لكونها تطلع على باطن الإنسان و ما يضمه و يستسره، و قوله: لَا يَأْلُونَكُمْ أَي لَا يَقْصِرُونَ فِيكُمْ، و قوله: خَجَالًا أَي شِراً و فسادا، و منه الخبل للجنون لأنه فساد العقل، و قوله: وَدُّوا مَا عَتَّتُمْ، ما مصدرية أي ودوا و أحبوا عنتكم و شدة ضرركم، و قوله: قَدْ بَيَدَتِ الْبُغْضَاءُ مِنْ أَقْوَاهِمُ أريد به ظهور البغضاء و العداوه من لحن قولهم و فلتات لسانهم ففيه استعاره لطيفه و كنايه، و لم يبين ما في صدورهم بل أبهم قوله: وَ مَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ لِلْإِيمَاءِ إِلَى أَنَّهُ لَا يُوصَفُ لِتَنوعِهِ و عظمته و به يتأكد قوله: أَكْبَرُ .

قوله تعالى: هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ الْآيَةَ؛ الظاهر أن اولاء اسم إشاره و لفظه ها للتنبيه، و قد تخلل لفظه أنتم بين ها و اولاء، و المعنى أنتم هؤلاء على حد قولهم: زيد هذا و هند هذه كذا و كذا.

و قوله: وَ تُوْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ، اللام للجنس أي و أنتم تؤمنون بجميع الكتب السماويه النازله من عند الله: كتابهم و كتابكم، و هم لا- يؤمنون بكتابكم، و قوله، و اذا لقولكم قالوا آمنا، أي إنهم منافقون، و قوله: وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ الْعَضُّ هُوَ الْأَخْذُ بِالْأَسْنَانِ مَعَ ضَغْطٍ، و الْأَنَامِلُ جَمْعُ أَنْمَلَةٍ وَ هِيَ طَرَفُ الْإِصْبَعِ. و الغيظ هو الحنق، و عض الْأَنَامِلَ عَلَى شَيْءٍ مِثْلٍ يَضْرِبُ لِلتَّحَسُّرِ وَ التَّأْسَفِ غَضْبًا وَ حَنْقًا.

و قوله: قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ دَعَاءٌ عَلَيْهِمْ فِي صُورِهِ الْأَمْرِ وَ بِذَلِكَ تَتَّصِلُ الْجُمْلَةُ بِقَوْلِهِ: إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَي اللَّهُمَّ امْتَنِعْ مِنْ بَغِيظِهِمْ إِنَّكَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَي الْقُلُوبِ أَي النُّفُوسِ.

قوله تعالى: إِنَّ تَمَسَّنْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ، المساءه خلاف السرور، و في الآيه

دلالة على أن الأمن من كيدهم مشروط بالصبر والتقوى.

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٢١ إلى ١٢٩]

إشارة

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصِيرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبُهُمْ فَيُنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢٩)

ص: ٥٤٨

قوله تعالى: وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ إِذْ ظُرِفَ مُتَعَلِّقًا بِمُحْذَوِّفٍ كَاذِكْرٍ وَنَحْوِهِ؛ وَغَدَوْتَ مِنَ الْغَدْوِ وَهُوَ الْخُرُوجُ غَدَاءً، وَالتَّبَوُّهُ تَهْيِئَةُ الْمَكَانِ لِلْغَيْرِ أَوْ إِسْكَانُهُ وَإِيْطَانُهُ الْمَكَانَ؛ وَالمَقَاعِدُ جَمْعٌ؛ وَأَهْلُ الرَّجْلِ - كَمَا ذَكَرَهُ الرَّائِبِيُّ - مَنْ يَجْمَعُهُ وَإِيْاهُمْ نَسَبٌ أَوْ بَيْتٌ أَوْ غَيْرُهُمَا كَدِينٍ أَوْ بَلَدٍ أَوْ صِنَاعَةٍ؛ يُقَالُ: أَهْلُ الرَّجْلِ لِرُؤُوسِهِمْ وَالمَنْ فِي بَيْتِهِ مِنْ زَوْجِهِ وَوَلَدٍ وَخَادِمٍ وَغَيْرِهِمْ، وَالمُنْتَسِبِينَ إِلَيْهِ مِنْ عَشِيرَتِهِ وَعُتْرَتِهِ، وَ يُقَالُ:

أَهْلُ بَلَدٍ كَذَا لِقَاطِنِيهِ؛ وَأَهْلُ دِينٍ كَذَا لِمُنْتَحِلِيهِ؛ وَأَهْلُ صِنَاعَةٍ كَذَا لِصِنَاعَتِهَا وَأَسَاتِيدِهَا، وَ يُسْتَوَى فِيهِ المَذْكَرُ وَالمُؤنثُ وَالمُفْرَدُ وَالجَمْعُ، وَ يُخْتَصُّ اسْتِعْمَالُهُ بِالإِنْسَانِ فَأَهْلُ الشَّيْءِ خَاصَتُهُ مِنَ الإِنْسَانِ.

وَالمُرَادُ بِأَهْلِ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خَاصَتُهُ وَهُمُ جَمْعٌ، وَ لَيْسَ المُرَادُ بِهِ هَاهُنَا شَخْصٌ وَاحِدٌ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ إِذْ يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: خَرَجْتَ مِنْ خَاصَتِكَ وَ مِنْ جَمَاعَتِكَ وَ لا - يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: خَرَجْتَ مِنْ زَوْجَتِكَ وَ خَرَجْتَ مِنْ أُمَّكَ؛ وَ لَذا التَّجَا بَعْضُ المَفْسِرِينَ إِلَى تَقْدِيرِ فِي الآيَةِ فَقَالَ: إِنَّ التَّقْدِيرَ: خَرَجْتَ مِنْ بَيْتِ أَهْلِكَ، لَمَّا قَسَرَ الأَهْلُ بِالمُفْرَدِ، وَ لا دَلِيلٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ مِنَ الكَلَامِ.

وَ سِياقُ الآيَاتِ مَبْنِي عَلَى خُطابِ الجَمْعِ وَ هُوَ خُطابُ المُؤْمِنِينَ عَلَى ما تَدُلُّ عَلَيْهِ الآيَاتُ السَّابِقَةُ وَ اللاحِقَةُ ففِي قَوْلِهِ: وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ المُؤْمِنِينَ، التَّنْفِاتُ مِنْ خُطابِهِمْ إِلَى خُطابِ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ وَ كَأَنَّ الوَجْهَ فِيهِ ما يُلَوِّحُ مِنَ آيَاتِ القِصَّةِ مِنَ لِحْنِ العِتابِ فَإِنَّها لا - تَخْلُو مِنْ شائِبَةِ اللُّومِ وَ العِتابِ وَ الأَسْفِ عَلَى ما جَرى وَ ظَهَرَ مِنَ المُؤْمِنِينَ مِنَ الفِشْلِ وَ الوَهْنِ فِي العَزِيمَةِ وَ القِتالِ، وَ لَذا لَكَ أَعْرَضَ عَنِ مَخاطِبَتِهِمْ فِي تَضاعيفِ القِصَّةِ وَ عَدَلَ إِلَى خُطابِ النَبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ فِيمَا يَخْصُ بِهِ فَقَالَ: وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ، وَ قالَ: إِذْ تَقولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ،

وقال: ليس لك من الأمر شيء، وقال: قل إن الأمر كله بيد الله، وقال: فيما رحمه من الله لنت لهم و لو كنت فظا غليظ القلب لا نفصوا من حولك فاعف عنهم، وقال: ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا الآيه.

فغير خطاب الجمع في هذه الموارد الى خطاب المفرد، وهي موارد تحبس المتكلم الجارى في كلامه عن الجرى فيه لما تغيظه و تهيج وجده، بخلاف مثل قوله في ضمن الآيات: و ما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أ فإن مات أو قتل انقلبتم، وقوله: وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ، لأن العتاب فيهما بخطاب الجمع أوقع دون خطاب المفرد، و بخلاف مثل قوله في ضمن الآيات: لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا- منهم الآيه؛ لأن الامتنان ببعثه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ مع أخذه غائبا أوقع و أشد تأثيرا في النفوس، و أبعد من الوهم و الخطور، فتدبر في الآيات تجد صحه ما ذكرناه.

و معنى الآيه: و اذكر اذ خرجت بالغداه من أهلك تهيب للمؤمنين مقاعد للقتال أو تسكنهم و توقفهم فيها و الله سميع لما قيل هناك، عليهم بما أضمرته قلوبهم، و المستفاد من قوله:

وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ، قرب المعركة من داره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ فيتعين بذلك أن الآيتين ناظرتان الى غزوه أحد فتتصل الآيتان بالآيات الآتية النازله في شأن أحد لانطباق المضامين على وقائع هذه الغزوه، و به يظهر ضعف ما قيل: إن الآيتين في غزوه بدر؛ و كذا ما قيل: إنهما في غزوه الأحزاب، و الوجه ظاهر.

□
قوله تعالى: وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ أى سميع يسمع ما قيل هناك، عليهم يعلم ما كان مضمرا في قلوبكم، و فيه دلالة على كلام جرى هناك بينهم، و امور أضمرها في قلوبهم، و الظاهر أن قوله: إِذْ هَمَّتْ، متعلق بالوصفين.

□ □ □ □ □
قوله تعالى: إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَ اللَّهُ وَ لِيَهُمَا □ □ □ □ □ الهمة ما هممت به في نفسك و هو القصد، و الفشل ضعف مع الجبن.

و قوله: وَ اللَّهُ وَ لِيُهِمَا ١١١، حال و العامل فيه قوله: هَمَّتْ، و الكلام مسوق للعتاب و اللوم؛ و كذا قوله: وَ عَلَيَّ اللَّهُ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ، و المعنى: أنهما همتا بالفشل مع أن الله وليهما و لا ينبغي لمؤمن أن يفشل و هو يرى أن الله وليه، و مع أن المؤمنين ينبغي أن يكلوا أمرهم الى الله و من يتوكل على الله فهو حسبه.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ الى آخر الآيه؛ ظاهر السياق أن تكون الآيه مسوقه سوق الشاهد لتتميم العتاب و تأكيده فتكون تؤدى معنى الحال كقوله:

وَ اللَّهُ وَ لِيُهِمَا ١١١، و المعنى: و ما كان ينبغي أن يظهر منكم الهم بالفشل و قد نصركم الله ببدر و أنتم أذله، و ليس من البعيد أن يكون كلاما مستقلا سيق مساق الامتنان بذكر نصر عجيب من الله بإنزال الملائكة لإمدادهم و نصرهم يوم بدر.

و لما ذكر تعالى نصره إياهم يوم بدر و قابل ذلك بما هم عليه من الحال - و من المعلوم أن كل من اعتر فإنما يعتر بنصر الله و عونه فليس للإنسان من قبل نفسه إلا الفقر و الذله - و لذلك قال: و أنتم أذله.

و من هنا يعلم أن قوله: وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ لا - ينافى أمثال قوله تعالى: وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ (المنافقون ٨) فإن عزتهم إنما هي بعزه الله، قال تعالى: فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً (النساء ١٣٩) و ذلك بنصر الله المؤمنين كما قال تعالى: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَتْتَهُمُ مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (الروم ٤٧) فإذا كان الحال هذا الحال فلو اعتبر حال المؤمنين من حيث أنفسهم لم يكن لهم إلا الذله.

على أن واجهه حال المؤمنين أيضا يوم بدر كانت تقضى بكونهم أذله قبال ما كان عليه المشركون من القوه و الشوكه و الزينه، و لا ضير فى إضافه الذله النسبيه الى الأعزه و قد أضافها الله سبحانه الى قوم مدحهم كل المدح حيث قال: فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ الْآيَةَ (المائدة ٥٤).

قوله تعالى: إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ الْإِمْدَادُ مِنَ الْمَدِّ وَهُوَ إِيصَالُ الْمَدِّ عَلَى نَعْتِ الْإِتِّصَالِ.

قوله تعالى: بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فَوْرِهِمْ هَذَا، بلى كلمه تصديق و الفور و الفوران: الغليان يقال: فار القدر اذا غلا و جاش، ثم استعير للسرعه و العجله فاستعمل في الأمر الذي لا ريث فيه و لا مهله فمعنى من فورهم هذا من ساعتهم هذه.

و الظاهر أن مصداق الآيه هو يوم بدر، وإنما هو وعد على الشرط و هو ما يتضمنه قوله: إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فَوْرِهِمْ هَذَا.

و أما ما يظهر من بعض المفسرين أنه وعد بإنزال الملائكه إن جاءوهم بعد فورهم هذا يعنى يوم بدر بأن يكون المراد من فورهم هذا هو يوم بدر لا- فى يوم بدر، و كذا ما يظهر من بعض آخر أنه وعد بإنزالهم فى سائر الغزوات بعد بدر كاحد و حنين و الأحزاب فمما لا دليل عليه من لفظ الآيه.

أما يوم أحد فلا- محل لاستفاده نزول الملائكه فيه من الآيات و هو ظاهر، و أما يوم الأحزاب و يوم حنين فالقرآن و إن كان يصرح بنزول الملائكه فيهما فقد قال فى قصه الأحزاب: إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا (الأحزاب ٩) و قال وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ «الى أن قال»: وَ أَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا (التوبه ٢٦) إلا أن لفظ هذه الآيه:

بلى إن تصبروا و تتقوا و يأتوكم من فورهم هذا، قاصر عن إفاده عموم الوعد.

و أما نزول ثلاثه آلاف يوم بدر فلا ينافى قوله تعالى فى سوره الأنفال: فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْأَلْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ (الأنفال ٩) لمكان قوله: مُرَدِّينَ أى متبعين لآخرين و هم الألفان الباقيان المكملان للعدد على ما ذكر فى هذه الآيات.

قوله تعالى: وَ مَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ، الضمير راجع الى الإمداد، و لفظه

عند ظرف يفيد معنى الحضور، وقد كان أولاً مستعملاً في القرب و الحضور المكانية المختص بالأجسام ثم توسع فاستعمل في القرب الزماني ثم في مطلق القرب و الحضور المعنوي كيفما كان، وقد استعمل في القرآن في مختلف الفنون.

و الذى يفيد فى هذا المقام أعنى قوله: **وَ مَا النَّصِيرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** بالنظر الى ما سبقه من قوله: **وَ مَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَ لِتَطْمَئِنَّنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ** به هو المقام الربوبى الذى ينتهى اليه كل أمر و حكم، و لا- يكفى عنه و لا- يستقل دونه شىء من الأسباب؛ فالمعنى: أن الملائكة الممددين ليس لهم من أمر النصر شىء بل هم أسباب ظاهريه يجلبون لكم البشرى و طمأنينه القلب، و إنما حقيقه النصر من الله سبحانه لا يغنى عنه شىء، و هو الله الذى ينتهى اليه كل أمر، العزيز الذى لا يغلب، الحكيم الذى لا يجهل.

قوله تعالى: **لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ** الى آخر الآيات؛ اللام متعلق بقوله: **وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ**، و قطع الطرف كناية عن تقليل عدتهم و تضعيف قوتهم بالقتل و الأسر كما وقع يوم بدر فقتل من المشركين سبعون و اسر سبعون، و الكبت هو الإخزاء و الإغاظه.

و قوله: **لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ** معترضه، و فائدتها بيان أن الأمر فى القبط و الكبت لله، و ليس للنبي صلى الله عليه و آله و سلم فيه صنع حتى يمدحوه و يستحسنوا تدبيره اذا ظفروا على عدوهم و نالوا منه، و يلوموه و يوبخوه اذا دارت الدائر عليهم و يهنوا و يحزنوا كما كان ذلك منهم يوم أحد على ما حكاه الله تعالى.

و قوله: **أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ** معطوف على قوله: **لِيَقْطَعَ**، و الكلام متصل، و قوله: **وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ**، بيان لرجوع أمر التوبه و المغفره الى الله تعالى؛ و المعنى: أن هذا التدبير المتقن منه تعالى إنما هو ليقطع طرفاً من المشركين بالقتل و الأسر أو ليخزيهم و يخيبهم فى سعيهم أو ليتوب عليهم أو ليعذبهم، أما القبط و الكبت فلأن الأمر اليه لا إليك حتى تمدح أو

تذم؛ و أما التوبه و العذاب فلأن الله هو المالك لكل شىء فيغفر لمن يشاء، و يعذب من يشاء، و مع ذلك فإن مغفرته و رحمته تسبقان عذابه و غضبه فهو الغفور الرحيم.

و إنما أخذنا قوله: وَ لِلَّهِ مَمَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَمَّا فِي الْأَرْضِ، فى موضع التعليل للفقرتين الأخيرتين أعنى قوله: أَوْ يَتُوبَ اه، لما فى ذيله من اختصاص البيان بهما أعنى قوله: يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ (١).

[سوره آل عمران (٣): الآيات ١٣٠ الى ١٣٨]

إشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَ اتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وَ سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ الْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَ الْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَ الَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَتَعَفَوْا لِذُنُوبِهِمْ وَ مَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَ لَمْ يَصِرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاءُ هُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ جَنَاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ نِعَمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ (١٣٦) قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَ هُدًى وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨)

ص: ٥٥٤

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً يَشِيرُ إِلَى الْوَصْفِ الْغَالِبِ فِي الرِّبَا فَإِنَّهُ بِحَسَبِ الطَّبَعِ يَتَضَاعَفُ فِيصِيرُ الْمَالُ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً بِإِنْفَادِ مَالِ الْغَيْرِ وَضَمَّهُ إِلَى رَأْسِ الْمَالِ الرَّبْوِيِّ.

و في قوله: ﴿وَ اتَّقُوا الدَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾، إشارته إلى كفر آكل الربا كما مر في سورة البقره في آيات الربا: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (البقره ٢٧٦).

قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾، المسارعه هي الاشتداد في السرعة و هي ممدوحه في الخيرات، و مذمومه في الشرور.

و قد قورن في القرآن الكريم المغفره بالجنه في غالب الموارد، و ليس إلا لأن الجنه دار طهاره لا يدخل فيها قذارات المعاصي و الذنوب و أدرانها، و لا من تقذر بها إلا بعد المغفره و الإزاله.

و المغفره و الجنه المذكورتان في هذه الآيه تحاذيان ما في الآيتين التاليتين؛ أما المغفره فتحاذي ما في قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾؛ و أما الجنه فتحاذي ما في قوله: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾.

و أما قوله: جَنَّهُ عَرَضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، فالمراد بالعرض السعه و هو استعمال شائع، و كأن التعبير كناية عن بلوغها فى السعه غايتها أو ما لا يحدها الوهم البشرى، و له معنى آخر سنشير اليه فى البحث الروائى الآتى.

و قوله: أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ كالتوطئه لذكر ما يذكره بعد من أوصاف المتقين؛ فإن الغرض هو بيان الأوصاف التى ترتبط بحال المؤمنين فى المقام أعنى عند نزول هذه الآيات و قد نزلت بعد غزوه أحد و قد جرى عليهم و منهم ما جرى من الضعف و الوهن و المخالفه، و هم مع ذلك مشرفون على غزوات أخر مثلها، و حوادث تشابهها، و بهم حاجه الى الاتحاد و الاتفاق و التلاؤم.

قوله تعالى: الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالصَّرَّاءِ إِلَى آخِرِ آيَةٍ؛ السراء و الصراء ما يسر الإنسان و ما يسوؤه أو اليسر و العسر، و الكظم فى الأصل هو شد رأس القربه بعد ملئها فاستعير للإنسان اذا امتلأ حزنا أو غضبا، و الغيظ هيجان الطبع للانتقام بمشاهده كثره ما لا يرتضيه، بخلاف الغضب فهو إرادته الانتقام أو المجازاه، و لذلك يقال:

غضب الله و لا يقال: اغتاظ.

و فى قوله: وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ، إشاره الى أن ما ذكره من الأوصاف معرف لهم، و إنما هو معرف للمحسنين فى جنب الناس بالإحسان اليهم، و أما فى جنب الله فمعرفهم ما فى قوله تعالى: وَبَشِّرِ لِلْمُحْسِنِينَ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (الأحقاف ١٣) بل هذا الإحسان المذكور فى هذه الآيات هو المحتد للمذكور فى قوله: الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالصَّرَّاءِ، الآيه؛ فإن الإنفاق و نحوه اذا لم يكن لوجه الله لم يكن له منزله عند الله سبحانه على ما يدل عليه قوله تعالى فيما سبق من الآيات: مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، الآيه؛ و غيره.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ -الى قوله-: وَنِعْمَ

أَجْرُ الْعَامِلِينَ الْفَاحِشَةَ مَا تَتَّضَمَّنُ الْفَحْشَ وَالْقَيْحَ مِنَ الْأَفْعَالِ، وَشَاعَ اسْتِعْمَالُهُ فِي الزُّنَا، فَالْمُرَادُ بِالظُّلْمِ بِقَرِينِهِ الْمَقَابِلَةَ سَائِرَ الْمَعَاصِي الْكَبِيرَةِ وَالصَّغِيرَةِ، أَوْ خُصُوصَ الصَّغَائِرِ عَلَى تَقْدِيرِ أَنْ يَرَادَ بِالْفَاحِشَةِ الْمُنْكَرَ مِنَ الْمَعَاصِي وَهِيَ الْكِبَائِرُ، وَفِي قَوْلِهِ: ذَكَرُوا اللَّهَ، الْخ؛ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ فِي الْاسْتِغْفَارِ أَنْ يَدْعُوا إِلَيْهِ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى دُونَ مَجْرَدِ التَّلْفِظِ بِاعْتِيَادِ وَنَحْوِهِ، وَقَوْلِهِ: وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ تَشْوِيقٌ وَإِقْطَاعٌ لِقَرِيحَةِ اللُّوَاذِ وَالِاتِّجَاءِ فِي الْإِنْسَانِ.

وَقَوْلِهِ: وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَيَّ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ، إِنَّمَا قِيدَ بِهِ الْاسْتِغْفَارَ لِأَنَّهُ يورثُ فِي النَّفْسِ هَيْئَةً لَا يَنْفَعُ مَعَهُ ذِكْرَ مَقَامِ الرَّبِّ تَعَالَى وَهِيَ الْاسْتِهَانَةُ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَعَدَمُ الْمُبَالَاهِ بِهَتَكِ حُرْمَاتِهِ، وَالِاسْتِكْبَارَ عَلَيْهِ تَعَالَى، وَلا تَبْقَى مَعَهُ عِبُودِيَّةٌ وَلا يَنْفَعُ مَعَهُ ذِكْرٌ، وَلِذَلِكَ بَعَيْنُهُ قِيدَهُ بِقَوْلِهِ: وَهُمْ يَعْلَمُونَ، وَهَذِهِ قَرِينَةٌ عَلَى كَوْنِ الظُّلْمِ فِي صَدْرِ الْآيَةِ يَشْمَلُ الصَّغَائِرَ أَيْضًا، وَذَلِكَ أَنَّ الْإِصْرَارَ عَلَى الذَّنْبِ يَسْتَوْجِبُ الْاسْتِهَانَةَ بِأَمْرِ اللَّهِ وَالتَّحْقِيرَ لِمَقَامِهِ سِوَاءِ كَوْنِ الذَّنْبِ الْمَذْكُورِ مِنَ الصَّغَائِرِ أَوْ الْكِبَائِرِ، فَقَوْلُهُ: مَا فَعَلُوا أَعْمَ مِنَ الْكَبِيرَةِ، وَالْمُرَادُ بِمَا فَعَلُوا هُوَ الَّذِي ذَكَرَ فِي صَدْرِ الْآيَةِ، وَإِذْ لَيْسَتْ الصَّغِيرَةُ فَاحِشَةً فَهُوَ ظَلَمَ النَّفْسَ لَا مَحَالَةَ.

وَقَوْلُهُ: أُولَئِكَ جَزَأُوهُمْ مَغْفِرَةً بَيَانٌ لِأَجْرِهِمُ الْجَزِيلِ، وَما ذَكَرَهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ عَيْنُ ما أَمَرَ بِالْمَسَارَعَةِ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ: وَسَارِعُوا إِلَيَّ مَغْفِرَةً مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ، الْخ؛ وَ مِنْ ذَلِكَ يَعْلَمُ أَنَّ الْأَمْرَ إِنَّمَا كَانَ بِالْمَسَارَعَةِ إِلَى الْإِنْفَاقِ وَ كَظْمِ الْغِيظِ وَالْعَفْوِ عَنِ النَّاسِ وَالِاسْتِغْفَارِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا، السُّنَنُ جَمْعُ سَنَةٍ وَهِيَ الطَّرِيقَةُ الْمَسْلُوكَةُ فِي الْمَجْتَمَعِ، وَالْأَمْرُ بِالسَّيْرِ فِي الْأَرْضِ لِمَكَانِ الْإِعْتِبَارِ بِأَثَارِ الْمَاضِينَ مِنَ الْأَمَمِ الْغَابِرَةِ، وَالْمَلُوكِ وَالْفِرَاعِنِ الطَّاعِيَةِ حَيْثُ لَمْ يَنْفَعَهُمْ شَوَاهِقُ قُصُورِهِمْ، وَلا ذَخَائِرُ كُنُوزِهِمْ، وَلا عُرُوشِهِمْ وَلا جَمُوعِهِمْ، وَقَدْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ أَحَادِيثَ يَعْتَبَرُ بِهَا الْمَعْتَبَرُونَ، وَيَتَفَكَّهُ بِهَا

و أما حفظ آثارهم و كلاءه تماثيلهم و الجهد فى الكشف عن عظمتهم و مجدهم الظاهر الدينوى الذى فى أيامهم فمما لا يعنى به القرآن، فإنما هى الوثنيه التى لا تزال تظهر كل حين فى لباس؛ و سنبحث إن شاء الله فى هذا المعنى فى بحث مستقل نحلل فيه معنى الوثنيه.

قوله تعالى: هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ الْآيَةِ؛ التقسيم باعتبار التأثير فهو بلاغ و إبانه لبعض و هدى و موعظه لآخرين (١).

[سوره آل عمران (٣): الآيات ١٣٩ الى ١٤٨]

إشاره

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَليَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَليَمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَ لَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣) وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَ مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَ مَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَ مَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَ كَمَا يُنِىُّ قَاتِلٌ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ مَا ضَعُفُوا وَ مَا اسْتَكَانُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَ مَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَ إِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَ ثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَ انصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَ حُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)

ص: ٥٥٨

قوله تعالى: **وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** الوهن: هو الضعف فى خلق أو خلق على ما ذكره الراغب، والمراد به هنا ضعفهم من حيث العزيمه و الاهتمام على اقامه الدين و قتال أعدائه، و الحزن خلاف الفرح و إنما يعرض الإنسان بفقدته شيئاً يملكه مما يحبه أو أمراً يقدر نفسه مالكة له.

و فى قوله تعالى: **وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ**، دلالة على أن سبب وهنهم و حزنهم ما شاهدوه من إصابه القرح إياهم، و استعلاء الكفار عليهم، فإن المشركين و إن لم ينالوا كل الغلبه و الظفر على المؤمنين و لم تختتم الوقعه على الانهزام التام من المؤمنين لكن الذى أصاب المؤمنين كان أشد و أوجع و هو

شهاده سبعين من سراتهم و شجعانهم، و وقوع ما وقع فى عقر دارهم فكان هذا سبب و هنتهم و حزنهم، و وقوع قوله: وَ أَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ
، الخ؛ موقع التعليل هو الوجه فى كون هذين النهيين نهيا عن وهن و حزن واقعين لا مقدرين و لا متوقعين.

و قد اطلق قوله: الْأَعْلَوْنَ من غير تقييد و لكن اشترط بالإيمان فمحصل المعنى: لا ينبغي لكم أن تهنوا فى عزمكم، و لا أن تحزنوا
لما فاتكم من لظفر على أعدائكم، و الانتصار منهم إن كان فيكم الإيمان، فإن الإيمان أمر يستصحب علاءكم البتة اذ هو يلازم
التقوى و الصبر و فيهما ملاك الفتح و الظفر، و أما القرع الذى أصابكم فليستتم بمتفردين فيه بل القوم - و هم المشركون - قد
أصابهم مثله فلم يسبقوكم فى شىء حتى يوجب ذلك و هنتكم و حزنكم.

و اشتراط علوهم بالإيمان مع كون الخطاب للذين آمنوا إنما هو للإشارة الى أن الجماعة و إن كانوا لا يفقدون الإيمان إلا أنهم
غير عاملين بما يقتضيه من الصفات كالصبر و التقوى و إلا لأثر أثره.

و هذا حال كل جماعه مختلفه الحال فى الإيمان فيهم المؤمن حقا و الضعيف إيمانا و المريض قلبا، و يكون مثل هذا الكلام
تنشيطا لىفس مؤمنهم، و عظه لىضعيفهم و عتابا و تأنيبا لمريضهم.

قوله تعالى: إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ الْقَرْحُ - بفتح القاف - الأثر من الجراحه من شىء يصيبه من خارج، و القرع -
بالضم - أثرها من داخل كالبره و نحوها - قاله الراغب - و كأنه كناية عما أصابهم يوم أحد بفرض مجموع المسلمين شخصا واحدا
أصابه جراحه من عدوه و هو قتل من قتل منهم، و جراحه من جرح منهم، و فوت النصر و الفتح بعد ما أطلا عليهم.

و هذه الجملة أعنى قوله: إِنْ يَمَسُّكُمْ ، الخ؛ و ما بعدها من الجمل المتسقه الى قوله: وَ يَمَحَقَ

الْكَافِرِينَ فِي مَوْضِعِ التَّعْلِيلِ - كما مر - لقوله: وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا، الخ؛ كما أن قوله: وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ تَعْلِيلٌ آخِرٌ.

و الفرق بين النوعين من التعليل أن الأول أعنى قوله: وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ، الخ؛ تعليل من طريق التخطئه لظنهم، فإنهم إنما وهنوا و حزنوا لما ظنوا علاء المشركين عليهم فخطأهم الله بأن ملاك العلاء معكم إن كنتم مؤمنين لا مع المشركين، وقد قال تعالى: وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (الروم ٤٧).

و أما الثاني فمن طريق بيان حال الفريقين - المؤمنين و المشركين - أو بيان الحكم و المصالح التي ترجع الى أصل واحد و هو السنه الإلهيه الجاريه بمداوله الأيام بين الناس.

قوله تعالى: وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ اليوم هو المقدار المعتد به من الزمان اللازم لحدوث الحوادث فيختلف باختلاف الحوادث، و قد شاع استعماله فيما بين طلوع الشمس و غروبها، و ربما استعمل في الملك و السلطنه و القهر و نحوها بعلاقه الظرف و المظروف، فيقال يوم جماعه كذا و يوم آل فلان أى تقدمهم و حكومتهم على غيرهم، و قد يقال لنفس الزمان الذى وقع فيه ذلك، و المراد بالايام فى الآيه هو هذا المعنى. و المداوله جعل الشئ يتناوله واحد بعد آخر. فالمعنى: أن السنه الإلهيه جرت على مداوله الأيام بين الناس من غير أن توقف على قوم و يذهب عنها قوم لمصالح عامه تتبع هذه السنه لا تحيط أفهامكم إلا ببعضها دون جميعها.

قوله تعالى: وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ الخ؛ عطف على محذوف حذف التلويح على أنه مما لا تحيط به الأفهام و لا تدركه العقول إلا من بعض جهاتها، و الذى ينفع المؤمنين العلم به هو ما ذكره بقوله: وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ، الخ؛ و بقوله: وَ لِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَمْحَقَ الْكَافِرِينَ .

أما قوله: وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا، فالمراد به ظهور إيمان المؤمنين بعد بطونه

و خفائه، فإن علمه تعالى بالحوادث و الأشياء فى الخارج عين وجودها فيه فإن الأشياء معلومه له تعالى بنفس وجودها لا بصورة مأخوذه منها نظير علومنا و إدراكاتنا و هو ظاهر، و لازم ذلك أن يكون إرادته تعالى العلم بشىء هى إرادته تحققه و ظهوره و حيث قال: و ليعلم الله الذين آمنوا، فأخذ وجودهم محققا أفاد ذلك إرادته ظهور إيمانهم، و اذا كان ذلك على سنه الأسباب و المسببات لم يكن بد من وقوع امور توجب ظهور إيمان المؤمن بعد خفائه فافهم ذلك.

و أما قوله: وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ، فالشهداء الشهداء الأعمال و أما الشهداء بمعنى المقتولين فى معركة القتال فلا يعهد استعماله فى القرآن، و إنما هو من الألفاظ المستحدثة الاسلاميه، كما مر فى قوله تعالى: وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ (البقره/ ١٤٣)، على أن قوله: وَ يَتَّخِذَ، أيضا لا يلائم الشهداء بمعنى المقتولين فى المعركة كثير ملاءمه، فلا يقال: اتخذ الله فلانا مقتولا فى سبيله و شهيدا كما يقال: اتخذ الله ابراهيم خليلا، و اتخذ الله موسى كليما، و اتخذ الله النبى شهيدا يشهد على امته يوم القيامة.

و قد غير السياق فقال: و يتخذ منكم شهداء، و لم يقل: و يتخذهم شهداء لأن الشهاده و إن اضيفت الى الامامه فى قوله: وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ (البقره ١٤٣/)، إلا أنها من قبيل وصف البعض المضاف الى الكل، و الشهداء بعض الامه دون كلهم، و قد مر بيان ذلك فى سورة البقره، و يمكن أن يتأيد هذا الذى ذكرناه بقوله بعد: و الله لا يحب الظالمين.

و أما قوله: وَ لِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَمْحَقَ الْكَافِرِينَ فَالتمحيص هو تخليص الشىء من الشوائب الخارجيه، و المحق إنفاد الشىء تدريجا و إزالته شيئا فشيئا، و هذا التمحيص من حكم مداوله الأيام و مصالحها، و هو غير العلم بالذين آمنوا الذى هو أيضا من حكم مداوله الأيام، فإن تمييز المؤمن من غير المؤمن أمر و تخليص إيمانه بعد التمييز من شوائب

الكفر و النفاق و الفسوق أمر آخر، و لذلك قول بالحق للكافرين، فالله سبحانه يزيل أجزاء الكفر و نحوه من المؤمن شيئا فشيئا حتى لا يبقى إلا إيمانه، فيكون خالصا لله، و يبىد أجزاء الكفر و الشرك و الكيد من الكافر شيئا فشيئا حتى لا يبقى شيء.

شرح سبحانه-بعد بيان أن الأيام دول متداوله لغرض الامتحان و الابتلاء-في ملامتهم في حسابان هذا النظر الباطل و بيان حقيقته الحال فقال: أم حسبتم، الى آخر الآيات.

قوله تعالى: **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ؛** و هذا أعنى ظنهم أن يدخلوا الجنة من غير أن يمتحنوا لازم الظن المذكور آنفا، و هو أنهم لما كانوا على الحق و الحق لا يغلب عليه فأمر الظفر و الغلبة اليهم، لن ينهزموا و لن يغلبوا أبدا، و من المعلوم أن لازم هذا الظن أن يكون كل من آمن بالنبي و لحق بجماعه المؤمنين سعيدا في دنياه بالغلبة و الغنيمه، و سعيدا في آخرته بالمغفرة و الجنة، و يبطل الفرق بين ظاهر الإيمان و حقيقته و يرتفع التمايز بين الدرجات، فإيمان المجاهد و إيمان المجاهد الصابر واحد، و من تمنى خيرا ففعله اذا حان حينه كان كمن تمنى خيرا ثم تولى اذا أصابه.

و على هذا فقوله: **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا، الخ؛** من قبيل وضع المسبب موضع السبب أى حسبتم أن الدوله مكتوبه لكم فأنتم لا تبتلون بل تدخلون الجنة من غير أن يتميز المستحق لها منكم من غير المستحق، و صاحب الدرجه الرفيعه منكم من غيره؟

و أما قوله تعالى: **وَ لَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ الْآيَةَ؛** ففيه تثبيت أن ظنهم ذاك كان فاسدا فإنهم كانوا يتمنون الموت قبل حضور الغزوه حتى اذا حضرت و رأوه رأى العين لم يقدموا و لم يتناولوا ما كانوا يتمنونه، بل فشلوا و تولوا عن القتال؛ فهل كان من الجائر أن يدخلوا الجنة بمجرد هذا التمنى من غير أن يمتحنوا أو يمحصوا؟ أو لم يكن من الواجب أن يختبروا؟.

و بهذا يظهر أن فى الكلام تقديرا، و المعنى: فقد رأيتموه و أنتم تنظرون فلم تقدموا عليه،

و يمكن أن يكون قوله: تَنْظُرُونَ كناية عن عدم إقدامهم أى تكتفون بمجرد النظر من غير إقدام، وفيه عتاب و توبيخ (١).

قوله تعالى: **وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ** الموت زهاق الروح و بطلان حياه البدن، و القتل هو الموت اذا كان مستندا الى سبب عمدى أو نحوه، و الموت و القتل اذا افترقا كان الموت أعم من القتل، و اذا اجتمعا كان الموت هو ما يحتف الأنف و القتل خلافه.

و انقلب على عقبيه أى رجع، قال الراغب: و رجع على عقبيه اذا انثنى راجعا، و انقلب على عقبيه نحو رجع على حافرتة، و نحو ارتدا على آثارهما قصصا، و قولهم رجع عوده الى بدئه، انتهى.

و حيث جعل الانقلاب على الاعقاب جزاء للشرط الذى هو موت الرسول أو قتله أفاد ذلك أن المراد به الرجوع عن الدين دون التولى عن القتال اذا لا ارتباط للفرار من الزحف بموت النبى صلى الله عليه و آله و سلم أو قتله، و إنما النسبه و الرابطه بين موته أو قتله و بين الرجوع الى الكفر بعد الإيمان.

و يدل على أن المراد به الرجوع عن الدين ما ذكره تعالى فى قوله: **وَ طَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ**، الى آخر الآيات؛ على أن نظير ما وقع فى أحد من فرارهم من الزحف و توليهم عن القتال تحقق فى غيره كغزوه حنين و خيبر و غيرهما و لم يخاطبهم الله بمثل هذا الخطاب و لا عبر عن توليهم عن القتال بمثل هذه الكلمه قال تعالى:

وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثَرْتُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَ ضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (التوبه ٢٥)، فالحق أن المراد بالانقلاب على الأعقاب الرجوع

ص: ٥٦٤

فمحصل معنى الآيه على ما فيها من سياق العتاب و التوبيخ: أن محمدا صلى الله عليه و آله و سلم ليس إلا رسولا من الله مثل سائر الرسل، ليس شأنه إلا تبليغ رساله ربه لا يملك من الأمر شيئا، وإنما الأمر لله و الدين دينه باق ببقائه، فما معنى اتكاء إيمانكم على حياته حيث يظهر منكم أن لو مات أو قتل تركتم القيام بالدين، و رجعتم الى أعقابكم القهقرى و اتخذتم الغوايه بعد الهدايه؟ (١).

قوله تعالى: وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا الْخ؛ تعريض لهم فى قولهم عن إخوانهم المقتولين ما يشير اليه قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَقُتِلُوا، الْآيَه؛ و قول طائفه منهم: لو كان لنا من لأمر شىء ما قتلنا هاهنا، الْآيَه؛ و هؤلاء من المؤمنين غير المنافقين الذين تركوا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و قعدوا عن القتال.

فهذا القول منهم لازمه أن لا يكون موت النفوس بإذن من الله و سنه محكمه تصدر عن قضاء مبرم، و لازمه بطلان الملك الإلهى و التدبير المتقن الربانى و سيجىء إن شاء الله الكلام فى معنى كتابه الآجال فى أول سورة الأنعام.

و لما كان لازم هذا القول ممن قال به أنه آمن لظنه أن الأمر لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و للمؤمنين فقد أراد الدنيا كما مر بينه و من اجتنب هذا فقد أراد الآخره فقال تعالى: و من يرد ثواب الدنيا نؤته منها و من يرد ثواب الآخره نؤته منها، و إنما قال: نؤته منها و لم يقل: نؤتها لأن الإراده ربما لا توافق تمام الأسباب المؤديه الى تمام مراده فلا يرزق تمام ما أراد، و لكنها لا تخلو من موافقه ما للأسباب فى الجمه دائما فإن وافق الجميع رزق الجميع و إن وافق البعض رزق البعض فحسب؛

ص: ٥٦٥

قال الله تعالى: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْرِفُ فِيهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا، (الإسراء: ١٩) وقال تعالى: وَ أَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (النجم/ ٣٩).

ثم خص الشاكرين بالذكر بإخراجهم من الطائفتين فقال: وَ سَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ و ليس إلا لأنهم يريدون إلا وجه الله لا يشتغلون بدنيا ولا آخره كما تقدم.

قوله تعالى: وَ كَآئِنٌ مِنْ نَبِيِّ قَاتَل مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ الى آخر الآيات؛ كآين كلمة تكثير و كلمه «مِنْ» بينه و الربيون جمع ربي و هو كالرباني من اختص بربه تعالى فلم يشتغل بغيره، و قيل: المراد به الالوف و الربى الألف، و الاستكانه هي التضرع.

و في الآيه موعظه و اعتبار مشوب بعتاب و تشويق للمؤمنين أن يأتوا بهؤلاء الربيين فيؤتيهم الله ثواب الدنيا و حسن ثواب الآخرة كما آتاهم، و يحبهم لإحسانهم كما أحبهم لذلك.

و قد حكى الله من فعلهم و قولهم ما للمؤمنين أن يعتبروا به و يجعلوه شعارا لهم حتى لا يبتلوا بما ابتلوا به يوم أحد من الفعل و القول غير المرضيين لله تعالى و حتى يجمع الله لهم ثواب الدنيا و الآخرة كما جمع لأولئك الربيين.

و قد وصف ثواب الآخرة بالحسن دون الدنيا إشاره الى ارتفاع منزلتها و قدرها بالنسبه إليها.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ١٤٩ الى ١٥٥]

إشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرَدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) يَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَ هُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَيَنْقَلِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَ مَا وَاهُمُ النَّارُ وَ بَشَسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١) وَ لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَ تَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ عَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَ لَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَ لَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ فَأُوَابِكُمْ غَمًّا بَغَمًّا لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَ لَا مَا أَصَابَكُمْ وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نَاعَسًا يَغْشَىٰ طَائِفَهُ مِنْكُمْ وَ طَائِفَهُ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَ لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَ لِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنْ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَ لَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَاتِينَ لَا يُعَدُّ أَنْ يَسْتَفَادَ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّ الْكُفَّارَ كَانُوا أَيَّامَ نَزُولِ الْآيَاتِ بَعْدَ غَزْوِهِ أَحَدٌ يَلْقَوْنَ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي صُورِهِ النَّصْحَ - مَا يَشْبِطُهُمْ عَنِ الْقِتَالِ، وَيَلْقَى التَّنَازُعَ وَالتَّفْرِقَةَ وَتَشْتَتِ الْكَلِمَةَ وَاخْتِلَافَهَا بَيْنَهُمْ، وَرَبَّمَا أَيْدِهِ مَا فِي آخِرِ هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ قَوْلِهِ: الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ «إِلَىٰ أَنْ قَالَ»: ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُحَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ الْآيَاتِ (١٧٣-١٧٥).

و ربما قيل: إن الآية إشارة إلى قوله اليهود و المنافقين يوم أحد: «إن محمدا قد قتل فارجعوا إلى عشائركم»؛ و ليس بشيء.

ثم لما بين أن إطاعتهم للذين كفروا و الميل إلى ولايتهم يهديهم إلى الخسران الذي هو رجوعهم إلى أعقابهم كافرين أضرب عنه بقوله: بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ .

قوله تعالى: سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ الْخُبْرَ؛ وَعَدَّ جَمِيلٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ سَيَنْصُرُونَ بِالرُّعْبِ، وَ لَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ يَذْكُرُهُ فِيمَا حَبَاهُ اللَّهُ تَعَالَى وَ خَصَّهُ بِهِ مِنْ بَيْنِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى مَا رَوَاهُ الْفَرِيقَانِ.

و قوله: بِمَا أَشْرَكُوا، معناه: اتخذوا له ما ليس معه برهان شريكاً، و مما يكرره القرآن أن ليس لإثبات الشريك لله سلطان، و من إثبات الشريك نفى الصانع و إسناد التأثير و التدبير إلى غيره كالدهر و المادة.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ الْحَسَنِ

-بالفتح-:القتل على وجه الاستيصال.

و لقد اتفقت الروايات و ضبطه التاريخ في قصه غزوه أحد أن المؤمنين غلبوهم و ظهوروا عليهم في أول الأمر و وضعوا فيهم السيوف و شرعوا في نهب أموالهم حتى اذا خلى الرماه مكانهم في المكن حمل خالد بن الوليد فيمن معه على عبد الله بن جبير و من بقى معه من الرماه فقتلوهم، و حملوا على المؤمنين من ورائهم، و تراجع المشركون عن هزيمتهم و وضعوا السيوف في أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و قتلوا منهم سبعين ثم هزموهم أشد هزيمه.

فقوله تعالى: **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعِدَّهُ**، تثبیت صدق وعده بالنصر بشرط التقوى و الصبر؛ وقوله: **إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ**، يقبل الانطباق على ما رزقهم في أول الأمر من الظهور على عدوهم يوم أحد، وقوله: **حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَ تَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ عَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَّا تُحِبُّونَ**، ينطبق على ما صنعه الرماه حيث تنازعوا فيما بينهم في ترك مراكزهم و اللحق بمن مع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لنيل الغنيمه ففشلوا و تنازعوا في الأمر و عصوا أمر النبي بأن لا يتركوا مراكزهم على أى حال، و على هذا فلا بد من تفسير الفشل بضعف الرأى، و أما كونه بمعنى الجبن فلا ينطبق عليهم اذ لم يكن ذلك منهم جبناً بل طمعا في الغنيمه، و لو كان الفشل بمعنى الجبن كان منطبقا على حال جميع القوم و يكون على هذا «**تُمْ**» في قوله: **تُمْ صَدَقَكُمُ**، مفيد للتراخي الرتبى دون الزمانى.

و يدل لفظ التنازع على أن الكل لم يكونوا مجمعين على الفشل و المعصيه بل كان بعضهم يصر على الإطاعه و البقاء على الائتثار و لذا قال تعالى بعده: **منكم من يريد الدنيا و منكم من يريد الآخره.**

قوله تعالى: **تُمْ صَدَقَكُمُ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ**، أى كفكم عن المشركين بعد ظهور الفشل و التنازع و المعصيه، و بالجمله بعد وقوع الاختلاف بينكم ليمتحنكم و يختبر إيمانكم و صبركم في الله اذ الاختلاف في القلوب هو أقوى العوامل المقتضيه لبسط الابتلاء لىتميز

المؤمن من المنافق، والمؤمن الراسخ في إيمانه الثابت على عزمته من المتلون السريع الزوال، ومع ذلك فإن الله سبحانه عفا عنهم بفضلهم كما قال: ولقد عفا عنكم.

قوله تعالى: إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ الإصعاد هو الذهاب والإبعاد في الأرض بخلاف الصعود فهو الارتقاء الى مكان عال يقال: أصعد في جانب البر أى ذهب فيه بعيداً، وصعد في السلم أى ارتقى، وقيل: إن الإصعاد ربما استعمل بمعنى الصعود.

والظرف متعلق بمقدر أى اذكروا اذ تصعدون، أو بقوله: صَيْرَفَكُمْ، أو بقوله لِيَبْتَلِيَكُمْ، -على ما قيل- وقوله: وَلَا تَلْوُونَ، من اللى بمعنى الالتفات و المل قال فى المجمع: ولا يستعمل إلا فى النفى لا يقال: لويت على كذا، انتهى.

وقوله: وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ، الأخرى مقابل الاولى و كون الرسول يدعو و هو فى أخراهم يدل على أنهم تفرقوا عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و هم سواد ممتد على طوائف أوليهم مبتعدون عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و أخراهم بقرب منه، و هو يدعوهم من غير أن يلتفت اليه لا-اولاهم ولا- أخراهم فتركوه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بين جموع المشركين و هم يصعدون فرارا من القتل.

نعم قوله تعالى قبيل هذا: و سيجزى الله الشاكرين- و قد مر تفسيره- يدل على أن منهم من لم يتزلزل فى عزمته و لم ينهزم لا فى أول الانهزام، و لا بعد شيوخ خبر قتل النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ على ما يدل عليه قوله: أَمْ فَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ، الآية.

و مما يدل عليه قوله: وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ أن خبر قتل النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ إنما انتشر بينهم بعد انهزامهم و إصعادهم.

قوله تعالى: فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمِّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ الخ؛ أى جازاكم غما بغم ليصرفكم عن لحزن على كذا، و هذا الغم الذى اثبوا به كيفما كان هو نعمه منه تعالى بدليل قوله: لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ، فإن الله

تعالى ذم في كتابه هذا الحزن كما قال: لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ (الحديد ٢٣) فهذا الغم الذي يصرفهم عن ذاك الحزن المذموم نعمه و موهبه فيكون هو الغم الطارى عليهم من جهه الندامه على ما وقع منهم و التحسر على ما فاتهم من النصر بسبب الفشل، و يكون حينئذ الغم الثانى فى قوله: بَغَمٌ، الغم الآتى من قبل الحزن المذكور، و الباء للبدليه، و المعنى: جازاكم غما بالندامه و الحسره على فوت النصر بدل غم بالحزن على ما فاتكم و ما أصابكم.

و من الجائز أن يكون قوله: فَأَذَابُكُمْ مضمنا معنى الإبدال فيكون المعنى: فأبدلكم غم الحزن من غم الندامه و الحسره ماثيا لكم، فينعكس المعنى فى الغمين بالنسبه الى المعنى السابق.

و على كل من المعنيين يكون قوله: فَأَذَابُكُمْ، تفريعا على قوله: وَ لَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ، و يتصل به ما بعده أعنى قوله: ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ، أحسن اتصال، و الترتيب: أنه عفا عنكم فأثابكم غما بغم ليصونكم عن الحزن الذى لا يرتضيه لكم ثم أنزل عليكم من بعد الغم امنه نعاسا.

و هاهنا وجه آخر يساعده ظهور السياق فى تفريع قوله: فَأَذَابُكُمْ، على ما يتصل به بمعنى أن يكون الغم هو ما يتضمنه قوله: إِذْ تُصَيِّدُونَ، و المراد بقوله: بَغَمٌ هو ما أدى اليه التنازع و المعصيه و هو إشراف المشركين عليهم من ورائهم، و الباء للسببيه و هذا معنى حسن، و على هذا يكون المراد بقوله: لِكَيْلَا تَحْزَنُوا، الخ؛ نيين لكم حقيقه الأمر لئلا تحزنوا، كما فى قوله تعالى: مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ الْآيَه (الحديد ٢٣).

فهذا ما يستقيم به نظم الآيه و اتساق الجمل المتعاقبه، و للمفسرين احتمالات كثيره فى الآيه من حيث ما عطف عليه قوله: فَأَذَابُكُمْ، و من حيث معنى الغم الأول و الثانى و معنى الباء و معنى قوله: لِكَيْلَا، ليست من الاستقامه على شىء، و لا جدوى فى نقلها و البحث عنها.

و على ما احتملناه من أحد معنيين يكون المراد مما فات في قوله: لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَيَّ مَا فَاتَكُمْ هو الغلبه و الغنيمه، و مما أصاب ما أصاب القوم من القتل و الجرح.

قوله تعالى: ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنًا نَعَسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ الْأَمْنَةَ بِالتَّحْرِيكِ الْأَمْنِ، و النعاس ما يتقدم النوم من الفتور و هو نوم خفيف، و نعاسا بدل من أمني للملازمه عاده، و ربما احتمل أن يكون أمني جمع آمن كطالب و طلبه، و هو حينئذ حال من ضمير عليكم، و نعاسا مفعول قوله: أَنْزَلَ، و الغشيان: الإحاطه.

و الآيه تدل على أن هذا النعاس النازل إنما غشى طائفه من القوم، و لم يعم الجميع بدليل قوله: طَائِفَةً مِنْكُمْ، و هؤلاء هم الذين رجعوا الى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بعد الانهزام و الإصعاد لما ندموا و تحسروا، و حاشا أن يعفو الله عنهم عفو رحمه و هم في حال الفرار عن الزحف و هو من كبائر المعاصي و الآثام و قد قال: و لقد عفا عنكم و الله ذو فضل على المؤمنين، و حاشا أن تشمل عنايته تعالى على مقترف الفحشاء و المنكر حين يقترف من قبل أن يتوب و قد عنى في حقهم حين أثابهم غما بغم لكيلا يحزنوا فيتقدر قلوبهم بما لا يرتضيه الله سبحانه على ما مر بيانه.

فهؤلاء بعض القوم و هم النادمون على ما فعلوا الرجوعون الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ المحترفون به، و كأن ذلك إنما كان حين فارق صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ جموع المشركين و عاد الى الشعب، و إن كان عودهم اليه تدريجا بعد العلم بأنه لم يقتل.

و أما البعض الآخر من القوم فهم الذين يذكروهم الله بقوله: وَ طَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ .

قوله تعالى: وَ طَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ هَذِهِ طَائِفَةٌ أُخْرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ نَعْنَى بِكُونِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ غَيْرُ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ أُخِيرًا بِقَوْلِهِ: وَ لِيُعْلَمَ الَّذِينَ ذَاقُوا وَ قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبِعْنَاكُمْ، الآيه؛ و هم الذين فارقوا جماعه المؤمنين من أول الأمر قبل القتال و اتخذوا هؤلاء المنافقون لهم شأن آخر سينبئ

اللّٰه بذلك.

و هؤلاء الطائفه الثانيه الموصوفون بأنهم قد أهتمهم أنفسهم لم يكرمهم اللّٰه بما أكرم به الطائفه الاولى من العفو و إثابه الغم ثم الأمنه و النعاس بل وكلهم الى أنفسهم فأهتمهم أنفسهم و نسوا كل شىء دونها.

و قد ذكر اللّٰه تعالى من أوصافهم وصفين اثنين و إن كان أحدهما من لوازم الآخر و فروعه، فذكر أنهم أهتمهم أنفسهم؛ و ليس معناه أنهم يريدون سعادته أنفسهم بمعناها الحقيقى فإن المؤمنين أيضا لا يريدون إلا سعادته أنفسهم فالإنسان بل كل ذى همامه و إرادته لا يريد إلا نفسه البتة، بل المراد: أن ليس لهم هم إلا حفظ حياتهم الدنيا و عدم الوقوع فى شبكه القتل فهم لا يريدون بدين أو غيره إلا إمتاع أنفسهم فى الدنيا و إنما ينتحلون بالدين ظنا منهم أنه عامل غير مغلوب، و أن اللّٰه لا يرضى بظهور أعدائه عليه، و إن كانت الأسباب الظاهريه لهم فهؤلاء يستدرون الدين ما در لهم، و إن انقلب الأمر و لم يسعدهم الجسد انقلبوا على أعقابهم القهقرى.

قوله تعالى: [□]يَظُنُّونَ بِاللّٰهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ [□]الى قوله: «لِلّٰهِ» أى ظنوا باللّٰه أمرا ليس بحق بل هو من ظنون الجاهليه فهم يصفونه بوصف ليس بحق بل من الأوصاف التى كان يصفه بها أهل الجاهليه، و هذا الظن أيا ما كان هو شىء يناسبه و يلازمه قولهم: هل لنا من الأمر من شىء، و يكشف عنه ما أمر النبى صلى اللّٰه عليه و آله و سلم أن يجيبهم به، و هو قوله: قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلّٰهِ فظاهر هذا الجواب أنهم كانوا يظنون أن بعض الأمر لهم و لذا لما غلبوا و فشا فيهم القتل تشككوا فقالوا: هل لنا من الأمر من شىء.

و بذلك يظهر أن الأمر الذى كانوا يرونه لأنفسهم هو الظهور و الغلبه، و إنما كانوا يظنونه لأنفسهم من جهه إسلامهم فهم قد كانوا يظنون أن الدين الحق لا يغلب و لا يغلب المتدين به لما أن على اللّٰه أن ينصره من غير قيد و شرط و قد وعدهم به.

ص: ٥٧٣

و هذا هو الظن بغير الحق، الذى هو ظن الجاهليه فإن وثنيه الجاهليه كانت تعتقد أن الله تعالى خالق كل شىء و أن لكل صنف من أصناف الحوادث كالرزق و الحياه و الموت و العشق و الحرب و غيرها، و كذا لكل نوع من الأنواع الكونيه كالإنسان و الأرض و البحار و غيرها ربا يدبر أمرها لا- يغلب على إرادته، و كانوا يعبدون هؤلاء الأرباب ليدروا لهم الرزق، و يجلبوا لهم السعاده، و يقوهم من الشرور و البلايا، و الله سبحانه كالمملك العظيم يفوض كل صنف من أصناف رعيته و كل شطر من أقطار ملكه الى وال تام الاختيار له أن يفعل ما يشاؤه فى منطقه نفوذه و حوزة ولايته.

و اذا ظن الظان أن الدين الحق لا يصير مغلوبا فى ظاهر تقدمه و النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم- و هو أول من يتحملة من ربه و يحمل أثقاله- لا يقهر فى ظاهر دعوته أو أنه لا يقتل أو لا يموت فقد ظن بالله غير الحق ظن الجاهليه فاتخذ لله أندادا، و جعل النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم ربا و ثنيا مفوضا اليه أمر الغلبه و الغنيمه، مع أن الله سبحانه واحد لا شريك له، اليه يرجع الأمر كله و ليس لأحد من الأمر شىء، و لذلك لما قال تعالى فيما تقدم من الآيات: ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين، قطع الكلام بالاعتراض فقال- يخاطب نبيه-: ليس لك من الأمر شىء لثلا يتوهم أن له صلّى الله عليه و آله و سلّم دخلا فى قطع أو كبت، و الله سبحانه هو الذى وضع سنه الأسباب و المسببات، فما كان سببه أقوى كان وقوعه أرجح سواء فى ذلك الحق و الباطل، و الخير و الشر، و الهدايه و الضلاله، و العدل و الظلم؛ و لا فرق فيه بين المؤمن و الكافر، و المحبوب و المبعوض، و محمد و أبى سفيان.

نعم لله سبحانه عنايه خاصه بدينه و بأوليائه يجرى نظام الكون بسببها جريا ينجر الى ظهور الدين و تمهد الأرض لأوليائه و العاقبه للمتقين.

و أمر النبوه و الدعوه ليس بمستثنى من هذه السنه الجاريه، و لذلك كلما توافقت الأسباب العاديه على تقدم هذا الدين و ظهور المؤمنين كبعض غزوات النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم كان ذلك، و حيث لم

يتوافق الأسباب كتحقق نفاق أو معصية الأمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أو فشل أو جزع كانت الغلبة و الظهور للمشركين على المؤمنين، وكذلك الحال في أمر سائر الأنبياء مع الناس فإن أعداد الأنبياء لكونهم أهل الدنيا، وقصرهم مساعيهم في عماره الدنيا، وبسط القدره، وتشديد القوه، و جمع الجموع كانت الغلبة الظاهرية و الظهور لهم على الأنبياء، فمن مقتول كزكريا، و مذبوح كيحیی، و مشرد كعیسی الى غير ذلك.

نعم اذا توقف ظهور الحق بحقانيته على انتقاض نظام العاده دون السنه الواقعيه و بعباره اخرى دار أمر الحق بين الحياه و الموت كان على الله سبحانه أن يقيم صلب الدين و لا يدمعه تدحض حجته، و قد مر شطر من هذا البحث في القول على الإعجاز في الجزء الأول من الكتاب، و في الكلام على أحكام الأعمال في الجزء الثاني منه.

و لارجع الى ما كنا فيه: فقول هؤلاء الطائفة الذين أهمتهم أنفسهم: هل لنا من الأمر من شيء، تشكك في حقيه الدين و قد أدرجوا في هيكله روح الوثنيه على ما مر بيانه، فأمر سبحانه نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يجيبهم فقال: قل إن الأمر كله لله، و قد خاطب نبيه قبل ذلك بقوله:

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ فَبين بذلك أن مله الفطره و دين التوحيد هو الذي لا يملك فيه الأمر إلا الله جل شأنه، و باقى الأشياء و منها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ليست بمؤثره شيئاً بل هي في حيطه الأسباب و المسببات و السنه الإلهيه التي تؤدي الى جريان ناموس الابتلاء و الامتحان.

قوله تعالى: يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ الْخِ، و هذا توصيف لهم بما هو أشد من قولهم: هل لنا من الأمر من شيء، فإنه كان تشكيكا في صوره السؤال، و هذا أعنى قولهم: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا ترجيح في هيئته الاستدلال، و لذلك أبدوا قولهم الأول للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و أخفوا قولهم الثاني لاشتماله على ترجيح الكفر على الإسلام.

فأمر الله تعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يجيبهم فقال: قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم

القتل الى مضاجعهم و لبيتلى الله ما فى صدوركم و ليمحص ما فى قلوبكم، فبين لهم:

اولاً: أن قتل من قتل منكم فى المعركة ليس لعدم كونكم على الحق، و عدم كون الأمر لكم على ما ترعمون بل لان القضاء الإلهى و هو الذى لا مناص من نفوذه و مضيه جرى على أن يضطجع هؤلاء المقتولون فى هذه المضاجع، فلو لم تكونوا خرجتم الى القتال لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم، فلا مفر من الأجل المسمى الذى لا تستأخرون عنه ساعه و لا تستقدمون.

و ثانياً: أن سنه الله جرت على عموم الابتلاء و التمحيص و هى واقعه بهم و بكم لا محاله، فلم يكن بد من خروجكم و وقوع هذا القتال حتى يحل المقتولون محلهم و ينالوا درجاتهم، و تحلوا أنتم محلكم فيتعين لكم أحد جانبي السعاده و الشقاوه بامتحان ما فى صدوركم من الأفكار، و تخليص ما فى قلوبكم من الإيمان و الشرك.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا اسْتَزَلَّ الشَّيْطَانُ إِيَّاهُمْ إِرَادَتَهُ وَقَوْعُهُمْ فِي الزَّلَّةِ، و لم يرد ذلك منهم إلا بسبب بعض ما كسبوا فى نفوسهم و من أعمالهم فإن السيئات يهدى بعضها الى بعض فإنها مبنيه على متابعه هوى النفس، و هو النفس للشىء هو لما يشاكلة.

و أما احتمال كون الباء للآله و كون ما كسبوا عين توليهم يوم الالتقاء فبعيد من ظاهر اللفظ فإن ظاهر «مَا كَسَبُوا» تقدم الكسب على التولى و الاستزلال.

و كيف كان فظاهر الآيه أن بعض ما قدموا من الذنوب و الآثام مكن الشيطان أن أغواهم بالتولى و الفرار، و من هنا يظهر أن احتمال كون الآيه ناظره الى نداء الشيطان يوم أحد بقتل النبى صلى الله عليه و آله و سلم على ما فى بعض الروايات ليس بشىء اذا لا دلالة عليه من جهة اللفظ.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ هذا العفو هو عن الذين تولوا، المذكورين فى صدر الآيه، و الآيه مطلقه تشمل جميع من تولى يومئذ فتعم الطائفتين

جميعا أعنى الطائفة التى غشيهـم النعاس و الطائفة التى أهمتهم أنفسهم، و الطائفتان مختلفتان بالتكـرم بإكرام الله و عدمه، و لكونهما مختلفتين لم يذكر مع هذا العفو الشامل لهما معا جهات الإكرام التى اشتمل عليها العفو المتعلق بالطائفة الاولى على ما تقدم بيانه.

و من هنا يظهر أن هذا العفو المذكور فى هذه الآيه غير العفو المذكور فى قوله: **وَ لَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ**، و من الدليل على اختلاف العفوين ما فى الآيتين من اختلاف اللحن ففرق واضح بين قوله تعالى: **وَ لَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ** وَ اللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حيث إنه كلام مشعر بالفضل و الرأفة و قد سماهم مؤمنين ثم ذكر إثابتهم غما بغم لكيلا يحزنوا ثم إنزاله عليهم أمنة نعاسا، و بين قوله تعالى: **وَ لَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ** إن الله غفور حلیم حيث ذكر العفو و سكت عن جميع ما أكرم الطائفة الاولى به ثم ختم الكلام بذكر حلمه و هو أن لا يعجل فى العقوبه و العفو الذى مع الحلم إغماض مع استبطان سخط.

فان قلت: إنما سوى بين الطائفتين من سوى بينهما لمكان ورود العفو عنهما جميعا.

قلت: معنى العفو مختلف فى الموردین بحسب المصداق و إن صدق على الجميع مفهوم العفو على حد سواء، و لا دليل على كون العفو و المغفره و ما يشابههما فى جميع الموارد سنخا واحدا، و قد بينا وجه الاختلاف (١).

[سوره آل عمران (٣): الآيات ١٥٦ الى ١٦٤]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحِبُّ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَ لَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَ لَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لِيَأْتِيَنَّكُمْ اللَّهُ بِخَيْرٍ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْغَالِبِينَ (١٥٩) إِنَّ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَ إِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَ عَلَى اللَّهِ فليتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) وَ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُعْلَلْ وَ مَنْ يُعْلَلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١) أَ فَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانِ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَا وَاهُ جَهَنَّمَ وَ بئسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٦٤)

ص: ٥٧٧

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا الخ؛ المراد بهؤلاء

الذين كفروا ما هو ظاهر اللفظ أعنى الكافرين دون المنافقين- كما قيل- لأن النفاق بما هو نفاق ليس منشأ لهذا القول- وإن كان المنافقون يقولون ذلك- وإنما منشؤه الكفر فيجب أن ينسب الى الكافرين.

و الضرب فى الأرض كناية عن المسافره، و غزى جمع غاز كطالب و طلب و ضارب و ضرب، و قوله: لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسِيرَةً، أى ليعذبهم بها فهو من قبيل وضع المغيا موضع الغايه، و قوله: وَ اللَّهُ يُحْيِي وَ يُمِيتُ، بيان لحقيقه الأمر التى أخطأ فيها الكافرون القائلون: لو كانوا، و هذا الموت يشمل الموت حتف الأنف و القتل كما هو مقتضى إطلاق الموت وحده على ما تقدم، و قوله: وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ فى موضع التعليل للنهى فى قوله: لَا تَكُونُوا، الخ.

و قوله: مَا مَاتُوا وَ مَا قُتِلُوا قدم فيه الموت على القتل ليكون النشر على ترتيب الف فى قوله: إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى، و لأن الموت أمر جار على الطبع و العاده المألوفه بخلاف القتل فإنه أمر استثنائى فقدم ما هو المألوف على غيره.

و محصل الآيه نهى المؤمنين أن يكونوا كالكافرين فيقولوا لمن مات منهم فى خارج بلده أو قومه، و فيمن قتل منهم فى غزاه: لو كانوا عندنا ما ماتوا و ما قتلوا فإن هذا القول يسوق الإنسان الى عذاب قلبى و نقمه إلهيه و هو الحسره الملقاه فى قلوبهم، مع أنه من الجهل فإن القرب و البعد منهم ليس بمحىي و مميت بل الإحياء و الإماتة من الشئون المختصه بالله وحده لا شريك له فليتقوا الله و لا يكونوا مثلهم فإن الله بما يعملون بصير.

قوله تعالى: وَ لئن قُتِلْتُمْ فى سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ الظاهر أن المراد مما يجمعون هو المال و ما يلحق به الذى هو عمدته البغيه فى الحياه الدنيا.

و قد قدم القتل هاهنا على الموت لأن القتل فى سبيل الله أقرب من المغفره بالنسبه الى الموت فهذه النكته هى الموجه لتقديم القتل على الموت، و لذلك عاد فى الآيه التاليه: و لئن

متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون الى الترتيب الطبيعي بتقديم الموت على القتل لفقد هذه النكته الزائده.

قوله تعالى: [□]فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ [□]الى آخر الآيه،الفظ هو الجافى القسى،و غلظ القلب كناية عن عدم رفته و رأفته،و الانفضاض التفرق.

و فى الآيه التفات عن خطابهم الى خطاب رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم،و أصل المعنى:فقد لان لكم رسولنا برحمه منا،و لذلك أمرناه أن يعفو عنكم و يستغفر لكم و يشاوركم فى الأمر و أن يتوكل علينا اذا عزم.

و نكته الالتفات ما تقدم فى أول آيات الغزوه أن الكلام فيه شوب عتاب و توبيخ،و لذلك اشتمل على بعض الإعراض فى ما يناسبه من الموارد و منها هذا المورد الذى يتعرض فيه لبيان حال من أحوالهم لها مساس بالاعتراض على النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم فإن تحزنهم لقتل منهم ربما دلهم على المناقشه فى فعل النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم،و رميه بأنه أوردتهم مورد القتل و الاستيصال، فأعرض الله تعالى عن مخاطبتهم و التفت الى نبيه صَلَّى الله عليه و آله و سلم فخاطبه بقوله: [□]فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ .

و الكلام متفرع على كلام آخر يدل عليه السياق،و التقدير:و اذا كان حالهم ما تراه من التشبه بالذين كفروا و التحسر على قتلاهم فبرحمه منا لنت لهم و إلا لانفضوا من حولك.و الله أعلم.

و قوله: [□]فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَ شاورَهُمْ [□]فى الأمر إنما سيق ليكون إمضاء لسيرته صَلَّى الله عليه و آله و سلم فإنه كذلك كان يفعل،و قد شاورهم فى أمر القتال قبيل يوم أحد،و فيه إشعار بأنه إنما يفعل ما يؤمر و الله سبحانه عن فعله راض.

و قد أمر الله تعالى نبيه صَلَّى الله عليه و آله و سلم أن يعفو عنهم فلا يرتب على فعالهم أثر المعصيه،و أن يستغفر فيسأل الله أن يغفر لهم-و هو تعالى فاعله لا محاله-و اللفظ و إن كان مطلقا لا يختص بالمورد

غير أنه لا- يشمل موارد الحدود الشرعيه و ما يناظرها و إلا لغى التشريع، على أن تعقيبه بقوله: **وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ لَا يَخْلُو عَنِ الْإِشْعَارِ** بأن هذين الأمرين إنما هما في ظرف الولاية و تدبير الامور العامه مما يجرى فيه المشاوره معهم.

و قوله: **فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**، و اذا أحببك كان وليا و ناصرا لك غير خاذلك، و لذا عقب الآية بهذا المعنى و دعا المؤمنين أيضا الى التوكل فقال: **إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ** و إن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ثم أمرهم بالتوكل بوضع سببه موضعه فقال: **و عَلَى اللَّهِ فليتوكل المؤمنون** أى لإيمانهم بالله الذى لا ناصر و لا معين إلا هو.

قوله تعالى: **وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ**، الغل هو الخيانه، قد مر فى قوله تعالى: **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ** (آل عمران ٧٩)، ان هذا السياق معناه تنزيه ساحه النبى عن السوء و الفحشاء بطهارته، و المعنى: حاشا أن يغل و يخون النبى ربه أو الناس (و هو أيضا من الخيانه لله) و الحال أن الخائن يلقى ربه بخيانه ثم توفى نفسه ما كسبت.

ثم ذكر أن رمى النبى بالخيانه قياس جائر مع الفارق فإنه متبع رضوان الله لا يعدو رضى ربه، و الخائن باء بسخط عظيم من الله و مأواه جهنم و بئس المصير، و هذا هو المراد بقوله: **أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ**، الآية.

و يمكن أن يكون المراد به التعريض للمؤمنين بأن هذه الأحوال من التعرض لسخط الله، و الله يدعوكم بهذه المواعظ الى رضوانه، و ما هما سواء.

ثم ذكر أن هذه الطوائف من المتبعين لرضوان الله و البائين بسخط من الله درجات مختلفه، و الله بصير بالأعمال فلا تزعموا أنه يفوته الحقيير من الخير أو شرفتسامحوا فى اتباع رضوانه أو البوء بسخطه.

قوله تعالى: **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**، فى الآيه التفات آخر من خطاب

المؤمنين الى تنزيلهم منزله الغيبه، وقد مر الوجه العام في هذه الموارد من الالتفات و الوجه الخاص بما هاهنا أن الآيه مسوقه سوق الامتنان و المَنَّ على المؤمنين لصفه إيمانهم و لذا قيل: على المؤمنين، و لا يفيد غير الوصف حتى لو قيل: الذين آمنوا، لأن المشعر بالعليه-على ما قيل- هو الوصف أو أنه الكامل في هذا الإشعار، و المعنى ظاهر.

و في الآيه أبحاث أخر سيأتي شطر منها في المواضع المناسبه لها إن شاء الله العزيز.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ١٦٥ الى ١٧١]

اشاره

أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَ مَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فِإِذْ نَادَى اللَّهُ وَ لِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ فِتْنَاءَ لَا تَبْعُنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِلْإِخْوَانِهِمْ وَقَعِدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلْ فَادْرَأْوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) وَ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلِ وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)

قوله تعالى: أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا، لما نهاهم أن يكونوا كالذين كفروا في التحزن لقتلاهم و التحسر عليهم بيان أن أمر الحياه و الموت الى الله وحده لا إليهم حتى يدورا مدار قربهم و بعدهم و خروجهم الى القتال أو قعودهم عنه رجوع ثانيا الى بيان سببه القريب على ما جرت عليه سنه الأسباب، فبين أن سببه إنما هو المعصيه الواقعه يوم احد منهم و هو معصيه الرماه بتخليه مراكرهم، و معصيه من تولى منهم عن القتال بعد ذلك، و بالجمله سببه معصيتهم الرسول - و هو قائدهم - و فشلهم و تنازعهم فى الأمر و ذلك سبب للانهازم بحسب سنه الطبيعه و العاده.

فالآيه فى معنى قوله: أ تدرؤن من أين أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا؟ إنما أصابتكم من عند أنفسكم و هو إفسادكم سبب الفتح و الظفر بأيديكم و مخالفتكم قائدكم و فشلكم و اختلاف كلمتكم.

و قد وصفت المصيبه بقوله: قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا و هو إشاره الى مقايسه ما أصابهم الكفار يوم أحد، و هو قتل سبعين رجلا منهم بما أصابوا الكفار يوم بدر و هو مثلا السبعين فإنهم قتلوا منهم يوم بدر سبعين رجلا و أسروا سبعين رجلا.

و فى هذا التوصيف تسكين لطيش قلوبهم و تحقير للمصيبه فإنهم اصيبوا من أعدائهم بنصف ما أصابوهم فلا ينبغى لهم أن يحزنوا أو يجزعوا.

و قيل: إن معنى الآية: إنكم أنفسكم اخترتم هذه المصيبه، و ذلك أنهم اختاروا الفداء من

الأسرى يوم بدر، و كان الحكم فيهم القتل، و شرط عليهم أنكم إن قبلتم الفداء قتل منكم فى القابل بعدتهم فقالوا: رضينا فإننا نأخذ الفداء و ننتفع به، و اذا قتل منا فيما بعد كنا شهداء.

و يؤيد هذا الوجه بل يدل عليه ما ذيل به الآيه أعنى قوله: إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ اذ لا تلائم هذه فقره الوجه السابق البتة إلا بتعسف، و سيجىء روايته عن أئمة أهل البيت عليهم السّلام فى البحث الروائى الآتى.

قوله تعالى: وَ مَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجُمُعَاتِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَاتِينَ؛ الآيه الاولى تؤيد ما تقدم أن المراد بقوله: قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ، اختيارهم الفداء من أسرى يوم بدر، و شرطهم على أنفسهم لله ما شرطوا لإصابه هذه المصيبة بإذن الله، و أما الوجه الأول المذكور و هو أن المعنى أن سبب إصابه المصيبة القريب هو مخالفتكم فلا تلاؤم ظاهرا بينه و بين نسبه المصيبة الى إذن الله و هو ظاهر.

فعلى ما ذكرنا يكون ذكر استناد إصابه المصيبة الى إذن الله بمنزله البيان لقوله: هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ، و ليكون توطئه لانضمام قوله: وَ لِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ، و بانضمامه يتمهد الطريق للتعرض لحال المنافقين و ما تكلموا به و جوابه و بيان حقيقه هذا الموت الذى هو القتل فى سبيل الله.

و قوله: أَوْ اذْفَعُوا أَى لو لم تقاتلوا فى سبيل الله فادفعوا عن حريمكم و أنفسكم و قوله: هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ، اللام بمعنى الى فهذا حالهم بالنسبه الى الكفر الصريح، و أما النفاق فقد واقعه بفعلهم ذلك.

و قوله: «يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ» ، ذكر الأفواه للتأكيد، و للتقابل بينها و بين القلوب.

قوله تعالى: الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ، المراد بإخوانهم إخوانهم فى النسب و هم القتلى، و إنما ذكر اخوتهم لهم ليكون مع انضمام قوله: وَقَعَدُوا

أوقع تعبير و تأنيب عليهم فإنهم قعدوا عن إمداد إخوانهم حتى أصابهم ما أصابهم من القتل الذريع، وقوله: قُلْ فَادْرَأُوا جِوَابَ عَنْ قَوْلِهِمْ ذَاكَ؛ وَالدَّرءُ: الدَّفْعُ.

قوله تعالى: وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا الْآيَةَ؛ فِي الْآيَةِ التَّفَاتِ عَنْ خُطَابِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى خُطَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَالْوَجْهَ فِيهِ مَا تَكَرَّرَ ذَكَرَهُ فِي تَضَاعِيفِ هَذِهِ الْآيَاتِ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْخُطَابُ تَمَمَهُ الْخُطَابُ فِي قَوْلِهِ: قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

و المراد بالموت بطلان الشعور و الفعل، و لذا ذكرهما في قوله: بَلْ أَحْيَاءٌ، الخ؛ حيث ذكر الارتزاق و هو فعل، و الفرح الاستبشار و معهما شعور.

قوله تعالى: فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ الْآيَةَ؛ الْفَرَحُ ضِدُّ الْحُزْنِ، وَ الْبَشَارَةُ وَ الْبُشْرَى مَا يَسْرُكُ مِنَ الْخَبْرِ وَ الْاسْتَبْشَارُ طَلَبُ السَّرُورِ بِالْبُشْرَى، وَ الْمَعْنَى: أَنَّهُمْ فَرِحُوا بِمَا وَجَدُوهُ مِنَ الْفَضْلِ الْإِلَهِيِّ الْحَاضِرِ الْمَشْهُودِ عِنْدَهُمْ، وَ يَطْلُبُونَ السَّرُورَ بِمَا يَأْتِيهِمْ مِنَ الْبُشْرَى بِحَسَنِ حَالٍ مِنْ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَنْ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ.

من ذلك يظهر أولاً أن هؤلاء المقتولين في سبيل الله يأتيهم و يتصل بهم أخبار خيار المؤمنين الباقين بعدهم في الدنيا.

و ثانياً أن هذه البشرى هي ثواب أعمال المؤمنين و هو أن لا خوف عليهم و لا هم يحزنون و ليس ذلك إلا بمشاهدتهم هذا الثواب في دارهم التي هم فيها مقيمون فإنما شأنهم المشاهدة دون الاستدلال ففي الآية دلالة على بقاء الإنسان بعد الموت ما بينه و بين يوم القيامة، و قد فصلنا القول فيه في الكلام على نشأة البرزخ في ذيل قوله تعالى: وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ الْآيَةَ (البقره ١٥٤).

قوله تعالى: يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلِ الْآيَةِ؛ هَذَا الْاسْتَبْشَارُ أَعْمٌ مِنَ الْاسْتَبْشَارِ بِحَالٍ غَيْرِهِمْ وَ بَحَارِ أَنْفُسِهِمْ وَ الدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ،

فإنه بإطلاقه شامل للجميع، ولعل هذه هي النكته في تكرار الاستبشار و كذا تكرار الفضل فتدبر في الآية.

وقد نكر الفضل و النعمه و أبهم الرزق في الآيات ليذهب ذهن السامع فيها كل مذهب ممكن؛ ولذا أبهم الخوف و الحزن ليدل في سياق النفي على العموم.

و التدبر في الآيات يعطى أنها في صدد بيان أجر المؤمنين أولاً، و أن هذه الأجر رزقهم عند الله سبحانه ثانياً، و أن هذا الرزق نعمه من الله و فضل ثالثاً، و أن الذى يشخص هذه النعمه و الفضل هو أنهم لا خوف عليهم و لا هم يحزنون رابعاً.

و هذه الجملة أعنى قوله: **أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** كلمه عجيبه كلما أمعنت في تدبرها زاد في اتساع معناها على لطف ورقه و سهوله بيان، و أول ما يلوح من معناها أن الخوف و الحزن مرفوعان عنهم، و الخوف إنما يكون من أمر ممكن محتمل يوجب انتفاء شىء من سعادة الإنسان التى يقدر نفسه واجده لها، و كذا الحزن إنما يكون من جهة أمر واقع يوجب ذلك؛ فالبليه أو كل محذور إنما يخاف منها اذا لم يقع بعد فاذا وقعت زال الخوف و عرض الحزن فلا خوف بعد الوقوع و لا حزن قبله.

فارتفاع مطلق الخوف عن الإنسان إنما يكون اذا لم يكن ما عنده من وجوه النعم في معرض الزوال، و ارتفاع مطلق الحزن إنما يتيسر له اذا لم يفقد شيئاً من أنواع سعادته لا ابتداء و لا بعد الوجدان، فرفعه تعالى مطلق الخوف و الحزن عن الإنسان معناه أن يفيض عليه كل ما يمكنه أن يتنعم به و يستلذه، و أن لا يكون ذلك في معرض الزوال، و هذا هو خلود السعادة للإنسان و خلوده فيها.

و من هنا يتضح أن نفي الخوف و الحزن هو بعينه ارتزاق الإنسان عند الله فهو سبحانه يقول: **وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ (آل عمران ١٩٨/)**، و يقول **وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بِأَقْبَرُ (النحل ٩٦/)** فالآيتان تدلان على أن ما عند الله نعمه باقيه لا يشوبها نقمه و لا يعرضها فناء.

و يتضح أيضا أن نفيهما هو بعينها هو بعينه إثبات النعمة و الفضل و هو العطيء لكن تقدم فى أوائل الكتاب و سيجىء فى قوله تعالى: مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ (النساء ٦٩)، أن النعمة اذا اطلقت فى عرف القرآن فهى الولاية الإلهية، و على ذلك فالمعنى: أن الله يتولى أمرهم و يخصصهم بعطيءه منه.

و أما احتمال أن يكون المراد بالفضل الموهبة الزائده على استحقاقهم بالعمل، و النعمة ما بحذائه فلا يلائمه قوله: وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّ الْأَجْرَ يُؤْذَنُ بِالْإِسْتِحْقَاقِ، و قد عرفت أن هذه الفقرات أعنى قوله: عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَقُونَ و قوله: فَرِحِينَ بِمَا آخَرُوا قَوْلَهُ: وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ مآلها الى حقيقه واحده.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ١٧٢ الى ١٧٥]

اشاره

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالُوا لَهْمُ النَّاسِ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسِّسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذِكُّمُ الشَّيْطَانِ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)

بيان:

قوله تعالى: الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ الْآيَةَ؛ الاستجابة و الإجابة بمعنى

واحد- كما قيل -و هي أن تسأل شيئا فتجاب بالقبول.

و لعل ذكر الله و الرسول مع جواز الاكتفاء فى المقام بذكر أحد اللفظين إنما هو لكونهم فى وقعه أحد عصوا الله و الرسول، فأما هو تعالى فقد عصوه بالفرار و التولى و قد نهاهم الله عنه و أمر بالجهاد، و أما الرسول فقد عصوه بمخالفه أمره الذى أصدره على الرماه بلزوم مراكزهم و حين كانوا يصعدون و هو يدعوهم فى أخراهم فلم يجيبوا دعوته، فلما استجابوا فى هذه الوقعه وضع فيها بحذاء تلك الوقعه استجابتهم لله و الرسول.

و قوله: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَ اتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ، قصر الوعد على بعض أفراد المستجيبين لأن الاستجابة فعل ظاهرى لا يلازم حقيقة الإحسان و التقوى الذين عليهما مدار الأجر العظيم، و هذا من عجيب مراقبه القرآن فى بيانه حيث لا يشغله شأن عن شأن، و من هنا يتبين أن هؤلاء الجماعه ما كانوا خالصين لله فى أمره بل كان فيهم من لم يكن محسناً متقياً يستحق عظيم الأجر من الله سبحانه؛ و ربما يقال: إن «من» فى قوله: «مِنْهُمْ» بيانیه كما قيل مثله فى قوله تعالى: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ -الى أن قال:- وَ عَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْرًا عَظِيمًا (الفتح ٢٩)، و هو تأول بما يدفعه السياق.

و يتبين أيضا أن ما يمدحهم به الله سبحانه فى قوله: الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ، إلى آخر الآيات؛ من قبيل وصف البعض المنسوب إلى الكل بعنايه لفظيه.

قوله تعالى: الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ الْآيَةَ؛ الناس هو الأفراد من الإنسان من حيث عدم أخذ ما يتميز به بعضهم من بعض، و الناس الأول غير الثانى، فإن الثانى هو العدو الذى كان يجمع الجموع، و أما الأول فهم الخاذلون المثبطون الذى كانوا يقولون ما يقولون ليخذلوا المؤمنين عن الخروج إلى قتال المشركين، فالناس الثانى اريد به المشركون، و الناس الأول أيديهم على المؤمنين و عيونهم فيهم، و ظاهر الآيه كونهم عده

و جماعه لا واحدا، و هذا يؤيد كون الآيات نازله فى قصه خروج النبى صلى الله عليه و آله و سلم فىمن بقى من أصحابه بعد أحد فى أثر المشركين دون قصه بدر الصغرى، و سيجىء القستان فى البحث الروائى الآتى.

و قوله: **قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ**، أى جمعوا جمعهم لقتالكم ثانيا (و الله أعلم).

و قوله: **فَزَادَهُمْ إِيمَانًا**، و ذلك لما فى طبع الإنسان أنه إذا نهى عما يريد و يعزم عليه، فإن لم يحسن الظن بمن ينهاه كان ذلك إغراء فأوجب انتباهه قواه و اشتدت بذلك عزمته، و كلما أصر عليه بالمنع أصر على المضى على ما يريد و يقصده، و هذا إذا كان الممنوع يرى نفسه محققا معذورا فى فعالة أشد تأثيرا من غيره، و لذا كان المؤمنون كلما لامهم فى أمر الله لائم أو منعهم مانع زادوا قوه فى إيمانهم و شده فى عزمهم و بأسهم.

و يمكن أن يكون زياده إيمانهم لتأييد أمثال هذه الأخبار ما عندهم من خبر الوحي أنهم سيؤذون فى جنب الله حتى يتم أمرهم بإذن الله و قد وعدهم النصر و لا يكون نصر إلا فى نزال و قتال.

و قوله: **وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ** أى كافينا الله و أصل الحسب من الحساب لأن الكفايه بحساب الحاجه، و هذا اكتفاء بالله بحسب الإيمان دون الأسباب الخارجيه الجارويه فى السنه الإلهيه و الوكيل هو الذى يدبر الأمر عن الانسان، فمضمون الآيه يرجع الى معنى قوله:

وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ (الطلاق ٣)، و لذلك عقب قوله:

وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ بقوله: **فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ آلِهِمْ وَ فَضَّلِ اللَّهُ وَ فَضَّلِ لَمْ يَمَسْسِهِمْ سُوءٌ، السخ؛ ليكون تصديقا لوعده تعالى، ثم حمدهم إذ اتبعوا رضوانه فقال: وَ اتَّبِعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١).**

ص: ٥٨٩

قوله تعالى: ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ الْآيَةَ؛ ظاهر الآيه أن الإشارة إلى الناس الذين قالوا لهم ما قالوا، فيكون هذا من الموارد التي اطلق فيها القرآن الشيطان على الإنسان كما يظهر ذلك من قوله: مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (الناس ١٦)، ويؤيده قوله تعالى بعد ذلك: فلا تخافوهم أي الناس القائلين لكم ما قالوا لأن ذلكم الشيطان؛ و سنبحث في هذا المعنى بما يكشف القناع عن وجه حقيقته إن شاء الله تعالى (١).

[سوره آل عمران (٣): الآيات ١٧٦ الى ١٨٠]

اشاره

وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزًّا فِي الْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧) وَ لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ لِيُرْدَادُوا إِنَّمَا وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٧٨) مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَتَقْنَا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩) وَ لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَنْخَلُوعُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ لِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)

ص: ٥٩٠

قوله تعالى: **لَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِلَىٰ آخِرِ الْأَيَّامِ؛** تسليه و رفع للحزن ببيان حقيقة الأمر فإن مسارعتهم في الكفر و تظاهرهم على إطفاء نور الله و غلبتهم الظاهره أحيانا ربما أوجبت أن يحزن المؤمن كأنهم غلبوا الله سبحانه في إرادته إعلاء كلمه الحق لكنه إذا تدبر في قضيه الامتحان العام استيقن أن الله هو الغالب و أنهم جميعا واقعون في سبيل الغايات يوجهون إليها ليتم لهم الهداياه التكوينية و التشريعيه إلى غايات أمرهم فالكافر يوجه به بواسطه إشباعه بالعافيه و النعمه و القدره- و هو الاستدراج و المكر الإلهي- إلى آخر ما يمكنه أن يركبه من الطغيان و المعصيه، و المؤمن لا- يزل يحكك به محك الامتحان ليخلص ما في باطنه من الإيمان المشوب بغيره، فيخلص لله أو يخلص شركه فيهبط في مهبط غيره من أولياء الطاغوت و أئمه الكفر.

فمعنى الآية: لا يحزنك الذين يسرعون و لا يزال يشتد سرعتهم في الكفر فإنك إن تحزن فإنما تحزن لما تظن أنهم يضرون الله بذلك و ليس كذلك فهم لا يضرون الله شيئا لأنهم مسخرون لله يسلك بهم في سير حياتهم إلى حيث لا يبقى لهم حظ في الآخرة (و هو آخر حدهم في الكفر) و لهم عذاب أليم فقوله: **لَا يَحْزُنُكَ**، أمر إرشادي، و قوله: **إِنَّهُمْ**، الخ؛ تعليل للنهي، و قوله: **يُرِيدُ اللَّهُ**، الخ؛ تعليل و بيان لعدم ضررهم.

ثم ذكر تعالى نفى ضرر جميع الكافرين بالنسبه إليه أعم من المسارعين في الكفر و غيرهم، و هو كالبيان الكلي بعد البيان الجزئي يضح أن يعلل به النهي (لا يحزنك) و أن يعلل به علته

(إنهم لن يضرُوا، الخ) لأنه أعمّ يعلل به الأخص، والمعنى: وإنما قلنا إن هؤلاء المسارعين لا يضرُونَ الله شيئاً لأن الكافرين جميعاً لا يضرُونه شيئاً.

قوله تعالى: **وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا**، لما طيب نفس نبيه في مسارعه الكفار في كفرهم أن ذلك في الحقيقة تسخير إلهي لهم لينساقوا إلى حيث لا يبقى لهم حظ في الآخرة عطف الكلام إلى الكفار أنفسهم، فيبين أنه لا ينبغي لهم أن يفرحوا بما يجدونه من الإملاء والإمهال الإلهي فإن ذلك سوق لهم بالاستدراج إلى زيادة الإثم، و وراء ذلك عذاب مهين ليس معه إلا الهوان، كل ذلك بمقتضى سنه التكميل.

قوله تعالى: **مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ** الخ؛ ثم عطف الكلام إلى المؤمنين فيبين أن سنه الابتلاء جاريه فيهم لئتم تكميلهم أيضاً فيخلص المؤمن الخالص من غيره، ويتميز الخبيث من الطيب.

ولما أمكن أن يتوهم أن هناك طريقاً آخر إلى تمييز الخبيث من الطيب وهو أن يطلعهم على الخبثاء حتى يتميزوا منهم فلا يقاسوا جميع المحن والبلايا التي يقاسونها بسبب اختلاط المنافقين والذين في قلوبهم مرض بهم فدفع هذا الوهم بأن علم الغيب مما استأثر الله به نفسه فلا يطلع عليه أحداً إلا من اجتبى من رسله فإنه ربما أطلععه عليه بالوحي، وذلك قوله تعالى:

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ .

ثم ذكر أنه لما لم يكن من الابتلاء والتكميل محيد فآمنوا بالله و رسله حتى تنسلخوا في سلك الطيبين دون الخبثاء، غير أن الإيمان وحده لا يكفي في بقاء طيب الحياه حتى يتم الأجر إلا بعمل صالح يرفع الإيمان إلى الله و يحفظ طيبه، ولذلك قال أولاً: **فَآمَنُوا بِاللَّهِ** و رسله ثم تممه ثانياً بقوله: **وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ .**

قوله تعالى: **وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ** بما آتاهم الله من فضله الآية؛ لما بين حال إملاء الكافرين و كان الحال في البخل بالمال و عدم إنفاقه في سبيل الله مثله، فإن

البخيل فرح فخور بما يجمعه من المال عطف تعالى الكلام إليهم و بين أنه شر لهم، وفي التعبير عن المال بقوله: **بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ** مِنْ فَضْلِهِ إشعار بوجه لومهم و ذمهم، وقوله: **سَيُطَوَّقُونَ**، الخ؛ في مقام التعليل لكون البخل شراً لهم، وقوله: **وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ**، الظاهر أنه حال من يوم القيامة، وكذا قوله: **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**.

و يحتمل على أن يكون قوله: **وَلِلَّهِ مِيرَاثُ حَالاً** من فاعل قوله يبخلون، وقوله: **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ حَالاً** منه أيضاً أو جملة مستأنفة.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ١٨١ الى ١٨٩]

اشاره

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَفَتَلَهُمُ الْآيَاتُ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْخَرْبِ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ الْإِنْسَانِ الْأُولَىٰ نُؤْمِنُ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بَقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ الْأَنْبَارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَ بِالذِّكْرِ قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَ الزُّبُرِ وَ الْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَ إِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْرِحَ عَنِ النَّارِ وَ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُزُورِ (١٨٥) لِكَيْتَلُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ وَ لَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَىٰ كَثِيرًا وَ إِنْ نَصَبِرُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦) وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَ لَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَ اشْتَرَوْا بِهِ تَمَنَّا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَ يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبْهُمْ بِمَفَازِهِ مِنَ الْعَذَابِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩)

قوله تعالى: لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ الْقائلون هم اليهود بقرينه ما فى ذيل الكلام من حديث قتلهم الأنبياء و غير ذلك.

و إنما قالوا ذلك لما سمعوا أمثال قوله تعالى: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا الْآيه (البقره ٢٤٥/) و يشهد بذلك بعض الشهاده اتصاله بالآيه السابقه: و لا يحسبن الذين يبخلون، الْآيه.

أو أنهم قالوا ذلك لما رأوا فقر عامه المؤمنين و فاقتهم، فقالوا ذلك تعريضا بأن ربهم لو كان غنيا لغار لهم و أغناهم فليس إلا فقيرا و نحن أغنياء.

قوله تعالى: سَيَنْكُتُ الْمَاءُ قَالُوا وَ قَتَلَهُمُ الْآثِمِينَ بغير حق الْآيه؛ المراد بالكتابه الحفظ و التثبيت أو الكتابه فى صحائف أعمالهم، و المآل واحد، و المراد بقتل الأنبياء بغير حق القتل على العرفان و العمد دون السهو و الخطأ و الجهاله، و قد قارن الله قولهم هذا

بقتلهم الأنبياء لكونه قولاً عظيماً، وقوله: عَذَابَ الْحَرِيقِ، الحريق النار أو اللهب وقيل: هو بمعنى المحرق.

قوله تعالى: ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ إِلَى آيَةٍ؛ أى بما قدمتم أمامكم من العمل ونسب إلى الأيدي لأنها آله التقديم غالباً، وقوله: وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ عطف على قوله:

بِمَا قَدَّمْتُمْ، و تعليل للكتابه و العذاب، فلو لم يكن ذلك الحفظ و الجزاء لكان إهمالاً لأمر نظام الأعمال و فى ذلك ظلم كثير بكثره الأعمال فيكون ظلاماً لعباده تعالى عن ذلك.

قوله تعالى: الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَاهَدَ إِلَيْنَا الْآيَةَ؛ نعت للذين قبله و العهد هو الأمر، و القربان ما يتقرب به من النعم و غيره، و أكل النار كناية عن إحراقها، و المراد بقوله: قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي، أمثال زكريا و يحيى من أنبياء بنى إسرائيل المقتولين بأيديهم.

قوله تعالى: فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الْآيَةَ؛ تسليه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم فى تكذيبهم له؛ و الزبر جمع زبور و هو كتاب الحكم و المواعظ، و قد اريد بالزبر و الكتاب المنير مثل كتاب نوح و صحف إبراهيم و التوراه و الإنجيل.

قوله تعالى: كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ، الآيه تتضمن الوعد للمصدق و الوعيد للمكذب و قد بدأ فيها بالحكم العام المقضى فى حق كل ذى نفس، و التوفيه هو الإعطاء الكامل، و قد استدل بعضهم بالآيه على ثبوت البرزخ لدلالاتها على سبق بعض الإعطاء و أن الذى فى يوم القيامة هو الإعطاء الكامل، و هو استدلال حسن، و الزحزحه هو الإبعاد، و أصله تكرار الجذب بعجله، و الفوز الظفر بالبعيه، و الغرور مصدر غر أو هو جمع غار.

قوله تعالى: لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ الْآيَةَ؛ الإبلاء الاختبار، بعد ما ذكر سبحانه جريان البلاء و الإبلاء على المؤمنين، ثم ذكر قول اليهود و هو مما من شأنه أن يوهن عزم المؤمنين أخبرهم بأن هذا الإبلاء الإلهي و الأقاويل الموزيه من أهل الكتاب و المشركين ستكرر على المؤمنين، و يكثر استقبالها إياهم و قرعها سمعهم فعليهم أن يصبروا و يتقوا حتى

يعصمهم ربهم من الزلل و الفشل، و يكونوا أرباب عزم و إرادة، و هذا إخبار قبل الوقوع ليستعدوا لذلك استعدادهم، و يوطنوا عليه أنفسهم.

و قد وضع في قوله: وَ لَتَسْمَعَنَّ إِلَى قَوْلِهِ: أَدَى كَثِيرًا، الأذى الكثير موضع القول و هو من قبيل وضع الأثر موضع المؤثر مجازاً.

قوله تعالى: وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ، النبذ الطرح، و نبذه وراء ظهره كالمثل و يراد به الترك و عدم الاعتناء كما أن قولهم: جعله نصب عينيه كالمثل يراد به الأخذ و اللزوم.

قوله تعالى: لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ، أى بما أنعم عليهم من المال و لازمه حب المال و البخل به، و المفازة النجاه و إنما هلك هؤلاء لأن قلوبهم تعلقت بالباطل فلا ولايه للحق عليهم.

ثم ذكر تعالى حديث ملكه للسموات و الأرض، و قدرته على كل شيء، و هذان الوصفان يصلحان لتعليل مضامين جميع ما تقدم من الآيات.

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٩٠ الى ١٩٩]

إشارة

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَمَّا كَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَمَّا دَخَلْتَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ نُوبًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ النَّوَابِ (١٩٥) لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨) وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩)

بيان:

قوله تعالى: **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**، كأن المراد بالخلق كيفية وجودها و آثارها و أفعالها من حركة و سكون و تغيير و تحول فيكون خلق السموات و الأرض

ص: ٥٩٧

و اختلاف الليل و النهار مشتملا على معظم الآيات المحسوسه و قد تقدم بيانها فى سورة البقره و تقدم أيضا معنى اولى الألباب.

قوله تعالى: الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا نَّحْوَهُ أَي يذكرون الله فى جميع حالاتهم من القيام و القعود و الاضطجاع، و قد مر البحث فى معنى الذكر و التفكير، و محصل معنى الآيتين أن النظر فى آيات السموات و الأرض و اختلاف الليل و النهار أورثهم ذكرا دائما لله فلا ينسونه فى حال، و تفكرا فى خلق السموات و الأرض يتذكرون به أن الله سيبعثهم للجزاء فيسألون عندئذ رحمته و يستنجزون وعده.

قوله تعالى: رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا، إِنَّمَا قِيلَ «هَذَا» مع كون المشار إليه جمعا و مؤنثا إذ الغرض لا يتعلق بتمييز أشخاصها و أسمائها، و الجميع فى أنها خلق واحد، و هذا نظير ما حكى الله تعالى من قول إبراهيم: فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ (الأنعام ٧٨)، لعدم علمه بعد بحقيقتها و اسمها سوى أنها شىء.

و الباطل ما ليس له غايه يتعلق به الغرض قال تعالى: فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَ أَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ (الرعد ١٧) و لذلك لما نفوا البطالين عن الخلق لاح لهم أن الله سيحشر الناس للجزاء، و أنه تعالى سيجزى هناك الظالمين جزاء خزى و هو النار، و لا راد يرد مصلحه العقاب و إلا لبطل الخلقه، و هذا معنى قولهم: فقنا عذاب النار ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيتة و ما للظالمين من أنصار.

قوله تعالى: رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا، المراد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، و قوله: أَنْ آمَنُوا، بيان للنداء و أن تفسيريه، و لما ذكروا إيمانهم بالنادى و هو الرسول و هو يخبرهم بامور عن الله تعالى يحذرهم من بعضها كالذنوب و السيئات و الموت على الكفر و الذنب، و يرغبهم فى بعضها كالمغفرة و الرحمة و تفاصيل الجنة التى وعد الله عباده المؤمنين الأبرار بها سألوها ربهم أن يغفر لهم و يكفر عن سيئاتهم و يتوفاهم مع الأبرار و سألوه أن ينجزهم ما وعدهم من الجنة و الرحمة

على ما ضمنه لهم الرسول ياذن الله فقالوا: فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا، الخ؛ فقوله تعالى: عَلَيَّ رُسُلِكَ أَي حَمَلْتَهُ عَلَى رِسْلِكَ وَ ضَمَنَهُ عَلَيْكَ الرِّسْلَ، وقوله: وَلَا تُخْزِنَا، أَي يَخْلَافُ الْوَعْدَ، ولذا عقبه بقوله: إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ .

وقد تبين من الآيات أنهم إنما حصلوا الاعتقاد بالله و اليوم الآخر و بأن لله رسلا بالنظر في الآيات و أما تفاصيل ما جاء به النبي فمن طريق الإيمان بالرسول فهم على الفطره فيما يحكم به الفطره، و على السمع و الطاعه فيما فيه ذلك.

قوله تعالى: فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ الخ؛ التعبير بالرب و إضافته اليهم يدل على ثوران الرحمه الإلهيه و يدل عليه أيضا التعميم الذى فى قوله: أَنَّى لَا أَضِيعُ عَمَلًا عَامِلٍ مِنْكُمْ ، فلا فرق عنده تعالى بين عمل و عمل، و لا بين عامل و عامل.

و على هذا فقوله تعالى فى مقام التفريع: فالذين هاجروا و اخرجوا من ديارهم و اودوا، الخ؛ فى مقام تفصيل صالحات الأعمال لتثبيت ثوابها، و الواو للتفصيل دون الجمع حتى يكون لبيان ثواب المستشهدين من المهاجرين فقط.

و الآيه مع ذلك لا تفصل إلا الأعمال التى تندب إليها هذه السوره و تبالغ فى التحريص و الترغيب فيها، و هو إيتار الدين على الوطن و تحمل الأذى فى سبيل الله و الجهاد.

و الظاهر أن المراد بالمهاجره ما يشتمل المهاجره عن الشرك و العشيره و الوطن لإطلاق اللفظ، و لمقابله قوله: وَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ، و هو هجره خاصه، و لقوله بعده: لا- كفرن عنهم سيئاتهم، فإن ظاهر السيئات فى القرآن صغائر المعاصى فهم هاجروا الكبائر بالاجتناب و التوبه، فالمهاجره المذكوره أعم فافهم ذلك.

قوله تعالى: لَا يَغْرُنَّكَ تَلَلُ الخ؛ هذا دفع الدخل و التقدير: هذا حال أبرار المؤمنين و هذا أجرهم، و أما ما ترى فيه الكفار من رفاه الحال و ترف الحياه و در المعاش فلا يغرنك ذلك (الخطاب للنبي و المقصود به الناس) لأنه متاع قليل لا دوام له.

قوله تعالى: لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ الخ؛ النزول ما يعد للنازل من طعام و شراب و غيرهما، و المراد بهم الأبرار بدليل ما فى آخر الآيه، و هذا يؤيد ما ذكرناه من أن الآيه السابقه دفع دخل.

قوله تعالى: وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الخ؛ المراد أنهم مشاركون للمؤمنين فى حسن الثواب، و الغرض منه أن السعاده الاخرويه ليست جنسيه حتى يمنع منها أهل الكتاب و إن آمنوا بل الأمر دائر مدار الإيمان بالله و برسله فلو آمنوا كانوا هم و المؤمنون سواء.

و قد نفى عن هؤلاء الممدوحين من أهل الكتاب ما ذمهم الله به فى سوابق الآيات و هو التفريق بين رسل الله، و كتمان ما اخذ ميثاقهم لبيانه اشتراء بآيات الله ثمنا قليلا (١)(٢).

[سوره آل عمران (٣): آيه ٢٠٠]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا الخ؛ الأوامر مطلقه فالصبر يراد به الصبر على الشدائد، و الصبر فى طاعه الله، و الصبر عن معصيته؛ و على أى حال هو الصبر من الفرد بقرينه ما يقابله.

و المصابره هى التصبر و تحمل الأذى جماعه باعتماد صبر البعض على صبر آخرين فيتقوى الحال و يشتد الوصف و يتضاعف تأثيره، و هذا أمر محسوس فى تأثير الفرد إذا اعتبرت

ص: ٦٠٠

١- ١). آل عمران ١٩٠-١٩٩: بحث فلسفى و مقايسه بين الرجل و المرأه.

٢- ٢). آل عمران ١٩٠-١٩٩: بحث روائى فى: التفكير؛ الهجره.

شخصيته في حال الانفراد، و في حال الاجتماع و التعاون بإيصال القوى بعضها ببعض و سنبحث فيه إن شاء الله بحثا مستوفى في محله.

قوله تعالى: **وَ رَابِطُوا أَعْمَ مَعْنَى مِنَ الْمَصَابِرِهِ وَ هِيَ إِجَادَةُ الْجَمَاعَةِ، الْإِرْتِبَاطُ بَيْنَ قَوَاهِمِ وَأَفْعَالِهِمْ فِي جَمِيعِ شُؤْنِ حَيَاتِهِمُ الدِّينِيَّةِ أَعْمَ مِنْ حَالِ الشَّدَةِ وَ حَالِ الرِّخَاءِ وَ لَمَّا كَانَ الْمُرَادُ بِذَلِكَ نَيْلَ حَقِيقَةِ السَّعَادَةِ الْمَقْصُودَةِ لِلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ -وَ إِلَّا فَلَا يَتِمُّ بِهَا إِلَّا بَعْضُ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَ لَيْسَتْ بِحَقِيقَةِ السَّعَادَةِ -عَقِبَ هَذِهِ الْأُمُورِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** يعنى الفلاح التام الحقيقى (١).

ص: ٦٠١

١ - ١). آل عمران ٢٠٠: كلام في المرابطه في المجتمع الانسان و الاجتماع، الانسان و نموه في اجتماعه، الاسلام و عنايته بالاجتماع، اعتبار الاسلام رابطة الفرد و المجتمع، هل تقبل سنه الاسلام الاجتماعيه الاجراء و البقاء؟ بما ذا يتكون و يعيش الاجتماع الاسلامي؟ منطقتان: منطق التعقل و منطق الاحساس؛ ما معنى ابتغاء الاجر عند الله و الاعراض عن غيره؟ ما معنى الحرية في الاسلام؟ ما هو الطريق الى التحول و التكامل في المجتمع الاسلامي؟ هل الاسلام بشريته يفي باسعاد هذه الحياه الحاضره؟ من الذى يتقلد ولايه المجتمع في الاسلام و ما سيرته؟ ثغر المملكه الاسلاميه هو الاعتقاد دون الحدود الطبيعيه او الاصطلاحيه، الاسلام اجتماعي بجميع شؤنه، الدين الحق هو الغالب على الدنيا بالآخه.

اشاره

بسم الله الرحمن الرحيم

[سوره النساء (٤): آيه ١]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم - الى قوله - وَنِسَاءً يريد دعوتهم الى تقوى ربهم فى أمر أنفسهم و هم ناس متحدون فى الحقيقه الإنسانيه من غير اختلاف فيها بين الرجل منهم و المرأه و الصغير و الكبير و العاجز و القوى حتى لا يجحف الرجل منهم بالمرأه و لا يظلم كبيرهم الصغير فى مجتمعهم الذى هداهم الله اليه لتتميم سعادتهم و الأحكام و القوانين المعموله بينهم التى ألهمهم إياها لتسهيل طريق حياتهم، و حفظ وجودهم و بقائهم فرادى و مجتمعين.

و من هناك تظهر نكته توجيه الخطاب الى الناس دون المؤمنين خاصه و كذا تعليق التقوى بربهم دون أن يقال: اتقوا الله و نحوه فإن الوصف الذى ذكروا به أعنى قوله: الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، الخ؛ يعم جميع الناس من غير أن يختص بالمؤمنين، و هو من أوصاف الربوبية التى تتكفل أمر التدبير و التكميل لا من شئون الالوهية.

و أما قوله تعالى: الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، الخ؛ فالنفس على ما يستفاد من اللغه عين الشىء يقال: جاءنى فلان نفسه و عينه و إن كان منشأ تعين الكلمتين - النفس و العين - لهذا المعنى (ما به الشىء شىء) مختلفا، و نفس الإنسان هو ما به الإنسان إنسان، و هو مجموع روح الإنسان و جسمه فى هذه الحياه الدنيا و الروح وحدها فى الحياه البرزخيه على ما تحقق فيما تقدم من البحث فى قوله تعالى: وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ الْآيَةُ (البقره ١٥٤).

و ظاهر السياق أن المراد بالنفس الواحده آدم عليه السلام، و من زوجها زوجته، و هما أبوا هذا النسل الموجود الذى نحن منه و إليهما ننتهى جميعا على ما هو ظاهر القرآن الكريم كما فى قوله تعالى: خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ مِنْهَا زَوْجَكُمْ (الزمر ٦)، و قوله تعالى: يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ (الأعراف ٢٧)، و قوله تعالى:

حكايه عن إبليس لئن أخرجتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً (الإسراء / ٦٢).

و أما قوله: وَ خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا فقد قال الراغب: يقال لكل واحد من القرينين من الذكر و الانثى فى الحيوانات المتزاوجه: زوج، و لكل قرينين فيها و فى غيرها: زوج كالخف و النعل، و لكل ما يقترن بآخر مماثلا له أو مضادا: زوج، الى أن قال: و زوجه لغه رديئه، انتهى.

و ظاهر الجمله أعنى قوله: وَ خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا أنها بيان لكون زوجها من نوعها بالتمثيل

و أن هؤلاء الأفراد المبتوثين مرجعهم جميعا الى فردين متماثلين متشابهين فلفظه من نشوئيه و الآيه فى مساق قوله تعالى: وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً (الروم ٢١)، و قوله تعالى: وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا يَبِينُ وَ حَفَظَهُ (النحل ٧٢)، و قوله تعالى: فَأَطْرُسُ السَّمَاوَاتِ وَ الْمَأْرُضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَ مِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ (الشورى ١١)، و نظيرها قوله: وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ (الذاريات ٤٩)، فما فى بعض التفاسير: أن المراد بالآيه كون هذه النفس مشتقه منها و خلقها من بعضها وفاقا لما فى بعض الأخبار: أن الله خلق زوجه آدم من ضلع من أضلاعه مما لا دليل عليه من الآيه.

و أما قوله: وَ بَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَ نِسَاءً، البث هو التفريق بالإثارة و نحوها قال تعالى: فَكَانَتْ هَبَاءً مُتَّبَثًا (الواقعه ٦)، و منه بث الغم و لذلك ربما يطلق البث و يراد به الغم لأنه مبثوث بيته الإنسان بالطبع، قال تعالى: قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَ حُزْنِي إِلَى اللَّهِ (يوسف ٨٦)، أى غمى و حزنى.

و ظاهر الآيه أن النسل الموجود من الإنسان ينتهى الى آدم و زوجته من غير أن يشاركهما فيه غيرهما حيث قال: و بث منهما رجالا كثيرا و نساء، و لم يقل: منهما و من غيرهما، و يتفرع عليه أمران:

احدهما: أن المراد بقوله: رِجَالًا كَثِيرًا وَ نِسَاءً أفراد البشر من ذريتهما بلا واسطه أو مع واسطه فكأنه قيل: و بثكم منها أيها الناس.

و ثانيهما: أن الأزواج فى الطبقة الاولى بعد آدم و زوجته أعنى فى أولادهما بلا واسطه إنما وقع بين الإخوه و الأخوات (ازدواج البنين بالبنات) اذ الذكور و الاناث كانا منحصرين فيهم يومئذ، و لا ضير فيه فإنه حكم تشريعى راجع الى الله سبحانه فله أن يبيحه يوما

و يحرمه آخر، قال تعالى: وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ (الرعد ٤١/)، وقال: إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ (يوسف ٤٠/)، وقال: وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (الكهف ٢٦/)، وقال: وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (القصص ٧٠/).

قوله تعالى: وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ الْمُرَادُ بِالتَّسَاوُلِ سَوَالُ بَعْضِ النَّاسِ بَعْضًا بِاللَّهِ، يَقُولُ أَحَدُهُمْ لِصَاحِبِهِ: أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ أَنْ تَفْعَلَ كَذَا وَكَذَا هُوَ إِقْسَامٌ بِهِ تَعَالَى، وَالتَّسَاوُلُ بِاللَّهِ كُنْيَاةٌ عَنْ كَوْنِهِ تَعَالَى مَعْظَمًا عِنْدَهُمْ مَحْبُوبًا لَدَيْهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَقْسِمُ بِشَيْءٍ يَعِظُهُ وَيُحِبُّهُ.

و أما قوله: وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ الْمُرَادُ بِالتَّسَاوُلِ سَوَالُ بَعْضِ النَّاسِ بَعْضًا بِاللَّهِ، يَقُولُ أَحَدُهُمْ لِصَاحِبِهِ: أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ أَنْ تَفْعَلَ كَذَا وَكَذَا هُوَ إِقْسَامٌ بِهِ تَعَالَى، وَالتَّسَاوُلُ بِاللَّهِ كُنْيَاةٌ عَنْ كَوْنِهِ تَعَالَى مَعْظَمًا عِنْدَهُمْ مَحْبُوبًا لَدَيْهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَقْسِمُ بِشَيْءٍ يَعِظُهُ وَيُحِبُّهُ.

و أما قوله: وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ الْمُرَادُ بِالتَّسَاوُلِ سَوَالُ بَعْضِ النَّاسِ بَعْضًا بِاللَّهِ، يَقُولُ أَحَدُهُمْ لِصَاحِبِهِ: أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ أَنْ تَفْعَلَ كَذَا وَكَذَا هُوَ إِقْسَامٌ بِهِ تَعَالَى، وَالتَّسَاوُلُ بِاللَّهِ كُنْيَاةٌ عَنْ كَوْنِهِ تَعَالَى مَعْظَمًا عِنْدَهُمْ مَحْبُوبًا لَدَيْهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَقْسِمُ بِشَيْءٍ يَعِظُهُ وَيُحِبُّهُ.

و أما قوله: وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ الْمُرَادُ بِالتَّسَاوُلِ سَوَالُ بَعْضِ النَّاسِ بَعْضًا بِاللَّهِ، يَقُولُ أَحَدُهُمْ لِصَاحِبِهِ: أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ أَنْ تَفْعَلَ كَذَا وَكَذَا هُوَ إِقْسَامٌ بِهِ تَعَالَى، وَالتَّسَاوُلُ بِاللَّهِ كُنْيَاةٌ عَنْ كَوْنِهِ تَعَالَى مَعْظَمًا عِنْدَهُمْ مَحْبُوبًا لَدَيْهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَقْسِمُ بِشَيْءٍ يَعِظُهُ وَيُحِبُّهُ.

و كيف كان فهذا الشطر من الكلام بمنزله التقييد بعد الإطلاق و التضييق بعد التوسعه بالنسبه الى الشطر السابق عليه أعنى قوله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا إِلَى قَوْلِهِ: وَ نِسَاءً، فإن محصل معنى الشطر الأول: أن اتقوا الله من جهة ربوبيته لكم، و من جهة خلقه و جعله إياكم -معاشر أفراد الإنسان- من سنخ واحد محفوظ فيكم و مادته محفوظة متكثره بتكثركم، و ذلك هو النوعيه الجوهرية الإنسانية، و محصل معنى هذا الشطر: أن اتقوا الله من جهة عظمته و عزته عندكم (و ذلك من شئون الربوبية و فروعها) و اتقوا الوحده الرحميه التي خلقها بينكم (و الرحم شعبه من شعب الوحده و السنخيه الساريه بين أفراد الإنسان).

و من هنا يظهر وجه تكرار الأمر بالتقوى و إعادته ثانيا في الجملة الثانيه فإن الجملة الثانيه الحقيقه تكرار للجملة الاولى مع زياده فائده و هي إفاده الاهتمام التام بأمر الأرحام.

و الرحم فى الأصل رحم المرأه و هى العضو الداخلى منها المعبأ لتربيته النطفه وليدا، ثم استعير للقرباه بعلاقه الظرف و المظروف لكون الأقرباء مشتركين فى الخروج من رحم واحده، فالرحم هو القريب و الأرحام الأقرباء، و قد اعتنى القرآن الشريف بأمر الرحم كما اعتنى بأمر القوم و الامه، فإن الرحم مجتمع صغير كما أن القوم مجتمع كبير، و قد اعتنى القرآن بأمر المجتمع و عدّه حقيقه ذات خواص و آثار كما اعتنى بأمر الفرد من الإنسان و عدّه حقيقه ذات خواص و آثار تستمد من الوجود، قال تعالى: وَ هُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُورَاتٌ وَ هَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَ جَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَ حِجْراً مَحْجُوراً وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَباً وَ صِهْرًا وَ كَانَ رَبُّكَ قَدِيراً (الفرقان ٥٤)، و قال تعالى: وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَ قَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا (الحجرات ١٣)، و قال تعالى: وَ أُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ (الأحزاب ٦)، و قال تعالى: فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تَقَطُّعُوا أَرْحَامَكُمْ (محمد ٢٢)، و قال تعالى:

وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِنَّ (النساء ٩)، الى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا الرقيب الحفيظ والمراقبه المحافظه، و كأنه مأخوذ من الرقبه بعنايه أنهم كانوا يحفظون رقاب عبيدهم، أو أن الرقيب كان يتطلع على من كان يرقبه برفع رقبته و مد عنقه، و ليس الرقوب مطلق الحفظ بل هو الحفظ على أعمال المرقوب من حركاته و سكناته لإصلاح موارد الخلل و الفساد أو ضبطها، فكأنه حفظ الشيء مع العنايه به علما و شهودا و لذا يستعمل بمعنى الحراسه و الانتظار و المحاذره و الرصد، و الله سبحانه رقيب لأنه يحفظ على العباد أعمالهم ليجزئهم بها، قال تعالى:

وَرُبُّكَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ (سبأ ٢١)، و قال: اللَّهُ حَفِيزٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (الشورى ٦)، و قال: فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبُّكَ لَبِالْمُرْصَادِ (الفجر ١٤).

و فى تعليق الأمر بالتقوى فى الوحده الانسانيه الساريه بين أفراده و حفظ آثارها اللازمه لها، بكونه تعالى رقيباً أعظم التحذير و التخويف بالمخالفه، و بالتدبر فيه يظهر ارتباط الآيات المتعرضه لأمر البغى و الظلم و الفساد فى الأرض و الطغيان و غير ذلك، و ما وقع فيها من التهديد و الإنذار، بهذا الغرض الإلهى و هو وقايه الوحده الإنسانيه من الفساد و السقوط (١)(٢)(٣)(٤)(٥).

ص: ٦٠٧

- ١-١. النساء ١: كلام فى عمر النوع الانسانى و الانسان الاول.
- ٢-٢. النساء ١: كلام فى ان النسل الحاضر ينتهى الى آدم و زوجته.
- ٣-٣. النساء ١: كلام فى ان الانسان نوع مستقل غير متحول من نوع آخر.
- ٤-٤. النساء ١: كلام فى تناسل الطبقة الثانيه من الانسان.
- ٥-٥. النساء ١: بحث روائى فى خلق آدم و حواء؛ كيفيه تزويج اولاد آدم؛ صلته الرحم؛ الغضب.

اشاره

وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا الْاٰخِثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَشْنَىٰ وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا (٣) وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَهُ فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا (٤) وَلَا تُوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٥) وَابْتُلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَغْفِرْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٦)

بيان:

بيان: (١)(٢)

قوله تعالى: وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ؛ أمر بإيتاء اليتامى أموالهم

ص: ٦٠٨

١- (١). النساء ٢-٦: كلام في الجاهلية الاولى.

٢- (٢). النساء ٢-٦: بحث في كيفية ظهور الدعوة الاسلامية.

و هو توطئه للجملتين اللا-حقتين: و لا- تبدلوا، الخ؛ أو الجملتان كالمفسر لهذه الجملة غير أن التعليل الذى فى آخر الآيه لكونه راجعا الى الجملتين أو الجملة الأخيره يؤيد أن الجملة الاولى موضوعه فى الكلام تمهيدا للنهى الذى فى الجملتين اللاحقتين.

و أصل النهى عن التصرف المضار فى أموال اليتامى كما تقدم بيانه توطئه و تمهيد لما سيذكر من أحكام الإرث، و لما سيذكر فى الآيه التاليه من حكم التزوج.

و أما قوله تعالى: **وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَيْبَ بِالطَّيِّبِ أَى لَا تَتَّبِعُوا الْخَيْبَ** من أموالكم من الطيب من أموالهم بأن يكون لهم عندكم مال طيب فتعزله لأنفسكم و تردوا إليهم ما يعادله من ردى أموالكم. و يمكن أن يكون المراد: لا تبدلوا أكل الحرام من أكل الحلال- كما قيل- لكن المعنى الأول أظهر فإن الظاهر أن كالا- من الجملتين أعنى قوله: **وَلَا تَتَّبِعُوا**، الخ؛ و قوله: **وَلَا تَأْكُلُوا**، الخ؛ بيان لنوع خاص من التصرف غير الجائز و قوله: **وَأَتُوا الْيَتَامَى**، الخ؛ تمهيد لبيانهما معا، و أما قوله: **إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا** الحوب الاثم مصدر و اسم مصدر.

قوله تعالى: **وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكحوا** **مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ** قد مرت الإشاره فيما مر الى أن أهل الجاهليه من العرب- و كانوا لا- يخلون فى غالب الأوقات عن الحروب و المقاتل و الغيله و الغاره و كان يكثر فيهم حوادث القتل- كان يكثر فيهم الأيتام، و كانت الصناديد و الأقوياء منهم يأخذون إليهم يتامى النساء و أموالهن فيتزوجون بهن و يأكلون أموالهن الى أموالهم ثم لا يقسطون فيهن و ربما أخرجوهن بعد أكل مالهن فيصرن عاطلات ذوات مسكنه لا مال لهن يرتزقن به و لا راغب فيهن فيتزوج بهن و ينفق عليهن، و قد شدد القرآن الكريم النكير على هذا الدأب الخبيث و الظلم الفاحش، و أكد النهى عن ظلم اليتامى و أكل أموالهم كقوله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا** **وَسَيَصْءَلُونَ سَعِيرًا** (النساء ١٠)، و قوله تعالى: **وَأَتُوا**

الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (النساء ٢/٢)، فأعقب ذلك أن المسلمين أشفقوا على أنفسهم- كما قيل- و خافوا خوفا شديدا حتى أخرجوا اليتامى من ديارهم خوفا من الابتلاء بأموالهم و التفريط فى حقهم، و من أمسك يتيما عنده أفرز حظه من الطعام و الشراب و كان اذا فضل من غذائهم شىء لم يدنوا منه حتى يبقى و يفسد فاصبحوا متحرجين من ذلك و سألوا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم عن ذلك و شكوا إليه فنزل: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمُ الْإِنَّا اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (البقره ٢٢٠/٢) فأجاز لهم أن يؤوؤهم و يمسكوهم إصلاحا لشانهم و إن يخالطوهم فإنهم إخوانهم فجلي عنهم و فرج همهم.

إذا تأملت فى ذلك ثم رجعت الى قوله تعالى: وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا، الخ؛ و هو واقع عقيب قوله: وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ، الآية؛ اتضح لك أن الآية واقعه موقع الترقى بالنسبه الى النهى الواقع فى الآية السابقه و المعنى- و الله أعلم:- اتقوا أمر اليتامى، و لا تبدلوا خبيث أموالكم من طيب أموالهم، و لا تأكلوا أموالهم الى أموالكم حتى أنكم إن خفتم أن لا تقسطوا فى اليتيمات منهم و لم تطب نفوسكم أن تنكحوهن و تتزوجوا بهن فدعوهن و انكحوا نساء غيرهن ما طاب لكم مثنى و ثلاث و رباع.

فالشرطيه أعنى قوله: إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ، فى معنى قولنا إن لم تطب لكم اليتامى للخوف من عدم القسط فلا- تنكحوهن و انكحوا نساء غيرهن فقوله: فَانكِحُوا سَادَ مَسَدِ الْجَزَاءِ الْحَقِيقِ، و قوله: مَا طَابَ لَكُمْ، يعنى عن ذكر وصف النساء أعنى لفظ غيرهن؛ و قد قيل: ما طاب لكم و لم يقل: من طاب لكم إشاره الى العدد الذى سيفصله بقوله: مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ، الخ؛ و وضع قوله: إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا مَوْضِعَ عَدَمِ طَيْبِ النَّفْسِ مِنْ وَضْعِ السَّبَبِ مَوْضِعِ الْمَسْبَبِ مَعَ الْإِشْعَارِ بِالْمَسْبَبِ فِي الْجَزَاءِ بِقَوْلِهِ: مَا

طَابَ لَكُمْ، هذا.

قوله تعالى: **مُثْنِي** وَ **ثُلَاثٌ** وَ **رُبَاعٌ** بناء مفعول و فعال في الأعداد تدلان على تكرار المادة فمعنى مثني و ثلاث و رباع اثنتين اثنتين و أربعا أربعا، و لما كان الخطاب متوجها الى أفراد الناس و قد جرى بواو التفصيل بين مثني و ثلاث و رباع الدال على التخيير أفاد الكلام أن لكل واحد من المؤمنين أن يتخذ لنفسه زوجتين أو ثلاثا أو ربعا فيصرن بالإضافه الى الجميع مثني و ثلاث و رباع.

و بذلك و بقرينه قوله بعد: **و إن خفتن أن لا تعدلوا فواحدن أو ما ملكت أيمانكم** و كذا آيه المحصنات بجميع ذلك يدفع أن يكون المراد بالآيه أن تنكح الاثنتان بعقد واحد أو الثلاث بعقد واحد مثلا، أو يكون المراد أن تنكح الاثنتان معا ثم الاثنتان معا و هكذا، و كذا في الثلاث و الأربع، أو يكون المراد اشتراك أزيد من رجل واحد في الزوجه الواحده مثلا فهذه احتمالات لا تحتملها الآيه.

على أن الضروره قاضيه أن الإسلام لا ينفذ الجمع بين أزيد من أربع نسوه أو اشتراك أزيد من رجل في زوجه واحد.

و كذا يدفع بذلك احتمال أن يكون الواو للجمع فيكون في الكلام تجويز الجمع بين تسع نسوه لأن مجموع الاثنتين و الثلاث و الأربع تسع، و قد ذكر في المجمع: أن الجمع بهذا المعنى غير محتمل البتة فإن من قال: دخل القوم البلد مثني و ثلاث و رباع لم يلزم منه اجتماع الأعداد فيكون دخولهم تسعه تسعه، و لأن لهذا العدد لفظا موضوعا و هو تسع فالعدول عنه الى مثني و ثلاث و رباع نوع من العي - جل كلامه عن ذلك و تقدس -.

قوله تعالى: **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً** أي فانكحوا واحدن لا أزيد، و قد علقه تعالى على الخوف من ذلك دون العلم لأن العلم في هذه الامور - لتسويل النفس فيها أثر بين - لا يحصل غالبا فتفوت المصلحه.

ص: ٦١١

قوله تعالى: **أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** و هي الإماء فمن خاف أن لا يقسط فيهن فعليه أن ينكح واحده، وإن أحب أن يزيد في العدد فعليه بالإماء إذ لم يشرع القسم في الإماء.

و من هنا يظهر أن ليس المراد بالتحضيض على الإماء بتجوزيز الظلم و التعدى عليهن فإن الله لا يحب الظالمين و ليس بظلام للعبيد بل لما لم يشرع القسم فيهن فأمر العدل فيهن أسهل؛ و لهذه النكته بعينها كان المراد بذكر ملك اليمين الاكتفاء باتخاذهن و إتيانهن بملك اليمين دون نكاحهن بما يبلغ العدد أو يكثر عليه فإن مسأله نكاحهن سيتعرض لها في ما سيجيء من قوله: **وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيِّئَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ** الآية (النساء ٢٥).

قوله تعالى: **ذَلِكَ أَذُنِي أَلَّا تَعُولُوا** العول هو الميل أى هذه الطريقه على ما شرعت أقرب من أن لا تميلوا عن العدل و لا تتعدوا عليهن في حقوقهن، و ربما قيل: إن العول بمعنى الثقل و هو بعيد لفظاً و معنى.

و في ذكر الجمله التي تتضمن حكمه التشريع دلالة على أن أساس التشريع في أحكام النكاح على القسط و نفى العول و الإجحاف في الحقوق.

قوله تعالى: **وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَهُ** الصدقه بضم الدال و فتحها و الصداق هو المهر، و النحله هي العطيه من غير مئامنه.

و في إضافة الصداقات الى ضميرهن دلالة على أن الحكم بوجود الإيتاء مبنى على المتداول بين الناس في سنن الازدواج من تخصيص شيء من المال أو أى شيء له قيمه مهرا لهن كأنه يقابل به البضع مقابله الثمن المبيع فإن المتداول بين الناس أن يكون الطالب الداعي للازدواج هو الرجل على ما سيأتى في البحث العلمى التالى، و هو الخطبه كما أن المشتري يذهب بالثمن الى البائع ليأخذ سلعته، و كيف كان ففي الآية إمضاء هذه العاده الجاربه عند الناس.

و لعل إمكان توهم عدم جواز تصرف الزوج في المهر أصلا حتى برضى من الزوجه هو

الموجب للإتيان بالشرط في قوله: فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكَلُوهُ هَيِّئًا مَرِيئًا مع ما في اشتراط الأكل بطيب النفس من تأكيد الجملة السابقه المشتمله على الحكم، والدلاله على أن الحكم وضعى لا تكليفى.

و الهناء سهوه الهضم و قبول لطبع و يستعمل فى الطعام، و المرىء من الرى و هو فى الشراب كالهنىء فى الطعام غير أن الهناء يستعمل فى الطعام و الشراب معا؛ فاذا قيل: هنيئا مريئا اختص الهناء بالطعام و الرى بالشراب.

قوله تعالى: وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فِيهَا مَأْسِكًا فَكَلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَلَا يُخْفَى عَلَيْكُمْ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فِيهَا مَأْسِكًا وَلَا يَخْفَى عَلَيْكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تِلْكَ الْأَمْوَالُ لَكُمْ بِذُنُوبِكُمْ وَأَنَّهَا رَدِيَتْ عَلَيْكُمْ سَرِفًا هُنَّ رَدِيَتْ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْفٰسِقِينَ فَتَمَرَّدُوا فَخَلَّوْا فِي الْبِلَادِ الَّتِي لَعَنَ اللَّهُ لَعْنَةً أَلِيْمَةً فَجَاءَتْهُمْ أَمْوَالُهُمْ حَافِيَةً إِلَى يَدِيهِمْ فَخَفُوا بِهَا مِنْهُمْ فَجَاءَهُم بِهَا جُلُودٌ مُثْقَلَةٌ أُولَٰئِكَ هُمُ السُّفَهَاءُ الَّتِي يُضِلُّونَ أَمْوَالَهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْفٰسِقِينَ باختلاف الأغراض و المقاصد فليل سفيه لخفيف الرأى فى الامور الدنيويه و سفيه للفساق غير المبالى فى أمر دينه و هكذا.

و ظاهر ما يترأى من الآيه أنه نهى عن الإكثار فى الإنفاق على السفهاء و إعطائهم من المال أزيد من حاجاتهم الضروريه فى الارتزاق، غير أن وقوع الآيه فى سياق الكلام فى أموال اليتامى التى يتولى أمر إدارتها و إنمائها الأولياء قرينه معينه على كون المراد بالسفهاء هم السفهاء من اليتامى، و أن المراد بقوله: أَمْوَالِكُمْ، فى الحقيقه أموالهم اضيف الى الأولياء بنوع من العناية كما يشهد به أيضا قوله بعد: و ارزقوهم فيها و اكسوهم، و إن كان و لا بد من دلالة الآيه على أمر سائر السفهاء غير اليتامى، فالمراد بالسفهاء ما يعم اليتيم و غير اليتيم لكن الأول أرجح (١).

و كيف كان فلو كان المراد بالسفهاء سفهاء اليتامى، فالمراد بقوله: أَمْوَالِكُمْ، أموال اليتامى

ص: ٦١٣

(١-١). النساء ٢-٦: كلام فى ان جميع المال لجميع الناس.

و إنما اضيفت الى الأولياء المخاطبين بعنايه أن مجموع المال و الثروه الموجوده فى الدنيا لمجموع أهلها و إنما اختص بعض أفراد المجتمع ببعض منه و آخر بآخر للصالح العام الذى يبتنى عليه أصل الملك و الاختصاص فيجب أن يتحقق الناس بهذه الحقيقه و يعلموا أنهم مجتمع واحد و المال كله لمجتمعهم، و على كل واحد منهم أن يكأه و يتحفظ به و لا يدعه يضيع بتبذير نفوس سفيهه، و تدبير كل من لا يحسن التدبير كالصغير و المجنون، و هذا من حيث الإضافه كقوله تعالى: وَ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكَحِ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيَاتِكُمْ (النساء ٢٥)، و من المعلوم أن المراد بالفتيات ليس الإماء اللاتى يملكها من يريد النكاح.

قوله تعالى: وَ ابْتُلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ - أَمْوَالَهُمْ الابتلاء الامتحان و المراد من بلوغ النكاح بلوغ أوانه ففيه مجاز عقلى و الإيناس المشاهده و فيه شوب من معنى الالفه فإن مادته الانس، و الرشد خلاف الغى و هو الاهتداء الى مقاصد الحياه، و دفع مال اليتيم اليه كناية عن إعطائه إياه و إقباضه له كأن الولى يدفعه اليه و يعده من نفسه فهو على ابتداله كنايه لطيفه.

و قوله: حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ، متعلق بقوله: وَ ابْتُلُوا، ففيه دلالة ما على الاستمرار بأن يشرع الولى فى ابتلائه من أول ما يأخذ فى التمييز و يصلح للابتلاء حتى ينتهى الى أوان النكاح و يبلغ مبلغ الرجال، و من طبع هذا الحكم ذلك فإن إيناس الرشد لا يحصل بابتلاء الصبى فى واقعه أو واقعتين بل يجب تكراره الى أن يحصل الإيناس و يتمشى بالطبع فى مده مديده حتى يبلغ الرهاق ثم النكاح.

و قوله: فَإِنْ آنَسْتُمْ، الخ؛ تفريع على قوله: وَ ابْتُلُوا، و المعنى: و امتحنوهم فإن آنستم منهم الرشد فادفعوا اليهم أموالهم؛ و الكلام يؤذن بأن بلوغ النكاح بمنزله المقتضى لدفع المال الى اليتيم و استقلاله بالتصرف فى مال نفسه و الرشد شرط لنفوذ التصرف؛ و قد فصل الإسلام

النظر في أمر البلوغ من الإنسان فاكتمى في أمر العبادات و أمثال الحدود و الديات بمجرد السن الشرعى الذى هو سن النكاح و اشترط فى نفوذ التصرفات الماليه و الأقرارير و نحوها مما تفصيل بيانه فى الفقه مع بلوغ النكاح الرشد، و ذلك من لطائف سلوكه فى مرحله التشريع فإن اهمال أمر الرشد و إلغاءه فى التصرفات الماليه و نحوها مما يختل به نظام الحياه الاجتماعيه فى قبيل الأيتام و يكون نفوذ تصرفاتهم و أقراريرهم مفضيا الى غرور الأفراد الفاسده إياهم و إخراج جميع وسائل الحياه من أيديهم بأدنى وسيله بالكلمات المزيفه و المواعيد الكاذبه و المعاملات الغريره الى ذلك فالرشد لا محيص من اشتراطه فى هذا النوع من الامور، و أمثال العبادات فعدم الحاجه فيها الى الاشتراط ظاهر، و كذا أمثال الحدود و الديات فإن ادراك قبح هذه الجنايات و المعاصى و فهم وجوب الكف عنها لا يحتاج فيه الى الرشد بل الإنسان يقوى على تفهم ذلك قبله و لا يختلف حاله فى ذلك قبل الرشد و بعده.

قوله تعالى: **وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِبْرَافًا وَ بَدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا**؛ الإسراف هو التعدى عن الاعتدال فى العمل، و البدار هو المبادره الى الشىء و قوله و بدارا أن يكبروا فى معنى حذر أن يكبروا فلا يدعوكم أن تأكلوا، و حذف النفى أو ما فى معناه قبل أن و أن قياسى على ما ذكره النحاه قال تعالى: **يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا** (النساء ١٧٦) أى لئلا تضلوا أو حذر أن تضلوا.

و أما قوله تعالى: **فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ** فتشريع للاستشهاد عند الدفع تحكيما للأمر و رفعا لغائله الخلاف و النزاع فمن الممكن أن يدعى اليتيم بعد الرشد و أخذ المال من الولى عليه؛ ثم ذيل الجميع بقوله تعالى: **وَ كَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا**، ربطا للحكم بمنشئه الأولى أعنى محتد كل حكم من أسمائه و صفاته تعالى فإنه تعالى لما كان حسيبا لم يكن ليخلى أحكام عباده من غير حساب دقيق و هو تشريعه المحكم، و تتميما للتربيه الدينيه الإسلاميه فإن الإسلام يأخذ فى تربيه الناس على أساس التوحيد اذ الإشهاد و إن كان

رافعا غالبا للخلاف و النزاع لكن ربما تخلف عنه لانحراف من الشهود في عدالتهم أو غير ذلك من متفرقات العوامل لكن السبب المعنوى العالى القوى هو تقوى الله الذى كفى به حسيا فلو جعل الولى و الشهود و اليتيم الذى دفع اليه المال هذا المعنى نصب أعينهم لم يقع هناك اختلاف و لا نزاع البتة (١)(٢)(٣).

[سوره النساء (٤): الآيات ٧ الى ١٠]

اشاره

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (٧) وَ إِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَازِزُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٨) وَ لِيُخَشَّ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُ ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَ لِيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَ سَيَصْلُونَ سَعِيرًا (١٠)

بيان:

قوله تعالى: لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ الآية؛النصيب

ص: ٦١٦

١-١). النساء ٢-٦: بحث روائى فى تعدد الزوجات.

٢-٢). النساء ٢-٦: بحث علمى فى فصول؛النكاح من مقاصد الطبيعه؛استيلاء الذكور على الاناث؛تعدد الزوجات.

٣-٣). النساء ٢-٦: بحث علمى فى تعدد زوجات النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

هو الحظ و السهم، و أصله من النصب بمعنى الإقامه لأن كل سهم عند القسمة ينصب على حدته حتى لا يختلط بغيره، و التركه ما بقى من مال الميت بعده كأنه يتركه و يرتحل فاستعماله الأصلي استعمال استعارى ثم ابتذل، و الأقربون هم القرابه الأذنون، و اختيار هذا اللفظ على مثل الأقرباء و اولى القربى و نحوهما لا- يخلو من دلالة على أن الملا-ك في الإرث أقربيه الميت من الوارث على ما سيجىء البحث عنه فى قوله تعالى: **أَبَاؤُكُمْ وَ أُمَّهَاتُكُمْ وَ أَوْلَادُكُمْ** لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا (النساء ١١)، و الفرض قطع الشىء الصلب و إفراز بعضه من بعض، و لذا يستعمل فى معنى الوجوب لكون إتيانه و امتثال الأمر به مقطوعا معينا من غير تردد، و النصب المفروض هو المقطوع المعين.

و فى الآيه إعطاء للحكم الكلى و تشريع لسنه حديثه غير مألوفه فى أذهان المكلفين، فإن حكم الوراثة على النحو المشروع فى الإسلام لم يكن قبل ذلك مسبوقا بالمثل و قد كانت العادات و الرسوم على تحريم عده من الوراثة عادت بين الناس كالطبيعه الثانيه تثير النفوس و تحرك العواطف الكاذبه لو قرع بخلافها أسماعهم.

و قد مهد له فى الإسلام أولا بتحكيم الحب فى الله و الإيثار الدينى بين المؤمنين فعقد الاخوه بين المؤمنين ثم جعل التوارث بين الأخوين، و انتسخ بذلك الرسم السابق فى التوارث، و انقلع المؤمنون من الأنفه و العصبية القديمه ثم لما اشتد عظم الدين، و قام صلبه شرع التوارث بين اولى الأرحام فى حين كان هناك عده كافيه من المؤمنين يلبون لهذا التشريع أحسن التلبيه.

و بهذه المقدمه يظهر أن المقام مقام التصريح و رفع كل لبس متوهم بضرب القاعده الكليه بقوله: **لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ** **الْوَالِدَاتِ وَ الْأَقْرَبُونَ**، فالحكم مطلق غير مقيد بحال أو وصف أو غير ذلك أصلا، كما أن موضوعه أعنى الرجال عام غير مخصص بشىء متصل فالصغار ذووا نصيب كالكبار.

ثم قال: و للنساء نصيب مما ترك الوالدان و الأقربون و هو كسابقه عام من غير شائبه تخصيص فيعم جميع النساء من غير تخصيص أو تقييد، و قد أظهر في قوله مما ترك الوالدان و الأقربون مع أن المقام مقام الإضمار إيفاء لحق التصريح و التنصيص، ثم قال: مما قل منه أو أكثر زياده في التوضيح و أن لا مجال للمسامحه في شىء منه لقله و حقاره، ثم قال: نصيباً، الخ؛ و هو حال من النصيب لما فيه من المعنى المصدرى، و هو بحسب المعنى تأكيد على تأكيد و زياده في التنصيص على أن السهام مقطوعه معينه لا تقبل الاختلاط و الإبهام.

و قد استدل بالآيه على عموم حكم الإرث لتركه النبي صلى الله عليه و آله و سلم و غيره، و على بطلان التعصيب فى الفرائض.

قوله تعالى: **وَ إِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ** الخ؛ ظاهر الآيه أن المراد من حضورهم القسمة أن يشهدوا قسمة التركة حينما يأخذ الورثه فى اقتسامها لا ما ذكره بعضهم أن المراد حضورهم عند الميت حينما يوصى و نحو ذلك، و هو ظاهر.

و على هذا فالمراد من اولى القربى الفقراء منهم، و يشهد بذلك أيضا ذكرهم مع اليتامى و المساكين، و لحن قوله: **فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ** وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا، الظاهر فى الاسترحام و الاسترفاق، و يكون الخطاب حينئذ لأولياء الميت و الورثه.

قوله تعالى: **وَ لِيُخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّهُمْ ذِيَّ عِمَاقٍ** الخ؛ الآيه؛ الخشيه التأثر القلبي مما يخاف نزوله مع شائبه تعظيم و إكبار، و سداد القول و سدده كونه صواباً مستقيماً.

و لا- يبعد أن تكون الآيه متعلقه نحو تعلق بقوله: **لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ**، الآيه؛ لاشتماله على إرث الأيتام الصغار بعمومه فتكون مسوقه سوق التهديد لمن يسلك مسلك تحريم صغار الورثه من الإرث، و يكون حينئذ قوله: **وَ لِيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً** كناية عن اتخاذ طريقه التحريم و العمل بها و هضم حقوق الأيتام الصغار، و الكناية بالقول عن الفعل للملازمه بينهما غالباً شائع فى

اللسان كقوله تعالى: وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا (البقره ٨٣)، و يؤيده توصيف القول بالسديد دون المعروف و اللين و نحوهما فإن ظاهر السداد فى القول كونه قابلاً للاعتقاد و العمل به لا قابلاً لأن يحفظ به كرامه الناس و حرمتهم.

و أما قوله: فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَ لْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا فقد تقدم أن الظاهر أن المراد بالقول هو الجرى العملى و من الممكن أن يراد به الرأى (١).

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا (البقره ٢٦)، يقال: أكله و أكله فى بطنه و هما بمعنى واحد غير أن التعبير الثانى أصرح و الآيه كسابقتها متعلقه المضمون بقوله: لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ، الآيه و هى تخويف و ردع للناس عن هضم حقوق اليتامى فى الإرث.

و الآيه مما يدل على تجسم الأعمال على ما مر فى الجزء الأول من هذا الكتاب فى قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا (البقره ٢٦) و لعل هذا مراد من قال من المفسرين أن قوله: إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا، كلام على الحقيقه دون المجاز و على هذا لا يرد عليه ما أورده بعض المفسرين: أن قوله: يَأْكُلُونَ أريد به الحال دون الاستقبال بقرينه عطف قوله: وَ سَيَصِلُونَ سَعِيرًا عليه و هو فعل دخل عليه حرف الاستقبال فلو كان المراد به حقيقه الأكل - و وقته يوم القيامة - لكان من اللازم أن يقال: سَيَأْكُلُونَ فى بطونهم نارا و سيصلون سعيراً فالحق أن المراد به المعنى المجازى، و أنهم فى أكل مال اليتيم كمن يأكل فى بطنه نارا انتهى ملخصاً و هو غفله عن معنى تجسم الأعمال.

و أما قوله: وَ سَيَصِلُونَ سَعِيرًا فهو إشارة الى العذاب الأخرى، و السعير من أسماء نار الآخرة يقال صلى النار يصلها صلى و صلوا أى احترق بها و قاسى عذابها.

ص: ٦١٩

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَ لِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَ وَّرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ أَوْ ذَيْنِ أَبَوَيْكُمْ وَ أَبْنَاءُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُم أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنِ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) وَ لَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلِكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَ لَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِن لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَ إِن كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كِلَاهُ أَوْ امْرَأَةٌ وَ لَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّتَهُ مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢) تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَ لَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٤)

قوله تعالى: يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ الإيضاء و التوصيه هو العهد و الأمر، و قال الراغب في مفردات القرآن: الوصيه: التقدم الى الغير بما يعمل به مقترنا بوعظ، انتهى.

و في العدول عن لفظ الأبناء الى الأولاد دلالة على أن حكم السهم و السهمين مخصوص بما ولده الميت بلا واسطه، و أما أولاد الأولاد فنازلا- فحكمهم حكم من يتصلون به فلبنت الابن سهمان و لابن البنت سهم واحد اذا لم يكن هناك من يتقدم على مرتبتهم كما أن الحكم في أولاد الإخوه و الأخوات حكم من يتصلون به، و أما لفظ الابن فلا يقضى بنفى الواسطه كما أن الأب أعم من الوالد.

و أما قوله تعالى في ذيل الآيه: أَبَاؤُكُمْ وَ أَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا فسيجيء أن هناك عناية خاصه تستوجب اختيار لفظ الأبناء على الأولاد.

و أما قوله: لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ ففي انتخاب هذا التعبير إشعار بإبطال ما كانت عليه الجاهليه من منع توريث النساء فكأنه جعل إرث الانثى مقرا معروفا و أخبر بأن للذكر مثله مرتين أو جعله هو الأصل في التشريع و جعل إرث الذكر محمولا عليه يعرف بالإضافة إليه، و لو لا ذلك لقال: للأنثى نصف حظ الذكر و اذ لا يفيد هذا المعنى و لا يلتئم السياق معه- كما ترى- هذا ما ذكره بعض العلماء و لا بأس به، و ربما أيد ذلك بأن الآيه لا تتعرض بنحو التصريح مستقلا إلا لسهام النساء و إن صرحت بشيء من سهام الرجال فمع ذكر سهامهن معه كما في الآيه التاليه و الآيه التي في آخر السوره.

و بالجملة قوله: لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ في محل التفسير لقوله: يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ،

و اللام في الذَّكَرِ و الْأُنثِيَيْنِ لتعريف الجنس أى إن جنس الذكر يعادل في السهم أنثيين، و هذا إنما يكون اذا كان هناك في الوراثة ذكر و انثى معا فللذكر ضعفا الانثى سهما و لم يقل: للذكر مثل حظى الانثى أو مثلا حظ الانثى ليدل الكلام على سهم الانثيين اذا انفردتا بإيثار الإيجاز على ما سيجىء.

و على أى حال اذا تركبت الورثة من الذكور و الإناث كان لكل ذكر سهمان و لكل انثى سهم الى أى مبلغ بلغ عددهم.

قوله تعالى: فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثًا مِمَّا تَرَكَ تَرَكَ ظَاهِرٌ وَقَوْلُهُ هَذَا الْكَلَامُ بَعْدَ قَوْلِهِ: «لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ» أَنَّهُ عَلَى تَقْدِيرِ مَعْطُوفٍ عَلَيْهِ مَحذُوفٍ كَأَنَّ قِيلَ:

هذا اذا كانوا نساء و رجالا فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً، الخ؛ و هو شائع فى الاستعمال و منه قوله تعالى:

وَ اتَّمُوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ (البقره ١٩٦/)، و قوله:

أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ (البقره ١٨٤/).

و الضمير فى كن راجع الى الأولاد فى قوله: فِى أَوْلَادِكُمْ و تأنيث الضمير لتأنيث الخبر، و الضمير فى قوله: تَرَكَ راجع الى الميت المعلوم من سياق الكلام.

قوله تعالى: وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النُّصْفُ الضمير الى الولد المفهوم من السياق و تأنيثه باعتبار الخبر و المراد بالنصف نصف ما ترك فاللام عوض عن المضاف اليه.

و لم يذكر سهم الأنثيين فإنه مفهوم من قوله: لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ ذَكَرَا وَ انثى اذا اجتمعا كان سهم الانثى الثلث للآيه و سهم الذكر الثلثين و هو حظ الانثيين فحظ الانثيين الثلثان فهذا المقدار مفهوم من الكلام إجمالا و ليس فى نفسه متعينا للفهم اذ لا ينافى ما لو كان قيل بعده: و إن كانتا اثنتين فلهما النصف أو الجميع مثلا لكن يعينه السكوت عن ذكر هذا السهم و التصريح الذى فى قوله: فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ، فإنه يشعر بالتعمد فى ترك ذكر حظ الانثيين.

على أن كون حظهما الثلثين هو الذى عمل به النبى صلى الله عليه وآله وسلم وجرى العمل عليه منذ عهده صلى الله عليه وآله وسلم الى عهدنا بين علماء الامه سوى ما نقل من الخلاف عن ابن عباس.

قوله تعالى: وَ لِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّسُ -الى قوله- فَلِأُمَّه الشُّدُّسُ فى عطف الأبوين فى الحكم على الأولاد دلالة على أن الأبوين يشاركان الاولاد فى طبقتهم، وقوله: وَ وَرِثَةُ أَبَوَاهُ، أى انحصر الوارث فيهما، و فى قوله: فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ، الخ؛ بعد قوله: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَ وَرِثَةُ أَبَوَاهُ، دلالة على أن الإخوة واقعه فى طبقه ثانيه لا حقه لطبقه الأبناء و البنات لا ترث مع وجودهم غير أن الإخوة تحجب الام عن الثلث.

قوله تعالى: مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِي بِهَا أَوْ ذَيْنِ أَمَا الوصيه فهى التى تندب إليها قوله: كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ الَّتِي لَهُ (البقره / ١٨٠) ولا ينافى تقدمها فى الآيه على الدين ما ورد فى السنه أن الدين مقدم على الوصيه لأن الكلام ربما يقدم فيه غير الأهم على الأهم لأن الأهم لمكانته وقوه ثبوته ربما لا يحتاج إلى ما يحتاج إليه غيره من التأكيد و التشديد، و منه التقديم، و على هذا فقوله: أَوْ ذَيْنِ فى مقام الاضراب و الترقى طبعاً.

و بذلك يظهر وجه توصيف الوصيه بقوله: يُوصِي بِهَا فيه دلالة على التأكيد، و لا يخلو مع ذلك من الإشعار بلزوم إكرام الميت و مراعاة حرمة فيما وصى به كما قال تعالى: فَمَنْ بَدَلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ (البقره ١٨١).

قوله تعالى: أَبَاؤُكُمْ وَ أَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا الْخَطَابَ للورثه أعنى لعامه المكلفين من حيث إنهم يرثون أمواتهم، و هو كلام ملقى للإيماء إلى سر اختلاف السهام فى وراثه الآباء و الأبناء و نوع تعليم لهم خوطبوا به بلسان «لَا تَدْرُونَ» و أمثال هذه التعبيرات شائعه فى اللسان.

على أنه لو كان الخطاب لغير الورثه أعنى للناس من جهة أنهم سيموتون و يرثون

آباءهم و أبناءهم لم يكن وجه لقوله: أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَإِنَّ الظاهر أن المراد بالانتفاع هو الانتفاع بالمال الموروث و هو إنما يعود الى الورثة دون الميت.

و تقديم الآباء على الأبناء يشعر بكون الآباء أقرب نفعاً من الأبناء، كما فى قوله تعالى: إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ (البقره ١٥٨/١) و قد مرت الروايه عن النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم أنه قال:

أبدأ بما بدأ الله، الحديث.

و الأمر على ذلك بالنظر الى آثار الرحم و اعتبار العواطف الإنسانيه فإن الإنسان أرأف بولده منه بوالديه و هو يرى بقاء ولده بقاء لنفسه دون بقاء والديه فأباء الإنسان أقوى ارتباطاً و أمس وجوداً به من أبنائه، و اذا بنى الانتفاع الإرثى على هذا الاصل كان لازمه أن يذهب الإنسان اذا ورث أباه مثلاً بسهم أزيد منه اذا ورث ابنه مثلاً و إن كان ربما يسبق الى الذهن البدوى أن يكون الأمر بالعكس.

و هذه الآيه أعنى قوله: أَبَاؤُكُمْ وَ أَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُم أَقْرَبُ لَكُمْ، نفعاً من الشواهد على أنه تعالى بنى حكم الارث على أساس تكوينى خارجى كسائر الأحكام الفطريه الاسلاميه.

على أن الآيات المطلقة القرآنيه الناظره الى أصل التشريع أيضاً كقوله: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ (الروم / ٣٠) تدل على ذلك، و كيف يتصور مع وجود أمثال هذه الآيات أن يرد فى الشريعه أحكام إلزاميه و فرائض غير متغيره و ليس لها أصل فى التكوين فى الجمله.

و ربما يمكن أن يستشم من الآيه أعنى قوله: أَبَاؤُكُمْ وَ أَبْنَاؤُكُمْ، الخ؛ تقدم أولاد الأولاد على الأجداد و الجدات فإن الأجداد و الجدات لا يرثون مع وجود الأولاد و أولاد الأولاد.

قوله تعالى: فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ الخ؛ الظاهر أنه منصوب بفعل مقدر و التقدير خذوا أو ألزموا و نحو ذلك و تأكيد بالغ أن هذه السهام المذكوره قدمت إليكم و هى مفرزه معينه لا

كالتقليد بالنسبة الى المبدأ منه كالسدس و الربع و الثلث من المجموع دون مثل النصف و الثلثين، و لذا قال تعالى: السدس مما ترك؛ و قال: فلأئمه الثلث؛ و قال: لكم الربع بالقطع عن الإضافة فى جميع ذلك؛ و قال: و لكم نصف ما ترك؛ و قال: فلهن ثلثا ما ترك بالإضافة؛ و قال:

فلها النصف أى نصف ما ترك فاللام عوض عن المضاف اليه.

قوله تعالى: **وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ أَوْ امْرَأَةٌ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛** أصل الكلاله مصدر بمعنى الإحاطه، و منه الإكليل لإحاطته بالرأس و منه الكل-بضم الكاف- لإحاطته بالأجزاء، و منه الكل-بفتح الكاف-لنوع إحاطه منه ثقيله على من هو كلّ عليه، قال الراغب: الكلاله اسم لما عدا الولد و الوالد من الورثه، قال: و روى أن النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم سئل عن الكلاله فقال: من مات و ليس له ولد و لا-والد فجعله اسما للميت، و كلاله-القولين صحيح فإن الكلاله مصدر يجمع الوارث و الموروث جميعا، انتهى.

اقول: و على هذا فلا-مانع من كون كان ناقصه و رجل اسمها و يورث وصفا للرجل و كلاله خبرها و المعنى: و إن كان الميت كلاله للوارث ليس أباه و لا-ابنا. و يمكن أن يكون كان تامه و رجل يورث فاعله و كلاله مصدرا وضع موضع الحال، و يؤول المعنى أيضا الى كون الميت كلاله للورثه، و قال الزجاج على ما نقل عنه: من قرأ يورث-بكسر الراء-فكلاله مفعول، و من قرأ يورث-بفتح الراء-فكلاله منصوب على الحال.

و قوله: **غَيْرَ مُضَارٍّ** منصوب على الحال، و المضارّه هو الإضرار و ظاهره أن المراد به الإضرار بالدين من قبل الميت كأن يعتمل بالدين للإضرار بالورثه و تحريمهم الإرث، أو المراد المضارّه بالدين كما ذكروا بالوصيه بما يزيد على ثلث المال.

قوله تعالى: **تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ** الحد هو الحاجز بين الشيئين الذى يمنع اختلاط أحدهما بالآخر و ارتفاع التمايز بينهما كحد الدار و البستان، و المراد بها أحكام الارث و الفرائض المبينه، و قد عظم الله أمرها بما ذكر فى الآيتين من الثواب على إطاعه

و إطاعه رسوله فيها و العذاب الخالد المهين على المعصيه (١)(٢)(٣).

[سوره النساء (٤): الآيات ١٥ الى ١٦]

اشاره

وَ اللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَهُ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥) وَ الَّذَانِ يَأْتِيَانِيهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَ أَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا (١٦)

بيان:

قوله تعالى: وَ اللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ -الى قوله- مِنْكُمْ يقال: أتاه و أتى به أى فعله، و الفاحشه من الفحش و هو الشناعه فهى الطريقه الشنيعه، و قد شاع استعمالها فى الزنا، و قد اطلقت فى القرآن على اللواط أو عليه و على السحق معا فى قوله تعالى: إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (العنكبوت ٢٨).

و الظاهر أن المراد بها هاهنا الزنا على ما ذكره جمهور المفسرين، و روى أن النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ ذكر عند نزول آيه الجلد أن الجلد هو السبيل الذى جعله الله لهن اذا زنين، و يشهد بذلك ظهور الآيه فى أن هذا الحكم سينسخ حيث يقول تعالى: أو يجعل الله لهن سبيلا، و لم ينقل أن السحق

ص: ٦٢٧

١- ١). النساء ١١-١٤: كلام فى الارث على وجه كلى.

٢- ٢). النساء ١١-١٤: بحث روائى فى الارث.

٣- ٣). النساء ١١-١٤: بحث علمى فى فصول (ظهور الارث، ظهور الارث، تحول الارث تدريجيا، الوراثه بين الامم المتمدنه، ما ذا صنع الاسلام و الظرف هذا الظرف؟ علام استقرار حال النساء و اليتامى فى الاسلام؟ قوانين الارث الحديثه؟ مقايسه هذه السنن بعضها الى بعض، الوصيه).

نسخ حده بشيء آخر، ولا أن هذا الحد اجرى على أحد من اللاتي يأتينه و قوله: أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ ، يشهد بأن العدد من الرجال.

قوله تعالى: فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ رتب الإمساك و هو الحبس المخلد على الشهادة لا على أصل تحقق الفاحشه و إن علم به اذا لم يشهد عليه الشهود و هو من منن الله سبحانه على الامه من حيث السماح و الإغماض.

و الحكم هو الحبس الدائم بقرينه الغايه المذكوره فى الكلام أعنى قوله: حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ، غير أنه لم يعبر عنه بالحبس و السجن بل بالإمساك لهن فى البيوت، و هذا أيضا من واضح التسهيل و السماح بالإغماض، و قوله: حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا، أى طريقا الى التخلص من الإمساك الدائم و النجاه منه.

و فى الترديد إشعار بأن من المرجو أن ينسخ هذا الحكم، و هذا كان فإن حكم الجلد نسخه فإن من الضرورى أن الحكم الجارى على الزانيات فى أواخر عهد النبى صلى الله عليه و آله و سلم و المعمول به بعده بين المسلمين هو الجلد دون الإمساك فى البيوت فالآيه على تقدير دلالتها على حكم الزانيات منسوخه بآيه الجلد و السبيل المذكور فيها هو الجلد بلا ريب.

قوله تعالى: وَ الذَّانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا، الآيتان متناسبتان مضمونا و الضمير فى قوله: يَأْتِيَانَهَا، راجع الى الفاحشه قطعاً، و هذا يؤيد كون الآيتين جميعاً مسوقتين لبيان حكم الزنا، و على ذلك فالآيه الثانيه متممه الحكم فى الاولى فإن الاولى لم تتعرض إلا للنساء من الحكم، و الثانيه تبين الحكم فيهما معا و هو الإيذاء فيتحصل من مجموع الآيتين حكم الزانى و الزانيه معا و هو إيذاؤهما و إمساك النساء فى البيوت.

لكن لا- يلائم ذلك قوله تعالى بعد: فإن تابا و اصلحا فاعرضوا عنهما، فإنه لا يلائم الحبس المخلد فلا بد أن يقال: إن المراد بالإعراض الإعراض عن الإيذاء دون الحبس فهو بحاله.

و لهذا ربما قيل تبعا لما ورد فى بعض الروايات (و سنقلها) إن الآيه الاولى لبيان حكم الزنا

فى الثيب، و الثانى مسوقه لحكم الأبكار و إن المراد بالإيذاء هو الحبس فى الأبكار ثم تخليه سيبلهن مع التوبه و الإصلاح؛ لكن يبقى أولا الوجه فى تخصيص الاولى بالثيبات و الثانى بالأبكار من غير دليل يدل عليه من جهه اللفظ، و ثانيا وجه تخصيص الزانيه بالذكر فى الآيه الاولى، و ذكرهما معا فى الآيه الثانى: «وَ الذَّانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ» .

و من الممكن أن يقال فى معنى الآيتين نظرا الى الظاهر السابق الى الذهن من الآيتين، و القرائن المحفوف بها الكلام، و ما تقدم من الإشكال فيما ذكره من المعنى -و الله أعلم-: أن الآيه متضمنه لبيان حكم زنا المحصنات ذوات الأزواج، و يدل عليه تخصيص الآيه النساء بالذكر دون الرجال، و إطلاق النساء على الأزواج شائع فى اللسان و خاصه اذا اضيفت الى الرجال كما فى قوله: نِسَائِكُمْ؛ قال تعالى: وَ آتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَهُ (النساء ٤) و قال تعالى: مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ (النساء ٢٣).

و على هذا فقد كان الحكم الأولى المؤجل لهن الإمساك فى البيوت ثم شرع لهن الرجم، و ليس نسخا للكتاب بالسنه على ما استدل به الجبائى فإن النسخ إنما هو رفع الحكم الظاهر بحسب الدليل فى التأيد، و هذا حكم مقرون بما يشعر بأنه مؤجل سينقطع بانقطاعه و هو قوله: أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا لظهوره فى أن هناك حكما سيطلع عليهن، و لو سمي هذا نسخا لم يكن به بأس فإنه غير متضمن لما يلزم نسخ الكتاب بالسنه من الفساد فإن القرآن نفسه مشعر بأن الحكم سيرتفع بانقطاع أمده، و النبى صلى الله عليه و آله و سلم مبين لمرادات القرآن الكريم.

و الآيه الثانى متضمنه لحكم الزنا من غير إحصان و هو الإيذاء سواء كان المراد به الحبس أو الضرب بالنعال أو التعبير بالقول أو غير ذلك، و الآيه على هذا منسوخه بآيه الجلد من سوره النور، و أما ما ورد من الروايه فى كون الآيه متضمنه لحكم الأبكار فمن الآحاد و هى مع

ذلك مرسله ضعيفه بالإرسال، و الله أعلم هذا و لا يخلو مع ذلك من وهن (١).

قوله تعالى: فَإِنْ تَابَا وَ أَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا الخ؛ تقييد التوبه بالإصلاح لتحقيق حقيقه التوبه، و تبين أنها ليست مجرد لفظ أو حاله مندفعه.

[سوره النساء (٤): الآيات ١٧ الى ١٨]

إشاره

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشُّوْءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَ لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِيمَانَ وَ لَـالَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨)

بيان:

قوله تعالى: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشُّوْءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ التوبه هي الرجوع، و هي رجوع من العبد الى الله سبحانه بالندامه و الانصراف عن الاعراض عن العبوديه، و رجوع من الله الى العبد رحمه بتوفيقه للرجوع الى ربه أو بغفران ذنبه، و قد مر مرارا أن توبه واحده من العبد محفوفه بتوبتين من الله سبحانه على ما يفيداه القرآن الكريم.

و ذلك أن التوبه من العبد حسنه تحتاج الى قوه و الحسنات من الله، و القوه لله جميعا فمن الله توفيق الأسباب حتى يتمكن العبد من التوبه و يتمشى له الانصراف عن التوغل في غمرات

ص: ٦٣٠

(١ - ١). فان اشعار المنسوخ بالنسخ لا ينافى النسخ (منه).

البعد و الرجوع الى ربه اذا وفق للتوبه و الرجوع احتاج فى التطهر من هذه الألوأث، و زوال هذه القذارات، و الورد و الاستقرار فى ساحه القرب الى رجوع آخر من ربه اليه بالرحمه و الحنان و العفو و المغفره.

و هذان الرجوعان من الله سبحانه هما التوبتان الحافتان لتوبه العبد و رجوعه قال تعالى:

ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا (التوبه ١١٨) و هذه هى التوبه الاولى، و قال تعالى: فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ (البقره ١٦٠) و هذه هى التوبه الثانيه، و بين التوبتين منه تعالى توبه العبد كما سمعت.

و أما قوله: عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ، لفظه على و اللام تفيدان معنى النفع و الضرر كما فى قولنا: دارت الدائره لزيد على عمرو، و كان السباق لفلان على فلان، و وجه إفاده على و اللام معنى الضرر و النفع أن على تفيد معنى الاستعلاء، و اللام معنى الملك و الاستحقاق، و لازم ذلك أن المعانى المتعلقه بطرفين ينتفع بها أحدهما و يتضرر بها الآخر كالحرب و القتال و النزاع و نحوها فيكون أحدهما الغالب و الآخر المغلوب ينطبق على الغالب منهما معنى الملك و على المغلوب معنى الاستعلاء، و كذا ما أشبه ذلك كمعنى التأثير بين المتأثر و المؤثر، و معنى العهد و الوعد بين المتعهد و المتعهد له، و الواعد و الموعد له و هكذا، فظهر أن كون على و اللام لمعنى الضرر و النفع إنما هو أمر طار من ناحيه مورد الاستعمال لا من ناحيه معنى اللفظ.

و لما كان نجاح التوبه إنما هو لوعده وعدة الله عبادته فأوجبها بحبسه على نفسه لهم قال هاهنا: إنما التوبه على الله للذين يعملون السوء بجهاله فيجب عليه تعالى قبول التوبه لعباده لكن لا- على أن لغيره أن يوجب عليه شيئاً أو يكلفه سواء سمي ذلك الغير بالعقل أو نفس الأمر أو الواقع أو الحق أو شيئاً آخر، تعالى عن ذلك و تقدر بل على أنه تعالى وعد عبادته أن يقبل توبه التائب منهم و هو لا يخلف الميعاد، فهذا معنى وجوب قبول التوبه على الله فيما يجب، و هو أيضاً معنى كل ما يجب على الله من الفعل.

و ظاهر الآيه أولاً أنها لبيان أمر التوبه التي لله أعنى رجوعه تعالى بالرحمه الى عبده دون توبه العبد و إن تبين بذلك أمر توبه العبد بطريق اللزوم فإن توبه الله سبحانه اذا تمت شرائطها لم ينفك ذلك من تمام شرائط توبه العبد، و هذا أعنى كون الآيه فى مقام بيان توبه الله سبحانه لا يحتاج الى مزيد توضيح.

و ثانياً: أنها تبين أمر التوبه أعم مما اذا تاب العبد من الشرك و الكفر بالإيمان أو تاب من المعصيه الى الطاعه بعد الإيمان فإن القرآن يسمي الأمرين جميعاً بالتوبه قال تعالى: الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ (المؤمن ٧) يريد: للذين آمنوا بقرينه أول الكلام فسمى الإيمان توبه، و قال تعالى: ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ (التوبه / ١١٨).

و الدليل على أن المراد هى التوبه أعم من أن تكون من الشرك أو المعصيه التعميم الموجود فى الآيه التاليه: و ليست التوبه، الخ؛ فإنها تتعرض لحال الكافر و المؤمن معاً، و على هذا فالمراد بقوله: يَعْمَلُونَ السُّوءَ ما يعم حال المؤمن و الكافر معاً فالكافر كالمؤمن الفاسق ممن يعمل السوء بجهاله إما لأن الكفر من عمل القلب، و العمل أعم من عمل القلب و الجوارح، أو لأن الكفر لا- يخلو من أعمال سيئه من الجوارح فالمراد من الذين يعملون السوء بجهاله الكافر و الفاسق اذا لم يكونا معاندين فى الكفر و المعصيه.

و أما قوله تعالى: بِجَهَالَةٍ فالجهل يقابل العلم بحسب الذات غير أن الناس لما شاهدوا من أنفسهم أنهم يعملون كلا من أعمالهم الجاربه عن علم و إرادته، و أن الإيراده إنما تكون عن حب ما و شوق ما سواء كان الفعل مما ينبغى أن يفعل بحسب نظر العقلاء فى المجتمع أو مما لا- ينبغى أن يفعل لكن من له عقل مميز فى المجتمع عندهم لا- يقدم على السيئه المذمومه عند العقلاء فأذعنوا بأن من اقترف هذه السيئات المذمومه لهوى نفسانى و داعيه شهويه أو غضبيه خفى

عليه وجه العلم، و غاب عنه عقله المميز الحاكم في الحسن و القبيح و الممدوح و المذموم، و ظهر عليه الهوى و عندئذ يسمى حاله في علمه و إرادته «بِجَهَالِهِ» في عرفهم و إن كان بالنظر الدقيق نوعا من العلم لكن لما لم يؤثر ما عنده من العلم بوجه قبح الفعل و ذمه في ردعه عن الوقوع في القبح و الشناعه الحق بالعدم فكان هو جاهلا عندهم حتى أنهم يسمون الإنسان الشاب الحدث السن قليل التجربة جاهلا لغلبه الهوى و ظهور العواطف و الإحساسات النيئه على نفسه، و لذلك أيضا تراهم لا يسمون حال مقترف السيئات اذا لم يفعل في اقتراف السيئه عن الهوى و العاطفه جهاله بل يسمونها عنادا و عمدا و غير ذلك.

فتبين بذلك أن الجهاله في باب الأعمال إتيان العمل عن الهوى و ظهور الشهوه و الغضب من غير عناد مع الحق، و من خواص هذا الفعل الصادر عن جهاله أن اذا سكنت ثوره القوى و خمد لهيب الشهوه أو الغضب باقتراف للسيئه أو بحلول مانع أو بمرور زمان أو ضعف القوى بشيب أو مزاج عاد الإنسان الى العلم و زالت الجهاله، و بانت الندامه بخلاف الفعل الصادر عن عناد و تعمد و نحو ذلك فإن سبب صدوره لما لم يكن طغيان شىء من القوى و العواطف و الأميال النفسانيه بل أمرا يسمى عندهم بخبث الذات و ردائه الفطره لا- يزول بزوال طغيان القوى و الأميال سريرا أو بطيئا بل دام نوعا بدوام الحياه من غير أن يلحقه ندامه من قريب إلا أن يشاء الله.

نعم ربما يتفق أن يرجع المعاند اللجوج عن عناده و لجاجه و استعلائه على الحق فيتواضع للحق و يدخل في ذل العبوديه فيكشف ذلك عندهم عن أن عناده كان عن جهاله، و في الحقيقه كل معصيه جهاله من الإنسان، و على هذا لا يبقى للمعاند مصداق إلا من لا يرجع عن سوء عمله الى آخر عهده بالحياه و العافيه.

و من هنا يظهر معنى قوله تعالى: **ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ** أى إن عامل السوء بجهاله لا- يقيم عاكفا على طريقته ملازما لها مدى حياته من غير رجاء في عدوله الى التقوى و العمل الصالح

كما يدوم عليه المعاند اللجوج بل يرجع عن عمله من قريب فالمراد بالقريب العهد القريب أو الزمان القريب و هو قبل ظهور آيات الآخرة و قدوم الموت.

و كل معاند لجوج في عمله اذا شاهد ما يسوؤه من جزاء عمله و وبال فعله ألزمته نفسه على الندامه و التبرى من فعله لكنه بحسب الحقيقه ليس بنادم عن طبعه و هدايه فطرته بل إنما هي حيله يحتالها نفسه الشريره للتخلص من وبال الفعل، و الدليل عليه أنه اذا اتفق تخلصه من الوبال المخصوص عاد ثانيا الى ما كان عليه من سيئات الأعمال قال تعالى: **وَ لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (الأنعام ٢٨).**

و الدليل على أن المراد بالقريب فى الآيه هو ما قبل ظهور آيه الموت قوله تعالى فى الآيه التاليه: و ليست التوبه الى قوله: **قَالَ إِنِّي تَبْتُ الْآنَ .**

و على هذا يكون قوله: **ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ** كناية عن المساهله المفضيه الى فوت الفرصه.

و بالجمله يعود المعنى الى أن الله سبحانه إنما يقبل توبه المذنب العاصى اذا لم يقترف المعصيه استكبارا على الله بحيث يبطل منه روح الرجوع و التذلل لله، و لم يتساهل و يتسامح فى أمر التوبه تساهلا يؤدي الى فوت الفرصه بحضور الموت.

و يمكن أن يكون قوله: **بِجَهَالِهِ قيدا** توضيحيا، و يكون المعنى: للذين يعملون السوء و لا- يكون ذلك إلا- عن جهل منهم فإنه مخاطره بالنفس و تعرض لعذاب أليم، أو لا يكون ذلك إلا عن جهل منهم بكنهه المعصيه و ما يترتب عليها من المحذور، و لازمه كون قوله: **ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ** إشاره الى ما قبل الموت لا كناية عن المساهله فى أمر التوبه فإن من يأتي بالمعصيه استكبارا و لا يخضع لسطان الربوبيه يخرج على هذا الفرض بقوله: **ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ** لا بقوله: **بِجَهَالِهِ** و على هذا لا يمكن الكناية بقوله: **ثُمَّ يَتُوبُونَ** عن التكاهل و التوانى فافهم ذلك، و لعل الوجه الأول أوفق لظاهر الآيه.

قوله تعالى: فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا الإتيان باسم الإشارة الموضوع للبعيد لا يخلو من إشاره الى ترفع قدرهم و تعظيم أمرهم كما يدل قوله: يَعْمَلُونَ الشُّوَاءَ بِجَهَالَةٍ عَلَى الْمَسَاهِلَةِ فِي إِحْصَاءِ مَعَاصِيهِمْ عَلَى خِلَافِ مَا فِي آيَةِ الثَّانِيَةِ:

و ليست التوبه للذين يعملون السيئات، الخ.

و قد اختير لختم الكلام قوله: وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا دون أن يقال: و كان الله غفورا رحيمًا للدلاله على أن فتح باب التوبه إنما هو لعلمه تعالى بحال العباد و ما يؤديهم إليه ضعفهم و جهالتهم، و لحكمته المقتضيه لوضع ما يحتاج إليه إتقان النظام و إصلاح الامور و هو تعالى لعلمه و حكمته لا يغره ظواهر الأحوال بل يختبر القلوب، و لا يستزله مكر و لا خديعه فعلى التائب من العباد أن يتوب حق التوبه حتى يجيبه الله حق الإجابة.

قوله تعالى: وَ لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ الخ؛ في عدم إعادته قوله:

عَلَى اللَّهِ مَع كَوْنِهِ مَقْصُودًا مَا لَا يَخْفَى مِنَ التَّلْوِيحِ إِلَى انْقِطَاعِ الرَّحْمَةِ الْخَاصَةِ وَالْعَنَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ عَنْهُمْ كَمَا أَنَّ إِيرَادَ السَّيِّئَاتِ بِلَفْظِ الْجَمْعِ يَدُلُّ عَلَى الْعَنَايَةِ بِإِحْصَاءِ سَيِّئَاتِهِمْ وَحِفْظِهَا عَلَيْهِمْ كَمَا تَقَدَّمَتِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ.

و تقييد قوله: يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ بقوله: حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ الْمُفِيدُ لِاسْتِمْرَارِ الْفِعْلِ إِمَّا لِأَنَّ الْمَسَاهِلَةَ فِي الْمَبَادِرَةِ إِلَى التَّوْبَةِ وَتَسْوِيفِهَا فِي نَفْسِهِ مَعْصِيَهُ مُسْتَمِرَّهُ مُتَكَرِّرُهُ، أَوْ لِأَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ الْمَدَاوِمَةِ عَلَى الْفِعْلِ، أَوْ لِأَنَّ الْمَسَاهِلَةَ فِي أَمْرِ التَّوْبَةِ لَا تَخْلُو غَالِبًا عَنْ تَكَرُّرِ مَعَاصٍ مِجَانِسَةٍ لِلْمَعْصِيَةِ الصَّادِرَةِ أَوْ مِشَابِهَةٍ لَهَا.

و في قوله: حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ دون أن يقال: حتى اذا جاءهم الموت دلالة على الاستهانه بالأمر و الاستحقار له أى حتى يكون أمر التوبه هينا هذا الهوان سهلا هذه السهولة حتى يعمل الناس ما يهوونه و يختاروا ما يشاءونه و لا يباليون و كلما عرض لأحدهم عارض الموت قال: إنى تبت الآن فتندفع مخاطر الذنوب و مهلكه مخالفه الأمر الإلهي بمجرد لفظ يردده

أَلَسْتَهُمْ أَوْ خَطُورٍ يَخْطُرُ بِأَلَهُمْ فِي آخِرِ الْأَمْرِ.

و من هنا يظهر معنى قوله: قَالَ إِنِّي تُبْتُ بِقَوْلِهِ: أَلَمْ أَنْ يَفِيدَ أَنْ حُضُورَ الْمَوْتِ وَ مَشَاهِدَهُ هَذَا الْقَائِلِ سُلْطَانَ الْآخِرِ هُمَا الْمَوْجِبَانِ لَهُ أَنْ يَقُولَ تَبْتُ سِوَاءَ ذِكْرِهِ أَوْ لَمْ يَذْكُرْهُ فَالْمَعْنَى: إِنِّي تَائِبٌ لِمَا شَاهَدْتُ الْمَوْتَ الْحَقَّ وَ الْجَزَاءَ الْحَقَّ، وَ قَدْ قَالَ تَعَالَى فِي نَظِيرِهِ حَاكِيًا عَنِ الْمَجْرِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: وَ لَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَ سَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (السجده ١٢).

فهذه توبه لا- تقبل من صاحبها لأن اليأس من الحياه الدنيا و هول المطلع هما اللذان أجبراه على أن يندم على فعله و يعزم على الرجوع الى ربه و لات حين رجوع حيث لا حياه دنيويه و لا خيره عمليه.

قوله تعالى: وَ لَا- الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفَّارٌ هَذَا مُصَدِّقٌ آخِرٌ لِعَدَمِ قَبُولِ التَّوْبَةِ وَ هُوَ الْإِنْسَانُ يَتِمَادِي فِي الْكُفْرِ ثُمَّ يَمُوتُ وَ هُوَ كَافِرٌ فَإِنَّ اللَّهَ لَا- يَتُوبُ عَلَيْهِ فَإِنَّ إِيمَانَهُ وَ هُوَ تَوْبَتَهُ لَا- يَنْفَعُهُ يَوْمَئِذٍ، وَ قَدْ تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَنْ الْكُفْرَ لَا- نَجَاةَ مَعَهُ بَعْدَ الْمَوْتِ؛ وَ أَنَّهُمْ لَا- يَجَابُونَ وَ إِنْ سَأَلُوا، قَالَ تَعَالَى: إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ بَيَّنُّوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ أَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ مَاتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَ الْمَلَائِكَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَ لَا هُمْ يُنظَرُونَ (البقره ١٦٢)، وَ قَالَ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ مَاتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقِيلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَ لَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (آل عمران ٩١)، وَ نَفَى النَّاصِرِينَ نَفَى لِلشَّفَاعَةِ فِي حَقِّهِمْ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْآيَةِ فِي الْجِزَاءِ الثَّلَاثِ مِنَ الْكِتَابِ.

و تقييد الجملة بقوله: وَ هُمْ كُفَّارٌ يدل على التوبه للعاصي المؤمن اذا مات على المعصيه من غير استكبار و لا تساهل فإن التوبه من العبد بمعنى رجوعه الى عبوديه اختياريه و إن ارتفع موضوعها بالموت كما تقدم لكن التوبه منه تعالى بمعنى الرجوع بالمغفره و الرحمه يمكن أن

يتحقق بعد الموت لشفاعه الشافعين، و هذا في نفسه من الشواهد على أن المراد بالآيتين بيان حال توبه الله سبحانه لعباده لا بيان حال توبه العبد الى الله إلا بالتبع.

قوله تعالى: **أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** اسم الاشارة يدل على بعدهم من ساحه القرب و التشریف، و الاعتاد: و الإعداد أو الوعد (١).

سوره النساء (٤): الآيات ١٩ الى ٢٢

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُوا لَوْهَنَ لِيَدِهِنَّ لِيَذَّبُوا بَعْضَ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ وَ عَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَ يَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩) وَ إِنْ أَرَدْتُمْ إِسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَ آتَيْتُمْ إِخِيَارَهُنَّ فَتَطَارَافًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَ تَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا (٢٠) وَ كَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَ أَخَذَنْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٢١) وَ لَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَ مَقْتًا وَ سَاءَ سَبِيلًا (٢٢)

بيان:

قوله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ** -الى قوله- **كَرِهًا** كان أهل

ص: ٦٣٧

الجاهلية-على ما فى التاريخ و الروايه-يعدون نساء الموتى من التركه-اذا لم تكن المرأه أما للوارث-فيرثونهن مع التركه فكان أحد الوراث يلقى ثوبا على زوجه الميت و يرثها فإن شاء تزوج بها من غير مهر بل بالوراثه و إن كره نكاحها حبسها عنده فإن شاء زوجها من غيره فانتفع بمهرها،و إن شاء عضلها و منها انكاح و حبسها حتى تموت فيرثها إن كان لها مال.

و الآيه و إن كان ظاهرها أنها تنهى عن سنه دائره بينهم،و هى التى ذكرناها من إرث النساء فتكون مسوقه للردع عن هذه السنه لسيئه على ما ذكره بعض المفسرين إلا أن قوله فى ذيل الجملة: «كُرْهًا» لا يلائم ذلك سواء أخذ قيدا توضيحيا أو احترازيا.

فإنه لو كان قيدا توضيحيا أفاد أن هذه الوراثه تقع دائما على كره من النساء و ليس كذلك، و هو ظاهر،و لو كان قيدا احترازيا أفاد أن النهى إنما هو اذا كانت الوراثه على كره من النساء دون ما اذا كان على رضى منهن،و ليس كذلك.

نعم الكره أمر متحقق فى العضل عن الازدواج طمعا فى ميراثهن دائما أو غالبا بعد القبض عليهن بالإرث فالظاهر أن الآيه فى مقام الردع عن هذا الإرث على كره و أما نكاحهن بالإرث فالمتعرض للنهى عنه قوله تعالى فيما سيأتى: و لا تنكحوا ما نكح آبؤكم من النساء،الآيه؛ و أما تزويجهن من الغير و الذهاب بمهرهن فينهى عنه مثل قوله تعالى: وَ لِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا بَيْنَ (النساء/٣٢)،و يدل على الجميع قوله تعالى: فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَا فِي أَنْفُسِنَا بِالْمَعْرُوفِ (البقره/٢٣٤).

و أما قوله بعد:و لا تعضلوهن لتذهبوا،الخ؛فهو غير هذا العضل عن الازدواج للذهاب بالمال إرثا لما فى تذييله بقوله: لِيَتَذَهَّبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ من الدلاله على أن المراد به الذهاب ببعض المهر الذى آتاه الزوج العاضل دون المال الذى امتلكته من غير طريق هذا المهر.و بالجملة الآيه تنهى عن وراثه أموال النساء كرها منهن دون وراثه أنفسهن فإضافه الإرث الى النساء إنما هى بتقدير الأموال أو يكون مجازا عقليا.

قوله تعالى: وَلَا تَعْضَلُوهُنَّ لِتَذَهَبُوا -الى قوله- مُبَيَّنَّهٖ إِمَّا مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ:

تَرْتُثُوا وَالتَّقْدِيرُ: وَلَا أَنْ تَعْضَلُوهُنَّ وَإِمَّا نَهَى مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: لَا يَحِلُّ لَكُمْ لِكَوْنِهِ فِي مَعْنَى النِّهْيِ. وَالعَضْلُ هُوَ المَنْعُ وَالتَّضْيِيقُ وَالتَّشْدِيدُ. وَالفَاحِشَةُ الطَّرِيقَةُ الشَّنِيعَةُ كَثْرَ اسْتِعْمَالِهَا فِي الزَّنا. وَالمِيبِنَةُ المَتَبِينَةُ، وَقد نَقَلَ عَن سِيبَوِيهِ أَنَّ أَبَانَ وَاسْتِبَانَ وَبَيْنَ وَتَبِينَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، تَعَدَى وَ لَا تَعَدَى يُقَالُ: أَبَانَ الشَّيْءَ وَ اسْتَبَانَ وَ بَيْنَ وَ تَبِينَ وَ يُقَالُ: أَبَنْتَ الشَّيْءَ وَ اسْتَبَنْتَهُ وَ بَيْنْتَهُ وَ تَبَيْتَهُ.

قوله تعالى: وَ عَاشِرُوهُنَّ بِالمَعْرُوفِ إِلَى آخِرِ الآيَةِ؛ المَعْرُوفُ هُوَ الأَمْرُ الَّذِي يَعْرِفُهُ النَّاسُ فِي مَجْتَمَعِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْكُرُوهُ وَ يَجْهَلُوهُ، وَ حَيْثُ قِيدَ بِهِ الأَمْرُ بِالمَعَاشِرَةِ كَانَ المَعْنَى الأَمْرَ بِمَعَاشِرَتِهِنَّ المَعَاشِرَةَ المَعْرُوفَةَ بَيْنَ هؤُلاءِ المَأْمُورِينَ.

وَ المَعَاشِرَةُ الَّتِي يَعْرِفُهَا الرِّجَالُ وَ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ أَنَّ الوَاحِدَ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقُومٌ لِلْمَجْتَمَعِ يَسَاوِي سَائِرَ الأَجْزَاءِ فِي تَكْوِينِهِ المَجْتَمَعِ الإِنْسَانِي لِغَرَضِ التَّعَاوُنِ وَ التَّعَاوُدِ العَمُومِي النَّوعِي فَيَتَوَجَّهُ عَلَى كُلِّ مِنْهُمْ مِنَ التَّكْلِيفِ أَنْ يَسْعَى بِمَا فِي وَسْعِهِ مِنَ السَّعْيِ فِيمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ المَجْتَمَعُ فَيَقْتَنِي مَا يَنْتَفِعُ بِهِ فَيُعْطَى مَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ وَ يَأْخُذُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَلَوْ عَوَمَلَ مَعَ وَاحِدٍ مِنَ الأَجْزَاءِ المَجْتَمَعِ غَيْرِ هَذِهِ المَعَامِلَةِ، وَ لَيْسَ إِلاَّ- أَنْ يَضْطَهَدُ بِإِبْطَالِ اسْتِقْلَالِهِ فِي الجِزْئِيَّةِ فَيُؤْخَذُ تَابِعًا يَنْتَفِعُ بِهِ وَ لَا يَنْتَفِعُ هُوَ بِشَيْءٍ يَحَازِيهِ، وَ هَذَا هُوَ الاسْتِثْنَاءُ.

وَ قد بَيَّنَّ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ أَنَّ النَّاسَ جَمِيعًا-رِجَالًا وَ نِسَاءً-فُرُوعٌ أَصْلٌ وَاحِدٌ إِنْشَائِي، وَ أَجْزَاءٌ وَ أَعْضَاءٌ لِطَبِيعِهِ وَاحِدَةٍ بَشَرِيَّةٍ، وَ المَجْتَمَعُ فِي تَكْوِينِهِ مَحْتَاجٌ إِلَى هؤُلاءِ كَمَا هُوَ مَحْتَاجٌ إِلَى أَوْلَادِهِ عَلَى حَدِّ سِوَاءِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ (النساء ٢٥).

وَ لَا يَنَافِي ذَلِكَ اخْتِصَاصُ كُلِّ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ بِخِصْلَةٍ تَخْتَصُّ بِهِ كاخْتِصَاصِ الرِّجَالِ بِالشَّدَّةِ وَ القُوَّةِ نَوْعًا، وَ اخْتِصَاصِ النِّسَاءِ بِالرِّقَّةِ وَ العَاطْفَةِ فَإِنَّ الطَّبِيعَةَ الإِنْسَانِيَّةَ فِي حَيَاتِهَا التَّكْوِينِيَّةَ وَ الاجْتِمَاعِيَّةَ جَمِيعًا تَحْتَاجُ إِلَى بَرُوزِ الشَّدَّةِ وَ ظُهُورِ القُوَّةِ كَمَا تَحْتَاجُ إِلَى سَرِيانِ المَوَدَّةِ وَ الرِّحْمَةِ،

و الخصلتان جميعا مظهرا الجذب و الدفع العامين فى المجتمع الإنسانى.

فالطائفتان متعادلتان وزنا و أثرا كما أن أفراد طائفة الرجال متساويه فى الوزن و التأثير فى هذه البنيه المكونه مع اختلافهم فى شئونهم الطبيعیه و الاجتماعیه من قوه و ضعف، و علم و جهل، و كياسه و بلاده، و صغر و كبر، و رئاسه و مرءوسیه، و مخدومیه و خادمیه، و شرف و خسه و غير ذلك.

و أما قوله تعالى: فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَ يَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا فَهُوَ مِنْ قِبَلِ إِظْهَارِ الْأَمْرِ الْمَعْلُومِ فِي صُورِهِ الْمَشْكُوكِ الْمَحْتَمَلِ اتِّقَاءَ مَنْ تَقِظُ غَرِيْزَهُ التَّعَصُّبَ فِي الْمَخَاطَبِ نَظِيرَ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَعْجَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (سبأ ٢٥).

قوله تعالى: وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ الاستبدال استفعال بمعنى طلب البدل، و كأنه بمعنى إقامه زوج مقام زوج أو هو من قبيل التضمين بمعنى إقامه امرأه مقام أخرى بالاستبدال، و لذلك جمع بين قوله، أردتم و بين قوله: اسْتِبْدَالَ، الخ؛ مع كون الاستبدال مشتملا على معنى الإيراده و الطلب، و على هذا فالمعنى: و إن أردتم أن تقيموا زوجا مقام أخرى بالاستبدال.

و البهتان ما بهت الإنسان أى جعله متحيرا، و يغلب استعماله فى الكذب من القول و هو فى الأصل مصدر، و قد استعمل فى الآيه فى الفعل الذى هو الأخذ من المهر، و هو فى الآيه حال من الأخذ و كذا قوله: إِنَّمَا، و الاستفهام إنكارى.

و المعنى: إن أردتم أن تطلقوا بعض أزواجكم و تتزوجوا بأخرى مكانها فلا تأخذوا من الصداق الذى آتيتموها شيئا و إن كان ما آتيتموها مالا كثيرا، و ما تأخذونه قليلا جدا.

قوله تعالى: وَ كَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛

الاستفهام للتعجب، والإفضاء هو الاتصال بالماسه، وأصله الفضاء بمعنى السعه.

و لما كان هذا الأخذ إنما هو بالبغى و الظلم، و مورده مورد الاتصال و الاتحاد أوجب ذلك صحة التعجب حيث إن الزوجين يصيران بسبب ما أوجهه الازدواج من الإفضاء و الاقتراب كشخص واحد، و من العجيب أن يظلم شخص واحد نفسه و يؤذيها أو يؤذى بعض أجزائه بعضاً.

و أما قوله وَ أَخَذَنَ مِنْكُمْ مِيثاقًا غَلِيظًا فالظاهر أن المراد بالميثاق الغليظ هو العلقه التى أبرمها الرجل بالعقد و نحوه، و من لوازمها الصداق الذى يسمى عند النكاح و تستحقه المرأه من الرجل (١).

[سورة النساء (٤): الآيات ٢٣ الى ٢٨]

إشاره

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَ بَنَاتُكُمْ وَ أَخَوَاتُكُمْ وَ عَمَّاتُكُمْ وَ خَالَاتُكُمْ وَ بنَاتُ الْأَخِ وَ بنَاتُ الْأُخْتِ وَ أُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَ أَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعِ وَ أُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَ رَبَّائِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَ حَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَضْلَابِكُمْ وَ أَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٣) وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ أَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصَنَاتٍ بَيْنَ غَيْرِ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤) وَ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمَنْ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَيْمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَ آتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسَافِحَاتٍ وَ لَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَ أَنْ تَضَيَّرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٥) يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَ يَهْدِيَكُمْ سَبِيلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ يُرِيدَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا (٢٨)

ص: ٦٤١

(١- ١). النساء ١٩-٢٢: بحث روائى حول: التقاليد الجاهليه فى المرأه التى يموت زوجها، الامر بحسن معامله النساء.

بيان:

قوله تعالى: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ هؤلاء هن المحرمات

بحسب النسب و هي

ص: ٦٤٢

سبعة أصناف، و الام من اتصل إليها نسب الإنسان بالولادة كمن ولدته من غير واسطه أو بواسطه، كوالده الأب أو الام فصاعده، و البنت من اتصل نسبها بالإنسان بسبب ولادتها منه كالمولوده من صلبه بلا واسطه، و كبنت الابن و البنت فنازله، و الاخت من اتصل نسبها بالإنسان من جهه ولادتهما معها من الأب أو الام أو منهما جميعا بلا واسطه، و العمه اخت الأب و كذا اخت الجد من جهه الأب أو الام، و الخاله اخت الام، و كذا اخت الجده من جهه الأب أو الام.

و المراد بتحريم الامهات و ما يتلوها من الأصناف حرمه نكاحهن على ما يفيد الإطلاق من مناسبه الحكم و الموضوع، كما فى قوله تعالى: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَ الدَّمُ (المائده ٣) أى أكلهما، و قوله تعالى: فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ (المائده ٢٦) أى سكنى الأرض، و هذا مجاز عقلى شائع، هذا.

و لكنه لا يلائم ما سيأتى من قوله تعالى: «إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» فإنه استثناء من الوطاء دون علقه النكاح على ما سيجىء، و كذا قوله تعالى: أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصَيْنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ على ما سيجىء، فالحق أن المقدر هو ما يفيد معنى الوطاء دون علقه النكاح، و إنما لم يصرح تأدبا و صونا للسان على ما هو دأب كلامه تعالى.

و اختصاص الخطاب بالرجال دون أن يقال: حرم عليهن أبناهن، الخ؛ أو يقال مثلا: لا نكاح بين المرأه و ولدها، الخ؛ لما أن المطلب و الخطبه بحسب الطبع إنما يقع من جانب الرجال فحسب.

و توجيه الخطاب الى الجمع مع تعليق الحرمة بالجمع كالامهات و البنات، الخ؛ تفيد الاستغراق فى التوزيع، أى حرمت على كل رجل منكم أمه و بنته، اذ لا معنى لتحريم المجموع على المجموع، و لا لتحريم كل ام و بنت لكل رجل مثلا على كل رجل لأوله الى تحريم أصل النكاح، فمآل الآيه الى أن كل رجل يحرم عليه نكاح أمه و بنته و اخته، الخ.

قوله تعالى: وَ أُمَّهَاتِكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُم وَأَخَوَاتِكُمْ مِنَ الرِّضَاعِ شُرُوعِ فِي بَيَانِ الْمَحْرَمَاتِ بِالسَّبَبِ، وَ هِيَ سَبْعٌ سِتُّ مِنْهَا مَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَ سَابِعَتُهَا مَا يَتَضَمَّنُهُ قَوْلُهُ:

وَ لَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ، الْآيَةَ.

وَ الْآيَةُ بِسِيَاقِهَا تَدُلُّ عَلَى جَعْلِ الْأُمُومَةِ وَ الْبَنُوهِ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَ مَنْ أَرْضَعَتْهُ وَ كَذَا الْأَخُوهِ بَيْنَ الرَّجُلِ وَ اخْتِهِ مِنَ الرِّضَاعِ حَيْثُ أُرْسِلَ الْكَلَامُ فِيهَا إِرْسَالُ الْمُسْلِمِ فَالرِّضَاعُ تَكُونُ الرُّوَابِطُ النَّسَبِيَّةُ بِحَسَبِ التَّشْرِيْعِ، وَ هَذَا مِمَّا يَخْتَصُّ بِالشَّرِيْعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى مَا سَتَجِيءُ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ.

وَ قَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فِيهَا رَوَاهُ الْفَرِيقَانِ أَنَّهُ قَالَ: إِنْ اللَّهُ حَرَّمَ مِنَ الرِّضَاعِ مَا حَرَّمَ مِنَ النَّسَبِ وَ لَازِمُهُ أَنْ تَنْتَشِرَ الْحَرَمَةُ بِالرِّضَاعِ فِيمَا يَحَادِثُ مَحْرَمَاتِ النَّسَبِ مِنَ الْأَصْنَافِ، وَ هِيَ الْأُمُّ وَ الْبِنْتُ وَ الْإِخْتُ وَ الْعَمَّةُ وَ الْخَالَهُ وَ بِنْتُ الْأَخِ وَ بِنْتُ الْإِخْتِ، سَبْعَةٌ أَصْنَافٌ.

وَ أَمَّا مَا بِهِ يَتَحَقَّقُ الرِّضَاعُ وَ مَا لَهُ فِي نَشْرِهِ الْحَرَمَةَ مِنَ الشَّرَائِطِ مِنْ حَيْثُ الْكَمِّ وَ الْكَيْفِ وَ الْمَدَّةِ وَ مَا يَلْحَقُ بِهَا مِنَ الْأَحْكَامِ فَهُوَ مِمَّا يَتَبَيَّنُ فِي الْفِقْهِ، وَ الْبَحْثُ فِيهِ خَارِجٌ عَنِ وَضْعِ هَذَا الْكِتَابِ، وَ أَمَّا قَوْلُهُ: وَ أَخَوَاتِكُمْ مِنَ الرِّضَاعِ فَالْمُرَادُ بِهِ الْأَخَوَاتُ الْمَلْحَقَةُ بِالرَّجُلِ مِنْ جِهَةِ إِرْضَاعِ أُمِّهَا بِبَلْبِنِ أَبِيهِ وَ هَكَذَا.

قوله تعالى: وَ أُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ سِوَاءَ كَانَتِ النِّسَاءُ أَى الْأَزْوَاجِ مَدْخُولًا بِهِنَّ أَوْ غَيْرِ مَدْخُولٍ بِهِنَّ فَإِنَّ النِّسَاءَ إِذَا أُضِيفَتْ إِلَى الرَّجَالِ دَلَّتْ عَلَى مَطْلُوقِ الْأَزْوَاجِ، وَ الدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ التَّقْيِيدُ الْآتِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمُ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمُ بِهِنَّ، الْآيَةَ.

قوله تعالى: وَ رَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ - إِلَى قَوْلِهِ - فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمُ الرِّبَائِبُ جَمْعُ الرِّبِيْبَةِ وَ هِيَ بِنْتُ زَوْجِ الرَّجُلِ مِنْ غَيْرِهِ لِأَنَّ تَدْبِيرَ أَمْرٍ مَعَ الْمَرْأَةِ مِنَ الْوَلَدِ إِلَى زَوْجِهَا فَهُوَ الَّذِي يَرْبِيهَا وَ يَرْبِيهَا فِي الْعَادَةِ الْغَالِبَةِ وَ إِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ دَائِمًا.

وَ كَذَلِكَ كَوْنُ الرِّبِيْبَةِ فِي حِجْرِ الزَّوْجِ أَمْرٌ مَبْنِيٌّ عَلَى الْغَالِبِ وَ إِنْ لَمْ يَجْرَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ دَائِمًا،

و لذلك قيل: إن قوله: اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ قيد مبني على الغالب فالربيبه محرمه سواء كانت في حجر زوج امها أو لم يكن، فالقيد توضيحي لا احترازي.

و من الممكن أن يقال: إن قوله: اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ، إشاره الى ما يستفاد من حكمه تشريع الحرمة في محرمات النسب و السبب على ما سيجيء البحث عنه، و هو الاختلاط الواقع المستقر بين الرجل و بين هؤلاء الأصناف من النساء و المصاحبه الغالبه بين هؤلاء في المنازل و البيوت فلو لا- حكم الحرمة المؤبده لم يكن الاحتراز من وقوع الفحشاء بمجرد تحريم الزنا (على ما سيجيء بيانه).

فيكون قوله: «اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ» مشيرا الى أن الربائب لكونهن غالبا في حجوركم و في صحابتكم تشارك سائر الأصناف في الاشتمال على ملاك التحريم و حكمته.

و كيفما كان ليس قوله: اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ قيذا احترازيا يتقيد به التحريم حتى تحل الربيه لرابها اذا لم تكن في حجره كالبنات الكبيره يتزوج الرجل بامها، و الدليل على ذلك المفهوم المصرح به في قوله تعالى: فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ حيث ذكر فيه ارتفاع قيد الدخول لكون الدخول دخيلا في التحريم، و لو كان الكون في الحجور مثله لكان من اللازم ذكره، و هو ظاهر.

و قوله: فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أى في أن تنكحوهن حذف إيثارا للاختصار لدلاله السياق عليه.

قوله تعالى: وَ حَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمُ الْحَلَائِلُ جمع حليله قال في المجمع: و الحلائل جمع الحليله، و هى بمعنى محلله مشتقه من الحلال و الذكر حليل، و جمعه أحله كعزيز و أعزه سميا بذلك لأن كل واحده منهما يحل له مباشره صاحبه، و قيل هو من الحلول لأن كل واحد منهما يحال صاحبه أى يحل معه فى الفراش، انتهى.

و المراد بالأبناء من اتصل بالإنسان بولاده سواء كان ذلك بلا واسطه أو بواسطه ابن أو

بنت، وتقييده بقوله «الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ» احتراز عن حليله من يدعى ابنا بالتبني دون الولاده.

قوله تعالى: «وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ» المراد به بيان تحريم نكاح اخت الزوجه ما دامت الزوجه حيه باقيه تحت حباله الزوجيه فهو أوجز عباره و أحسنها فى تأديه المراد، و إطلاق الكلام ينصرف الى الجمع بينهما فى النكاح فى زمان واحد، فلا مانع من أن ينكح الرجل إحدى الاختين ثم يتزوج بالآخرى بعد طلاق الاولى أو موتها، و من الدليل عليه السيره القطعيه بين المسلمين المتصله بزمان النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

و أما قوله: «إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ» فهو كتنظيره المتقدم فى قوله «وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ» ناظر الى ما كان معمولاً به بين عرب الجاهليه من الجمع بين الاختين، و المراد به بيان العفو عما سلف من عملهم بالجمع بين الاختين قبل نزول هذه الآيه دون ما لو كان شىء من ذلك فى زمان النزول بنكاح سابق فإن الآيه تدل على منعه لأنه جمع بين الاختين بالفعل كما يدل عليه أيضا ما تقدم نقله من أسباب نزول قوله «وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ» الآيه؛ حيث فرق النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بعد نزول الآيه بين الأبناء و بين نساء آبائهم مع كون النكاح قبل نزول الآيه.

و رفع التحريم- و هو الجواز- عن نكاح سالف لا يتلى به بالفعل، و العفو عنه من حيث نفس العمل المنقضى و إن كان لغوا لا أثر له لكنه لا يخلو عن الفائده من حيث آثار العمل الباقيه بعده كطهاره المولد و اعتبار القرابه مع الاستيلاء و نحو ذلك.

و بعباره اخرى لا- معنى لتوجيه الحرمة أو الإباحه الى نكاح سابق قد جمع بين الاختين اذا ماتتا مثلا أو ماتت إحداهما أو حل الطلاق بهما أو بإحداهما لكن يصح رفع الإلغاء و التحريم عن مثل هذا النكاح باعتبار ما استتبعه من الأولاد من حيث الحكم بطهاره مولدهم، و وجود القرابه بينهم و بين آبائهم المولدين لهم و سائر قرابات الآباء، المؤثر ذلك فى الإرث و النكاح

و غير ذلك.

و على هذا فقوله «إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ» استثناء من الحكم باعتبار آثاره الشرعيه لا باعتبار أصل تعلقه بعمل قد انقضى قبل التشريع، و من هنا يظهر أن الاستثناء متصل لا منقطع كما ذكره المفسرون.

و يمكن أن يرجع الاستثناء الى جميع الفقرات المذكوره فى الآيه من غير أن يختص بقوله «وَ أَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ» فإن العرب و إن كانت لا ترتكب من هذه المحرمات إلا الجمع بين الاختين، و لم تكن تقترف نكاح الامهات و البنات و سائر ما ذكرت فى الآيه إلا أن هناك امما كانت تنكح أقسام المحارم كالفرس و الروم و سائر الامم المتمدنه و غير المتمدنه يوم نزول الآيات على اختلافهم فيه، و الإسلام يعتبر صحه نكاح الامم غير المسلمه الدائر بينهم على مذاهيبهم فيحكم بطهاره مولدهم، و يعتبر صحه قرابتهم بعد الدخول فى دين الحق، هذا، لكن الوجه الأول أظهر.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا تعليل راجع الى الاستثناء، و هو من الموارد التى تعلق فيها المغفره بآثار الأعمال فى الخارج دون الذنوب و المعاصى.

قوله تعالى: وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ الْمُحْصَنَاتُ بفتح الصاد اسم مفعول من الإحصان و هو المنع، و منه الحصن الحصين أى المنيع يقال: أحصنت المرأة اذا عفت فحفظت نفسها و امتنعت عن الفجور، قال تعالى: أَلَّتْىَ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا (التحریم ١٢) أى عفت و يقال: أحصنت المرأة-بالبناء للفاعل و المفعول-اذا تزوجت فأحصن زوجها أو تزوج إياها من غير زوجها، و يقال: أحصنت المرأة اذا كانت حره فمنعها ذلك من أن يمتلك الغير بضعتها أو منعها ذلك من الزنا لأن ذلك كان فاشيا فى الإماماء.

و الظاهر أن المراد بالمحصنات فى الآيه هو المعنى الثانى أى المتزوجات دون الأول و الثالث لأن الممنوع المحرم فى غير الأصناف الأربعة عشر المعدوده فى الآيتين هو نكاح المزوجات

فحسب فلا منع من غيرها من النساء سواء كانت عفيفه أو غيرها، وسواء كانت حره أو مملوكه فلا وجه لأن يراد بالمحصنات فى الآيه العفائف مع عدم اختصاص حكم المنع بالعفائف ثم يرتكب تقييد الآيه بالتزويج، أو حمل اللفظ على إرادته الحرائر مع كون الحكم فى الإمام أيضا مثلهن ثم ارتكاب التقييد بالتزويج فإن ذلك أمر لا يرتضيه الطبع السليم.

فالمراد بالمحصنات من النساء المزوجات و هى التى تحت حباله التزويج، و هو عطف على موضع امهاتكم، و المعنى: و حرمت عليكم كل مزوجه من النساء ما دامت مزوجه ذات بعل.

و على هذا يكون قوله «إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» رفعا لحكم المنع عن محصنات الإمام على ما ورد فى السنه أن لمولى الأيمه المزوجه أن يحول بين مملوكته و زوجها ثم ينالها عن استبراء ثم يردّها الى زوجها.

قوله تعالى: كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ أَى أَلْزَمُوا حَكْمَ اللَّهِ الْمَكْتُوبَ الْمُقْضَى عَلَيْكُمْ و قد ذكر المفسرون أن قوله «كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ» منصوب مفعولا مطلقا لفعل مقدر، و التقدير: كتب الله كتابا عليكم ثم حذف الفعل و اضيف المصدر الى فاعله و اقيم مقامه، و لم يأخذوا لفظ عليكم سم فعل لما ذكره النحويون أنه ضعيف العمل ما يتقدم معموله عليه؛ هذا.

قوله تعالى: وَ أَجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ ظَاهِرٌ بِمَا الظاهره فى غير اولى العقل، و كذا الإشاره بذلكم الدال على المفرد المذكور، و كذا قوله بعده: أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ، أن يكون المراد بالموصول و اسم الإشاره هو المقدر فى قوله: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَمْهَاتُكُمْ، المتعلق به التحريم من الوطاء و النيل أو ما هو من هذا القبيل، و المعنى: و احل لكم من نيلهن ما هو غير ما ذكر لكم، و هو النيل بالنكاح فى غير من عد من الأصناف الخمسه عشر أو بملك اليمين، و حينئذ يستقيم بدليه قوله: أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ، من قوله: وَ أَجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ كل الاستقامه.

قوله تعالى: «أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصَيْنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ» بدل أو عطف بيان من قوله «مَا وَرَاءَ ذَلِكَ» يتبين به الطريق المشروع فى نيل النساء و مباشرتهن، و ذلك أن الذى يشمله قوله «وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ» من المصداق ثلاثه:النكاح و ملك اليمين و السفاح و هو الزنا فيبين بقوله «أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ» الخ؛المنع عن السفاح و قصر الحل فى النكاح و ملك اليمين ثم اعتبر الابتغاء بالأموال و هو فى النكاح المهر و الاجره-ركن من أركانه-و فى ملك اليمين الثمن-و هو الطريق الغالب فى تملك الإمام-فيؤول معنى الآية الى مثل قولنا:احل لكم فيما سوى الأصناف المعدوده أن تطلبوا مباشرة النساء و نيلهن بإنفاق أموالكم فى اجره المنكوحات من النساء نكاحا من غير سفاح أو انفاقها فى ثمن الجوارى و الإماء.

و من هنا يظهر أن المراد بالإحصان فى قوله «مُحْصَيْنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ» إحصان العفه دون إحصان التزويج و إحصان الحرية فإن المراد بابتغاء الأموال فى الآية أعم مما يتعلق بالنكاح أو بملك اليمين و لا دليل على قصرها فى النكاح حتى يحمل الإحصان على إحصان التزويج، و ليس المراد بإحصان العفه الاحتراز عن مباشرة النساء حتى ينافى المورد بل ما يقابل السفاح أعنى التعدى الى الفحشاء بأى وجه كان بقصر النفس فى ما أحل الله، و كفها عما حرم الله فى الطرق العادية فى التمتع المباشرى الذى اودع النزوع اليه فى جبله الانسان و فطرته.

قوله تعالى: «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً كَأَنَّ الضمير فى قوله: «بِهِ» راجع الى ما يدل على قوله: «وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ» و هو النيل أو ما يؤدى معناه»، فيكون «مَا» للتوقيت، و قوله «مِنْهُنَّ» متعلقا بقوله: «اسْتَمْتَعْتُمْ» و المعنى: مهما استمتعتم بالنيل منهن فآتوهن اجورهن فريضة.

و يمكن أن يكون ما موصوله، و استمتعتم صله لها، و ضمير به راجعا الى الموصول و قوله «مِنْهُنَّ» بيانا للموصول، و المعنى: و من استمتعتم به من النساء، الخ.

و الجملة أعنى قوله: **فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ**، الخ؛ تفرّيع لما تقدمها من الكلام-لمكان الفاء-تفرّيع البعض على الكل أو تفرّيع الجزئى على الكلى بلا- شك فإن ما تقدم من الكلام أعنى قوله «**أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصَتَيْنِ غَيْرِ مُسَافِحِينَ**» كما تقدم بيانه شامل لما فى النكاح و ملك اليمين، فتفرّيع قوله: **فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ** عليه يكون من تفرّيع الجزء على الكل أو تفرّيع بعض الأقسام الجزئيه على المقسم الكلى.

و هذا النوع من التفرّيع كثير الورد فى كلامه تعالى كقوله عزّ من قائل: **أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ** الآية (البقره ١٨٤) وقوله: **فَإِذَا أَمْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ** الآية (البقره ١٩٦) وقوله: **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ** (البقره ٢٥٦) الى غير ذلك.

و المراد بالاستمتاع المذكور فى الآية نكاح المتعه بلا شك فإن الآية مدنيه نازله فى سوره النساء فى النصف الأول من عهد النبى صلى الله عليه و آله و سلم بعد الهجره على ما يشهد به معظم آياتها، و هذا النكاح أعنى نكاح المتعه كانت دائره بينهم معموله عندهم فى هذه البرهه من الزمان من غير شك- و قد أطبقت الأخبار على تسلم ذلك- سواء كان الإسلام هو المشرع لذلك أو لم يكن فأصل وجوده بينهم بمرأى من النبى و مسمع منه لا- شك فيه، و كان اسمه هذا الاسم و لا يعبر عنه إلا بهذا اللفظ فلا مناص من كون قوله «**فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ**» محمولاً عليه مفهوماً منه هذا المعنى كما أن سائر السنن و العادات و الرسوم الدائره بينهم فى عهد النزول بأسمائها المعروفه المعهوده كلما نزلت آيه متعرضه لحكم متعلق بشىء من تلك الأسماء بامضاء أو رد أو أوامر أو نهى لم يكن بد من حمل الأسماء الوارده فيها على معانيها المسماه بها من غير أن تحمل على معانيها اللغويه الأصلية.

و ذلك كالحج و البيع و الربا و الربح و الغنيمه و سائر ما هو من هذا القبيل فلم يمكن لأحد أن يدعى أن المراد بحج البيت قصده، و هكذا، كذلك ما أتى به النبى صلى الله عليه و آله و سلم من الموضوعات

الشرعيه ثم شاع الاستعمال حتى عرفت بأساميه الشرعيه كالصلاه و الصوم و الزكاه و حج التمتع و غير ذلك لا مجال بعد تحقق التسميه لحمل ألفاظها الواقعه فى القرآن الكريم على معانيها اللغويه الأصلية بعد تحقق الحقيقه الشرعيه أو المتشرعيه فيها.

فمن المتعين أن يحمل الاستمتاع المذكور فى الآيه على نكاح المتعه لدورانه بهذا الاسم عندهم يوم نزول الآيه سواء قلنا بنسخ نكاح المتعه بعد ذلك بكتاب أو سنه أو لم نقل فإنما هو أمر آخر.

و جملة الأمر أن المفهوم من الآيه حكم نكاح المتعه، وهو المنقول عن القدماء من مفسرى الصحابه و التابعين كابن عباس و ابن مسعود و ابى بن كعب و قتاده و مجاهد و السدى و ابن جبير و الحسن و غيرهم، و هو مذهب أئمه أهل البيت عليهم السلام (١).

قوله تعالى: وَ مَنْ لَمْ يَسِدِّطْغِ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ، الطول الغنى و الزياده فى القدره، و كلا المعنيين يلائمان الآيه، و المراد بالمحصنات الحرائر بقرينه مقابلته بالفتيات، و هذا بعينه يشهد على أن ليس المراد بها العفائف، و إلا لم تقابل بالفتيات بل بها و بغير العفائف، و ليس المراد بها ذوات الأزواج اذ لا يقع عليها العقد و لا المسلمات و إلا لاستغنى عن التقييد بالمؤمنات.

و المراد بقوله «فَمِنْ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» ما ملكته أيمان المؤمنين غير من يريد الأزواج و إلا فتزوج الإنسان بملك يمين نفسه باطل غير مشروع، و قد نسب ملك يمين الى المؤمنين و فيهم المريد للتزويج بعد الجميع واحدا غير مختلف لاتحادهم فى الدين، و اتحاد مصالحهم و منافعهم كأنهم شخص واحد.

و فى تقييد المحصنات و كذا الفتيات بالمؤمنات إشاره الى عدم جواز تزوج غير المؤمنات

ص: ٦٥١

(١ - ١). النساء ٢٣-٢٨: بحث فى متعه النساء.

من كتابيه و مشركه، و لهذا الكلام تمه ستمر بك إن شاء الله العزيز في أوائل سورة المائدة.

و محصل معنى الآية أن من لم يقدر منكم على أن ينكح الحرائر المؤمنات لعدم قدرته على تحمل أثقال المهر و النفقه فله أن ينكح من الفتيات المؤمنات من غير أن يتخرج من فقدان قدره على الحرائر، و يعرض نفسه على خطرات الفحشاء و معترض الشقاء.

فالمراد بهذا النكاح الدائم، و الآية في سياق التنزل أى إن لم يمكنكم كذا فيمكنكم كذا، و إنما قصر الكلام في صورته التنزل على بعض أفراد المنزل عنه أعنى على النكاح الدائم الذى هو بعض أفراد النكاح الجائر لكون النكاح الجائر لكون النكاح الدائم هو المتعارف المتعين بالطبع في نظر الإنسان المرید تأسيس البيت و إيجاد النسل و تخليف الولد، و نكاح المتعه تسهيل ديني خفف الله به عن عباده لمصلحه سد طريق الفحشاء، و قطع منابت الفساد.

قوله تعالى: **وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ** لما كان الإيمان المأخوذ في متعلق الحكم أمرا قلبيا لا سبيل الى العلم بحقيقته بحسب الأسباب، و ربما أوهم تعليقا بالمتعذر أو المتعسر، و أوجب تخرج المكلفين منه، بين تعالى أنه هو العالم بإيمان عباده المؤمنين و هو كنايه عن أنهم إنما كلفوا الجرى على الأسباب الظاهرية الداله على الإيمان كالشهادتين و الدخول في جماعه المسلمين و الإتيان بالوظائف العامه الدينيه، فظاهر الإيمان هو الملاك دون باطنه.

و في هدايه هؤلاء المكلفين غير المستطيعين الى الازدواج بالإماء نقص و قصور آخر في الوقوع موقع التأثير و القبول، و هو أن عامه الناس يرون لطبقه المملوكين من العبيد و الإماء هوانا في الأمر و حسه في الشأن و نوع ذله و انكسار فيوجب ذلك انقباضهم و جماع نفوسهم من الاختلاط بهم و المعاشره معهم و خاصه بالازدواج الذى هو اشتراك حيوى و امتزاج باللحم و الدم.

فأشار سبحانه بقوله: «بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ» الى حقيقه صريحه يندفع بالتأمل فيها هذا

التوهم الفاسد فالرقيق إنسان كما أن الحر إنسان لا يتميزان في ما به يصير الإنسان واجدا لشئون الإنسانية، وإنما يفترقان بسلسله من أحكام موضوعه يستقيم بها المجتمع الإنساني في إنتاجه سعادة الناس، ولا عبره بهذه التميزات عند الله، والذي به العبره هو التقوى الذى به الكرامه عند الله، فلا- ينبغي للمؤمنين أن يفعلوا عن أمثال هذه الخطرات الوهميه التى تبعدهم عن حقائق المعارف المتضمنه سعادتهم و فلاحهم، فإن الخروج عن مستوى الطريق المستقيم، وإن كان حقيرا فى بادى أمره لكنه لا يزال يبعد الإنسان من صراط الهدايه حتى يورده أوديه الهلكه.

و من هنا يظهر أن الترتيب الواقع فى صدر الآيه فى صورته الاشتراط و التنزل، أعنى قوله:

وَمَنْ لَمْ يَشْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمَنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، إنما هو جرى فى الكلام على مجرى الطبع و العاده، و ليس إلزاما للمؤمنين على الترتيب بمعنى أن يتوقف جواز نكاح الأمه على فقدان الاستطاعه على نكاح الحره بل لكون الناس بحسب طباعهم سالكين هذا المسلك خاطبهم أن لو لم يقدروا على نكاح الحرائر فلهم أن يقدموا على نكاح الفتيات من غير انقباض، و نبه مع ذلك على أن الحر و الرق من نوع واحد بعض أفراده يرجع الى بعض.

قوله تعالى: فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ إِلَى قوله أَخْذَانِ المراد بالمحصنات العفائف فإن ذوات البعوله لا يقع عليهن نكاح، و المراد بالمسافحات ما يقال متخذات الأخدان، و الأخدان جمع خدن بكسر الخاء و هو الصديق، يستوى فيه المذكر و المؤنث المفرد و الجمع، و إنما اتى به بصيغته الجمع للدلاله على الكثره نصا، فمن يأخذ صديقا للفحشاء لا يقع بالواحد و الاثنى فيه لأن النفس لا تقف على حد إذا اطيعت فيما تهواه.

و بالنظر إلى هذه المقابله قال من قال: إن المراد بالسفاح الزنا جهرا و باتخاذ الخدن الزنا سرا و قد كان اتخاذ الخدن متداولاً عند العرب حتى عند الأحرار و الحرائر لا يعاب به مع ذمهم

فقوله: فَأَنْكَحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ إرشاد إلى نكاح الفتيان مشروطاً بأن يكون بإذن مواليهن فإن زمام امرهن إنما هو بيد الموالى لا غير و إنما عبر عنهم بقوله أَهْلِهِنَّ جرياً على ما يقتضيه قوله قبل: بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فالفتاه واحده من اهل بيت مولاها و مولاها أهلها.

و المراد بإتيانهن اجورهن بالمعروف توفيتهن مهور نكاحهن و اتيان الأ-جور إياهن إعطاؤها مواليهن، و قد أرشد إلى الإعطاء بالمعروف عن غير بخس و مماطله و إذاء.

قوله تعالى: فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفٌ مَّا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ قرئ احصن بضم الهمزة بالبناء للمفعول و بفتح الهمزة بالبناء للفاعل، و هو الأرجح.

الإحصان فى الآيه إن كان هو إحصان الأزواج كان أخذه فى الشرط المجرى كونه مورد لكلام فى ما تقدم ازدواجهن، و ذلك أن الأمه تعذب نصف عذاب الحره اذا زنت سواء كانت محصنه بالأزواج أو لا من غير أن يؤثر الإحصان فيها شيئاً زائداً.

و أما اذا كان إحصان الإسلام كما قيل -و يؤيده قراءه فتح الهمزة- تم المعنى من غير مثنونه زائده، و كان عليهن اذا زنين نصف عذاب الحرائر سواء كن ذوات بعوله أو لا.

و المراد بالعذاب هو الجلد دون الرجم لأن الرجم لا يقبل الانتصاف و هو الشاهد على أن المراد بالمحصنات الحرائر غير ذوات الأزواج المذكوره فى صدر الآيه. و اللام للعهد فمعنى الآيه بالجملة أن الفتيات المؤمنات اذا أتين بفاحشه و هو الزنا فعليهن نصف حد المحصنات غير ذوات الأزواج، و هو جلد خمسين سوطاً.

و من الممكن أن يكون المراد بالإحصان إحصان العفه، و تقريره أن الجوارى يومئذ لم يكن لهن الاشتغال بكل ما تهواه أنفسهن من الأعمال بما لهن من اتباع أوامر مواليهن و خاصه فى

الفاحشه و الفجور و كانت الفاحشه فيهن-لو اتفقت-بأمر من مواليهن فى سبيل الاستغلال بهن و الاستدرار من عرضهن كما يشعر به النهى الوارد فى قوله تعالى: وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا (النور/٣٣).فالتماسهن الفجور و اشتغالهن بالفحشاء باتخاذها عاده و مكسبا كان فيما كان يأمر مواليهن من دون أن يسع لهن الاستنكاف و التمرد،و اذا لم يكرهن الموالى على الفجور فالمؤمنات منهن على ظاهر تقوى الإسلام،و عفه الإيمان،و حينئذ إن أتين بفاحشه فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب،و هو قوله تعالى: فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ،الخ.

و من هنا يظهر أن لا- مفهوم لهذه الشرطيه على هذا المعنى و ذلك أنهم اذا لم يحصن و لم يعففن كن مكرهات من قبل مواليهن مؤتمرات لأمرهم كما لا- مفهوم لقوله تعالى: وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا (النور/٣٣)حيث إنهن إن لم يردن التحصن لم يكن موضوع لإكراههن من قبل الموالى لرضاهن بذلك فافهم.

قوله تعالى: ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ الْعَنَتَ الْجَهْدَ وَ الشَّدَةَ وَ الْهَلَكَ،و كأن المراد به الزنا الذى هو نتيجة وقوع الإنسان فى مشقه الشبق و جهد شهوه النكاح و فيه هلاك الإنسان.و الاشاره على ما قيل:الى نكاح الجوارى المذكور فى الآيه،و عليه فمعنى قوله «وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ» أن تصبروا عن نكاح الإماء أو عن الزنا خير لكم.و يمكن أن يكون ذلك إشاره الى وجوب نكاح الاماء أو وجوب مطلب النكاح لو استفيد شىء منهما من سابق سياق الآيه و الله أعلم.

و كيف كان فكون الصبر خيرا إن كان المراد هو الصبر عن نكاح الإماء إنما هو لما فيه من حقوق مواليهن و فى أولادهن على ما فصل فى الفقه،و إن كان المراد بالصبر عن الزنا إنما هو لما فيه الصبر من تهذيب النفس و تهيئه ملكه التقوى فيها بترك اتباع هواها فى الزنا من غير ازدواج أو معه،و الله غفور رحيم يمحو بمغفرته آثار خطرات السوء عن نفوس المتقين من

عباده و يرحمهم برحمته.

□
قوله تعالى: يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ بيان و إشاره الى غايه تشريع ما سبق من الأحكام فى الآيات الثلاث و المصالح التى تترتب عليها اذا عمل بها فقوله: يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ أى أحكام دينه مما فيه صلاح دنياكم و عقباكم، و ما فى ذلك من المعارف و الحكم و على هذا فمعمول قوله: لِيُبَيِّنَ محذوف للدلاله على فخامه أمره و عظم شأنه، و يمكن أن يكون قوله: لِيُبَيِّنَ لَكُمْ، و قوله: وَ يَهْدِيكُمْ مَتَازِعِينَ فى قوله؛ سُنَّ الَّذِينَ .

قوله تعالى: وَ يَهْدِيكُمْ سُنَّ الَّذِينَ مِنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أى طرق حياه السابقين من الأنبياء و الامم الصالحه، الجارين فى الحياه الدنيا على مرضاه الله، الحائزين به سعادته الدنيا و الآخرة، و المراد بسننهم على هذا المعنى سننهم فى الجملة لا سننهم بتفاصيلها و جميع خصوصياتها فلا يرد عليه أن من احكامهم ما تنسخه هذه الآيات بعينها كازدواج الإخوه بالاخوات فى سنه آدم، و الجمع بين الاختين: فى سنه يعقوب عليه السلام، و قد جمع عليه السلام بين الاختين ليا ام يهودا و راحيل ام يوسف على ما فى بعض الأخبار، هذا.

□
قوله تعالى: وَ يُتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ التوبه المذكوره هو رجوعه الى عبده بالنعمة و الرحمه، و تشريع الشريعة، و بيان الحقيقه، و الهدايه الى طريق الاستقامه كل ذلك توبه منه سبحانه كما أن قبول توبه العبد و رفع آثار المعصيه توبه.

□
و تذييل الكلام بقوله: وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ليكون راجعا الى جميع فقرات الآيه، و لو كان المراد رجوعه الى آخر الفقرات لكان الأنسب ظاهرا أن يقال: و الله غفور رحيم.

□
قوله تعالى: وَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ يُرِيدُ الَّذِينَ الْخ؛ كأن تكرر ذكر توبته للمؤمنين للدلاله على أن قوله: وَ يُرِيدُ الَّذِينَ يُتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا إنما يقابل من الفقرات الثلاث فى الآيه السابقه فقره الأخيره فقط، اذ لو ضم قوله: وَ يُرِيدُ الَّذِينَ، الى الآيه السابقه من غير تكرر قوله: وَ اللَّهُ يُرِيدُ، الخ؛ أفاد المقابله فى معنى جميع

و المراد بالميل العظيم هتك هذه الحدود الإلهيه المذكوره فى الآيات بإتيان المحارم، و إلغاء تأثير الأنساب و الأسباب، و استباحه الزنا و المنع عن الأخذ بما سنه الله من السنه القويمه.

قوله تعالى: يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَ خُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا كُونِ الْإِنْسَانِ ضَعِيفًا لما ركب الله فيه القوى الشهويه التى لا تزال تنازعه فى ما تتعلق به من المشتهيات، و تبعته الى غشيانها فمن الله عليهم بتشريع حليه ما تنكسر به سوره شهوتهم بتجويز النكاح بما يرتفع به غائله الحرج حيث قال: وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ وَ هُوَ الْنِكَاحُ وَ مَلِكِ الْيَمِينِ فَهَدَاهُمْ بِذَلِكَ سَنَنِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَ زَادَهُمْ تَخْفِيفًا مِنْهُ لَهُمْ لِتَشْرِيعِ نِكَاحِ الْمُتَعَةِ إِذْ لَيْسَ مَعَهُ كَلْفُهُ الْنِكَاحِ وَ مَا يَسْتَتْبِعُهُ مِنْ أَثْقَالِ الْوُضَائِفِ مِنْ صَدَاقٍ وَ نَفَقَةٍ وَ غَيْرِ ذَلِكَ.

و ربما قيل: إن المراد به إباحه نكاح الإماء عند الضروره تخفيفاً. و فيه لا أن نكاح الإماء عند الضروره كان معمولاً به بينهم قبل الإسلام على كراهه و ذم، و الذى ابتدعته هذه الآيات هو التسبب الى نفى هذه الكراهه و النفره ببيان أن الامه كالحره إنسان لا تفاوت بينهما، و أن الرقيه لا توجب سقوط صاحبها عن لياقه المصاحبه و المعاشره.

و ظاهر الآيات - بما لا ينكر - أن الخطاب فيها متوجه الى المؤمنين من هذه الامه فالتخفيف المذكور فى الآيه تخفيف على هذه الامه، و المراد به ما ذكرناه.

و على هذا فتعليل التخفيف بقوله: وَ خُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا مع كونه وصفاً مشتركاً بين جميع الامم - هذه الامه و الذين من قبلهم - كون التخفيف مخصوصاً بهذه الامه إنما هو من قبيل ذكر المقتضى العام و السكوت عما يتم به فى تأثيره فكأنه قيل: إنا خففنا عنكم لكون الضعف العام فى نوع الإنسان سبباً مقتضياً للتخفيف لولا المانع لكن لم تزل الموانع تمنع عن فعليه التخفيف و انبساط الرحمه فى سائر الامم حتى وصلت النوبه اليكم فعمتكم الرحمه، و ظهرت فيكم آثاره فبرز حكم السبب المذكور و شرع فيكم حكم التخفيف و قد حرمت

الامم السابقه من ذلك كما يدل عليه قوله: رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا (البقره ٢٨٦)، وقوله: هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ (الحج ٧٨) (١)(٢)(٣)(٤).

[سوره النساء (٤): الآيات ٢٩ الى ٣٠]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠)

بيان:

في الآيه شبه اتصال بما سبقتها حيث إنها تتضمن النهي عن أكل المال بالباطل و كانت الآيات السابقه متضمنه للنهي عن أكل مهور النساء بالعضل و التعدى ففي الآيه انتقال من الخصوص الى العموم.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ -الى قوله- مِنْكُمْ الْأَكْلَ معروف و هو إنفاد ما يمكن أن يتغذى به التقامه و بلعه مثلاً، و لما فيه من معنى التسلط و الإنفاد يقال: أكلت النار الحطب شبه فيه إعدام النار الحطب بإحراقه بإنفاد الأكل الغذاء

ص: ٤٥٨

١-١). النساء ٢٣-٢٨: بحث روائى فى: الزواج؛ المحارم.

٢-٢). ٢٣-٢٨: بحث روائى فى متعه النساء.

٣-٣). ٢٣-٢٨: بحث علمى فى رابطه النسب.

٤-٤). ٢٣-٢٨: بحث علمى فى النكاح و الزواج؛ قوانين الزواج فى الاسلام؛ سبب تحريم الزنا.

بالتناول و البلع، و يقال أيضا: أكل فلان المال أى تصرف فيه بالتسلط عليه، و ذلك بعنايه أن العمده فى تصرف الانسان فى الأشياء هو التغذى بها لأنه أشد ما يحتاج إليه الإنسان فى بقائه و أمسه منه، و لذلك سمي التصرف أكلًا لكن لا كل تصرف بل التصرف عن تسلط يقطع تسلط الغير على المال بالتملك و نحوه كأنه ينفده ببسط سلطته عليه و التصرف فيه كما ينفد الأكل الغذاء بالأكل.

و الباطل من الأفعال ما لا يشتمل على غرض صحيح عقلائي، و التجاره هى التصرف فى رأس المال طلبا للربح على ما ذكره الراغب فى مفرداته قال: و ليس فى كلامهم تاء بعدها جيم غير هذا اللفظ انتهى، فتنطبق على المعامله بالبيع و الشرى.

و فى تقييد قوله: «لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ» بقوله: «بَيْنَكُمْ» الدال على نوع تجمع منهم على المال و وقوعه فى وسطهم إشعار أو دلالة بكون الأكل المنهى عنه بنحو إدارته فيما بينهم و نقله من واحد الى آخر بالتعاون و التداول، فتفيد الجملة أعنى قوله: لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ، بعد تقييدها بقوله: بِالْبَاطِلِ النهى عن المعاملات الناقله التى لا تسوق المجتمع الى سعادته و نجاحه بل تضرها و تجرّها الى الفساد و الهلاك، و هى المعاملات الباطله فى نظر الدين كالربا و القمار و البيوع الغرريه كالبيع بالحصاه و النواه و ما أشبه ذلك.

و على هذا فالاستثناء الواقع فى قوله: إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ، استثناء منقطع جىء به لدفع الدخل فإنه لما نهى عن أكل المال بالباطل - و نوع المعاملات الدائره فى المجتمع الفاسد التى يتحقق بها النقل و الانتقال المالى كالربويات و الغرريات و القمار و أضرارها باطله بنظر الشرع - كان من الجائز أن يتوهم أن ذلك يوجب انهدام أركان المجتمع و تلاشى أجزائها و فيه هلاك الناس فاجيب عن ذلك بذكر نوع معامله فى وسعها أن تنظم شتات المجتمع، و تقيم صلبه، و تحفظه على استقامته، و هى التجاره عن تراض و معامله صحيحه رافعه لحاجه المجتمع، و ذلك نظير قوله تعالى: يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ

بِقَلْبٍ سَلِيمٍ

ص: ٦٥٩

(الشعراء ٨٩//) فإنه لما نفى النفع عن المال و البنين يوم القيامة أمكن أن يتوهم أن لا نجاح يومئذ و لا فلاح فإن معظم ما ينتفع به الانسان إنما هو المال و البنون فاذا سقطا عن التأثير لم يبق إلا اليأس و الخيبة فأجيب أن هناك أمرا آخر نافعا كل النفع و إن لم يكن من جنس المال و البنين و هو القلب السليم.

و هذا الذى ذكرناه من انقطاع الاستثناء هو الأوفق بسياق الآيه و كون قوله: بِالْبَاطِلِ قِيدَا أُصْلِيَا فِي الْكَلَامِ نَظِيرَ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَ تَدُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ (البقره ١٨٨/) و على هذا لا تخصص الآيه بسائر المعاملات الصحيحه و الامور المشروعه غير التجاره مما يوجب التملك و يبيح التصرف فى المال كالهبة و الصلح و الجعالة و كالأيمهارة و الإرث و نحوها.

قوله تعالى: وَ لَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ظاهر الجمله أنها نهى عن قتل الإنسان نفسه لكن مقارنتها قوله: لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم، حيث إن ظاهره أخذ مجموع المؤمنين كنفس واحده لها مال يجب أن تأكلها من غير طريق الباطل ربما أشعرت أو دلت على أن المراد بالأنفس جميع نفوس المجتمع الدينى المأخوذ كنفس واحده نفس كل بعض هى نفس الآخر فيكون فى مثل هذا المجتمع نفس الإنسان نفسه و نفس غيره أيضا نفسه فلو قتل نفسه أو غيره فقد قتل نفسه، و بهذه العناية تكون الجمله أعنى قوله: وَ لَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ مطلقه تشمل الانتحار-الذى هو قتل الإنسان نفسه-و قتل الإنسان غيره من المؤمنين.

و ربما أمكن أن يستفاد من دليل الآيه أعنى قوله: إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا أن المراد من قتل النفس المنهى عنه ما يشمل إلقاء الإنسان نفسه فى مخاطره القتل و التسبب الى هلاك نفسه المؤدى الى قتله، و ذلك أن تعليل النهى عن قتل النفس بالرحمه لهذا المعنى أوفق و أنسب كما لا يخفى، و يزيد على هذا معنى الآيه عموما و اتساعا، و هذه الملائمه بعينها تؤيد كون قوله: إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا تعليلا لقوله: وَ لَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ فقط.

قوله تعالى: وَ مَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدُوًّا وَ ظُلْمًا الْآيَةَ؛ العدوان مطلق التجاوز سواء كان جائزاً ممدوحاً أو محظوراً مذموماً قال تعالى: فَلَا عُدُوًّا إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (البقره ١٩٣/١)، وقال تعالى: وَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوَىٰ وَ لَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدُوِّ (المائد ٢/٢)، فهو أعم مورداً من الظلم، و معناه فى الآيه تعدى الحدود التى حدها الله تعالى، و الاصلاء بالنار: الاحراق بها.

و فى الآيه من حيث اشتغالها على قوله: «ذَٰلِكَ» التفات عن خطاب المؤمنين الى خطاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ تلويحاً الى أن من فعل ذلك منهم -و هم نفس واحده و النفس الواحد لا- ينبغى لها أن تريد هلاك نفسها-فليس من المؤمنين، فلا- يخاطب فى مجازاته المؤمنون، و إنما يخاطب فيها الرسول المخاطب فى شأن المؤمنين و غيرهم، و لذلك بنى الكلام على العموم فقول: وَ مَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدُوًّا وَ ظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيهُ، و لم يقل: و من يفعل ذلك منكم.

و ذيل الآيه أعنى قوله. وَ كَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا يُؤيد أن يكون المشار إليه بقوله: ذلك هو النهى عن قتل الأنفس بناء على كون قوله: إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ناظراً الى تعليل النهى عن القتل فقط لما من المناسبه التامه بين الذيلين، فإن الظاهر أن المعنى هو أن الله تعالى إنما ينهاكم عن قتل أنفسكم رحمه بكم و رأفه، و إلا فمجازاته لمن قتل النفس بإصلائه النار عليه يسير غير عسير، و مع ذلك فعود التعليل و كذا التهديد الى مجموع الفقرتين فى الآيه الاولى أعنى النهى عن أكل المال بالباطل و النهى عن قتل النفس لا ضير فيه.

[سوره النساء (٤): آيه ٣١]

اشاره

إِنْ تَجَنَّبْتُمْ كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا (٣١)

ص: ٦٦١

قوله تعالى: **إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ - إِلَى قَوْلِهِ - سَيِّئَاتِكُمْ** الاجتناب أصله من الجنب و هو الجارحه بنى منها الفعل على الاستعارة، فإن الإنسان اذا أراد شيئاً استقبله بوجهه و مقاديم بدنه، و اذا أعرض عنه و تركه وليه بجنبه فاجتنبه، فالاجتناب هو الترك، قال الراغب: و هو أبلغ من الترك، انتهى؛ و ليس إلا لأنه مبنى على الاستعارة، و من هذا الباب الجانب و الجنبه و الأجنبى.

و التكفير من الكفر و هو الستر و قد شاع استعماله فى القرآن فى العفو عن السيئات و الكبائر جمع كبيره و صف وضع موضع الموصوف كالمعاصى و نحوها، و الكبر معنى إضافى لا يتحقق إلا بالقياس الى صغر، و من هنا كان المستفاد من قوله: **كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ** أن هناك من المعاصى المنهى عنها ما هى صغيره، فيتبين من الآية: **أولاً**: أن المعاصى قسمان: صغيره و كبيره، و ثانياً:

أن السيئات هى الصغائر لما فيها من دلالة المقابله على ذلك.

نعم العصيان و التمرد كيفما كان كبير و أمر عظيم بالنظر الى ضعف المخلوق المربوب فى جنب الله عظم سلطانه غير أن القياس فى هذا الاعتبار إنما هو بين الإنسان و ربه لا - بين معصيه و معصيه فلا منافاه بين كون معصيه كبيره باعتبار و بين كون بعض المعاصى صغيره باعتبار آخر.

و كبر المعصيه إنما يتحقق بأهميه النهى عنها اذا قيس الى النهى المتعلق بغيرها و لا يخلو قوله تعالى: **مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ**، من إشعار أو دلالة على ذلك، و الدليل على أهميه النهى تشديد الخطاب بإصرار فيه أو تهديد بعذاب من النار و نحو ذلك.

قوله تعالى: **وَ نُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا** المدخل بضم الميم و فتح الخاء اسم مكان

و المراد منه الجنة أو مقام القرب من الله سبحانه و إن كان مرجعها واحدا (١).

[سوره النساء (٤): الآيات ٣٢ الى ٣٥]

اشاره

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَ سَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢) وَ لِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَ الْأَقْرَبُونَ وَ الَّذِينَ عَقَدْتُمْ أَيْمَانَكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣) الرَّجَالُ قَوَامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَ بِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَ اللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَ أَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَ اضْرِبُوهُنَّ فَإِنِ اطَّعْتُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا (٣٤) وَ إِنِ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَ حَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنِ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (٣٥)

ص: ٦٦٣

(١ - ١). النساء ٣١: كلام في الكبائر و الصغائر و تكفير السيئات.

قوله تعالى: **وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ** التمنى قول الانسان: ليت كذا كان كذا، والظاهر أن تسميه القول بذلك من باب توصيف اللفظ بصفه المعنى، وإنما التمنى إنشاء نحو تعلق من النفس نظير تعلق الحب بما تراه متعذرا أو كالمتعذر سواء أظهر ذلك بلفظ أو لم يظهر.

و ظاهر الآيه أنه مسوقه للنهى عن تمنى فضل و زياده موجوده ثابتة بين الناس، و أنه ناش عن تلبس بعض طائفتى الرجال و النساء بهذا الفضل، و أنه ينبغى الإعراض عن التعلق بمن له الفضل، و التعلق بالله بالسؤال من الفضل الذى عنده تعالى، و بهذا يتعين أن المراد بالفضل هو المزيه التى رزقها الله تعالى كلاً من طائفتى الرجال و النساء بتشريع الأحكام التى شرعت فى خصوص ما يتعلق بالطائفتين كليهما كمزيه الرجال على النساء فى عدد الزوجات، و زياده السهم فى الميراث، و مزيه النساء على الرجال فى وجوب جعل المهر لهن، و وجوب نفقتهن على الرجال.

فالنهى عن تمنى هذه المزيه التى اختص بها صاحبها إنما هو لقطع شجره الشر و الفساد من أصلها فإن هذه المزايا مما تتعلق به النفس الإنسانيه لما أودعه الله فى النفوس من حبها و السعى لها لعمارها هذه الدار، فيظهر الأمر أولاً فى صورته التمنى فاذا تكرر تبدل حسداً مستبطناً فاذا أديم عليه فاستقر فى القلب سرى الى مقام العمل و الفعل الخارجى ثم اذا انضمن بعض هذه النفوس الى بعض كان ذلك بلوى يفسد الأرض، و يهلك الحرث و النسل.

و من هنا يظهر أن النهى عن التمنى نهى إرشادى يعود مصلحته الى مصلحه حفظ الأحكام المشرعه المذكوره، و ليس بنهى مولوى.

و فى نسبه الفضل الى فعل الله سبحانه، و التعبير بقوله: **بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ** إيقاظ لصفه

الخشوع لأمر الله بإيمانهم به، و غريزه الحب المثاره بالتنبه حتى يتنبه المفضل عليه أن المفضل بعض منه غير مبان.

قوله تعالى: لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَ لِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ ذَكَرَ الرَّاعِبُ: أن الاكتساب إنما يستعمل فيما استفاده الإنسان لنفسه، و الكسب أعم مما كان لنفسه أو لغيره، و البيان المتقدم ينتج أن يكون هذه الجملة مبنيه للنهي السابق عن التمني و بمنزله التعليل له أى لا تتمنوا ذلك فإن هذه المزيه إنما وجدت عند من يختص بها لأنه اكتسبها بالنفسيه التى له أو بعمل بدنه فإن الرجال إنما اختصوا بجواز اتخاذ أربع نسوه مثلا و حرم ذلك على النساء لأن موقعهم فى المجتمع الإنسانى موقع يستدعى ذلك دون موقع النساء، و خصوا فى الميراث بمثل حظ الاثنتين لذلك أيضا، و كذلك النساء خصصن بنصف سهم الرجل و جعل نفقتهن على الرجال و خصص بالمهر لاستدعاء موقعهن ذلك، و كذلك ما اكتسبته إحدى الطائفتين من المال بتجاره أو طريق آخر هو الموجب للاختصاص، و ما الله يريد ظلما للعباد.

و من هنا يظهر أن المراد بالاكتساب هو نوع من الحيازه و الاختصاص أعم من أن يكون بعمل اختيارى كالاكتساب بصنعه أو حرفه أو لا يكون بذلك لكنه ينتهى الى تلبس صاحب الفضل بصفه توجب له ذلك كتلبس الإنسان بذكوريه أو أنوثيه توجب له سهما و نصيبا كذا.

و أئمه اللغه و إن ذكروا فى الكسب و الاكتساب أنهما يختصان بما يحوزه الإنسان بعمل اختيارى كالطلب و نحوه لكنهم ذكروا أن الأصل فى معنى الكسب هو الجمع، و ربما جاز أن يقال: اكتسب فلان بجماله الشهره و نحو ذلك، و فسر الاكتساب فى الآيه بذلك بعض المفسرين، و ليس من البعيد أن يكون الاكتساب فى الآيه مستعملا فيما ذكر من المعنى على سبيل التشبيه و الاستعاره.

قوله تعالى: وَ سَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ، الإنعام على الغير بشىء مما عند المنعم لما

كان غالباً بما هو زائد لا حاجة للمنعن إليه سمي فضلاً، و لما صرف الله تعالى وجوه الناس عن العناية بما أوتى أرباب الفضل من الفضل و الرغبة فيه، و كان حب المزايا الحيويه بل التفرد بها و التقدم فيها و الاستعلاء من فطريات الإنسان لا يسلب عنه حيناً صرفهم تعالى الى نفسه، و وجه وجوههم نحو فضله، و أمره أن يعرضوا عما فى أيدي الناس، و يقبلوا الى جنبه، و يسألوا من فضله فإن الفضل بيد الله، و هو الذى أعطى كل ذى فضل فضله فله أن يعطيكم ما تريدون به و تفضلون بذلك على غيركم ممن ترغبون فيما عنده، و تتمنون ما أعطيه.

و قد أبهم هذا الفضل الذى يجب أن يسأل منه بدخول لفظه «مِنْ» عليه، و فيه من الفائدة أولاً: التعليم بأدب الدعاء و المسأله من جنبه تعالى فإن الأليق بالإنسان المبني على الجهل بما ينفعه و يضره بحسب الواقع اذا سأل ربه العالم بحقيقه ما ينفع خلقه و ما يضرهم، القادر على كل شىء أن يسأله الخير فيما تتوق نفسه إليه، و لا- يطنب فى تشخيص ما يسأله منه و تعيين الطريق الى وصوله، فكثيراً ما رأينا من كانت تتوق نفسه الى حاجه من الحوائج الخاصه كمال أو ولد أو جاه و منزله أو صحه و عافيه و كان يلح فى الدعاء و المسأله لأجلها لا- يريد سواها ثم لما استجيب دعاؤه، و أعطى مسأله كان فى ذلك هلاكه و خيبه سعيه فى الحياه.

و ثانياً: الإشاره الى أن يكون المسئول ما لا يبطل به الحكمه الإلهيه فى هذا الفضل الذى قرره الله تعالى بتشريع أو تكوين، فمن الواجب أن يسألوا شيئاً من فضل الله الذى اختص به غيرهم فلو سأل الرجال ما للنساء من الفضل أو بالعكس ثم أعطاهم الله ذلك بطلت الحكمه و فسدت الأحكام و القوانين المشرعه فافهم.

فينبغى للإنسان اذا دعا الله سبحانه عند ما ضاقت نفسه لحاجه أن لا يسأله ما فى أيدي الناس مما يرفع حاجته بل يسأله مما عنده و اذا سأله مما عنده أن لا يعلم لربه الخبير بحاله طريق الوصول الى حاجته بل يسأله أن يرفع حاجته بما يعلمه خيراً من عنده.

و أما قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا فتعليل للنهى فى صدر الآيه أى

لا تتمنوا ما أعطاه الله من فضله من أعطاه إن الله بكل شيء عليم لا يجهل طريق المصلحه و لا يخطئ في حكمه (١).

قوله تعالى: **وَ لِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَ الْأَقْرَبُونَ** الآية؛ الموالى جمع مولى، و هو الولى و إن كثر استعماله فى بعض المصاديق من الولايه كالمولى لسيد العبد لولايته عليه، و المولى للناصر لولايته على أمر المنصور، و المولى لابن العم لولايته على نكاح بنت عمه، و لا- يبعد أن يكون فى الأصل مصدرا ميميا أو اسم مكان اريد به الشخص المتلبس به بوجه كما نطق اليوم الحكومه و المحكمه و نريد بها الحاكم.

و العقد مقابل الحل، و اليمين مقابل اليسار، و اليمين اليد اليمنى، و اليمين الحلف و له غير ذلك من المعانى.

و وقوع الآية مع قوله قبل: و لا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض، فى سياق واحد، و اشتمالها على التوصيه بإعطاء كل ذى نصيب نصيبه، و أن الله جعل لكل موالى مما ترك الوالدان و الأقربون يؤيد أن تكون الآية أعنى قوله: **وَ لِكُلِّ جَعَلْنَا**، الخ؛ بضميمه الآية السابقه تلخيصا للأحكام و الأوامر التى فى آيات الإرث، و وصيه إجماليه لما فيها من الشرائع التفصيليه كما كان قوله قبل آيات الإرث: للرجال نصيب مما ترك الوالدان و الأقربون، الآية؛ تشريعا إجماليا كضرب القاعده فى باب الإرث تعود إليه تفاصيل أحكام الإرث.

و لازلزم ذلك أن ينطبق من اجمل ذكره من الوراثة و المورثين على من ذكر منهم تفصيلا فى آيات الإرث، فالمراد بالموالى جميع من ذكر و ارثا فيها من الأولاد و الأبوين و الإخوه و الأخوات و غيرهم.

و المراد بالأصناف الثلاث المذكورين فى الآية بقوله: **الْوَالِدَانِ وَ الْأَقْرَبُونَ وَ الَّذِينَ عَقَدَتْ**

ص: ٦٦٧

(١ - ١). النساء ٣٢-٣٥: كلام فى حقيقه قرآنيه.

أَيُّمَانِكُمُ الْأَصْنَافَ الْمَذْكُورَةَ فِي آيَاتِ الْإِرْثِ، وَهُمْ ثَلَاثَةٌ: الْوَالِدَانُ وَالْأَقْرَبُونَ وَالزَّوْجَانِ فَيَنْطَبِقُ قَوْلُهُ: «وَالَّذِينَ عَقَدْتُمْ أَيْمَانَكُمْ عَلَى الزَّوْجِ وَالزَّوْجَةِ».

فقوله: «وَلِكُلِّ» أَي وَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ ذَكَرًا أَوْ اُنْثَى، جَعَلْنَا مَوَالِيَّ أَي أَوْلِيَاءَ فِي الْوَرَاثَةِ يَرِثُونَ مَا تَرَكَتُمْ مِنَ الْمَالِ، وَقَوْلُهُ مِمَّا تَرَكَ، مِنْ فِيهِ لِلابْتِدَاءِ مُتَعَلِّقٌ بِالْمَوَالِي كَأَنَّ الْوَلَايَةَ نَشَأَتْ مِنَ الْمَالِ، أَوْ مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ أَي يَرِثُونَ أَوْ يُؤْتُونَ مِمَّا تَرَكَ، وَ مَا تَرَكَ هُوَ الْمَالُ الَّذِي تَرَكَهُ الْمَيِّتُ الْمُورِثُ الَّذِي هُوَ الْوَالِدَانُ وَالْأَقْرَبُونَ نَسَبًا وَالزَّوْجَ وَالزَّوْجَةَ.

وَإِطْلَاقُ «الَّذِينَ عَقَدْتُمْ أَيْمَانَكُمْ» عَلَى الزَّوْجِ وَالزَّوْجَةِ إِطْلَاقٌ كِنَائِي فَقَدْ كَانَ دَأْبُهُمْ فِي الْمَعَاقِدَاتِ وَالْمَعَاهِدَاتِ أَنْ يَصَافِحُوا فَكَانَ أَيْمَانُهُمُ الَّتِي يَصَافِحُونَ بِهَا هِيَ الَّتِي عَقَدَتِ الْعُقُودَ، وَ أَبْرَمَتِ الْعُهُودَ فَالْمُرَادُ: الَّذِينَ أَوْجَدْتُمْ بِالْعَقْدِ سَبِيهَهُ الْإِزْدَوَاجَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ.

وَ قَوْلُهُ: فَآتَوْهُمْ نَصَبًا بَيْنَهُمُ الضَّمِيرُ لِلْمَوَالِي، وَ الْمُرَادُ بِالنَّصِيبِ مَا بَيْنَ فِي آيَاتِ الْإِرْثِ، وَ الْفَاءُ لِلتَّفْرِيعِ، وَ الْجُمْلَةُ مُتَفَرِّعَةٌ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَّ»، ثُمَّ أَكَّدَ حُكْمَهُ بِإِيْتَاءِ نَصِيبِهِمْ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا».

وَ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مِنْ مَعْنَى الْآيَةِ أَقْرَبُ الْمَعَانِي الَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي تَفْسِيرِهَا، وَ رُبَّمَا ذَكَرُوا أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمَوَالِي الْعَصْبَةَ دُونَ الْوَرِثَةِ الَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِالْمِيرَاثِ، وَ لَا دَلِيلٌ عَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ اللَّفْظِ بِخِلَافِ الْوَرِثَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ الْقِيمَ هُوَ الَّذِي يَقُومُ بِأَمْرٍ غَيْرِهِ، وَ الْقَوَامُ وَالْقِيَامُ مِبَالِغُهُ مِنْهُ».

وَ الْمُرَادُ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ هُوَ مَا يَفْضَلُ وَ يَزِيدُ فِيهِ الرِّجَالُ بِحَسَبِ الطَّبَعِ عَلَى النِّسَاءِ، وَ هُوَ زِيَادَةُ قُوَّةِ التَّعْقُلِ فِيهِمْ، وَ مَا يَتَفَرَّعُ عَلَيْهِ مِنْ شِدَّةِ الْبَأْسِ وَ الْقُوَّةِ وَ الطَّاقَةِ عَلَى الشَّدَائِدِ مِنَ الْأَعْمَالِ وَ نَحْوِهَا فَإِنَّ حَيَاةَ النِّسَاءِ حَيَاةَ إِحْسَاسِيَّةٍ عَاطْفِيَّةٍ مَبْنِيَّةٍ عَلَى الرِّقَّةِ

و اللطافه،و المراد بما أنفقوا من أموالهم ما أنفقوه فى مهورهن و نفقاتهن.

و عموم هذه العله يعطى أن الحكم المبني عليها أعنى قوله: «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ» غير مقصور على الأزواج بأن يختص القواميه بالرجل على زوجته بل الحكم مجعول لقبيل الرجال على قبيل النساء فى الجهات العامه التى ترتبط بها حياه القبيلين جميعا فالجهات العامه الاجتماعيه التى ترتبط بفضل الرجال كجهتى الحكومه و القضاء مثلا-الذين يتوقف عليهما حياه المجتمع،و إنما يقومان بالتعقل الذى هو فى الرجال بالطبع أزيد منه فى النساء،و كذا الدفاع الحربى الذى يرتبط بالشده و قوه التعقل كل ذلك مما يقوم به الرجال على النساء.

و على هذا فقوله: الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ذو إطلاق تام،و أما قوله بعد:فالصالحات قانتات،الخ؛الظاهر فى الاختصاص بما بين الرجل و زوجته على ما سيأتى فهو فرع من فروع هذا الحكم المطلق و جزئى من جزئياته مستخرج منه من غير أن يتقيد به إطلاقه.

قوله تعالى: فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ المراد بالصالح معناه اللغوى،و هو ما يعبر عنه بلياقه النفس.و القنوت هو دوام الطاعه و الخضوع.

و مقابلتها لقوله: وَ اللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ،الخ؛تفيد أن المراد بالصالحات الزوجات الصالحات،و أن هذا الحكم مضروب على النساء فى حال الازدواج لا مطلقا،و أن قوله:

قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ-الذى هو إعطاء للأمر فى صوره التوصيف أى ليقنتن و ليحفظن-حكم مربوط بشئون الزوجيه و المعاشره المنزليه،و هذا مع ذلك حكم يتبع فى سعته و ضيقه علتة أعنى قيمومه الرجل على المرأه قيمومه زوجيه فعليها أن تقنت له و تحفظه فيما يرجع الى ما بينهما من شئون الزوجيه.

قوله تعالى: وَ اللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ،النشوز العصيان و الاستكبار عن الطاعه،و المراد بخوف النشوز ظهور آياته و علائمه،و لعل التفريع على خوف

النشوز دون نفسه لمراعاة حال العظه من بين العلاجات الثلاث المذكوره فإن الوعظ كما أن له محلا مع تحقق العصيان كذلك له محل مع بدو آثار العصيان و علائمه.

و الامور الثلاثة أعنى ما يدل عليه قوله: «فَعِظُوهُنَّ وَ اهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَ اضْرِبُوهُنَّ» و ان ذكرت معا و عطف بعضها على بعض بالواو فهى امور مترتبه تدريجيه:

فالموعظه، فإن لم تنجح فالهجره، فإن لم تنفع فالضرب؛ و يدل على كون المراد بها التدرىج فيها أنها بحسب الطبع و سائر للزجر مختلفه آخذه من الضعف الى الشده بحسب الترتيب المأخوذ فى الكلام، فالترتيب مفهوم من السياق دون الواو.

و ظاهر قوله: وَ اهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ أن تكون الهجره مع حفظ المضاجعه كالاستدبار و ترك الملاعبه و نحوها، و إن أمكن أن يراد بمثل الكلام ترك المضاجعه لكنه بعيد، و ربما تأيد المعنى الأول بإتيان المضاجع بلفظ الجمع فإن المعنى الثانى لا حاجه فيه الى إفاده كثره المضجع ظاهرا.

قوله تعالى: فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا الخ؛ أى لا تتخذوا عليهن عله تعتلون بها فى إيذائهن من إطاعتهن لكم، ثم علل هذا النهى بقوله: إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ، و هو إيذان لهم أن مقام ربهم على كبير فلا يغرنهم ما يجدونه من القوه و الشده فى أنفسهم فيظلموهن بالاستعلاء و الاستكبار عليهن.

قوله تعالى: وَ إِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا الشقاق بينونه و العداوه، و قد قرر الله سبحانه بعث الحكيمين ليكون أبعد من الجور و التحكم، و قوله: إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا أى إن يرد الزوجان نوعا من الإصلاح من غير عناد و لجاج فى الاختلاف، فإن سلب الاختيار من أنفسهما و إلقاء زمام الأمر الى الحكيمين المرضيين يوجب وفاق البين (١).

ص : ٦٧٠

اشاره

وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِالْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنْبِ وَالزَّكَاةِ وَالْحَقِّ وَالْوَعْدِ وَأَلِّمُوا بَنِيكُمْ لِلدِّينِ الْحَقِّ وَالْعِلْمِ وَالْجَمَالِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْعَبَثِ (٣٦) الَّذِينَ يُبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (٣٧) وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِذَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨) وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٣٩) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُمْضِئْهَا وَكُفْرًا يَكْفُرْ بِهَا لَكُمْ مِنْهَا أَلْفُ عَشْرَ أَضْعَافًا أَعْلَىٰ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ أُمَّةٍ جِزَاءً لَبِيبًا (٤٠) فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢)

قوله تعالى: **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا** هذا هو التوحيد غير أن المراد به التوحيد العملي، وهو إتيان الأعمال الحسنه- ومنها الإحسان الذي هو مورد الكلام- طلباً لمرضاه الله وابتغاء لثواب الآخرة دون اتباع الهوى والشرك به.

و الدليل على ذلك أنه تعالى عقب هذا الكلام أعنى قوله: **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**، و عله بقوله: **إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا**، و ذكر أنه البخيل بماله و المنفق لرئاء الناس، فهم الذين يشركون بالله و لا يعبدونه وحده، ثم قال: و ما ذا عليهم لو آمنوا بالله و اليوم الآخر و أنفقوا، و ظهر بذلك أن شركهم عدم إيمانهم باليوم الآخر، و قال تعالى: **وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ** (ص ٢٦)، فبين أن الضلال باتباع الهوى- و كل شرك ضلال- إنما هو بنسيان يوم الحساب، ثم قال: **أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ** (الجاثية ٢٣) فبين أن اتباع الهوى عباده له و شرك به.

فتبين بذلك كله أن التوحيد العملي أن يعمل الإنسان ابتغاء مثوبه الله و هو على ذكر من يوم الحساب الذي فيه ظهور المثوبات و العقوبات، و أن الشرك في العمل أن ينسى اليوم الآخر- لو آمن به لم ينسه- و أن يعمل عمله لا لطلب مثوبه بل لما يزينه له هواه من التعلق بالمال أو حمد الناس و نحو ذلك، فقد أشخص هذا الإنسان هواه تجاه ربه، و أشرك به.

فالمراد بعباده الله و الإخلاص له أن يكون طلباً لمرضاته، و ابتغاء لمثوبته لا لاتباع الهوى.

قوله تعالى: **وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**- الى قوله- **أَيُّمَانُكُمُ الظاهر أن قوله: إِحْسَانًا مفعول مطلق لفعل مقدر، تقديره: و أحسنوا بالوالدين إحساناً، و الإحسان يتعدى بالباء و الى**

معا يقال: أحسنت به و أحسنت إليه، و قوله: وَ بَعْدَى الْقُرْبَى، هو و ما بعده معطوف على بِالْوَالِدَيْنِ، و ذو القربى القرابه، و قوله: وَ الْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَ الْجَارِ الْجُنْبِ قرينه المقابله فى الوصف تعطى أن يكون المراد بالجار ذى القربى الجار القريب دارا، و بالجار الجنب- و هو الأجنبى-الجار البعيد دارا، و قد روى عن النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: تحديد الجوار بأربعين ذراعا، و فى روايه: أربعون دارا، و لعل الروائتين ناظرتان الى الجار ذى القربى و الجار الجنب.

و قوله: وَ الصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ هو الذى يصاحبك ملازما لجنبك، و هو بمفهومه يعم مصاحب السفر من رفقته الطريق و مصاحب الحضر و المنزل و غيرهم، و قوله: وَ ابْنِ السَّبِيلِ هو الذى لا- يعرف من حاله إلا أنه سالك سبيل كأنه ليس له من يتسبب إليه إلا السبيل فهو ابنه، و أما كونه فقيرا ذا مسكنه عادما لزيد أو راحله فكأنه خارج من مفهوم اللفظ، و قوله: وَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ المراد به العبيد و الإماء بقرينه عده فى عداد من يحسن إليهم، و قد كثر التعبير عنهم بما ملكته الأيمان دون من ملكته.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا المختار التائه المتبختر المسخر لخياله، و منه الخيل للفرس لأنه يتبختر فى مشيته، و الفخور كثير الفخر، و الوصفان أعنى الاختيال و كثره الفخر من لوازم التعلق بالمال و الجاه، و الإفراط فى حبهما، و لذلك لم يكن الله ليحب المختال الفخور لتعلق قلبه بغيره تعالى، و ما ذكره تعالى فى تفسيره بقوله: الَّذِينَ يَبْخُلُونَ، الخ؛ و قوله: وَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ، الخ؛ يبين كون الطائفتين معروضتين للخيلاء و الفخر: فالطائفه الاولى متعلقه القلب بالمال، و الثانيه بالجاه و إن كان بين الجاه و المال تلازم فى الجمله.

و كان من طبع الكلام أن يشتغل بذكر أعمالهما من البخل و الكتمان و غيرهما لكن بدأ بالوصفين ليدل على السبب فى عدم الحب كما لا يخفى.

قوله تعالى: الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ الآيه؛ أمرهم الناس

بالبخل إنما هو بسيرتهم الفاسده و عملهم به سواه أمروا به لفظا أو سكتوا فإن هذه الطائفه لكونهم اولى ثروه و مال يتقرب إليهم الناس و يخضعون لهم لما فى طباع الناس من الطبع ففعلهم أمر و زاجر كقولهم، و أما كتمانهم ما آتاهم الله من فضله فهو تظاهروهم الفاقد المعدم للمال لتأذيتهم من سؤال الناس ما فى أيديهم، و خوفهم على أنفسهم لو منعوا و خشيتهم من توجه النفوس الى أموالهم، و المراد بالكافرين الساترون لنعمه الله التى أنعم بها، و منه الكافر المعروف لستره على الحق بإنكاره.

قوله تعالى: **وَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ الخ؛ أى لمراءاتهم، و فى الآيه دلالة على أن الرئاء فى الإنفاق -أو هو مطلقا- شرك بالله كاشف عن عدم الإيمان به لاعتماد المرائى على نفوس الناس و استحسانهم فعله، و شرك من جهه العمل لأن المرائى لا يريد بعمله ثواب الآخرة، و إنما يريد ما يرجوه من نتائج إنفاقه فى الدنيا، و على أن المرائى قرين الشيطان و ساء قرينا.**

قوله تعالى: **وَ مَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا الْآيَةَ؛ استفهام للتأسف أو التعجب، و فى الآيه دلالة على أن الاستنكاف عن الإنفاق فى سبيل الله ناش من فقدان التلبس بالإيمان بالله و باليوم الآخر حقيقه و إن تلبس به ظاهرا.**

و قوله: **وَ كَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا** تمهيدا لما فى الآيه التاليه من البيان، و الأمس لهذه الجملة بحسب المعنى أن تكون حالا.

قوله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ الْآيَةَ؛ المثقال هو الزنه، و الذره هو الصغير من النمل الأحمر، أو هو الواحد من البهات المبتوث فى الهواء الذى لا يكاد يرى صغرا.**

و قوله: **مِثْقَالَ ذَرَّةٍ** نائب مناب المفعول المطلق أى لا يظلم ظلما يعدل مثقال ذره وزنا.

و قوله: **وَ إِنَّ تَكُ حَسِينَةً**، قرئ برفع حسنه و بنصبها فعلى تقدير الرفع كان تامه، و على تقدير النصب تقديره: و إن تكن المثقال المذكور حسنه يضاعفها، و تأنيث الضمير فى قوله: **إِنَّ**

تَكَّ إما من جهة تأنيث الخبر أو لكسب المثقال التأنيث بالإضافة الى ذره.

و السياق يفيد أن تكون الآية بمنزلة التعليل للاستفهام السابق، و التقدير: و من الأسف عليهم ان لم يؤمنوا و لم ينفقوا فإنهم لو آمنوا و أنفقوا و الله عليهم بهم لم يكن الله ليظلمهم فى مثقال ذره أنفقوها بالإهمال و ترك الجزاء، و إن تك حسنه يضاعفها. و الله أعلم.

قوله تعالى: فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ آيَةٍ؛ قد تقدم بعض الكلام فى معنى الشهادة على الأعمال فى تفسير قوله تعالى: لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ (البقره ١٤٣/) من الجزء الأول من هذا الكتاب، و سيجىء بعض آخر فى محله المناسب له.

قوله تعالى: يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ آيَةٍ؛ نسبه المعصية الى الرسول يشهد أن المراد بها معصيه أو امره صلى الله عليه و آله و سلم الصادره عن مقام ولايته لا معصيه الله تعالى فى أحكام الشريعة، و قوله: لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ كُنَايَه عن الموت بمعنى بطلان الوجود نظير قوله تعالى: وَ يَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (النبا ٤٠/).

و قوله: وَ لَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ظَاهِرَ السِّيَاقِ أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى مَوْضِعِ قَوْلِهِ:

يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ فائدته الدلاله بوجه على ما يعلل به تمنيهم الموت، و هو أنهم بارزون يومئذ لله لا يخفى عليه منهم شىء لظهور حالهم عليه تعالى بحضور أعمالهم، و شهاده أعضائهم و شهاده الأنبياء و الملائكه و غيرهم عليهم، و الله من ورائهم محيط فيودون عند ذلك أن لو لم يكونوا و ليس لهم أن يكتموه تعالى حديثا مع ما يشاهدون من ظهور مساوى أعمالهم و قبائح أفعالهم.

و أما قوله تعالى: يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ (المجادله ١٨/) فسيجىء إن شاء الله تعالى أن ذلك إنما هو لإيجاب ملكه الكذب التى حصلوها فى الدنيا لا للإخفاء و كتمان الحديث يوم لا يخفى على الله منهم شىء.

إشارة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا (٤٣)

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا -الى قوله- مَا تَقُولُونَ المراد بالصلاة المسجد، والدليل عليه قوله: وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ، والمقتضى لهذا التجويز قوله حتى تعلموا ما تقولون اذ لو قيل: لا تقربوا المسجد و أنتم سكارى لم يستقم تعليقه بقوله: «حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ» أو أفاد التعليل معنى آخر غير مقصود مع أن المقصود إفاده أنكم في حال الصلاة تواجهون مقام العظمة والكبرياء وتخاطبون رب العالمين فلا يصلح لكم أن تسكروا و تبطلوا عقولكم برجس الخمر فلا تعلموا ما تقولون، وهذا المعنى كما ترى- يناسب النهى عن اقتراب الصلاة لكن الصلاة لما كانت أكثر ما تقع تقع في المسجد جماعه-على السنه- و كان من القصد أن تذكر أحكام الجنب في دخوله المسجد أوجز في المقال و سبك الكلام على ما ترى.

و على هذا فقوله: حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ في مقام التعليل للنهى عن شرب الخمر بحيث يبقى سكرها الى حال دخول الصلاة أى نهيناكم عنه لغايه أن تعلموا ما تقولون و ليس غايه للحكم بمعنى أن لا تقربوا الى أن تعلموا ما تقولون فاذا علمتم ما تقولون فلا بأس.

قوله تعالى: وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ سِيَأْتِي الْكَلَامَ فِي الْآيَةِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ (المائدة/٦).

[سورة النساء (٤): الآيات ٤٤ إلى ٥٨]

إشارة

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَهَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا (٤٥) مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٤٧) إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩) انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا (٥٠) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥) إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَلَّمًا نَضَّجَتْ جُلُودُهُمْ يَدْلُقُنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَيْدَاهُمْ فِيهَا مِنْ أَوْجِاحٍ مُطَهَّرَةٍ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧) إِنْ اللَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنْ اللَّهُ نَعِمًا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨)

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ الْآيَةَ؛ قد تقدم فى الكلام على الآيات (٣٦-٤٢) أنها مرتبطة بعض الارتباط بهذه الآيات، وقد سمعت القول فى نزول تلك الآيات فى حق اليهود.

و بالجمله يلوح من هذه الآيات أن اليهود كانوا يلقون الى المؤمنين الموده و يظهرون لهم النصيح فيفتنونهم بذلك، و يأمرونهم بالبخل و الإمساک عن الإنفاق ليمنعوا بذلك سعيهم عن النجاح، و جدهم فى التقدم و التعالى، و هذا لازم كون تلك الآيات نازله فى حق اليهود أو فى حق من كان يسار اليهود و يصادقهم ثم تنحرف عن الحق بتحريفهم، و يميل الى حيث يميلونه فيبخل ثم يأمر بالبخل.

و هذا هو الذى يستفاد من قوله: وَ يُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ، الى آخر الآيه.

فمعنى الآيتين -و الله أعلم- أن ما نبينه لكم تصديق ما بيناه لكم من حال الممسك عن الإنفاق فى سبيل الله بالاختيال و الفخر و البخل و الرئاء أنك ترى اليهود الذين اوتوا نصيبا من الكتاب أى حظا منه لا جميعه كما يدعون لأنفسهم يشترى الضلاله و يختارونه على الهدى، و يريدون أن تضلوا السبيل فإنهم و إن لقوكم ببشر الوجه، و ظهروا لكم فى زى الصلاح، و اتصلوا بكم اتصال الأولياء الناصرين فذكروا لكم ما ربما استحسنته طباعكم، و استصوبته قلوبكم لكنهم ما يريدون إلا ضلالكم عن السبيل كما اختاروا لأنفسهم الضلاله، و الله أعلم منكم بأعدائكم، و هم أعداؤكم فلا يغرنكم ظاهر ما تشاهدون من حالهم فإياكم أن تطيعوا أمرهم أو تصغوا الى أقوالهم المزوقه و إلقاء آتهم المزخرفه و أنتم تقدرتون أنهم أولياءكم و أنصاركم، فأنتم لا تحتاجون الى ولايتهم الكاذبه، و نصرتهم المرجوه و كفى بالله وليا، و كفى

بالله نصيراً؛ فأى حاحه مع ولايته و نصرته الى ولايتهم و نصرتهم.

قوله تعالى: مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ إِلَى قَوْلِهِ - فِي الدِّينِ «مِنْ» فِي قَوْلِهِ: مِنَ الَّذِينَ، بيانيه، و هو بيان لقوله في الآيه السابقه: الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ، أو لقوله: بِأَعْيُنِكُمْ، و ربما قيل: إن قوله: مِنَ الَّذِينَ هَادُوا خبر لمبتدأ محذوف و هو الموصوف المحذوف لقوله يحرفون الكلم، و التقدير: من الذين هادوا قوم يحرفون، أو من الذين هادوا من يحرفون؛ قالوا: و حذف الموصوف شائع كقول ذى الرمه:

فظلوا و منهم دمه سابق له

و آخر يشنى دمه العين بالمهل

يريد: و منهم قوم دمه، أو و منهم من دمه.

و قد وصف الله تعالى هذه الطائفة بتحريف الكلم عن مواضعه، و ذلك إما بتغيير مواضع الألفاظ بالتقديم و التأخير و الإسقاط و الزيادة كما ينسب الى التوراه و الموجوده، و إما بتفسير ما ورد عن موسى عليه السّلام فى التوراه و عن سائر الأنبياء بغير ما قصد منه من المعنى الحق كما أولو ما ورد فى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم من بشارات التوراه، و من قبل أولو ما ورد فى المسيح عليه السّلام من البشاره، و قالوا: إن الموعود لم يجرى بعد، و هم ينتظرون قدومه الى اليوم.

و من الممكن أن يكون المراد بتحريف الكلم عن مواضعه ما سيذكره تعالى بقوله: وَ يَقُولُونَ سَمِعْنَا وَ عَصَيْنَا، فتكون هذه الجملة معطوفه على قوله: يُحَرِّفُونَ، و يكون المراد حينئذ من تحريف الكلم عن مواضعه استعمال القول بوضعه فى غير المحل الذى ينبغى أن يوضع فيه، فقول القائل: سمعنا من حقه أن يوضع فى موضع الطاعه فيقال: سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا لا أن يقال: سمعنا و عصينا، أو يوضع: سمعنا موضع التهكم و الاستهزاء، و كذا قول القائل: اسمع ينبغى أن يقال فيه: اسمع أسمعك الله لا أن يقال: اسمع غير مسمع أى لا أسمعك الله و راعنا، و هو يفيد فى لغة اليهود معنى اسم غير مسمع.

و قوله: لَيَّا بِاللَّسِنَتِهِمْ وَ طَعْنَا فِي الدِّينِ أصل اللى الفتل أى يميلون بألسنتهم

فيظهورون الباطل من كلامهم في صورته الحق، والإزراء والإهانة في صور التأدب والاحترام فإن المؤمنين كانوا يخاطبون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين ما كانوا يكلمونه بقولهم: راعنا يا رسول الله، ومعناه: انظرنا و اسمع منا حتى نوفي غرضنا من كلامنا، فاغتنمت اليهود ذلك فكانوا يخاطبون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقولهم: راعنا وهم يريدون به ما عندهم من المعنى المستهجن غير الحرى بمقامه صلى الله عليه وآله وسلم فذموا به في هذه الآية، وهو قوله تعالى: «يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ» ثم فسره بقوله: «وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْتَ غَيْرَ مُسْمِعٍ» ثم عطف عليه كعطف التفسير قوله: «وَرَاعِنَا» ثم ذكر أن هذا الفعل المذموم منهم لى بالألسن، وطعن في الدين فقال: «لَيَّا بِاللَّسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ» والمصدران في موضع الحال و التقدير: لاوين بألسنتهم، وطاعين في الدين.

قوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْتَ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ كُونَ هَذَا الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَهُوَ مُشْتَمَلٌ عَلَى أَدَبِ الدِّينِ، وَالْخُضُوعِ لِلْحَقِّ خَيْرًا وَأَقْوَمَ مِمَّا قَالُوهُ» (مع اشتماله على اللى و الطعن المذمومين و لا خير فيه و لا قوام) مبنى على مقياسه الأثر الحق الذى فى هذا الكلام الحق على ما يظنونه من الأثر فى كلامهم و إن لم يكن له ذلك بحسب الحقيقة، فالمقاييس بين الأثر الحق و بين الأثر المظنون حقا، والمعنى: أنهم لو قالوا: سمعنا و أطعنا، لكان فيه من الخير و القوام أكثر مما يقدرون فى أنفسهم لهذا اللى و الطعن فالكلام يجرى مجرى قوله تعالى: «وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَ اللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ» (الجمعة ١١).

قوله تعالى: «وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا» تأيس السامعين من أن تقول اليهود سمعنا و أطعنا فإنه كلمه إيمان و هؤلاء ملعونون لا يوفقون للإيمان، و لذلك قيل: لو أنهم قالوا، الدال على التمنى المشعر بالاستحالة.

و الظاهر أن الباء فى قوله: «بِكُفْرِهِمْ» للسببيه دون الآية، فإن الكفر يمكن أن يزاح

بالإيمان فهو لا- يوجب بما هو كفر لعنه تمنع عن الإيمان منعا قاطعا لكنهم لما كفروا(و سيشرح الله تعالى في آخر السوره حال كفرهم)لعنهم الله بسبب ذلك لعنا ألزم الكفر عليهم إلزاما لا يؤمنون بذلك إلا قليلا فافهم ذلك.

و أما قوله: فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا فقد قيل: إن «قَلِيلًا» حال، و التقدير: إلا و هم قليل أى لا يؤمنون إلا فى حال هم قليل، و ربما قيل: إن «قَلِيلًا» صفة لموصوف محذوف، و التقدير: فلا يؤمنون إلا إيمانا قليلا، و هذا الوجه كسابقه لا بأس به لكن يجب أن يزداد فيه أن اتصاف الإيمان بالقله إنما هو من قبيل الوصف بحال المتعلق أى إيمانا المؤمن به قليل.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا الْحَقَّ؛ الطمس محو أثر الشىء، و الوجه ما يستقبلك من الشىء و يظهر منه، و هو من الانسان الجانب المقدم الظاهر من الرأس و ما يستقبلك منه، و يستعمل فى الامور المعنويه كما فى الامور الحسيه، و الأدبار جمع دبر بضمين و هو القفا، و المراد بأصحاب السبب قوم من اليهود كانوا يعدون فى السبب فلعنهم الله و مسخهم، قال تعالى: وَ سَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَ يَوْمَ لَا يَسْتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ (الأعراف ١٦٣)، و قال تعالى: وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَ مَا خَلَفَهَا (البقره ٦٦).

و قد كانت الآيات السابقه- كما عرفت- متعرضه لحال اليهود أو لحال طائفه من اليهود، و انجر القول الى أنهم بإزاء ما خانوا الله و رسوله، و أفسدوا صالح دينهم ابتلوا بلعنه من الله لحق جمعهم، و سلبهم التوفيق للإيمان إلا- قليلا- فعم الخطاب لجميع أهل الكتاب- على ما يفيدده قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ - و دعاهم الى الإيمان بالكتاب الذى نزله مصدقا لما معهم، و أوعدهم بالسخط الذى يلحقهم لو تمردوا و استكبروا من غير عذر من طمس أو لعن يتبعانهم اتباعا لا ريب فيه.

و ذلك ما ذكره بقوله: مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدُّهَا عَلَيَّ أَذْبَارَها، فطمس الوجوه محو هذه الوجوه التي يتوجه بها البشر نحو مقاصدها الحيويه مما فيه سعادته الإنسان المرتقبه و المرجوه لكن لا المحو يوجب فناء الوجوه و زوالها و بطلان آثارها بل محوا يوجب ارتداد تلك الوجوه على أذبارها فهي تقصد مقاصدها على الفطره التي فطر عليها لكن لما كانت منصوبه الى الاقفيه و مردوده على الأذبار لا تقصد إلا ما خلفته وراءها، و لا تمشى إليه إلا القهقري.

و هذا الإنسان- و هو بالطبع و الفطره متوجه نحو ما يراه خيرا و سعادته لنفسه- كلما توجه الى ما يراه خيرا لنفسه، و صلاحا لدينه أو لدنياه لم ينل إلا شرا و فسادا، و كلما بالغ في التقدم زاد في التأخر، و ليس يفلح أبدا.

و أما لعنهم كلعن أصحاب السبب فظاهره المسخ على ما تقدم من آيات أصحاب السبب التي تخبر عن مسخهم قرده.

و على هذا فلفظه «أَوْ» في قوله: أَوْ نَلْعَنَهُمْ، على ظاهرها من إفاده الترديد، و الفرق بين الوعيدين أن الأول أعنى الطمس يوجب تغيير مقاصد المغضوب عليهم من غير تغيير الخلقه إلا في بعض كفياتها، و الثاني أعنى اللعن كلعن أصحاب السبب يوجب تغيير المقصد بتغيير الخلقه الإنسانيه الى خلقه حيوانيّه كالقرده.

فهؤلاء إن تمردوا عن الامتثال- و سوف يتمردون على ما تفيده خاتمه الآية- كان لهم إحدى سخطتين: إما طمس الوجوه، و إما اللعن كلعن أصحاب السبب لكن الآية تدل على أن هذه السخطه لا تعمهم جميعهم حيث قال: «وَجُوهًا» فأتى بالجمع المنكر، و لو كان هو الجميع لم ينكر، و لتكبير الوجوه و عدم تعيينه نكته اخرى هي أن المقام لما كان مقام الإيعاد و التهديد، و هو إبعاد للجماعه بشر لا يلحق إلا ببعضهم كان إبهام الأفراد الذين يقع عليهم السخط الإلهي أوقع في الإنذار و التخويف لأن وصفهم على إبهامه يقبل الانطباق على كل

واحد واحد من القوم فلا- يأمن أحدهم أن يمسه هذا العذاب البئيس، وهذه الصناعات شائعة في اللسان في مقام التهديد و التخويف.

و في قوله تعالى: أو نلعنهم، حيث أرجع فيه ضمير «هم» الموضوع لاولى العقل الى قوله:

«وَجُوهًا» كما هو الظاهر تلويحا أو تصريحاً بأن المراد بالوجوه الأشخاص من حيث استقبالهم مقاصدهم، وبذلك يضعف احتمال أن يكون المراد بطمس الوجوه وردّها على أديبارها تحويل وجوه الأبدان الى الأفقيه كما قال به بعضهم، ويقوى بذلك احتمال أن المراد من تحويل الوجوه الى الأدبار تحويل النفوس من حال استقامه الفكر، وإدراك الواقعيات على واقعياتها الى حال الاعوجاج والانحطاط الفكرى بحيث لا يشاهد حقا إلاّ أعرض عنه و اشمأز منه، ولا باطلا إلاّ مال إليه و تولع به.

و هذا نوع من التصرف الإلهى مقتا و نقمه نظير ما يدل عليه قوله تعالى: وَ نَقَلْبُ أَفْنَدَتَهُمْ وَ أَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ نَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (الأنعام ١١٠).

فتبين مما مر أن المراد بطمس الوجوه فى الآيه نوع تصرف إلهى فى النفوس يوجب تغيير طباعها من مطاوعه الحق و تجنب الباطل الى اتباع الباطل و الاحتراز عن الحق فى باب الإيمان بالله و آياته كما يؤيده صدر الآيه: آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس، الخ؛ وكذا تبين أن المراد باللعن المذكور فيها المسخ.

قوله تعالى: وَ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا- إشاره الى أن الأمر لا- محاله واقع، وقد وقع على ما ذكره الله فى كتابه من لعنهم و إنزال السخط عليهم، و إلقاء العداوه و البغضاء بينهم الى يوم القيامة، و غير ذلك من آيات كثيره.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ظاهر السياق أن الآيه فى مقام التعليل للحكم المذكور فى الآيه السابقه أعنى قوله: آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ، الخ؛ فيعود المعنى الى مثل قولنا: فإنكم إن لم تؤمنوا

به كنتم بذلك مشركين، و الله لا- يغفر أن يشرك به فيحل عليكم غضبه و عقوبته فيطمس وجوهكم بردها على أديارها أو يلعنكم فنتيجة عدم المغفرة هذه ترتب آثار الشرك الدنيويه من طمس أو لعن عليه.

و هذا هو الفرق بين مضمون هذه الآيه، و قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (النساء ١١٦)، فإن هذه الآيه (آيه ٤٨)، تهدد بآثار الشرك الدنيويه، و تلك (آيه ١١٦)، تهدد بآثاره الاخرويه، و ذلك بحسب الانطباق على المورد و إن كانتا بحسب الإطلاق كلتاها شاملتين لجميع الآثار.

و مغفرته سبحانه و عدم مغفرته لا- يقع شىء منهما وقوعا جزافيا بل على وفق الحكمة، و هو العزيز الحكيم؛ فأما عدم مغفرته للشرك فإن الخلقه إنما ثبتت على ما فيها من الرحمه على أساس العبوديه و الربوبيه، قال تعالى: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (الذاريات ٥٦)، و لا- عبوديه مع شرك؛ و أما مغفرته لسائر المعاصي و الذنوب التي دون الشرك فشفاعه من جعل له الشفاعه من الأنبياء و الأولياء و الملائكه و الأعمال الصالحه على ما مر تفصيله في بحث الشفاعه في الجزء الأول من هذا الكتاب.

و أما التوبه فالآيه غير متعرضه لشأنها من حيث خصوص مورد الآيه لأن موردها عدم الإيمان و لا توبه معه، على أن التوبه يغفر معها جميع الذنوب حتى الشرك، قال تعالى: قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَ أَنْيَبُوا إِلَيَّ رَبُّكُمْ (الزمر ٥٤).

و المراد بالشرك في الآيه ما يعم الكفر لا محاله فإن الكافر أيضا لا يغفر له البته و إن لم يصدق عليه المشرك بعنوان التسميه بناء على أن أهل الكتاب لا- يسمون في القرآن مشركين و إن كان كفرهم بالقرآن و بما جاء به النبي شركا منهم أشركوا به (راجع تفسير آيه ٢٢١ من البقره)، و اذا لم يؤمن أهل الكتاب بما نزل الله مصدقا لما معهم فقد كفروا به، و أشركوا ما في

أيديهم بالله سبحانه فإنه شيء لا يريد الله على الصفه التي أخذوه بها فالمؤمن بموسى عليه السلام اذا كفر بالمسيح عليه السلام فقد كفر بالله و أشرك به موسى؛ ولعل ما ذكرناه هو النكته لقوله تعالى: أَنْ يُشْرَكَ بِهِ دُونَ أَنْ يَقُولَ: الْمَشْرِكُ أَوْ الْمَشْرِكِينَ.

وقوله تعالى: لِمَنْ يَشَاءُ تَقْيِيدَ لِلْكَلامِ لِدْفَعِ تَوْهَمِ أَنْ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ تَأْثِيرًا فِيهِ تَعَالَى يُوْجِبُ بِهِ عَلَيْهِ الْمَغْفِرَةَ فَيُحْكَمُ عَلَيْهِ تَعَالَى حَاكِمًا أَوْ يَقْهَرُهُ قَاهِرًا، وَتَعْلِيْقُ الْأُمُورِ الثَّابِتَةِ فِي الْقُرْآنِ عَلَى الْمَشِيئَةِ كَثِيرٌ وَالْوَجْهُ فِي كُلِّهَا أَوْ جُلِّهَا دَفْعُ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ التَّوْهَمِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:

خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٍ (هود/ ١٠٨).

على أن من الحكمه أن لا يغفر لكل مذنب ذنبه و إلا لغى الأمر و النهى، و بطل التشريع، و فسد أمر التربيه الإلهيه، و إليه الإشاره بقوله: لِمَنْ يَشَاءُ، و من هنا يظهر أن كل واحد من المعاصي لا بد أن لا يغفر بعض أفراده و إلا لغى النهى عنه، و هذا لا ينافي عموم لسان آيات أسباب المغفره فإن الكلام في الوقوع دون الوعد على وجه الإطلاق، و من المعاصي ما يصدر عن لا يغفر له بشرک و نحوه.

فمعنى الآيه أنه تعالى لا يغفر الشرك من كافر و لا مشرك، و يغفر سائر الذنوب دون الشرك بشفاعه شافع من عباده أو عمل صالح، و ليس هو تعالى مقهورا أن يغفر كل ذنب من هذه الذنوب لكل مذنب بل له أن يغفر و له أن لا يغفر؛ كل ذلك لحكمه.

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُرْكُونَ أَنْفُسَهُمْ قَالِ الرَّاغِبِ: أَصْلُ الزَّكَاةِ النَّمُو الْحَاصِلُ مِنْ بَرَكَهَ اللَّهِ تَعَالَى - أَلَى أَنْ قَالَ -: وَتَرْكِيهِ الْإِنْسَانَ نَفْسَهُ ضَرْبَانِ: أَحَدُهُمَا: بِالْفِعْلِ وَهُوَ مَحْمُودٌ، وَإِلَيْهِ قَصْدُ بَقَوْلِهِ: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَرَكَى، وَالثَّانِي بِالْقَوْلِ كَتَرْكِيهِ لِعَدْلِ غَيْرِهِ، وَذَلِكَ مَذْمُومٌ أَنْ يَفْعَلَ الْإِنْسَانُ بِنَفْسِهِ، وَقَدْ نَهَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ فَقَالَ: لَا تَرْكُوا أَنْفُسَكُمْ، وَنَهَيْهِ عَنِ ذَلِكَ تَأْدِيبٌ لِقَبْحِ مَدْحِ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ عَقْلًا وَشَرْعًا، وَلِهَذَا قِيلَ لِحَكِيمٍ: مَا الَّذِي لَا يَحْسَنُ وَ إِنْ

كان حقا؟ فقال: مدح الرجل نفسه، انتهى كلامه.

و لما كانت الآيه فى ضمن الآيات المسروده للتعرض لحال أهل الكتاب الظاهر أن هؤلاء المزكين لأنفسهم هم أهل الكتاب أو بعضهم، و لم يوصفوا بأهل الكتاب لأن العلماء بالله و آياته لا ينبغي لهم أن يتلبسوا بأمثال هذه الرذائل فالإصرار عليها انسلاخ عن الكتاب و علمه.

و يؤيده ما حكاه الله تعالى عن اليهود من قوله: نَحْنُ أُنْبَاءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاءُهُ (المائده ١٨/) و قولهم: لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً (البقره ٨٠/) و زعمهم الولايه كما فى قوله تعالى: قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ (الجمعه ٦/)، فالآيه تبنى عن اليهود، و فيها استشهاد لما تقدم ذكره فى الآيات السابقه من استكبارهم عن الخضوع للحق و اتباعه، و الإيمان بآيات الله سبحانه، و استقرار اللعن الإلهى فيهم، و أن ذلك من لوازم إعجابهم بأنفسهم و تركيتهم لها.

قوله تعالى: يَبْلُغُ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَ لَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا. إضراب عن تركيتهم لأنفسهم، وورد لهم فيما زكوه، و بيان أن ذلك من شئون الربوبيه يختص به تعالى فإن الإنسان و إن أمكن أن يتصف بفضائل، و يتلبس بأنواع الشرف و السوود المعنوى غير أن اعتناءه بذلك و اعتماده عليه لا يتم إلا- بإعطائه لنفسه استغناء و استقلالاً و هو فى معنى دعوى الألوهيه و الشركه مع رب العالمين، و أين الإنسان الفقير الذى لا- يملك لنفسه ضرا أو نفعاً و لا- موتاً و لا حياه و الاستغناء عن الله سبحانه فى خير أو فضيله؟ و الإنسان فى نفسه و فى جميع شئون نفسه، و الخير الذى يزعم أنه يملكه، و جميع أسباب ذلك الخير، مملوك لله سبحانه محضاً من غير استثناء، فما ذا يبقى للإنسان؟

و هذا الغرور و الإعجاب الذى يبعث الإنسان الى تركيه نفسه هو العجب الذى هو من أمهات الرذائل، ثم لا يلبث هذا الإنسان المغرور المعتمد على نفسه دون أن يمس غيره فيتولد

من رذيلته هذه رذيله اخرى، و هي رذيله التكبر و يتم تكبره في صورته الاستعلاء على غيره من عباد الله فيستعبد به عباد الله سبحانه، و يجرى به كل ظلم و بغى بغير حق و هتك محارم الله و بسط السلطه على دماء الناس و أعراضهم و أموالهم.

و هذا كله اذا كان الوصف وصفا فرديا و أما اذا تعدى الفرد و صار خلقا اجتماعيا و سيره قوميه فهو الخطر الذى فى هلاك النوع و فساد الأرض، و هو الذى يحكيه تعالى عن اليهود اذ قالوا: لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنِ سَبِيلٌ (آل عمران ٧٥).

فما كان لبشر أن يذكر لنفسه من الفضيله ما يمدحها به سواء كان صادقا فيما يقول أو كاذبا لأنه لا يملك ذلك لنفسه لكن الله سبحانه لما كان هو المالك لما ملكه، و المعطى الفضل لمن يشاء و كيف يشاء كان له أن يزكى من شاء تزكيه عمليه بإعطاء الفضل و إفاضه النعمه، و أن يزكى من يشاء تزكيه قوليه يذكره بما يمدح به، و يشرفه بصفات الكمال كقوله فى آدم و نوح: إِنَّ اللَّهَ اضْيَطَفُنِي آدَمَ وَ نُوحًا (آل عمران ٢٣)، و قوله فى إبراهيم و إدريس: إِنَّهُ كَانَ صِدْقًا نَبِيًّا (مريم ٤١، ٥٦)، و قوله فى يعقوب: وَ إِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ (يوسف ٦٨)، و قوله فى يوسف: إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (يوسف ٢٤)، و قوله فى حق موسى: إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (مريم ٥١)، و قوله فى حق عيسى: وَ جِيهًا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (آل عمران ٤٥)، و قوله فى سليمان و أيوب: نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (ص ٣٠، ٤٤)، و قوله فى محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: إِنَّ وَبِيَّ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَ هُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (الأعراف ١٩٦)، و قوله: وَ إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (القلم ٤)، و كذا قوله تعالى فى حق عده من الأنبياء ذكرهم فى سور الأنعام و مريم و الأنبياء و الصافات و ص و غيرها.

و بالجملة فالتركيه لله سبحانه حق لا يشاركه فيه غيره اذ لا يصدر عن غيره إلا من ظلم و الى ظلم، و لا يصدر عنه تعالى إلا حقا و عدلا يقدر بقدره لا يفرط و لا يفرط، و لذا ذيل

قوله: بَلِ اللَّهُ يُرَكِّي مَنْ يَشَاءُ بقوله-و هو فى معنى التعليل -: وَ لَا يُظَلِّمُونَ فَتِيلاً .

و قد تبين مما مر أن تركيته تعالى و إن كانت مطلقه تشمل التركيه العمليه و التركيه القوليه لكنها تنطبق بحسب مورد الكلام على التركيه القوليه.

قوله تعالى: وَ لَا يُظَلِّمُونَ فَتِيلاً- الفتيل فعيل بمعنى المفعول من الفتل و هو اللى قيل: المراد به ما يكون فى شق النواه، و قيل: هو ما فى بطن النواه، و قد ورد فى روايات عن أئمه أهل البيت عليهم السّلام: أنه النقطة التى على النواه، و النقيير ما فى ظهرها، و القطمير قشرها، و قيل: هو ما فتلته بين إصبعيك من الوسخ، و كيف كان هو كناية عن الشىء الحقيق الذى لا يعتد به.

و قد بان بالآيه الشريفه أمران: أحدهما: أن ليس لصاحب الفضل أن يعجبه فضله و يمدح نفسه بل هو مما يختص به تعالى فإن ظاهر الآيه أن الله يختص به أن يزكى كل من جاز أن يتلبس بالتركيه فليس لغير صاحب الفضل أيضا أن يزكيه إلا بما زكاه الله به، و ينتج ذلك أن الفضائل هى التى مدحها الله و زكاها فلا قدر لفضل لا يعرفه الدين و لا يسميه فضلا، و لا يستلزم ذلك أن تبطل آثار الفضائل عند الناس فلا يعرفوا لصاحب الفضل فضله، و لا يعظموا قدره بل هى شعائر الله و علائمه، و قد قال تعالى: وَ مَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (الحج ٣٢)، فعلى الجاهل أن يخضع للعالم و يعرف له قدره فإنه من اتباع الحق و قد قال تعالى: هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (الزمر ٩)، و إن لم يكن للعالم أن يتبجح بعلمه و يمدح نفسه، و الأمر فى جميع الفضائل الحقيقيه الإنسانيه على هذا الحال.

و ثانيهما: أن ما ذكره بعض باحثينا، و اتبعوا فى ذلك ما ذكره المغاربه أن من الفضائل الإنسانيه الاعتماد بالنفس أمر لا يعرفه الدين، و لا يوافق مذاق القرآن، و الذى يراه القرآن فى ذلك هو الاعتماد بالله و التعزز بالله قال تعالى: الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ

فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (آل عمران ١٧٣)، وقال: أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (البقره ١٦٥)، وقال: إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (يونس ٦٥)، الى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: أَنْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ الخ؛ فتر كيتهم أنفسهم بنوه الله و حبه و ولايته و نحو ذلك افتراء على الله اذ لم يجعل الله لهم ذلك، على أن أصل التزكية افتراء و إن كانت عن صدق فإنه- كما تقدم بيانه- إسناد شريك الى الله و ليس له فى ملكه شريك قال تعالى: وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ (الإسراء ١١١).

و قوله: وَ كَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا أى لو لم يكن فى التزكية إلا أنه افتراء على الله لكفى فى كونه إثما مبينا، و التعبير بالإثم- و هو الفعل المذموم الذى يمنع الإنسان من نيل الخيرات و يبطئها- هو المناسب لهذه المعصية لكونه من اشراك الشرك و فروعه، يمنع نزول الرحمة، و كذا فى شرك الكفر الذى يمنع المغفرة كما وقع فى الآيه السابقه: و من يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما بعد قوله: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ .

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ الْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ الْجِبْتِ وَ الْجِبْتِ كُلِّ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ، وَقِيلَ: وَ كُلِّ مَا يَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَ الطَّاغُوتِ مَصْدَرٌ فِي الْأَصْلِ كَالطَّاغِيَانِ يَسْتَعْمَلُ كَثِيرًا بِمَعْنَى الْفَاعِلِ، وَقِيلَ: هُوَ كُلُّ مَعْبُودٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَ الْآيَةَ تَكْشِفُ عَنْ وَقُوعِ وَقَاعِهِ قَضَىٰ فِيهَا بَعْضُ أَهْلِ الْكِتَابِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا بِأَنْ سَبِيلَ الْمُشْرِكِينَ أَهْدَىٰ مِنْ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَ لَيْسَ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا- دِينَ التَّوْحِيدِ الْمَنْزَلُ فِي الْقُرْآنِ الْمَصْدُوقِ لَمَّا عِنْدَهُمْ، وَ لَا عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ إِلَّا الْإِيمَانَ بِالْجِبْتِ وَ الطَّاغُوتِ فَهَذَا الْقَضَاءُ اعْتِرَافٌ مِنْهُمْ بِأَنَّ لِلْمُشْرِكِينَ نَصِيحًا مِنَ الْحَقِّ، وَ هُوَ الْإِيمَانُ بِالْجِبْتِ وَ الطَّاغُوتِ الَّذِي نَسَبَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ إِلَيْهِمْ ثُمَّ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ، الْآيَةَ.

و هذا يؤيد ما ورد فى أسباب النزول أن مشركى مكه طلبوا من أهل الكتاب أن يحكموا

بينهم و بين المؤمنين فيما ينتحلونه من الدين فقصوا لهم على المؤمنين، و سيأتى الروايه فى ذلك فى البحث الروائى الآتى.

و قد ذكر كونهم ذوى نصيب من الكتاب ليكون أوقع فى وقوع الدم و اللوم عليهم فإن إيمان علماء الكتاب و الطاغوت و قد بين لهم الكتاب أمرهما أشنع و أفظع.

قوله تعالى: أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ -الى قوله- نَقِيرًا النقر فعيل بمعنى المفعول و هو المقدار اليسير الذى يأخذه الطير من الأرض بنقر منقاره، و قد مر له معنى آخر فى قوله:

□
وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا، الآيه.

و قد ذكروا أن «أم» فى قوله: أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ، منقطعه و المعنى: بل ألهم نصيب من الملك، و الاستفهام إنكارى أى ليس لهم ذلك.

و قد جوز بعضهم أن تكون «أم» متصله، و قال: إن التقدير: أهم أولى بالنبوه أم لهم نصيب من الملك؟ و رد بأن حذف الهمزه إنما يجوز فى ضروره الشعر، و لا ضروره فى القرآن، و الظاهر أن أم متصله و أن الشق المحذوف ما يدل عليه الآيه السابقه، أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ، الآيه؛ و التقدير: ألهم كل ما حكموا به من حكم أم لهم نصيب من الملك أم يحسدون الناس؟ و على هذا تستقيم الشقوق و ترتب، و يتصل الكلام فى سوجه.

و المراد بالملك هو السلطنه على الامور الماديه و المعنويه فيشمل ملك النبوه و الولايه و الهدايه و ملك الرقاب و الثروه، و ذلك أنه هو الظاهر من سياق الجمل السابقه و اللاحقه فإن الآيه السابقه تومئ الى دعواهم أنهم يملكون القضاء و الحكم على المؤمنين، و هو مسانخ للملك على الفضائل المعنويه و ذيل الآيه «فَمَاذَا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا» يدل على ملك الماديات أو ما يشمل ذلك فالمراد به الأعم من ملك الماديات و المعنويات.

فيؤول معنى الآيه الى نحو قولنا: أم لهم نصيب من الملك الذى أنعم الله به على نبيه بالنبوه و الولايه و الهدايه و نحوه، و لو كان لهم ذلك لم يؤتوا الناس أقل القليل الذى لا يعتد به لبخلهم

و سوء سريرتهم، فالآية قريبه المضمون من قوله تعالى: قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَيْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ (الإسراء ١٠٠).

قوله تعالى: أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ هَذَا آخِرُ الشَّقِيقِ الثَّلَاثَةِ الْمَذْكُورَةِ، وَ وَجْهُ الْكَلَامِ إِلَى الْيَهُودِ جَوَابًا عَنْ قَضَائِهِمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ دِينَ الْمَشْرِكِينَ أَهْدَىٰ مِنْ دِينِهِمْ.

و المراد بالناس على ما يدل عليه هذا السياق هم الذين آمنوا، و بما آتاهم الله من فضله هو النبوه و الكتاب و المعارف الدينيه، غير أن ذيل الآية: فقد آتينا آل إبراهيم، الخ؛ يدل على أن هذا الذى اطلق عليه الناس من آل إبراهيم، فالمراد بالناس حينئذ هو النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و ما انبسط على غيره من هذا الفضل المذكور فى الآية فهو من طريقه و ببركاته العالیه، و قد تقدم فى تفسير قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَ نُوحًا وَ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْآيَةَ (آل عمران ٣٣)، أن آل إبراهيم هو النبى و آله.

و إطلاق الناس على المفرد لا ضمير فيه فإنه على نحو الكنايه كقولك لمن يتعرض لك و يؤذيك: لا تتعرض للناس، و ما لك و للناس؟ تريد نفسك أى لا تتعرض لى.

قوله تعالى: فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ الْجَمْلَةَ إِنَّا لَنَاسٍ لَّهُمْ فِي حَسَدِهِمْ، وَ قَطَعَ لِرَجَائِهِمْ زَوَالَ هَذِهِ النِّعْمَةِ، وَ انْقِطَاعَ هَذَا الْفَضْلِ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَىٰ آلَ إِبْرَاهِيمَ مِنْ فَضْلِهِ مَا أَعْطَىٰ، وَ آتَاهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ مَا آتَىٰ فَلْيَمُوتُوا بَغِيظِهِمْ فَلَنْ يَنْفَعَهُمُ الْحَسَدُ شَيْئًا.

و من هنا يظهر أن المراد بآل إبراهيم إما النبى و آله من أولاد إسماعيل أو مطلق آل إبراهيم من أولاد إسماعيل و إسحاق حتى يشمل النبى صلى الله عليه و آله و سلم الذى هو المحسود عند اليهود بالحقيقه، و ليس المراد بآل إبراهيم بنى إسرائيل من نسل إبراهيم فإن الكلام على هذا التقدير يعود تقريراً لليهود فى حسدهم النبى أو المؤمنين لمكان النبى صلى الله عليه و آله و سلم فىهم فيفسد معنى الجملة كما لا يخفى.

وقد ظهر أيضا كما تقدمت الإشارة إليه أن هذه الجملة: فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ، الخ؛ تدل على أن الناس المحسودين هم من آل إبراهيم، فيتأيد به أن المراد بالناس النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و أما المؤمنون به فليسوا جميعا من ذرية إبراهيم، ولا كرامه لذريته من المؤمنين على غيرهم حتى يحمل الكلام عليهم، ولا يوجب مجرد الإيمان و اتباع مله إبراهيم تسميه المتبعين بأنهم آل إبراهيم، و كذا قوله تعالى: إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هَذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الْآيَةَ (آل عمران ٦٨) لا يوجب تسميه الذين آمنوا بآل إبراهيم لمكان الأولويه فإن في الآية ذكرا من الذين اتبعوا إبراهيم، و ليسوا يسمون آل إبراهيم قطعا، فالمراد بآل إبراهيم النبي أو هو و آله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و إسماعيل جده و من في حذوه.

قوله تعالى: وَ آتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا قد تقدم أن مقتضى السياق أن يكون المراد بالملك ما يعم الملك المعنوى الذى منه النبوه و الولايه الحقيقيه على هدايه الناس و إرشادهم و يؤيده أن الله سبحانه لا يستعظم الملك الدنيوى لو لم يتنه الى فضيله معنويه و منقبه دينيه، و يؤيد ذلك أيضا أن الله سبحانه لم يعد فيما عده من الفضل فى حق آل إبراهيم النبوه و الولايه اذ قال: فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب و الحكمة، فيقوى أن يكون النبوه و الولايه مندرجتين فى إطلاق قوله: وَ آتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا .

قوله تعالى: فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ الصَّدَّ الصَّرْفُ و قد قوبل الإيمان بالصد لأن اليهود ما كانوا ليقنعوا على مجرد عدم الإيمان بما أنزل على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ دون أن يبذلوا مبلغ جهدهم فى صد الناس عن سبيل الله و الإيمان بما نزله من الكتاب، و ربما كان الصد بمعنى الإعراض و حينئذ يتم التقابل من غير عنايه زائده.

قوله تعالى: وَ كَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا تهديد لهم بسعير جهنم فى مقابل ما صدوا عن الإيمان بالكتاب و سعروا نار الفتنة على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و الذين آمنوا معه.

ثم بين تعالى كفايه جهنم فى أمره بقوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا، الى آخر الآيه؛ و هو بيان

فى صورته التعليل، ثم عقبه بقوله: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، الى آخر الآيه؛ ليتبين الفرق بين الطائفتين: مَنْ آمَنَ بِهِ، و مَنْ صَدَّ عَنْهُ، و من يظهر أنهما فى قطبين متخالفين من سعادة الحياه الاخرى و شقائها: دخول الجنات و ظلها الظليل، و إحاطه سعر جهنم و الاصطلاء بالنار- أعاذنا الله- و معنى الآيتين واضح.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ظاهره الارتباط بالآيات السابقه عليها فإن البيان الإلهى فيها يدور حول حكم اليهود للمشركين بأنهم أهدى سبيلا من المؤمنين، و قد وصفهم الله تعالى فى أول بيانه بأنهم اوتوا نصيبا من الكتاب و الذى فى الكتاب هو تبين آيات الله و المعارف الإلهيه، و هى أمانات مأخوذه عليها الميثاق أن تبين للناس، و لا تكتم عن أهله.

و هذا الذى ذكر من القرائن يؤيد أن يكون المراد بالأمانات ما يعم الأمانات المالىه و غيرها من المعنويات كالعلوم و المعارف الحقه التى من حقها أن يبلغها حاملوها أهلها من الناس.

و بالجملة لما خانت اليهود الأمانات الإلهيه المودعه عندهم من العلم بمعارف التوحيد و آيات نبوه محمد صلى الله عليه و آله و سلم فكتموها و لم يظهرها فى واجب وقتها، ثم لم يقنعوا بذلك حتى جاروا فى الحكم بين المؤمنين و المشركين فحكموا للوثنيه على التوحيد فأل أمرهم فيه الى اللعن الإلهى و جر ذلك إياهم الى عذاب السعير فلما كان من أمرهم ما كان، غير سبحانه سياق الكلام من التكلم الى الغيبه فأمر الناس بتأديه الأمانات الى أهلها، و بالعدل فى الحكم فقال:

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ، الخ (١).

ص: ٦٩٤

و فى الفقيه ياسناده عن ثوير عن أبيه: أن عليا عليه السلام قال: ما فى القرآن آيه أحب إلى من قوله عزّ و جل: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ .

أقول: و رواه فى الدر المنثور عن الفريابى و الترمذى و حسنه عن على .

و فى الدر المنثور أخرج ابن جوير و ابن أبى حاتم عن ابن عمر قال لما نزلت: يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم الآية فقام رجل فقال: و الشرك يا نبى الله؟ فكره ذلك النبى صلى الله عليه و آله و سلم فقال: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ الآية .

و فيه أخرج ابن المنذر عن أبى مجاز قال: لما نزلت هذه الآية، يا عبادى الذين أسرفوا الآية قام النبى صلى الله عليه و آله و سلم على المنبر فتلاها على الناس فقام إليه رجل فقال: و الشرك بالله؟ فسكت -مرتين أو ثلاثا- فنزلت هذه الآية: إن الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء فاثبتت هذه فى الزمر، و اثبتت هذه فى النساء .

اقول: و قد عرفت فيما تقدم أن آيه الزمر ظاهره بحسب ما تتعقبه من الآيات فى المغفره بالتوبه، و لا ريب أن التوبه يغفر معها كل ذنب حتى الشرك، و أن آيه النساء موردها غير مورد التوبه فلا- تنافى بين الآيتين مضمونا حتى تكون إحداهما ناسخه أو مخصصه للآخرى .

و فى المجمع عن الكلبي فى الآية: نزلت فى المشركين وحشى و أصحابه، و ذلك أنه لما قتل حمزه، و كان قد جعل له على قتله أن يعتق فلم يوف له بذلك، فلما قدم مكه ندم على صنيعه هو و أصحابه فكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: أنا قد ندمنا على الذى صنعناه، و ليس يمنعنا عن الإسلام إلا أنا سمعناك تقول و أنت بمكه: و الذين لا يدعون مع الله إلها آخر و لا يقتلون النفس التى حرم الله إلا- بالحق و لا- يزنون الآيات، و قد دعونا مع الله إلها آخر، و قتلنا النفس التى حرم الله، و زينا، فلو لا هذه لا تبعناك فنزلت الآية: إلا من تاب و عمل عملا صالحا الآيتين فبعث بهما رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إلى وحشى و أصحابه، فلما قرأهما كتبوا إليه: أن هذا شرط شديد نخاف أن لا نعمل عملا صالحا فلا نكون من أهل هذه الآية فنزلت: إن الله لا يغفر الآية فبعث بها

إليهم فقرءوها فبعثوا إليه: إنا نخاف أن لا نكون من أهل مشيئته فنزلت: يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا فبعث بها إليهم فلما قرءوها دخل هو وأصحابه فى الإسلام، ورجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقبل منهم، ثم قال لوحشى أخبرنى كيف قتلت حمزه؟ فلما أخبره قال: ويحك غيب شخصك عنى فلحق وحشى:

بعد ذلك بالشام، و كان بها إلى أن مات.

اقول: وقد ذكر هذه الروايه الرازى فى تفسيره عن ابن عباس و التأملى فى موارد هذه الآيات التى تذكر الروايه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يراجع بها وحشيا لا يدع للمتأمل شكاً فى أن الروايه موضوعه قد أراد واضعها أن يقدر أن وحشيا وأصحابه مغفور لهم و إن ارتكبوا من المعاصى كل كبيره و صغيره فقد التقط آيات كثيره من مواضع مختلفه من القرآن فالاستثناء من موضع، و المستثنى من موضع من أن كلا منها واقعه فى محل محفوفه بأطراف لها معها ارتباط و اتصال، و للمجموع سياق لا يحتمل التقطيع و التفصيل فقطعها ثم رتبها و نضدها نضداً يناسب هذه المراجعه العجيبه بين النبى صلى الله عليه وآله وسلم و بين وحشى.

و لقد أجاد بعض المفسرين حيث قال بعد الإشاره إلى الروايه: كأنهم يثبتون أن الله سبحانه كان يداعب وحشيا!

فواضع الروايه لم يرد إلا- أن يشرف وحشيا بمغفره محتومه مختومه لا- يضره معها أى ذنب أذنب و أى فظيحه أتى بها، و عقب ذلك ارتفاع المجازاه على المعاصى، و لازمه ارتفاع التكليف عن البشر على ما يراه النصرانيه بل أشنع فإنهم إنما رفعوا التكليف بتفديه مثل عيسى المسيح، و هذا يرفعه اتباعاً لهوى وحشى.

و وحشى هذا هو عبد لابن مطعم قتل حمزه باحد ثم لحق مكة ثم أسلم بعد أخذ الطائف، و قال له النبى صلى الله عليه وآله وسلم: غيب شخصك عنى فلحق بالشام و سكن حمصاً و اشتغل فى عهد عمر بالكتابه فى الديوان، ثم اخرج منه لكونه يدمن الخمر، و قد جلد لذلك غير مره، ثم مات فى

خلافه عثمان، قتله الخمر على ما روى.

روى ابن عبد البر فى الاستيعاب بإسناده عن ابن اسحاق عن عبد الله بن الفضل عن سليمان بن يسار عن جعفر بن عمرو بن اميه الضمرى قال: خرجت أنا و عبد الله ابن عدى بن الخيار فمررنا بحمص و بها وحشى، فقلنا: لو أتيناها و سألناه عن قتله حمزه كيف قتله، فلقينا رجلا و نحن نسأله عنه فقال: إنه رجل قد غلبت عليه الخمر فإن تجداه صاحيا تجداه رجلا عربيا يحدثكما ما شئتما من حديث، و إن تجداه على غير ذلك فانصرفا عنه؛ قال: فأقبلنا حتى انتهينا إليه، الحديث، و فيه ذكر كيفية قتله حمزه يوم احد.

و فى المجمع روى مطرف بن شخير عن عمر بن الخطاب قال: كنا على عهد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إذا مات الرجل منا على كبيره شهدنا بأنه من أهل النار حتى نزلت الآية فأمسكنا عن الشهادات.

و فى الدر المنثور أخرج ابن المنذر من طريق المعتمر بن سليمان عن سليمان بن عتبة البارقي قال: حدثنا إسماعيل بن ثوبان قال: شهدت فى المسجد قبل الداء الأعظم فسمعتهم يقولون: مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ فَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ وَ الْأَنْصَارُ: قَدْ أُوجِبَ لَهُ النَّارُ فَلَمَّا نَزَلَتْ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ قَالُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ، يصنع الله ما يشاء.

أقول: و روى ما يقرب من الروايتين عن ابن عمر بغير واحد من الطرق، و هذه الروايات لا تخلو من شىء فلا نظن بعامه أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أن يجهلوا أن هذه الآية: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ لَا تَزِيدُ فِي مضمونها على آيات الشفاعة شيئا كما تقدم بيانه، أو أن يغفلوا عن أن معظم آيات الشفاعة مكيه كقوله تعالى فى سورة الزخرف: وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (الزخرف ٨٦)، و مثلها آيات الشفاعة الواقعة فى سورة يونس، و الأنبياء، و طه، و السبأ، و النجم، و المدثر كلها آيات مكيه تثبت

الشفاعة على ما مر بيانه، وهي عامه لجميع الذنوب و مقيده في جانب المشفوع له بالدين المرضى و هو التوحيد و نفي الشريك و في جانب الله تعالى بالمشيئة، فمحصل مفادها شمول المغفرة لجميع الذنوب إلا الشرك على مشيئة من الله، و هذا بعينه مفاد هذه الآية: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ .

و أما الآيات التي توعد قاتل النفس المحترمه بغير حق. و آكل الربا، و قاطع الرحم بجزاء النار الخالد كقوله تعالى: وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا فِيهَا الْآيَةُ؛ (النساء ٩٣)، و قوله في الربا: وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الدَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقره ٢٧٥)، و قوله في قاطع الرحم: أُؤْتِيكَ لَهُمُ اللَّعْنَةَ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (الرعد ٢٥)، و غير ذلك من الآيات فهذه الآيات إنما توعد بالشر و تنبئ عن جزاء النار، و أما كونه جزاء محتوما لا يقبل التغيير و الارتفاع فلا صراحه لها فيه.

و بالجمله لا يترجح آيه إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ عَلَى آيَاتِ الشَّفَاعَةِ بِأَمْرٍ زَائِدٍ فِي مضمونها يمهد لهم ما ذكره.

فليس يسعهم أن يفهموا من آيات الكبائر تحتم النار حتى يجوز لهم الشهاده على مرتكبها بالنار، و لا يسعهم أن يفهموا من آيه المغفرة إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ الخ؛ أمرا ليس يفتهم من آيات الشفاعة حتى يوجب لهم القول بنسخها أو تخصيصها أو تقييدها آيات الكبائر.

و يومئ إلى ذلك ما ورد في بعض هذه الروايات، و هو ما رواه في الدر المنثور عن ابن الضريس و أبي يعلى و ابن المنذر و ابن عدى بسند صحيح عن ابن عمر قال: كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا من نبينا صلى الله عليه و آله و سلم: إن الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء؛ و قال: إنى ادخرت دعوتى شفاعتى لأهل الكبائر من امتى، فأمسكنا عن كثير مما كان فى أنفسنا ثم نطقنا بعد و رجونا.

فظاهر الروايه أن الذى فهموه من آيه المغفره فهموا مثل من حديث الشفاعة لكن يبقى عليه سؤال آخر، و هو أنه ما بالهم فهموا جواز مغفره الكبائر من حديث الشفاعة، و لم يكونوا يفهمونه من آيات الشفاعة المكيه على كثرتها و دلالتها و طول العهد؟ ما أدري!

و فى الدر المنثور فى قوله: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ إِلَى قَوْلِهِ: سَبِيْلًا أَخْرَجَ الْبَيْهَقِي فِي الدَّلَائِلِ وَ ابْنِ عَسَاكِرٍ فِي تَارِيخِهِ عَنِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: لَمَّا كَانَ مِنْ أَمْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مَا كَانَ اعْتَرَلَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ وَ لَحِقَ بِمَكَّةَ وَ كَانَ بِهَا، وَ قَالَ: لَا أَعِينُ عَلَيْهِ وَ لَا أَقَاتِلُهُ؛ فَقِيلَ لَهُ بِمَكَّةَ لَا يَا كَعْبُ أَ دِينَنَا خَيْرٌ أَمْ دِينُ مُحَمَّدٍ وَ أَصْحَابِهِ؟ قَالَ: دِينَكُمْ خَيْرٌ وَ أَقْدَمُ، وَ دِينُ مُحَمَّدٍ حَدِيثٌ؛ فَتَزَلَّتْ فِيهِ: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ الْآيَةَ.

أقول: و فى سبب نزول الآيه روايات على وجوه مختلفه أسلمها ما أوردناه غير أن الجميع تشترك فى أصل القصه و هو أن بعضا من اليهود حكموا لقريش على النبي صلى الله عليه و آلِهِ و سلم بأن دينهم خير من دينه.

و فى تفسير البرهان فى قوله تعالى: أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ الْآيَةَ عَنِ الشَّيْخِ فِي أَمَالِيهِ بِإِسْنَادِهِ عَنِ جَابِرِ بْنِ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ قَالَ: نَحْنُ النَّاسُ.

و فى الكافى بإسناده عن بريد عن الباقر عليه السَّلَامُ فى حديث: «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ» نَحْنُ النَّاسُ الْمَحْسُودُونَ، الْحَدِيثُ.

أقول: و هذا المعنى مروى عن أئمه أهل البيت عليهم السَّلَامُ مستفيضا بطرق كثيره مودعه فى جوامع الشيعة كالكافى و التهذيب و المعانى و البصائر و تفسيري القمى و العياشى و غيرها.

و فى معناها من طرق أهل السنه ما عن ابن المغازى يرفعه إلى محمد بن على الباقر عليهما السَّلَامُ فى قوله تعالى: أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ قَالَ: نَحْنُ النَّاسُ وَ اللَّهُ.

و ما فى الدر المنثور عن ابن المنذر و الطبرانى من طريق عطاء عن ابن عباس فى قوله: «أَمْ

يَحْسُدُونَ النَّاسَ» قال: نحن الناس دون الناس، وقد روى فيه أيضا تفسير الناس برسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم عن عكرمه ومجاهد ومقاتل وأبي مالك؛ وقد مر فيما قدمناه من البيان: أن الظاهر كون المراد بالناس رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته ملحقون به.

و في تفسير العياشي عن حمران عن الباقر عليه السلام «فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ» قال:

النبوه، «وَالْحُكْمَةَ» قال: الفهم والقضاء، «مُلْكًا عَظِيمًا» قال: الطاعة.

أقول: المراد بالطاعة الطاعة المفترضة على ما ورد في سائر الأحاديث، والأخبار في هذه المعاني أيضا كثيرة، وفي بعضها تفسير الطاعة المفترضة بالإمامه والخلافه كما في الكافي بإسناده عن بريد عن الباقر عليه السلام.

و في تفسير القمي في قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا الْآيَةَ قال: الآيات أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام.

أقول: وهو من الحرى.

و في مجالس الشيخ بإسناده عن حفص بن غياث القاضي قال: كنت عند سعيد الجعافره جعفر بن محمد عليهما السلام لما قدمه المنصور فأتاه ابن أبي العوجاء وكان ملحدا فقال: ما تقول في هذه الآية: كَلَّمَا نَضَّ بَجَتْ جُلُودُهُمْ بِيَدِنَا هُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ؟ هب هذه الجلود عصت فعذبت فما بال الغير؟ قال أبو عبد الله عليه السلام: ويحك هي هي و هي غيرها، قال: أعقلني هذا القول، فقال له: أ رأيت لو أن رجلا- عمد إلى لبنة فكسرها ثم صب عليها الماء و جبلها ثم ردها إلى هيئتها الاولى ألم تكن هي هي و هي غيرها؟ فقال: بلى أمتع الله بك.

أقول: و رواه في الاحتجاج أيضا عن حفص بن غياث عنه عليه السلام، و القمي في تفسيره مرسلا؛ و يعود حقيقه الجواب إلى أن وحده المادة محفوظة بوحده الصورة فبدن الإنسان كأجزاء بدنه باق على وحدته ما دام الإنسان هو الانسان و إن تغير البدن بأى تغير حدث فيه.

و فى الفقيه قال: سئل الصادق عليه السلام عن قول الله عزّ و جل لهم فيها أزواج مطهرة قال:

الأزواج المطهرة اللاتى لا يحضن ولا يحدثن.

و فى تفسير البرهان فى قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ الْآيَةَ؛ عن محمد بن إبراهيم النعمانى بإسناده عن زراره عن أبى جعفر محمد بن على عليهما السلام قال: سألته عن قول الله عزّ و جل: إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها و إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل فقال: أمر الله الإمام أن يؤدى الأمانه إلى الإمام الذى بعده، ليس له أن يزويها عنه، أ لا تسمع قوله: وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ هم الحكام يا زراره، إنه خاطب بها الحكام.

أقول: و صدر الحديث مروى بطرق كثيره عنهم عليهم السلام، و ذيله يدل على أنه من باب الجرى، و أن الآيه نازله فى مطلق الحكم و إعطاء ذى الحق حقه فىطبق على مثل ما تقدم سابقا.

[سورة النساء (٤): الآيات ٥٩ الى ٧٠]

إشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَ مَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّحِكُمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَ قَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَ يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَنَفِّينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَ تَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَ عَظَّهُمْ وَ قُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣) وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) فَلَا وَ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) وَ لَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَ لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَ أَشَدَّ تَنْبِيئًا (٦٦) وَ إِذَا لَاتِنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَ لَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٦٨) وَ مَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَ كَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠)

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ لما فرغ من الندب الى عباده الله وحده لا شريك له و بث الإحسان بين طبقات المؤمنين و ذم من يعيب هذا الطريق المحمود أو صد عنه صدودا عاد الى أصل المقصود بلسان آخر يتفرع عليه فروع أخر، بها يستحكم أساس المجتمع الإسلامى و هو التحضيض و الترغيب فى أخذهم بالائتلاف و الاتفاق، و رفع كل تنازع واقع بالرد الى الله و رسوله.

و لا ينبغى أن يرتاب فى أن قوله: أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ ،جملة سيقت تمهيدا و توطئه للأمر برد الأمر الى الله و رسوله عند ظهور التنازع، و إن كان مضمون الجملة أساس جميع الشرائع و الأحكام الإلهية.

فإن ذلك ظاهر تفریع قوله: فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ ،ثم العود بعد العود الى هذا المعنى بقوله: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ ،السخ؛ و قوله: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ،السخ؛ و قوله: فَلَا وَ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ،السخ.

و لا ينبغى أن يرتاب فى أن الله سبحانه لا يريد بإطاعته إلا اطاعته فى ما يوحيه الينا من طريق رسوله من المعارف و الشرائع، و أما رسوله صلى الله عليه و آله و سلم فله حيثان: إحداهما: حيثه التشريع بما يوحيه اليه ربه من غير كتاب، و هو ما يبينه للناس من تفاصيل ما يشتمل على إجماله الكتاب و ما يتعلق و يرتبط بها كما قال تعالى: وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ (النحل ٤٤)، و الثانية: ما يراه من صواب الرأى و هو الذى يرتبط بولايته الحكومه و القضاء قال تعالى: لَتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ (النساء ١٠٥)، و هذا هو الرأى الذى كان يحكم به على ظواهر قوانين القضاء بين الناس، و هو الذى كان صلى الله عليه و آله و سلم يحكم به فى عزائم الامور، و كان الله سبحانه أمره فى اتخاذ الرأى بالمشاوره فقال: وَ شَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ

فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ (آل عمران ١٥٩/)، فاشركهم به في المشاوره و وحده في العزم.

إذا عرفت هذا علمت أن لإطاعه الرسول معنى و لإطاعه الله سبحانه معنى آخر و إن كان إطاعه الرسول إطاعه الله بالحقيقه لأن الله هو المشرع لوجوب إطاعته كما قال: وَمِمَّا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا لِنُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ فعلى الناس أن يطيعوا الرسول فيما بينه بالوحي، و فيما يراه من الرأى.

و هذا المعنى (و الله أعلم) هو الموجب لتكرار الأمر بالطاعه في قوله: أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ ، لا- ما ذكره المفسرون: أن التكرار للتأكيد فإن القصد لو كان متعلقا بالتأكيد كان ترك التكرار كما لو قيل: و أطيعوا الله و الرسول أدل عليه و أقرب منه فإنه كان يفيد أن إطاعه الرسول عين إطاعه الله سبحانه و أن الإطاعتين واحده، و ما كل تكرار يفيد التأكيد.

و أما اولو الأمر فهم- كائنين من كانوا- لا نصيب لهم من الوحي، و إنما شأنهم الرأى الذى يستصوبونه فلهم افتراض الطاعه نظير ما للرسول فى رأيههم و قولهم، و لذلك لما ذكر وجوب الرد و التسليم عند المشاجرهم لم يذكرهم بل خص الله و الرسول فقال: فإن تنازعتم فى شىء فردوه الى الله و الرسول إن كنتم تؤمنون بالله و اليوم الآخر، و ذلك أن المخاطبين بهذا الرد هم المؤمنون المخاطبون بقوله فى صدر الآيه: يا أيها الذين آمنوا، و التنازع بلا ريب، و لا يجوز أن يفرض تنازعهم مع اولى الأمر مع افتراض طاعتهم بل هذا التنازع هو ما يقع بين المؤمنين أنفسهم، و ليس فى أمر الرأى بل من حيث حكم الله فى القضييه المتنازع فيها بقرينه الآيات التالیه الذامه لمن يرجع الى حكم الطاغوت دون حكم الله و رسوله، و هذا الحكم يجب الرجوع فيه الى أحكام الدين المبينه المقرره فى الكتاب و السنه، و الكتاب و السنه حجتان قاطعتان فى الأمر لمن يسعه فهم الحكم منهما، و قول اولى الأمر فى أن الكتاب و السنه يحكمان بكذا أيضا حجه قاطعه فإن الآيه تقرر افتراض الطاعه من غير أى قيد أو شرط، و الجميع

و من هنا يظهر أن ليس لاولى الامر هؤلاء- كائنين من كانوا- أن يضعوا حكما جديدا، و لا أن ينسخوا حكما ثابتا فى الكتاب و السنه، و إلا لم يكن لوجوب ارجاع موارد التنازع الى الكتاب و السنه و الرد الى الله و الرسول معنى على ما يدل عليه قوله: **وَ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا** (الأحزاب ٣٦)، فقضاء الله هو التشريع و قضاء رسوله إما ذلك و إما الأعم، و إنما الذى لهم أن يروا رأيهم فى موارد نفوذ الولاية، و أن يكشفوا عن حكم الله و رسوله فى القضايا و الموضوعات العامه (١).

قوله تعالى: **فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِلَى آخِرِ آيَةٍ؛** تفرير على الحصر المستفاد من المورد فإن قوله: **أَطِيعُوا اللَّهَ، الْحَيْثُ أَوْجِبَ طَاعَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ،** و هذه الطاعه إنما هى فى المواد الدينيه التى تتكفل رفع كل اختلاف مفروض، و كل حاجه ممكنه لم يبق مورد تمس الحاجه الرجوع الى غير الله و رسوله، و كان معنى الكلام: **أَطِيعُوا اللَّهَ، وَ لَا تَطِيعُوا الطَّاغُوتَ،** و هو ما ذكرناه من الحصر.

و توجه الخطاب الى المؤمنين كاشف عن أن المراد بالتنازع هو تنازعهم بينهم لا- تنازع مفروض بينهم و بين اولى الأمر، و لا تنازع مفروض بين اولى الأمر فإن الأول أعنى التنازع بينهم و بين اولى الأمر لا يلائم افتراض طاعه اولى الأمر عليهم، و كذا الثانى أعنى التنازع بين اولى الأمر فإن افتراض الطاعه لا يلائم التنازع الذى أحد طرفيه على الباطل، على أنه لا يناسب كون الخطاب متوجها الى المؤمنين فى قوله: **فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ .**

و لفظ الشىء و إن كان يعم كل حكم و أمر من الله و رسوله و اولى الأمر كائنا ما كان لكن

قوله بعد ذلك: فردوه الى الله و الرسول يدل على أن المفروض هو النزاع فى شىء ليس لأولى الأمر الاستقلال و الاستبداد فيه من أوامرهم فى دائره ولا يتهم كأمرهم بنفر أو حرب أو صلح أو غير ذلك، اذ لا معنى لإيجاب الرد الى الله و الرسول فى هذه الموارد مع فرض طاعتهم فيها.

فالآيه تدل على وجوب الرد فى نفس الأحكام الدينيه التى ليس لأحد أن يحكم فيها بإنفاذ أو نسخ إلا الله و رسوله، والآيه كالصريح فى أنه ليس لأحد أن يتصرف فى حكم دينى شرعه الله و رسوله، و اولو الأمر و من دونهم فى ذلك سواء.

□
و قوله: **إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ**، تشديد فى الحكم و إشاره الى أن مخالفته إنما تنتشى من فساد فى مرحله الإيمان فالحكم يرتبط به ارتباطاً فالمخالفه تكشف عن التظاهر بصفه الإيمان بالله و رسوله، و استبطان الكفر، و هو النفاق كما تدل على الآيات التاليه.

□
و قوله: **ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا** أى الرد عند التنازع أو إطاعه الله و رسوله و أولى الأمر، و التأويل هو المصلحه الواقعيه التى تنشأ منها الحكم ثم تترتب على العمل و قد تقدم البحث عن معناه فى ذيل قوله تعالى: **وَ ابْتَغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ** (آل عمران ٧) فى الجزء الثالث من الكتاب.

قوله تعالى: **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ** الى آخر الآيه؛ الزعم هو الاعتقاد بكذا سواء طابق الواقع أم لا، بخلاف العلم فإنه الاعتقاد المطابق للواقع، و لكون الزعم يستعمل فى الاعتقاد فى موارد لا يطابق الواقع ربما يظن أن عدم مطابه الواقع مأخوذ فى مفهومه و ليس كذلك، و الطاغوت مصدر بمعنى الطغيان كالرهبوت و الجبروت و الملكوت غير أنه ربما يطلق و يراد به اسم الفاعل مبالغه يقال: طغى الماء اذا تعدى ظرفه لوفوره و كثرته، و كان استعماله فى الإنسان أولاً على نحو الاستعاره ثم ابتدل فلحق بالحقيقه و هو خروج الإنسان عن طوره الذى حده له العقل أو الشرع، فالطاغوت هو الظالم الجبار، و المتمرد عن وظائف عبوديه الله استعلاء عليه تعالى و هكذا، و إليه يعود ما

قيل: إن الطاغوت كل معبود من دون الله.

و قوله: ﴿بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾، بمنزله أن يقال: بما أنزل الله على رسله، ولم يقل:

آمنوا بك و بالذين من قبلك لأن الكلام فى وجوب الرد الى كتاب الله و حكمه و بذلك يظهر أن المراد بقوله «وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ» الأمر فى الكتب السماويه و الوحي النازل على الأنبياء:

محمد و من قبله صلى الله عليه و آله و عليهم.

و قوله: أَلَمْ تَرَ، الخ؛ الكلام بمنزله دفع الدخل كأنه قيل: ما وجه ذكر قوله: أطيعوا الله و أطيعوا الرسول، الخ؟ فقيل: أ لم تر الى تخلفهم من الطاعه حيث يريدون التحاكم الى الطاغوت؟ و الاستفهام للتأسف و المعنى: من الأسف ما رأيت أن بعض الناس، و هم معتقدون أنهم مؤمنون بما أنزل إليك من الكتاب و الى سائر الأنبياء و الكتب السماويه إنما انزلت لتحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، و قد بينه الله تعالى لهم بقوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اختلفُوا فِيهِ﴾ (البقره ٢١٣) يتحاكمون عند التنازع الى الطاغوت و هم أهل الطغيان و المتمردون عن دين الله المتعدون على الحق، و قد امروا فى هذه الكتب أن يكفروا بالطاغوت، و كفى فى منع التحاكم إليهم أنه إلغاء لكتب الله و إبطال لشرائعه.

و فى قوله وَ يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا، دلالة على أن تحاكمهم إنما هو بإلقاء الشيطان و إغوائه، و الوجهه فيه الضلال البعيد.

قوله تعالى: وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ تعالوا بحسب الأصل أمر من تعالى و هو الارتفاع، و صد عنه يصد صدودا أى أعرض، و قوله: إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ، بمنزله أن يقال: الى حكم الله و من يحكم به، و فى قوله: يَصِيدُونَ عَنْكَ، إنما خص الرسول بالإعراض مع أن الذى دعوا اليه هو الكتاب و الرسول معا لا الرسول وحده لأن الأسف إنما هو من فعل الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل الله فهم ليسوا بكافرين حتى

يتجاهروا بالإعراض عن كتاب الله بل منافقون بالحقيقه يتظاهرون بالإيمان بما أنزل الله لكنهم يعرضون عن رسوله.

و من هنا يظهر أن الفرق بين الله و رسوله بتسليم حكم الله و التوقف في حكم الرسول نفاق البته.

قوله تعالى: فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ الْخ؛ إِيذَانٌ بِأَنَّ هَذَا الْإِعْرَاضَ وَالْإِنصِرَافَ عَنِ حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالْإِقْبَالَ إِلَى غَيْرِهِ وَهُوَ حُكْمُ الطَّاعُونَ سَيَعْقِبُ مُصِيبَهُ تَصْيِيهِمْ لَا سَبَبَ لَهَا إِلَّا هَذَا الْإِعْرَاضَ عَنِ حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالتَّحَاكُمَ إِلَى الطَّاعُونَ، وَقَوْلُهُ:

ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ اه، حكاية لمعذرتهم أنهم ما كانوا يريدون بركونهم الى حكم الطاغوت سوء، والمعنى -والله أعلم-: فإذا كان حالهم هذا الحال كيف صنعهم اذا أصابهم بفعالهم هذا وباله السيئ ثم جاءوك يخلفون بالله قائلين ما أردنا بالتحاكم الى غير الكتاب و الرسول إلا الإحسان و التوفيق و قطع المشاجره بين الخصوم؟

قوله تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمُ الْخ؛ تكذيب لقولهم فيما اعتذروا به، و لم يذكر حال ما في قلوبهم، و أنه ضمير فاسد لدلاله قوله «فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَ عَظَّمَهُمْ» على ذلك اذ لو كان ما في قلوبهم غير فاسد كان قولهم صدقا و حقا و لا- يؤمر بالإعراض عن قول الحق و يصدق في قوله.

و قوله: وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا أَى قَوْلًا يَبْلُغُ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا تَرِيدُ أَنْ يَقِفُوا عَلَيْهِ وَ يَفْقَهُوا مِنْ مَفَاسِدِ هَذَا الصَّنِيعِ، وَ أَنَّهُ نِفَاقٌ لَوْ ظَهَرَ نَزَلَ بِهِمُ الْوَيْلُ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ تَعَالَى.

قوله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ، رد مطلق لجميع ما تقدمت حكايته من هؤلاء المنافقين من التحاكم الى الطاغوت، و الإعراض عن الرسول، و الحلف و الاعتذار بالإحسان و التوفيق. فكل ذلك مخالفه للرسول بوجه سواء كانت مصاحبه لعذر يعتذر به أم لا، و قد أوجب الله طاعته من غير قيد و شرط فإنه لم يرسله إلا

ليطاع ياذن الله، و ليس لأحد أن يتخيل أن المتبع من الطاعة طاعه الله، وإنما الرسول بشر ممن خلق إنما يطاع لحيازه الصلاح فإذا احرز صلاح من دون طاعته فلا- بأس بالاستبداد في إحرازه، وترك الرسول في جانب، وإلا كان إشراكا بالله، وعباده لرسوله معه، وربما كان يلوح ذلك في أمور يكلمون فيها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يقول قائلهم له إذا عزم عليهم في مهمه: أ بأمر من الله أم منك؟

فذكر الله سبحانه أن وجوب طاعه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وجوب مطلق، وليست إلا طاعه الله فإنها بإذنه نظير ما يفيد قوله تعالى: مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ الْآيَةَ (النساء ٨٠).

ثم ذكر أنهم لو رجعوا الى الله ورسوله بالتوبه حين ما خالفوا الرسول بالإعراض لكان خيرا لهم من أن يحلفوا بالله، و يلقوا أعدارا غير موجهه لا تنفع و لا ترضى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لأن الله سبحانه يخبره بحقيقه الأمر، و ذلك قوله: وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.

قوله تعالى: فَلَا وَ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ الْخِشْيَ الشَّجَرِ - بسكون الجيم - و الشجور: الاختلاط يقال: شجر شجرا و شجورا أى اختلط، و منه التشاجر و المشاجره كأن الدعاوى أو الأقوال اختلط بعضها مع بعض، و منه قيل للشجر: شجر لا اختلاط غصونها بعضها مع بعض، و الحرج الضيق.

و ظاهر السياق فى بدء النظر أنه رد لزعم المنافقين أنهم آمنوا بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مع تحاكمهم الى الطاغوت فالمعنى: فليس كما يزعمون أنهم يؤمنون مع تحاكمهم الى الطاغوت بل لا يؤمنون حتى يحكموك، الخ.

لكن شمول حكم الغايه أعنى قوله: حَتَّى يُحَكِّمُوكَ الْخِشْيَ الشَّجَرِ، الخ؛ لغير المنافقين، و كذا قوله بعد ذلك «وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ» الى قوله «مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ» يؤيد أن الرد لا- يختص بالمنافقين بل يعمهم و غيرهم من جهة أن ظاهر حالهم أنهم يزعمون أن مجرد تصديق ما انزل

من عند الله بما يتضمنه من المعارف والأحكام إيمان بالله ورسوله وبما جاء به من عند ربه حقيقه، وليس كذلك بل الإيمان تسليم تام باطنا وظاهرا فكيف يتأتى لمؤمن حقا أن لا يسلم للرسول حكما في الظاهر بأن يعرض عنه ويخالفه، أو في باطن نفسه بأن يتحرج عن حكم الرسول اذا خالف هوى نفسه، وقد قال الله تعالى لرسوله: لِيَتَّخِذَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ (النساء ١٠٥).

فلو تحرج متحرج بما قضى به النبي صلى الله عليه وآله وسلم فمن حكم الله تحرج لأنه الذي شرفه بافتراض الطاعة ونفوذ الحكم.

و اذا كانوا سلموا حكم الرسول، ولم يتحرج قلوبهم منه كانوا مسلمين لحكم الله قطعا سواء في ذلك حكمه التشريعي والتكويني، وهذا موقف من مواقف الإيمان يتلبس فيه المؤمن بعده من صفات الفضيله أوضحتها: التسليم لأمر الله، ويسقط فيه التحرج والاعتراض والرد من لسان المؤمن وقلبه، وقد أطلق في الآيه التسليم إطلاقا.

ومن هنا يظهر أن قوله: فَلَا وَرَبِّكَ، الى آخر الآيه، وإن كان مقصورا على التسليم لحكم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بحسب اللفظ لأن مورد الآيات هو تحاكمهم الى غير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع وجوب رجوعهم إليه إلا أن المعنى عام لحكم الله ورسوله جميعا، ولحكم التشريع والتكوين جميعا كما عرفت.

بل المعنى يعم الحكم بمعنى قضاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكل سيره سار بها أو عمل عمل به لأن الأثر مشترك فكل ما ينسب بوجه الى الله ورسوله بأى نحو كان لا- يتأتى لمؤمن بالله حق إيمانه أن يردده أو يعترض عليه أو يمله أو يسوأه بوجه من وجوه المساءه فكل ذلك شرك على مراتبه، وقد قال تعالى: وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (يوسف ١٠٦).

قوله تعالى: وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ - الى قوله - مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ قد تقدم في قوله: وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (آيه ٤٦ من السوره)، ان

هذا التركيب يدل على أن الحكم للهيئة الاجتماعية من الأفراد و هو المجتمع، و أن الاستثناء لدفع توهم استغراق الحكم و استيعابه لجميع الأفراد، و لذلك كان هذا الاستثناء أشبه بالمنفصل منه بالمتصل أو هو برزخ بين الاستثناءين: المتصل و المنفصل لكونه ذا جنبتين.

على هذا فقوله «مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ» و ارد مورد الإخبار عن حال الجملة المجتمعه أنهم لا- يمثلون الأحكام و التكاليف الحرجيه الشاقه التي تماس ما يتعلق به قلوبهم تعلق الحب الشديد كنفوسهم و ديارهم، و استثناء القليل لدفع التوهم.

فالمعنى: وَ لَوْ أَنَا كَتَبْنَا أَى فرضنا عليهم قتل أنفسهم و الخروج من ديارهم و أوطانهم المألوفه لهم ما فعلوه أى لم يمثلوا أمرنا، ثم لما استشعر أن قوله: «مَا فَعَلُوهُ يُوهِمُ أَنْ لَيْسَ فِيهِمْ مَنْ هُوَ مُؤْمِنٌ حَقًّا مُسْلِمٌ لِحُكْمِ اللَّهِ حَقِيقَةً دَفَعَ ذَلِكَ بَاسْتِثْنَاءِ الْقَلِيلِ مِنْهُمْ، وَ لَمْ يَكُنْ يَشْمَلُهُ الْحُكْمُ حَقِيقَةً لِأَنَّ الْإِخْبَارَ عَنْ حَالِ الْمَجْتَمَعِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ مَجْتَمِعٌ وَ لَمْ تَكُنِ الْأَفْرَادُ دَاخِلَةً فِيهِ إِلَّا بِتَبَعِ الْجَمْلَةِ.

و من هنا يظهر أن المراد قتل الجملة الجملة و خروج الجملة و جلاؤهم من جملته ديارهم كالبلده و القرية دون قتل كل واحد نفسه، و خروجه من داره كما فى قوله تعالى: فَتَوَبُّوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ (البقره ٥٤)، فإن المقصود بالخطاب هو الجماعه دون الأفراد.

قوله تعالى: وَ لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا فى تبديل الكتابه فى قوله: وَ لَوْ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ، بالوعظ فى قوله: «مَا يُوعَظُونَ بِهِ إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّ هَذِهِ الْأَحْكَامَ الظاهره فى صورته الأمر و الفرض ليست إلا- إشارات الى ما فيه صلاحهم و سعادتهم فهى فى الحقيقه مواعظ و نصائح يراد بها خيرهم و صلاحهم.

و قوله: لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ أَى فى جميع ما يتعلق بهم من اولاهم و اخراهم، و ذلك أن خير الآخره لا- ينفك من خير الدنيا بل يستتبعه، و قوله «وَ أَشَدَّ تَثْبِيثًا» أى لنفوسهم و قلوبهم بالإيمان لأن الكلام فيه، قال تعالى: يُبَيِّنُ اللَّهُ لِّلَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ الْآيَةَ

قوله تعالى: وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا أَي حِينَ تَثَبَتُوا بِالْإِيمَانِ الثَّابِتِ؛ وَ الْكَلَامِ فِي إِبْهَامِ قَوْلِهِ «أَجْرًا عَظِيمًا» كَالْكَلَامِ فِي إِطْلَاقِ قَوْلِهِ «لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ».

قوله تعالى: وَ لَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا قَدْ مَضَى الْكَلَامُ فِي مَعْنَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فِي ذِيلِ قَوْلِهِ: إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (الحمد ٦)، فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنَ الْكِتَابِ.

قوله تعالى: وَ مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ - إِلَى قَوْلِهِ - وَ حَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا جَمَعَ بَيْنَ اللَّهِ وَ الرَّسُولِ فِي هَذَا الْوَعْدِ الْحَسَنِ مَعَ كَوْنِ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ مُتَعَرِّضَةً لِإِطَاعَةِ الرَّسُولِ وَ التَّسْلِيمِ لِحُكْمِهِ وَ قَضَائِهِ، لِتَخْلُلِ ذِكْرَهُ تَعَالَى بَيْنَهُمَا فِي قَوْلِهِ: وَ لَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ الْخِطَابَ؛ فَالطَّاعَةِ الْمَفْتَرَضَةَ طَاعَتَهُ تَعَالَى وَ طَاعَةَ رَسُولِهِ، وَ قَدْ بَدَأَ الْكَلَامَ عَلَى هَذَا النِّحْوِ فِي قَوْلِهِ: أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ، الْآيَةَ.

وَ قَوْلِهِ: فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، يَدُلُّ عَلَى اللَّحُوقِ دُونَ الصِّيُورِ فَهَؤُلَاءِ مُلْحَقُونَ بِجَمَاعَةِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ، وَ هُمْ أَصْحَابُ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي لَمْ يَنْسَبْ فِي كَلَامِهِ تَعَالَى إِلَى غَيْرِهِ إِلَّا إِلَى هَذِهِ الْجَمَاعَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ (الحمد ٧)، وَ بِالْجُمْلَةِ فَهَمُ مُلْحَقُونَ بِهِمْ غَيْرُ صَائِرِينَ مِنْهُمْ كَمَا لَا يَخْلُو قَوْلُهُ «وَ حَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا» مِنْ تَلْوِيحِ إِلَيْهِ، وَ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ هِيَ الْوَلَايَةُ.

وَ أَمَّا هَؤُلَاءِ الطَّوَائِفِ الْأَرْبَعِ أَعْنَى النَّبِيِّينَ وَ الصَّادِقِينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ الصَّالِحِينَ فَالنَّبِيُّونَ هُمُ أَصْحَابُ الْوَحْيِ الَّذِينَ عِنْدَهُمْ نُبَأُ الْغَيْبِ، وَ لَا خَبْرَهُ لَنَا مِنْ حَالِهِمْ بِأَزِيدٍ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مِنْ حَيْثُ الْآثَارُ، وَ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالشُّهَدَاءِ شُهَدَاءَ الْأَعْمَالِ فِيمَا يُطْلَقُ مِنْ لَفْظِ الشَّهِيدِ فِي الْقُرْآنِ دُونَ الْمُسْتَشْهِدِينَ فِي مَعْرَكَةِ الْقِتَالِ، وَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالصَّالِحِينَ هُمُ أَهْلُ الْبَلِيَاةِ بِنِعْمِ اللَّهِ.

و أما الصديقون فالذى يدل عليه لفظه هو أنه مبالغه من الصدق، و من الصدق ما هو فى القول، و منه ما هو فى الفعل، و صدق الفعل هو مطابقته للقول لأنه حاك عن الاعتقاد فاذا صدق فى حكايته كان حاكيا لما فى الضمير من غير تخلف، و صدق القول طابقتة لما فى الواقع، و حيث كان القول نفسه من الفعل بوجه كان الصادق فى فعله لا يخبر إلا عما يعلم صدقه و أنه حق، ففى قوله الصدق الخبرى و المخبرى جميعا.

فالصديق الذى لا يكذب أصلا هو الذى لا يفعل إلا ما يراه حقا من غير اتباع لهوى النفس، و لا يقول إلا ما يرى أنه حق، و لا يرى شيئا إلا ما هو حق فهو يشاهد حقائق الأشياء، و يقول الحق، و يفعل الحق.

و على ذلك فيترتب المراتب فالنيبون و هم الساده، ثم الصديقون و هم شهداء الحقائق و الأعمال، و الشهداء و هم شهداء الأعمال، و الصالحون و هم المتهيثون للكرامه الإلهيه.

و قوله تعالى: وَ حَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا أى من حيث الرفاقه فهو تمييز، قيل: و لذلك لم يجمع، و قيل: المعنى: حسن كل واحد منهم رفيقا، و هو حال نظير قوله: ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا (الحج ٥).

قوله تعالى: ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَ كَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا «ذَلِكَ» و إتيانه بصيغه الإشاره الداله على البعيد و دخول اللام فى الخبر يدل على تفخيم أمر هذا الفضل كأنه كل الفضل، و ختم الآيه بالعلم لكون الكلام فى درجات الإيمان التى لا سبيل الى تشخيصها إلا العلم الإلهي.

و اعلم أن فى هذه الآيات الشريفه موارد عديده من الالتفات الكلامي متشابك بعضها مع بعض فقد أخذ المؤمنون فى صدر الآيات مخاطبين ثم فى قوله «وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ» كما مر غائبين، و كذلك أخذ تعالى نفسه فى مقام الغيبه فى صدر الآيات فى قوله: أَطِيعُوا اللَّهَ، الآيه؛ ثم

في مقام المتكلم مع الغير في قوله: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ، الآية؛ ثم الغيبة في قوله: يَا ذَنْ لِّلَّهِ، الآية؛ ثم المتكلم مع الغير في قوله: وَ لَوْ أَنَا كَتَبْنَا، الآية؛ ثم الغيبة في قوله: وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ، الآية.

و كذلك الرسول اخذ غائبا في صدر الآيات في قوله: وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ، الآية، ثم مخاطبا في قوله: ذَلِكَ خَيْرٌ، الآية؛ ثم غائبا في قوله: وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ الرَّسُولَ، الآية؛ ثم مخاطبا في قوله: فَلَا وَ رَبِّكَ، الآية؛ ثم غائبا في قوله: وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ، الآية؛ ثم مخاطبا في قوله: وَ حَسُنَ أُولَئِكَ، الآية، فهذه عشر موارد من الالتفات الكلامي و النكات المختصة بكل مورد مورد ظاهره للمتدبر (١).

[سورة النساء (٤): الآيات ٧١ الى ٧٦]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا بِلِبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣) فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَ مَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) وَ مَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَ النِّسَاءِ وَ الْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَ اجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَ اجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦)

ص: ٧١٤

١ - ١). النساء ٥٩-٧٠: بحث روائي في: اولي الامر؛ اولو الامر هم على عليه السلام و الائمة المعصومون عليهم السلام مرافقه المؤمنين مع النبيين في الجنة.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا الحذر بالكسر فالسكون ما يحذر به و هو آله الحذر كالسلاح، و ربما قيل: إنه مصدر كالحذر بفتححتين، و النفر هو السير الى جهة مقصوده، و أصله الفرع، فالنفر من محل السير فرع عنه و الى محل السير فرع إليه، و الثبات جمع ثبه، و هى الجماعه على تفرقه، فالثبات الجماعه بعد الجماعه بحيث تتفصل ثانيه عن اولى، و ثالثه عن ثانيه، و يؤيد ذلك مقابله قوله «فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ» قوله «أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا» .

و التفریع فی قوله: فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ، على قوله: خُذُوا حِذْرَكُمْ، بظاهره يؤيد كون المراد بالحذر ما به الحذر على أن يكون كناية عن التهيؤ التام للخروج الى الجهاد و يكون المعنى:

خذوا أسلحتكم أى أعدوا للخروج و اخرجوا الى عدوكم فرقه فرقه (سرايا) أو اخرجوا إليهم جميعا(عسكرا).

و من المعلوم أن التهيؤ و الإعداد يختلف باختلاف عدو العدو و قوته فالترديد فى قوله: أَوْ

انْفِرُوا، ليس تخييرا فى كيفية الخروج و إنما الترديد بحسب تردد العدو من حيث العده و القوه أى اذا كان عددهم قليلا فثبه، و إن كان كثيرا فجميعا.

فيؤول المعنى- و خاصه ملاحظه الآيه التاليه: و إن منكم ليبطن- الى نهيمهم عن أن يضعوا أسلحتهم، و ينسلخوا عن الجدد و بذل الجهد فى أمر الجهاد فيموت عزمهم و يفتقد نشاطهم فى إقامه أعلام الحق، و يتكاسلوا أو يتبطئوا أو يتشبثوا فى قتال أعداء الله، و تطهير الأرض من قذارتهم.

قوله تعالى: وَ إِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَبْطِئَنَّ، قيل: إن اللام الاولى لام الابتداء لدخولها على اسم إن، و اللام الثانيه لام القسم لدخولها على الخبر و هى جمله فعليه مؤكده بنون التأكيد الثقيله، و التبطئه و الإبطاء بمعنى، و هو التأخير فى العمل.

و قوله «وَ إِنَّ مِنْكُمْ» يدل على أن هؤلاء من المؤمنين المخاطبين فى صدر الآيه بقوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، على ما هو ظاهر كلمه «مِنْكُمْ» كما يدل عليه ما سيأتى من قوله: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ، فإن الظاهر أن هؤلاء أيضا كانوا من المؤمنين، مع قوله تعالى بعد ذلك:

فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس، و قوله: وَ إِنَّ تَصَّ بِهِمْ حَسَبَهُ، الخ؛ و كذا قوله: فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ، و قوله: وَ مَا لَكُمْ لَّا تَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، و قوله: الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كل ذلك تحريص و استنهاض للمؤمنين و فيهم هؤلاء المبطئون على ما يلوح إليه اتصال الآيات.

على أنه ليس فى الآيات ما يدل بظاهره على أن هؤلاء المبطئين من المنافقين الذين لم يؤمنوا إلا بظاهر من القول، مع أن فى بعض ما حكى الله عنهم دلالة ما على إيمانهم فى الجملة كقوله تعالى: فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا، و قوله تعالى: رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ، الخ.

قوله تعالى: فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ أَى من قتل أو جرح «قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ

لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا» حتى ابتلى بمثل ما ابتلى به المؤمنون.

قوله تعالى: **وَ لَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ مِن قَبِيلِ غَنِيمَةِ الْحَرْبِ وَ نَحْوَهَا، وَ الْفَضْلُ هُوَ الْمَالُ وَ مَا يَمِثَلُهُ، وَ قَوْلُهُ: لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ ،** تشبيهه و تمثيل لحالهم فإنهم مؤمنون، و المسلمون يد واحده يربط بعضهم ببعض أقوى الروابط، و هو الإيمان بالله و آياته الذى يحكم على جميع الروابط الأخر من نسب أو ولاية أو بيعه أو موده لكنهم لضعف إيمانهم لا- يرون لأنفسهم أذى ربط يربطهم بالمؤمنين فيتمنون الكون معهم و الحضور فى جهادهم كما يتمنى الأجنبى فضلا ناله أجنبى فيقول أحدهم: يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما، و من علائم ضعف إيمانهم إكبارهم أمر هذه الغنائم، و عددهم حيازه الفضل و المال فوزا عظيما، و كل مصيبه أصابت المؤمنين فى سبيل الله من قتل أو جرح أو تعب نقمه.

قوله تعالى: **فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ قَالِ فِي الْمَجْمَعِ: يَقَالُ شَرَيْتَ أَى بَعْتِ، وَ اشْتَرَيْتَ أَى ابْتَعْتِ،** فالمراد بقوله يشرون الحياه الدنيا بالآخرة أى يبيعون حياتهم الدنيا و يبدلونها الآخرة.

و الآيه تفريع على ما تقدم من الحث على الجهاد، و ذم من يبطئ فى الخروج إليه ففيها تجديد للحث على القتال فى سبيل الله بتذكير أن هؤلاء جميعا مؤمنون، قد شروا بإسلامهم لله تعالى الحياه الدنيا بالآخرة كما قال: **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ (التوبه ١١١/)**، ثم صرح على فائده القتال الحسنه و أنها الأجر العظيم على أى حال بقوله: **وَ مَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، الْخ.**

فبين أن أمر المقاتل فى سبيل الله ينتهى الى إحدى عاقبتين محمودتين: أن يقتل فى سبيل الله، أو يغلب عدو الله، و له على أى حال أجر عظيم، و لم يذكر ثالث الاحتمالين - هو الانهزام - تلويحا الى أن المقاتل فى سبيل الله لا ينهزم.

و قدم القتل على الغلبه لأن ثوابه أجزل و أثبت فإن المقاتل الغالب على عدو الله و إن كان يكتب له الأجر العظيم إلا أنه على خطر الحبط باقتراف بعض الأعمال الموجبه لحبط الأعمال الصالحه، و استتباع السيئه بعد الحسنه بخلاف القتل اذ لا حياه بعده إلا حياه الآخره فالمقتول فى سبيل الله يستوفى أجره العظيم حتما، و أما الغالب فى سبيل الله فأمره مراعى فى استيفاء أجره.

قوله تعالى: **وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ الْخِيعَ عَظْفَ عَلَى مَوْضِعِ لَفْظِ الْجَلَالَةِ، وَ الْآيَةُ تَشْتَمِلُ عَلَى حَثٍ وَ تَحْرِيزٍ آخَرَ عَلَى الْقِتَالِ فِي لَفْظِ الْاسْتِفْهَامِ بِتَذْكِيرِ أَنْ قِتَالَكُمْ قِتَالٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَ هُوَ الَّذِي لَا بَغْيَ لَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ السَّعِيدَةِ إِلَّا رِضْوَانَهُ، وَ لَا سَعَادَةَ أَسْعَدَ مِنْ قَرْبِهِ، وَ فِي سَبِيلِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ رِجَالِكُمْ وَ نِسَائِكُمْ وَ وَلَدَانِكُمْ.**

و هؤلاء المستضعفون الذين هم أبعاضهم و أفلاذهم مؤمنون بالله سبحانه بدليل قوله:

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا، الْخِيعَ؛ وَ هُمْ مَعَ ذَلِكَ مَذَلُّونٌ مَعْدُبُونَ يَسْتَصْرَخُونَ وَ يَسْتَغِيثُونَ بِقَوْلِهِمْ: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظالم أهلها، و قد أطلق الظلم، و لم يقل: الظالم أهلها على أنفسهم، و فيه إشعار بأنهم كانوا يظلمونهم بأنواع التعذيب و الإيذاء و كذلك كان الأمر.

و قد عبر عن استغاثتهم و استنصارهم بأجمل لفظ و أحسن عباره فلم يحك عنهم أنهم يقولون: يا للرجال، يا للسراه، يا قوماه، يا عشيرتاه بل حكى أنهم يدعون ربهم و يستغيثون بمولاهم الحق فيقولون: ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ثم يشيرون الى النبي صلى الله عليه و آله و سلم و الى من معه من المؤمنين المجاهدين بقولهم: واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا، فهم يتمنون وليا، و يتمنون نصيرا لكن لا يرضون دون أن يسألوا ربهم الولي و النصير (1).

ص: ٧١٨

قوله تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ -الى قوله- الطَّاغُوتِ مَقَايِسُهُ بَيْنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ جِهَةِ وَصْفِ قَاتِلِهِمْ، و بعبارة اخرى من جهة نية كل من الطائفتين في قتالهم ليعلم بذلك شرف المؤمنين على الكفار في طريقتهم و أن سبيل المؤمنين ينتهي الى الله سبحانه و يعتمد عليه بخلاف سبيل الكفار ليكون ذلك محرصاً آخر للمؤمنين على قتالهم.

قوله تعالى: فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ قَوَّعَهُمْ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ خَارِجُونَ عَنْ وِلَايَةِ اللَّهِ فَلَا مَوْلَى لَهُمْ إِلَّا ولى الشَّرِكِ و عبادَه غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى، و هو الشَّيْطَانُ فَهُوَ وِليهِمْ، و هم أَوْلِيَائِهِ.

و إنما استضعف كيد الشيطان لأنه سبيل الطاغوت الذى يقابل سبيل الله، و القوه لله جميعاً فلا يبقى لسبيل الطاغوت الذى هو مكيد الشيطان إلا الضعف، و لذلك حرض المؤمنين عليهم بيان ضعف سبيلهم، و شجعهم على قتالهم، و لا ينافى ضعف كيد الشيطان بالنسبة الى سبيل الله قوته بالنسبة الى من اتبع هواه، و هو ظاهر.

[سورة النساء (٤): الآيات ٧٧ الى ٨٠]

اشاره

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصَبِّهُمُ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ فَمَا لَهُؤَلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩) مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠)

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ -الى قوله- أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً كَفَّ الْأَيْدَى كِنَايَه عَنِ الْإِمْسَاكِ عَنِ الْقِتَالِ لِكُونَ الْقِتْلِ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ مِنْ عَمَلِ الْأَيْدَى، وَهَذَا الْكَلَامُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا فِي ابْتِدَاءِ أَمْرِهِمْ يَشْتَقُّ عَلَيْهِمْ مَا يَشَاهِدُونَهُ مِنْ تَعَدَّى الْكُفَّارِ وَبَغْيِهِمْ عَلَيْهِمْ فَيَصْعَبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَصْبِرُوا عَلَى ذَلِكَ وَلَا يَقَابِلُوهُ بِسَلِّ السِّيُوفِ فَأَمْرُهُمُ اللَّهُ بِالْكَفِّ عَنِ ذَلِكَ، وَإِقَامَهُ شِعَائِرِ الدِّينِ مِنْ صَلَاحِهِ وَزَكَاهِ لِيَشْتَدَّ عَظَمُ الدِّينِ وَيُقَوِّمَ صُلْبَهُ فَيَأْذَنُ اللَّهُ لَهُمْ فِي جِهَادِ أَعْدَائِهِ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَانْفَسَخَ هَيْكَلُ الدِّينِ، وَانْهَدَمَتْ أَرْكَانُهُ، وَتَلَاشَتْ أَجْزَاؤُهُ.

ففى الآيات لومهم على أنهم هم الذين كانوا يستعجلون فى قتال الكفار، ولا يصبرون على الإمساك و تحمّل الأذى حين لم يكن لهم من العدّة و القوه ما يكفيهم للقاء عدوّهم فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون العدو و هم ناس مثلهم كخشية الله أو أشد خشية.

قوله تعالى: وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ الخ؛ ظاهره أنه عطف على قوله «إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ» الخ؛ و خاصه بالنظر الى تغيير السياق من الفعل المضارع (يخشون الناس) الى الماضى (قالوا) فالقائل بهذا القول هم الذين كانوا يتوقون للقتال، و يستصعبون الصبر

فامروا بكف أيديهم.

و من الجائر أن يكون قولهم «رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْ لَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ» محكياً عن لسان حالهم كما أن من الجائر أن يكونوا قائلين ذلك بلسانهم الظاهر فان القرآن يستعمل من هذا العنايات كل نوع.

و توصيف الأجل الذى هو أجل الموت حتف الأنف بالقرب ليس المراد به أن يسألوا التخلص عن القتل، و العيش زمانا يسيرا بل ذلك تلويح منهم بأنهم لو عاشوا من غير قتل حتى يموتوا حتف أنفسهم لم يكن ذلك إلا عيشا يسيرا و أجلا قريبا فما لله- سبحانه- لا- يرضى لهم أن يعيشوا هذه العيشه اليسيره حتى يتلهم بالقتل، و يعجل لهم الموت؟ و هذا الكلام صادر منهم لتعلق نفوسهم بهذه الحياه الدنيا التى هى فى تعليم القرآن متاع قليل يتمتع به ثم ينقضى سريعا و يعفى أثره، و دونه الحياه الآخره التى هى الحياه الباقيه الحقيقه فهى خير، و لذلك أجيب عنهم بقوله «قُلْ»؛ الخ.

قوله تعالى: قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ الخ؛ أمر للنبي صلى الله عليه و آله و سلم أن يجيب هؤلاء الضعفاء بما يوضح لهم خطأ رأيهم فى ترجيح العيش الدنيوى اليسير على كرامه الجهاد و القتل فى سبيل الله تعالى، و محصله أنهم ينبغى أن يكونوا متقين فى إيمانهم، و الحياه الدنيا هى متاع يتمتع به قليل اذا قيس الى الآخره، و الآخره خير لمن اتقى فينبغى لهم أن يختاروا الآخره التى هى خير على متاع الدنيا القليل لأنهم مؤمنون و على صراط التقوى، و لا- يبقى لهم إلا- أن يخافوا أن يحيف الله عليهم و يظلمهم فيختاروا لذلك ما بأيديهم من المتاع على ما يوعدون من الخير، و ليس لهم ذلك فإن الله لا يظلمهم فتىلا.

و قد ظهر بهذا البيان أن قوله «لِمَنِ اتَّقَىٰ» من قبيل وضع الصفه موضع الموصوف للدلاله على سبب الحكم، و دعوى انطباقه على المورد، و التقدير- و الله أعلم-: و الآخره خير لكم لأنكم ينبغى أن تكونوا لإيمانكم أهل تقوى، و التقوى سبب للفوز بخير الآخره فقوله «لِمَنِ

و الذله و المسكنه و الفتنه كل ذلك يعود الى الإنسان لا إليه سبحانه فالآيه قريبه مضمونا من قوله تعالى: ذَلِكُمْ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكَمْغَيِّرًا نِعْمَهُ أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعْزِرُوا مَا بَأْنَفْسِهِمْ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (الأنفال ٥٣/٥٣)، و لا ينافى ذلك رجوع جميع الحسنات و السيئات بنظر كلى آخر إليه تعالى كما سيحىء بيانه.

قوله تعالى: وَ أَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا أَى لا سمه لك من عندنا إلا أنك رسول وظيفتك البلاغ، و شأنك الرساله لا شأن لك سواها و ليس لك من الأمر شىء حتى تؤثر فى ميمنه أو مشأمه، أو تجر الى الناس السيئات، و تدفع عنهم الحسنات، و فيه رد تعمىضى لقوله أولئك المتطيرين فى السيئات «هذه من عندك» تشؤما به صلى الله عليه و آله و سلم ثم أيد ذلك بقوله «وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا» .

قوله تعالى: مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، استئناف فيه تأكيد و تثبيت لقوله فى الآيه السابقه «وَ أَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا»، و بمنزله التعليل كحلمه أى ما أنت إلا رسولا منا من يطعك بما أنت رسول فقد أطاع الله، و من تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا.

و من هنا يظهر أن قوله «مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ»، من قبيل وضع الصفه موضع الموصوف للإشعار بعلة الحكم نظير ما تقدم فى قوله: وَ الْآخِرَهُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى وَ لَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا و على هذا فالسياق جار على استقامه من غير التفات من الخطاب فى قوله «وَ أَرْسَلْنَاكَ» ، الى الغيبه فى قوله «مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ»، ثم الى الخطاب فى قوله «فَمَا أَرْسَلْنَاكَ» (١)(٢).

ص: ٧٢٤

١- ١). النساء: ٧٧-٨٠. كلام فى استناد الحسنات و السيئات اليه تعالى.

٢- ٢). النساء: ٧٧-٨٠ بحث روائى فى: فى جماعه من المنافقين لم يحضروا الجهاد؛ ابتلاء المؤمن فى الدنيا و مكافأته فى الآخرة؛ حب على عليه السلام.

إشارة

وَيَقُولُونَ طَاعَهُ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبْتَونَ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١) أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (٨٣) فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا (٨٤)

بيان:

قوله تعالى: وَيَقُولُونَ طَاعَهُ الخ؛ «طَاعَهُ» مرفوع على الخبرية على ما قيل، و التقدير: أمرنا طاعه أى نطيعك طاعه، و البروز الظهور و الخروج، و التبیت من البيت، و معناه إحكام الأمر و تدبيره ليلا، و الضمير فى «تَقُولُ» راجع الى «طَائِفَةٌ» أو الى النبي صلى الله عليه و آله و سلم.

و المعنى -و الله أعلم-: و يقول هؤلاء مجيبين لك فيما تدعوهم إليه من الجهاد: أمرنا طاعه،

فاذا أخرجوا من عندك دبروا ليلاً أمراً غير ما أجابوك به و قالوا لك، أو غير ما قلته أنت لهم، و هو كناية عن عقدهم النيه على مخالفه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ.

ثم أمر الله رسوله بالأعراض عنهم و التوكل فى الامر و العزيمه فقال «فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً» و لا دليل فى الآيه على كون المحكى عنهم هم المنافقين كما ذكره بعضهم بل الأمر بالنظر الى اتصال السياق على خلاف ذلك.

قوله تعالى: أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ الْآيَةَ؛ تحضيض فى صورته الاستفهام. التدبر هو أخذ الشيء بعد الشيء، و هو فى مورد الآيه التأمل فى الآيه عقيب الآيه أو التأمل بعد التأمل فى الآيه لكن لما كان الغرض بيان أن القرآن لا اختلاف فيه، و ذلك إنما يكون بين أزيد من آيه واحده كان المعنى الاول أعنى التأمل فى الآيه هو العمده و إن كان ذلك لا ينفى المعنى الثانى أيضاً.

فالمراد ترغيبهم أن يتدبروا فى الآيات القرآنيه، و يراجعوا فى كل حكم نازل أو حكمه مبينه أو قصه أو عظه أو غير ذلك جميع الآيات المرتبطه به مما نزلت مكيثها و مدنيثها، و محكمها و متشابهها، و يضموا البعض الى البعض حتى يظهر لهم أنه لا اختلاف بينها، فالآيات يصدق قديمها حديثها، و يشهد بعضها على بعض من غير أن يكون بينها أى اختلاف مفروض: لا اختلاف التناقض بأن ينفى بعضها بعضاً أو يتدافعا، و لا- اختلاف التفاوت بأن يتفاوت الآيتان من حيث تشابه البيان أو متانته المعانى و المقاصد بكون البعض أحكم بنيانا و أشد ركنا من بعض كتابا متشابهها مثانى تقشعر منه الجلود. فارتفاع هذه الاختلافات من القرآن يهديهم الى أنه كتاب منزل من الله، و ليس من عند غيره اذ لو كان من عند غيره لم يسلم من كثره الاختلاف، و ذلك أن غيره تعالى من هذه الموجودات الكونيه- و لا- سيما الإنسان الذى يرتاب أهل الريب أنه من كلامه- كلها موضوعه بحسب الكينونه الوجوديه و طبيعه الكون على التحرك و التغير و التكامل فما من واحد منها إلا أن امتداد زمان وجوده مختلف

ما من إنسان إلا و هو يرى كل يوم أنه أعقل من أمس، و أن ما ينشئه من عمل أو صنعه أو ما أشبه ذلك أو يدبره من رأى أو نظر أو نحوهما أخيرا أحكم و أمتن مما أتى به أولا حتى العمل الواحد الذى فيه شىء من الامتداد الوجودى كالكتاب يكتبه الكاتب، و الشعر يقوله الشاعر، و الخطبه يخطبها الخطيب، و هكذا يوجد عند الإمعان آخره خيرا من أوله، و بعضه أفضل من بعض.

فالواحد من الإنسان لا يسلم فى نفسه و ما يأتى به من العمل من الاختلاف، و ليس هو بالواحد و الاثنين من التفاوت و التناقض بل الاختلاف الكثير، و هذا ناموس كلى جار فى الانسان و ما دونه من الكائنات الواقعه تحت سيطره التحول و التكامل العامين لا ترى واحدا من هذه الموجودات يبقى آنين متوالين على حال واحد بل لا يزال يختلف ذاته و أحواله.

و من هنا يظهر وجه التقييد بالكثير فى قوله «اِخْتِلَافًا كَثِيرًا» فالوصف وصف توضيحي لا احترازي، و المعنى: لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا، و كان ذلك الاختلاف كثيرا على حد الاختلاف الكثير الذى فى كل ما هو من عند غير الله، و ليس المعنى أن المرفوع من القرآن هو الاختلاف الكثير دون اليسير.

و بالجملة لا يلبث المتدبرون أن يشاهد أن القرآن كتاب يداخل جميع الشئون المرتبطه بالانسانيه من معارف المبدأ و المعاد و الخلق و الإيجاد، ثم الفضائل العامه الإنسانيه، ثم القوانين الاجتماعيه و الفرديه الحاكمه فى النوع حكومه لا يشذ منها دقيق و لا جليل، ثم القصص و العبر و المواعظ بيان دعا الى مثلها أهل الدنيا، و آيات نازله نجوما فى مده تعدل ثلاثا و عشرين سنه على اختلاف الأحوال من ليل و نهار، و من حضر و سفر، و من حرب و سلم، و من ضراء و سراء، و من شده و رخاء، فلم يختلف حاله فى بلاغته الخارقه المعجزه، و لا فى معارفه العاليه و حكمه الساميه، و لا فى قوانينه الاجتماعيه و الفرديه، بل ينعطف آخره الى ما قر عليه أوله،

و ترجع تفاصيله و فروعها الى ما ثبت فيه أعراقه و أصوله، يعود تفاصيل شرائعه و حكمه بالتحليل إلى حاق التوحيد الخالص و ينقلب توحيده الخالص بالتركيب الى أعيان ما أفاده من التفاصيل، هذا شأن القرآن.

و الإنسان المتدبر فيه هذا التدبر يقضى بشعوره الحى، و قضائه الجبلى أن المتكلم بهذا الكلام ليس ممن يحكم فيه مرور الأيام و التحوّل و التكامل العاملان فى الأكوان بل هو الله الواحد القهار.

و قد تبين من الآيه (أولاً): أن القرآن مما يناله الفهم العادى. و (ثانياً): أن الآيات القرآنيه يفسر بعضها بعضاً. و (ثالثاً): أن القرآن كتاب لا يقبل نسخاً و لا إبطالاً و لا تكميلاً و لا تهذيباً، و لا أى حاكم يحكم عليه أبداً، و ذلك أن ما يقبل شيئاً منها لا مناص من كونه يقبل نوعاً من التحوّل و التغيير بالضروره، و إذا كان القرآن لا يقبل الاختلاف فليس يقبل التحول و التغيير فليس يقبل نسخاً و لا إبطالاً و لا غير ذلك، و لازم ذلك أن الشريعه الإسلاميه مستمره الى يوم القيامه.

قوله تعالى: **وَ إِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ** الإذاعه هى النشر و الإشاعه، و فى الآيه نوع ذمّ و تعبير لهم فى شأن هذه الإذاعه، و فى قوله فى ذيل الآيه «**وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ**» الخ؛ دلالة على أن المؤمنين كانوا على خطر الضلال من جهه هذه الإذاعه، و ليس إلا- خطر مخالفه الرسول فإن الكلام فى هذه الآيات موضوع فى ذلك، و يؤيد ذلك ما فى الآيه التاليه من أمر الرسول بالقتال و لوبقى وحده بلا ناصر.

و يظهر به أن الأمر الذى جاءهم من الأمن أو الخوف كان بعض الأراجيف التى كانت تأتى بها أيدي الكفار و رسلهم المبعوثون لإيجاد النفاق و الخلاف بين المؤمنين فكان الضعفاء من المؤمنين يذيعونه من غير تدبر و تبصير فيوجب ذلك وهنا فى عزمه المؤمنين، غير أن الله سبحانه وقاهم من اتباع هؤلاء الشياطين الجائين بتلك الأخبار لاختزاء المؤمنين.

وقوله تعالى: وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ لَمْ يَذْكُرْ هَاهُنَا الرَّدَّ إِلَى اللَّهِ كَمَا ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ: فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ الْآيَةَ (النساء ٥٩)؛ لأن الرد المذكور هناك هو رد الحكم الشرعي المتنازع فيه، ولا صنع فيه لغير الله ورسوله.

و أما الرد المذكور هاهنا فهو رد الخبر الشائع بين الناس من أمن أو خوف، ولا معنى لرده الى الله و كتابه، بل الصنع فيه للرسول و لاولى الأمر منهم، لو رد إليهم أمكنهم أن يستنبطوه و يذكروا للرادين صحته أو سقمه، و صدقه أو كذبه.

فالمراد بالعلم التمييز تمييز الحق من الباطل، و الصدق من الكذب على حد قوله تعالى:

لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ (المائدة ٩٤)، و قوله: وَ لِيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لِيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (العنكبوت ١١).

و الاستنباط استخراج القول من حال الإبهام الى مرحلة التمييز و المعرفة، و أصله من النبط (محرکه)، و هو أول ما يخرج من ماء البئر، و على هذا يمكن أن يكون الاستنباط وصفا للرسول و أولى الأمر بمعنى أنهم يحققون الأمر فيحصلون على الحق و الصدق و أن يكون وصفا لهؤلاء الرادين لو ردوا فإنهم يعملون حق الامر و صدقه بإنباء الرسول و أولى الامر لهم.

فيعود معنى الآية إن كان المراد بالذين يستنبطونه منهم الرسول و أولى الامر كما هو الظاهر من الآية: لعلمه من أراد الاستنباط من الرسول و أولى الامر أى اذا استصوبه المسئولون و رأوه موافقا للصلاح، و إن كان المراد بهم الرادين: لعلمه الذين يستفسرونه و يبالغون فى الحصول على أصل الخبر من هؤلاء الرادين.

و أما أولى الأمر فى قوله: وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ «فالمراد بهم هو المراد بأولى الامر فى قوله أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ (النساء ٥٩) على ما تقدم من اختلاف

المفسرين فى تفسيره وقد تقدم أن اصول الأقوال فى ذلك ترجع الى خمسة، غير أن الذى استفدناه من المعنى أظهر فى هذه الآية (١).

قوله تعالى: **وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَا تَبْعَثُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا** قد تقدم أن الأظهر كون الآيات مشيره الى قصه بدر الصغرى، و بعث أبى سفيان نعيم بن مسعود الأشجعى الى المدينة لسط الخوف و الوحشه بين الناس و اخزائهم فى الخروج الى بدر فالمراد باتباع الشيطان التصديق بما جاء به من النبأ، و اتباعه فى التخلف عن الخروج الى بدر.

و بذلك يظهر استقامه معنى الاستثناء من غير حاجه الى تكلف أو تمحل فإن نعيما كان يخبرهم أن أبا سفيان جمع الجموع و جهز الجيوش فاخشوهم و لا تلقوا بأنفسكم الى حياض القتل الذريع، و قد أثر ذلك فى قلوب الناس فتعللوا عن الخروج الى موعدهم ببدر، و لم يسلم من ذلك إلا النبى صلى الله عليه و آله و سلم و بعض خاصته و هو المراد بقوله تعالى: **«إِلَّا قَلِيلًا»**، فقد كان الناس تزلزلوا إلا القليل منهم ثم لحقوا بذلك القليل و ساروا.

و هذا الذى استظهرناه من معنى الاستثناء هو الذى يؤيده ما مر ذكره من القراءين، على ما فيه من الاستقامه.

و قوله تعالى: **فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ التَّكْلِيفَ مِنَ الْكُلْفِ** بمعنى المشقه لما فيه من تحميل المشقه على المكلف، و التنكيل من النكال، و هو على ما فى المجمع: ما يمتنع به من الفساد خوفا من مثله من العذاب فهو عقاب المتخلف لئلا يعود الى مثله و ليعتبر به غيره من المكلفين.

و الفاء فى قوله **«فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»**، للتفريع و الامر بالقتال متفرع على المتحصل من

ص: ٧٣٠

مضامين الآيات السابقة. وهو تثاقل القوم في الخروج الى العدو و تبطئتهم في ذلك، و يدل عليه ما يتلوه من الجمل أعنى قوله «لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ» الخ؛ فإن المعنى: فإذا كانوا يتثاقلون في أمر الجهاد و يكرهون القتال فقاتل أنت يا رسول الله بنفسك، و لا يشق عليك تثاقلهم و مخالفتهم لأمر الله سبحانه فإن تكليف غيرك لا يتوجه إليك، و إنما يتوجه اليك تكليف نفسك لا تكليفهم، و إنما عليك في غيرك أن تحرضهم فقاتل و حرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا. و قوله «لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ» أى لا تكلف أنت شيئاً إلا عمل نفسك فالاستثناء بتقدير مضاف.

و قوله: عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِيَ الخ؛ قد تقدم أن «عَسَى» تدل على الرجاء أعم من أن يكون ذلك الرجاء قائماً بنفس المتكلم أو المخاطب أو بمقام التخاطب فلا حاجة الى ما ذكره من أن «عَسَى» من الله حتم.

و فى الآيه دلالة على زياده تعبير من الله سبحانه للمتثاقلين من الناس حيث أدى تثاقلهم الى أن أمر الله نبيه بالقيام بالقتال بنفسه، و أن يعرض عن المتثاقلين و لا يلح عليهم بالإجابة و يخليهم و شأنهم، و لا يضيق بذلك صدره فليس عليه إلا تكليف نفسه و تحريض المؤمنين أطاع من أطاع، و عصى من عصى.

[سورة النساء (٤): الآيات ٨٥ الى ٩١]

إشارة

مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَبًا (٨٥) وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّهِ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (٨٦) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَضْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧) فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَهْتَدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨) وَذُوقُوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرْتُمْ فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُليًا وَلَا نَصِيرًا (٨٩) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَرَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠) سَيَتَجِدُونَ آخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَرِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (٩١)

قوله تعالى: مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا، النصيب و الكفل بمعنى واحد، و لما كانت الشفاعة نوع توسط لترميم نقيصه أو لحيازه مزيه و نحو ذلك كانت لها نوع سببيه لإصلاح شأن فلها شيء من التبعة و المثوبه المتعلقتين بما لأجله الشفاعة، و هو مقصد الشفيع و المشفوع له فالشفيع ذو نصيب من الخير أو الشر المترتب على الشفاعة، و هو قوله تعالى: «مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً» الخ؛.

و فى ذكر هذه الحقيقه تذكره للمؤمنين، و تنبيه لهم أن يتقظوا عند الشفاعة لما يشفعون له، و يجتنبوا إن كان المشفوع لأجله مما فيه شر و فساد كالشفاعة للمنافقين من المشركين أن لا يقاتلوا، فإن فى ترك الفساد القليل على حاله، و إمهاله فى أن ينمو و يعظم فسادا معقبا لا يقوم له شيء، و يهلك به الحرث و النسل فالآيه فى معنى النهى عن الشفاعة السيئه و هى شفاعة أهل الظلم و الطغيان و النفاق و الشرك المفسدين فى الارض.

قوله تعالى: وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّهِ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا (الآيه)؛ أمر بالتحيه قبال التحيه بما يزيد عليها أو يماثلها، و هو حكم عام لكل تحيه حىي بها، غير أن مورد الآيات هو تحيه السلم و الصلح التى تلقى المسلمين على ما يظهر من الآيات التاليه.

قوله تعالى: اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ الخ؛ معنى الآيه ظاهر، و هى بمنزله التعليل لما تشتمل عليه الآيتان السابقتان من المضمون كأنه قيل: خذوا بما كلفكم الله فى أمر الشفاعة الحسنه و السيئه، و لا تبطلوا تحيه من يحييكم بالإعراض و الزد فإن أمامكم يوما يجمعكم الله فيه و يجازيكم على إجابته ما دعاكم إليه و ردّه.

قوله تعالى: فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ (الآيه)؛ الفئه الطائفه، و الإركاس الردّ.

و الآيه بما لها من المضمون كأنها متفرعه على ما تقدم من التوطئه و التمهيدي أعني قوله «مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً» (الآيه)؛ و المعنى: فإذا كانت الشفاعه السيئه تعطى لصاحبها كفلا من مساءتها فما لكم أيها المؤمنون تفرقتم في أمر المنافقين فئتين، و تحزبتن حزبين: فئه ترى قتالهم، و فئه تشفع لهم و تحرض على ترك قتالهم، و الإغماض عن شجره الفساد التي تنمو بنمائمهم، و تثمر برشدهم، و الله ردهم الى الضلال بعد خروجهم منه جزاء بما كسبوا من سيئات الأعمال، أ تريدون بشفاعتكم أن تهدوا هؤلاء الذين أضلهم الله؟ و من يضل الله فما له من سبيل الى الهدى.

□
و فى قوله: «وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا» التفات من خطاب المؤمنين الى خطاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إشاره الى أن من يشفع لهم من المؤمنين لا يتفهم حقيقه هذا الكلام حق التفهم، و لو فقه لم يشفع فى حقهم فأعرض عن مخاطبتهم به و ألقى الى من هو بين واضح عنده و هو النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

□
قوله تعالى: «وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً الْخ»؛ هو بمنزله البيان لقوله «وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ»، و المعنى: أنهم كفروا و زادوا عليه أنهم دوا و أحبوا أن تكفروا مثلهم فتستوا.

ثم نهاهم عن ولايتهم إلا أن يهاجروا فى سبيل الله فإن تولوا فليس عليكم فيهم إلا أخذهم و قتلهم حيث وجدتموهم، و الاجتناب عن ولايتهم و نصرتهم، و فى قوله «فَإِنْ تَوَلَّوْا»، دلالة على أن على المؤمنين أن يكلفوهم بالمهاجره فإن أجابوا فليوالوهم، و إن تولوا فيقتلوهم.

□
قوله تعالى: «إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاؤُكُمْ حِصْرًا صُدُّوا عَنْهُمْ اسْتَشْنَى اللَّهُ سَبْحَانَهُ مِنْ قَوْلِهِ «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَ اقْتُلُوهُمْ»، طائفتين: (إحداهما) الذين يصلون، الخ؛ أى بينهم و بين أهل الميثاق ما يوصلهم بهم من حلف و نحوه، و (الثانيه) الذين يتخرجون من مقاتله المسلمين و مقاتله قومهم لقتلهم أو

لعوامل آخر، فيعتزلون المؤمنين و يلقون إليهم السلم لا للمؤمنين و لا عليهم بوجه، فهاتان الطائفتان مستثنون من الحكم المذكور، و قوله «حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ»، أى ضاقت.

قوله تعالى: سَيَجِدُونَ آخِرِينَ، إخبار بأنه سيواجهكم قوم آخرون ربما شابهوا الطائفة الثانية من الطائفتين المستثنيتين حيث إنهم يريدون أن يأمنوكم و يأمنوا قومهم غير أن الله سبحانه يخبر أنهم منافقون غير مأمونين فى مواعدتهم و موادعتهم، و لذا بدّل الشرطين المثبتين فى حق غيرهم أعنى قوله: «فَإِنْ اعْتَزَلُواكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَ أَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ» و بالشرط المنفى أعنى قوله «فَإِنْ لَمْ يَعِزُّواكُمْ وَ يُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَ يَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ» الخ؛ و هذا فى معنى تنبيه المؤمنين على أن يكونوا على حذر منهم، و معنى الآيه ظاهر (١)(٢).

[سوره النساء (٤): الآيات ٩٢ الى ٩٤]

إشارة

وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَ دِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَ إِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيًّا مِنْ شَهْرَيْنِ مُتَّابِعِينَ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢) وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ لَعَنَهُ وَ أَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَ لَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤)

ص: ٧٣٥

١- ١). النساء ٨٥-٩١: فى معنى التحية.

٢- ٢). النساء ٨٥-٩١: بحث روائى فى: السلام و التحية، العطسه.

قوله تعالى: وَ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً -الى قوله- يَصَدَّقُوا التَّحْرِيرَ جعل المملوك حراً، و الرقبه هى العنق شاع استعمالها فى النفس المملوكه مجازاً، و الدية ما يعطى من المال عوضاً عن النفس أو العضو أو غيرهما، و المعنى: و من قتل مؤمناً بقتل الخطأ و جب عليه تحرير نفس مملوكه مؤمنه، و إعطاء دية يسلمها الى أهل المقتول إلا أن يتصدق أولياء القتل الدية على معطيها و يعفوا عنها فلا تجب الدية.

قوله تعالى: فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ، الضمير يرجع الى المؤمن المقتول، و القوم العدو هم الكفار المحاربون، و المعنى: إن كان المقتول خطأ مؤمناً و أهله كفار محاربون لا يرثون و جب التحرير و لا دية اذ لا يرث الكافر المحارب من المؤمن شيئاً.

قوله تعالى: وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ، الضمير فى «كَانَ» يعود الى المؤمن المقتول أيضاً على ما يفيدده السياق، و الميثاق مطلق العهد أعم من الذمه و كل عهد، و المعنى: و إن كان المؤمن المقتول من قوم بينكم و بينهم عهد و جبت الدية و تحرير الرقبه، و قد قدّم ذكر الدية تأكيداً فى مراعاة جانب الميثاق.

قوله تعالى: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ، أى من لم يستطع التحرير -لأنه هو الأقرب بحسب اللفظ- و جب عليه صيام شهرين متتابعين.

قوله تعالى: تَوْبَهُ مِنَ اللَّهِ الْخ؛ أى هذا الحكم وهو إيجاب الصيام توبه و عطف رحمه من الله لفاقد الرقبه، و ينطبق على التخفيف فالحكم تخفيف من الله فى حق غير المستطيع، و يمكن أن يكون قوله «تَوْبَهُ» قيّدا راجعا الى جميع ما ذكر فى الآيه من الكفاره أعنى قوله «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» الخ؛ و المعنى: أن جعل الكفاره للقاتل خطأ توبه و عنايه من الله للقاتل فيما لحقه من درن هذا الفعل قطعاً. و ليتحفّظ على نفسه فى عدم المحاباه فى المبادره الى القتل نظير قوله تعالى: «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ» (البقره ١٧٩/).

و كذا هو توبه من الله للمجتمع و عنايه لهم حيث يزيد به فى أحرارهم واحد بعد ما فقدوا واحداً، و يرمّم ما ورد على أهل المقتول من الضرر المالى بالديه المسلّمه.

و من هنا يظهر أن الاسلام يرى الحرية حياه و الاسترقاق نوعاً من القتل، و يرى المتوسط من منافع وجود الفرد هو الديه الكامله. و سنوضح هذا المعنى فى ما سيأتى من المباحث.

و أما تشخيص معنى الخطأ و العمد و التحرير و الديه و أهل القتل و الميثاق و غيره المذكورات فى الآيه فعلى السنّه. من أراد الوقوف عليها فليراجع الفقه.

قوله تعالى: «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ، التعميد هو القصد الى الفعل بعنوانه الذى له، و حيث ان الفعل الاختيارى لا يخلو من قصد العنوان و كان من الجائر أن يكون لفعل أكثر من عنوان واحد أمكن ان يكون فعل واحد عمدياً من جهه خطأياً من أخرى فالرامى الى شبح و هو يزعم انه من الصيد و هو فى الواقع انسان اذا قتله كان متعمداً الى الصيد خاطئاً فى قتل الانسان، و كذا اذا ضرب إنساناً بالعصى قاصداً تأديبه فقتلته الضربه كان القتل قتل خطأً، و على هذا فمن مؤمناً متعمداً هو الذى يقصد بفعله قتل المؤمن عن علم بأنه قتل و ان المقتول مؤمن.

و قد أغلظ الله سبحانه و تعالى فى وعيد قاتل المؤمن متعمداً بالنار الخالده غير أنك عرفت فى الكلام على قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ (النساء ٤٨/). ان تلك

الآية، وكذا قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً (الزمر ٥٣) تصلحان لتقييد هذه الآية فهذه الآية توعده بالنار الخالده لكنها ليست بصريحه فى الحتم فيمكن العفو بتوبه أو شفاعه.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا الضرب هو السير فى الأرض و المسافره، و تقييده بسبيل الله يدل على أن المراد به هو الخروج للجهاد، و التبين هو التمييز و المراد به التمييز بين المؤمن و الكافر بقرينه قوله «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا» و المراد بإلقاء السلام إلقاء التحية تحية أهل الايمان، و قرء «لمن ألقى اليكم السلم» بفتح اللام و هو الاستسلام.

و المراد بابتغاء عرض الحياه الدنيا طلب المال و الغنيمه، و قوله «فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ» جمع مغنم و هو الغنيمه أى ما عند الله من المغانم أفضل من مغنم الدنيا الذى يريدونه لكثرتها و بقائها فهى التى يجب عليكم أن تؤثروها.

قوله تعالى: كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا الخ؛ أى على هذا الوصف. و هو ابتغاء عرض الحياه الدنيا-كنتم من قبل ان تؤمنوا فمن الله عليكم بالايمان الصارف لكم عن ابتغاء عرض الحياه الدنيا الى ما عند الله من المغانم الكثيره فاذا كان كذلك فيجب عليكم ان تتبينوا، و فى تكرار الأمر بالتبين تأكيد فى الحكم.

و الآية مع اشتمالها على العظه و نوع من التوبيخ لا تصرح بكون هذا القتل الذى ظاهرها وقوعه قتل مؤمن متعمدا، فالظاهر انه كان قتل خطأ من بعض المؤمنين لبعض من ألقى السلم من المشركين لعدم وثوق القاتل بكونه مؤمنا حقيقه بزعم أنه انما يظهر الايمان خوفا على نفسه، و الآية توبخه بأن الاسلام انما يعتبر بالظاهر، و يحل أمر القلوب الى اللطيف الخبير.

و على هذا فقوله «تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» موضوع فى الكلام على اقتضاء الحال، أى

حالكم فى قتل من يظهر لكم الايمان من غير اعتناء بامرہ و تبين فى شأنه حال من يريد المال و الغنيمه فيقتل المؤمن المتظاهر بالايمن بأدنى ما يعتذر به من غير أن يكون من موجه العذر، و هذا هو الحال الذى كان عليه المؤمنون قبل ايمانهم لا يتغون الا الدنيا فإذا أنعم الله عليهم بالايمن، و من عليهم بالاسلام كان الواجب عليهم ان يتبينوا فيما يصنعون و لا ينقادوا لأخلاق الجاهليه و ما بقى فيهم من اثارها (١).

[سوره النساء (٤): الآيات ٩٥ الى ١٠٠]

اشاره

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسَيْنِيَّ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦) إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَيْسَ لِيُسْتَضْعَفُونَ حِيلَهُ وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٩) وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاجِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٠)

ص: ٧٣٩

قوله تعالى: «لَا يَسْتَتِي الْقَاعِدُونَ» - إلى قوله - «وَأَنْفُسِهِمْ الضَّررُ هُوَ النِّقْصَانُ فِي الوجودِ المانِعِ مِنَ القيامِ بِأمرِ الجهادِ و القتالِ كالعَمى و العرجِ و المرضِ، و المراد بالجهاد بالأموال إنفاقها في سبيل الله للظفر على أعداء الدين، و بالأنفس القتال.

و قوله «وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسَيْنِيَّ»، يدل على أن المراد بهؤلاء القاعدين هم التاركون للخروج إلى القتال عند ما لا حاجة إلى خروجهم لخروج غيرهم على حد الكفاية بالكلام مسوق لترغيب الناس و تحريضهم على القيام بأمر الجهاد و التسابق فيه و المسارعة إليه.

و من الدليل على ذلك أن الله سبحانه استثنى أولى الضرر ثم حكم بعدم الاستواء مع أن أولى الضرر كالقاعدين في عدم مساواتهم المجاهدين في سبيل الله و إن قلنا: إن الله سبحانه يتدارك ضررهم بتياتهم الصالحة فلا شك أن الجهاد و الشهادة أو الغلبة على عدو الله من الفضائل التي فضل بها المجاهدون في سبيل الله على غيرهم، و بالجملة ففي الكلام تحضيض للمؤمنين و تهييج لهم، و إيقاظ لروح إيمانهم لاستباق الخير و الفضيلة.

قوله تعالى: «فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً الْجَمْلَةَ فِي مَقَامِ التَّعْلِيلِ لِقَوْلِهِ «لَا يَسْتَتِي»، و لذا لم توصل بعطف و نحوه، و الدرجة هي المنزلة، و الدرجات المنزلة بعد المنزلة، و قوله «وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسَيْنِيَّ» أي وعد الله كلا

من القاعدين و المجاهدين، أو كلا من القاعدين غير أولى الضرر و القاعدين أولى الضرر و المجاهدين الحسنى، و الحسنى وصف محذوف الموصوف أى العاقبه الحسنى أو المثوبه الحسنى أو ما يشابه ذلك، و الجملة مسوقه لدفع الدخل فإن القاعد من المؤمنين ربما أمكنه أن يتوهم من قوله «لَا يَسْتَوِي -ألى قوله- دَرَجَةٌ» أنه صفر الكفّ لا فائده تعود إليه من ايمانه و سائر أعماله فدفع ذلك بقوله «وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى» .

قوله تعالى: وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَ مَغْفِرَةً وَ رَحْمَةً هذا التفضيل بمنزله البيان و الشرح لإجمال التفضيل المذكور أولاً، و يفيد مع ذلك فائده أخرى، و هى الإشارة الى أنه لا ينبغى للمؤمنين أن يقنعوا بالوعد الحسن الذى يتضمّنه قوله «وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى» فيتكاسلوا فى الجهاد فى سبيل الله و الواجب من السعى فى إعلاء كلمه الحق و إزهاق الباطل فإن فضل المجاهدين على القاعدين بما لا يستهان به من درجات المغفره و الرحمه.

و أمر الآيه فى سباقها عجيب، أما أولاً: فلأنها قيدت المجاهدين (أولاً) بقوله «فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ» و (ثانياً) بقوله «بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ» و (ثالثاً) أوردته من غير تقييد.

و أما ثانياً: فلأنها ذكرت فى التفضيل (أولاً) أنها درجه، و (ثانياً) أنها درجات منه.

و الضمير فى قوله «مِنْهُ» لعله راجع الى الله سبحانه، و يؤيده قوله «وَ مَغْفِرَةً وَ رَحْمَةً» بناء على كونه بياناً للدرجات، و المغفره و الرحمه من الله، و يمكن رجوع الضمير الى الأجر المذكور قبلاً.

و قوله: وَ مَغْفِرَةً وَ رَحْمَةً ظاهره كونه بياناً للدرجات فإن الدرجات و هى المنازل من الله سبحانه أيما كانت فهى مصداق المغفره و الرحمه، و قد علمت فى بعض المباحث السابقه أن الرحمه -و هى الإفاضه الإلهيه للنعمه- تتوقف على إزاله الحاجب و رفع المانع من التلبس بها، و هى المغفره، و لازمه أن كل مرتبه من مراتب النعم، و كل درجه و منزله رفيعه

مغفره بالنسبه الى المرتبه التي بعدها، و الدرجه التي فوقها، فصح بذلك أن الدرجات الاخرويه كائنه ما كانت مغفره و رحمه من الله سبحانه، و غالب ما تذكر الرحمه و ما يشابهها في القرآن تذكر معها المغفره كقوله: **مَغْفِرَةٌ** وَ **أَجْرٌ عَظِيمٌ** (المائدة ٩) و قوله: **وَ مَغْفِرَةٌ** وَ **رِزْقٌ كَرِيمٌ** (الأنفال ٤)، و قوله: **مَغْفِرَةٌ** وَ **أَجْرٌ كَبِيرٌ** (هود ١١)، و قوله: **وَ مَغْفِرَةٌ** مِنْ **اللَّهِ** وَ **رِضْوَانٌ** (الحديد ٢٠)، و قوله: **وَ اغْفِرْ لَنَا** وَ **ارْحَمْنَا** (البقره ٢٨٦) الى غير ذلك من الآيات.

ثم ختم الآيه بقوله «وَ كَانَ **اللَّهُ** **غَفُورًا رَحِيمًا**» و مناسبه الاسميين مع مضمون الآيه ظاهره لا سيما بعد قوله في ذيلها (و مغفره و رحمه).

قوله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ لَفَظٌ «تَوَفَّاهُمْ»** صيغه ماض أو صيغه مستقبل—و الأصل تتوفاهم حذف إحدى التاءين من اللفظ تخفيفاً— نظير قوله تعالى: **الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ** ما **كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ** (النحل ٢٨).

و المراد بالظلم كما تؤيده الآيه النظيره هو ظلمهم لأنفسهم بالاعراض عن دين الله و ترك إقامة شعائره من جهه الوقوع في بلاد الشرك و التوسط بين الكافرين حيث لا وسيله يتوسل بها الي تعلم معارف الدين، و القيام بما تندب إليه من وظائف العبوديه، و هذا هو الذي يدل عليه السياق في قوله «**قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ**» الى آخر الآيات الثلاث.

و قد فسّر الله سبحانه الظالمين (إذا أطلق) في قوله: **لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَهَا عِوَجًا** (الأعراف ٤٥، هود ١٩)، و محصّل الآيتين تفسير الظلم بالاعراض عن دين الله و طلبه عوجاً و محرّفاً، و ينطبق على ما يظهر من الآيه التي نحن فيها.

قوله تعالى: قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ أَي فِيمَاذَا كُنْتُمْ مِنَ الدِّينِ، وكلمة «م» هي ما الاستفهامية حذفت عنها الألف تخفيفاً.

و في الآيه دلالة في الجملة على ما تسميه الأخبار بسؤال القبر، وهو سؤال الملائكة عن دين الميت بعد حلول الموت كما يدل عليه أيضاً قوله تعالى: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فَاذْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَسِبْتُمْ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا الْآيَات (النحل ٣٠).

قوله تعالى: قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَأَسِعَتْ فَتُهَاجِرُوا فِيهَا كَانَ سُؤَالَ الْمَلَائِكَةِ (فِيمَا كُنْتُمْ) سُؤَالَ عَنِ الْحَالِ الَّذِي كَانُوا يَعِيشُونَ فِيهِ مِنَ الدِّينِ، ولم يكن هؤلاء المسئولون على حال يعتد به من جهة الدين فأجابوا بوضع السبب موضع المسبب وهو أنهم كانوا يعيشون في أرض لا- يتمكنون فيها من التلبس بالدين لكون أهل الأرض مشركين أقوىاء فاستضعفهم فحالوا بينهم وبين الأخذ بشرائع الدين والعمل بها.

ولما كان هذا الذي ذكروه من الاستضعاف- لو كانوا صادقين فيه- إنما حل بهم من حيث إخلادهم إلى أرض الشرك، وكان استضعافهم من جهة تسلط المشركين على الأرض التي ذكروها، ولم تكن لهم سلطة على غيرها من الأرض فلم يكونوا مستضعفين على أي حال بل في حال لهم أن يغيروه بالخروج والمهاجرة كذبتهم الملائكة في دعوى الاستضعاف بأن الأرض أرض الله كانت أوسع مما وقعوا فيه ولزموه، وكان يمكنهم أن يخرجوا من حومه الاستضعاف بالمهاجرة، فهم لم يكونوا بمستضعفين حقيقة لوجود قدرتهم على الخروج من قيد الاستضعاف، وإنما اختاروا هذا الحال بسوء اختيارهم.

فقوله: أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَأَسِعَتْ فَتُهَاجِرُوا فِيهَا الاستفهام فيه للتوبيخ كما

فى قوله «فِيمَ كُنْتُمْ» و يمكن أن يكون أول الاستفهامين للتقرير كما هو ظاهر ما مر نقله من آيات سورة النحل لكون السؤال فيها عن الظالمين و المتقين جميعا، و ثانى الاستفهامين للتوبيخ على أى حال.

و قد أضافت الملائكة الى الله، و لا يخلو من إيماء الله أن الله سبحانه هيا فى أرضه سعه أولا ثم دعاهم الى الايمان و العمل كما يشعر به أيضا قوله بعد آيتين «وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَ سَعَةً» (الآيه).

و وصف الأرض بالسعه هو الموجب للتعبير عن الهجره بقوله «فَتَهَاجَرُوا فِيهَا» أى تهاجروا من بعضها الى بعضها، و لو لا فرض السعه لكان يقال: فتهاجروا منها. ثم حكم الله فى حقهم بعد إيراد المساءله بقوله «فَأُولَئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا» .

قوله تعالى: إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَ النِّسَاءِ وَ الْوِلْدَانَ، الاستثناء منقطع، و فى إطلاق المستضعفين على هؤلاء بالتفسير الذى فسره به دلالة على أن الظالمين المذكورين لم يكونوا مستضعفين لتمكنهم من رفع قيد الاستضعاف عن أنفسهم و إنما الاستضعاف و وصف هؤلاء المذكورين فى هذه الآيه، و فى تفصيل بيانهم بالرجال و النساء و الولدان إيضاح للحكم الإلهى و رفع اللبس. و قوله «لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَ لَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا» الحيله كأنها بناء نوع من الحيلولة ثم استعملت استعمال الآله فهى ما يتوسل به الى الحيلولة بين شىء و شىء أو حال للحصول على شىء أو حال آخر، و غلب استعماله فى ما يكون على خفيه، و فى الامور المذمومه، و فى مادتها على أى حال معنى التغير على ما ذكره الراغب فى مفرداته.

و المعنى: لا يستطيعون و لا يتمكنون أن يحتالوا لصرف ما يتوجه إليهم من استضعاف المشركين عن أنفسهم، و لا يهتدون سبيلا يتخلصون بها عنهم فالمراد من السبيل على ما يفيد السباق أعم من السبيل الحسى كطريق المدينة لمن يريد المهاجرة إليها من مسلمى مكة،

و السبيل المعنوى و هو كل ما يخلصهم من أيدي المشركين، و استضعافهم لهم بالعذاب و الفتنه (١).

قوله تعالى: فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ، هؤلاء و ان لم يكسبوا سيئه لمعذوريتهم فى جهلهم لكننا بيّنا سابقا أن أمر الانسان يدور بين السعاده و الشقاوه و كفى فى شقائه أن لا يجوز لنفسه سعاده، فالانسان لا غنى له فى نفسه عن العفو الالهى الذى يعفى به أثر الشقاء سواء كان صالحا أو طالحا أو لم يكن، و لذلك ذكر الله سبحانه رجاء عفوهم.

و إنما اختيار ذكر رجاء عفوهم ثم عقب ذلك بقوله «وَ كَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا» اللائح منه شمول العفو لهم لكونهم مذكورين فى صوره الاستثناء من الظالمين الذين أوعدوا بأن مأواهم جهنم و ساءت مصيرا.

قوله تعالى: وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغِمًا كَثِيرًا وَ سَيَعَهُ قَالَ الرَّاعِبُ: الرغام (بفتح الراء) التراب الرقيق، و رغم أنف فلان رغما وقع فى الرغام، و ارغمه غيره، و يعبر بذلك عن السخط كقول الشاعر:

إذا رغمت تلك الانوف لم أرضها

و لم أطلب العتبي و لكن أزيدها

فمقابلة بالإرضاء مما ينبه على دلالة على الإسقاط، و على هذا قيل: أرغم الله أنفه، و أرغمه أسخطه، و ارغمه ساخطه، و تجاهدا على ان يرغم أحدهما الآخر ثم يستعار المرغمه للمنازعه قال الله تعالى «يَجِدُ فِي الْأَرْضِ مُرَاغِمًا كَثِيرًا» أى مذهبا يذهب إليه اذا رأى منكرا يلزمه ان يغضب منه كقولك: غضبت الى فلان من كذا و رغمت إليه (انتهى).

فالمعنى: و من يهاجر فى سبيل الله، أى طلبا لمرضاته فى التلبس بالدين علما عملا يجد فى الارض مواضع كثيره كلما منعه مانع فى بعضها من اقامه دين الله استراح الى بعض آخر

ص: ٧٤٥

بالمهجرة إليه لإرغام المانع و اسخاطه أو لمنازعته المانع و مساخطته، و يجد سعه فى الارض.

و قد قال تعالى فى سابق الآيات «أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً» ، و لازم التفریع علیه أن یقال:

و من یهاجر یجد فى الارض سعه الا أنه لما زید قوله «مُرَاعِمًا كَثِيرًا» و هو من لوازم سعه الارض لمن یرید سلوك سبیل الله قیدت المهاجرة أيضا بكونها فى سبیل الله لینطبق على الغرض من الكلام، و هو موعظه المؤمنین القاطنین فى دار الشرك و تهیجهم و تشجیعهم على المهاجرة و تطیب نفوسهم.

قوله تعالى: وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ السَّخِّ الْمُهَاجِرَةِ إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ كُنَايَةً عَنِ الْمُهَاجِرَةِ إِلَى أَرْضِ الْإِسْلَامِ الَّتِي يَتِمَكَّنُ فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَ سُنَّةِ رَسُولِهِ، وَ الْعَمَلِ بِهِ.

و ادراك الموت استعاره بالكنايه عن وقوعه أو مفاجأته فان الإدراك هو سعى اللاحق بالسير الى السابق ثم وصوله اليه، و كذا وقوع الأجر على الله استعاره بالكنايه عن لزوم الأجر و الثواب له تعالى و اخذه ذلك فى عهده، فهناك اجر جميل و ثواب جزيل سيوافى به العبد لا محاله، و الله سبحانه يوفيه بألوهيته التى لا يعزها شىء و لا يعجزها شىء و لا يمتنع عليها ما أرادته، و لا تخلف الميعاد. و ختم الكلام بقوله «وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا» تأكيداً للوعد الجميل بلزوم توفيه الأجر و الثواب (١)(٢).

[سورة النساء (٤): الآيات ١٠١ الى ١٠٤]

اشاره

وَ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا (١٠١) وَ إِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَ لْيَأْخُذُوا آسِيحتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَ لْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَ لْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ آسِيحتَهُمْ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَعَفَّلُونَ عَنْ آسِيحتِكُمْ وَ أَمْتَعْتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَهُ وَاحِدَةً وَ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرُوضَى أَنْ تَصَّعُوا آسِيحتِكُمْ وَ خُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٠٢) فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ فِيمَا وَ قَعُودًا وَ عَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (١٠٣) وَ لَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَ تَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٠٤)

ص: ٧٤٦

١-١) .بحث فى: اقامه المؤمنین فى دار الايمان و دار الشرك، الهجرة الى دار الايمان.

٢-٢) .النساء ٩٥-١٠٠: بحث روائى فى: المنافقين؛ الهجرة الى دار الايمان؛ المستضعفين.

بيان:

قوله تعالى: **وَ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ الْجِنَاحِ الْإِثْمِ وَ الْحَرَجِ وَ الْعُدُولِ، وَ الْقَصْرِ النِّقْصِ** من الصلاة، قال في المجمع: في قصر الصلاة ثلاث لغات: قصرت الصلاة أقصرها و هي لغه القرآن، و قصرتها تقصيرا، أقصرتها أقصارا.

ص: ٧٤٧

و المعنى: اذا سافرتم فلا مانع من حرج و اثم ان تنقصوا شيئا من الصلاة، و نفى الجناح الظاهر وحده في الجواز لا ينافي وروده في السياق للوجوب كما في قوله تعالى: إِنَّ الصَّفَا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا (البقره ١٥٨/١) مع كون الطواف واجبا، و ذلك ان المقام مقام التشريع، و يكفى فيه مجرد الكشف عن جعل الحكم من غير حاجه الى استيفاء جميع جهات الحكم و خصوصياته، و نظير الآيه بوجه قوله تعالى: وَ أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ (البقره ١٨٤/١).

قوله تعالى: إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا، الفتنه و ان كانت ذات معان كثيره مختلفه لكن المعهود من اطلاقها في القرآن في خصوص الكفار و المشركين التعذيب من قتل أو ضرب و نحوهما، و قرائن الكلام أيضا تؤيد ذلك فالمعنى: ان خفتم ان يعذبوكم بالحمله و القتل.

و الجمله قيد لقوله «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ»، و تفيد ان بدء تشريع القصر في الصلاة انما كان عند خوف الفتنه، و لا ينافي ذلك ان يعم التشريع ثانيا جميع صور السفر الشرعى و ان لم يجمع الخوف فإنما الكتاب بين قسما منه، و السنه بينت شموله لجميع الصور كما سيأتى في الروايات.

قوله تعالى: وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ - الى قوله - وَ لِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ الآيه؛ تذكر كيفيه صلاه الخوف، و توجه الخطاب الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بفرضه اماما في صلاه الخوف، و هذا من قبيل البيان بإيراد المثال ليكون أوضح في عين أنه اوجز و اجمل.

فالمراد بقوله: فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ هو الصلاه جماعه، و المراد بقوله «فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ» قيامهم في الصلاه مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بنحو الايتمام، و هم المأمورون بأخذ الأسلحه، و المراد بقوله «فَإِذَا سَجَدُوا» الخ؛ اذا سجدوا و اتموا الصلاه ليكون هؤلاء بعد اتمام سجدتهم من وراء القوم، و كذا المراد بقوله «وَ لِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ» ان تأخذ الطائفه الثانيه

المصلي مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حذرهم و اسلحتهم.

و المعنى-الله اعلم:-و اذا كنت انت يا رسول الله فيهم و الحال حال الخوف فأقمت لهم الصلاة اى صليتهم جماعه فأممتهم فيها،فلا يدخلوا فى الصلاة جميعا بل لتقم طائفه منهم معك بالاقتراء بك و ليأخذوا معهم اسلحتهم،و من المعلوم ان الطائفه الاخرى يحرسونهم و امتعتهم فاذا سجد المصلون معك و فرغوا من الصلاة فليكونوا وراءكم يحرسونكم و الأمتعه و لتأت طائفه اخرى لم يصلوا فليصلوا معك،و ليأخذ هؤلاء المصلون ايضا كالتائفه الاولى المصليه حذرهم و اسلحتهم.

و توصيف الطائفه بالأخرى،و ارجاع ضمير الجمع المذكور إليها رعايه تاره لجانب اللفظ و اخرى لجانب المعنى،كما قيل.و فى قوله تعالى: «وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَّهُمْ» نوع من الاستعاره لطيف،و هو جعل الحذر آله للدفاع نظير السلاح حيث نسب اليه الأخذ الذى نسب الى الأسلحه،كما قيل.

قوله تعالى: وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ -الى قوله- وَأَحَدَهُ فِي مَقَامِ التَّعْلِيلِ لِلْحَكْمِ الْمَشْرَعِ،و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِلَىٰ آخِرِ آيَةٍ.تخفيف آخر و هو انهم ان كانوا يتأذون من مطر ينزل عليهم أو كان بعضهم مرضى فلا مانع من ان يضعوا اسلحتهم لكن يجب عليهم مع ذلك ان يأخذوا حذرهم،و لا يغفلوا عن الذين كفروا فهم مهتمون بهم.

قوله تعالى: فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ فِي مَآءٍ وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمُ الْقِيَامِ وَالْقُعُودِ جَمْعَانِ أَوْ مُصَدَّرَانِ،و هما حالان و كذا قوله «وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ» و هو كناية عن الذكر المستمر المستوعب لجميع الأحوال.

قوله تعالى: فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ الخ؛المراد بالاطمئنان الاستقرار، و حيث قوبل به قوله «وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ» ،على ما يؤيده السياق كان الظاهر أن المراد به

الرجع الى الأوطان، على هذا فالمراد بإقامه الصلاة إتمامها فإن التعبير عن صلاة الخوف بالقصر من الصلاة يلوح الى ذلك.

قوله تعالى: إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا الْكِتَابَةَ كُنَايَةً عَنِ الْفَرْضِ وَالْإِجَابِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ (البقره ١٨٣) وَالْمَوْقُوتُ مِنْ وَقْتٍ كَذَا أَيْ جَعَلَتْ لَهُ وَقْتًا فَظَاهَرَ اللَّفْظُ أَنَّ الصَّلَاةَ فَرِيضَةٌ مَوْقُوتَةٌ مِنْجُمَةٌ تُوَدَى فِي أَوْقَاتِهَا وَنَجْمٌ مِثْلُهَا.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْوَقْتَ فِي الصَّلَاةِ كُنَايَةٌ عَنِ الثَّبَاتِ وَعَدَمِ التَّغْيِيرِ بِاطِّلاقِ الْمَلْزُومِ عَلَى لَازِمِهِ فَالْمُرَادُ بِكُونِهَا كِتَابًا مَوْقُوتًا أَنَّهَا مَفْرُوضَةٌ ثَابِتَةٌ غَيْرٌ مُتَغْيِرَةٌ أَصْلًا فَالصَّلَاةُ لَا تَسْقُطُ بِحَالٍ، وَذَلِكَ أَنَّ إِبْقَاءَ لَفْظِ الْمَوْقُوتِ عَلَى بَادِي ظَهْرِهِ لَا يَلَائِمُ مَا سَبَقَهُ مِنَ الْمَضْمُونِ إِذْ لَا حَاجَةَ تَمَسُّ إِلَى التَّعَرُّضِ لِكُونِ الصَّلَاةِ عِبَادَةً ذَاتَ أَوْقَاتٍ مَعِينَةٍ مَعَ أَنَّ قَوْلَهُ «إِنَّ الصَّلَاةَ»، فِي مَقَامِ التَّعْلِيلِ لِقَوْلِهِ «فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ» فَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِكُونِهَا مَوْقُوتَةً كُونُهَا ثَابِتَةٌ لَا تَسْقُطُ بِحَالٍ، وَلَا تَتَغَيَّرُ وَلَا تَتَبَدَّلُ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ كَالصَّوْمِ إِلَى الْفَدْيَةِ مِثْلًا.

قوله تعالى: وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ، الْوَهْنُ الضَّعْفُ، وَالْإِبْتِغَاءُ الطَّلَبُ، وَالْأَلَمُ مَقَابِلُ اللَّذَّةِ، وَقَوْلُهُ «وَتَزُجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَزُجُونَ» حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ الْجَمْعِ الْغَائِبِ، وَالْمَعْنَى:

أَنَّ حَالَ الْفَرِيقَيْنِ فِي أَنْ كَلَا مِنْهُمَا يَأْلَمُ وَاحِدًا، فَلَسْتُمْ أَسْوَأَ حَالًا مِنْ أَعْدَائِكُمْ، بَلْ أَنْتُمْ أَرْفَعُهُمْ وَأَسْعَدُ حَيْثُ أَنْ لَكُمْ رَجَاءُ الْفَتْحِ وَالظَّفَرِ وَالْمَغْفَرَةِ مِنْ رَبِّكُمْ الَّذِي هُوَ وَلِيُّكُمْ، وَأَمَّا أَعْدَائِكُمْ فَلَا مَوْلَى لَهُمْ وَلَا رَجَاءَ لَهُمْ مِنْ جَانِبِ يَطِيبُ نَفْسَهُمْ، وَيُنَشِّطُهُمْ فِي عَمَلِهِمْ. وَيُسَوِّقُهُمْ إِلَى مَبْتَغَاهُمْ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا بِالصَّالِحِ، حَكِيمًا مُتَقِنًا فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ (١).

ص: ٧٥٠

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٦) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ أَنفُسِهِمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا (١٠٩) وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا (١١٠) وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبْهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَزِمْ بِهٖ بَرِيئًا فَقَدْ اخْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (١١٢) وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضَمُّوكَ وَبِأَيِّ يُضَمُّونَ إِلَّا- أَنفُسِهِمْ وَمَا يُضَرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا- مَنْ أَمَرَ بِصِدْقِهِ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤) وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُضَلِّهِ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١١٦) إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَأَمْرَنَّهُمْ فَلَيْتَكُنَّ آذَانُ الْأَنْعَامِ وَلَا مَعْرَفَهُمْ فَلَيَغْتِرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرًا مُّبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠) أُولَٰئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (١٢٢) لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا (١٢٦)

قوله تعالى: **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ لِنُحَكِّمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ظَاهِرَ الْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ هُوَ الْقَضَاءُ بَيْنَهُمْ فِي** **مَخَاصِمَاتِهِمْ وَ مَنَازِعَاتِهِمْ مِمَّا يَرْجِعُ إِلَى الْأُمُورِ الْقَضَائِيَّةِ وَ رَفْعِ الْاِخْتِلَافَاتِ بِالْحُكْمِ، وَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْحُكْمَ بَيْنَ النَّاسِ غَايَةَ** **لِإِنزَالِ الْكِتَابِ فَيَنْطَبِقُ مِضمون الآيه على ما يتضمَّنه قوله تعالى: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ أَنْزَلَ** **مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ) (البقره ٢١٣/)** و قد مرَّ تفصيل القول فيه.

فهذه الآيه **(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ لِنُحَكِّمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ظَاهِرَ الْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ هُوَ الْقَضَاءُ بَيْنَهُمْ فِي** **مَخَاصِمَاتِهِمْ وَ مَنَازِعَاتِهِمْ مِمَّا يَرْجِعُ إِلَى الْأُمُورِ الْقَضَائِيَّةِ وَ رَفْعِ الْاِخْتِلَافَاتِ بِالْحُكْمِ، وَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْحُكْمَ بَيْنَ النَّاسِ غَايَةَ** **لِإِنزَالِ الْكِتَابِ فَيَنْطَبِقُ مِضمون الآيه على ما يتضمَّنه قوله تعالى: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ أَنْزَلَ** **مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ) (البقره ٢١٣/)** في عمومها، و تزيد عليها في أنها تدلُّ على جعل حق الحكم لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ الْحُجِّيَّةَ لِرَأْيِهِ وَ نَظَرَهُ فِي الْحُكْمِ وَ هُوَ الْقَطْعُ فِي الْقَضَاءِ وَ فَصْلُ الْخِصْمِ لَا يَنْفَكُ عَنْ أَعْمَالِ نَظَرٍ مِنَ الْقَاضِي الْحَاكِمِ وَ أَظْهَرَ عَقِيدَتَهُ مِنْهُ مِضافاً إلى ما عنده من العلم بالأحكام العامَّةِ وَ الْقَوَانِينِ الْكَلِيَّةِ فِي مَوَارِدِ الْخِصْمِ فَإِنَّ الْعِلْمَ بِكَلِيَّاتِ الْأَحْكَامِ وَ حَقُوقِ النَّاسِ أَمْرٌ، وَ الْقَطْعُ

و الحكم بانطباق مورد النزاع على بعضها دون بعض أمر آخر.

فالمراد بالإراءه فى قوله «لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ» إيجاد الرأى و تعريف الحكم لا تعليم الأحكام و الشرائع كما احتمله بعضهم.

و مضمون الآيه على ما يعطيه السياق أن الله أنزل إليك الكتاب و علمك أحكامه و شرائعه و حكمه لتضيف إليها ما أوجد لك من الرأى و عرّفك من الحكم فتحكم بين الناس، و ترفع بذلك اختلافاتهم.

قوله تعالى: «وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً» عطف على ما تقدّمه من الجملة الخبرية لكونها فى معنى الإنشاء كأنه قيل: فاحكم بينهم و لا تكن للخائنين خصيماً. و الخصيم هو الذى يدافع عن الدعوى و ما فى حكمها، و فيه نهيه صلى الله عليه و آله و سلم عن أن يكون خصيماً للخائنين على من يطالبهم بحقوقه فيدافع عن الخائنين و يبطل حقوق المحقّين من أهل الدعوى.

و ربما أمكن أن يستفاد من عطف قوله «وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ» على ما تقدمه و هو أمره صلى الله عليه و آله و سلم أمراً مطلقاً بالحكم أنّ المراد بالخيانة مطلق التعدى على حقوق الغير ممن لا- ينبغى منه ذلك لا- خصوص الخيانة للودائع و إن كان ربما عطف الخاص على العام لعنايه ما بشأنه لكن المورد كالحالى عن العنايه، و سيجىء لهذا الكلام تتمه.

قوله تعالى: «وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً الظاهر أن الاستغفار هاهنا هو أن يطلب من الله سبحانه الستر على ما فى طبع الإنسان من إمكان هضم الحقوق و الميل الى الهوى و مغفره ذلك، و قد مر مرارا أن العفو و المغفره يستعملان فى كلامه تعالى فى شئون مختلفه يجمعها جامع الذنب، و هو التباعد من الحق بوجه. فالمعنى- و الله أعلم-: و لا تكن للخائنين خصيماً و لا تمل إليهم، و اطلب من الله سبحانه أن يوفّقك لذلك و يستر على نفسك أن تميل الى الدفاع عن خيانتهم و يتسلط عليك هوى النفس. و الدليل على إرادته ذلك ما فى ذيل الآيات الكريمه «وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضَمُّوكَ وَ

يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ» فَإِنَّ الْآيَةَ تَنْصَحُ عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَضُرُّونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَإِنْ بَدَلُوا غَايَةَ جَهْدِهِمْ فِي تَحْرِيكِكَ عَوَاطِفَهُ إِلَى إِشَارِ الْبَاطِلِ وَإِظْهَارِهِ عَلَى الْحَقِّ فَالْنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي أَمْنٍ إِلَهِيٍّ مِنَ الضَّرْرِ، وَاللَّهُ يَعِصِمُهُ فَهُوَ لَا- يَجُورُ فِي حُكْمِهِ وَلَا يَمِيلُ إِلَى الْجُورِ، وَلَا يَتَّبِعُ الْهَوَى، وَمِنَ الْجُورِ وَالْمِيلُ إِلَى الْهَوَى الْمَذْمُومُ أَنْ يَفْرُقَ فِي حُكْمِهِ بَيْنَ قَوِيٍّ وَضَعِيفٍ، أَوْ صَدِيقٍ وَعَدُوٍّ، أَوْ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ ذَمِيٍّ، أَوْ قَرِيبٍ وَبَعِيدٍ، فَامْرَهُ بِأَنْ يَسْتَغْفِرَ لَيْسَ لِمَنْ يَصُدُّورُ ذَنْبٍ ذِي وَبَالٍ وَتَبِعَهُ مِنْهُ، وَلَا- لِإِشْرَافِهِ عَلَى مَا لَا- يَحْمَدُ مِنْهُ بَلْ لِيَسْأَلَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَظْهَرَ عَلَى هَوَى النَّفْسِ، وَلَا رَيْبَ فِي حَاجَتِهِ فِي ذَلِكَ إِلَى رَبِّهِ وَعَدَمِ اسْتِغْنَائِهِ عَنْهُ وَإِنْ كَانَ عَلَى عِصْمَتِهِ، فَإِنَّ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاءُ.

وَهَذِهِ الْعِصْمَةُ مِدَارُ عَمَلِهَا مَا يَعِدُ طَاعَهُ وَمَعْصِيَهُ، وَمَا يَحْمَدُ أَوْ يَذْمُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَعْمَالِ لَا مَا هُوَ الْوَاقِعُ الْخَارِجِيُّ، وَبِعِبَارِهِ أُخْرَى الْآيَاتُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي أَمْنٍ مِنْ اتِّبَاعِ الْهَوَى، وَالْمِيلِ إِلَى الْبَاطِلِ، وَأَمَّا أَنْ الَّذِي يَحْكُمُ وَيَقْضِي بِهِ بِمَا شَرَعَهُ مِنَ الْقَوَاعِدِ وَقَوَانِينِ الْقَضَاءِ الظَّاهِرِيهِ كَقَوْلِهِ «الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدْعَى وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ» وَنَحْوِ ذَلِكَ يَصَادَفُ دَائِمًا مَا هُوَ الْحَقُّ فِي الْوَاقِعِ فَيَنْتِجُ دَائِمًا غَلْبَهُ الْمَحْقُوقِ، وَمَغْلُوبِيَهُ الْمَبْطُلِ فِي دَعْوَاهِ، فَالْآيَاتُ لَا- تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَصْلًا، وَلَا- أَنْ الْقَوَانِينِ الظَّاهِرِيهِ فِي اسْتِطَاعَتِهَا أَنْ تَهْدِيَ إِلَى ذَلِكَ قَطْعًا فَإِنَّهَا أَمَارَاتٌ مُمَيِّزَةٌ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ غَالِبًا لَا دَائِمًا، وَلَا مَعْنَى لاسْتِئْزَامِ الْغَالِبِ الدَّائِمِ وَهُوَ ظَاهِرٌ.

وَمِمَّا تَقْدِمُ يَظْهَرُ مَا فِي كَلَامِ بَعْضِ الْمُفَسِّرِينَ حَيْثُ ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى «وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ»[□]، أَنَّهُ أَمْرٌ بِالِاسْتِغْفَارِ عَمَّا هَمَّ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنَ الدَّفَاعِ وَالذَّبِّ عَنِ هَذَا الْخَائِنِ الْمَذْكُورِ فِي الْآيَةِ، وَقَدْ سَأَلَهُ قَوْمُهُ أَنْ يَدْفَعُ عَنْهُ وَيَكُونَ خَصِيمًا لَهُ عَلَى يَهُودِيٍّ. وَذَلِكَ أَنَّ هَذَا الْقَدْرَ أَيْضًا تَأْثِيرٌ مِنْهُمْ بِأَثَرِ مَذْمُومٍ، وَقَدْ نَفَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كُلَّ ضَرَرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ»[□]، قِيلَ: إِنْ نَسَبَهُ الْخِيَانَةَ إِلَى النَّفْسِ لِكُونَ وَبِالْهَا رَاجِعًا إِلَيْهَا، أَوْ بَعْدَ كُلِّ مَعْصِيَةٍ خِيَانَتِهِ لِلنَّفْسِ كَمَا عَدَّ ظَلَمًا لَهَا، وَقَدْ قَالَ

تعالى: عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ (البقره ١٨٧).

و يمكن أن يستفاد من الآيه بمعونه ما يدل عليه القرآن من أن المؤمنين كنفس واحده، و أن مال الواحد منهم مال لجميعهم يجب على الجميع حفظه و صونه عن الضيعه و التلف، كون تعدى بعضهم على بعض بسرقة و نحوها اختيانا لأنفسهم.

و فى قوله تعالى «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا» دلالة على استمرار هؤلاء الخائنين فى خيانتهم، و يؤكد قوله «أَثِيمًا» فإن الأ-ثيم أكد فى المعنى من الآ-ثم و هو صفه مشبهه تدل على الثبوت. على أن قوله «يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ» لا- تخلو عن دلالة على الاستمرار، و كذا قوله «لِلْخَائِنِينَ» حيث عبر بالوصف و لم يعبر بمثل قولنا: للذين خانوا، كما عبر بذلك فى قوله:

فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ (الأنفال ٧١).

فمن هذه القرائن و أمثاله يظهر أن معنى الآيه-بالنظر الى مورد النزول-: و لا تكن خصيما لهؤلاء، و لا تجادل عنهم فإنهم مصرون على الخيانه مبالغون فيها ثابتون على الإثم، و الله لا يحب من كان خَوَّانًا أَثِيمًا. و هذا يؤيد ما ورد فى أسباب النزول من نزول الآيات فى أبى طعمه بن الابرقت. كما سيجىء.

و معنى الآيه-مع قطع النظر عن المورد-: و لا- تدافع فى قضائك عن المصرين على الخيانه المستمرين عليها، فإن الله لا يحب الخوان الأ-ثيم، و كما انه تعالى لا- يحب كثير الخيانه لا يحب قليلها، و لو أمكن أن يحب قليلها أمكن أن يحب كثيرها، و اذا كان كذلك فالله ينهى أن يدافع عن قليل الخيانه كما ينهى عن أن يدافع عن كثيرها، و أما من خان فى أمر ثم نازع فى أمر آخر و هو محق فى نزاعه، فالدفاع عنه دفاع غير محذور و لا ممنوع منه، و لا ينهى عنه قوله: وَ لَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (الآيه).

قوله تعالى: يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَ لَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ، و هذا ايضا من الشواهد على ما قدمناه من الآيات (١٠٥-١٢٦) جميعا ذات سياق واحد، نازله فى قصه

واحد، وهي التي يشير إليها قوله «وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَزِمَ بِهِ بَرِيئًا» (الآية)؛ وذلك ان الاستخفاء انما يناسب الأعمال التي يمكن ان يرمى بها الغير كالسرقه و امثال ذلك فيتأيد به ان الذي تشير اليه هذه الآية و ما تقدمها من الآيات هو الذي يشير اليه قوله «وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَزِمَ بِهِ» (الآية).

و الاستخفاء من الله أمر غير مقدور اذ لا يخف على الله شيء في الأرض و لا في السماء فطرفه المقابل له أعنى عدم الاستخفاء أيضا أمر اضطرارى غير مقدور، و اذا كان غير مقدور لم يتعلق به لوم و لا- تعبير كما هو ظاهر الآية. لكن الظاهر أن الاستخفاء كناية عن الاستحياء و لذلك قيد قوله «وَلَا يَسْتَتَخِفُونَ مِنَ اللَّهِ» (أولا) بقوله «وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ» فدل على أنهم كانوا يدبرون الحيله ليلا- للتبري من هذه الخيانه المذمومه، و يبيتون في ذلك قولا- لا- يرضى به الله سبحانه، ثم قيده (ثانيا) بقوله «وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا» و دل على إحاطته تعالى بهم في جميع الأحوال و منها حال الجرم الذي أجرموه، و التقييد بهذين القيدين أعنى قوله «وَهُوَ مَعَهُمْ»، و قوله «وَكَانَ اللَّهُ»، تقييد بالعام بعد الخاص، و هو في الحقيقة تعلييل لعدم استخفائهم من الله بعله خاصه ثم باخرى عامه.

قوله تعالى: هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (الآية)؛ بيان لعدم الجدوى في الجدل عنهم، و أنهم لا ينتفعون بذلك في صوره الاستفهام و المراد أن الجدل عنهم لو نفعهم فإنما ينفعهم في الحياه الدنيا، و لا قدر لها عند الله، و أما الحياه الاخرويه التي لها عظيم القدر عند الله أو ظرف الدفاع فيها يوم القيامة فلا مدافع هناك عن الخائنين و لا مجادل عنهم بل لا وكيل لهم يومئذ يتكفل تدبير امورهم و إصلاح شئونهم.

قوله تعالى: وَ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ (الآية)؛ في ترغيب و حث لأولئك الخائنين أن يرجعوا الى ربهم بالاستغفار، و الظاهر أن التريديد بين السوء و ظلم النفس، و التدرج من السوء الى الظلم لكون المراد بالسوء التعدي على الغير، و بالظلم

التعدى على النفس، أو أن السوء أهون من الظلم كالمعصيه الصغيره بالنسبه الى الكبيره، و الله أعلم.

و هذه الآيه و الآيتان بعدها جميعا كلام مسوق لغرض واحد، و هو بيان أمر الإثم الذى يكسبه الإنسان بعمله، يتكفل كل واحده من الآيات الثلاث بيان جهه من جهاته، فالآيه الاولى تبين أن المعصيه التى يقترفها الانسان فيتأثر بتبعاتها نفسه، و تكتب فى كتاب أعماله، للعبد أن يتوب الى الله منها و يستغفره فلو فعل ذلك وجد الله عفورا رحيمًا.

و الآيه الثانيه تذكر الانسان أن الإثم الذى يكسبه إنما يكسبه على نفسه و ليس بالذى يمكن أن يتخطاه و يلحق غيره برمى أو افتراء و نحو ذلك.

و الآيه الثالثه توضح أن الخطيئه أو الاثم الذى يكسبه الانسان لو رمى به بريئا غيره كان الرمى به إثما آخر وراء أصل الخطيئه أو الاثم.

قوله تعالى: وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّهُ يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا قد تقدم أن الآيه مرتبطه مضمونا بالآيه التاليه المتعرضه للرمى بالخطيئه و الاثم فهذه كالمقدمه لتلك، و على هذا فقوله «فَإِثْمًا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ» مسوق لقصر التعيين، و فى الآيه عظه لمن يكسب الإثم ثم يرمى به بريئا غيره. و المعنى -و الله أعلم-: أنه يجب على من يكسب إثما أن يتذكر أن ما يكسبه من الإثم فإنما يكسبه على نفسه لا على غيره، و أنه هو الذى فعله لا غيره و إن رماه به أو تعهد له من أن يحمل إثمه و كان الله عليما يعلم أنه فعل هذا الكاسب، و أنه الذى فعله لا غيره المرمى به، حكيما لا يؤاخذ بالإثم إلا آثمه، و بالوزر غير وازرتها كما قال تعالى: لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ عَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ (البقره ٢٨٦)، و قال وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (الأنعام ١٦٤)، و قال: وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَ لْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَ مَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (العنكبوت ١٢).

قوله تعالى: وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا، قال الراغب في المفردات: إن من أراد شيئاً فاتفق منه غيره يقال:

أخطأ و إن وقع منه كما أراده يقال: أصاب، و قد يقال لمن فعل فعلاً لا يحسن أو أراد إرادته لا تجمل: إنه أخطأ. و لهذا يقال: أصاب الخطأ، و أخطأ الصواب، و أصاب الصواب، و أخطأ الخطأ. و هذه اللفظه مشتركة كما ترى، مترددة بين معان يجب لمن يتحرى الحقائق أن يتأملها.

قال: و الخطيئة و السيئة تتقاربان لكن الخطيئة أكثر ما تقال فيما لا يكون مقصوداً إليه في نفسه بل يكون القصد سبباً لتولد ذلك الفعل منه كمن يرمى صيداً فأصاب إنساناً، أو شرب مسكراً فجنى جنايته في سكره، و السبب سببان: سبب محذور فعله كشراب المسكر و ما يتولد عنه من الخطأ غير متجاف عنه، و سبب غير محذور كرمى الصيد، قال تعالى: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَ قَالَ تَعَالَى «وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا» فالخطيئة هاهنا هي التي لا تكون عن قصد إلى فعلها (انتهى).

و أظن أن الخطيئة من الأوصاف التي استغنى عن موصوفاتها بكثرة الاستعمال كالمصيبة و الرزية و السليقة و نحوها، و وزن فعيل يدل على اختزان الحدث و استقراره، فالخطيئة هي العمل الذي اخترن و استقر فيه الخطأ، و الخطأ الفعل الواقع الذي لا يقصده الإنسان كقتل الخطأ، هذا في الأصل، ثم وسع إلى ما لا ينبغي للإنسان أن يقصده لو كانت نفسه على سلامتها الفطرية، فكل معصية و أثر معصية من مصاديق الخطأ على هذا التوسع، و الخطيئة هي العمل أو أثر العمل الذي لم يقصده الإنسان (و لا يعد حينئذ معصية) أو لم يكن ينبغي أن يقصده (و يعد حينئذ معصية أو وبال معصية).

و لكن الله سبحانه لما نسبها في قوله «وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً» إلى الكسب كان المراد بها الخطيئة التي هي المعصية، فالمراد بالخطيئة في الآية هي التي تكون عن قصد إلى فعلها و إن كان

من شأنها أن لا يقصد إليها.

وقوله تعالى: **وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ** (الى آخر الآية)؛ السياق يدل على أن المراد بهمهم بإضلال النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو همهم أن يرضوه بالدفاع عن الذين سماهم الله تعالى في صدر الآيات بالخائنين و الجدال عنهم و على هذا فالمراد بهذه الطائفة أيضا هم الذين عدل الله سبحانه الى خطابهم بقوله **«هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»** (الآية)؛ و ينطبق على قوم أبى طعمه على ما سيجيء.

و أما قوله **«وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ»** فالمراد به بقرينه قوله بعده **«وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ»**، أن إضلال هؤلاء لا يتعدى أنفسهم و لا يتجاوزهم إليك، فهم الضالون بما هموا لأنه معصيه و كل معصيه ضلال.

و لهذا الكلام معنى آخر تقدمت الإشارة إليه في الكلام على قوله: **«وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ»** (آل عمران ٦٩) في الجزء الثالث من هذا الكتاب، لكنه لا يناسب هذا المقام.

و أما قوله **«وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ»** **وَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ**، ففيه نفى إضرارهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم نفيا مطلقا غير أن ظاهر السياق أنه مقيد بقوله **«وَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ»**، على ان يكون جملة حاله عن الضمير في قوله **«يَضُرُّونَكَ»** و إن كان الأغلّب مقارنة الجملة الفعلية المصدره بالماضى بقى على ما ذكره النحاه، و على هذا فالكلام مسوق لنفى إضرار الناس مطلقا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم فى علم أو عمل.

قوله تعالى: **وَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ**، ظاهر الكلام كما أشرنا إليه انه فى مقام التعليل لقوله **«وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ»** أو لمجموع قوله **«وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ مَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ»** و كيف كان فهذا الإنزال

والتعليم هو المانع من تأثيرهم في إضلاله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فهو الملاك في عصمته (١).

قوله تعالى: وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا امتنان على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

قوله تعالى: لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصِدْقِهِ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ قَالَ الرَّاعِبِيُّ: وَنَاجِيَتُهُ أَيْ سَارِرَتُهُ وَأَصْلُهُ أَنْ تَخْلُوَ بِهِ فِي نَجْوَاهُ مِنَ الْأَرْضِ (انتهى) فالنجوى المساره في الحديث، وربما أطلق على نفس المتناجين قال تعالى:

وَإِذْ هُمْ نَجْوَى (الاسراء ٤٧) أى متناجون.

و في الكلام أعنى قوله «لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ» عود الى ما تقدم من قوله تعالى: إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ (الآية)؛ بناء على اتصال الآيات و قد عمم البيان لمطلق المساره في القول سواء كان ذلك بطريق التبييت أو بغيره لأن الحكم المذكور و هو انتفاء الخير فيه إنما هو لمطلق المساره و إن لم تكن على نحو التبييت، و نظيره قوله «وَمَنْ يُشَاقِقِ» ،دون أن يقول: و من ينج للمشاقه، لأن الحكم المذكور لمطلق المشاقه أعم من أن يكون نجوى أولاً.

و ظاهر الاستثناء أنه منقطع، و المعنى: لكن من أمر بكذا و كذا فيه ففيما أمر به شيء من الخير، و قد سمي دعوه النجوى الى الخير أمراً و ذلك من قبيل الاستعاره، و قد عد تعالى هذا الخير الذي يأمر به النجوى ثلاثه: الصدقه، و المعروف، و الاصلاح بين الناس. و لعل أفراد الصدقه عن المعروف مع كونها من أفرادها لكونها الفرد الكامل في الاحتياج الى النجوى بالطبع، و هو كذلك غالباً.

قوله تعالى: وَ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ، تفصيل لحال النجوى بيان آخر من حيث التبعه من المثوبه و العقوبه ليتبين به وجه الخير فيما هو خير من النجوى، و عدم

ص: ٧٤١

و محصّيه أن فاعل النجوى على قسمين: (أحدهما) من يفعل ذلك ابتغاء مرضاه الله، ولا محاله ينطبق على ما يدعو الى معروف أو إصلاح بين الناس تقرباً الى الله، وسوف يشبهه الله سبحانه بعظيم الأجر، و(ثانيهما) أن يفعل ذلك لمشاقه الرسول و اتخاذ طريق غير طريق المؤمنين و سبيلهم، و جزاؤه الإملاء و الاستدراج الإلهي ثم إصلاء جهنم و ساءت مصيراً.

قوله تعالى: وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، المشاقه من الشق و هو القطعه المبانه من الشىء فالمشاقه و الشقاق كونك فى شق غير شق صاحبك، و هو كناية عن المخالفه، فالمراد بمشاقه الرسول بعد تبين الهدى مخالفته و عدم إطاعته، و على هذا فقله «وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ» بيان آخر لمشاقه الرسول، و المراد بسبيل المؤمنين إطاعه الرسول فإن طاعته طاعه الله، قال تعالى: مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ (النساء ٨٠).

فسبيل المؤمنين بما هم مجتمعون على الايمان هو الاجتماع على طاعه الله و رسوله- وإن شئت فقل على طاعه رسوله- فإن ذلك هو الحافظ لوحده سبيلهم كما قال تعالى: وَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ وَ أَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ وَ مَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَ لَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لَا تَفَرَّقُوا (آل عمران ١٠٣) و قد تقدّم الكلام فى الآيه فى الجزء الثالث من هذا الكتاب، و قال تعالى: وَ أَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَ لَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّأَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (الأنعام ١٥٣) و اذا كان سبيله سبيل التقوى، و المؤمنون هم المدعوون إليه فسبيلهم مجتمعين سبيل التعاون على التقوى كما قال تعالى:

وَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوَىٰ وَ لَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ (المائدة ٢) و الآيه- كما ترى- تنهى عن معصيه الله و شق عصا الاجتماع الاسلامى، و هو ما ذكرناه من معنى سبيل

فمعنى الآية أعنى قوله «وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ» ، يعود الى معنى قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبَرِّ وَالتَّقْوَىٰ (المجادله/٩).

وقوله «نُؤَلِّهِ مَا تَوَلَّى» ، أى نجره على ما جرى عليه، ونساعده على ما تلبس به من اتباع غير سبيل المؤمنين كما قال تعالى: كَلَّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (الإسراء/٢٠).

وقوله «وَنُضِلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا» عطفه بالواو يدل على أن الجميع أى توليته ما تولى و إصلاحه جهنم أمر واحد إلهى بعض أجزائه دنيوى و هو توليته ما تولى، وبعضها أخروى و هو إصلاحه جهنم و ساءت مصيرا.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ (الى آخر الآية)؛ ظاهر الآية أنها فى مقام التعليل لقوله فى الآية السابقة «نُؤَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَ نُضِلِّهِ جَهَنَّمَ» ،بناء على اتصال الآيات فالآية تدل على أن مشاقه الرسول شرك بالله العظيم، وإن الله لا يغفر أن يشرك به، وربما استفيد ذلك من قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ شَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَ سَيُحِيطُ أَعْمَالُهُمْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لَا تَبْغُلُوا أَعْمَالَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (محمد/٣٤) فإن ظاهر الآية الثالثة أنها تعليل لما فى الآية الثانية من الأمر بطاعه الله و طاعه رسوله فيكون الخروج عن طاعه الله و طاعه رسوله كفرا لا يغفر أبدا، و هو الشرك.

والمقام يعطى أن إلحاق قوله «وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» بقوله «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ» إنما هو لتتميم البيان، وإفاده عظمه هذه المعصية المشثومه أعنى مشاقه الرسول،

و قد تقدم بعض الكلام فى الآيه فى آخر الجزء الرابع من هذا الكتاب.

قوله تعالى: **إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا** الأناث جمع أنثى يقال: أنث الحديد أنثا أى انفعل و لان، و أنث المكان أسرع فى الانبات و جاد، ففيه معنى الانفعال و التأثر، و بذلك سميت الانثى من الحيوان أنثى و قد سميت الأصنام و كل معبود من دون الله إناثا لكونها قابلات منفعلات ليس فى وسعها أن تفعل شيئا مما يتوقعه عباده منها- كم قيل- قال تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَ لَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَ **إِنْ يَسْأَلُهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا** لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَ الْمَطْلُوبِ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ **إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** (الحج / ٧٤) و قال: **وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً** لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ وَ لَا يَمْلِكُونَ لِنَفْسِهِمْ ضَرًّا وَ لَا نَفْعًا وَ لَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَ لَا حَيَاةً وَ لَا نُشُورًا (الفرقان / ٣).

فالظاهر أن المراد بالانوثه الانفعال المحض الذى هو شأن المخلوق اذا قيس الى الخالق عز اسمه، و هذا الوجه أولى مما قيل: إن المراد هو اللات و العزى و منات الثالثه و نحوها، و قد كان لكل حى صنم يسمونه أنثى بنى فلان إما لتأنيث أسمائها أو لأنها كانت جمادات و الجمادات تؤنث فى اللفظ.

و وجه الأولويه أن ذلك لا يلائم الحصر الواقع فى قوله **«إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا»** كثير ملاءمه، و بين من يدعى من دون الله من هو ذكر غير أنثى كعيسى المسيح و برهما و بوذا.

قوله تعالى: **وَ إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا** المرید هو العارى من كل خير أو مطلق العارى، قال البيضاوى: المارد و المرید الذى لا يعلق بخير، و أصل التركيب للملامسه، و منه صرح ممرّد، و غلام أمرّد، و شجره مرداء للتى تناثر ورقها (انتهى).

و الظاهر أن الجملة بيان للجملة السابقه فإن الدعوه كناية عن العباده لكون العباده إنما نشأت بين الناس للدعوه على الحاجه، و قد سمى الله تعالى الطاعه عباده قال تعالى: **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ** إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَ أَنْ اعْبُدُونِي (يس /

٦١) فيؤول معنى الجملة الى أن عبادتهم لكل معبود من دون الله عباده و دعوه منهم للشيطان المرید لكونها طاعه له.

قوله تعالى: لَعَنَهُ اللَّهُ اللعن هو الابعاد عن الرحمه، و هو وصف ثان لشيطان و بمنزله التعليل للوصف الأول.

قوله تعالى: وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا كأنه إشاره الى ما حكاه الله تعالى عنه من قوله: فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (ص ٨٣) و فى قوله «مِنْ عِبَادِكَ» تقرير أنهم مع ذلك عباده لا ينسلخون عن هذا الشأن، و هو ربهم يحكم فيهم بما شاء.

قوله تعالى: وَ لَأُضِلَّنَّهُمْ وَ لَأَمْتِنَنَّهُمْ (الى آخر الآيه)؛ التبتيل هو الشق، و ينطبق على ما نقل: أن عرب الجاهليه كانت تشق آذان البحائر و السوائب لتحريم لحومها.

و هذه الامور المعدوده جميعها ضلال فذكر الاضلال معها من قبيل ذكر العام ثم ذكر بعض أفراده لعنايه خاصه به، يقول: لأضلنهم بالاشتغال بعباده غير الله و اقتراف المعاصي، و لأغرنهم بالاشتغال بالآمال و الأمانى التى تصرفهم عن الاشتغال بواجب شأنهم و ما يهتمهم من أمرهم، و لأمرنهم بشق آذان الأنعام و تحريم ما أحل الله سبحانه، و لأمرنهم بتغيير خلق الله و ينطبق على مثل الاخصاء و أنواع المثلثه و اللواط و السحق.

و ليس من البعيد أن يكون المراد بتغيير خلق الله الخروج عن حكم الفطره و ترك الدين الحنيف، قال تعالى: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ (الروم ٣٠).

ثم عد تعالى دعوه الشيطان و هى طاعته فيما يأمر به اتخاذا له و ليا فقال «وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرًا مُبِينًا» و لم يقل: و من يكن الشيطان له و ليا اشعارا بما تشعر به الآيات السابقه أن الولي هو الله، و لا و لايه لغيره على شىء و ان اتخذه و ليا.

قوله تعالى: يَعِدُّهُمْ وَيُؤْمِنُهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ظاهر السياق أنه تعليل لقوله في الآية السابقة «فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا» و أى خسران أبين من خسران من يبدل السعادة الحقيقية و كمال الخلقه بالمواعيد الكاذبه و الأمانى الموهومه، قال تعالى:

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَ وَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (النور ٣٩).

أما المواعيد فهى الوسوس الشيطانية بلا واسطه، و أما الأمانى فهى المتفرعه على وسوسه مما يستلذه الوهم من المتخيلات، و لذلك قال «وَ مَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا» فعد الوعد غرورا دون التمنيه على ما لا يخفى.

ثم بين عاقبه حالهم بقوله «أُولَئِكَ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ وَ لَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا» أى معدلا و مفر من «حاص» اذا عدل.

ثم ذكر ما يقابل حالهم و هو حال المؤمنين تتيما للبيان فقال تعالى «وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ» (الى آخر الآية) و فى الآيات التفات من سياق التكلم مع الغير الى الغيبه، و الوجه العام فيه الإيماء الى جلاله المقام و عظمته بوضع لفظ الجلاله موضع ضمير المتكلم مع الغير فيما يحتاج الى هذا الاشعار حتى اذا استوفى الغرض رجع الى سابق السياق الذى كان هو الاصل، و ذلك فى قوله «سَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ»، و فى ذلك نكته أخرى، و هى الإيماء الى قرب الحضور و عدم احتجابه تعالى عن عباده المؤمنين و هو وليهم.

قوله تعالى: وَغِيَدَ اللَّهُ حَقًّا وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا فيه مقابله لما ذكر فى وعد الشيطان أنه ليس إلا غرورا فكان وعد الله حقا، و قوله صدقا.

قوله تعالى: لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَ لَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ عود الى بدء الكلام و بمنزله النتيجة المحصله الملخصه من تفصيل الكلام، و ذلك أنه يتحصل من المحكى من أعمال بعض المؤمنين و أقوالهم، و إلحاحهم على النبى صلى الله عليه و آله و سلم أن يراعى جانبهم، و يعاضدهم

و يساعدهم على غيرهم فيما يقع بينهم من النزاع و المشاجره أنهم يرون أن لهم بإيمانهم كرامه على الله سبحانه و حقا على النبي صلى الله عليه و آله و سلم يجب به على الله و رسوله مراعاة جانبهم، و تغليب جهتهم على غيرهم على الحق كانوا أو على الباطل، عدلا كان الحكم أو ظلما على حد ما يراه أتباع أئمة الضلال، و حواشى رؤساء الجور و بطائنتهم و أذنانهم، فالواحد منهم يمتن على متبوعه و رئيسه فى عين أنه يخضع له و يطيعه، و يرى أن له عليه كرامه تلتزمه على مراعاة جانبه و تقديمه على غيره تحكما.

و كذا كان يراه أهل الكتاب على ما حكاه الله تعالى فى كتابه عنهم قال تعالى: **وَ قَالَتِ الْيَهُودُ وَ النَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ** (المائدة/١٨)، و قال تعالى: **وَ قَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا** (البقره/١٣٥)، و قال تعالى: **قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّينَ سَبِيلٌ** (آل عمران/٧٥).

فرد الله على هذه الطائفة من المؤمنين فى مزعمتهم، و أتبعهم بأهل الكتاب و سمى هذه المزاعم بالأمانى استعاره لأنها كالأمانى ليست إلا صورا خياليه ملذذه لا أثر لها فى الأعيان فقال: ليس بأمانىكم معاشر المسلمين أو معشر طائفه من المسلمين و لا بأمانى أهل الكتاب بل الأمر يدور مدار العمل إن خيرا فخير و إن شرا فشر، و قدّم ذكر السيئه على الحسنه لان عمدته خطئهم كانت فيها.

قوله تعالى: **مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَ لَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَ لَا نَصِيراً جِئَءَ فِي الْكَلَامِ** بالفصل من غير وصل لانه فى موضع الجواب عن سؤال مقدر، تقديره: اذا لم يكن الدخول فى حمى الاسلام و الايمان يجر للانسان كل خير، و يحفظ منافعه فى الحياه، و كذا اليهوديه و النصرانيه فما هو السبيل؟ و الى ما ذا ينجر حال الانسان؟ فقيل «مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَ لَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَ لَا نَصِيراً وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ» الخ.

وقوله «مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ» مطلق يشمل الجزاء الدنيوى الذى تقرره الشريعة الاسلاميه كالقصاص للجاني، و القطع للشارق، و الجلد أو الرجم للزانى الى غير ذلك من أحكام السياسات و غيرها و يشمل الجزاء الاخرى الذى أوعده الله تعالى فى كتابه، و بلسان نبيه.

و هذا التعميم هو المناسب لمورد الآيات الكريمة و المنطبق عليه، و قد ورد فى سبب النزول أن الآيات نزلت فى سرقة ارتكبتها بعض، و رمى بها يهوديا أو مسلما ثم أحووا على النبى صلى الله عليه و آله و سلم أن يقضى على المتهم.

وقوله «وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا» يشمل الولى و النصير فى صرف الجزاء السيئ عنه فى الدنيا كالنبى صلى الله عليه و آله و سلم أو ولى الأمر و كالتقرب منهما و كرامه الاسلام و الدين، فالجزاء المشرّع من عند الله لا يصرفه عن عامل السوء صارف، و يشمل الولى و النصير الصارف عنه سوء الجزاء فى الآخرة إلا ما تشمله الآيه التاليه.

قوله تعالى: «وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ فِيهَا شَيْئًا هَذَا هُوَ الشَّقِ الثَّانِي الْمَتَضَمِّنُ لِحُجَّتِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَهُوَ الْجَنَّةُ، غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ شَرَطَ فِيهِ شَرْطًا يَجِبُ تَضْيِيقًا فِي فِعْلِهِ الْجَزَاءِ وَ عَمَمَ فِيهِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى تَوْجِبُ السَّعَةَ.

فشرط فى المجازاه بالجنه أن يكون الآتى بالعمل الصالح مؤمنا اذ الجزاء الحسن إنما هو بإزاء العمل الصالح و لا- عمل للكافر، قال تعالى: «وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (الأنعام ٨٨/»، و قال تعالى: «أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا (الكهف ١٠٥/).

قال تعالى: «وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ» فأتى بمن التبعضيه، و هو توسعه فى الوعد بالجنه، و لو قيل: و من يعمل الصالحات- و المقام مقام الدقه فى الجزاء- أفاد أن الجنه لمن آمن

و عمل كل عمل صالح، لكن الفضل الإلهي عمم الجزء الحسن لمن آمن و أتى ببعض الصالحات فهو يتداركه فيما بقي من الصالحات أو اقترف من المعاصي بتوبه أو شفاعه كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ (النساء ١١٦) و قد تقدم تفصيل الكلام في التوبه و في قوله تعالى: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ (النساء ١٧) في الجزء الرابع، و في الشفاعه في قوله تعالى: وَ اتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا (البقره ٤٨) في الجزء الأول من هذا الكتاب.

و قال تعالى «مَنْ ذَكَرَ أَوْ أُذُنِي» فعمم الحكم للذكر و الانثى من غير فرق أصلا خلافا لما كانت تزعمه القدماء من أهل الملل و النحل كالهند و مصر و سائر الوثنيين أن النساء لا عمل لهن و لا ثواب لحسناتهن، و ما كان يظهر من اليهوديه و النصرانيه أن الكرامه و العزه للرجال، و أن النساء أذلاء عند الله نواقص في الخلقه خاسرات في الأجر و المثوبه، و العرب لا تعدو فيهن هذه العقائد فسوى الله تعالى بين القبيلين بقوله «مَنْ ذَكَرَ أَوْ أُذُنِي».

و لعل هذا هو السر في تعقيب قوله «فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ» بقوله «وَلَا يُظَلَّمُونَ نَقِيرًا» لتدل الجملة الأولى على أن النساء ذوات نصيب في المثوبه كالرجال، و الجملة الثانيه على أن لا فرق بينهما فيها من حيث الزيادة و النقصه كما قال تعالى: فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُذُنٍ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ (آل عمران ١٩٥).

قوله تعالى: وَ مَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُّحْسِنٌ (الى آخر الآيه) كأنه دفع لدخل مقدر، تقديره: أنه اذا لم يكن لإسلام المسلم أو لإيمان أهل الكتاب تأثير في جلب الخير إليه و حفظ منافعه و بالجملة اذا كان الإيمان بالله و آياته لا يعدل شيئا و يستوى وجوده و عدمه فما هو كرامه الاسلام؟ و ما هي مزيه الإيمان؟

فأجيب بأن كرامه الدين أمر لا يشوبه ريب، و لا يداخله شك و لا يخفى حسنه على ذى لبّ و هو قوله «وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا»، حيث قرر بالاستفهام على طريق إرسال المسلم فإن

قوله تعالى: وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ قَالَ الرَّاعِبُ:

الفتيا و الفتوى الجواب عمّا يشكل من الأحكام، و يقال: استفتيته فأفتاني بكذا (انتهى).

و المحصّل من موارد استعماله أنه جواب الانسان عن الامور المشكله بما يراه باجتهاد من نظره أو هو نفس ما يراه فيما يشكل بحسب النظر البدائي الساذج كما يفيدده نسبه الفتوى إليه تعالى.

و الآيه و ان احتملت معانى شتى مختلفه بالنظر الى ما ذكره من مختلف الوجوه فى تركيب ما يتولها من قوله «وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ» الخ؛ الا أن ضم الآيه الى الآيات الناضره فى أمر النساء فى أول السوره يشهد بأن هذه الآيه انما انزلت بعد تلك.

و لازم ذلك أن يكون استفتاءهم فى النساء فى عامّه ما أحدثه الاسلام و أبدعه من أحكامهنّ مما لم يكن معهودا معروفا عندهم فى الجاهليه، و ليس الا- ما يتعلق بحقوق النساء فى الارث و الازدواج دون أحكام يتامهن و غير ذلك مما يختص بطائفه منهن دون جميعهن فان هذا المعنى انما يتكفله قوله «وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ» الخ؛ فالاستفتاء إنما كان فى ما يعم النساء بما هن نساء من أحكام الارث.

و على هذا فالمراد بما أفتاه الله فيهن فى قوله «قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ» ما بينه تعالى فى آيات أول السوره، و يفيد الكلام حينئذ ارجاع أمر الفتوى الى الله سبحانه و صرفه عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم، و المعنى: يسألونك ان تفتيهم فى امرهن قل: الفتوى الى الله و قد أفتاكم فيهن بما افتى فيما انزل من آيات اول السوره.

قوله تعالى: «وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ» -الى قوله- «وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوُلْدَانِ تَقَدَّمَ أَنْ ظَاهَرَ السِّيَاقُ أَنَّ حَكْمَ يَتَامَى النِّسَاءِ

والمستضعفين من الولدان إنما تعرض له لآتصاله بحكم النساء كما وقع في آيات صدر السوره لا لكونه داخلا فيما استفتوا عنهن، وأنهم إنما استفتوا في النساء فحسب.

و لآزمه أن يكون قوله «وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ» معطوفا على الضمير المجرور في قوله «فِيهِنَّ» على ما جوزه الفراء و إن منع عنه جمهور النحاه، و على هذا يكون المرات من قوله «مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَأَمَىٰ السُّنَّاءِ» الخ؛ الأحكام و المعانى التى تتضمنها الآيات النازله فى يتامى النساء و الولدان، المودعه فى أول السوره. و التلاوه كما يطلق على اللفظ يطلق على المعنى اذا كان تحت اللفظ، و المعنى: قل الله يفتيكم فى الأحكام التى تتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء.

و أما قوله: «اللاتى لا تؤتونهن ما كتبت لهنّ و تزعبون أن تنكحوهنّ فوصف ليتامى النساء، و فيه إشاره الى نوع حرمانهنّ، الذى هو السبب لتشريع ما شرع الله تعالى لهن من الأحكام فألغى السنّه الجائره الجاربه عليهن، و رفع الحرج بذلك عنهن، و ذلك انهم كانوا يأخذون إليهم يتامى النساء و أموالهن فإن كانت ذات جمال و حسن تزوجوا بها فاستمتعوا من جمالها و مالها، و إن كانت شوهاء دميمه لم يتزوجوا بها و عضلوهما عن التزوج بالغير طمعا فى مالها.

و من هنا يظهر (أولا): أن المراد بقوله «مَا كُتِبَ لَهُنَّ» هو الكتابه التكوينيّه و هو التقدير الإلهى فإن الصنع و الإيجاد هو الذى يحد للإنسان سبيل الحياه فيعين له أن يتزوج اذا بلغ مبلغه، و أن يتصرف حرا فى ماله من المال و القنيه، فمنعه من الازدواج و التصرف فى مال نفسه منع له مما كتب الله له فى خلقه هذه الخلقه.

و (ثانيا): أن الجارّ المحذوف فى قوله «أَنْ تَنْكَحُوهُنَّ» هو لفظه «عن» و المراد الرغبه عن نكاحهن، و الإعراض عنهن لا الرغبه فى نكاحهن فإن التعرّض لذكر الرغبه عنهن هو الأنسب للإشاره الى حرمانهن على ما يدل عليه قوله قبله «لَا تُؤْتُوْنَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ» ، و قوله

بعده «وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوَالِدَانِ» .

و أما قوله: وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوَالِدَانِ فمعطوف على قوله «يَتَامَى النِّسَاءِ» وقد كانوا يستضعفون الولدان من اليتامى، و يحرمونهم من الإرث معتذرين بأنهم لا يركبون الخيل، و لا يدفعون عن الحریم.

قوله تعالى: وَ أَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ معطوف على محل قوله «فِيهِنَّ» و المعنى: قل الله يفتيكم أن تقوموا لليتامى بالقسط، و هذا بمنزله الإضراب عن الحكم الخاص الى ما هو أعم منه أعنى الانتقال من حكم بعض يتامى النساء و الولدان الى حكم مطلق اليتيم فى ماله و غير ماله.

قوله تعالى: وَ مَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا تذكره لهم بأن ما عزم الله عليهم فى النساء و فى اليتامى من الأحكام فيه خيرهم، و أن الله عليم به لتكون ترغيباً لهم فى العمل به لأن خيرهم فيه، و تحذيراً عن مخالفه لأن الله عليم بما يعملون.

قوله تعالى: وَ إِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَغْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا، حكم خارج عما استفتوا فيه لكنه متّصل به بالمناسبه نظير الحكم المذكور فى الآيه التاليه «وَ لَنْ تَشْتَطِبُوهَا أَنْ تَعْدِلُوا» .

و إنما اعتبر خوف النشوز و الإعراض دون نفس تحققهما لأن الصلح يتحقق موضوعه من حين تحقق العلائم و الآثار المعقبه للخوف، و السياق يدل على أن المراد بالصلح هو الصلح بغض المرأة عن بعض حقوقها فى الزوجيه أو جميعها لجلب الانس و الألفه و الموافقه، و التحفظ عن وقوع المفارقة، و الصلح خير.

و قوله: وَ أَحْضَرَتِ الْأَنْفُسَ الشُّحَّ الشح هو البخل، معناه: أن الشح من الغرائز النفسانيه التى جبلها الله عليها لتحفظ به منافعها، و تصونها عن الضيعه، فما لكل نفس من الشح هو حاضر عندها، فالمرأه تبخل بمالها من الحقوق فى الزوجيه كالكسوه و النفقه

و الفراش و الوقاع، و الرجل يبخل بالموافقه و الميل اذا احب المفارقه، و كره المعاشره، و لا جناح عليهما حينئذ ان يصلحا ما بينهما ياغماض احدهما أو كليهما عن بعض حقوقه.

ثم قال تعالى «وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا» و هو موعظه للرجال ان لا يتعدوا طريق الاحسان و التقوى و ليتذكروا ان الله خبير بما يعملونه، و لا يحيفوا في المعاشره، و لا يكرهوهنّ على الغاء حقوقهن الحقه و ان كان لهن ذلك.

قوله تعالى: «وَلَنْ تَشِيءَ تَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَ لَوْ حَرَضْتُمْ» بيان الحكم العدل بين النساء الذي شرع لهن على الرجال في قوله تعالى في اول السوره: «فَإِنْ حَفَّتُمْ عَلَيْهِنَّ فَادْعُوهُنَّ بِالْإِسْلَامِ» و كذا يومى اليه قوله في الآيه السابقه «وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا» الخ؛ فإنه لا يخلو من شوب تهديد، و هو يوجب الحيره في تشخيص حقيقه العدل بينهما، و العدل هو الوسط بين الافراط و التفريط، و من الصعب المستصعب تشخيصه، و خاصه من حيث تعلق القلوب تعلق الحب بهن فإن الحب القلبي مما لا يتطرق اليه الاختيار دائما.

فبين تعالى أن العدل بين النساء بحقيقه معناه، و هو اتخاذ حاق الوسط حقيقه مما لا يستطاع للإنسان و لو حرص عليه، و انما الذي يجب على الرجل ان لا يميل كل الميل الى احد الطرفين و خاصه طرف التفريط فيذر المرأه كالمعلقه لا هي ذات زوج فتستفيد من زوجها، و لا هي أرمله فتزوج أو تذهب لشأنها.

فالواجب على الرجل من العدل بين النساء أن يسوى بينهما عملا بإيتائهن حقوقهن من غير تطرف، و المندوب عليه أن يحسن إليهن و لا يظهر الكراهه لمعاشرتهن و لا يسىء إليهن خلقا، و كذا كانت سيره رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم.

و هذا الذيل أعنى قوله «فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ» هو الدليل على ان ليس المراد بقوله «وَلَنْ تَشِيءَ تَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَ لَوْ حَرَضْتُمْ» نفى مطلق العدل حتى ينتج

بانضمامه الى قوله تعالى «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً» (الآيه) إلغاء تعدد الأزواج في الاسلام كما قيل.

و ذلك أن الذيل يدل على أن المنفى هو العدل الحقيقي الواقعي من غير تطرف أصلا بلزوم حاق الوسط حقيقه، و أن المشرع هو العدل التقريبي عملا من غير تحرج.

على أن السنه النبويه و رواج الأمر بمراى و مسمع من النبى صلى الله عليه و آله و سلم و السيره المتصله بين المسلمين يدفع هذا التوهم.

على أن صرف قوله تعالى فى أول آيه تعدد الأزواج: فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَ ثُلَاثَ وَ رُبَاعَ (النساء/٣) الى مجرد الفرض العقلى الخالى عن المصداق ليس إلا تعميمه يجعل عنها كلامه سبحانه.

ثم قوله: وَ إِنْ تَضَلُّوا فَانظُرُوا إِلَى اللَّهِ كَمَا كَانَ غُفُورًا رَحِيمًا تأكيد و ترغيب للرجال فى الإصلاح عند بروز امارات الكراهه و الخلاف بيان أنه من التقوى، و التقوى يستتبع المغفره و الرحمه، و هذا بعد قوله «وَ الصُّلْحُ خَيْرٌ»، و قوله «وَ إِنْ تَحْسَبُوا وَ تَتَّقُوا» ، تأكيد على تأكيد.

قوله تعالى: وَ إِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ، أى و إن تفرق الرجل و المرأه بطلاق يغن الله كلا منهما بسعته، و الإغناء بقربنه المقام إغناء فى جميع ما يتعلق بالازدواج من الايتلاف و الاستيناس و المس و كسوه الزوجه و نفقتها فإن الله لم يخلق أحد هذين الزوجين للآخر حتى لو تفرقا لم يوجد للواحد منهما زوج مدى حياته بل هذه السنه سنه فطريه فاشيه بين أفراد هذا النوع يميل إليها كل فرد بحسب فطرته.

و قوله: وَ كَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ تعليلا للحكم المذكور فى قوله «يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ» .

قوله تعالى: وَ لَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ إِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا

اللَّهِ، تأكيد في دعوتهم الى مراعاة صفه التقوى في جميع مراحل المعاشرة الزوجيه، و في كل حال، و أن في تركه كفرا بنعمه الله بناء على أن التقوى الذي يحصل بطاعه الله ليس إلا شكرا لأنعمه، أو أن ترك تقوى الله تعالى لا منشأ له إلا الكفر إما كفر ظاهر كما في الكفار و المشركين، أو كفر مستكن مستبطن كما في الفساق من المؤمنين.

و بهذا الذي بيناه يظهر معنى قوله «وَ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ»، أى إن لم تحفظوا ما وصينا به إياكم و الذين من قبلكم و أضعتم هذه الوصيه و لم تتقوا و هو كفر بالله، أو عن كفر بالله فإن ذلك لا يضر الله سبحانه اذ لا حاجه له إليكم و الى تقواكم، و له ما في السماوات و الارض، و كان الله غنيا حميدا.

فإن قلت: ما وجه تكرار قوله «لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ»؟ فقد أورد ثلاث مرات.

قلت: أما الأول فإنه تعليل لقوله «وَ كَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا»، و أما الثانى فإنه واقع موقع جواب الشرط فى قوله «وَ إِنْ تَكْفُرُوا»، و التقدير: و إن تكفروا فإنه غنى عنكم، و تعليل للجواب و قد ظهر فى قوله «وَ كَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا» .

و أما الثالث فإنه استيناف و تعليل بوجه لقوله «إِنْ يَشَأْ» .

قوله تعالى: «وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ كَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا» قد مر بيان معنى ملكه تعالى مكررا، و هو تعالى و كيل يقوم بامور عباده و شئونهم و كفى به و كيلا لا يحتاج فيه الى اعتضاد و اسعاد، فلو لم يرتض أعمال قوم و أسخظه جريان الأمر بأيديهم أمكنه أن يذهب بهم و يأتى بآخرين، أو يؤخرهم و يقدم آخرين، و بهذا المعنى الذى يؤيده بل يدل عليه السياق يرتبط بما فى هذه الآيه قوله فى الآيه التاليه «إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَهْلَهَا النَّاسُ» .

قوله تعالى: «إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَهْلَهَا النَّاسُ وَ يَأْتِ بآخَرِينَ»، السياق و هو

الدعوة الى ملازمه التقوى الذى أوصى الله به هذه الامه و من قبلهم من أهل الكتاب يدل على أن اظهار الاستغناء و عدم الحاجه المدلول عليه بقوله «إِنْ يَشَأْ»، إنما هو فى أمر التقوى.

و المعنى أن الله و صاكن جميعا بملازمه التقوى فاتقوه، و ان كفرتم فإنه غنى عنكم، و هو المالك لكل شىء المتصرف فيه كيفما شاء و لما شاء ان يشأ أن يعبد و يتقى و لم تقوموا بذلك حق القيام فهو قادر أن يؤخركم و يقدم آخرين يقومون لما يحبه و يرتضيه، و كان الله على ذلك قديرا.

و على هذا فالآيه ناظره الى تبديل الناس ان كانوا غير متقين بآخرين من الناس يتقون الله، و قد روى (١) أن الآيه لما نزلت ضرب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يده على ظهر سلمان و قال: انهم قوم هذا. و هو يؤيد هذا المعنى، و عليك بالتدبر فيه.

قوله تعالى: مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا بيان آخر يوضح خطأ من يترك تقوى الله و يضيع وصيته بأنه ان فعل ذلك ابتغاء ثواب الدنيا و مغنمها فقد اشتبه عليه الأمر فإن ثواب الدنيا و الآخرة معا عند الله و بيده، فماله يقصر نظره باخس الأمرين و لا يطلب اشرفهما أو اياهما جميعا؟ كذا قيل.

و الأظهر أن يكون المراد-و الله أعلم- أن ثواب الدنيا و الآخرة و سعادتهما معا إنما هو عند الله سبحانه فليتقرب إليه حتى من أراد ثواب الدنيا و سعادتها فإن السعادة لا توجد للإنسان فى غير تقوى الله الحاصل بدينه الذى شرعه له فليس الدين إلا طريق السعادة الحقيقية، فكيف ينال نائل ثوابا من غير إيتائه تعالى و إفاضته من عنده و كان الله سميعا بصيرا (٢).

ص: ٧٧٨

١-١). أو ردها البيضاوى فى تفسيره.

٢-٢). النساء ١٢٧-١٣٤: بحث روائى فى: تقاليد الجاهليه حول حرمان النساء و الاطفال من الارث؛ نشوز الرجال؛ مراعاة العدالة بين النساء.

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلِذَاتِ أَلْفِئَةٍ مِّنْكُمْ أَوْ لِوَالِدَيْكُمْ أَوْ لِلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا
فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانِ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥)

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ القسط هو العدل، والقيام بالقسط العمل به والتحفظ له، فالمراد بالقوامين بالقسط القائمون به أتم قيام وأكمل، من غير انعطاف وعدول عنه الى خلافه لعامل من هوى وعاطفه أو خوف أو طمع أو غير ذلك.

وهذه الصفة اقرب العوامل وأتم الأسباب لاتباع الحق وحفظه عن الضيعة، ومن فروعها ملازمه الصدق في أداء الشهادة والقيام بها.

ومن هنا يظهر ان الابتداء بهذه الصفة في هذه الآية المسوقة لبيان حكم الشهادة ثم ذكر صفة الشهادة من قبيل التدرج من الوصف العام الى بعض ما هو متفرع عليه كأنه قيل: كونوا شهداء لله، ولا يتيسر لكم ذلك إلا بعد أن تكونوا قوامين بالقسط فكونوا قوامين بالقسط حتى تكونوا شهداء لله.

وقوله: شُهَدَاءَ لِلَّهِ اللام فيه للغايه أى كونوا شهداء تكون شهادتكم لله كما قال تعالى: وَ أَفِيْمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ (الطلاق ٢) ومعنى كون الشهادة لله كونها اتباعا للحق ولأجل إظهاره وإحيائه كما يوضحه قوله «فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا».

قوله تعالى: **وَلَوْ عَلِمَ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْمَأْقَرِينَ** أى و لو كانت على خلاف نفع أنفسكم أو والديكم أو أقربائكم فلا يحملنكم حب منافع أنفسكم أو حب الوالدين والأقربين أن تحرفوها أو تتركوها، فالمراد بكون الشهادة على النفس أو على الوالدين والأقربين أن يكون ما تحمله من الشهادة لو أدى مضراً بحاله أو بحال والديه وأقربيه سواء كان المتضرر هو المشهود عليه بلا- واسطه كما اذا تخاصم أبوه و إنسان آخر فشهد له على أبيه، أو يكون المتضرر مع الواسطه كما اذا تخاصم اثنان و كان الشاهد متحماً لاحدهما ما لو أذاه لتضرر به نفس الشاهد أيضا- كالمتخاصم الآخر-.

قوله تعالى: **إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا** إرجاع ضمير التثنيه الى الغنى و الفقير مع وجود «أو» التريدييه لكون المراد بالغنى و الفقير هو المفروض المجهول الذى يتكرر بحسب وقوع الوقائع و تكررها فيكون غنيا فى واقعه، و فقيرا فى اخرى، فالترديد بحسب فرض البيان و ما فى الخارج تعدد، كذا ذكره بعضهم، فالمعنى أن الله أولى بالغنى فى غناه، و بالفقير فى فقره: و المراد-و الله أعلم-: لا- يحملنكم غنى الغنى أن تميلوا عن الحق إليه، و لا فقر الفقير أن تراعوا حاله بالعدول عن الحق بل أقيموا الشهاده لله سبحانه ثم خلوا بينه و بين الغنى و الفقير فهو أولى بهما و أرحم بحالهما، و من رحمته أن جعل الحق هو المتبع واجب الاتباع، و القسط هو المندوب الى إقامته، و فى قيام القسط و ظهور الحق سعادة النوع التى يقوم بها صلب الغنى، و يصلح بها حال الفقير.

و الواحد منهما و إن انتفع بشهاده محرّفه أو متروكه فى شخص واقعه أو وقائع لكن ذلك لا يلبث دون أن يضعف الحق و يميت العدل، و فى ذلك قوه الباطل و حياه الجور و الظلم، و فى ذلك الداء العضال و هلاك الإنسانيه.

قوله تعالى: **فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا**، أى مخافه أن تعدلوا عن الحقّ و القسط باتباع الهوى و ترك الشهاده لله فقوله «أَنْ تَعْدِلُوا» مفعول لاجله و يمكن أن يكون مجرورا

بتقدير اللام متعلقا بالاتباع أى لأن تعدلوا.

قوله تعالى: وَإِنْ تَلَّوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا اللى بالشهادة كناية عن تحريفها من لى اللسان. والإعراض ترك الشهادة من رأس.

وقرى «و إن تلوا» بضم اللام و إسكان الواو من ولى و لايه، و المعنى: و إن وليتم أمر الشهادة و أتيتم بها أو أعرضتم فإن الله خير بأعمالكم يجازيكم بها.

[سورة النساء (٤): الآيات ١٣٦ الى ١٤٧]

إشارة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيَّ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ إِزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيُهَيِّدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧) بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلِيتُهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَأَلْتُمُ الْبَيِّنَاتِ مِنَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسَيِّئُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثَلْتُمْ إِنْ اللَّهُ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هُوَ وَلَا إِلَى هُوَ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (١٤٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلِيتُهُمْ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (١٤٤) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧)

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيَّ رَسُولِهِ أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِيمَانِ ثَانِيًا بِقَرِينِهِ التَّفْصِيلِ فِي مَتَعَلِقِ الْإِيمَانِ الثَّانِي أَعْنَى قَوْلِهِ «بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ» الخ؛ وَ أَيْضًا بِقَرِينِهِ الْإِعَادِ وَ التَّهْدِيدِ عَلَى تَرْكِ الْإِيمَانِ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذَا التَّفْصِيلِ إِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ بِبَسْطِ الْمُؤْمِنِينَ إِجْمَالًا إِيْمَانَهُمْ عَلَى تَفْصِيلِ هَذِهِ الْحَقَائِقِ فَإِنَّهَا مَعَارِفٌ مَرْتَبَةٌ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، مُسْتَلْزِمَةٌ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَ الصِّفَاتُ الْعُلْيَا، وَ هِيَ الْمَوْجِبَةُ لِأَنْ يَخْلُقَ خَلْقًا وَ يَهْدِيَهُمْ إِلَى مَا يُرْشِدُهُمْ وَ يَسْعُدُهُمْ ثُمَّ يَبْعَثُهُمْ لِيَوْمِ الْجَزَاءِ، وَ لَا يَتِمُّ ذَلِكَ إِلَّا بِإِرْسَالِ رُسُلٍ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ، وَ أَنْزَالِ كُتُبٍ تَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا اِخْتَلَفُوا فِيهِ، وَ تَبَيِّنَ لَهُمْ مَعَارِفَ الْمَبْدِإِ وَ الْمَعَادِ، وَ أَصُولَ الشَّرَائِعِ وَ الْأَحْكَامِ.

فَالْإِيمَانُ بِوَاحِدٍ مِنْ حَقَائِقِ هَذِهِ الْمَعَارِفِ لَا يَتِمُّ إِلَّا مَعَ الْإِيمَانِ بِجَمِيعِهَا مِنْ غَيْرِ اسْتِثْنَاءٍ، وَ الرَّدُّ لِبَعْضِهَا مَعَ الْأَخْذِ بِبَعْضِ آخَرَ كَفَرُ لَوْ أَظْهَرَ، وَ نِفَاقٌ لَوْ كَتَمَ وَ اخْفَى، وَ مِنَ النِّفَاقِ أَنْ يَتَّخِذَ الْمُؤْمِنُ مَسِيرًا يَنْتَهِي بِهِ إِلَى رَدِّ بَعْضِ ذَلِكَ، كَأَنْ يَفَارِقَ مَجْتَمَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَ يَتَقَرَّبَ إِلَى مَجْتَمَعَ الْكُفَّارِ وَ يُوَالِيَهُمْ، وَ يَصَدِّقُهُمْ فِي بَعْضِ مَا يَرْمُونَ بِهِ الْإِيمَانَ وَ أَهْلَهُ، أَوْ يَعْتَرِضُوا أَوْ يَسْتَهْزِءُونَ بِهِ الْحَقِّ وَ خَاصَّتِهِ، وَ لِذَلِكَ عَقِبَ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ بِالْتَعَرُّضِ لِحَالِ الْمُنَافِقِينَ وَ وَعِيدِهِمْ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ.

قوله تعالى: وَ مَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَ مَلَائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رَسُولِهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا لَمَّا كَانَ الشُّطْرَ الْأَوَّلَ مِنَ الْآيَةِ أَعْنَى قَوْلِهِ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا» -إِلَى قَوْلِهِ- «مِنْ قَبْلُ» دَعَا إِلَى الْجَمْعِ بَيْنَ جَمِيعِ مَا ذَكَرَ فِيهِ بِدَعْوَى أَنْ اجْزَأَ هَذَا الْمَجْمُوعُ مَرْتَبَةً غَيْرَ مَفَارِقَ بَعْضِهَا بَعْضًا كَانَ هَذَا التَّفْصِيلُ ثَانِيًا فِي مَعْنَى التَّرْدِيدِ وَ الْمَعْنَى: وَ مَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ أَوْ

ملائكته أو كتبه أو رسله أو اليوم الآخر أى من يكفر بشيء من اجزاء الايمان فقد ضل ضلالا بعيدا.

و ليس المراد بالعطف بالواو الجمع فى الحكم لىتم الجميع موضوعا واحدا له حكم واحد بمعنى ان الكفر بالمجموع من حيث انه مجموع ضلال بعيد دون الكفر ببعض دون البعض. على ان الآيات القرآنيه ناطقه بكفر من كفر بكل واحد مما ذكر فى الآيه على وجه التفصيل.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَدَّوْا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا. الآيه لو اخذت وحدها منقطعه عما قبلها و ما بعدها كانت داله على ما يجازى به الله تعالى اهل الرده اذا تكررت منهم الرده بأن آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا فالله سبحانه يوعدهم -و حالهم هذا الحال- بأنه لا يغفر لهم، و لا يهديهم سبيلا، و ليس من المرجو منه المتوقع من رحمته ذلك لعدم استقرارهم على ايمان، و جعلهم امر الله ملعبه يلعبون بها، و من كان هذا حاله لم يثبت بالطبع على ايمان جدى يقبل منه، و ان كانوا لو آمنوا ايمانا جديا شملتهم المغفره و الهدايه فإن التوبه بالايمان بالله حقيقه مما لا يردّه الله فى حال على ما وعد الله تعالى عباده، و قد تقدم الكلام فيه فى قوله تعالى:

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ الْآيَةَ (النساء ١٧)، فى الجزء الرابع من هذا الكتاب.

فالأيه تحكم بحرمانهم على ما يجرى على الطبع و العاده، و لا تأبى الاستثناء لو اتفق ايمان و استقامه عليه من هذه الطائفه نادرا كما يستفاد من نظير الآيه، قال تعالى: كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَ شَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَ جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ -الى أن قال- إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَدَّوْا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَ أُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (آل عمران ٩٠).

و الآيات- كما ترى- تستثنى ممن كفر بعد ايمانه، و قويل بنفى المغفره و الهدايه، و هى مع ذلك تنفى قبول توبه من ازداد كفرا بعد الايمان، صدر الآيات فيمن كفر بعد الايمان و الشهاده بحقيقته

الرسول و ظهور الآيات البينات، فهو رده عنادا و لجاجا، و الازدياد فيه لا يكون إلا مع استقرار العناد و العتو في قلوبهم، و تمكن الطغيان و الاستكبار في نفوسهم، و لا يتحقق الرجوع و التوبه ممن هذا حاله عادة.

هذا ما يقتضيه سياق الآية لو أخذت وحدها كما تقدم، لكن الآيات جميعا لا تخلو عن ظهور ما أو دلالة على كونها ذات سياق واحد متصلا بعضها ببعض، و على هذا التقدير يكون قوله «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا»، في مقام التعليل لقوله «وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ - إِلَى قَوْلِهِ - فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا» و يكون الآيتان ذواتى مصداق واحد أى إن من يكفر بالله و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر هو الذى آمن ثم كفر ثم آمن ثم كفر ثم ازداد كفرا، و يكون أيضا هو من المنافقين الذين تعرّض تعالى لهم فى قوله بعد «بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» إلى آخر الآيات.

قوله تعالى: بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْحَيْه؛ تهديد للمنافقين، و قد وصفهم بموالاه الكافرين دون المؤمنين، و هذا وصف اعم مصداقا من المنافقين الذين لم يؤمن قلوبهم، و انما يتظاهرون بالايمن فإن طائفه من المؤمنين لا يزالون مبتلين بموالاه الكفار، و الانقطاع عن جماعه المؤمنين، و الاتصال بهم باطنا و اتخاذ الوليجه منهم حتى فى زمن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم.

و هذا يؤيد بعض التأييد أن يكون المراد بهؤلاء المنافقين طائفه من المؤمنين يتخذون الكافرين اولياء من دون المؤمنين، و يؤيده ظاهر قوله فى الآيه اللاحقه «وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ - إِلَى قَوْلِهِ - إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ» فإن ذلك تقرير لتهديد المنافقين، و الخطاب فيه للمؤمنين، و يؤيده ايضا ما سيصف تعالى حالهم فى نفاقهم بقوله «وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا» فأثبت لهم شيئا من ذكر الله تعالى، و هو بعيد الانطباق على المنافقين الذين لم يؤمنوا بقلوبهم قط.

قوله تعالى: أَلَيْسَ لَكُمْ عِزَّةٌ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا أَستفهام انكارى ثم جواب بما يقرر الانكار فإن العزه من فروع الملك، و الملك له وحده، قال تعالى: قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ (آل عمران ٢٦).

قوله تعالى: وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ -الى قوله- مِثْلَهُمْ يريد ما نزله فى سورة الانعام: وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (الأنعام ٦٨) فإن سورة الأنعام مكيه، و سورة النساء مدنيه.

و استفاد من اشاره الآيه الى آيه الأنعام ان بعض الخطابات القرآنيه وجه الى النبى صلى الله عليه و آله و سلم خاصه، و المراد بها ما يعم الامه.

و قوله: إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ تعليل للنهى اى بما نهيناكم لأنكم اذا قعدتم معهم -و الحال هذه- تكونون مثلهم، و قوله «إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ» .

قوله تعالى: الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ لُكْمٌ فَفَتْحٌ مِنَ اللَّهِ التَّربص:

الانتظار. و الاستحواذ: الغلبه و التسلط، و هذا وصف آخر لهؤلاء المنافقين فإنهم انما حفظوا رابطته الاتصال بالفريقين جميعا: المؤمنين و الكافرين، يستدرون الطائفتين و يستفيدون ممن حسن حاله منهما، فإن كان للمؤمنين فتح قالوا: انا كنا معكم فليكن لنا سهم مما أوتيتموه من غنيمه و نحوها، و ان كان للكافرين نصيب قالوا: لم نغلبكم و منعكم من المؤمنين؟ اى من الايمان بما آمنوا به و الاتصال بهم فلنا سهم مما أوتيتموه من النصيب أو منه عليكم حيث جردنا إليكم النصيب.

قوله تعالى: فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ لَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا الْخطاب للمؤمنين و إن كان ساريا الى المنافقين و الكافرين جميعا، و أما

قوله «وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ» فمعناه أن الحكم يومئذ للمؤمنين على الكافرين، و لن ينعكس الأمر أبداً، وفيه إياس للمنافقين، أى ليأس هؤلاء المنافقون فالغلبه للمؤمنين على الكافرين بالأخره.

و يمكن أن يكون نفى السبيل أعم من النشاطين: الدنيا والآخرة، فإن المؤمنين غالبون بإذن الله دائماً ما داموا ملتزمين بلوازم إيمانهم، قال تعالى: وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (آل عمران ١٣٩).

قوله تعالى: إِنَّ الْمُتَدَابِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ المخادعه هي الإكثار أو التشديد في الخدعه بناء على أن زياده المباني تدل على زياده المعاني.

و قوله «وَهُوَ خَادِعُهُمْ» فى موضع الحال أى يخادعون الله فى حال هو يخدعهم و يؤول المعنى الى أن هؤلاء يريدون بأعمالهم الصادره عن النفاق من إظهار الإيمان، و الاقتراب من المؤمنين، و الحضور فى محاضرتهم و مشاهدتهم أن يخادعوا الله أى النبى صلى الله عليه و آله و سلم و المؤمنين فيستدرّوا منهم بظاهر ايمانهم و أعمالهم من غير حقيقه، و لا يدرون أن هذا الذى خلى بينهم و بين هذه الأعمال و لم يمنعهم منها هو الله سبحانه، و هو خدعه منه لهم و مجازاه لهم بسوء نياتهم و خباثه أعمالهم، فخدعتهم له بعينها خدعته لهم.

قوله تعالى: وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَأُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا هذا وصف آخر من أوصافهم و هو القيام الى الصلاه-اذا قاموا إليها-كسالى يراءون الناس، و الصلاه أفضل عباده يذكر فيها الله، و لو كانت قلوبهم متعلقه بربهم مؤمنه به لم يأخذهم الكسل و التوانى فى التوجه إليه و ذكره، و لم يعملوا عملهم لمرءاه الناس، و لذكروا الله تعالى كثيراً على ما هو شأن تعلق القلب و اشتغال البال.

قوله تعالى: مُذْذِبِينَ بَيْنَ ذَاتِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، قال فى المجمع: ذبذبه فذبذب أى حركته فتحرك فهر كتحريك شىء معلق (انتهى). فكون

الشيء مذنباً ان يتردد بين جانبيين من غير تعلق بشيء منهما، وهذا نعت المنافقين، يتذبذبون بين ذلك-اي الذى ذكر من الايمان و الكفر-لا الى هؤلاء اى لا الى المؤمنين فقط كالمؤمنين بالحقيقه، و لا الى الكفار فقط كالكافرين محضاً.

□
و قوله: وَ مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا فى مقام التعليل لما سبقه من حديث الذذبذبه، فسبب ترددهم بين الجانبيين من غير تعلق بأحدهما ان الله اضلهم عن السبيل فلا سبيل لهم يردونه.

و لهذه العله بعينها قيل «مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ» و لم يقل: متذبذبين اى القهر الالهى هو الذى يجر لهم هذا النوع من التحريك الذى لا ينتهى الى غايه ثابتة مطمئنه.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ (الى آخر الآيتين) السلطان هو الحجه، و الدرک بفتحيتين -و قد يسكن الراء-قال الراغب: الدرک كالدرج لكن الدرج يقال اعتباراً بالصعود، و الدرک اعتباراً بالحدور، و لهذا قيل: درجات الجنه و دركات النار، و لتصور الحدور فى النار سميت هاويه (انتهى).

و الآيه- كما ترى- تنهى المؤمنين عن الاتصال بولايه الكفار و ترك ولايه المؤمنين، ثم الآيه الثانيه تعلل ذلك بالوعيد الشديد المتوجه الى المنافقين، و ليس الا ان الله سبحانه يعد هذا الصنيع نفاقاً يحذر المؤمنون من الوقوع فيه.

□
و السياق يدل على ان قوله «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا»، كالنتيجه المستنتجه مما تقدم أو الفرع المتفرع عليه، و هذا كالصريح فى ان الآيات السابقه انما تتعرض لحال مرضى القلوب و ضعفاء الايمان من المؤمنين و يسميهم المنافقين، و لا أقل من شمولها لهم، ثم يعظ المؤمنين ان لا يقربوا هذا الحمى و لا يتعرضوا لسخط الله، و لا يجعلوا الله تعالى على انفسهم حجه واضحه فيضلهم و يخذعهم و يذبذبهم فى الحياه الدنيا، ثم يجمع بينهم و بين الكافرين فى جهنم جميعاً، ثم يسكنهم فى اسفل درك من النار، و يقطع بينهم و بين كل نصير ينصرهم،

و شفيع يشفع لهم.

و يظهر من الآيتين اولاً: الاضلال و الخدعه و كل سخط الهى من هذا القبيل إنما عن حجه واضحه تعطيه أعمال العباد، فهى إجزاء على طريق المقابله و المجازاه، و حاشا الجناب الإلهى أن يبدأهم بالشر و الشقوه من غير تقدم ما يوجب ذلك من قبلهم، فقله «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا»؟ يجرى مجرى قوله: «وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ» (البقره ٢٦).

و ثانياً: أن فى النار لأهلها مراتب تختلف فى السفاله، و لا محاله يشتد بحسبها عذابهم يسميها الله تعالى بالدركات.

قوله تعالى: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ اعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ اسْتِثْنَاءً مِنَ الْوَعِيدِ الَّذِي ذَكَرَ فِي الْمُنَافِقِينَ بِقَوْلِهِ «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ» (الآيه)؛ و لازم ذلك خروجهم من جماعه المنافقين، و لحوقهم بصف المؤمنين، و لذلك ذيل الاستثناء بذكر كونهم مع المؤمنين، و ذكر ثواب المؤمنين جميعاً فقال تعالى «فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَ سَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا» .

و قد وصف الله هؤلاء الذين استثناهم من المنافقين بأوصاف عديده ثقيله، و ليست تنبت اصول النفاق و أعراقه إلا بها، فذكر التوبه و هى الرجوع الى الله تعالى، و لا ينفع الرجوع و التوب وحده حتى يصلحوا كل ما فسد منهم من نفس و عمل، و لا ينفع الإصلاح إلا- أن يعتصموا بالله أى يتبعوا كتابه و سنه نبيه صلى الله عليه و آله و سلم اذ لا سبيل الى الله إلا ما عينه و ما سوى ذلك فهو سبيل الشيطان.

و لا ينفع الاعتصام المذكور إلا اذا أخلصوا دينهم- و هو الذى فيه الاعتصام- لله، فإن الشرك ظلم لا يعفى عنه و لا يغفر، فاذا تابوا الى الله و أصلحوا كل فاسد منهم و اعتصموا بالله و أخلصوا دينهم لله كانوا عند ذلك مؤمنين لا يشوب إيمانهم شرك، فأمنوا النفاق و اهدوا قال تعالى: «الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهُتَدُونَ»

ص: ٧٨٩

و يظهر من سياق الآيه أن المراد بالمؤمنين هم المؤمنون محضاً المخلصون للإيمان، وقد عرفهم الله تعالى بأنهم الذين تابوا و أصلحوا و اعتصموا بالله و أخلصوا دينهم لله، و هذه الصفات تتضمن تفاصيل جميع ما عده الله تعالى فى كتابه من صفاتهم و نعوتهم كقوله تعالى: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صِلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَ الَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ الى آخر الآيات (المؤمنون ٣)؛ و قوله تعالى: وَ عِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْمَأْرُضِ هَوْنًا وَ إِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَيِّئًا مَا وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجْدًا وَ قِيَامًا الْآيَاتِ (الفرقان ٦٤)؛ و قوله:

فَلَا وَ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (النساء ٦٥).

فهذا هو مراد القرآن بالمؤمنين اذا أطلق اللفظ إطلاقاً من غير قرينه تدل على خلافه.

و قد قال تعالى «فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ» و لم يقل: فأولئك من المؤمنين لانهم بتحقيق هذه الأوصاف فيهم أول تحققها يلحقون بهم، و لن يكونوا منهم حتى تستمر فيهم الأوصاف على استقرارها، فافهم ذلك.

قوله تعالى: مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ، ظاهره أنه خطاب للمؤمنين، لأن الكلام جار على خطابهم و إنما يخاطبون بهذا الخطاب مع الغض عن إيمانهم و فرضهم كالعارى عنه على ما هو شأن مثل هذا الخطاب.

و هو كناية عن عدم حاجته تعالى الى عذابهم، و أنهم لو لم يستوجبوا العذاب بتركهم الشكر و الإيمان لم يكن من قبله تعالى ما يوجب عذابهم، لأنه لا ينتفع بعذابهم حتى يؤثره، و لا يستنصر بوجودهم حتى يدفعه عن نفسه بعذابهم، فالمعنى: لا موجب لعذابكم إن شكرتم نعمه الله بأداء واجب حقه و آمنتم به و كان الله شاكرًا لمن شكره و آمن به، عليماً لا يجهل مورده.

و فى الآيه دلالة على أن العذاب الشامل لأهله إنما هو من قبلهم لا من قبله، وكذا كل ما يستوجب العذاب من ضلال أو شرك أو معصيه، ولو كان شىء من ذلك من قبله تعالى لكان العذاب الذى يستتبعه أيضا من قبله لأن المسبب يستند الى من استند اليه السبب (١).

[سوره النساء (٤): الآيات ١٤٨ الى ١٤٩]

اشاره

لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَ كَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (١٤٨) إِنَّ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا (١٤٩)

بيان:

قوله تعالى: لا- يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا- مَنْ ظَلَمَ، قال الراغب فى ماده «الْجَهْرُ» يقال لظهور الشىء بإفراط لحاسه البصر أو حاسه السمع، أما البصر فنحو رأيته جهارا، قال الله تعالى «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً» «أَرْنَا اللَّهَ جَهْرَةً»- الى أن قال- وأما السمع فمنه قوله تعالى «سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ» .

و السوء من القول كل كلام يسوء من قيل فيه كالدعاء عليه، و شتمه بما فيه من المساوى و العيوب و بما ليس فيه، فكل ذلك لا يحب الله الجهر به و إظهاره، و من المعلوم أنه تعالى منزّه من الحب و البغض على حد ما يوجد فىنا معشر الإنسان و ما يجانسنا من الحيوان، إلا- أنه لما كان الأمر و النهى عندنا بحسب الطبع صادرين عن حب و بغض كنى بهما عن الإراده و الكراهه و عن الأمر و النهى.

ص: ٧٩١

(١- ١). النساء ١٣٦-١٤٧: بحث روائى فى: الايمان و الكفر؛ النهى عن الخدعه؛ المنافقين؛ الاخلاص لله تعالى و نتائجه.

و العفو عن السوء هو الستر عليه قولاً- بأن لا- يذكر ظالمه بظلمه، و لا- يذهب بماء وجهه عند الناس، و لا يجهر عليه بالسوء من القول، و فعلاً- بأن لا- يواجهه بما يقابل ما أساء به، و لا ينتقم عنه فيما يجوز له ذلك كما قال تعالى: **فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ (البقره ١٩٤)**.

و قوله «فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا» سبب أقيم مقام المسبب و التقدير: إن تعفوا عن سوء فقد اتصفتكم بصفه من صفات الله الكماليه- و هو العفو على قدره- فإن الله ذو عفو على قدرته، فالجزاء جزاء بالنسبه الى بعض الشروط، و أما إبداء الخير و إخفاؤه أى إيتاؤه على أى حال فهو أيضا من صفاته تعالى بما أنه الله تعالى، و يمكن أن يلوح إليه الكلام.

[سوره النساء (٤): الآيات ١٥٠ الى ١٥٢]

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٥٢)

بيان:

قوله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ**، هؤلاء أهل الكتاب من اليهود و النصارى فاليهود تؤمن بموسى و تكفر بعيسى و محمد، و النصارى تؤمن بموسى و عيسى و تكفر بمحمد صلى الله عليهم اجمعين، و هؤلاء على زعمهم لا يكفرون بالله و ببعض رسله،

و إنما يكفرون ببعض الرسل، وقد أطلق الله عليهم أنهم كافرون بالله و رسله جميعا، و لذلك احتيج الى بيان المراد من إطلاق قوله «إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ» .

□
و لذلك عطف على قوله «إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ» ، قوله «وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَ يَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ» بعطف التفسير و نفس المعطوف أيضا بعضه بعضه، فهم كافرون بالله و رسله لأنهم بقولهم «نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ» يريدون أن يفرقوا بين الله و رسله فيؤمنون بالله و بعض رسله، و يكفروا ببعض رسله مع كونه رسولا من الله، و الرد عليه رد على الله تعالى.

□
ثم بين ذلك بيان آخر بالعطف عليه عطف التفسير فقال: «وَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا» أي سبيلا متوسطا بين الإيمان بالله و رسله جميعا و الكفر بالله و رسله جميعا، و هو الإيمان ببعض و الكفر ببعض، و لا سبيل الى الله إلا الايمان به و برسله جميعا فإن الرسول بما أنه رسول ليس له من نفسه شيء و لا له من الأمر شيء، فالإيمان به إيمان بالله و الكفر به كفر بالله محضا. فالكفر ببعض و الإيمان بالبعض و بالله ليس إلا تفرقه بين الله و بين رسله، و إعطاء الاستقلال للرسول فيكون الإيمان به غير مرتبط بالإيمان بالله، و الكفر به غير مرتبط بالكفر به فيكون طرفا لا وسطا، و كيف يصح فرض الرسالة ممن لا يرتبط بالإيمان به و الكفر به بالإيمان بالله و الكفر به؟

فمن البين الذي لا مريه فيه أن الإيمان بمن هذا شأنه و الخضوع له شرك بالله العظيم، و لذلك ترى أنه تعالى بعد وصفهم بأنهم يريدون بالإيمان ببعض الرسل و الكفر بالبعض أن يفرقوا بين الله و رسله و يريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا- ذكر أنهم كافرون بذلك حقا فقال «أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا» ثم أوعدهم فقال «وَ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا» .

□
قوله تعالى: وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَ لَمْ يَفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، لما كفر

أولئك المفترقين بين الله ورسله، و ذكر أنهم كفرون بالله ورسله ذكر من يقابلهم بالإيمان بالله ورسله على سبيل عدم التفرقة
تتميماً للأقسام.

[سورة النساء (٤): الآيات ١٥٣ الى ١٦٩]

إشارة

يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ
بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ
بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (١٥٤) فَمَا نَقْضَتْهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَ
كَفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَ
قَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَ
إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْ لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا
حَكِيمًا (١٥٨) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩) فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا
عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخَذْنَاهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ الدَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَ
أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١) لَكِنَّ الرَّاكِبِينَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ
الْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (١٦٢) إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا
إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَ
سُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا
(١٦٤) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا
أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (١٦٦) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا
بَعِيدًا (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيُهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ
ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩)

قوله تعالى: يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ، أهل الكتاب هم اليهود و النصارى على ما هو المعهود فى عرف القرآن فى أمثال هذه الموارد، و عليه فالسائل هو الطائفتان جميعا دون اليهود فحسب.

و لا ينافيه كون المظالم و الجرائم المعدوده فى ضمن الآيات مختصه باليهود كسؤال الرؤيه، و اتخاذ العجل، و نقض الميثاق عند رفع الطور و الأمر بالسجده و النهى عن العدو فى السبت و غير ذلك.

فإن الطائفتين ترجعان الى أصل واحد و هو شعب إسرائيل بعث إليهم موسى و عيسى عليهما السلام و إن انتشرت دعوه عيسى بعد رفعه فى غير بنى إسرائيل كالروم و العرب و الحبشه و مصر و غيرهم، و ما قوم عيسى بأقل ظلما لعيسى من اليهود لموسى عليهم السلام.

و لعد الطائفتين جميعا ذا أصل واحد يخص اليهود بالذكر فيما يخصهم من الجزاء حيث قال «فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ» و لذلك أيضا عد عيسى بين الرسل المذكورين بعد كما عد موسى عليه السلام بينهم و لو كان وجه الكلام الى اليهود فقط لم يصح ذلك، و لذلك أيضا قيل بعد هذه الآيات «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَ لَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا

و بالجمله السائل هم أهل الكتاب جميعا و وجه الكلام معهم لاشتراكهم فى الخصيصه القوميه و هو التحكم و القول بغير الحق و المجازفه و عدم التقيد بالعهود و المواثيق، و الكلام جار معهم فيما اشتركوا فاذا اختص منهم طائفه بشىء خص الكلام به.

و الذى سألوه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم هو أن ينزل عليهم كتابا من السماء، و لم يسألوه ما سألوه قبل نزول القرآن و تلاوه عليهم كيف و القصه إنما وقعت فى المدينه و قد بلغهم من القرآن ما نزل بمكه و شطر مما نزل بالمدينه؟ بل هم ما كانوا يقنعون به دليلا- للنبوه، و لا- يعدونه كتابا سماويا مع أن القرآن نزل فيما نزل مشقعا بالتحدى و دعوى الإعجاز كما فى سور: أسرى، و يونس، و هود، و البقره النازله جميعا قبل سوره النساء.

فسؤالهم تنزيل الكتاب من السماء بعد ما كانوا يشاهدونه من أمر القرآن لم يكن إلا سؤالا جزافيا لا يصدر إلا ممن لا يخضع للحق و لا ينقاد للحقيقه و إنما يلغو و يهدو بما قدمته له أيدي الأهواء من غير أن يتقيد بقيد أو يثبت على أساس، نظير ما كانت تتحكم به قريش مع نزول القرآن، و ظهور دعوته فتقول على ما حكاه الله سبحانه عنهم: لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ (يونس ٢٠) أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ (الإسراء ٩٣).

و لهذا الذى ذكرناه أجاب الله سبحانه عن مسألتهم (أولا) بأنهم قوم متمادون فى الجهاله و الضلاله لا يابون عن أنواع الظلم و إن عظمت، و الكفر و الجحود و إن جاء البينه، و عن نقض المواثيق و إن غلظت و غير ذلك من الكذب و البهتان و أى ظلم، و من هذا شأنه لا يصلح لإجابته ما سأله و الإقبال على ما اقترحه.

و(ثانيا) أن الكتاب الذى أنزله الله و هو القرآن مقارن لشهاده الله سبحانه و ملائكته و هو الذى يفصح عن التحدى بعد التحدى بآياته الكريمه.

فقال تعالى في جوابهم أولا «فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَٰلِكَ» أى مما سألوكم من تنزيل كتاب من السماء إليهم «فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهُ جَهْرَةً» أى إراءه عيان نعاينه بأبصارنا، وهذه غايه ما يبلغه البشر من الجهاله و الهذر و الطغيان «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ» و القصة المذكوره فى سورة البقره (آيه ٥٥-٥٦) و سورة الأعراف (آيه ١٥٥).

ثم قال تعالى: «ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ» و هذه عباده الصنم بعد ظهور بطلانه أو بيان أن الله سبحانه منزه عن شائبه الجسميه و الحدوث، و هو من أفضع الجهالات البشريه «فَعَفَوْنَا عَنْ ذَٰلِكَ وَ آتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا» و قد أمرهم موسى فى ذلك أن يتوبوا الى بارئهم فيقتلوا أنفسهم فأخذوا فيه فعفا الله عنهم و لما يتم التقتيل و لما يقتل الجميع، و هو المراد بالعفو، و أتى موسى عليه السلام سلطانا مبينا حيث سلطه عليهم و على السامرى و عجله، و القصة المذكوره فى سورة البقره (آيه ٥٤).

ثم قال تعالى: «وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ» و هو الميثاق الذى أخذه الله منهم ثم رفع فوقهم الطور، و القصة المذكوره مرتين فى سورة البقره (آيه ٦٣-٩٣).

ثم قال تعالى: «وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا» و القصتان المذكورتان فى سورة البقره (آيه: ٥٨-٦٥) و سورة الأعراف (١٦١-١٦٣) و ليس من البعيد أن يكون الميثاق المذكور راجعا الى القصتين و الى غيرهما فإن القرآن يذكر أخذ الميثاق منهم متكررا كقوله تعالى: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ الْآيَةَ (البقره ٨٣)»؛ و قوله تعالى: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (البقره ٨٤)».

قوله تعالى: «فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ»، الفاء للتفريع و المجرور متعلق بما سيأتى بعد هذه آيات- يذكر فيها جرائمهم- من قوله «حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ» و الآيات مسوقه لبيان ما جازاهم الله به و خيم الجزاء الدينوى و الاخروى، و فيها ذكر بعض ما لم يذكر من سننهم السيئه أولا.

و قوله «فَمَا نَقُضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ» تلخيص لما ذكر منهم من نقض الميثاق و لما لم يذكر من الميثاق المأخوذه منهم.

و قوله «وَ كُفِّرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ» تلخيص لأنواع من الكفر كفروا بها في زمن موسى عليه السلام و بعده قص القرآن كثيرا منها، و من جملتها الموردان المذكوران في صدر الآيات أعنى قوله «فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً»، و قوله «ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ» و إنما قدما في الصدر، و آخرها في هذه الآية لأن المقامين مختلفان فيختلف مقتضاهما فإن صدر الآيات متعرض لسؤالهم تنزيل كتاب من السماء، و ذكر سؤالهم أكبر من ذلك و عبادتهم العجل أنسب به و ألصق، و هذه الآية و ما بعدها متعرضه لمجازاتهم في قبال أعمالهم بعد ما كانوا أجابوا دعوه الحق و ذكر أسباب ذلك، و الابتداء بذكر نقض الميثاق أنسب في هذا المقام و أقرب.

و قوله «وَ قَتَلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ» يعنى بهم زكريا و يحيى و غيرهما ممن ذكر القرآن قتلهم إجمالا من غير تسميه.

و قوله «وَ قَوْلِهِمْ قُلُوبَنَا غُلْفٌ» جمع أغلف أى فى أغشيه تمنعها عن استماع الدعوه النبويه، و قبول الحق لو دعيت إليه، و هذه كلمه ذكروها يريدون بها ردّ الدعوه، و إسناد عدم إجابتهم للدعوه الى الله سبحانه كأنهم كانوا يدعون أنهم خلقوا غلف القلوب، أو أنهم جعلوا بالنسبه الى دعوه غير موسى كذلك من غير استناد ذلك الى اختيارهم و صنعهم.

و لذلك ردّ الله سبحانه عليهم بقوله «بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ كُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا» فبين أن إباء قلوبهم عن استماع الدعوه الحقه مستند الى صنع الله لكن لا كما يدعون أنهم لا صنع لهم فى ذلك بل إنما فعل ذلك بهم فى مقابل كفرهم و جحودهم للحق، و كان أثر ذلك أن هذا القوم لا يؤمنون إلا قليل منهم.

و قد تقدم الكلام فى هذا الاستثناء، و أن هذه النقمه الإلهيه إنما نزلت بهم بقوميتهم

و مجتمعهم، فالمجموع من حيث المجموع مكتوب عليهم النقمه، و مطبوع على قلوبهم محال لهم أن يؤمنوا بأجمعهم، و لا ينافى ذلك إيمان البعض القليل منهم.

قوله تعالى: وَ بِكُفْرِهِمْ وَ قَوْلِهِمْ عَلِيٌّ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا وَ هُوَ قَذَفَهَا عَلَيْهَا السَّيْلَامَ فِي وِلَادِهِ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَ هُوَ كَفَرَ وَ بَهْتَانَ مَعًا وَ قَدْ كَلَّمَهُمْ عِيسَى فِي أَوَّلِ وِلَادَتِهِ وَ قَالَ: إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا (مريم ٣٠).

قوله تعالى: وَ قَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَ مَا قَتَلُوهُ وَ مَا صَلَّبُوهُ وَ لَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ قَدْ تَقَدَّمَ فِي قِصَصِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّيْلَامَ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ أَنَّهُمْ اخْتَلَفُوا فِي كَيْفِيَّةِ قَتْلِهِ صَلْبًا وَ غَيْرَ صَلْبٍ فَلَعَلَّ حِكَايَتَهُ تَعَالَى عَنْهُمْ دَعَاؤُ قَتْلِهِ أَوَّلًا ثُمَّ ذَكَرَ الْقَتْلَ وَ الصَّلْبَ مَعًا فِي مَقَامِ الرَّدِّ وَ النِّفْيِ لِيَبَانَ النِّفْيُ التَّامَ بِحَيْثُ لَا يَشُوبُهُ رَيْبٌ فَإِنَّ الصَّلْبَ لِكُونِهِ نَوْعًا خَاصًّا فِي تَعْذِيبِ الْمَجْرِمِينَ لَا يَلْزَمُ الْقَتْلَ دَائِمًا، وَ لَا يَتْبَادِرُ إِلَى الذَّهْنِ عِنْدَ إِطْلَاقِ الْقَتْلِ، وَ قَدْ اخْتَلَفَ فِي كَيْفِيَّةِ قَتْلِهِ فَمَجْرَدُ نِفْيِ الْقَتْلِ رُبَّمَا أَمَكَّنَ أَنْ يَتَأَوَّلَ فِيهِ بِأَنَّهُمْ مَا قَتَلُوهُ قَتْلًا عَادِيًّا، وَ لَا يَنَافِي ذَلِكَ أَنْ يَكُونُوا قَتَلُوهُ صَلْبًا فَلِذَلِكَ ذَكَرَ تَعَالَى بَعْدَ قَوْلِهِ «وَ مَا قَتَلُوهُ» قَوْلَهُ «وَ مَا صَلَّبُوهُ» لِيُؤدِّيَ الْكَلَامَ حَقَّهُ مِنَ الصَّرَاحِ، وَ يَنْصُ عَلَى أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَتُوفَ بِأَيْدِيهِمْ لَا صَلْبًا وَ لَا غَيْرَ مَصْلُوبًا، بَلْ شَبَّهَ لَهُمْ أَمْرَهُ فَأَخَذُوا غَيْرَ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّيْلَامَ مَكَانَ الْمَسِيحِ فَقَتَلُوهُ أَوْ صَلَّبُوهُ، وَ لَيْسَ مِنَ الْبَعِيدِ عَادَهُ، فَإِنَّ الْقَتْلَ فِي أَمْثَالِ تِلْكَ الْاجْتِمَاعَاتِ الِهْمَجِيَّةِ وَ الِهْجَمَةِ وَ الْغَوْغَاءِ رُبَّمَا أَخْطَأَ الْمَجْرِمُ الْحَقِيقِي إِلَى غَيْرِهِ وَ قَدْ قَتَلَ الْجُنْدِيُّونَ مِنَ الرُّومِيِّينَ، وَ لَيْسَ لَهُمْ مَعْرِفَةٌ بِحَالِهِ عَلَى نَحْوِ الْكَمَالِ فَمِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَأْخُذُوا مَكَانَهُ غَيْرَهُ، وَ مَعَ ذَلِكَ فَقَدْ وَرَدَتْ رَوَايَاتُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَلْقَى شَبَّهُهُ عَلَى غَيْرِهِ فَأَخَذَ وَ قَتَلَ مَكَانَهُ.

و قوله: وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ أَى اخْتَلَفُوا فِي عِيسَى أَوْ فِي قَتْلِهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ أَى فِي جَهْلِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَمْرِهِ «وَ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَ هُوَ التَّخْمِينُ أَوْ رَجْحَانٌ مَا بِحَسَبِ مَا أَخَذَهُ بَعْضُهُمْ مِنْ أَفْوَاهِ بَعْضٍ.

وقوله: وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا أى ما قتلوه قتل يقين أو ما قتلوه أخبرك خبر يقين، و ربما قيل: إن الضمير فى قوله «وَمَا قَتَلُوهُ» راجع الى العلم أى ما قتلوا العلم يقينا. و قتل العلم لغه تمحيضه و تخليصه من الشك و الريب، و ربما قيل: إن الضمير يعود الى الظن أى ما مَحَضُوا ظَنَّهُمْ و ما تثبتوا فيه، و هذا المعنى على تقدير ثبوته معنى غريب لا يحمل عليه لفظ القرآن.

قوله تعالى: بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا و قد قص الله سبحانه هذه القصة فى سورة آل عمران فقال: إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ارْقُطْ فَرَأَيْتَكَ إِلَىٰ (آل عمران ٥٥) فذكر التوفى ثم الرفع.

قوله تعالى: وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا. «إِنْ» نافية و المبتدأ محذوف يدل عليه الكلام فى سياق النفى، و التقدير: و إن أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن، و الضمير فى قوله «بِهِ» و قوله «يَكُونُ» راجع الى عيسى، و أما الضمير فى قوله «قَبْلَ مَوْتِهِ» ففيه خلاف.

و الذى ينبغى التدبر و الإمعان فيه هو أن وقوع قوله «و يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا» فى سياق قوله «وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا» ظاهر فى أن عيسى شهيد على جميعهم يوم القيامة كما أن جميعهم يؤمنون به قبل الموت، و قد حكى سبحانه قول عيسى فى خصوص هذه الشهادة على وجه خاص، فقال عنه: وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلَيَّ كُلُّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (المائدة ١١٧).

فقصير عليه السلام شهادته فى أيام حياته فيهم قبل توفيه، و هذه الآية أعنى قوله «وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا» الخ؛ تدل على شهادته على جميع من يؤمن به فلو كان المؤمن به هو الجميع كان لا يزمه أن لا يتوفى إلا بعد الجميع، و هذا ينتج المعنى الثانى، و هو كونه عليه السلام حيا بعد، و يعود إليهم ثانيا حتى يؤمنوا به. نهايه الأمر أن يقال: إن من لا يدرك منهم رجوعه إليهم ثانيا يؤمن به عند

موته، و من أدرك ذلك آمن به إيماناً اضطراراً أو اختياراً.

على أن الأنسب بوقوع هذه الآية «وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ» ، فيما وقع فيه من السياق أعنى بعد قوله تعالى «وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ -إلى أن قال- بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا» أن تكون الآية في مقام بيان أنه لم يمت وأنه حتى بعد اذ لا يتعلق ببيان إيمانهم الاضطرارى وشهادته عليهم في غير هذه الصورة غرض ظاهر.

فهذا الذى ذكرناه يؤيد كون المراد بإيمانهم به قبل الموت إيمانهم جميعاً به قبل موته عليه السلام.

و بالجمله، الذى يفيد التدبير فى سياق الآيات و ما ينضم إليها من الآيات المربوطه بها هو أن عيسى عليه السلام لم يتوفى بقتل أو صلب و لا بالموت حتف الأنف على نحو ما نعرفه من مصداقه - كما تقدمت الإشارة إليه - وقد تكلمنا بما تيسر لنا من الكلام فى قوله تعالى: يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ إِنِّي فَتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ (آل عمران ٥٥) فى الجزء الثالث من هذا الكتاب.

قوله تعالى: فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ الْفَاءَ لِلتَّفْرِيعِ، وقد نكر لفظ الظلم و كأنه للدلاله على تفخيم أمره أو للإبهام، اذ لا يتعلق على تشخيصه غرض مهم و هو بدل مما تقدم ذكره من فجائعهم غير أنه ليس بدل الكل من الكل كما ربما قيل، بل بدل البعض من الكل، فإنه تعالى جعل هذا الظلم منهم سبباً لتحريم الطيبات عليهم، و لم تحرم عليهم إلا فى شريعته موسى المنزله فى التوراه، و بها تختتم شريعته موسى، و قد ذكر فيما ذكر من فجائعهم و مظالمهم أمور جرت و وقعت بعد ذلك كالبهتان على مريم و غير ذلك.

فالمراد بالظلم بعض ما ذكر من مظالمهم الفجيعه فهو السبب لتحريم ما حرم عليهم من الطيبات بعد إحلالها.

ثم ضم الى ذلك قوله «وَبَصَدَّهُمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا» و هو إعراضهم المتكرر عن سبيل الله

«وَ أَخَذِهِمُ الرِّبَا وَ قَدْ نُهِوا عَنْهُ وَ أَكَلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ» .

قوله تعالى: وَ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا معطوف على قوله «حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ» فقد استوجبوا بمظالمهم من الله جزاءين: جزاء دنيوى عام و هو تحريم الطيبات، و جزاء أخروى خاص بالكافرين منهم و هو العذاب الأليم.

قوله تعالى: لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ الْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَ مَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ اسْتِثْنَاءً وَ اسْتِدْرَاكًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، «وَ الرَّاسِخُونَ» و ما عطف عليه مبتدأ و «يُؤْمِنُونَ» خبره، و قوله «مِنْهُمْ» متعلق بالراسخون و «مِنْ» فيه تبعيضيّه.

و الظاهر أن «الْمُؤْمِنُونَ» يشارك «الرَّاسِخُونَ» فى تعلق قوله «مِنْهُمْ» به معنى و المعنى:

لكن الراسخون فى العلم و المؤمنون بالحقيقه من أهل الكتاب يؤمنون بك و بما أنزل من قبلك، و يؤيده التعليل الآتى فى قوله «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَلِمًا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ» الخ؛ فإن ظاهر الآيه كما سيأتى بيان أنهم آمنوا بك لما وجدوا أن نبوتك و الوحي الذى أكرمناك به يماثل الوحي الذى جاءهم به الماضون السابقون من أنبياء الله: نوح و النبيون من بعده، و الأنبياء من آل إبراهيم، و آل يعقوب، و آخرون ممن لم نقصصهم عليك من غير فرق.

و هذا المعنى - كما ترى - أنسب بالمؤمنين من أهل الكتاب أن يوصفوا به دون المؤمنين من العرب الذين وصفهم الله سبحانه بقوله: لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (يس / ٦).

و قوله «وَ الْمُتَّقِينَ الصَّلَاةَ» معطوف على «الرَّاسِخُونَ» و منصوب على المدح، و مثله فى العطف قوله «وَ الْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ» و قوله «وَ الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ» مبتدأ خبره قوله «أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ عَظِيمًا» و لو كان قوله «وَ الْمُتَّقِينَ الصَّلَاةَ» مرفوعا كما نقل عن مصحف ابن مسعود كان هو ما عطف عليه مبتدأ خبره قوله «أُولَئِكَ» .

و بالجمله قوله «لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» استثناء من أهل الكتاب من حيث لازم سؤالهم

النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم أن ينزل عليهم كتابا من السماء كما تقدم أن لازم سؤالهم ذلك أن لا يكفى ما جاءهم النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم من الكتاب و الحكمه المصدقين لما أنزل من قبله من آيات الله على أنبيائه و رسله، فى دعوتهم الى الحق و إثباته، مع أنه صَلَّى الله عليه و آله و سلم لم يأتهم إلا مثل ما أتاهم به من قبله من الأنبياء، و لم يعيش فيهم و لم يعاشرهم إلا بما عاشوا به و عاشروا به كما قال تعالى: قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِّنَ الرُّسُلِ (الأحقاف ٩) و قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَسِئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ -الى أن قال- لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (الأنبياء ١٠).

فذكر الله سبحانه فى فصل من القول: إن هؤلاء السائلين و هم أهل الكتاب ليست عندهم سجيته اتباع الحق و لا ثبات و لا عزم و لا رأى، و كم من آيه بينه ظلموها، و دعوه حق صدوا عنها، إلا أن الراسخين فى العلم منهم لما كان عندهم ثبات على علمهم و ما وضح من الحق لديهم، و كذا المؤمنون حقيقه منهم لما كان عندهم سجيته اتباع الحق يؤمنون بما أنزل إليك و ما أنزل من قبلك لما وجدوا أن الذى نزل إليك من الوحي يماثل ما نزل من قبلك على سائر النبيين: نوح و من بعده.

و من هنا يظهر (أولاً) وجه توصيف من اتبع النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم من أهل الكتاب بالراسخين فى العلم و المؤمنين، فإن الآيات السابقه تقص عنهم أنهم غير راسخين فيما علموا غير مستقرين على شىء من الحق و إن استوثق منهم بأغلظ المواثيق، و أنهم غير مؤمنين بآيات الله صادون عنها و إن جاءتهم البيّنات، فهؤلاء الذين استثناهم الله راسخون فى العلم أو مؤمنون حقيقه.

و (ثانياً) وجه ذكر ما أنزل قبلاً مع القرآن فى قوله «يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ» لأن المقام مقام نفى الفرق بين القبيلين.

و (ثالثاً) أن قوله فى الآيه التاليه «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا» الخ؛ فى مقام التعليل لإيمان هؤلاء المستثنين.

قوله تعالى: **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ فِي مَقَامِ التَّعْلِيلِ** لقوله «يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ» كما عرفت أنفاساً. ومحصيل المعنى -والله أعلم- أنهم آمنوا بما أنزل إليك لأننا لم نؤتك أمراً مبتدعاً يختص من الدعاوى والجهات بما لا يوجد عنك غيرك من الأنبياء السابقين، بل الأمر على نهج واحد لا اختلاف فيه، فإننا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبين من بعده، ونوح أول نبي جاء بكتاب وشريعته، وكما أوحينا إلى إبراهيم ومن بعده من آله، وهم يعرفونهم ويعرفون كيفية بعثتهم ودعوتهم، فمنهم من أوتى بكتاب كداود وأتى زبوراً وهو وحى نبوى، وموسى أوتى التكليم وهو وحى نبوى، وغيرهما كإسماعيل وإسحاق ويعقوب أرسلوا بغير كتاب، وذلك أيضاً عن وحى نبوى.

ويجمع الجميع أنهم رسل مبشرون بثواب الله منذرون بعذابهن، أرسلهم الله لإتمام الحجج على الناس ببيان ما ينفعهم وما يضرهم في أخراهم وديانهم لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

قوله تعالى: **وَ الْأَشْيَاءِ بَاطِلٍ تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَشْيَاءِ بَاطِلٍ (آل عمران / ٨٤)** أنهم أنبياء من ذرية يعقوب أو من أسباط بنى إسرائيل.

قوله تعالى: **وَ آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا قِيلَ إِنَّهُ بِمَعْنَى الْمَكْتُوبِ مِنْ قَوْلِهِمْ: زَبْرَهُ أَيْ كَتَبَهُ فَالزَّبُورُ بِمَعْنَى الْمَزْبُورِ.**

قوله تعالى: **رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ** أحوال ثلاثة أو الأول حال والأخير ان وصفان له. وقد تقدم استيفاء البحث عن معنى إرسال الرسل وتمام الحجج من الله على الناس، وأن العقل لا يغنى وحده عن بعثه الأنبياء بالشرائع الإلهية في الكلام على قوله تعالى: **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً (البقرة ٢١٣)** في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

قوله تعالى: **وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** و إذا كانت له العزه المطلقه والحكمه المطلقه استحال أن يغلبه أحد بحجه بل له الحججه البالغه، قال تعالى: **قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ**

قوله تعالى: لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ، استدراك آخر فى معنى الاستثناء المنقطع من الرد المتعلق بسؤالهم النبى صلى الله عليه وآله وسلم تنزيل كتاب إليهم من السماء، فإن الذى ذكر الله تعالى فى رد سؤالهم بقوله «فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ» (الى آخر الآيات)؛ لآزم معناه أن سؤالهم مردود إليهم، لأن ما جاء به النبى صلى الله عليه وآله وسلم بوحي من ربه لا- يغير نوعا ما جاء به سائر النبيين من الوحي، فمن ادعى أنه مؤمن بما جاءوا به فعليه أن يؤمن بما جاء به من غير فرق.

ثم استدرك عنه بأن الله مع ذلك يشهد بما أنزل على نبيه و الملائكة يشهدون و كفى بالله شهيدا.

و متن شهادته قوله «أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ» فإن مجرد النزول لا- يكفى فى المدعى، لأن من أقسام النزول النزول بوحي من الشياطين، بأن يفسد الشيطان أمر الهدايه الإلهيه فيضع سبيلا- باطلا مكان سبيل الله الحق، أو يخلط فيدخل شيئا من الباطل فى الوحي الإلهي الحق فيختلط الأمر، كما يشير الى نفيه بقوله: عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيُعَلِّمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتٍ رَبِّهِمْ وَ أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَ أَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (الجن ٢٨) و قال تعالى: وَ إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ (الأنعام ١٢١).

و بالجملة فالشهادة على مجرد النزول أو الإنزال لا يخرج الدعوى عن حال الإبهام، لكن تقييده بقوله «بِعِلْمِهِ» يوضح المراد كل الوضوح، و يفيد أن الله سبحانه أنزله الى رسوله و هو يعلم ما ذا ينزل، و يحيط به و يحفظه من كيد الشياطين.

و اذا كانت الشهادة على الإنزال، و الإنزال إنما هو بواسطة الملائكة كما يدل عليه قوله تعالى: مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ (البقره ٩٧) و قال تعالى فى وصف هذا

الملك المكرم: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثُمَّ أَمِينٍ (التكوير ٢١) فدل على تحت أمره ملائكة اخرى وهم الذين ذكره اذ قال: كَلَّا- إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَيِّفَةٍ كَرَامٍ بَرَزَهُ (عبس ١٦).

و بالجمله لكون الملائكة وسائط في الإنزال فهم أيضا شهداء كما أنه تعالى شهيد و كفى بالله شهيدا.

و الدليل على شهادته تعالى ما أنزله في كتابه من آيات التحدى كقوله تعالى: قُلْ لئن اجتمعت الإنس و الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله و لو كان بعضهم لبعض ظهيرا (الإسراء ٨٨) و قوله: أ فلا يتدبرون القرآن و لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا (النساء ٨٢)، و قوله: فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ (يونس ٣٨).

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا لَمَا ذَكَرَ تَعَالَى الْحُجَّةَ الْبَالِغَةَ فِي رِسَالِهِ نَبِيِّهِ وَ نَزَلَ كِتَابَهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، و أنه من سنخ الوحي الذي اوحى الى النبيين من قبله و أنه مقرون بشهادته و شهادته ملائكته و كفى به شهيدا حقق ضلال من كفر به و أعرض عنه كائنا من كان من أهل الكتاب.

و في الآيه تبديل الكتاب الذي كان الكلام في نزوله من عند الله بسبيل الله حيث قال «وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» و فيه إيجاز لطيف كأنه قيل: إن الذين كفروا و صدوا عن هذا الكتاب و الوحي الذي يتضمنه فقد كفروا و صدوا عن سبيل الله، و الذين كفروا و صدوا عن سبيل الله، الخ.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ الْخ؛ تحقيق و تثبيت آخر مقامه التأكيد من الآيه السابقه، و على هذا يكون المراد بالظلم هو الصد عن سبيل الله كما هو ظاهر.

و يمكن أن يكون الآيه فى مقام التعليل بالنسبه الى الآيه السابقه، يبين فيها وجه ضلالهم البعيد، و المعنى ظاهر (١).

[سوره النساء (٤): الآيات ١٧٠ الى ١٧٥]

اشاره

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمْتَهُ آفَاقًا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١) لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧٣) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةِ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَ يَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (١٧٥)

ص: ٨٠٩

(١ - ١). النساء ١٥٣-١٦٩: بحث روائى فى: نزول عيسى عليه السلام عند ظهور المهدي عليه السلام.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ، خطاب عام لأهل الكتاب وغيرهم من الناس كافة، متفرّع على ما مر من البيان لأهل الكتاب، وإنما عمم الخطاب لصلاحه المدعو إليه وهو الإيمان بالرسول كذلك لعموم الرسالة.

وقوله «خَيْرًا لَكُمْ» حال من الإيمان وهي حال لازمه أى حال كون الإيمان من صفته اللازمه أنه خير لكم.

وقوله «وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»، أى إن تكفروا لم يزد كفركم عليكم شيئاً، ولا ينقص من الله سبحانه شيئاً، فإن كل شيء مما فى السماوات والأرض لله فمن المحال ان يسلب منه تعالى شيء من ملكه فإن فى طباع كل شيء مما فى السماوات والأرض أنه لله لا شريك له فكونه موجوداً وكونه مملوكاً شيء واحد بعينه، فكيف يمكن أن ينزع من ملكه تعالى شيء وهو شيء؟

والآية من الكلمات الجامعه التى كلما أمعت فى تدبرها أفادت زياده لطف فى معناها، وسعه عجيبه فى تبيانها، فأحاطه ملكه تعالى على الاشياء وآثارها تعطى فى الكفر والإيمان والطاعة والمعصية معانى لطيفه، فعليك بزياده التدبر فيها.

قوله تعالى: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ، ظاهر الخطاب بقرينه ما يذكر فيه من أمر المسيح عليه السلام أنه خطاب للنصارى، وإنما خوطبوا بأهل الكتاب - وهو وصف مشترك - اشعاراً بأن تسميهم بأهل الكتاب يقتضى أن

لا يتجاوزوا حدود ما أنزله الله و بينه في كتبه، و مما بينه أن لا يقولوا عليه الا الحق.

و ربما أمكن أن يكون خطابا لليهود و النصارى جميعا، فإن اليهود أيضا كالنصارى في غلوهم في الدين، و قولهم على الله غير الحق، كما قال تعالى: وَ قَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيُّرُ ابْنُ اللَّهِ (التوبة ٣٠)، و قال تعالى: اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ (التوبة/ ٣١)، و قال تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ -الى أن قال- وَ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ (آل عمران ٦٤).

و على هذا فقوله «إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ» الخ؛ تخصيص في الخطاب بعد التعميم أخذًا بتكليف طائفه من المخاطبين بما يخص بهم.

هذا، لكن يبعده أن ظاهر السياق كون قوله «إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ» ، تعليلا لقوله «لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ» ، و لازمه اختصاص الخطاب بالنصارى و قوله «إِنَّمَا الْمَسِيحُ» أى المبارك «عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ» تصريح بالاسم و اسم الام ليكون أبعده من التفسير و التأويل بأى معنى مغاير، و ليكون دليلا على كونه انسانا مخلوقا كأى انسان ذى ام. «كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ» تفسير لمعنى الكلمه، فإنه كلمه «كن» التى ألقيت الى مريم البتول، لم يعمل فى تكونه الاسباب العاديه كالنكاح و الاب، قال تعالى: إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (آل عمران ٤٧) فكل شىء كلمه له تعالى غير أن سائر الاشياء مختلطة بالاسباب العاديه، و الذى اختص لاجله عيسى عليه السلام بوقوع اسم الكلمه هو فقدانه بعض الاسباب العاديه فى تولده «وَ رُوحٌ مِنْهُ» و الروح من الامر، قال تعالى: قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي (الإسراء ٨٥) و لما كان عيسى عليه السلام كلمه «كن» التكوينية و هى أمر فهو روح.

و قد تقدم البحث عن الآيه فى الكلام على خلقه المسيح فى الجزء الثالث من هذا الكتاب.

قوله تعالى: فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لَا تَقُولُوا ثَلَاثَهُ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ تَفْرِيعٌ عَلَى صَدْرِ الْكَلَامِ بِمَا أَنَّهُ مَعْلَلٌ بِقَوْلِهِ: «إِنَّمَا الْمَسِيحُ» الخ؛ أى فاذا كان كذلك

وجب عليكم الإيمان على هذا النحو، و هو أن يكون إيماننا بالله بالربوبية و لرسله- و منهم عيسى- بالرساله، و لا تقولوا ثلاثه انتهوا حال كون الانتهاء أو حال كون الإيمان بالله و رسله و نفى الثلاثه خيرا لكم.

و الثلاثه هم الاقانيم الثلاثه: الاب و الابن و روح القدس، و قد تقدم البحث عن ذلك في الآيات النازله في أمر المسيح عليه السلام من سوره آل عمران.

قوله تعالى: سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، السبحان مفعول مطلق مقدر الفعل، يتعلق به قوله «أَنْ يَكُونَ»، و هو منصوب بنزع الخافض، و التقدير: اسبحه تسيبحا و انزهه تنزيها من أن يكون له ولد، و الجملة اعتراض مأتى به للتعظيم.

و قوله «لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» حال أو جملة استئناف، و هو على أى حال احتجاج على نفى الولد عنه سبحانه، فإن الولد كيفما فرض هو الذى يماثل المولد فى سنخ ذاته متكونا منه، و اذا كان كل ما فى السماوات و الارض مملوكا فى أصل ذاته و آثاره لله تعالى و هو القيوم لكل شىء و وحده فلا يماثله شىء من هذه الاشياء فلا ولد له.

و المقام مقام التعميم لكل ما فى الوجود غير الله عز اسمه و لازم هذا أن يكون قوله «مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» تعبيرا كنائيا عن جميع ما سوى الله سبحانه اذ نفس السماوات و الارض مشموله لهذه الحججه، و ليست مما فى السماوات و الارض بل هى نفسها.

ثم لما كان ما فى الآيه من امر و نهى هدايه عامه لهم الى ما هو خير لهم فى دنياهم و اخرهم ذيل الكلام بقوله «وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا» اى وليا لشئونكم، مدبرا لاموركم، يهديكم الى ما هو خير لكم و يدعوكم الى صراط مستقيم.

قوله تعالى: لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ احتجاج آخر على نفى الوهيه المسيح عليه السلام مطلقا سواء فرض كونه ولدا أو أنه

ثالث ثلاثة، فإن المسيح عبد لله لن يستنكف أبداً عن عبادته، وهذا مما لا ينكره النصارى، و الأناجيل الدائرة عندهم صريحه في أنه كان يعبد الله تعالى، ولا معنى لعباده الولد الذى هو سنخ إله ولا لعباده الشئ لنفسه ولا لعباده أحد الثلاثة لثالثها الذى ينطبق وجوده على كل منها، وقد تقدم الكلام على هذا البرهان فى مباحث المسيح عليه السلام.

وقوله «وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ» تعميم للكلام على الملائكة لجريان الحجة بعينها فيهم، وقد قال جماعه من المشركين - كمشركى العرب - بكونهم بنات الله، فالجمله استطراديه.

والتعبير فى الآيه أعنى قوله «لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ» عن عيسى عليه السلام بالمسيح، وكذا توصيف الملائكة بالمقربين مشعر بالعليه لما فيهما من معنى الوصف، أى إن عيسى لن يستنكف عن عبادته وكيف يستنكف وهو مسيح مبارك؟ ولا الملائكة وهم مقربون؟ ولو رجي فيهم أن يستنكفوا لم يبارك الله فى هذا ولا قرب هؤلاء، وقد وصف الله المسيح أيضا بأن مقرب فى قوله: «وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ» (آل عمران ٤٥).

قوله تعالى: «وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا» حال من المسيح والملائكة وهو فى موضع التعليل أى وكيف يستنكف المسيح والملائكة المقربون عن عبادته والحال أن الذين يستنكفون عن عبادته ويستكبرون من عباده من الانس والجن والملائكة يحشرون إليه جميعا، فيجزون حسب أعمالهم، والمسيح والملائكة يعلمون ذلك ويؤمنون به ويتقونه.

ومن الدليل على أن قوله «وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ» الخ؛ فى معنى أن المسيح والملائكة المقربين عالمون بأن المستنكفين يحشرون اليه قوله «وَيَسْتَكْبِرْ» إنما قيد به قوله «وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ» لأن مجرد الاستنكاف لا يوجب السخط الإلهى اذا لم يكن عن استكبار كما فى الجهلاء والمستضعفين، وأما المسيح والملائكة فان استنكافهم لا يكون إلا عن استكبار

لكونهم عالمين بمقام ربهم، ولذلك اکتفى بذكر الاستنكاف فحسب فيهم، فيكون معنى تعليل هذا بقوله «وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ»، أنهم عالمون بأن من يستنكف عن عبادته، الخ.

وقوله «جَمِيعاً» أى صالحا و طالحا و هذا هو المصحح للتفضيل الذى يتلوه من قوله «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» الخ.

قوله تعالى: وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا[□] التعرض لنفى الولى و النصير مقابله لما قيل به من الوهيه المسيح و الملائكه.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا[□] قال الراغب: البرهان بيان للحجه، و هو فعلان مثل الرجحان و الثنيان. و قال بعضهم: هو مصدر بره يبره اذا ابيض. انتهى، فهو على أى حال مصدر. و ربما استعمل بمعنى الفاعل كما اذا اطلق على نفس الدليل و الحججه.

و المراد بالنور هو القرآن لا- محاله بقريته قوله «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ» و يمكن أن يراد بالبرهان أيضا ذلك، و الجملتان اذا تؤكد إحداهما الاخرى.

و يمكن أن يراد به النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و يؤيده وقوع الآيه فى ذيل الآيات المبينه لصدق النبى فى رسالته، و نزول القرآن من عند الله تعالى، و كون الآيه تفريرا لذلك و يؤيده أيضا قوله تعالى فى الآيه التاليه «وَاعْتَصِمُوا بِهِ» لما تقدم فى الكلام على قوله: وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (آل عمران ١٠١/١) أن المراد بالاعتصام الأخذ بكتاب الله و الانبعا لرسوله صلى الله عليه و آله و سلم.

قوله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ[□]، بيان لثواب من أتبع برهان ربه و النور النازل من عنده.

و الآيه كأنها منتزعه من الآيه السابقه المبينه لثواب الذين آمنوا و عملوا الصالحات أعنى

قوله «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ»، و لعله لذلك لم يذكر هاهنا جزء المتخلف من تبعيه البرهان و النور، لأنه بعينه ما ذكر في الآيه السابقه، فلا- حاجه الى تكراره ثانيا بعد الإشعار بأن جزء المتبعين هاهنا جزء المتبعين هنالك، و ليس هناك إلا فريقان: المتبعون و المتخلفون.

و على هذا فقوله في هذه الآيه «فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ» يحاذى قوله في تلك الآيه «فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ» و هو الجنه، و أيضا قوله في هذه الآيه «وَفَضْلٍ» يحاذى قوله في تلك الآيه «وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ» و أما قوله «وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا» فهو من آثار ما ذكر فيها من الاعتصام بالله كما في قوله: «وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (آل عمران ١٠١).

[سوره النساء (٤): آيه ١٧٦]

اشاره

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَ لَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَ هُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَ إِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَ نِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦)

بيان:

قوله تعالى: يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ، قد تقدم الكلام في معنى الاستفتاء و الإفتاء و معين الكلاله في الآيات السابقه من السوره.

و قوله «لَيْسَ لَهُ وَوَدَّ» ظاهره الأعم من الذكر و الانثى على ما يفيدہ إطلاق الولد وحده.

و قال فى المجمع: فمعناه: ليس له ولد و لا والد، و إنما أضممرنا فيه الوالد للإجماع، انتهى. و لو كان لأحد الأبوين وجود لم تخل الآيه من ذكر سهمه فالمفروض عدمهما.

و قوله «وَلَهُ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَ هُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَوَدَّ» سهم الاخت من أخيها، و الأخ من اخته، و منه يظهر سهم الاخت من اختها و الأخ من أخيه، و لو كان للفرضين الأخيرين فريضه اخرى لذكرت.

على أن قوله «وَ هُوَ يَرِثُهَا» فى معنى قولنا: لو انعكس الامر- أى كان الأخ مكان الاخت- لذهب بالجميع، و على أن قوله «فَإِنْ كَانَتْ أُخْتَيْنِ فَلَهُمَا التُّلْثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَ إِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَ نِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ» و هو سهم الاختين، و سهم الإخوه لم يقيد فيهما الميت بكونه رجلا أو امرأه فلا دخل لذكور الميت و انوثته فى السهام.

و الذى صرحت به الآيه من السهام سهم الاخت الواحده، و الأخ الواحد، و الاختين، و الإخوه المختلطه من الرجال و النساء، و من ذلك يعلم سهام باقى الفروض: منها: الاخوان، يذهبان بجميع المال و يقتسمان بالسويه يعلم ذلك من ذهاب الاخ الواحد بالجميع، و منها الاخ الواحد مع اخت واحد، و يصدق عليهما الإخوه كما تقدم فى أول السوره فيشملة «وَ إِنْ كَانُوا إِخْوَةً» على أن السنه مبينه لجميع ذلك.

و السهام المذكوره تختص بما اذا كان هناك كلاله الاب وحده، أو كلاله الابوين وحده، و أما اذا اجتمعا كالاخت لابوين مع الاخت لاب لم ترث الاخت لاب. و قد تقدم ذكره فى الكلام على آيات أول السوره.

قوله تعالى: يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا، أى حذر أن تضلوا أو لثلاثا تضلوا، و هو شائع فى الكلام، قال عمرو بن كلثوم:

فَعَجَّلْنَا الْقُرَى أَنْ تَشْتَمُونَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة (sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
الغمامة اصحمان



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩